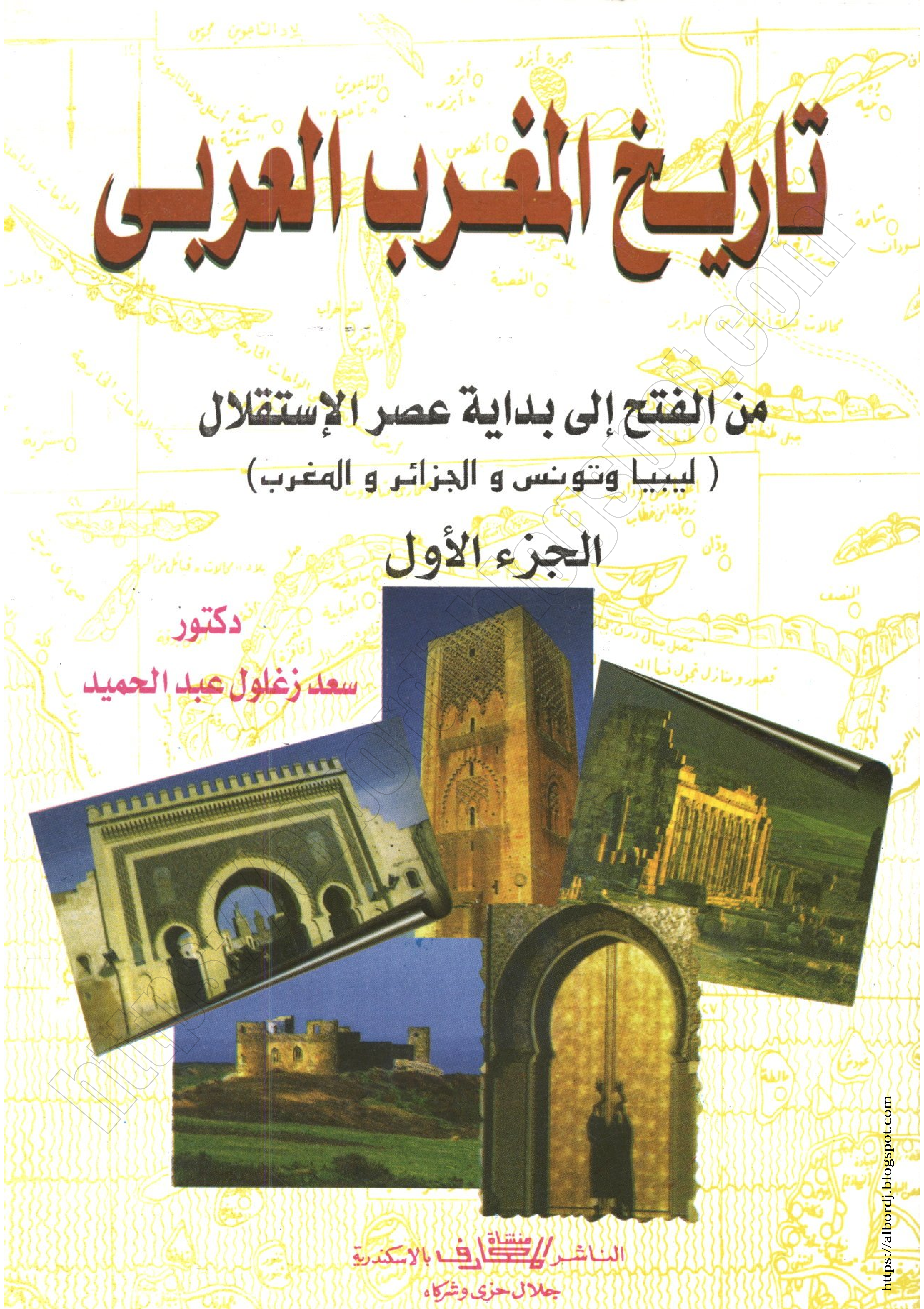
تاريخ المغرب العربى

من الفتح إلى بداية عصر الإستقلال

(ليبيا وتونس و الجزائر و المغرب)

الجزء الأول

دكتور
سعد زغلول عبد الحميد



الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه

تاريخ المغرب العربي

١

من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال

(ليبيا وتونس والجزائر والمغرب)

دكتور
سعد زغلول عبد الحميد
أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الإسكندرية سابقاً
أستاذ بكلية الآداب جامعة الكويت

١٩٩٣

الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب

« قرآن كريم ، سورة يوسف »
آية ١١١

محتويات الجزء الأول

الباب الأول

الباب الثانى

الفصل الأول

الفصل الثاني

الاستقرار الفتح الدائم (٥٠ ــ ٩٥ هـ/ ٦٧٠ ــ ٧١٣ م)

الباب الثالث

الادارة الأموية

الباب الرابع

ما بين الاستقلال والتبعية للخلافة

الفصل الأول

الفصل الثانى

العصر الذهبي للخوارج

الفصل الثالث

المهلبيون في افريقية

الأشكال والخرائط

المقدمة

في أواخر سنة ١٩٦٤ أخرجنا كتاب تاريخ المغرب العربي : ليبيا وتونس والجزائر و « المغرب » من الفتح العربي الى قيام دول الاغالبة والرستميين والادارسة ، مع تقديم لأستاذنا الدكتور أحمد فكري ـ رحمه الله ـ في جزء واحد(١) ، ووعدنا القراء في حينه بأن نتبعه بالجزء الثاني الذي يكمله الى تاريخ الدولة الفاطمية . والآن ، وبعد أن قيض الله لنا انجاز ما كنا نأمله ـ وان كان بعد أكثر من عشر سنوات ـ فأكملنا تاريخ المغرب العربي الى قيام الدولة الفاطمية ، اتضح لنا أنه من غير الموافق أن نخرج الاضافة الجديدة لتكون جزءا ثانيا لكتابنا الأول ، وذلك لعدة أسباب ،ليس أهمها أن الكتاب الأول قد نفد من سوق الكتب ـ منذ وقت طويل .

فالحقيقة أنه يصعب من الناحية الفنية تكملة الكتاب الأول الذي وقفنا فيه عند قيام دول الأغالبة والرستميين والادارسة ، بعد أن قطعنا مرحلة لا بأس بها من تاريخ الدول الثلاث ، بجزء ثان يصبح مبتور البداية ـ وهو العيب الذي لا يعالج الا بتكرار ذلك القسم من تاريخ تلك الدول ، وتلك آفة أخرى . هذا ، كما اقتضت الدراسة الرجوع الى عدد من المصادر الأساسية الخاصة بالموضوعات الجديدة المطروحة في القسم الثاني ، والتي استفدنا بها في مراجعة بعض الموضوعات التي عالجناها في القسم الأول . ويضاف الى ذلك نشر بعض المخطوطات المتعلقة بتاريخ المغرب مما لم يكن في متناول يدينا، والتي لا يجوز اهمالها في الدراسة(٢) ، مما يعني اضافات لا يستهان بها

---

(١) ط . دار المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٥ .
وكان بودنا ان يكون تقديم هذا الكتاب أيضا لأستاذنا الدكتور أحمد فكري ، ولكن حال دون ذلك أجله المحتوم ، اذ وافته منيته ، بعد معاناة شجاعة ذابت لها قلوب تلاميذه ومحبيه ، عشية الجمعة ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٧٥ ـ رحمة الله ورضوانه عليه .

(٢) والمثل لذلك كتاب الحلة السيراء الذي نشره حسين مؤنس في جزءين ، ط . القاهرة ، ١٩٦٣ . وتلك القطعة من كتاب الرقيق القيرواني التي نشرها المنجي الكعبي تحت عنوان تاريخ افريقية والمغرب ، من أواسط القرن الأول الهجري الى أواخر القرن الثاني ، ط

بالنسبة لبعض موضوعات الكتاب الأول •

لكل ذلك رأينا أن يكون عنوان كتابنا الجديد في : تاريخ المغرب العربي من الفتح الى قيام الدولة الفاطمية ، قائما بذاته • وأن يكون في جزئين : أولهما يعالج ، فضلا عن دراسة المصادر والتعريف بالبلاد ، تاريخ الفترة من الفتح الى بدء عصور الاستقلال • وثانيهما يحوي تاريخ الدولة الاغلبية مع فتح صقلية وتاريخها أيام الاغالبة ، وتاريخ كل من دول الرستميين والمدراريين والأدارسة ، بالاضافة الى مرحلة قيام الدولة الفاطمية في المغرب • ونرجو بذلك أن يكتمل محتوى كل من الجزئين ، كما يمكن لنا أن نستمر في اكمال الكتاب بالجزء الثالث — ان شاء الله — تكملة منطقية ، دون حاجة الى بتر أو تكرار •

وهكذا تمتد الدراسة على طول ثلاثة قرون ، نعالج فيهما مرحلتين متكاملتين من مراحل تاريخ المغرب العربي : الأولى منهما تمثل فترة الفتوح التي تكاد تنتهي بنهاية الدولة الأموية في دمشق ، والثانية تمثل عصور الاستقلال الأولى في المغرب التي تبدأ مع قيام الدولة العباسية في بغداد ، وتنتهي بقيام الدولة الفاطمية كخلافة منافسة للخلافة العباسية ، تطالب بشرعية حقها في سيادة العالم العربي الاسلامي •

وتكاد أهمية دراسة هاتين المرحلتين من تاريخ المغرب العربي ، بالنسبة للتاريخ الاسلامي العام ، تتلخص في عدد من أوجه الشبه مع تاريخ الأقاليم الشرقية من دولة الخلافة ، وخاصة في خراسان وما وراء النهر • ففترة الفتوح التي امتدت في المغرب الى فتح الأندلس بعد سنة ٩٠ هـ/٧١٠ م ، تكاد تعادل فترة الفتوح في المشرق : حيث يعتبر فتح بخارى وسمرقند نهائيا في نفس هذا التاريخ (سنة ٩٠ — ٩٢ هـ/٧١١ — ٧١٣ م) ، علامة مميزة في تاريخ العرب في المشرق •

وفيما يتعلق بمرحلة الدول المستقلة التالية في المغرب — وبضمنها الأندلس — نجد أنها تتطابق بشكل ملفت للنظر مع الفترة المناظرة من تاريخ المشرق ، حيث قامت الدول المستقلة ابتداء من عصر المأمون ، وأهمها : الدولة

= ط • تونس ، ١٩٦٧ • وكذلك تاريخ خليفة بن خياط ، أقدم كتب الحوليات التي وصلتنا ، والذي نشر بمعرفة أكرم العمري ، بغداد ١٩٦٨ • هذا الى جانب بعض كتب الاباضية من مطبوعة ومخطوطة ، مثل : تاريخ ابن الصغير ، ط • الجزائر ، أو سير أبي زكريا أو الوسياني ، أو طبقات الدرجيني مما يأتي ذكره •

الطاهرية وما عاصرها من دويلات الصفاريين والسامانيين • وهكذا يكون عصر الدول المستقلة في المغرب وفي المشرق ، هو السمة المميزة لدولة الخلافة العباسية ، اعتبارا من عصرها الأول •

هذا من وجهة النظر العامة ، أما من حيث التفاصيل فلقد أتى دخول أهل المغرب ، وهم البربر ، في الجيش العربي الافريقي أثناء الفتوح ، مقابلا لدخول الترك من أهل المشرق في الجيوش العربية ، تحت قيادة قتيبة بن مسلم فاتح بخارى وسمرقند في بلاد ما وراء النهر ، ونظير موسى بن نصير فاتح الاندلس • ومن جانب الفاتحين العرب فانهم حملوا معهم الى كل من المغرب والمشرق نزاعاتهم العصبية والمذهبية التي عرفوها في بلادهم وفي مركز الدولة ، مما كان له أثره على مسار الأحداث في كل من طرفي دولة الخلافة •

فالنزاع بين القيسية واليمانية الذي ظهر في المغرب ، وخاصـــة في الاندلس كان ينهك قوى العرب في خراسان على أواخر أيام الأمويين • ومذهب الخوارج الذي أضرم نيران الفتنة في المغرب منذ أواخر أيام الأمويين الى أن انتهى باقامة دولة الرستميين في عهد العباسيين ، كانت له حيـــاته السرية والعلنية في المشرق الخراساني حتى أيام دولة الطاهريين ، وعلى أساسه قامت دولة الصفاريين ، وهما الدولتـــان المعاصرتان لكل من دولتي الأغـــالبة والرستميين • أما عن العلويين الحسنيين الذين نجحوا في اقامة دولة الأدارسة في بلاد أوربة ، فكان لهم نجاحهم في المشرق أيضا حيث أقاموا دولة الزيدية الأولى ، في بلاد طبرستان وجرجان ، من حيث أخذت الافكار الشيعية تنتشر في خراسان الطاهرية ، وما وراء النهر السامانية •

وبذلك كانت الأحداث تسير في جناحي دولة الخلافة : الغربي والشرقي بتوافق ايقاعي عجيب • فبينما كانت قوى المعارضة تضعف من شأن الخلافة ، كان نزاعها فيما بينها يحقق نوعا من توازن القوى ، كما يقال الآن ، وهو الأمر الذي يفسر كيف نجحت خلافة العباسيين في البقاء على طول العصور •

وهكذا كانت عوامل الضعف التي عانت منها دولة الخلافة العباسية ، وأهمها : آفتا التفتت السياسي ، والخلاف المذهبي ، تتناقض فيمـــا بينها ، وتؤثر بردود فعلها على حياة المجتمع الكبير • فبينما كان التفتت السياسي يضعف من كيان دولة الخلافة . كان استقلال الأقاليم سببا في قيام قوى

جديدة ، ذات دماء فتية وحيوية شابة ، أخذت على عاتقها احياء العمل السياسى والحضارى الذى قامت به الخلافة فى عصور نهضتها الأولى ٠

ومن هذا يدل أيضا عن الانشقاقات المذهبية ، فرغم انها كانت من أسباب تفتت المجتمع على المستويين : السياسى والدينى ، فان ما ظهر من حرص أبناء كل طائفة من الطوائف المذهبية ، المتفرقين ما بين المغرب والمشرق على اقامة علاقات أخوية وثيقة فيما بينهم ، كان مما حافظ على نوع من الوحدة بين أفراد المجتمع الكبير : فخوارج المغرب كانوا على صلات مستمرة باخوانهم فى المشرق ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للشيعة من العلويين ٠

ولقد ترتب على تلك العلاقات المعقدة فيما بين دول المغرب المستقلة ، فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) الذى ندرسه ، وفيما بينها ودولة الخلافة فى المشرق ، ظاهرة تبدو غير منطقية لأول وهلة ، وهى أهمية الدور الذى قام به المشارقة فى مجريات الأحداث فى بلاد المغرب وقتئذ ، وخاصة فى كل من دولتى الأغالبة والرستميين — ليس على المستوى الثقافى فقط ، بل والسياسى أيضا ٠ فالجند الخراسانى كان له تسلط عظيم فى أحداث أفريقية الأغلبية ، كما تعدى حدودها الى المملكة الادريسية والامامة الرستمية ٠ وفى مقابل الجند الخراسانى كان العجم أو الفرس لهم دور عظيم فى تاريخ الامامة الرستمية ٠ وهذا الأمر يعنى أن العصر العباسى الأول الذى عرف فى المشرق عند المؤرخين بـ « العصر الفارسى » ، كانت له آثاره المباشرة فى المغرب ممثلا فى الأوضاع السياسية والأحوال الحضارية ٠ والأثر الفارسى الذى نشير اليه لا يتضمن التأثير العرقى أو اللغوى على وجه الخصوص ، وذلك أن من يسمون فى افريقية بالجند الخرسانى أو فى مملكة تاهرت بالعجم أو الفرس كانوا أصلا من عرب خراسان الذين دخلوا فى خدمة العباسيين منذ قيام دولتهم ، والذين رغم تأثرهم بالعادات والتقاليد الفارسية ، ظلوا محتفظين بعروبتهم الخالصة ، لا يقلل منها احتفاظهم باسم الخراسانية أو الفرس أو العجم ٠

فكأن المشرق الفارسى كان يمد بلاد المغرب فى القرن الثالث الهجرى (٩ م) ، الى جانب مقوماته الحضارية ، بدماء عربية جديدة ، غير تلك التى جاء بها الغازون من بلاد العرب الأصلية ، من أعداء العباسيين ، أو من القبائل العربية المهاجرة التى انغلقت أمامها أبواب المشرق الايرانى ، فلم يبق لها من سبيل الا الى المغرب ، وكذلك الأمر بالنسبة للاندلس التى كان يعد عربها أيضا الى بلاد البربر ٠ وبذلك بقى تيار الهجرة العربية ممنوحا نحو المغرب

في الوقت الذي أخذت أبواب المشرق تنغلق أمام العرب ، شيئا فشيئا بفضل تزايد حركة احياء القومية الفارسية . الى ان انتهى الأمر في القرون التالية الى انقسام العالم العربي الاسلامي ، الى : جناح مشرقي فارسي الصبغة ، وجناح مغربي عربي السداة واللحمة ـ وهو الحال الذي عليه العالم الاسلامي الآن .

وهكذا تتضح أهمية دراسة الفترة المبكرة من تاريخ المغرب العربي بالنسبة لما تلقيه من أضواء على مسار التاريخ الاسلامي العام ، والظروف التي أدت الى تطور المجتمع العربي الاسلامي عبر العصور التاريخية الى ان أصبح على ما هو عليه الآن ، فضلا عما توضحه الدراسة التفصيلية من بيان الظروف المحلية التي كان لها أثرها في تكوين الخصائص المميزة لتاريخ كل اقليم عما يجاوره من البلاد ـ وهذا هو الهدف الأكبر من دراسة التاريخ .

ويحتوي تاريخ المغرب الذي نعالجه في هذا الكتاب عـلى الموضوعات التالية :

(أ) الجزء الأول :

١ ـ المصادر .

٢ ـ التعريف بالبلاد والسكان والأحوال الاجتماعية قبيل الفتـح العربي .

٣ ـ الفتح العربي ما بين الاستكشاف واستقرار العرب في البـلاد (٢٢ هـ/٦٤٣ م ـ ٩٥ هـ/٧١٣ م) .

٤ ـ الادارة الأموية : أخطاؤها ورد الفعل الذي تمثل في حركات الخوارج (١٠١ هـ/٧١٩ م ـ ١٢٢ هـ/٧٤٠ م) .

٥ ـ بلاد المغرب ما بين الاستقلال والتبعية للخلافة عـلى أواخر أيام الأمويين وقيام العباسيين :

(أ) الفهريون بنو عقبة بن نافع في افريقية (١٣٥ هـ/٧٤٣ م ـ ١٣٩ هـ/٧٥٦ م) .

(ب) العصر الذهبي للخـوارج : المغرب ما بين الصفرية والاباضية (١٤٠ هـ/٧٥٧ م ـ ١٥٥ هـ/٧٧٢ م) .

(ج) المهلبيون في افريقية (١٥١ هـ/٧٦٨ م - ١٧٨ هـ/٧٩٤ م) ·

(ب) الجزء الثاني :

١ - الأغالبة في افريقية من ملك ابراهيم بن الأغلب (١٨٤ هـ/٨٠٠ م) الى نهاية زيادة الله الثالث (٢٦٩ هـ/ ٩٠٨ م) ·

٢ - صقلية الأغلبية من الفتح (٢١٢ هـ/٨٢٧ م) الى نهاية الأغالبة (٢٩٦ هـ/٩٠٨ م) ·

٣ - امامة الرستميين الاباضية في تاهرت وجبل نفوسة (١٦١ هـ/ ٧٧٧ م - ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م) ·

٤ - امامة المدراريين الصفرية في سجلماسة (١٤٠ هـ/٧٥٧ م - ٢٩٧ هـ/٩٠٩ م) ·

٥ - مملكة الأدارسة في فاس والمغرب الأوسط (١٧٢ هـ/٧٨٩ م - ٣٠٥ هـ/٩١٧ م) ·

٦ - قيام الدولة الفاطمية وتوحيد المغرب تحت راية المهدي : « خليفة الله » ، أمير المؤمنين (٢٨٠ هـ/٨٩٤ م - ٣٠٥ هـ/٩١٧ م) ·

واذا كنا نطمع في أن يكون التوفيق حليف عملنا هذا . فان الأمانة العلمية تقتضي منا التنويه بأعمال كل من قاموا بدراسة تاريخ المغرب أو موضوعات ذات صلة به من التاريخ العام ، من : الأساتذة الأجلاء والزملاء الأفاضل والتلاميذ النجباء ، ممن عرفناهم بأشخاصهم ، وممن قرأنا لهم - مع اعتذارنا عن اغفال ذكر من سهونا عن ذكره منهم · أما عن العاملين في دور الكتب والمكتبات والمسئولين عنها ، ممن قدموا لنا يد العون والمساعدة ، فهم الجنود المجهولون الذين يقفون وراء هذا العمل وأمثاله · الى جميع هؤلاء نهدي هذا الكتاب . ونعتذر عن عجزنا في ايفاء كل منهم حقه - وان كنا سنحاول الاشارة الى بعضهم في فصل المصادر وفي خلال الدراسة ·

شكرا جزيلا لكل من عاونني في اخراج هذا الكتاب حتى وصل الى يدي القارىء الكريم . وأخص بالذكر الدكتورة نبيلة حسن ، مدرسة التاريخ الاسلامي بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، تلميذتي ، لمعاونتها التي لا تقدر في اعدادي للكتاب ومراجعة طباعته . وكذلك الحال بالنسبة للدكتور محمد عبد العال أحمد مدرس التاريخ الاسلامي بمعهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة ، والأستاذ محمد عبد العزيز محمود مدير متحف الآثار بكلية آداب الاسكندرية ، والأستاذ يوسف شكري مدير الادارة الفنية كلية الآداب بجامعة الاسكندرية لتجشمه عناء اعداد خرائط الادريسي عن بلاد المغرب وصقلية وجنوب ايطاليا .

واخيرا أوجه الشكر للأستاذ جلال حزى الناشر السكندري الذي تفضل مشكورا وأخذ على عاتقه عبء نشر الكتاب .

ونكرر الرجاء في أن يكون التوفيق حليف هذا العمل ، ونأمل في أن يمن الله علينا بما نصبو اليه من اكمال تاريخ المغرب العربي ، وما التوفيق الا من عند الله ـ انه نعم المولى وانعم النصير .

الاسكندرية في ٢٥ يوليه ١٩٧٨

سعد زغلول عبد الحميد

تاريخ المغرب العربي

من الفتح إلى قيام الدولة الفاطمية

المصادر

هامش على منهج البحث :

قد يكون من المناسب في موضوع المصادر أن نبدأ بالاشارة الى أن المادة الموجودة بين أيدينا ، واللازمة للبحث ، قد لا تفي بكتابة تاريخ متكامل العناصر للفترة التي نزمع دراستها ، مما يرضى عنه الباحثون . فالوثائق الرسمية التي يجب أن يكون اعتماد الدارس عليها تكاد تكون مفتقدة بشكل تام ، بينما يقصر الأدب التاريخي ، الذي عليه المعول ، عن أداء الغرض منه بالشكل المرجو وتلك آفة الكتابة في التاريخ الاسلامي بشكل عام . وفي قصور الأدب التاريخي اللازم للبحث يمكن أن نسجل عددا من الملاحظات الهامة بالنسبة لمنهج البحث . فاذا كانت ندرة المادة التاريخية المطلوبة لملء جوانب التاريخ المتعددة ، من : سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وغيرها ، يمكن أن تكون أول ما يعاني منه المؤرخ ، فان ذلك ليس أهم جوانب القصور بشكل أكيد . فالمادة المفتقدة في بعض جوانب البحث قد تكثر وتتشابك في نواح أخرى ، ثم انها كثيرا ما تتضارب فيما بينها ، كما قد تكتنفها الأساطير بطريقة تجعل الوصول الى الحقيقة ، في بعض الأحيان ، وكأنه ضرب من المحال .

وقلة المادة اللازمة للبحث لا تتأتى من افتقادنا للمصادر التي لم يصلنا كثير منها فقط ، اذ أن العديد من المصادر التاريخية أنصب اهتمام أصحابها على نقاط معينة من التاريخ دون غيرها . كما أنه ليس من الضروري أن تكون الأحداث الهامة هي التي أثارت انتباه الكاتب ، اذ الأمر يتعلق بظروفه الحياتية ، وأحواله المزاجية ، ونظرته الذاتية الى مجريات الأمور . واذا كانت المصادر ، باختلاف مادتها ، وتنوع مقاصد أصحابها ، يمكن أن تكمل بعضها بعضا ، فلا شك أن وضع المواد ذات الطبيعة المتباينة جنبا الى جنب ، عند اجراء عملية البناء التاريخية ، لما يضعف من هيكلها . ويظهر ذلك بشكل صارخ عند معالجة تاريخ الجماعات المتنافرة ، مثل : اهل السنة والخوارج والشيعة ، بل انه يظهر بين أفراد الجماعة الواحدة منها عندما تنشق على بعضها ، كما هو الحال بين المالكية والحنفية وبين الاباضية الوهبية والنكارية

أو بين الشيعة الزيدية والاسماعيلية الفاطمية ، مما نشير اليه أثناء الدراسة.

والمهم من هذه الاشارات : ان كل جماعة من تلك الجماعات أخـذت بالروايات التي تناسب أغراضيا وأهواءها ، مما يتعين معه عرض النصوص للنقد ، وتقليب الأمور على وجوهها المختلفه ، قبل ترجيح مقالة على غيرها . وهو الأمر الذي لا يتطلب الصبر على المعاناة فقط ، بل يتطلب الكثير من الخبرة بفهم النصوص ، وشيئا من سلامة الحس وخصوبة الخيال ـ وهو مالا ندعيه لأنفسنا .

في مصادر فتوح العرب في المغرب :

والفترة الاولى من تاريخ المغرب ما زالت بحاجة الى مزيد من الدرس والتقصي ، وعلى وجه أصح الى المزيد من المصادر الجديدة . فالمصادر الأصلية من الأوراق الرسمية التي تعرف بالارشيف (أو الوثائق) ، أو من النقوش والنقود والآثار وغيرها ، قليلة نادرة أو تكاد تكون منعدمة . وبناء على ذلك فنحن نعتمد في دراستنا ـ كما هو الحال بالنسبة لتاريخ الاسلام على وجـه العموم ـ على الأدب التاريخي ، وروايات الكتاب من مؤرخين وغير مؤرخين ، من المتقدمين والمتأخرين .

ولقد أخذ الكتاب الأوائل روايات قدامى الاخباريين ، وهؤلاء نقلوا في أول الأمر أخبارهم شفوية عن شهود العيان أو عمن سمع عنهم من الرواة والقصاص . والرواية الشفوية كثيرا ما تتحـول وتتطور بسبب صعوبة ضبطها ، وتأثرها بالاتجاهات العصبية أو القبلية القديمة ، وبالظـروف السياسية والميول المذهبية ، وكذلك بالعوامل الشخصية والنفسية . وكثيرا ما يبلغ التطور فيها الى درجة تحول الحقيقة التاريخية الى أسطورة أو العكس . وهذا ما يفسر غلبة الأسطورة على كثير من أخبار الفترة الأولى لصدر الاسلام ، وكثرة اختلاف الأخبار عن الحدثة الواحدة ، مما يجعل مهمة المؤرخ المحدث من الصعوبة بمكان . ومع ظهور تلك الصعوبة بشكل واضح عند التأريخ للفتوحات الاسلامية الأولى بعامة ، فانها تظهر بشكل حاد عند التاريخ لفتح المغرب والأندلس بشكل خاص . فالامر لا ينتهي بحيرة المؤرخ ، عند مقابلة الروايات التاريخية المختلفة بعضها بالبعض ، في محاولته معرفة الصحيح منها من غير الصحيح ، بل باضطراره كذلك الى تحليل الروايات ذات الطابع الأسطوري ، وردها الى أصولها التاريخية ان كانت لها أصول .

وهكذا نجد أنفسنا أمام صعوبات ثلاث : أولاها ندرة المصادر ، وثانيتها اضطرابها أو اختلاطها بدرجة تجعل ترتيبها أمرا صـعبا ، وثالثتها غلبة

الأسطورة على كثير منها(١) ٠

الروايات المشرقية :

وأهم مصادر هذه الفترة المبكرة من تاريخ المغرب هي مجموعة الكتب الخاصة بالمغازي أو الفتوح " فأدب المغازي هو أقدم نوع من الأدب التاريخي ، وذلك أن ظهوره كان وثيق الصلة بظهور الاسلام وعصر النبوة ٠ وأول المغازي هي مغازي الرسول ، التي اعتنى بها أصحاب السيرة ثم اتبعوها بمغازي المسلمين في البلدان المفتوحة . فهذه الأخيرة تكملة للأولى ٠ وكتب المغازي هذه تنقسم الى نوعين : الكتب الخاصة بالفتوح العربية عامة ، والكتب المتعلقة بفتوح المغرب خاصة . وهذه الأخيرة أهمها بطبيعة الحال ٠ هذا ولو أن ذلك التقسيم شكلي الى حد كبير ، اذ يشترك النوعان في خاصية واحدة ، وهي انهما من أصل مشرقي(٢) ٠ ونريد بتلك الملاحظة الأخيرة الرد على أولئك الذين يقسمون الروايات الخاصة بفتح المغرب الى نوعين أحدهما مشرقي وثانيهما مغربي محلي ، ويريدون أن يصفوا النوع الأخير بأنه أكثر أصالة أو دقة من الأول ٠ فهذه الملاحظة لا تنطبق الا على العصور التالية ، بعد أن قامت مراكز الحضارة العربية في المغرب والاندلس ، وظهر فيها أجلة العلماء وثقات المؤرخين من المشارقة الذين هاجروا الى المغرب ، أو المغاربة الذين أخذوا العلم من مناهله الأولى في المشرق ٠

ويعتبر ابن اسحق (توفي سنة ١٥١ هـ/٧٦٨ م) أول من كتب في المغازي ، فله الى جانب السيرة عدد من الكتب في المغازي(٣) ، منها : « كتاب

---

(١) انظر للمؤلف ، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية ، مجلة كلية الآداب ، اسكندرية ، سنة ١٩٦٣ ، ص ١ - ٥ ٠

(٢) نكتفي هنا بذكر اقدم مؤرخي الأندلس وهو عبد الملك بن حبيب (١٧٩ - ٢٣٨ هـ/ ٧٩٦ - ٨٥٣ م) الذي رحل الى المشرق ، ودرس الفقه المالكي ، وسمى لقب « عالم الأندلس » وألف كتابا سماه « التاريخ » ولقد تناول هذا الكتاب (الذي زاد فيه الكتاب فيما بعد) تاريخ أمراء الأندلس الى سنة ٢٧٤ هـ/٨٨٧ م ، ولكنه رغم قدمه مليء بالأساطير والخرافات (انظر : Angel Gonzalez Palencia تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، ١٩٥٥ ، ص ١٩٤) ٠ ولقد نشرت منه قطعة صغيرة بمعرفة محمود مكي في مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، عدد ٥ سنة ١٩٥٧ ، النص ، ص ٢٢١ - ٢٤٣ - حيث الرواية الخاصة بفتح اسبانيا أشبه برواية كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة ٠

(٣) عن ابن اسحق انظر الفهرست لابن النديم ، طبعة التجارية ، ص ١٤٢ ، Brockelmann, G.A.L., supp. I p. 205 ولا بأس من الاشارة هنا الى =

فتوح مصر والاسكندرية » . الذى وصلنا — فى شكل رواية قصصية — منسوبا اليه(٤) . ويعتبر الواقدى (توفى سنة ٢٠٧ هـ/٨٢٢ م) أقدم ممثل هذا النوع من الأدب التاريخى ، « فقد كان عالما بالمغازى والسير والفتوح »(٥) . وقد ذكر له عدد من كتب الفتوح والمغازى وصلنا بعضها ، مثل « فتوح الشام » الذى يشك فى صحة نسبته اليه ، وفتوح مصر الذى يكون جزءا من فتوح الشام والذى وصلنا مستقلا فى شكل « كتاب فتوح مصر والاسكندرية »(٦) ، وهو نفس عنوان كتاب ابن اسحق ، وله أيضا كتاب فتح البهنسة وفيوم من أرض مصر(٧) ، وأخيرا ، كتاب فتوح أفريقية » وهو الذى يهمنا .

ومع أنه يوجد عدد من مخطوطات فتوح افريقية هذا فى مكتبات العالم المختلفة(٨) ، ومع أن الكتاب طبع منذ حوالى ثمانين عاما(٩) ، الا أننا لا نجد له ذكرا بين الكتب التى يرجع اليها المشتغلون بتاريخ المغرب العربى .

= بعض معاصرى ابن اسحق ممن اعتنوا بالتدوين التاريخى فى ذلك الوقت المبكر ، وهم الذين يعرفون بالاخباريين (أى رواة الأخبار أو طليعة المؤرخين) والذين اهتموا بالمغازى ، مثل « أبو مخنف لوط بن يحيى بن مخنف بن سليم الأزدى (توفى سنة ١٥٧ هـ/٧٧٣ م) وله فتوح الشام وفتوح العراق (ابن النديم ، الفهرست طبعة التجارية ، ص ١٤٣) ، وسيف بن عمر الأسد التميمى (توفى سنة ١٧٠ هـ/٧٨٦ م) وله كتاب الفتوح الكبير (ابن النديم ، الفهرست ص ١٤٣) . ويأتى بعدهما هشام بن محمد بن السايب الكلبى (توفى سنة ٢٠٦ هـ/ ٨٢١ م) وله كتاب البلدان الكبير وكتاب البلدان الصغير (الفهرست ص ١٤٦ — ١٤٩) ثم المدائنى وهو « أبو الحسن على بن محمد بن عبد الله بن أبى سيف المدائنى » مولى شمس بن عبد مناف (توفى سنة ٢٢٥ هـ/٨٣٩ م) ، وله عدد من الكتب فى فتوح الشام والعراق وفارس وخراسان ومصر وبرقة (الفهرست ص ١٥٣ . وانظر بروكلمان (G.A.L.) الملحق ج ١ ص ٢١٤) . ومصعب بن عبد الله الزبيرى (الفهرست ، ص ١٦٦) ، والزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب بن الزبير (توفى سنة ٢٥٦ هـ/ ٨٧٠ م) (الفهرست ص ١٦٦ ، ١٦٧ ، بروكلمان (G.A.L.) ، ج ١ ص ١٤١) .

(٤) طبعة ليدن .

(٥) الفهرست ، ص ١٥٠ .

(٦) طبعة ليدن ، سنة ١٨٢٥ .

(٧) طبعة القاهرة ، ١٢٨٠ هـ . ١٢٧٨ هـ (قصة البهنسا وما فيها من عجائب ..) ، ومخطوط مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بلندن ، رقم ٦٢٨٦ (أنظر للمؤلف ، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة والأسطورة ، مجلة آداب الاسكندرية ، ١٩٦٣ ، ص ٧) .

(٨) أنظر بروكلمان (G.A.L.) ، الملحق ، ج ١ ص ٢٠٨ .

(٩) طبعة تونس ، سنة ١٣١٥ هـ (بمعرفة عبد الرحمن الصنادلى) .

والظاهر أن ذلك الاهمال وقع لسببين : أولهما شيوع ضياع هذا الكتاب مثل معظم كتب الواقدى التى لم تصل الينا الا منقولة عند من أتى بعده من الكتاب ، وثانيهما أن الطابع الأسطورى والقصصى يغلب فيه على الطابع التاريخى ، مما يجعل الاستفادة منه أمرا صعبا(١٠) • ورغم ما يثيره قدامى الكتاب حول صحة أخبار ابن اسحق وكذلك الواقدى الذى يأخذ عنه(١١) ، ورغم ما يثار من الشك فى صحة نسبة ما وصلنا من كتبهما اليهما ، فنحن نرى أن كتاب الواقدى الأصيل عن « فتوح افريقية » أخذ يتطور مع مرور الوقت حتى وصلنا فى الشكل الأسطورى الذى هو عليه ، وذلك فى ظروف تاريخية حاولنا شرحها فى دراستنا لهذا الكتاب التى جعلنا عنوانها « فتح المغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية » ، دراسة ونقد لمخطوط « فتوح مدينة افريقية » من مخطوطات الواقدى بالمتحف البريطانى(١٢) التى نشير اليها فى بعض المواضع •

أما أقدم وأدق رواية وصلتنا كاملة عن فتح المغرب ، فهى رواية عبد الرحمن بن عبد الحكم (توفى بالفسطاط سنة ٢٥٧ هـ/٨٧١ م) فى كتابه « فتوح مصر والمغرب والأندلس »(١٣) • وأهمية الكتاب تتلخص فى أن ابن

---

(١٠) انظر للمؤلف ، فتح المغرب بين الحقيقة والاسطورة ، ص ٦ (حيث يشير الى أن مؤنس يورد ذكره فى بعض هوامشه ، وكذلك أشار اليه عبد المنعم ماجد فى مراجعه فى « التاريخ الاسلامى للدولة العربية ») •

(١١) عن الشك فى أخبار ابن اسحق أنظر الفهرست لابن النديم ، ص ١٤٢ ، وعن الواقدى نلاحظ أن الطبرى فى كلامه عن الفتوح الأولى والحرب ضد الروم يسبق كثيرا روايته بكلمتى « وزعم الواقدى » (أنظر سنة ٥٢ و ٥٤) أو يلحقها بكلمتى « فى قول الواقدى » (أنظر سنة ٥٨ ، ٦٠) وأنظر السخاوى ، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ طبعة ١٣٤٩ ص ١١٧ حيث يشير الى أن ابن سعد صاحب الطبقات ثقة « وكان شيخه الواقدى ضعيفا » • ونشير هنا الى أن عبد العزيز الدورى يأخذ بالرأى المضاد (أنظر علم التاريخ عند العرب ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ٣٠ـ ٣١) •

(١٢) مجلة كلية الآداب ، المجلد العاشر ، سنة ١٩٦٣ •

(١٣) انظر طبعة ليدن (بمعرفة تورى (Torrey) ، سنة ١٩٢٠ • ولقد طبع هنرى ماسيه Massé القسم الخاص بمصر من الكتاب سنة ١٩١٤ • وأخيرا طبع القسم التاريخى بمعرفة عبد المنعم عامر ، ولكن هذه الطبعة يؤخذ عليها عدد من المآخذ ، منها ما يتعلق بتحقيق النص ومنها ما يتعلق بصحة الهوامش • ونشير هنا الى نقد الدكتور حسين نصار لها فى مجلة « المجلة » العدد ٨٠ السنة السابعة ، أغسطس ١٩٦٣ ص ٩٨ ـ ١٠٣ • وعن تقييم الرواية أنظر للمؤلف : « فتوح المغرب والأندلس فى رواية ابن عبد الحكم » ، (بحث) فى كتاب : « دراسات عن ابن عبد الحكم » ، المكتبة العربية : (ط • وزارة الثقافة القاهرة ، ١٩٧٥) ، ص ١٥٣ ـ ١٩٦ •

عبد الحكم مصري . ومصر كانت قاعدة الفتوح الأولى في المغرب ثم ان المؤلف كان من أسرة كبيرة ضربت بسهم وافر في العلم وشاركت بعمق في أمور السياسة مما عرضها في سنة ٢٣٧ هـ/٥١ ـ ٩٥٢ م ، لمحنة عظيمة(١٤) .
هذا يعني أن ابن عبد الحكم كان في موقف اجتماعي يسمح له بالاطلاع على ديوان الفسطاط ، الذي زخر بالوثائق الرسمية والسجلات الخاصة بفتح مصر والمغرب ، أو الأخذ عن المشايخ الذين رأوا هذه السجلات أو نسخوها .
وأهم ما نقل عنهم ابن عبد الحكم ، هم : ابن لهيعة (توفي سنة ١٧٤ هـ/ ٧٩٠ م(١٥) ، وفقيه مصر وراويتها الليث بن سعد (توفي سنة ١٧٥ هـ/ ٧٩١ م)(١٦) ، ويزيد بن أبي حبيب النوبي الأصل (توفي سنة ١٢٨ هـ/ ٧٤٦ م) ، وهو من ثقات رواة فتوح مصر والمغرب وأستاذ ابن لهيعة والليث ابن سعد ويحيى بن عبد الله بن بكير (توفي سنة ٢٣١ هـ/٨٤٥ م) الذي جمع عددا من السجلات والوثائق في كتاب أهداه لابن عبد الحكم(١٧) ، وعثمان ابن صالح (توفي ٢١٩ هـ/٨٣٤ ـ ٣٥ م) وهو من أهم مصادر ابن عبد الحكم في الجزء التاريخي الخاص بالمغرب ، وعرف باللين والصدق وبأنه لم يكن ممن يكذب(١٨) ، ويحيى بن أيوب (توفي سنة ١٦٣ هـ/٧٧٩ ـ ٨٠ م) ، وخالد ابن حميد (توفي سنة ١٦٩ هـ/٧٨٥ ـ ٨٦ م) ، وعبد الملك بن مسلمة .
وأكثر من نقل عنهم من كل هؤلاء العلماء الذين يكونون أول مدرسة مصرية في التاريخ ، هم : عبد الملك بن مسلمة ، ويحيى بن بكير ثم عثمان بن

---

(١٤) أنظر الكندي ، الولاة والقضاة ، ص ١١٩ ـ ٢٠٠ ، ٢٩٢ ، ٤٥٢ ، مقدمة توري Torrey (بالانجليزية) ، ص ٢ ؛ ومقدمة جاتو Gateau للطبعة الجزئية مع الترجمة الفرنسية ، الجزائر ١٩٤٨ ، ص ١٢ ـ ١٣ . ابراهيم العدوي ، ابن عبد الحكم رائد المؤرخين العرب ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٦ ـ ٣٥ .

(١٥) أنظر عن تقييمه لابن لهيعة الذي غرام مدققا ، يجتهد في أخذ الأخبار من منابعها الأولى ... ، فتوح المغرب والأندلس في روايه ابن عبد الحكم ، ص ١٧٤) .

(١٦) عن علم الليث بن سعد ، يروى عن الشافعي أنه قال : « الليث بن سعد أفقه من مالك الا أن أصحابه لم يقوموا به » (ابن خلكان ، طبعة محيي الدين ، ج ٣ ص ٢٨٠) .
وانظر للمؤلف فتوح المغرب والأندلس في رواية ابن عبد الحكم ص ١٧٥ ـ ١٧٦ .

(١٧) انظر مقدمة توري ، ص ٣ ـ ٦ ، ومقدمة جاتو ، ص ١٨ ، وانظر للمؤلف فتوح المغرب والأندلس في رواية ابن عبد الحكم ، ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .

(١٨) انظر الذهبي ، ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ٣ ص ٣٩ ـ ٤٠ حيث تقييم عثمان بن صالح ، حسب مصطلح الحديث ، ما بين ، « صدوق » و « لين » و « متروك » ، الى جانب شهادة من قال : « لم يكن عثمان عندي ممن يكذب » . وانظر للمؤلف فتوح المغرب والأندلس في روايه ابن عبد الحكم ص ١٦٨ ـ ١٦٩ ، مقدمة جاتو ، ص ٢١ .

صالح(١٩) ٠

والى جانب ذلك نقل ابن عبد الحكم كثيرا من الروايات والقصص الشعبية التى كانت متداولة بين أهل مصر سواء عن فتـــوح مصر والمغرب ، أو عن التنظيمات الادارية والخطط ٠ ومن هنا تزداد أهمية كتاب ابن عبد الحكم — وخاصة الجزء المتعلق بمصر — فهو لم يهتم بالتاريخ السياسى فقط بل اهتم بالعمران والنظم والتراتيب ، وعلى ذلك فهو رائد هـــذا النوع من الأدب التاريخى الذى يهتم بالمجتمع وبالخطط ، والذى سينبغ فيه المقريزى فيما بعد، عندما يقدم أهم نماذجه ممثلا فى كتاب الخطط ، وبفضله يصبح ممثل هذا النوع ٠

وابن عبد الحكم يظهر فى كتابه بمظهر المحدث أكثر مما يبدو فى مظهر المؤرخ ، فهو يعتنى فى كثير من الاحيان بايراد الروايات المختلفة ، كمـــا يهتم بتسجيل الاسناد ٠ وتظهر صفة المحدث هذه فى الفصل الأخير ، الذى يختم به ابن عبد الحكم كتابه عن الصحابة الـــذين دخلـــوا مصر والمغرب ، والهدف منه هو سرد الأحاديث النبوية التى رويت نقلا عنهم ٠ ولقد ترتب على طريقة المحدثين هذه تقديم وتأخير بعض الروايات نتج عنه تقديم وتأخير فى بعض الأحداث التاريخية — حتى الهامة منها — مما جعل ترتيبها زمنيا من الأمور الصعبة ، وهذا ما سنشير اليه فى مواضعه(٢٠) ٠

وبعد الواقدى وابن عبد الحكم يأتى كتاب البلاذرى (أبو جعفر أحمد ابن يحيى بن جابر (توفى سنة ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م) المعروف بفتوح البلدان ٠ والكتاب سريع نظرا لانه يتناول الفتوح جميعا ، وفتوح المشرق بوجه خاص ، ونظن ان اسمه الكامل هو « كتاب البلدان الصغير » بمعنى المختصر ، وذلك ان البلاذرى كان قد بدأ فى تطويله وأعطاه اسم « كتاب البلدان الكبير » ، ولكنه لم يتمه ، كما يقول ابن النديم(٢١) ٠ وطريقة البلاذرى هى نفس طريقة الواقدى وابن عبد الحكم ، وذلك انه يعتنى بالاسناد فهو من هذا الوجه مؤرخ

---

(١٩) انظر للمؤلف . فتوح المغرب والأندلس فى رواية ابن عبد الحكم ، ص ١٦٧ ٠

(٢٠) انظر فيما بعد ، ص ٢١١ والهوامش ، ص ٢٣٦ و ص ٣٠٧ . وانظر للمؤلف فتح المغرب ما بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية ، مجلة كلية الآداب — الاسكندرية ١٩٦٣ ، ص د ٠ وانظر للمؤلف . فتوح المغرب والاندلس فى رواية ابن عبد الحكم ص ١٨٦ — ١٨٧ ٠

(٢١) انظر الفهرست ، ص ١٧٠ ٠

محدث هو الآخر ، وهو يعتمد على روايات عبد الله بن صالح ، والليث بن سعد ونافع مولى آل الزبير وابن الكلبي ثم الواقدي — نقلا عن كاتبه ابن سعد في بعض الأحيان — بصفة خاصة · وينبغي الاشارة الى أنه لا علاقة بين روايات فتح المغرب المنقولة عن الواقدي هنا ، وبين الروايات ذات الطابع الأسطوري المحض الموجودة في « فتوح افريقية » المنسوب للواقدي والذي أشرنا اليه ابتداء ·

والى جانب ما تقدم نشير الى أهمية المعلومات المتعلقة بفتح المغـــرب والموجودة في الكتب الخاصة بفتح الأندلس ، ولا سيما « كتاب أخبـــار مجموعة » لمؤلف مجهول من كتاب القرن الـــرابع الهجري (١٠ م)(٢٢) ، « وافتتاح الأندلس » لابن القوطية (محمد بن عمر بن عبد العزيز — توفي سنة ٣٦٧ هـ/٩٧٧ م) كما نضيف أيضا كتاب الكندي (توفي ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م) ، عن ولاة مصر وقضاتها ، وله أهمية خاصة بالنسبة للعلاقات بين مصر والمغرب في القرون الأربعة الأولى للهجرة · ففيه قطع قيمة عن الفتوح الأولى التي قام بها ولاة مصر الأوائل ، الذين كانوا يضمون الى عملهم ولاية المغرب · وكثير من معلومات الكندي ترد منسوبة الى رواتها الأوائل ، ومن أهمهم : سعيد بن عفير ، وابن لهيعة ، ويحيى بن عبد الله بن بكير ، ويزيد ابن أبي حبيب ، وعبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، وهؤلاء يذهبون في بعض الأحيان بسلسلة المسندين حتى شهود العيان الأوائل مثل عبد الله بن عمرو ، وعمرو بن العاص مثلا(٢٣) ·

وعن العلاقة بين مصر والمغرب لا بأس من ذكر خلفاء ابن عبد الحكم والكندي ، مثل المقريزي في خططه أو في كتابه عن أوائل الفـــاطميين في المغرب ، المعروف بـ « اتعاظ الحنفا » (نشر الشيال ، ج ١ ، القـــاهرة ١٩٦٧ م) ، وهو مهم بالنسبة للفترة التالية ، كما يأتي ، ومثل ابن تغرى

---

(٢٢) انظر فيما بعد ، ص ٢٩٦ وما بعدها · وعن نقد الكتاب يرى ريبيرا أن له أكثر من مؤلف ، وان الجزء الأول منه كتبه أحد رجال السياسة الى هشام بن عبد الرحمن الداخل ، بينما الجزء الثاني منه كتبه أحد الفقهاء · وهو يرى أن الكتاب دون في القرن الرابع الهجري (١٠ م) · أما دوزي فرأى أنه دون في القرن الخامس (١١ م) · انظر انجل جونزالس بالنسيا (A.G. Palencia) تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، ١٩٥٥ ، ص ١٩٨ ·

(٢٣) انظر الكندي ، ص ٣٢ ، ٣٣ ·

بردى في كتابه « النجوم الزاهرة »(٢٤) أو السيوطى في « حسن المحاضرة » .

هذا عن أقدم الروايات الخاصة بفتوح المغرب ، وأدقها وأكثرها أصالة ، وهى من النوع الذى يوصف بأنه مشرقى . أما عن الروايات المغربية القديمة، والتى يمكن أن تعادل تلك الروايات المشرقية ، فللأسف لم يصلنا منها شيء .

الروايات المغربية :

والحقيقة انه كانت قد ظهرت بالقيروان روايات منسوبة الى بعض أبناء الفاتحين مثل عيسى بن محمد بن سليمان بن أبى المهاجر ، حفيد أبى المهاجر دينار ، منافس عقبة فى ولاية المغرب ، وكان قد ألف كتابا في فتوح افريقية نقل منه أبو العرب(٢٥) فى تراجمه ، ولا بأس في أن تكون له بعض الاشارات فى مسالك البكرى(٢٦) ، الذى يسجل روايات لجده الأكبر أبى المهاجر عن فتوح عقبة في المغرب الأقصى(٢٧) .

ومن المهم الاشارة الى أن عيسى حفيد أبى المهاجر كان من تلاميذ عبد الله ابن وهب المحدث المصرى الشهير ، الذى يعتبر من مؤسسى أول مدرسة مصرية تاريخية ، كما هو الحال بالنسبة لغيره من المغاربة الذين كانوا يبجلونه ، مما يجعلنا نظن أن روايته لن تختلف كثيرا عن روايات أهل مصر(٢٨) .

ولقد نبه في القيروان ، خلال القرن الثانى الهجرى ، قاضى افريقية الشهير عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (٧٤ هـ/٦٩٣ م ـ ١٦١ هـ/٧٧٨ م) الذى شارك في أحداث تلك الفترة حتى أنه وقع أسيرا بين أيدى الروم فى سنة ١١٦ هـ/٧٣٤ م ، وسجن في حبس قصر الملك بالقسطنطينية ثم أفرج

---

(٢٤) أنظر للمؤلف ، أهمية ابن تغرى بردى لتاريخ المغرب والأندلس ، بحث فى كتاب المؤرخ ابن تغرى بردى ، مجموعة المكتبة العربية ط . وزارة الثقافة . القاهرة ١٩٧٤ .

(٢٥) انظر أبو العرب ، ترجمة رقم ٩١ ص ١٠٦ (حيث يقول عن الكتاب انه لا بأس به : أما عن النقول فهى كثيرة فى تراجم أبى العرب المختلفة) .

(٢٦) انظر جاتو ، مقدمة فتوح افريقية لابن عبد الحكم ، ص ٢٦ .

(٢٧) انظر البكرى ، ص ٧٣ ـ ٧٤ . ولا بأس فى أن تكون الروايات الأندلسية الموجودة فى « أخبار مجموعة » عن فتح المغرب نماذج لتلك الروايات المغربية الأصل . وعن أبى المهاجر والى المغرب لمسلمة بن مخلد ، والى مصر أيام معاوية . انظر فيما بعد ص ١٨٨ وما بعدها .

(٢٨) انظر للمؤلف ، فتوح المغرب والأندلس فى رواية ابن عبد الحكم ، ص ١٧٩ ـ حسن الاعتماد على روايه أبى العرب .

عنه بالمدينة سنة ١٢١ هـ/٧٣٩ م ، كما انه سار في سنة ١٤٠ هـ/٧٥٧ م على رأس وفد الى العراق يستنجد بالخليفة المنصور عندما استولى الخوارج على القيروان(٢٩) . ولما كان معاصروه من علماء مصر ، مثل : ابن لهيعة وعبد الله ابن وهب ، ومحمد بن عبد الحكم ، ممن رووا عنه ، فانه من الطبيعي ان يكون قد أثر فيهم بروايات المغاربة ، كما تأثر منهم بروايات المصريين(٣٠) ، ويمكن لنا أن نقرر ، من النتف القليلة التي وصلتنا عن ابن أنعم في كتاب أبي العرب وفي كتب المتأخرين ، مثل البكري ، وصاحب الاستبصار ، وابن عذارى ، أن ابن أنعم كان له عناية خاصة بالروايات الأسطورية أو القصص الشعبي العجيب(٣١) . وممن أتى بعد ابن أنعم من المؤرخين القيروانيين الذين لا نعرف شيئا عن أعمالهم سوى ما يروى عنهم في كتب المتأخرين ، نذكر : الفقيه أبي محمد عبد الله بن أبي حسان اليحصبي (توفي ٢٢٧ هـ/٤١ ـ ٨٤٢ م)(٣٢) ، والأمير الأغلبي محمد بن زيادة الله بن الأغلب (توفي ٢٨٣ هـ/٨٩٦ م) الذي كان أديبا ظريفا وكان له الى جانب تواليفه الأدبية كتاب في « تاريخ بني الأغلب »(٣٣) ، وأبا سهل فرات بن محمد العبدي (توفي ٢٩٢ هـ/٤ ـ ٩٠٥)(٣٤) ثم أباسعيد عبد الرحمن المعروف بالوكيل (توفي ٣١٠ هـ/٢٢ ـ ٩٢٣ م) الذي كان من كبار حفاظ الحديث كما كان من أهل الثراء ،

---

(٢٩) أنظر تاريخ خليفة بن خياط ، نشر أكرم العمري ، بغداد ١٩٦٨ ، ج ٢ ص ٣٦٢ (أحداث سنة ١١٦ هـ ـ حيث الاشارة الى أنه وقع في الأسر عقب غزو صقلية . وكان ممن أسر معه أبو عثمان بن أبي عبيدة وعمرو وسليمان . وكذلك أسر عبد الرحمن بن أنعم وهو المغيرة بن زياد بن أنعم . أما عن فك أسار ابن أنعم فيقول خليفة بن خياط أن عبد الرحمن ابن حبيب هو الذي فداه بعد أن ولي افريقية . والمعروف أن ابن حبيب لم يل افريقية إلا في سنة ١٢٧ هـ) . وعن ترجمة عبد الرحمن بن أنعم . أنظر . طبقات علماء افريقية لأبي العرب ، ط . تونس ١٩٦٨ ، ترجمة رقم ١ ص ٩٥ ـ ١٠٥ ورياض النفوس ، تاريخ افريقية والمغرب ، ص ١٦٣ ـ ١٦٤ . وانظر فيما بعد ، ص ٢٨٠ وهـ ١٠٤ وص ٣٢٣ وهـ ٨٣ . وعن مقدمات غزو صقلية في الجزء ٢ . وكذلك عن مصادر الفتح الفاطمي في الجزء ٢ .

(٣٠) انظر للمؤلف ، فتوح المغرب والأندلس في رواية ابن عبد الحكم ، ص ١٧٩ .

(٣١) انظر للمؤلف ، فتوح المغرب والأندلس في رواية ابن عبد الحكم ، ص ١٧٩ .

(٣٢) أنظر فيما بعد ، ص ٢٧ وهـ ١ .

(٣٣) انظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨٠ .

(٣٤) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٩ ، حيث يشير الى أن أبا سهل فرات سمع من سحنون واليحصبي وأنه له معرفة بالأنساب ، وإن أخذ عليه طول اللسان ، فقد : « كان أعلم الناس بالنسب وأوقع الناس في الناس ، حتى نسب الى الكذب » .

بينما كان ابنه أبو محمد الحسني من أهل الادب(٣٥) ٠

وتأتي بعد ذلك ، من أخبار أهل افريقية التي لم تصلنا ، الروايات المنسوبة الى أيوب بن أبي يزيد صاحب الحمار ، الثائر الخارجي على الفاطميين ، وهو من رجال القرن الرابع الهجري (١٠ م) ، وينقل عنه ابن خلدون فقرات في فتوح المغرب(٣٦) ٠ ومن كتب المعاصرين لأيوب بن أبي يزيد التي لم تصلنا كتاب يوسف الوراق وكتاب ابنه محمد بن يوسف الوراق القيرواني (٢٩٢ — ٣٦٣ هـ/٩٠٤ — ٩٧٣ م) صاحب كتاب المسالك والممالك(٣٧) الذي ينقل عنه البكري بعض المعلومات القيمة المناظرة لروايات المصريين الموجودة في كتاب ابن عبد الحكم ٠ أما عن كتاب « مغازي افريقية » أو « أخبار افريقية » لأبي جعفر أحمد بن ابراهيم المتطبب المعروف بابن الجزار (٢٨٥ — ٣٦٩ هـ/ ٨٩٨ — ٩٨٠ م : الورقات ، قسم ١ ص ٣٠٦ ٠ ٣١٠) فقد وصلتنا منه نتف في كل من مسالك البكري وكتاب الاستبصار ، ومنها يفهم أن ابن الجزار كان يعتني بجمع الأساطير(٣٨) ، التي ربما جمعها في كتاب كان له في عجائب البلدان(٣٩) ٠

أما ابراهيم بن القاسم المشهور بالرقيق القيرواني ، والمعروف أيضا بالرقيق النديم(٤٠) ، صاحب ديوان الرسائل عند بني زيري الصنهاجيين ،

---

(٣٥) أنظر أبو العرب ، ط ٠ بيروت ، ص ١٧٤ — ١٧٥ (حيث الاشارة الى نهب داره وتوبه بمعرفة كبار رجال المهدي الفاطمي ٠ وأنظر ، حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات ، ط ٠ تونس ١٩٦٥ ، قسم ١ ص ٦٩ ، ومقدمة المنجي الكعبي لتاريخ افريقية والمغرب ، للرقيق القيرواني ، ط ٠ تونس ١٩٦٧ ، ص ١٥ ٠

(٣٦) أنظر العبر ، ج ٦ ، ص ١٠٣ — ١١٠ ، والمؤلف ، فتوح المغرب والأندلس في رواية ابن عبد الحكم ، ص ١٥٦ ٠

(٣٧) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٣٩ ، ص ٣٢ ، وانظر فيما بعد ، ص ٢٨ وهـ ٢ ، ص ٣٠ ٠

(٣٨) انظر المؤلف ، فتوح المغرب والأندلس في رواية ابن عبد الحكم ، ص ٨٠ ٠١ وهذا لا يقلل من قيمة كتابات ابن الجزار الذي يقدم لنا معلومات تاريخية هامة في بعض ما وصلنا في كتاب المقتبس لابن حيان ٠ أنظر القطعة التي حققها عبد الرحمن الحجي ، ط ٠ بيروت ١٩٦٥ ، ص ٣٦ — ٣٨ (في موضوع الفاطميين في المغرب) ٠

(٣٩) أنظر كتاب الجغرافية للزهري ، تحقيق محمد حاج صادق ، مجلة الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي بدمشق ، ١٩٦٨ ، ص ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٩ ٠٠ الخ ٠ وحسن حسني عبد الوهاب ، الورقات ، قسم ١ ص ٣١٨ وما بعدها ٠

(٤٠) أنظر له قطب السرور في أوصاف الخمور ، تحقيق أحمد الجندي ، المقدمة ، ص ج هـ ٠

والذى ترجع وفاته الى ما بعد ٤١٧ هـ/١٠٢٦ م(٤١) ، فهو يعتبر أشهر مؤرخى افريقية وبلاد القيروان - وان كان قد جمع الى جانب العناية بالتاريخ حب الأدب وعواية الشعر والسمر ، وهذا ما يظهر فى اعتماد من أتى بعده من المؤرخين عليه ، سواء كانوا من المشارقة مثل : ابن الأثير والنويرى ، أو من المغاربة ، مثل ابن عذارى وابن خلدون ٠

ولتقييم كتاب الرقيق تكفى شهادة ابن الأثير له عندما ينقل عنه أخبار المغرب ، فيرجحها على غيرها ، قائلا : ورب البيت أدرى بما فيه(٤٢) ٠ واذا كان كتاب الرقيق فى تاريخ افريقية والمغرب لم يصل الينا ، فلحسن الحظ انه وجدت قطعة من تاريخ المغرب المبكر يرجح انها بعض الكتاب ، أو أنها نقلت من بعض كتب الرقيق ٠ وهذه القطعة التى تبدأ من أواسط القرن الأول الهجرى وتنتهى فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، حققها ونشرها المنجى الكعبى ، تحت عنوان : تاريخ افريقية والمغرب ، للرقيق القيروانى(٤٣)، والأمل أن يسعد الحظ المشتغلين بتاريخ المغرب بالعثور على أجزاء أخرى من الكتاب ان لم يكن جميعه ٠

ولقد دلت تلك القطعة من تاريخ الرقيق - كما لاحظ المحقق بحق - ان النقول من كتاب ما ، مهما استفاضت ، لا تغنى الباحثين عن الكتاب الأصيل(٤٤) ، فبعضها أمكن تحديد كثير من أماكن الوقائع وتحديد تواريخها وأسماء أبطالها ، مما كان قد اختصره النقلة ، والمثل لذلك أحداث الصراع بين زهير بن قيس ، خليفة عقبة بن نافع ، وكسيلة زعيم أوربة ، وأخبار عودة موسى بن نصير الى الشام ، ووصف وقعتى الأصنام والقرن ، وثورات الخوارج، واضطرابات الجند الأفريقى ، وغيرها(٤٥) ٠ هذا وان كانت تلك القطعة تعانى الكثير من الخروم والصفحات الساقطة ، الى جانب تحريفات عديدة سواء فى النص أو فى أسماء المواضع والأشخاص ، مما قد نشير الى بعضه خلال الدراسة ٠

---

(٤١) أنظر مقدمة قطب السرور ، ص ج ٠

(٤٢) أنظر الكامل ، أحداث سنة ٥٠ هـ ٠

(٤٣) نشر السقطى ، تونس ١٩٦٨ ٠

(٤٤) أنظر مقدمة الكعبى ، ص ٩ - ١٠ ٠

(٤٥) نفس المقدمة ، ص ١٢ - ١٤ ٠

أما عن المصادر التي رجع اليها الرقيق في تلك القطعة ، فانه يذكر عددا من المشارقة . مثل : الزبير بن بكار ، وابن سلام، والمدائني ، والواقدي ، وبعض المغاربة ، مثل : سحنون بن سعيد ويوسف بن هشام ، وخاصة ابن أبي حسان (توفي سنة ٢٢٧ هـ/٤١ — ٨٤٢ م) . الذي أورد عنه الكثير من الأخبار(٤٦) ، والذي تظن انه كان اخباري القيروان في زمانه . وهذا لا يمنع بطبيعة الحال أن يكون الرقيق قد أهمل ذكر غير هؤلاء ممن نقل عنهم ، ومنهم بعض من ذكرنا من قدامى الاخباريين من قيروانيين ومغاربة .

كتب التاريخ العام :

ويأتي بعد ذلك النوع الثاني من مراجع تلك الفترة ، التي تتمثل في كتب التاريخ العام ، وهي الأخرى على قسمين : الأول في تاريخ المغرب ، والثاني في تاريخ المشرق بصفة خاصة .

في الكتب المغربية :

ابن عذارى :

وأقدم ما وصلنا من القسم الأول كتاب ابن عذارى المراكشي ، وهو « كتاب البيان المغرب في أخبار المغرب » الذي بدأ تأليفه منذ أواخر القرن السابع الهجري واستمر الى حوالى سنة ٧١٢ هـ/١٣١٢ م ، والذي كان يتممه القسم الخاص بالمشرق ، واسمه « كتاب البيان المشرق في أخبار المشرق » ، الذي لم يصل الينا . والجزء الأول من البيان المغرب يتناول تاريخ المغرب منذ الفتح الى دخول الهلالية الى المغرب ، في منتصف القرن الخامس الهجري (١١ م) ، وما بعد ذلك من الأحداث . ورغم أن هذا الكتاب مختصر من وجه ومتأخر — بالنسبة للفترة التي ندرسها — من وجه آخر ، الا أنه يحتوي على روايات قدامى المؤرخين من المغاربة والأندلسيين ، التي لم تصل الينا والتي يحرص على ذكر أصحابها في كل مناسبة ، مما يزيد في قيمته . ولقد عرف المستشرق الهولندي دوزي قيمة البيان فنشر منه ، منذ أكثر من قرن وربع قرن ، الجزء الأول الخاص بالمغرب والجزء الثاني الخاص بالأندلس (طبعة ليدن ، ١٨٥١) . ولكن الجزء الأول كان ينقصه قطعة كبيرة في أوله تتناول حملة عقبة بن نافع في المغرب الأقصى ، ولقد اكمل برفنسال وكولان

---

(٤٦) نفس المقدمة . ص ١٢ ، ومن أخبار ابن أبي حسان التي ملأت مجالس أمراء الأغالبة . انظر على سبيل المثال فيما بعد . في تاريخ الأغالبة . عهد زيادة الله الأول . ج ٢ ص ٣٤ وج ٣ عن تنديد المحصبي في فتاواه ضد التوزر . وج ٣ ص ٣٩ . عن قربه من الأمير .

(Colin) هذا النقص في طبعتهما الأخيرة لهذا الجزء بعد آن عثروا على مخطوط جديد من البيان[٤٧] ·

وممن أخذ عنهم ابن عذارى ممن كتبوا فى تاريخ المغرب ولم تصل الينا كتبهم : ابراهيم الرقيق (توفي بعـــد ٤١٧ هـ/١٠٢٦ م) الذى كتب في تاريخ افريقية حوالي ســـنة ٣٧٧ هـ/٩٨٧ م ، وابن شرف (توفي ســـنة ٤٦٠ هـ/١٠٨٨ م) ، وابن رشيق (توفى ســـنة ٥٠٤ هـ/١١١٠ م) ، ويوسف الكاتب المعروف بالوراق ، وابنـــه محمـــد بن يوسف الوراق ، القيرواني مولدا والقرطبي مماتا (توفي سنة ٣٦٣ هـ/٩٧٣ م) ، والـــذى ألف للحكم المستنصر الأموى كتـــابا في تاريخ افريقية حتى أيامه[٤٨] ، وابن القطان (توفي سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م) صاحب « كتاب نظم الجمان فى أخبار الزمان » ، الذى عثر بروفنسال على جزء منه خاص بنهاية المرابطين وبداية الموحدين[٤٩] ، وهو الجزء الذى نشره محمود علي مكي ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط ·

ومن مصادر ابن عذارى كتاب لابن آبي الفياض الاندلسي (توفى ســنة

---

(٤٧) ولا بأس من الاشارة الى أن هذا المخطوط يحتوى على قسم ثالث خاص بتاريخ الموحدين مفصلا · وكان بروفنسال قد نشر من البيان قسما خاصا بتاريخ الأندلس على أيام المرابطين جعله جزءا ثالثا بالنسبة لجزأى دوزى (طبعة باريز ، ١٩٣٠) · أما عن القسم الخاص بالموحدين ، فلقد ظهر ان الكتاب الذى يتناول تاريخ الموحدين والذى نشره ويسي (Huici) عزانه لمؤلف مجهول، وذلك تحت عنوان "Anonimo de Madrid y Copenhague" بالأسبانية وكتاب التواريخ لابن بسام، بالعربية (مدريد ـ بلنسيا ١٩١٧) ، ليس الا مختصرا لهذا القسم · وعلى ذلك فهو الجزء الرابع والأخير من بيان ابن عذارى (أنظر مقدمة بروفنسال للطبعة الأخيرة للجزء الأول من البيان (بالفرنسية) ص ٧ · والحقيقـــة أنه أمكن التعرف قبل ذلك على أن الكتاب المجهول المؤلف الذى نشره ويسي هو لابن عذارى ، بفضل مقـــارنة بعض نصوصه بالمقتطفات التي اقتبسها منه ابن الخطيب في الاحاطة بأخبار غرناطة · ولقد نشر هذا الجزء بمعرفة ويسي وابراهيم الكتاني ، تطوان ، سنة ١٩٦٣ ·

(٤٨) أنظر ، نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، دراسة النص ، ص ١٩٨ · وقارن مقدمة دسلان (De Slane) لكتاب البكرى ، طبعة ١٩١١ ، ص ١٦ (حيث يقول انه يفهم من البكرى ان محمد بن يوسف قيرواني الأصل بينما يؤكد ابن حزم انه أندلسي صميم من اقليم وادى الحجارة وهذا ما ينص عليه الحميدى في جذوة المقتبس ، مجموعة تراثنا ، المكتبة الأندلسية ، رقم ٣ ط · القاهرة ، سنة ١٩٦٦ ، ترجمة رقم ١٦٠) ·

(٤٩) Pons Boigues p. 279. وعبد السلام بن سودة ، دليل مؤرخ المغرب الأقصى تطوان ١٩٥٠ ، ص ١٠٨٤) وانظر مقدمة كتاب أخبار المهدى (البيدق Documents in édits) بالفرنسية، ص د هامش ١ ، ونص جديد عن فتح العرب للمغـــرب دراسة النص ، ص ٢٠٠ وهامش ٢ ·

٤٥٩ هـ/١٠٦٦ م) في تاريخ المغرب اسمه « العبر »([٥٠]) الذي نقل عنه كثير من المتأخرين ، وكتاب « الاستيعاب في معرفة الأصحاب » ليوسف بن عبد البر النمري ، القرطبي مولدا والشاطبي وفاة (٣٦٨ هـ/٩٧٨ م ـ ٤٦٣ هـ/١٠٧٠ م)([٥١]) . ومنها كتاب للفقيه التاريخي أبي علي صالح بن الشيخ أبي صالح عبد الحليم ، نزيل نفيس . وهنا نشير الى أن ابن هذا المؤرخ وهو عبد الله بن صالح بن عبد الحليم له كتاب في أخبار البربر ، ومنه قطعة صغيرة نشرها الأستاذ بروفنسال تحت عنوان « نص جديد عن فتح العرب للمغرب » في صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد سنة ١٩٥٤ ، بعد دراسة وتحليل لمادتها نشره في العدد الأول من مجلة « ارابيكا "Arabica" »([٥٢]) .

وبفضل القطع التي احتفظ لنا بها ابن عذاري ، من هذه الكتب الضائعة (الى الآن) ، أسدى خدمة جليلة لتاريخ المغرب الاسلامي ، وضم « مجموعة قيمة من النصوص التي لا تقدر قيمتها » بثمن ، كما يقول بروفنسال([٥٣]) .

البكري :

ومن أهم من نقل عنهم ابن عذاري أبو عبيد البكري (توفي ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م) صاحب المسالك والممالك . ولحسن الحظ أنه وصلنا من هذا الكتاب الجزء الخاص بصفة المغرب (كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ـ نشر دسلان (De Slane) الجزائر ، ١٩١١) . ورغم أن كتاب البكري من كتب المكتبة الجغرافيـــة العربية الا أننا نذكره بين كتب التـاريخ ، نظرا

---

(٥٠) انظر النص الجديد ، ص ٢٠٠ وهامش ١ حيث الاشارة الى
F. Pons Boigues, Ensayo bio-bibliogràfico sobre los historiadores y géografos àrabigocspanoles, Madrid, 1898, p. 138 (No. 103)

وانظر ابن الكرديوس ، تاريخ الاندلس ، تحقيق مختار العبادي ، ط . مدريد ، المقدمة ، ص ٢٠ (حيث الاشارة الى أن ابن الكرديوس يسمي كتاب ابن أبي الفياض بـ « العبر » و « العبرة » و « صلة السمط وسمة المرط ») .

(٥١) نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، ص ٢٠٠ وهامش ٢ ، حيث يرجع بروفنسال الى النص المطبوع على هامش الاصابة لابن حجر ، طبعة القاهرة ١٣٢٣ ـ ١٣٢٧ ، ج ٣ ص ١٠٨ ـ ١٠٩ . وكتاب الاستيعاب من مجموعة كتب التراجم العامة .

(٥٢) انظر النص الجديد ، صحيفة المعهد المصري بمدريد ، ص ٢٠٢ .

(٥٣) نفس المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

للمعلومات التاريخية الهامة التي يحويها بين دفتيه . والتي جعلته مرجعا لكل من أتى بعده من المؤرخين ، من القدامى والمحدثين . وتتلخص أهمية كتاب البكري في انه احتفظ لنا بمعلومات تاريخية نقلها من أمهات المصادر التي لم تصل الينا . وأهمها مؤلفات محمد بن يوسف الوراق (٢٩٢ هـ/٩٠٤ م – ٣٦٣ هـ/٩٧٤ م) المعروف بالتاريخي(٥٤) ، والذي ألف – تلبية لرغبة خليفة قرطبة الحكم المستنصر – عددا من الكتب التاريخية والجغرافية عن افريقية . ومن هذه الكتب التي لم تصل الينا كتب في تاريخ كثير من مدن المغرب ، مثل تاريخ تونس ، وتاريخ تاهرت ، وتاريخ وهران ، وتاريخ سبتة ، وتاريخ نكور ، وتاريخ البصرة (بصرة المغرب الأقصى) ، وتاريخ سجلماسة(٥٥) . هذا ، كما يفهم من المعلومات الدقيقة ، وخاصة الاحصائية منها ، أن البكري نقل عن الوثائق والأوراق الرسمية القديمة التي كانت محفوظة على أيامه في ديوان قرطبة(٥٦) .

وأخيرا نلاحظ أن البكري لا يكتفي بالنقل من المؤرخين العرب ، بل ينقل أيضا من بعض مؤلفات كتاب الأفرنج في تاريخ المغرب قبل الفتح العربي ، مثل معلوماته عن حروب روما وقرطاجنة . وكذلك معلوماته عن المسيحية في المغرب . ونحن نرى أن كثيرا من معلوماته عن المسيحية في المغرب منقولة من كتب قديمة (سابقة للعصر الذي يدون هو فيه) ، ولكنه يكاد يوقعنا في الخطأ عندما يسجل هذه المعلومات على أنها معلوماته الخاصة(٥٧) وهذا ما يفسر كيف انفرد بمعلوماته عن انتعاش المسيحية في المغرب حتى القرن الخامس الهجري . وذلك ما لم يشر اليه غيره ، حتى من كتاب العرب الأوائل ، مثلما فعل المسعودي من قبل عندما كان ينقل بعض كتاب اللاتين القدماء ويتيمنا بوضع التاريخ الذي يكتب هو فيه (سنة ٣٣٢ هـ/٤٣ – ٩٤٤ م)(٥٨) .

---

(٥٤) أنظر فيما سبق ، ص ٢٥ ، ٢٨ والهوامش .

(٥٥) أنظر مقدمة دسلان (De Slane) للبكري ، ص ١٦ .

(٥٦) نفس المصدر ، ص ١٣ – ١٤ .

(٥٧) أنظر نفس المصدر ، ص ١١٩ وص ٢٦٥ وص ١٢٦ . ولا بأس من الاشارة هنا الى ان صاحب كتاب الاستبصار (ص٨٨) الذي ينقل كثيرا عن البكري ، يفعل مثل ذلك عند كلامه عن مصر ، فهو عندما يسجل رواية المسعودي (يكتب سنة ٣٣٢ هـ/٤٣ – ٩٤٤ م) عن مدينتي تنيس ودمياط ، التي تقول انه يسكنهما و نصارى هم الآن تحت الذمة بحمد الله » ، يضيف ونحن الآن في سنة ٥٨٦ هـ/١١٩٠ م .

(٥٨) أنظر معلومات المسعودي عن قبر الاسكندر التي يوردها عند كلامه في تاريخ ملوك اليونانيين (مروج الذهب ، طبعة البحرية ، ج ١ ص ٢٩٢) ، وانظر للمؤلف في ، تاريخ =

ابن خلدون : العبر :

ويعتبر القسم الخاص بتاريخ البربر من كتاب العبر لابن خلدون — الى جانب المقدمة — من أهم مصادر تاريخ المغرب(٥٩) . فرغم تأخر ابن خلدون (توفي سنة ٨٠٨ هـ/١٤٠٦ م) فان كتابه لا يعتبر مهما بالنسبة للفترة المعاصرة له ، بل بالنسبة لأقدم عصور المغرب العربي ، وذلك للسببين المعروفين اللذين اختص بهما ابن خلدون ، وأولهما : ملكة المؤرخ العبقرى الموهوب(٦٠) التى جعلته يفهم التاريخ بمعناه الحقيقى الشامل ، الذى يتلخص فى أن الحدث التاريخي أكبر من أن يكون حدثا سياسيا فقط ، بل هو نتيجة لتفاعل عدد من العوامل السياسية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية ، وكذلك النفسية أيضا . وهذا ما دعا ابن خلدون الى الكلام عن كل هذه الفنون في المقدمة حتى جعل مفهوم التاريخ أشبه ما يكون بمفهوم الحضارة ، أى جعله تاريخا للأمم والشعوب بدلا من سير الملوك والأمراء أو طبقات الأعيان . وهذا ما سماه البعض « فلسفة التاريخ » وهو في الحقيقة ليس الا التاريخ — كما ينبغي أن يكون .

= الإسكندرية الإسلامية في كتاب تاريخ الاسكندرية منذ أقدم العصور ، طبعة الاسكندرية سنة ١٩٦٣ ، ص ٢٣٩ .

(٥٩) الحقيقة أن ابن خلدون كان يقصد في أول الأمر كتابة تاريخ المغرب فقط قبل أن يجعل تاريخه عاما ، وذلك لتخصصه في معرفة أحوال بلاده ، حتى يكون الكتاب أصيلا لا يعتمد على النقل كما فعل غيره . وهذا ما يسجله في المقدمة عندما يقول : « وأنا ذاكر في كتابي هذا ما أمكنني منه في هذا القطر المغربي ... لاختصاص قصدي في التاليف بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الأقطار لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأممه ، وأن الأخبار المتناقلة لا تفي كنه ما أريده منه » (المقدمة ، طبعة التجارية ، ص ٢٣) . ولقد عرف الأوروبيون أهمية المقدمة والقسم الخاص بتاريخ المغرب ، فطبعا في أوروبا أكثر من مرة كما ترجما الى أكثر من لغة . ولقد كان تاريخ ابن خلدون موضع عناية البارون دسلان الفرنسي — الذى شغل منصب المترجم الرسمي للقوات الفرنسية فى الجزائر — الذى ترجم المقدمة تحت عنوان (Les Prolégomènes . كما ترجم القسم الخاص بتاريخ المغرب تحت عنوان (Histoire de Berbères. ولقد صار ابن خلدون موضع عناية العلماء والدارسين الأوربيين حتى فاقت الدراسات التي اتخذته موضوعا لها غيرها من الدراسات الخاصة بغيره من أعلام مفكرى العروبة والاسلام أنظر مقدمة :

W.J. Fischel, Ibn Khaldun and Tamerlane, Barkeley — Los Angeles, 1952.

(٦٠) لا بأس من الاشارة هنا الى ما يقوله جوتييه من أن بلاد المغرب ليس لديها من مشاهير الرجال الذين يمكن وضعهم فى طبقة ابن خلدون الا القلائل مثل هانيبال والقديس أغسطين (Gautier, Le Passé de l'Afrique du Nord, p. 80).

أما عن السبب الثاني الذي يجعل مجزءه الخاص بتاريخ المغرب (أو تاريخ البربر) اهمية خاصة، فهو أن معظم النظريات التاريخية التي استنبطها ابن خلدون كانت نتيجة لدراسته لتاريخ المغرب . الى جانب تجاربه الخاصة أثناء عمله وتجواله في خدمة ملوك الحفصيين في تونس . وبني عبد الواد في تلمسان . وبني مرين في فاس . وبني الاحمر النصريين في غرناطة . قبل رحيله الى مصر والشام • فنظرية العصبية . التي جعل منها أساسا لقيام الدول . مستمدة من تاريخ القبائل البربرية والعربية في المغرب . فهي في المغرب أوضح منه في أي اقليم آخر . ولهذا السبب نجد أنه يكتب تاريخ المغرب أكثر من مرة . فهو يكتبه بشكل عام على أنه تاريخ دول ثم انه يعود ليكتبه أكثر من مرة . عندما يستقصي أخبار القبائل كل على حدة •

والى جانب ذلك نضيف أن ابن خلدون ــ بفضل علمه ومركزه الاجتماعي ــ كان في موقف يسمح له بالاطلاع على أمهات مراجع تاريخ المغرب . وكثير من هذه المراجع لم يصل الينا ، وهو يذكر مراجعه في بعض الأحيان . ولكنه يهمل الاشارة اليها في أحيان كثيرة • فهو يعرفنا بنسابة البربر القدماء من العرب ومن أهل البلاد على السواء (انظر فيما بعد ، ص ٥٣) - وهو ينقل من البكري الذي لم يصلنا من موسوعته الا بعض من القطع اهمها صفة المغرب . وينقل من الرقيق وابن رشيق ، وكذلك من ابن عذاري ، ولو أنه لم يكلف نفسه مشقة الاشارة الى كتاب هذا الاخير(٦١) ، مما يذكر بان ابن خلدون لم يلتزم في كتابة تاريخه قواعد النقد التي أصر عليها في المقدمة ، في الفصل الخاص بفضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط(٦٢) • هذا . كما أنه ينقل عن المغرب معلومات لبعض قدامى المؤرخين من المشارقة . مثل المسعودي الذي يتخذه نموذجا للمؤرخ بفضل كتابه مروج الذهب . لانه : « شرح فيه أحوال الأمم والآفاق •• وذكر نحلهم وعوائدهم . ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول . وفرق شعوب العرب والعجم . فصار اماما للمؤرخين »(٦٣)

---

(٦١) انظر نص حديثه عن تبع العرب للمغرب ، صحيفة المعهد المصري بمدريد سنة ١٩٥٤ ، ص ٥١ •

(٦٢) المقدمة ، طبعة البحرية ، ص ٢٨ •

(٦٣) وابن خلدون يعتبر المسعودي استاذ المؤرخين في النقد ، المقدمة ص ٣٢) . كما يعتبر نفسه خليفة له بالنسبة لعصره ــ رغم قصور المسعودي في معظم أحوال المغرب ــ ويعتبر كتابه « العبر » بمثابة « صلة » لمروج الذهب . وهو في نفس الوقت نموذج (أصل) لمن جاء بعده من المؤرخين المقدمة ص ٣٣ •

ومثل الطبرى . ولا تجد هذه المعلومات ــ حاليا ــ فيما لدينا من كتبهم التى وصلتنا ملخصة أو مختصرة ، كما هو معلوم .

فى الكتب الشرقية :

الطبرى وخليفة بن خياط :

الى عهد قريب كان كتاب الطبرى يعتبر أقدم كتب التاريخ العام المشرقية التى تتبع نظام الحوليات فى سرد الأحداث ، وذلك أن كتابا آخر تواحد من أقدم وأشهر مؤرخى المشرق لم يكن قد رأى النور بعد ، وهو تاريخ خليفة بن خياط ، المتوفى حوالى سنة ٢٤٠ هـ/٨٥٤ م ، أى قبل وفاة الطبرى بأكثر من نصف قرن . ومن غريب الصدف أن ينال تاريخ خليفة بن خياط اهتمام باحثين دفعة واحدة هما سهيل زكار الذى نشره فى دمشق سنة ١٩٦٧ ، وأكرم العمرى الذى نشره فى النجف فى نفس سنة ١٩٦٧ ، كما نشر كتابا آخر لابن خياط ، قريب الصلة بالتاريخ ، هو : كتاب الطبقات(٦٤) .

واذا كانت رواية خليفة بن خياط تعتبر مختصرة جدا على وجه العموم بالنسبة لروايات الطبرى التى تتصف بالتعدد والاسهاب ، فان تاريخ ابن خياط يتميز بتتبع الأحداث خلال حولياته فى المغرب فى حرص شديد ، وكأنه يحرص على الربط الزمنى بينها دون أن يسقط بعضها . وهذا ما يتجلى فى فتوح المغرب والأندلس حيث ذكر لكثير من الصوائف والشواتى فى البر والبحر جميعا ، مما لا نجد لها نظيرا فى كتب التاريخ المبكرة الأخرى ، مثل : ابن عبد الحكيم والبلاذرى والطبرى . وكذلك القطعة التى نشرت من الرقيق القيروانى . وعن هذا الطريق تضاف مادة مشرقية جديدة الى الادب التاريخى الخاص بالمغرب والأندلس فى عصوره المبكرة (أنظر فيما بعد ، ص ٣٦) ، وان كان عدد من أسماء المواضع والأشخاص فى كل من نشرتى دمشق والنجف ما زال فى حاجة الى التحقيق .

أما عن كتاب الطبرى (ت ٣١٠ هـ/٩٢٢ م) ، أشهر كتب التاريخ العام المشرقية ، فانه ينقل عن كثير من كتاب المغازى الأوائل الذين لم تصل الينا

---

(٦٤) واذا كنا لا نعرف عن حياة خليفة بن خياط الا أنه ولد فى البصرة ، فمن المعروف أنه كتب خمسة كتب لم يبق لنا منها الا الكتابان المذكوران : فى التاريخ وفى طبقات الرجال . أنظر نابى حسن ، دور القبائل العربية فى المشرق خلال العصر الأموى ، رسالة دكتوراه بالانجليزية ، ط . بغداد ، ٧٥ ــ ١٩٧٦ ، ص ١٤ ، هـ ٩ ، ١٠ وان كان لا يذكر تحقيق العمرى .

كتبهم ، مثل الواقدى (ولو أنه يكاد يثير الشك حول روايته عندما يسبقها فى كثير من الأحيان بكلمتى « وزعم الواقدى » ، كما أشرنا ، والمدائنى ٠ولكن عيبه أنه لم يهتم بالمغرب ، مما أثار دهشة ابن الأثير عند حديثه عن فتح الأندلس ٠ فبعد أن أورد الأسطر القليلة التى سجلها الطبرى ، قال : هذا جميعه ذكره ابو جعفر فى فتح الأندلس ، وبمثل ذلك الاقليم العظيم والفتح المبين لا يقتصر فيه على هذا القدر ، وأنا أذكر فتحها على وجه أتم من هذا ـ ان شاء الله تعالى ـ من تصانيف أهلها اذ هم أعلم ببلادهم(٦٥) ٠

ابن الأثير :

ولقد أكمل ابن الأثير (توفى ٦٣٠ هـ/١٢٣٢ م) هذا النقص عندما لخص كتاب الطبرى وسد ثغراته ، فرجع الى كتب أهل الثقة من المغاربة ، ولو أنه أهمل الاشارة الى مراجعه تلك ٠ ويمكن بالمقارنة تحقيق بعض مصادر ابن الأثير ، وأهمها كتب الرقيق ومحمد بن يوسف الوراق والبكرى ، وفيما يتعلق بقيام الدولة الفاطمية يلخص ابن الأثير رواية القاضى النعمان فى كتابه افتتاح الدعوة ، كما يأتى ٠ هذا كما يتضح أن من بين معلومات ابن الأثير أشياء مستمدة من كتب افرنجية قديمة فى تاريخ المغرب والأندلس قبل الاسلام(٦٦) ، وليس بغريب على ابن الأثير أن يكون قد رجع الى ترجمات هذه الكتب ، ولم ينقلها عن سابقيه مثل المسعودى أو البكرى ٠

والحقيقة أن ابن الأثير مؤرخ محقق موهوب ، فهو رغم اهماله ذكر مصادره فى كثير من الأحيان ، يعتنى بصحة معلوماته ٠ وهو فى ذلك ، وفى النقد التاريخى له فضل السبق على ابن خلدون ٠ ولقد ترتب على ذلك أن كتابه « الكامل » ليس مهما بالنسبة للقرون المتأخرة فقط ، بل بالنسبة لأقدم العصور الاسلامية ، وليس بالنسبة للمشرق فحسب ـ كما هو الحال بالنسبة للطبرى ـ بل بالنسبة لبلاد المغرب والأندلس أيضا ٠ ولقد تنبه الأوربيون الى ذلك ، فجمع فانيان (Fagnan) المعلومات الخاصة بالمغرب

---

(٦٥) ابن الأثير ، أحداث سنة ٩٢ ٠

(٦٦) انظر فتح الأندلس فى ابن الأثير (أحداث سنة ٩٢) حيث المعلومات الخاصة بالملك ركرد (Recared) والمجمع الكنسى الذى قرر أن تكون الكاثوليكية هى الديانة الرسمية للبلاد (وقارن بروفنسال ، تاريخ أسبانيا الاسلامية « بالفرنسية » ، ص ٥) ٠

والأندلس من « الكامل » ، وترجمها الى الفرنسية تحت عنوان « حوليات المغرب والأندلس » (Annales du Maghreb et de l'Espagne) هذا، كما أثبتت المكتشفات الحديثة من الوثائق والأوراق الرسمية صحة معلومات ابن الأثير عن تاريخ المغرب الأقصى في القرن السادس الهجرى (١٢ م)(٦٧) .

النويرى :

وعن ابن الأثير نقل كثير من المتأخرين مثل ابن خلـــدون والنويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبـــد الدايم توفى سنة ٧٣٢ هـ/١٣٣٢ م) . والقسم الخـــاص بتاريخ المغرب والأندلس من كتاب النويرى المعروف بنهاية الأرب في فنون الأدب له أهمية خاصة . فرغم أن الكتاب (الذى ما زال فى معظمه مخطوطا لم ينشر الا الأجزاء الأولى منه) عبارة عن موسوعة عامة كبرى فى الأدب والجغرافية والتاريخ والاجتماع (مثل صبح الأعشى للقلقشندى ومسالك الابصار للعمرى) ، فان الجزء الثانى والعشرين منه خصصه النويرى لتاريخ المغرب والأندلس منذ الفتـح العربى الى أيامه(٦٨) ورغم أن النويرى متأخر بالنسبة للفترة التى ندرسها ، ورغم أنه ينقل كثيرا عن ابن الأثير الا أنه احتفظ لنا بقطع نادرة من بعض الكتب التى لم تصل الينا ، وخاصة كتب المغاربة مثل الرقيق الذى ينقله بتفصيلاته دون حذف أو تغيير عندما يعرض لتاريخ الأغالبة ، سواء فى افريقية أو فى صقلية .

وتاريخ المغرب للنويرى أشبه ما يكون بكتاب حديث فهـــو مرتب منسق ، وهو لا يهتم كثيرا بايراد اختلافات الرواة ، بل يأخذ بالرواية التى يفضلها . واذا كان ذلك يمكن أن يعتبر من حسناته بصفته سهل التناول ،

---

(٦٧) E. Lévi — Provençal Un Recueil de lettres officielles almohades, étude diplomatique, Paris, 1942, pp. 30, 36, 38, 40 etc.

(٦٨) مخطوط دار الكتب ، رقم ١٨٦٦٨ . ولقد نظرنا فى النسخة المصـــورة المحفوظة بمكتبة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية رقم ٢٢ م وقارناها بما ترجمه منها دسلان De Slane فى ملاحقه لابن خلدون . ولقد نشر هذا الجزء وترجم بمعرفة جاسبار ريميره Gaspar (Remira ، غرناطة سنة ١٩١٥ ـ ١٩١٦ ، فى Revista del Estudios Historicos de Granada y su reino

وهنا لا بأس من الاشارة الى موســوعة العمرى (توفى سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٨ م) المعروفة بمسالك الابصار . وبها جزء عن المغرب نقله الى الفرنسـية مع دراسة عميقة جودفروا دبمومبين (Gaudefroy—Demombynes) ولكنه يتناول الفترة القريبة من المؤرخ .

يقصد الى الغرض مباشرة . الا أنه يضعف من قيمته كمصدر أصيل ، اذا ما قورن بغيره من الكتاب الذين اعتنوا بتسجيل اختلاف الرواة في المسألة الواحدة ، تاركين الأمر لتقدير الباحث ، أو مرجحين بعض الروايات على غيرها .

كتب التاريخ الخاص :

بعد هذا العرض لكتب المغازي وكتب التاريخ العام من مشرقيه ومغربيه مما يرجع اليه في دراسة تاريخ المغرب بشكل عام منذ الفتح العربي وحتى الوقت الذي يتوقف عنده المؤلف ، نستعرض كتب التاريخ الخاصة بدول المغرب التي ندرسها ، وهي : دول الأغالبة والرستميين والأدارسة ثم دولة الفاطميين في بداية أمرها في المغرب .

في الأغالبة :

وفي الوقت الراهن لا نجد تحت أيدينا مؤلفات خاصة بتاريخ الدولة الأغلبية . . فكتاب الامير محمد بن زيادة الله بن الأغلب ، الذي دون فيه أخبار أسرته الى ما قبل وفاته سنة ٢٨٣ هـ/٨٩٦ م »(٦٩) لم يصل الينا ، وكذلك الحال بالنسبة لتاريخ الرقيق أو الوراق وغيرهم من المؤرخين القيروانيين ، وبذلك ليس أمامنا لدراسة تاريخ الأغالبة سوى كتب التاريخ العام من مشرقية ومغربية ، وفي مقدمتها : كتب ابن الأثير ، وابن عذاري ، والنويري .

وتظهر أهمية تاريخ النويري بالنسبة للأغالبة في الروايات المستفيضة التي ينقلها من كتاب الرقيق ، فكأنه لم يترك من كتاب القيرواني المتهد شيئا . وهذا ما يميز روايته عن رواية ابن الأثير الذي اكتفى بتلخيص الرقيق والوراق والقاضي النعمان . وغيرهم من مؤرخي المغرب . وهكذا فاذا كان النقل دون تصرف مما يعيب الكتاب ـ قديما وحديثا ـ فاننا نحمد للنويري نقله المسهب من الرقيق ، وعدم قناعته بنقل ملخصات ابن الأثير ، كما فعل في غير تاريخ الأغالبة من المواضيع .

واذا كنا نحمد للنويري أنه نقل الرقيق دون تصرف ، فان ابن عذاري له فضل ترتيب الأحداث التي نقلها من الرقيق ترتيبا تاريخيا موفقا بفضل

---

(٦٩) انظر مقدمة الكعبي لتاريخ الرقيق والمؤنس للرقيق ص ١٥ ، وانظر فيما سبق ص ٢٤ وهـ ٣٣ .

طريقته فى الكتابة التى جمعت ما بين المنهج الزمنى ، الممثل فى الحوليات أو السنويات ، والمنهج الموضوعى ، الذى يعالج عيوب الطريقة الحولية باستيفاء الموضوعات الهامة فى مناسباتها الموافقة • وهو المنهج التدوينى الذى نبع فيه ابن الأثير ، وسار على منواله من أتى بعده من الكتاب •

فى الرستميين :

وفيما يتعلق بدراسة تاريخ خوارج المغرب ودولة الرستميين فى تاهرت ــ يكاد المؤرخ يفتقد المصادر المعتبرة بشكل تام ، وهو الأمر المنطقى بالنسبة لحركات ثورية مناهضة لدولة الخلافة ، ودويلات معادية لمجتمع أهل السنة ، لا تجد من يكتب عنها ــ ليس بانصاف فقط بل وبكفاءة أيضا ــ الا فيما ندر • فكتاب أهل السنة من رسميين وغير رسميين يقفون موقفا معاديا من جماعات الأباضية ، ومن دويلات الأباضية والصفرية نتيجة لعدم اطلاعهم المباشر على أحوال تلك الجماعات • وكتاب الخوارج أنفسهم متعصبون لأهل مذهبهم لا يجدون الا الروايات المنقبية التى يحتفظون بها لأنفسهم ، فكأنها أدب سرى ليس للتداول خارج نطاق الجماعة ، مما عرض كثيرا من كتبهم للضياع فى ظلال تلك السرية القائمة ، ان لم يكن للتبديل والمسخ •

ابن الصغير :

هذا ، وليس من الغريب ألا يصل الينا فى تاريخ الدولة الرستمية الا كتاب واحد معاصر ، وعدد قليل من كتب السير والطبقات المنقبية ، يرجع اقدمها ، الى القرن الخامس الهجرى (١١ م) •• والكتاب المعاصر لابن الصغير « فى ذكر بعض الأخبار فى الأئمة الرستميين » الذى قدمه موتيلينسكى الى المؤتمر الدولى الرابع للمستشرقين ونشره فى باريز ١٩٠٧ مع دراسة بالفرنسية(٧٠) •

والمؤلف ، ابن الصغير ، مالكى من أهل تاهرت ، دون كتابه حوالى سنة ٢٩٠ هـ/٩٠٣ م على أواخر ايام الرستميين ، فهو معاصر للأحداث ، وهو فى موقف يسمح له بالكتابة بانصاف : اذ جمع فى شخصه بين حبه لبلده تاهرت ،وعدم التحيز لأئمتها الأباضية ، بصفته سنيا • وهذا ما يقرره بنفسه

---

(٧٠) Chronique d'Ibn Saghir sur les Imams Rostemides de Tahert, par A. De.C. Motylinski, Paris 1907.

عندما يقول : انه لن يحرف ولا يزيد ولا ينقص : فالنقص والزيادة ليس من شيم ذوى المروءات ولا من أخلاق ذوى الديانات ، وان كنا للقوم مبغضين ، ولسيرهم كارهين، ولمذاهبهم مستقلين(٧١) • وهكذا لا يعيب كتاب ابن الصغير الا انه تاريخ قصصى وليس تاريخا سياسيا بالمعنى المطلوب • فهو يعتمد على الروايات الشفهية التي يسمعها من الأباضية عن الأحداث الخاصة بالأئمة منذ تأسيس الامامة الرستمية فى تاهرت وقبل تأسيسها ، مما مضى عليه مائة عام أو يزيد الى جانب مشاهداته وما عاصره من الاحداث ، وبعض كتب المذهب الأباضية التى قرأها(٧٢) •

وهكذا ، فاذا كانت رواية ابن الصغير مهمة بالنسبة لبعض الأحداث التى مر عليها كتاب الأباضية مرورا سريعا ، فقد كان من المحتم ان تعانى منا الروايات الشفهية ، من : الطابع القصصى ، والتعميم ، وعدم القدرة على تحديد التواريخ • فهو مثلا لا يعرف مدة حكم أول أئمة تاهرت : عبد الرحمن بن رستم ويعتذر بقوله : « وقد كنت وقفت على عدد سنى امارته كم كانت ، ولكنى نسيتها مع مرور الايام(٧٣) واذا كان ابن الصغير قد أظهر فى هذا الموضع حسا تاريخيا عندما اعتذر عن ذكر سنوات حكم الامام الأول ، فهو يغفل تواريخ ولاية من أتى بعده من الأئمة ، وبالتالى يضرب صفحا عن ذكر سنوات حكمهم • هذا ، الى جانب ما أهمله من الأخبار الهامة مما يقلل من قيمة الرواية من وجهة النظر التاريخية ، رغم ما تحويه من معلومات ثمينة انفرد بها ابن الصغير ، وتميز بها عن بقية كتاب الأباضية ، وخاصة بالنسبة للأحداث القريبة من عهده فى تاهرت •

أبو زكريا :

أما عمدة كتب الأباضية بالنسبة لتاريخ تاهرت الرستمية ، فهو كتاب أبى زكريا يحيى بن أبى بكر الورجلانى ، المعروف بـ « كتاب السير وأخبار الأئمة » ، رغم أن صاحبه من رجال القرن الخامس الهجرى (١١ م) • ولقد نشر مسكراى الكتاب تحت عنوان أخبار أبى زكريا ، فى سنة ١٨٧٨(٧٤) ،

---

(٧١) انظر ابن الصغير ، ص ١٠ •

(٧٢) ابن الصغير ، ص ١٧ •

(٧٣) ابن الصغير ص ١٦ •

(٧٤) E. Masqueray, Chronique d'Abou Zakaria, Alger — Paris 1878.

ولكنه لما لم يتيسر لنا الرجوع الى النص المنشور ، فقد اطلعنا على مخطوطة دار الكتب المصرية (رقم ح/٩٠٣٠) •

والكتاب ، كما يفهم من عنوانه ، يجمع بين التاريخ المتمثل في أخبار الأئمة ، وبين السير المتمثلة في تراجم وأعمال مشايخ المذهب • فهو يستعرض تاريخ أئمة تاهرت واحدا بعد الآخر ، ويجمع كل ما كان معروفا عن الاباضية حتى وقت تأليفه - دون الاشارة الى مصادره ، وخاصة الأخبار المذهبية والمتعلقة بالانشقاقات المذهبية • ورغم الطابع القصصي لأخبار أبي زكريا التي يظهر فيها أثر أخبار الأئمة لابن الصغير في عدد من المواضع ، ورغم غلبة الطابع المنقبي المتمثل في الكرامات والأخبار الاسطورية ، فان المؤلف يهتم في بعض الأحيان بالتحديدات المكانية للأحداث ، وضبطها من الناحية الزمنية ، مما يعطيها طابع التاريخ السياسي الجاد ،وان كان ينقصه التوثيق • فهو يحدد امامة عبد الرحمن بن رستم بسنة ١٦٠ هـ/٧٦ - ٧٧٧ م ، كما يشير الى رأي من ذكر سنة ١٦٢ هـ/٧٨ - ٧٧٩ م(٧٥) ، وهو يحدد بعض مواقع الانشقاق الثاني على عهد الامام أفلح بن عبد الوهاب بعشية الخميس ١٣ رجب سنة ٢٢١ هـ/٣ يولية ٨٣٦ م(٧٦) ، مما يعني انه اطلع على بعض الكتب التاريخية الجادة ، وان أهمل الاشارة اليها • وهو يحدد بعد ذلك امامة أفلح بـ ٦٠ (ستين) سنة ، وامامة محمد بن أفلح بـ ٤٠ (أربعين) سنة ، وولاية يوسف بن محمد بـ ١٤ (أربع عشرة) سنة ، كما يقدم تفصيلات جيدة - وسط الأخبار المنقبية - عن واقعة مانو الهامة ، في جبل نفوسة ، بين الأباضية والأغالبة ، وان كان أهمل تحديد تاريخها(٧٧) (سنة ٢٨٣ هـ/٨٩٦ م) الذي نجده في ابن عذارى •

والى جانب أخبار الأباضية يحتوي كتاب أبي زكريا على قطعة جيدة من أخبار عبيد الله المهدي ، خاصة برحلته من المشرق الى سجلماسة واستيلاء الداعي على تاهرت ، نظن انها مأخوذة من كتب الفاطميين الأولى ، مثل : كتاب القاضي النعمان المعروف بافتتاح الدعوة ، أو سيرة الحاجب جعفر لمحمد اليماني، واستتار الامام لأحمد بن ابراهيم النيسابوري ، التي ستشير اليها ، مما كان دارجا بين اباضية المغرب في القرن الخامس الهجري (١١ م) ، بعد نقلة

---

(٧٥) المخطوط ، ص ١٣ - أ •

(٧٦) انظر المخطوط ، ص ٢٨ - ب •

(٧٧) انظر المخطوط ، ص ٣٢ - أ •

الفاطميين الى مصر والقطيعة بينهم وبين بني زيرى في افريقية ·

لكل ذلك لم يكن من الغريب أن يصبح كتاب أبي زكريا هو المصدر الذي نهل منه مؤرخو الأباضية والرستميين فيما بعد ، كما أصبح النموذج الذي اقتدى به كتابهم في العصور التالية ·

الدرجيني :

وأهم من اقتدى بكتاب أبي زكريا ، هو أبوالعباس أحمد الدرجيني ، في كتابه المعروف بـ « طبقات الأباضية » ، الذي نظرنا في مخطوطته بدار الكتب المصرية (برقم ١٢٥٦١ ح مصورة عن المخطوط الأصل رقم ٢٦١٢ تاريخ تيمور) ، قبل أن نطلع على طبعة الجزائر التي قام بها ابراهيم طلاى (البليدة ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م) ·

والدرجيني من رجال القرن السابع الهجرى (١٣ م) ، وهو يسير في كتاب الطبقات على نفس نهج أبي زكريا فينقله ، ويضيف اليه اضافات من عنده · وبناء على ذلك فان ما وجهناه من نقد أو تقريظ لـــكتاب أبي زكريا ينطبق على طبقـــات الدرجيني · فهو كتاب منقبي يحتوى على أخبـار أئمة تاهرت وسير مشـــــايخ المذهب التي كانت معروفة على أيام المؤلف ، من تاريخية واسطورية · واذا كان الدرجيني قد أضاف الى معلومات أبي زكريا بعض التحديدات الزمنية ، كما اعتنى بتزويدها ببعض المعلومات التـاريخية عن خوارج المشرق وأباضية المغرب ، كتلك التي نقلها من مسالك البكرى ، منسوبة اليه(٧٨) أو الى من أخذ عنهم مثل : محمد الوراق(٧٩) ، وعن بداية عبيد الله المهدى نقلا عن الرقيق في تاريخ أفريقية(٨٠) ، مما يسمو بمستوى الروايات القصصية نحو مستوى المعلومات التاريخية ، فان فضـــل السبق يبقى لأبي زكريا الذي يظل كتابه المصدر الأول للدرجيني ·

الوسياني :

ومن كتب الأباضية التي تعتبر كهمزة الوصـــل بين كتاب أبي زكريا وكتاب الدرجيني ، من الناحية الزمنية على الأقل ، « كتاب السير » لأبي الربيع سليمان بن عبد الســـلام الوسياني ، الذي اطلعنـــا عـلى مخطوطته

---

(٧٨) انظر المخطوط ، ص ١٩ ـ ب ·

(٧٩) انظر المخطوط ، ص ٢٠ ـ أ ·

(٨٠) انظر المخطوط ، ص ٤٠ ـ ب ·

المحفوظة بدار الكتب المصرية (رقم ح/٩١١٣)(٨١) ٠

والواضح من التواريخ التي يقدمها الوسياني في الكتاب انه من رجال القرن السادس الهجرى (١٢ م) ، ومن دراسة تلك التواريخ يمكن القول انه توفى فى أوائل النصف الثانى من ذلك القرن . وهو لذلك يعتبر خليفة أبي زكريا بين مؤرخي الأباضية ٠ وكتاب السير للوسيانى من نوع الطبقات المنقبية فى أخبار مشايخ جبل نفوسة ، بلد المؤلف ، فهو اذن من النـــوع القصصى ، رغم اجتهاد الوسيانى فى تحرى الصحة ، كما يقول فى المقدمة ودعوته من يجد غلطا في الكتاب أن يصلحه(٨٢) ٠ أما عن الغرض من الكتاب ، مثل غيره من كتب المناقب . فهو تربوى ، كما ينص المؤلف فى خاتمة الجزء الثانى ، اذ يقول : « تم ما وجدت من سير المشايخ رحمة الله عليهم ورضوانه لديهم ، وفقنا الله لاتباع سيرهم السنية والتخلق بأخلاقهم النيرة ، وعصمنا من نبذها والتهاون بها . وأفاض علينا سجال بركاتهم ، وحشرنا فى زمرتهم ، آمين يارب العالمين(٨٣) ٠

هذا ، ويمكن أن يوضع الكتاب أيضا – مثل سير أبي زكريا وطبقـات الدرجينى – بين كتب الفقه ، وذلك أن من أهدافه : التعريف بقواعد الفقه الأباضى ، من أجل تنظيم حياة الناس العامة والخاصة ، وهو الأمر الذى يظهر فى فتاوى المشايخ(٨٤) ٠

---

(٨١) ولقد تقدمنا بدراسة لهذا الكتب الى مؤتمر تاريخ المغرب بتونس – ديسمبر ١٩٧٤ – جعلنا عنوانها : « هامش على مصادر تاريخ الأباضية فى المغرب : دراسة لكتاب السير لأبي الربيع سليمان عبد السلام بن حسان بن عبدالله الوسيانى ، من مخطوطات دار الكتب المصرية ٠٠ » – نرجو أن يكون قد تم طبعه ٠ وأملنا أن نجعل تلك الدراسة مقدمة للكتاب – الذى يقسمه صاحبه الى ثلاثة كتب ، لكل منها مقدمته الخاصة وخاتمته – اذا وفقنا الله الى تحقيقه ونشره عما قريب ٠

(٨٢) المخطوط ، ورقه ٢ وجه ٠

(٨٣) المخطوط ، ورقة ١٣٧ ظهر ٠

(٨٤) ولا بأس من الاشارة هنا الى واحد من كتب الفقه الاباضى الهامة ، هو كتاب : أبى يعقوب يوسف بن ابراهيم الورجلانى (قرن ٦ هـ ، ١٢ م) المسمى ب « كتاب الدليل لأهل العقول (طبع حجر بالقاهرة) . الذى يعتبره الاباضية من أهم مراجعهم المذهبية ٠ انظر علوش (I.S. Allouche) الذى يترجم فصلين من هذا الكتاب ، قولهما عن تقنية رأى الأشاعرة فى مسألة الصفات وعدم خلق القرآن ، وثانيهما فى الوعد والوعيد ، مجلة هسبريس (Hespéris) ، جزء ٢٢ ، ١٩٣٦ ، فصلة ١ ٠

وعلى وجه العموم فالوسياني يعرض لنا آثار علماء الأباضية ومشايخهم منذ قيام الدولة الرستمية ـ حيث يستعين بكتاب أبي زكريا ـ وحتى أيامه ، الى جانب عنايته بمعاصريه والقريبين منه من رجال القرنين الخامس والسادس الهجريين (١٢ ، ١٣ م) • ولكن ذلك فالكتاب مهم ، من حيث : التعريف بالرجال ، والمواضع الجغرافية والطبوغرافية (الخطط) • وهو يحتوى على معلومات مفيدة لدراسة المجتمع الأباضي ، على المستويات الاقتصـــادية ، والاجتماعية والدينية ، مما استفدنا منه في الدراسة • أما من حيث التاريخ السياسي فهو يعرض لبعض الصراعات المحلية والداخلية ، ويقدم معلومات يمكن أن تفيد في دراسة العلاقات الخارجية بين المجتمعات الاباضية والدول السائدة في المغرب في حينه •

وهكذا يكون كتاب الوسياني في سير علماء ومشايخ الوهبية في جبل نفوسة حلقة في سلسلة كتب المناقب الأباضية في المغرب ، التي تكمل بعضها بعضا • فهو صلة لكتاب أبي زكريا كما يعتبر كتاب الدرجيني صلة له ، وان كان كل من كتابي أبي زكريا والدرجيني لهما طابع تاريخي مميز ، بعد أن استفادا من الكتاب التاريخي الأول ، وهو كتاب ابن الصغير • أما أقرب الكتب الأباضية الى كتاب الوسياني ، فهو كتاب القرن العـــاشر الهجري (١٦ م) الذي ألفه الشماخي ، والذي أصبح من أهم المراجع التي يعتمد عليها الدارسون ، مما يجعلنا نرجح أن كتاب الوسياني كان النموذج الذي اقتدى به الشماخي •

الشماخي :

والشماخي هو أبو العباس احمد بن أبي عثمان سعيد بن عبد الواحد الشماخي نسبا ، اليفرني بلدا ، ويفرن من قرى جبل نفوسة • ورغم تأخر الشماخي (توفي سنة ٩٢٨ هـ/٢١ ـ ١٥٢٢ م) فان لكتابه المعروف بالسير أو سير مشايخ جبل نفوسة ، أهمية خاصة ليس بالنسبة للفترة المتأخرة من تاريخ الخوارج الأباضية بالمغرب ، بل بالنسبة لأقدم العصور ، من : ثورات الخوارج الأولى الى تاريخ الرستميين في تاهرت وجبل نفوسة[٨٥] • فلقد جمع الشماخي كل ما تراكم في المغرب من الأدب الأباضي على مستوياته المختلفة ،

---

(٨٥) طبع حجر ، القاهرة ، بدون تاريخ •

من سياسي وديني واقتصادي ، وضمنه كتابه في ثنايا سير الأئمة والعلماء والمشايخ • وميزة الشماخي انه فقيه عالم بأصول المذهب وفلسفته وتاريخ ظهوره في المغرب ، وهو لا يكتفي بالنقل بل ينتخب رواياته من كتب السابقين مثل ابن الصغير وأبي زكريا • ويحسن عرضها ، حتى تلك التي تتسم بالطابع الأسطوري ، ويعرضها عرضا مقبولا لا يجافي العقل أو سلامة الحس • وهو يبدأ بعرض أحوال الدولة العربية في صدر الاسلام ، ويلقي الأضواء على الفتنة أيام عثمان ، وظهور فرق الخوارج الأباضية ، ويتكلم على طبقات المشارقة منهم ، من اهل الكوفة والبصرة واليمن ، كمقدمة لقسمه الأول ، وهو : « التعريف بمشايخ المغرب وأئمتهم وكرامتهم ومناقبهم » •

وهكذا ختم الشماخي سلسلة الأباضية المنقبية في المغرب مع مطلع القرن السادس عشر الميلادي • وان بقيت بعد ذلك مؤلفات أسرة الباروني النفوسية الطرابلسية التي أحيت الدراسات الأباضية في وقتنا المعاصر •

البـــاروني :

وكاتب البارونية الأباضي هو سليمان بن الشيخ عبد الله الباروني ، صاحب كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الأباضية(٨٦) • ولقد اطلعنا على مجلد القسم الثاني من الكتاب ، وهو الخاص بمدينة تاهرت (تيهرت) وأئمة بني رستم فيها ، ويحتوي على مقدمة جغرافية مطولة في أقوال الكتاب في مدينة تاهرت وغيرها من مدن الأباضية ، الى جانب صفحات في علماء الأباضية والمشكوك في أمره منهم ، منقــولا من كتب التراجــم المغربيــة والاندلسية مثل ابن الفرضي (ت ٤٠٣ هـ) وابن بشكوال (ت ٥٧٨ هـ) والضبي (ت ٥٩٩ هـ) وابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ) •

أما عن أئمة الرستميين فهو يجمع مادته من كتب التاريخ والتراجم الأباضية ، مثل : ابن الصغير والشماخي وهو ينص على الاخذ منهما ، ولا بأس في أن يكون قد نظر أيضا في كتب أبي زكريا والدرجيني حيث تظهر

---

(٨٦) طبع على ورق أصفر ، بمعرفة المؤلف في مطبعة الأزهار البارونية •

روايتهما ، الا اذا كان النقل عنهما بطريق غير مباشر ، كما يأخـــذ من ابن خلدون . ومن أهم ما يتميز به كتاب الأزهار الرياضية هو اهتمام المؤلف بتوثيق روايته برسائل الأئمة الى عمالهم ورعاياهم ، وكـــذلك الرسائل المتبادلة بين أهل الدعوة في المغرب واخوانهم في المشرق ، وهو الأمر الذى يعطي قيمة وثائقية كبيرة للكتاب ، وان كنا لا نعرف نصيب هذه الرسائل من الصحة أو الخطأ .

أما آخر ما ظهر من كتب الأباضية المعاصرين ، فهو كتاب علي يحيى معمر ، وعنوانه : الأباضية في موكب التاريخ(٨٧) . والكتاب برغم جدته من نوع التراجم التقليدية ، وميزته أنه جمع مادة لا بأس بها من الكتب الاباضية الحديثة . مثل كتاب : الشماخي وآل الباروني . و « قطب الأئمة » محمد يوسف طفيش .

في الأدارسة :

وفيما يتعلق بتاريخ الأدارسة لم تصلنا كتب متخصصة ، كما هو الحال بالنسبة للأغالبة . وبناء على ذلك فنحن نرجع الى كتب التاريخ العام من مشرقية ومغربية ، مما ذكرناه ، بالاضافة الى مسالك البكرى الذى يقدم مادة تاريخية قيمة عن أدارسة فاس وأدارسة المغرب الأوسط .

ابن أبي زرع :

ولكنه بشيء من التساهل نذكر هنا كتاب ابن أبي زرع (أبو العباس أحمد — توفي بفاس فيمـــا بين سنة ٧١٠ هـ/١٣١٠ م وسنة ٧٢٠ هـ/ ١٣٢٠ م) المعروف بروض القرطاس (كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس) . فالحقيقة أنه رغم تأخر الكتاب نسبيا الا أنه اهتم بأخبار مدينـــة فاس منذ انشائها ، وبالتالي بأخبـــار الأدارسة الأوائل . ولقد جمع ابن أبي زرع عددا عديدا من المعلومات الخاصة بقيام الادارسة وبناء فاس من مصادر وصل بعضها الينا ، بينمـــا البعض الآخر ما زال في حكم المفقود . فممن وصلت الينـــا كتبهم يذكر القرطاس كتابي البكرى وصاحب الاستبصار في عجائب الأمصار . والغريب أن بعض الأخبار التي يوردها ابن أبي زرع منسوبة الى هذين الكاتبين ، لا توجد في

---

(٨٧) انظر الجزء الأول في : نشأة المذهب الاباضي ط . القاهرة أكتوبر ١٩٦٤ . والجزء الثاني . في : الاباضية في ليبيا ط . القاهرة ، أغسطس ١٩٦٤ م .

كتابيهما اللذين بين أيدينا الآن ، مما يدعو الى الظن ان كتابي البكرى والاستبصار ربما تناولتهما أيدى التغيير والتبديل حتى وصلا الينا فى غير شكلهما الأصيل(٨٨) .

أما أصحاب الكتب المفقودة — ممن ينقل عنهم — فأشهرهم أبو مروان عبد الملك بن موسى الوراق ، صاحب كتاب « المقباس فى أخبار فاس » ، الذى كان يكتب فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى (١٢ م) ، على ما يظن(٨٩) ، والذى لا ينبغى خلطه بمحمد بن يوسف الوراق القرطبى (توفى ٣٦٣ هـ/٩٧٣ م) صاحب التواليف الذى نقل عنه البكرى كثيرا(٩٠) . وينقل ابن أبى زرع عن مؤرخ ثان اسمه ابن غالب ، لا نعرف عنه الا أنه ألف كتابا فى تاريخ المغرب ، وأن عبد الملك الوراق ينقل — فى كتابه المسمى « بالمقباس فى أخبار فاس » — عنه(٩١) . وأخيرا يذكر صاحب القرطاس مؤرخا يلقبه بالبرنسى ، وهو محمد بن حمادة البرنسى ، الذى عاش فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى (١٢ م) ، وكان تلميذا للقاضى عياض اليحصبى (توفى سنة ٥٤٤ هـ/٤٩ — ١١٥٠ م) ، وكان له كتاب فى تاريخ المغرب والأندلس عنوانه « المقتبس »(٩٢) ، الى جانب كتابه فى

---

(٨٨) أنظر كتاب الاستبصار ، المقدمة ص ب ، وعن البكرى ، أنظر فيما بعد فى تاريخ الأغالبة (عن امامة ادريس الثانى) ، ج ٢ ص

(٨٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٣ ، وأنظر بروفنسال ، تاسيس مدينة فاس (فى : Islam d'Occident, Paris, 1948) النص الفرنسى ، ص ٢١ هامش ٣٨ ص ٣٨ والترجمة العربية (الاسلام فى المغرب والأندلس ، ادارة الثقافة العامة ، مصر) ص ٣١ والهامش . ويحدد بروفنسال ذلك التاريخ مستندا الى رواية منسوبة الى عبد الملك الوراق هذا ، يقول فيها انه دخل مسجد تلمسان فى سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م وشاهد النقش الذى كان على المنبر . ولكنه توجد رواية أخرى فى القرطاس — وهى النسخة التى اطلعنا عليها — تحدد تاريخ ذلك بسنة ٣٥٥ هـ وليس ٥٥٥ هـ (وانظر فيما بعد ، ص ٣٧٨ وهامش ١٣١ .

(٩٠) المصدر السابق ، وانظر فيما سبق ، ص ٢٥ و٢٨ و٣٠ .

(٩١) انظر بروفنسال ، تاسيس فاس ، النص الفرنسى ، ص ٢١ والترجمة العربية ، ص ٣١ (تنسب المقباس لابن غالب) . ويجب ان نشير هنا الى أنه لا بأس من ان يكون ابن غالب هذا من رجال القرن الرابع الهجرى (١٠ م) ، وذلك أن الرواية المنسوبة الى الوراق عن رؤيته لمنبر جامع تلمسان تجعل لذلك تاريخين هما سنة ٥٥٥ هـ وسنة ٣٥٥ هـ (كما فى الهامش قبل السابق) وربما كان التاريخ الثانى خاصا برواية ابن غالب ثم تحور عندما نقله الوراق حتى يناسب عصره ، وهذا ما نرى له مثيلا عند بعض الناقلين (أنظر فيما سبق — عن المسعودى والبكرى — ص ٢٩ — ٣٠ و ٣٢) .

(٩٢) بروفنسال ، تاسيس فاس ، النص ص ٢١ وهامش ٤٠ ص ٣٨ والترجمة ص ٣٢ .

ملوك بني عبيد الذي يأتي ذكره ·

بفضل هذه المادة الغزيرة والفريدة في نوعها ، أصبح كتاب روض القرطاس رغم تأخره النسبي ورغم ما يؤخذ عليه من عدم الاهتمام بالمنهج التاريخي أو افتقاده الى روح النقد العلمي(٩٣) ـ أهم مصدر عن قيام دولة الأدارسة وتأسيس مدينة فاس وتخطيطها في أيامها المبكرة ، لا يضاهيه في ذلك الا كتاب البكري · وعن القرطاس نقل المتأخرون مثل الجزنائي (ق ٨ هـ /١٤ م) صاحب « زهرة الآس » ، وابن القاضي (يكتب في أواخر القرن العاشر الهجري/١٦ م) صاحب « جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس » ·

في قيام الدولة الفاطمية :

يعاني الباحث في تاريخ الدولة الفاطمية من قلة المصادر المعاصرة ، كما هو الحال بالنسبة لدول الأغالبة والرستميين والأدارسة ، رغم أن المقارنة بين دولة كتامة الافريقية بعد أن أصبحت خلافة عظمى في القاهرة وبين تلك الدول لا وجه لها · فاهم مصادر تاريخ الدولة الفاطمية الموجودة بين أيدينا الآن ، هي لكتاب من العصر المملوكي ، من رجال القرن التاسع الهجري (١٥ م) ، مثل : المقريزي ـ مؤرخ مصر الشهير · ولا شك أن الاعتماد على مصادر متأخرة عن الفترة التي ندرسها بخمسة قرون أو ستة لما يقلل من شأن النتائج التي تصل اليها الدراسة ·

ولحسن الحظ أن رأى النور مؤخرا عدد من المؤلفات الفاطمية المعاصرة للفترة التي ندرسها ، أهمها مؤلفا القاضي النعمان : دعائم الاسلام(٩٤) ، وافتتاح الدعوة(٩٥) ، ثم مذكرات في حركة المهدي الفاطمي(٩٦) · والى جانب ذلك نذكر كتاب ابن حمادة في سيرة ملوك بني عبيد الذي نشره وترجمه الى الفرنسية فوندرهايدن(٩٧) · أما كتاب المقريزي المعروف باتعاظ

---

(٩٣) انظر نقد جوتييه (Gautier) للكتاب ، وخاصة ص ٧٧ ·

(٩٤) دعائم الاسلام ، وذكر الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام ، تحقيق آصف بن علي أصغر في جزءين ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣ ·

(٩٥) رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضي ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٠ ·

(٩٦) استتار الامام وسيرة جعفر . تحقيق و· ايفانوف . مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية ، المجلد ٤ · ج ٢ ـ ديسمبر ١٩٣٦ ·

(٩٧) منشورات كلية الآداب بالجزائر ، الجزائر ـ باريز ، ١٩٢٧ ـ وصاحب الكتاب =

(شنفا في أخبار الأئمة الخلفا(٩٨) ، فانه ما زال يحتل مركز الصـــدارة بين مصـادر العصر الفاطمي الأول .

القاضي النعمان :

وكتاب دعائم الاسلام يعتبر المرجع الأول لدراسة المذهب الفـاطمي . فالقاضي النعمان (ت ٣٦٣ هـ/٩٤٧ م) خدم الخلفاء الفاطميين الاوائل منذ المهدي حتى المعز ، كما مارس القضاء في كل من طرابلس والمنصورية ، مما جعله المشرع الأكبر للفاطميين(٩٩) . ومما يزيد في أهمية الكتاب الذي يعالج أصول التشيع وفروعه وفلسفة وجوده ، أنه ألف بأمر الخليفة المعز حتى انه اعتبر من عمل المعز نفسه .

والجزء الأول يشتمل على دعائم التشيع في سبع كتب ، في : الولاية والطهارة ، والصلاة ، والجنائز ، والزكاة ، والصـــوم ، والحج ثم الجهاد ، بينما يشتمل الجزء الثاني على ، ٢٥ (خمسة وعشرين) كتابا ، في : البيوع والايمان ، والنذور ، والأطعمة ، والأشربة ، والطب ، واللباس ، والصيد ، والضحايا ، والنكاح ، والطلاق ، والعتق ، والعطايا ، والوصايا ، والفرائض والديات ، والحدود ، والسراق ، والردة ، والبدعة ، والغصب ، والعارية واللقطة ، والقسمة ، والبنيان ، والشهادات ، والدعوة ، وأخيرا أدب القضاة ، مـــا يعني كل ما يمس حياة النـــاس اليومية ، عـــلى المستويين الديني والاجتماعي .

والقاضي النعمان الذي يظهر ، في الدعائم ، كمشرع الفاطميين الأكبر ، يظهر في افتتاح الدعوى كقصاص اخباري نابه ، ومؤرخ من النوع الموهوب .

= يعرف هنا بابن صغير ، وهو ما قد يوجد في بعض المصادر (ابن خلدون ، ج ٧ ص ٤٣) . اما ابن عذاري الذي يرجع اليه كثيرا في تاريخ المرابطين فهو لا يعرفه بابن صمادة (البيان ج ١ ص ٣٠٣ و ٣٢٧ . وكذلك القطعة المنشورة بمعرفة هويسي ميراندا في مجلة هسبريس ١٩٦٠ ، والتي علق عليها احسان عباس ، ونشرت في بيروت ١٩٦٧ على أنها الجزء الرابع من الكتاب ، ص ٧٤ ، ٩٩ ، ١٠٤ ... الخ) .

(٩٨) تحقيق جمال الدين الشيال . القاهرة ، ١٩٦٧ .

(٩٩) أنظر مقدمة المحقق ، ص ١١ — ١٢ .

والخليفة المعز أيضا هو صاحب فكرة هذه الرسالة التي كتبت سنة ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧ م(١٠٠) .

ويسرد النعمان في افتتاح الدعوة قصة تنظيم الدعوة الفاطمية في المغرب منذ بداياتها الاولى على أيام الامام جعفر الصادق ، ويبين علاقتها بدعوة اليمن ، قبل أن يعرف بأبي عبد الله الداعي ، وكيف عهد اليه باظهار الدعوة في كتامة . وفيما يتعلق بنشر الدعوة في كتامة ، وتنظيم أنصار مذهب المهدي هناك ، يقدم لنا افتتاح الدعوة معلومات تفصيلية قيمة . هذا ، كما أنه يتفرد — على مستوى التاريخ السياسي ، من : الصراعات الداخلية بين القبائل ، ثم الحرب المكشوفة مع الاغالبة ، التي انتهت بدخول القيروان ، وتاهرت ، وسجلماسة حيث تم انقاذ المهدي — بتقديم المعلومات التفصيلية التي نقلها عنه المتأخرون والتي رفعته ، كما نرى ، الى مستوى كبار المؤرخين .

وهذا ما بينته المحققة في دراستها النقدية ، في المقدمة ، حيث أشارت الى نجاح القاضي النعمان ، بفضل التزامه بحدود موضوعة في الاطار الفاطمي دون الخروج به الى رحاب التاريخ العام أو حتى المغربي ، في اظهار الدعوة العبيدية كدعوة متسلسلة الأحداث متكاملة العناصر . وذلك ما لم ينجح فيه من نقلوا عنه أو اختصروه من كتاب التاريخ العام مثل : ابن الأثير ، والدواداري ، وابن خلدون ، والمقريزي — اذ تفرقت الأحداث على مختلف السنين أو الفصول ، فتقطعت أوصال الرواية ، وتداخلت عناصرها في غيرها من المواد ، وفقدت بذلك ما كانت تتصف به من السلاسة ، والانسجام .

وبطبيعة الحال لا يعني ذلك أن رواية النعمان في افتتاح الدعوة فوق مستوى النقد ، فقاضي القضاة ما كان يمكنه أن يتجرد من تحيزه للدولة التي كان يخدمها ، وخاصة أنه كتب بطلب من الخليفة المعز ، مما جعله من نوع الكتاب المنكبين ، وجعل كتابه ، على كل حال ، من ذلك النوع من الكتب المنقبية التي رأينا نماذج لها عند أهل السنة في القيروان ، وعند الأباضية في تاهرت وجبل نفوسة ، وان لم يشوبه ما شابها من اختلاط الحقائق بالأساطير .

---

(١٠٠) انظر مقدمة المحققة ، ص ٢٠ . وهو التاريخ الذي يسجله النعمان في نهاية الكتاب .

وتتضح تلك الحقيقة عندما نقارن رواية افتتاح الدعوة بقصتي : استتار الامام (لأحمد بن ابراهيم النيسابوري الذى كان معاصرا للخليفة المعز) ، وسيرة جعفر الحاجب (لمحمد بن محمد اليمانى الذى كان من خدام الفاطميين ، والذى كتب على أيام المعز أيضا بعد سنة ٣٤١ هـ/٩٥٣ م) • فرغم أن النصين القيمين ينقيان بالضوء على بعض الاحداث التاريخية الغامضة من بداية الدعوة الفاطمية في الشام وعلاقاتها بالقرامطة ، ويقدمان رواية شاهد العيان المطلع على بواطن الامور فيما يتعلق بتنظيم الدعاية الفاطمية فى المشرق وبرحلة المهدى الى سجلماسة ، فانهما تظلان من نوع التاريخ القصصى الذى يكتبه غير المختصين • ويظهر ذلك بشكل خاص فى سيرة جعفر التى يمزج الأحداث الجادة بالروايات الأسطورية ، مما يجعل سيرته من النوع الشعبي - رغم معلوماتها الثمينة ، التى يظهر فيها فى بعض الأحيان أثر رواية القاضى النعمان فى افتتاح الدعوة •

ولقد كانت قصتا استتار الامام وسيرة جعفر ، مثلهما مثل افتتاح الدعوة ، محل عناية الكتاب الذين عالجوا بداية الدعوة الفاطمية ، ويظهر ذلك عند صاحب الاستبصار والمقريزى كما يظهر عند كتاب الاباضية كأبى زكريا والدرجينى ، فى الفصول التى تعرضوا فيها لقيام الفاطميين ونهاية الرستميين •

ويتميز كتاب اتعاظ الحنفا للمقريزى ، بأنه نقل كثيرا من معلومات كتب الفاطميين هذه الى جانب روايات غيرهم من الكتاب والمؤرخين ، من أعداء الفاطميين من رجال الخلافة العباسية ومن العلويين ، ومن المتعاطفين معهم من كتاب أهل السنة ومن الشيعة •

واذا كان المقريزى قد نقل عن كتب ما زالت موجودة بين أيدينا ، مثل : تاريخ الطبرى : وفهرست ابن النديم وكامل ابن الأثير ، وعبر ابن خلدون ، فانه قد احتفظ لنا بقطع نادرة من كثير من الكتب الاصيلة التى لم تصل الينا ، مثل : سيرة المعز للحسن بن زولاق ، والطعن على أنساب الخلفاء الفاطميين لأخي محسن ، وتاريخ افريقية والمغرب لعبد العزيز بن شداد ، وغيرها مما ذكره الشيال فى الدراسة(١٠١) ، ومما أهمل المقريزى ذكره بين مراجعه ، كما نظن •

---

(١٠١) انظر المقدمة ، ص ٣٦ ، ص ٣٨ - ٣٩ •

وهكذا يظل كتاب اتعاظ الحنفا ، رغم تأخره الزمني ، أوفى مرجع لدراسة تاريخ الفاطميين سواء في مصر أو في المغرب(١٠٢) ٠

وتظهر أهمية اتعاظ الحنفا بالنسبة للدراسة عند مقارنته بـ « أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم » لابن حماد ٠ فالكتاب الأخير مختصر عام في تاريخ الفاطميين ، يكتفي برسم الخطوط العريضة لذلك التاريخ دون الدخول في تفصيلاته المسهبة ، ولا في متاهات موضوعاته الغامضة أو التي كانت محل خلاف بين الكتاب ٠

وصاحب الكتاب — الذي عرف به المحقق في مقدمته ، بمساعدة كتاب عنوان الدراية في مشايخ بجاية للغبريني — هو أبو عبد الله محمد بن علي ابن حمادة بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي (مولده في منطقة قلعة بني حماد حوالي من ٥٤٨ هـ/١١٥٠ م ، ووفاته سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م) ٠ والى جانب أخبار العبيديين يذكر لابن حمادة كتاب في تاريخ مدينة بجاية عالج فيه تاريخ أمراء الصنهاجيين الذين ينتسب اليهم ، وكان الكتاب معروف على أيام ابن خلدون الذي نقل منه ٠

وابن حمادة يجمع معلوماته ، كما يشير فوندرهايدن في مقدمة الترجمة الفرنسية ، من الكتب التي وقعت بين يديه ، مثل كتاب الرقيق الذي يظهر أثره في الكتاب ، الى جانب الروايات التي سمعها من المشايخ ، والتي كانت قد بقيت في منطقة القلعة وبجاية اللتين شهدتا بعض الأحداث الهامة من تاريخ الفاطميين في المغرب ، مثل ثورة أبي يزيد صاحب الحمار وهذا يعطي الكتاب قيمة خاصة بالنسبة للفترة المغربية من التاريخ الفاطمي(١٠٣) ٠

---

(١٠٢) وهنا نود الاشارة الى أنه من الواضح أن الكتاب ظهر في نسختين ، كانت الأولى منهما مختصرة لاكتفاء المقريزي في تحريرها بالنقل عن ابن الأثير — انظر طبعة الشيال ، سنة ١٩٤٨ وهذا ما يشير اليه المحقق في مقدمة الطبعة الثانية ، ص ٣٦ — ويظهر أن المؤلف تنبه الى قصور عمله هذا فعمل على تزويدها بالمعلومات من مظانها المعتبرة حتى صارت الى ما صارت اليه في النسخة الثانية ، تحقيق الشيال ، ١٩٦٧ ، ج ١) ٠

(١٠٣) انظر المقدمة الفرنسية للكتاب ، ص ٧ — ١١ ٠ وانظر كتاب الغبريني ، عنوان الدراية ط ٠ بيروت ١٩٦٩ ترجمة رقم ٣٥ ٠

المصادر الجغرافية :

تلك أهم الكتب التاريخية من مصادر الفترة التي ندرسها ، وتليها في الأهمية الكتب الجغرافية · وكتب الجغرافية تنقسم الى قسمين : علمية خاصة بتقويم البلدان والاطوال والعروض ، ووصفية خاصة بالبلدان والمسالك · وهذا النوع الأخير هو الذى يهمنا بصفة خاصة · ومما يستحق الملاحظة هو أن الجغرافية العربية كانت ــ مثل الجغرافية عند القدماء ــ وثيقة الصلة بعلم التاريخ ، ورغم استقلالها عنه ، فلقد ظلت كتب الجغرافية تحتوى على معلومات تاريخية هامة ، الى جانب المعلومات الجغرافية والأدبية وغيرها ، ولهذا السبب نجد أن بعض الكتاب الفوا في التاريخ والجغرافية جميعا ، مثل اليعقوبي (توفى ٢٧٨ هـ/٨٩٩ م) والمسعودى (توفى ٣٤٥ هـ/٩٥٦ م) والبيرونى (توفى ٤٤٨ هـ/١٠٤٨ م) وأبى الفدا (توفى ٧٣٢ هـ/١٣٣١ م) وغيرهم ·

والمعلومات الجغرافية هامة بالنسبة للمؤرخ · فالتاريخ هو تسجيل الأحداث الخاصة بالانسان في زمن معين وكذلك في بيئة معينة · والبيئة لها اثرها العميق في حياة الانسان ، وهذا ما وضحه ابن خلدون في مقدمته بشكل ميزه عن كل سابقيه · وكتب الجغرافية تكمل كتب التاريخ ــ التى اهتمت بالأحداث السياسية بشكل خاص ــ من حيث اهتمامها ، الى جانب وصف الأحوال الطبيعية والبيئة ، بامدادنا بمعلومات ذات طبيعة متنوعة ، منها الاقتصادية والاجتماعية وما يختص بعادات الشعوب وتقاليدها ····· الخ · وهذه المعلومات يمكن أن تنقسم ، مثل المعلومات التاريخية ، الى قسمين كبيرين : المعلومات المنقولة والمتواترة ، وهذه تتراوح في قيمتها ما بين الاصالة والوضع أو التزييف ، والمعلومات وليدة التجربة والمشاهدة الشخصية ، وتتصف بالصحة والدقة ــ بالنسبة للعصر الذى سجلت فيه ·

وعلى أساس هذا المنهج تنقسم كتب الجغرافية (مثل كتب التاريخ التى عرضناها) الى قسمين: كتب المشارقة وتكون معظم المكتبة الجغرافية العربية، وموقفها من المغرب مثل موقف كتاب الطبرى من حيث أنهـا وجهت معظم عنايتها الى المشرق ، وبذلك تركت ما يشبه الفراغ بالنسبة لجغرافية المغرب · وهذا ينطبق على كتب ابن خرداذبه وابن رسته وابن الفقيه واليعقوبى والاصطخرى والمسعودى والمقدسى وأبى الفدا وغيرهم· وهذا لا يمنع من وجود قطع مفيدة عن المغرب في كل كتب هؤلاء · ولقد انفرد ابن حوقل (توفى

٣٦٧ هـ/٩٧٧ م) في كتابه « صورة الارض » بموقف خاص وذلك انه قام بنفسه برحلة جول فيها في بلاد المغرب والأندلس وصقلية . ووصف أحوالها وصف شاهد العيان . وأمدنا بمعلومات ثمينة عن البلاد على أيامه ٠

ولقد أتى الجغرافيون المغاربة ــ بعد ذلك ــ وسدوا ذلك النقص فى المكتبة الجغرافية العربية . فاعتنوا ببلادهم وافردوا لها الكتب المطولة ٠ وأهم الجغرافيين المغاربة هو أبو عبيد الله البكرى (توفى ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م) الذى كتب فى الجغرافية العامة كتابا أسماه « المسالك والممالك » ، ولحسن الحظ وصلنا منه الجزء الخاص بالمغرب ، الذى نشره دسلان (De Slane) تحت عنوان « كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب » ٠ كما ترجمه الى الفرنسية تحت عنوان صفة بلاد المغرب ٠ وللكتاب أهمية تاريخية كبرى لأنه ينقل بعض كتب تاريخ المغرب الأصيلة التى عالجت تاريخ البلاد فى القرون الاسلامية الأولى ، والتى لم تصل الينا وخاصة كتب محمد بن يوسف الوراق وابراهيم الرقيق وغيرها ، كما سبقت الاشارة(١٠٤) وهذه المعلومات ما زالت محتفظة بقيمتها الفريدة اذ لم يعثر على أصولها الأصلية الى الآن ٠

وفيما يتعلق بالمعلومات ذات الطابع الجغرافى ، نجد فى البكرى معلومات دقيقة عن الطرق والمسالك لا يحتمل أن تكون وليدة المشاهدة ، والاقرب الى الصحة أن تكون مستقاه من الأوراق الرسمية الموجودة فى الدواوين ٠ وهذا يعنى أن البكرى كان فى موقف يسمح له بالاطلاع على وثائق وسجلات ديوان قرطبة(١٠٥) ٠ والى جانب ذلك نلاحظ أن البكرى ينقل عن بعض الكتب القديمة السابقة على العصر العربى ، مثل تاريخ البلاد قبل الاسلام ، والحرب بين روما وقرطاجنة . وكذلك المعلومات الخاصة بالمسيحية ، التى يوردها وكأنها وليدة مشاهدته وتجربته الشخصية . تماما كما فعل المسعودى فى بعض الأحيان(١٠٦) ٠

---

(١٠٤) انظر فيما سبق ، ص ٢٩ ـ ٣٠ ٠

(١٠٥) انظر فيما سبق ، ص ٣٠ ٠

(١٠٦) انظر المعلومات الخاصة بتنيس ودمياط وبير الاسكندر عند المسعودى (طبعة المصرية ج ١ ص ١٠٠ ، ٣٩٢ ، ويورد كتاب الاستبصار الذى ينقل بعض هذه المعلومات عن طريق البكرى ـ ويضع لها نفس التاريخ الذى كان يكتب هو فيه (٥٨٦ هـ) (المقدمة صرخ ـ ذ ص ٨٨وهامش ١) ٠

ورغم الصفة العلمية الدقيقة التي تغلب على معلومات البكري ، نجد أنه يجمع معلومات متنوعة في طبيعتها ، بعضها من الدرجة الثانية ، مثل : معلوماته عن أحوال المغرب السياسية على أيامه(١٠٧) ، وبعضها خرافي أسطوري ، مثل : كلامه عن الواحات وبعض العادات والتقاليد هذا ، الى جانب بعض المعلومات التاريخية الأساسية الخاطئة ، التي قبسها دون أن يعرضها للنقد ، مما كان موضع ملاحظة الذين نقلوا عنه من المتأخرين ، مثل ابن خلدون والتجاني ، والعبدري ، ولكن هذه هنات بسيطةلا تقلل من قيمة الكتاب الكبيرة ، حتى أصبح البكرى مرجعا نقل عنه معظم المتأخرين (مثل ابن عذاري وابن خلدون والادريسي وصاحب الاستبصار ، وابن الأثير والتجاني ، وغيرهم) .

ويأتي بعد البكرى كتاب الادريسي (توفي سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٣ م) المسمى بنزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، والمعروف أيضا بكتاب رجار أو (لجار) ، صاحب صقلية النورمندي. ولقد وصلنا لحسن الحظ ـ منه الجزء الخاص بالمغرب الذي نشره وترجمه الى الفرنسية دوزى ودغوية ، تحت عنوان « صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس » (طبعة ليدن ١٨٦٤ م) . هذا ، كما وصلتنا القطعة الخاصة بوصف صقلية ، وجزر البحر المتوسط ، التي نشرها اماري في مكتبته الصقلية ، وهي أهم وصف للجزيرة وأكثره استفاضة في المكتبة العربية . ومن حسن الطالع انه وصلتنا أيضا القطعة الخاصة بوصف ايطاليا من كتاب نزهة المشتاق ، والتي نشرها اماري أيضا في روما (سنة ١٨٧٨ م ، مع مقدمة الكتاب) والادريسي فيما يتعلق بالمعلومات الخاصة بأحوال المغرب في القرون الأولى لا يرقى الى مستوى البكرى أو ابن حوقل ، ولكنه يضيف معلومات ثمينة عن الفترات التالية (الخاصة بالقرنين الخامس والسادس الهجريين) . ومثل هذا يمكن أن يقال عن كتاب الاستبصار في عجائب الامصار الذى يحتوى على وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب والسودان (مطبوعات كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية ـ سنة ١٩٥٨) . فهو ينقل كثيرا عن البكرى والادريسي ولكنه يضيف ـ عن المغرب ـ معلومات قيمة (تاريخية وجغرافية وعمرانية) خاصة بعصره ـ عصر الموحدين وعلى نسق الادريسي ، قسم ابن سعيد جغرافية العالم الى الأقاليم السبعة ، وأضاف

---

(١٠٧) أنظر مقدمة دسلان (De Slane) للبكرى ، ص ١٤ .

معلومات جديدة عن بلاد المغرب وعلاقاتها ، بصفة خاصة ، ببلاد السودان • ويعتبر ابن سعيد في هذا المجال من مصادر ابن خلدون • والى ذلك نضيف النصوص الخاصة بجغرافية المغرب في تاريخ ابن خلدون ، لما حوته من معلومات أصيلة ، ومنقولة عن كتب لم تصل الينا أو مبنية على التجربة والملاحظة ، ومصنفة حسب قواعد النقد والتمحيص ، التي عرف بها المؤرخ المغربي الكبير •

والى كتب الجغرافية تنضاف كتب الرحلة التي تتميز بتسجيل المعلومات وليدة التجربة ومشاهدة العيان • ومن أشهرها رحلة العبدري (سنة ٦٨٨ هـ/١٢٨٩ م) ـ مخطوط المكتبة الوطنية بباريز ، القسم العربي، رقم ٢٢٨٣) ، ورحلة التجاني في تونس وطرابلس من سنة ٧٠٦ هـ الى سنة ٧٠٨ هـ/١٠٣٦ ـ ١٣٠٨ م (طبعة تونس ١٣٧٨/١٩٥٨) والتجاني ـ الى جانب مشاهداته ـ ينقل عن البكري والادريسي وابراهيم الرقيق وابن رشيق (له كتاب ، أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، ـ رحلة التجاني ، ص ٣٣ والهامش ٢ ، وانظر ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ الخ ••) ، وابن شرف (الذي كان له كتاب في التاريخ ـ ص ٣٣ ـ وآخر يعتبر صلة لتاريخ الرقيق ـ ص ٨٣) • وأخيرا نضيف رحلة العياشي ، رغم تأخره (توفي سنة ١٠٩٠ هـ/١٦٧٩ م) ، وذلك لعنايته البالغة في وصف الطريق الصحراوي من سجلماسة الى الاسكندرية وصفا دقيقا ، يميزه عن كل سابقيه •

ولقد استفدنا من المعلومات الجغرافية في الفصل الأول من الكتاب بصفة خاصة ، أما ما حواه من المعلومات التاريخية ، فرغم فائدتها الا أنها تعتبر اجمالا ـ من الدرجة الثانية •

كتب الطبقات :

وتأتي بعد كتب الجغرافية كتب الطبقات ، ومنها العامة مثل وفيات ابن خلكان ، والعامة (اقليميا) الخاصة (موضوعيا) مثل طبقات الصحابة وطبقات الأدباء وطبقات الأطباء وطبقات الصوفية ، ومنها الخاصة بالمغرب وهي التي تهمنا أكثر من غيرها ، وأهم كتب النوع الأخير هو كتاب الحلة السيراء لابن الأبار (٥٩٥ هـ/١١٩٩ م) ـ (٦٥٨ هـ/١٢٦٠ م) ، الذي يحوي تراجم أعلام أهل الاندلس والمغرب ، اعتبارا من أهل المائة الأولى ، والذي حققه

حسين مؤنس في جزءين(١٠٨) • وأهم الكتب الخاصة بطبقات رجال المغرب من العباد والزهاد والصالحين أربعة • أولها كتاب أبي العرب محمد بن أحمد ابن تميم (توفي سنة ٣٣٣ هـ/٤٤ ـ ٩٤٥ م) المسمى « كتاب طبقات علماء افريقية » ، الذي نشره محمد بن أبي شنب وأضاف اليه كتاب طبقات علماء تونس لنفس أبي العرب . وثانيها كتاب طبقات علمـــاء افريقية لمحمد بن الحارث بن راشد الخشني (الجزائر ، ١٣٣٢ هـ/١٩١٤ م) • أما ثالثها فهو كتاب أبي بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي (توفي حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى/١١ م) ، المسمى « كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم » ، الذى نشر الجزء الأول منه الدكتور حسين مؤنس (القاهرة ١٩٥١) • ورابعها كتاب عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله الأنصاري المعروف بالدباغ ، الذي ذيله وأضاف اليه أبو القاسم قاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي القيرواني (توفي سنة ٨٣٧ هـ/٣٣ ـ ١٤٣٤ م) حتى عرف الكتاب عند البعض باسم الأخير (طبع تونس ، ١٣٢٠ هـ) • والكتب الاربعة يكمـــل بعضها البعض ، رغم انها جميعا تبدأ بطبقات الرجال من البداية •

وهذه الكتب تعتبر فرعا من نوع أهم هو كتب تاريخ الدين العامة ، مثل : الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم القرطبى (توفى ٤٥٦ هـ/ ١٠٤٦ م) ، والملل والنحل للشهرستاني (توفى سنة ٥٤٨ هـ/١١٥٣ م) ، والفرق بين الفرق للبغدادى (توفى سنة ٤٢٩ هـ/١٠٣٧ م) ، الا أنها تخصصت في تاريخ الاسلام ومذاهبه ونحله فى بلاد المغرب • فمع أنها قصدت الترجمة أو التاريخ لعلماء أهل السنة ، الا أنها تعرضت للمذاهب الاسلامية الأخرى التى عرفها المغرب على مر العصور ، مثل مذاهب الخوارج والشيعة وغيرها من النحل الفرعية • وهى هنا تلتقى مع كتب الجغرافية التى تمدنا بأهم ما نعرفه عن المذاهب والمعتقدات المخالفة للسنة ، والتى لاقت نجاحا فى كثير من الجهات •

وبناء على ذلك فميزة هذه الكتب تتلخص فى انهـــا تهتم بالتـــاريخ الاجتماعي والحضاري ، أكثر من اهتمامها بالتاريخ السياسى • فهى عندما تترجم لشخصياتها لا تهتم بالمعلومات العلمية الجافة فقط ، بل تتابع من تترجم

---

(١٠٨) ابن الآبار ، الحلة السيراء ، القاهرة ، ١٩٦٣ •

لهم في حياتهم الخاصة ، في المدن والأسواق والأزقة ، والمساكن الخاصة - وهي من هذا الوجه - تحوى معلومات متنوعة ، منها ما هو خاص بخطط المدن ، وما هو خاص بتنظيم الأسواق وأحوال النشاط الاقتصادي ، وما يتعلق بالعادات والتقاليد المتعارف عليها في تلك الأزمان ، الى جانب هدفها الاول ، وهو الكلام عن العلماء والفقهاء من أهل السنة ، وجهادهم في سبيل نشر الاسلام في البلاد ، وصراعهم ضد المنشقين من الخوارج والشيعة وأهل البدع . من عامة الشعب أو الطبقة الخاصة ، وحتى الملوك على حد سواء .

والى جانب المعلومات ذات الطابع العلمي ، اهتمت هذه الكتب بالمعلومات ذات الطابع الأسطوري . أو الخرافي ، نظرا لعنايتها بسير العباد الصالحين ، من أصحاب الكرامات والمعجزات ، وخاصة بعد انتشار حركة الربط والزوايا في المغرب .

وبناء على ذلك فأهمية هذه الكتب تصبح محدودة بالنسبة لفترة الفتوح الأولى ثم أنها تزداد أهمية مع مرور الوقت . وخاصة منذ بدء عصور الاستقلال على أيام الأغالبة ، ولا سيما ابتداء من قيام الفاطميين في المغرب . ويستثنى من ذلك كتاب رياض النفوس ، الذى قدم لتراجمه بمقدمة تاريخية في فتح العرب للمغرب حوت خليطا من المعلومات ذات الطبيعة والأهمية المتفاوتة ، فمنها الأصيل ، ومنها القصصي ، وهي تختلط بشكل يجعل التمييز بين الصحيح منها وغير الصحيح من الصعوبة بمكان . ولقد استفاد الدباغ من هذه المقدمة في صدر كتابه فلخص بعضها وأضاف بعض الاضافات .

والى كتب طبقات أهل السنة في افريقية هذه تضاف كتب السير المنقبية الخاصة بالأباضية ، مما سبق ذكره (أنظر ص ٣٧ - ٤٤) فلها نفس الأهمية بالنسبة لدراسة المجتمعات الاباضية في تاهرت وجبل نفوسة وغيرهما من صحراوات المغرب الأوسط وأفريقية .

الكتب المحلية والمتأخرة :

ويتبقى بعد ذلك الكتب التاريخية ذات الطابع المحلي أو الاقليمي أو المتأخرة نسبيا ، مثل كتاب المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب لأحمد النائب الأنصاري ، (طبعة القاهرة ، ١٣١٧ هـ) . وكتاب التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار لابن غلبون (أبو عبد الله محمد بن خليل ابن غلبون الطرابلسي) . وهو شرح على قصيدة الشيخ أحمد بن عبد الدائم الأنصاري الطرابلسي (طبعة القاهرة ١٣٤٩ هـ) ، وكتاب جلاء الكرب عن

طرابلس الغرب أو النفحات المسكية في أخبار المملكة الطرابلسية ، لمحمد ابن عثمان الحشائشي (توفي سنة ١٣٣٠ هـ/١٩١٢ م) .

ومن تاريخ البلاد التونسية لدينا كتاب المؤنس في تاريخ افريقيـة وتونس لابن أبي دينار (توفي سنة ١٠٩٢ هـ/١٦٨١ م ـ طبعة تونس سنة ١٢٨٦ هـ) ، وكتاب اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، لأحمد بن أبي الضياف (توفي سنة ١٢٩١ هـ/١٨٧٤ م ، الجزء الأول ويتناول الفتح الاسلامي وعصر الولاة ، ودولة بني الأغلب ، ودولة بني عبيد ، والدولة الصنهاجية والدولة الحفصية ، طبعة تونس ١٩٦٣) .

ومن تاريخ « المغرب » مثل كتاب الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى للسلاوي (توفي سنة ١٣١٩ هـ/١٩٠١ م) .

هذه الكتب تعتبر ثانوية ، ليس بسبب طابعها الاقليمي أو لتأخرها أو لأن المعاصر منها ، رغم حداثتها ، لم يتبع المنهج العلمي ، بل لأنها تمر مرا سريعا بالفترة التي تعالجها مكتفية بالتلخيص والنقل من الكتب الموجودة بين أيدينا . وعلى ذلك نحن لا نشير اليها في هوامشنا الا اذا اقتضت الضرورة ، لتأكيد شرح نص من النصوص أو لتأييد فكرة من الأفكار ، فقلمـا تنفرد بمعلومات خاصة .

الكتب الحديثة :

أما عن الكتب العلمية الحديثة الخاصة بتاريخ المغرب فنكتفي منهـا بالاشارة الى « فتح العرب للمغرب » للدكتور حسين مؤنس ، « وبلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الاسلامي في العصور الوسطى » لجورج مارسيه(١٠٩) ، « وماضي شمال افريقية » لجوتييه(١١٠) ثم « تاريخ شمال افريقية »

---

(١٠٩) G. Marçais, La Berbérie et l'Orient musulman au Moyen Age.

(١١٠) E.F. Gautier, Le Passé de l'Afrique du Nord, Les siècles obscura.

لجوليان(١١١) .

ومما نأسف له عدم تمكننا من الاطلاع على أحدث الدراسات في تاريخ الأغالبة ، وهي رسالة الأستاذ الطالبي التي قدمها تحت عنـــوان : امارة الأغالبـــــــة بالفرنســــية **(L'Emirat Aghlabide)** والتي نشرت سنة ١٩٦٦م .

(١١١) Ch — André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord



الباب الأول

البلاد والسكان

البــلاد

التسمية (المغرب) :

بلاد المغرب مصطلح يقصد به الكتاب العرب كل الأقاليم الواقعة غرب مصر ، والتي تشمل شمال القارة الافريقية ، وتتضمن حاليا البـــلاد الليبية بولاياتها الثلاث (برقة وطرابلس وفزان) ، وتونس ، والجزائر بصحرائهـــا المترامية الى تخوم السودان ، وأخيرا المغرب ـ الذى كان يعرف الى عهد قريب باسم مراكش نسبة الى عاصمته الجنوبية ـ ويمتد طبيعيا نحو الجنوب الى تخوم السنغال والنيجر .

واسم بلاد المغرب هو اسم الاتجاه الأصلي الذى يحدد مغرب الشمس ، وهذا يعنى أنه مصطلح عام قصد به البلاد الواقعة في اتجاه غروب الشمس عكس البلاد الواقعـــة في اتجاه شروق الشمس والتي تسمى تبعـــا لذلك بالمشرق(١) . وكانت نسبة الاتجاه الى بلاد العرب في أول الأمر ثم الى بلاد الشام بعد انتقال الخلافة الى دمشق وعلى أيام الفتوح الأموية الكبرى ، ثم كانت النسبة في آخر الأمر الى بلاد العراق وبغداد على أيام التدوين والتنظيم الادارى الراقي الذى عرفه العباسيون ، عندما أصبح دجلة بمثابة خط التقسيم بين الشرق والغرب ، وأصبحت بغداد في هذا المقام بمثابة « جرينتش » بالنسبة لخطوط الطول حاليا . ولقد اتخذ ذلك التقسيم العام للدولة الاسلامية الى مشرق ومغرب شكلا فنيا عندما قسم هارون الرشيد دولته ـ اداريا في سنة ١٨٢ هـ/٧٩٨ م ـ بين ولديه الأمين والمأمون ، فأصبح لولى العهد الأول وهو الأمين مغرب الدولة ويشمل العراق والشام الى آخر المغرب . وأصبح لولى العهد الثاني وهو المأمون مشرقها أى خراسان وما يتصـــل بهـــا من الولايات الشرقية(٢) .

---

(١) أنظر ابن خلدون ، العبر ، طبعة القاهرة ، جـ ٦ ص ٩٨ والترجمة ، جـ ١ ص ١٨٦ .

(٢) الحقيقة ان تقسيم الدولة الى مشرق ومغرب بدأ منذ أيام المهدى عندما عهد للهادى بولاية العهد ثم ولى الرشيد في سنة ١٦٣ هـ « المغرب كله وآذربيجان وارمينية » (ابن الأثير احداث سنة ١٦٣ ، جـ ٦ ص ٢٥) وقارن العيون والحدائق ، ط ، ليدن ١٨٧٩ ، ج ٣ ص

ومفهوم المغرب بهذا الشكل عام وشامل يعني النصف الغربي للدولة الاسلامية • ولكن الكلمة عندما استخدمها العرب في عصر الفتوح الاولى لم يكن لها هذا المعنى الشامل • فقد سموا البلاد المتاخمة جزيرة العرب شرقا وشمالا وغربا بأسمائها مثل العراق والشام ومصر ، وخص كتاب المغازي كلا منها بكتاب(٣) • وهذا يجعلنا نظن أن كلمتي المشرق والمغرب لم تستعملا على نطاق كبير الا بعد أن اتسعت الفتوح ، وأخذ العرب يتدفقون على البلدان المختلفة ، ذات الاسماء الغريبة على جمهورهم في كثير من الاحيان ، فظهرت الحاجة الى استعمال مصطلحات سهلة يعرف منها موضع الاقاليم بشكل عام ويتداولها الناس دون صعوبة — وذلك بطبيعة الحال قبل أن تظهر الحاجة الى التنظيم الدقيق الذي عرفته الدولة فيما بعد — فكان استعمال كلمة المغرب وكلمة المشرق • والذي يهمنا هنا أنه بينما ظلت كلمة المشرق لا تعني أكثر من مفهومها اللغوي ، اتخذت كلمة المغرب مفهوما جغرافيا سياسيا خاصا ، وذلك في ظروف لا نستطيع تحديدها على وجه الدقة ، وان كنا نظن أنه لما كان العرب أشد اتصالا بالمشرق الفارسي منهم بالمغرب فانهم عرفوا أقاليم المشرق بشيء من التحديد • ويمكن أن نضيف الى ذلك أن المشرق الساساني كان يعرف نظما وتراتيب ادارية لم يعرف المغرب الذي كان تاثرا أبدا على الحكم الروماني— مثيلا لها(٤) • ربما كانت هذه الظروف هي التي ساعدت على بقاء استعمال

= ص ٢٨٢ (حيث النص على أن المهدي ولى هارون المغرب كله من الأنبار الى افريقية) •

أما عن تقسيم هارون لدولته بين الأمين والمأمون فرغم أننا لا نجد فيه نصا على ذكر اصطلاحي المغرب والمشرق ، فانه يتضح من مشروع التقسيم أن دجلة هو الحد بين شطري الدولة • فقد كان للأمين الشام والعراق ، وكان للمأمون من حد همذان الى آخر المشرق (الطبري ، أحداث سنة ١٨٦) أو كان له خراسان وما يتصل بها الى همذان (ابن الأثير ، أحداث سنة ١٨٢ جـ ٦ ص ٦٥) ، وانظر م • ع• شعيرة ، تقسيمات اقليمية في العصر العباسي الأول ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٤٤ ، ص ٨٧ (حيث يبين أن لفظ المغرب يشمل كل ما يقع غربي اقليم العاصمة العراقية) •

(٣) أنظر أسماء تواليف الواقدي والمدائني في المغازي مثل فتوح فارس ، فتوح الشام ، فتوح مصر والاسكندرية (الفهرست لابن النديم) ، طبعة التجارية ص ١٥٠ ، ١٥٤ ، بروكلمان تاريخ الأدب العربي (بالالمانية • G.A.L.) ملحق ١ ص ٢٠٨ •

(٤) تتضح فكرة اتصال العرب الوثيق بالفرس ومعرفتهم بأحوالهم قبل الاسلام من الأدب التاريخي وغير التاريخي الذي تركه لنا قدامى الكتاب العرب ، ونكتفي هنا بالاشارة الى كتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ، وتاريخ الأمم والملوك للطبري ، ومروج الذهب للمسعودي • والذي يلاحظ أيضا أن المعلومات الخاصة بالمغرب في هذه الكتب لا تعد شيئا الى جانب المعلومات الخاصة بالمشرق • والمثل لذلك الطبري الذي يمدنا بمعلومات تفصيلية عن المشرق واقاليمه المختلفة في الوقت الذي لا نجد فيه عن المغرب الا معلومات طفيفة لا تكاد تعرف باقاليمه العظمى •

كلمة المغرب لتعريف البلاد الواقعة غرب مصر ، تعريفا يشوبه شيء من الابهام على كل حال[٥] • ومع أن هذا الابهام أخذ يتبدد مع مرور الوقت بعد أن تعرف العرب على البلاد بأقاليمها المختلفة ، الا أن مفهوم الكلمة لم يتضح تماما حتى بعد نمو واكتمال علم الجغرافيا • فقد ظلت كلمة المغرب تعني كل الأقاليم التي تشمل شمال القارة الافريقية — دون مصر وكذلك الأندلس • ولهذا نجد ان بعض الجغرافيين الأوائل مثل الاصطخري يقسم المغرب الى قسمين : مغرب افريقي بمدنه وأقاليمه ، ومغرب أندلسي[٦] • وهذا يعني أن الأندلس أخذت تخرج من نطاق التحديد ، والظاهر أن الظروف السياسية في الأندلس أكدت هذه التفرقة بعد أن استقلت الأندلس عن بغداد ، فلم تصبح جزءا من المغرب الذي ظلت الخلافة متمسكة بشرعية سلطانها عليه •

انطابلس (برقة) وفزان :

ورغم ذلك فلا بأس أن يكون العرب قد سموا — منذ بداية الفتوح ، قبل أن تدخل الأندلس في نطاق المغرب العربي ، وقبل أن تنقل بعض تواريخ البلاد القديمة الى اللغة العربية ، مما يظهر عند البكري — الأجزاء الشرقية من المغرب بأسمائها السياسية أو الادارية المعروفة في التنظيم الروماني • فالاقليم المتاخم لمصر هو أنطابلس أو بنطابلس أي المدن الخمسة باللغة الاغريقية[٧] Pentapolis ، ويعرف أيضا — كما هو الحال اليوم — باسم عاصمته مدينة برقة القديمة[٨] •

---

(٥) ومما يلفت النظر في هذا المقام أن المتأخرين من الكتاب المصريين مثل : القلقشندي وابن تغري بردي عادوا الى استخدام كلمة الغرب بدلا من المغرب وذلك نسبة الى الديار المصرية ، فقالوا : « الديار الغربية » و « الغرب » و « الغرب الأوسط » و « الغرب الأقصى » • أنظر صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ••• الخ وأنظر النجوم الزاهرة ، ج ص •

(٦) أنظر الاصطخري ، المسالك والممالك ، طبعة القاهرة ، ١٩٦١ ص ٣٣ •

(٧) أنظر اليعقوبي كتاب البلدان ، ملحق ابن رستة ، ص ٣٤٦ (حيث يقول : وتسمى برقة أنطابلس ، هذا اسمها القديم) ، ابن خرداذبة ، المسالك ، ص ٩١ (حيث يقول ان أرض برقة هي انطابلس بالرومية ، وهي خمس مدائن) ، البكري ، ص ٤ ، كتاب الاستبصار ص ١٤٣ ابن سعيد ، الجغرافيا ، ص ١٤٧ • والمدن الخمسة القديمة التي أعطت لاقليم برقة اسم بنطابلس على أيام اليونان هي : قوريقة وسوسة وبرقة وطوكرة وبرنيق •

(٨) اسم برقة القديم هو Barki وموضعها مدينة المرج الحالية بالجبل الأخضر نسبة الى المرج الواسع الذي كانت تقع فيه ، كما يفهم من نص اليعقوبي الذي يضيف أن ببرقة جبلين أحدهما يقال له « الشرقي » والآخر يقال له « الغربي » — أنظر كتاب البلدان ، ملحق ابن =

والحدود غير واضحة بين مصر وبين اقليم برقة ، وهذا أمر طبيعي . فأرض برقة امتداد طبيعي لأرض مصر نحو المغرب دون ما حدود ولا فواصل طبيعية ، اللهم تلك العقاب الصغيرة الموجودة في الصحراء ، وأهمها عقبتان في الطريق الساحلي : احداهما عند مرسى مطروح الحالية وتعرف بالعقبة الصغرى ، والأخرى عند السلوم وتعرف بالعقبة الكبرى(٩) . أما في الجنوب فلا عقاب ولا فواصل أو حدود بل تتداخل صحراء مصر وصحراء المغرب ، وتنتشر فيها الواحات فلا تفرقة بين واحات مصر وواحات صحراوات المغرب الكبرى . وهكذا أطلق الجغرافيون المحدثون اسم الصحراء الليبية على صحراء مصر وليبيا جميعا . اذ الحقيقة أن الخطوط الفاصلة المرسومة على الخرائط لا وجود لها على الطبيعة .

وكانت برقة تشتمل في أقاليمها الشرقية على وحدة ادارية أو كورة تعرف بلوبية ومراقية . وهذه الكورة التي كانت وثيقة الصلة بالاسكندرية احتوت على اقليمين : الشرقي منهما هو لوبيه ، اسم عاصمة الاقليم ، وهو نفس الاسم الذي كان يطلقه كتاب اليونان على شمال القارة الافريقية دون مصر . ولا يحدد الكتاب موضع مدينة لوبية بالدقة بل يقولون انها بين الاسكندرية وبرقة(١٠) والغربي منهما مراقية وهو تعريب لاسم الكورة الروماني مرمريكا (Marmarica) (١١) . وكانت حدود مراقية الغربية

= وستة ، ص ٣٤٣ . وعن مدينة برقة التي كان يقال لها « المرج » على أيام ابن سعيد انظر الجغرافيا ، ص ١٤٦– ١٤٧ وهو يقول ان العرب سمتها برقة لما رأت فيها من الحجارة المختلفة بالرمل . هذا ولو ان المنطقة تعرف حديثا باللغات الأوروبية باسم مدينتها الساحلية قورينة Cyrène فهي قورينية أو Cyrénaique. .

(٩) انظر ابن سعيد ، الجغرافيا ، ص ١٤٧ : حيث يجعل العقبة الكبيرة في شرقي المجرى المعروف بالبنطان (البطنان) ويجعلها أول الديار المصرية فكأنها عقبة السلوم . وانظر ص ١٢٨ : حيث يجعل العقبة الصغيرة على سمت سانترية أي واحة سيوة ، فكأنهما في منطقة مرسى مطروح الحالية . وعن سنترية يقول الادريسي (ص ١٣٦) أنها من البلاد البرية والصحار المتصلة بأعمال الاسكندرية . وعن العقبة فتقع في الطريق من مدينة برقة الى الاسكندرية ، بين مرج الشيخ وحوانيت أبي حليمة (الادريسي ، ص ١٣٧) . وانظر صبح الأعشى للقلقشندي ، ج ٣ ص ٣٩٥ ، وانظر فيما بعد ص ٦٦ .

(١٠) انظر ياقوت ، معجم البلدان ، طبعة القاهرة ، ج ٧ ص ٣٤١ .

(١١) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٢٩ ، وهامش ١ . انظر محمد عبد الهادي شعيرة ، مجلة كلية الآداب والتربية ، بنغازي ، المجلد الأول ١٩٥٨ ، ص ١٣ حيث يقول ان لوبية ما بين مرسى مطروح والسلوم حاليا . ص ١٤ حيث يقول ان مراقية نسبة الى شعب المرمريق .

تنتهي عند أرض مدينة برقة نفسها حيث ينحرف الطريق نحو الجنوب بحذاء ساحل خليج سرت في اتجاه إجدابية ، كما يفهم من أحد نصوص المقريزى[١٢] .

أما عن حدود برقة الغربية فهي الأخرى تتداخل في أرض طرابلس الى درجة أن بعض المتقدمين من الكتاب يجعلون القصور التى بناها حسان بن النعمان شرقي مدينة طرابلس بحوالى ٢٥٠ ك٠م — في منطقة تاورغى الحالية وهي أول الحدود الشرقية لاقليم طرابلس الخصيب — « من حيز برقة »[١٣] . وانتهى الأمر عند المتأخرين الى أن أصبح مفهــــوم اقليم برقة يعنى المنطقــة الصحراوية الممتدة ما بين منطقة طرابلس الزراعية وحدود مصر . فالعياشي صاحب الرحلة بعد أن يترك مدينة مسراتة (من ولاية طرابلس) ويتجه نحو المشرق يقول :وفارقنا آخر العمران ودخلنا برقة[١٤] ، وذلك قبل أن يصل الى قصور حسان[١٥] . وعلى ذلك فهو يجعل سرت التي وصل اليها بعد ذلك ضمن أرض برقة[١٦] . ويقول العياشي بعد ذلك ان أرض برقة مسافة شهرين من الاسكندرية الى افريقية[١٧] ، وهو يقسم أرض برقة الممتدة من مسراتة الى الاسكندرية الى خمسة اقسام مشتقة أسماؤها على الجملة من طبيعة أرضها ، وهى : سرت — التي ينسب اليها حاليا الخليج الكبير بين برقة وتونس — ، وبرقة الحمراء ، والجبل الأخضر ، والبطنان ، وما بين العقبتين ، وأخيرا ما بين العقبة الصغرى الى الاسكندرية ، ويسمى العقبة الصغرى[١٨] . والاقاليم الجنوبية لطرابلس هي فزان التى يضيف اليها بعض الكتاب اقليم ودان ، ولو أنهم ينصون على أن ودان هى قصبة أو مدينة فزان ، وهى تمتد الى قلب

---

(١٢) الخطط ، طبعة مصر ، ج ١ ص ١٦ ، وانظر للمؤلف ، موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين في افريقية وتقلتهم الى مصر ، مجلة كلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية سنة ١٩٥٨ ، ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .

(١٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، طبعة أوروبا ، ص ٢٠٠ ، البلاذرى ، طبعة اوروبا ، ص ٢٢٩ (في حيز برقة) . وقارن اليعقوبى ، ص ٤٥ — ٣٤٦ (حيث ينص على أن تورغة هي : آخر عمل برقة ، وأنها على مرحلتين من سرت شرقا و ٦ مراحل من طرابلس غربا) .

(١٤) العياشي ، الرحلة ، مخطوط طرابلس ٣٤٠ ، ص ٧٨ وجه .

(١٥) نفس المرجع ، ص ٧٨ خلف .

(١٦) نفس المرجع ، ص ٧٩ وجه .

(١٧) نفس المرجع ، ص ٨٠ وجه .

(١٨) نفس المرجع ص ٨٥ خلف (ويشير العياشي هنا الى أن العبدرى صاحب الرحلة ذكر تقسيما غير هذا جاريا على اصطلاح أهل زمانه) . وقارن ابن سعيد الجغرافيا ص ١٤٧ ، حيث يجعل العقبة الكبيرة .

الصحراء في اتجاه بلاد السودان الى زويلة(١٩) • ومع أن فزان أقرب الى طرابلس منها الى غيرها من الأقاليم الا أنها كانت وثيقة الصلة ببرقة شرقا • فبعد أن دخل العرب برقة كانت سياحتهم الطبيعية جنوبا نحو فزان حتى زويلة والواحات المؤدية الى بلاد السودان(٢٠) كما كانت طرق القوافل تربط واحات فزان بجنوب تونس وبواحات الجزائر ربطا سهلا(٢١) •

اطرابلس وجبل نفوسة :

أما عن أطرابلس (طرابلس) واسمها طربليطة Tripolitaine, Tripolis ومعناها باليونانية المدن الثلاث(٢٢) ، فهي عند الـكتاب الأوائل اقليم له كيانه الخاص مثله مثل برقة أي أنطابلس • وطرابلس متصلة باقليم جبـل نفوسة(٢٣) الذي يعتبره الجغرافيون العرب ذراعا أو امتدادا لسلاسل جبال أطلس المعروفة بجبال درن في المغرب الأقصى حيث تبلغ أقصى ارتفاعها(٢٤) • وجبل نفوسه يحيط بمنطقة مدينة طرابلس الساحلية كالهلال ويفصل بينها وبين الصحروات الجنوبيـة في فزان وما وراءها • ولهـذا تسمى الأقاليم الساحلية المنخفضة من طرابلس بالجفارة والأقاليم الداخلية المرتفعة بالجبـل

---

(١٩) انظر البكري ص ١٠ ـ ١١ ، كتاب الاستبصار ، ص ١٤٦ وهامش ٢ وقارن اليعقوبي (ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦) الذي يجعل ودان من أعمال برقة المضافة اليهما والى عمل سرت •

(٢٠) انظر فيما بعد عن فتح برقة ، الباب الثاني • وانظر البكري ، ص ١٥٨ (عن أودغست أول بلاد السودان : حيث يقول ان سكانها أهل افريقية وبرغجانة ونفوسة ولواتة وزناتة ونفزاوة ، هؤلاء أكثرهم) •

(٢١) عن طريق القوافل والمسافات انظر الأصطخري ، ص ٣٧ ، البكري ، ص ١١ وتابع •

(٢٢) انظر البكري ، ص ٧ « لأن طر معناه ثلاث وبليطة يعني مدينة » ، كتاب الاستبصار ص ١١٠ وقارن ابن خرداذبة (ص ٩١) حيث يقول ان مدينة أياس هي أطرابلس أي ثلاث مدائن ، والمسعودي ط • التجارية ١٩٤٨ ، ج ٢ ص ١١٩ (نفس رواية ابن خرداذبة والمدن الثلاث هي : اياس Oea موضع مدينة طرابلس الحالية ، لبدة في شرقها ، وصبرة أو صبرت (صبراتة الحالية) في غربها • وانظر الرحلة الورثيلانية ، تصحيح محمد بن أبي شنب ط ٢ بيروت (تصوير) ١٩٧٤ ، ص ١٤٥ •

(٢٣) انظر اليعقوبي ، ص ٣٤٦ (حيث يسمي البلاد « أرض نفوسة » نسبة الى القبائل التي يجعل منازلها في « جبال طرابلس » ، فكأنه يطلق على جبل نفوسة اسم « جبـال طرابلس ») •

(٢٤) عن اتصال جبل درن بجبل أوراس وبجبل نفوسة أنظر البكري ، ص ١٦٠ ، وانظر الاستبصار ، ص ١٦٣ (واشهر قرى جبل نفوسة ، شروس وجادو) ، وقارن القلقشندي ، صبح الاعشى ج ٥ ص ١٧٣ (عن ابن سعيد) حيث النص على أن أول جبل درن في أقصى المغرب وآخره من جهة الشرق على ٣ مراحل من اسكندرية من الديار المصرية ، ويسمى طرفه الشرقي المذكور « رأس أوثان » •

وبالظهر(٢٥) • وموضع جبل نفوسة بهذا الشكل كان سببا فى أن أصبح اتصال فزان ببرقة بل وربما بتونس والجزائر أكثر سهولة من اتصالها بطرابلس القريبة • وكان ذلك من أسباب ضيق حدود اقليم أو حيز طرابلس الذى لم يعد ذا كيان خاص عند الجغرافيين اذ جعلوا مدينة طرابلس دون مدينة افريقية(٢٦) .

افريقيـــة :

واقليم افريقية هو أول أقاليم المغرب الحقيقى • يفهم ذلك من روايات الكتاب الاوائل : فابن عبد الحكم عندما يتكلم عن محاولات عمرو بن العاص لفتح ما وراء طرابلس يقول : « وأراد عمرو أن يوجه الى المغرب »(٢٧) وكذلك عندما يذكر فى بعض المواضع حملتى عبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة ٢٧ هـ ومعاوية بن حديج سنة ٣٤ هـ بافريقية ، يقول انهما خرجا الى المغرب(٢٨) • ولقد ناقش العلماء من المحدثين كلمة افريقية واختلفوا فى أصلها ، فمنهم من يميل الى القول بأنها اسم مكان — كما تستخدم الكلمة حاليا اسما لقارتنا الافريقية — ، ومنهم من يأخذ بالقول بأن أصل الكلمة اسم لشخص أو لقبيل ثم أعطى للمكان — مثلما يطلق على بلاد المغرب اسم بلاد البربر(٢٩) • وجمهرة الكتاب العرب يأخذون كعادتهم فى تقسيم الشعوب ، وحسب قانون علم الأنساب عندهم — بهذا الرأى الأخير • فهم يقولون ان افريقية نسبة الى الأفرق أهل البلاد الأصليين ، أو أنها نسبة الى ملكة ملكت البلاد فى القديم كانت تسمى افريقية أو ابريقية(٣٠) بالفاء أو بالباء كما يحدث فى بعض الأسماء الفارسية مثل أصفهان وأصبهان • ونعتقد أن الكتاب العرب هم الذين وجهوا العلماء المحدثين وجهتهم هذه فى البحث ، رغم الطابع الأسطورى الذى يغلب على هذه الرواية(٣١) • وأيا ما كان الأمر ، فالحقيقة التى تهمنا هى

---

(٢٥) Despois, Le Gebel Nefoussa (Tripolitaine), Paris, 1935, p. 1, 10.

(٢٦) الاصطخرى ، ص ٣٣ الاستبصار ؟ ص ١١٠ والهامش ١ •

(٢٧) فتوح مصر والمغرب ، ص ١٧٢ • (٢٨) فتوح مصر والمغرب ، ص ١٩٢ •

(٢٩) أنظر حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١ والهامش حيث يأخذ بقول من يقول ان أصل الكلمة فينيقى من لفظ افرى (اسم أهل البلاد . أنظر Gautier, Le Passé de l'Afr. p. 125) ، كما يورد رأى من يقول بأن أصل الكلمة مشتق من لفظ افارا ، أو ابريكا ، وانظر محمد عبد الهادى شعيرة ، مجلة كلية الآداب والتربية ، بنغازى ١٩٥٨، ص ٨ (عن ظهور اسم افريقية فى العهد الرومانى) •

(٣٠) أنظر كتاب الاستبصار ، ص ١١١ — ١١٢ وهامش ١ •

(٣١) أنظر البكرى (ص ٢١) حيث الذى يعرض مختلف الآراء ، وأولها النسبة الى الملكة افريقة والملك افريقس • والظاهر أن هذه الرواية يمنية الأصل اذ ينسب الاخبارى =

أن العرب أخذوا اسم افريقية عن الروم كما نقلوا أسماء بنطابلس (أو أنطابلس) وأطرابلس . فالرومان والروم أطلقوا على أملاكهم فى افريقيا الشمالية التي كانت عاصمتها مدينة قرطاجنة اسم أفريكا Africa الذى عرب الى افريقية ، والذى ظل مستعملا فى العصر البيزنطى رغم التقسيمات الادارية التى كانت تستحدث داخل هذه الولاية(٣٢) . وعندما دخل العرب بلاد المغرب كان سلطان حاكم قرطاجنة البيزنطى ، وهو والى افريقية يمتد — من الناحيه النظرية على الأقل — من تخوم طرابلس الى تخوم طنجة(٣٣) . وكان ذلك سببا فى أن أصبح لافريقية مفهومان : أحدهما عام يكاد يعادل مفهوم المغرب . اذ يقول بعض الكتاب ان افريقية تمتد من برقة شرقا الى طنجة غربا(٣٤) ، والآخر خاص ويعنى الأجزاء الشرقية فقط من المغرب التى تعادل ولاية افريقية الرومانية الأصلية أى البلاد التونسية الحالية مع بعض الاجزاء الغربية لولاية طرابلس (ومنها المدينة) والتخوم الشرقية لبلاد الجزائر الى بجاية فى ولاية قسنطينة(٣٥) . أو الى مدينة الجزائر الحالية (جزائر بنى مزغنة)(٣٦) . وهذا يعنى ان الحدود الحالية بين هذه الأقاليم انما هى حدود اصطلاحية وأن كل اقليم منها يتداخل فى الآخر من وجهة النظر الطبيعية — كما سنشير الى ذلك بعد قليل .

= المشهور وهب بن منبه فى كتاب التيجان ، ص ٦٥ اسم افريقية الى ملك اليمن افريقس الذى غزا المغرب قبل الاسلام واعطى اسمه لتلك البلاد (وقارن القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٠٠) حيث يضيف الى ذلك أن النسبة ربما كانت الى « فارق بن بيصر بن نوح » (وأنظر فيما بعد ص ١٤٣ وهـ ٥٣) حيث الاشارة الى أن افريقية مفرقة ، وهو تفسير لغوى خاص بفكرة صعوبة فتح هذا الاقليم بمعنى المغرب .

(٣٢) عن تقسيم ولاية افريقية على أيام الرومان والبيزنطيين أنظر Julien, Hist. de l'Afr. p. 225 وحسين مؤنس . فتح العرب للمغرب ، ص ٢ : افريقية الأصلية تعادل اقليم قرطاجنة ، افريقية القنصلية وتضم افريقية الأصلية ، والجزء الشرقى من تونس ويسمى روبيثانيا ومنطقته الداخلية الى فزان وتسمى بيزاسينا ، والمنطقة التى تعادل الجزائر حاليا وتسمى نوميديا ، وغرب ذلك منطقة طنجة وتسمى موريطانية .

(٣٣) البلاذرى ، ص ٢٢٧ ، ابن عبد الحكم ، ص ١٨٣ .

(٣٤) كتاب الاستبصار ، ص ١١١ ، ص ١٣٩ (طنجة آخر حدود افريقية) .

(٣٥) أبو الفداء ، طبعة أوروبا ، ص ١٢٢ (ولكنه يجعل حدودها الشرقية تمتد الى برقة والى حدود مصر) .

(٣٦) أنظر الزهرى ، كتاب الجغرافية ، مجلة الدراسات الشرقية ، المعهد الفرنسى بدمشق ج ٢١ سنة ١٩٦٨ ، ٣٠٠ (ص ١٠٧ من النص) .

المغربان : الأوسط والأقصى :

وبعد أن تحددت مسميات الاقاليم الشرقية من المغرب بمفهومه العام ـ بهذا الشكل (من برقة الى طرابلس الى إفريقية) ـ أصبحت حـــدود المغرب (الحقيقى) عند الكتاب الأوائل تبدأ مما يلى افريقية غربا الى سواحل البحر المحيط(٣٧) • وابتداء من القرن الخامس الهجرى (١١ م) ميز الجغرافيون العرب الأقاليم الغربية البعيدة من هذا المغرب فاطلقوا عليها اسم المغرب(٣٨) أو المغرب الأقصى(٣٩) • وبذلك أصبح هناك مغربان : مغرب أو مغرب أقصى ، وهو الذى عرف ابتداء من منتصف ذلك القرن والى عهد قريب باسم عاصمته السياسية مراكش ، ومغرب أوسط(٤٠) وهو الذى يعادل بلاد الجزائر الحالية • وأصبح خط التقسيم الشمالى بين المغربين (الأوسط والأقصى) هو مجرى وادى ملوية أو ما بين تلمسان (عاصمة المغرب الأوسط) وتازا (مدينـــة المغرب الأقصى)(٤١) ، وذلك رغم عدم وجود حدود أو فواصل فى الجنوب •

وهكذا انقسمت بلاد المغرب بمعناها العام الى ثلاثة أقســـام ، احتفظ اثنان منها باسم المغرب مع صفة مميزة وهمـــا : المغرب الأوسط والمغرب الأقصى • ونحن نظن أن اصـــطلاح المغرب الأقصى أقدم من اصطلاح المغرب الأوسط وذلك لأن الأجزاء الشرقية من المغرب وخاصة افريقية لم يطلق عليها الكتاب اسم المغرب الأدنى بل احتفظوا لها باسمها القديم أو أطلقوا عليها

---

(٣٧) نلاحظ أن ابن عبد الحكم لا يبين الحد بين افريقية والمغرب فهو يستعملها بنفس المعنى عند كلامه عن الغزوات العربية الأولى ، الا أنه يفهم من كلامه عن فتوحات موسى بن نصير ان كلمة المغرب هنا تعنى ما وراء افريقية بمعناها العام أى ابتداء من طنجة (أنظر ص ١٩٢ ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٤) ، وقارن البلاذرى الذى يقول عن يزيد بن أبى مسلم انه ولى افريقية والمغرب (ص٢٣١) • وقارن الزهرى ، كتاب الجغرافية ، النص ص ١٠٦ (حيث يجعل أول بلاد المغرب جبال برقة وجبال أوثان فى المشرق وهى آخر عمل مصر وأول عمل القيروان ، وآخر أقصى السوس) •

(٣٨) البكرى ، ص ٧٦ ، كتاب الاستبصار ، ص ١٧٩ •

(٣٩) أبو الفدا ، ص ١٢٢ ، ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٩٨ ، ٩٩ •

(٤٠) البكرى ، ص ٧٦ ، الاستبصار ، ص ١٧٦ ، أبو الفدا ، ص ١٢٢ وانظر ابن سعيد الجغرافيا ، ص ١٤٢ (حيث يصف بجاية بأنها قاعدة « المغرب الأوسط ») وقارن الزهرى كتاب الجغرافية ، الذى يقسم المغرب الى ثلاثة أصقاع ، هى افريقية (النص ص ١٠٧) • والمغرب الأقصى الذى يحده جبل وتشريش شرقا ، ومع ذلك فهـــو يشمل بعض مدن المغرب الأوسط ، مثل : تنس ، وتاهرت ، وتلمسان ، (النص ص ١١٤) ثم السوس الأقصى وحده على البحر المحيط رباط ماسة ويدخل فى نطاقه مدينة سجلماسة (النص ص ١١٧) •

(٤١) البكرى ، ص ١٢٩ (تلمسان الحد بين المغربين) ، الاستبصار ، ص ١٧٦ ، ١٨٦ • وقارن صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٤٩ ، ١٥٣ •

في بعض الأحيان اسم « بلاد القيروان »(٤٢) ، نسبة الى عاصمتها مدينة عقبة ابن نافع قبل خرابها على أيدي بني هلال • وهذا يعني أن اصطلاح المغرب الاوسط انما هو نسبة الى المغرب الأقصى أي البعيد أو المتطرف • ولما كانت بلاد الجزائر مغربا بالنسبة لافريقيـــة ومشرقا بالنسبة للمغرب الأقصى ، أصبح هذا المغرب الأخير أحق الاقاليم بالتسمية : فهو مغرب بالنسبة لكل ما دونه من الاقاليم وهو ليس مشرقا بالنسبه لأى اقليم • وهذا ما يفسر كيف اتخذت البلاد المراكشية — ولها الحق في ذلك — اسم « المغرب » حاليا دون غيرها من أقاليم افريقية الشمالية العربية •

مميزات المغرب الأقصى :

والحقيقة انه يوجد عامل طبيعي مميز للمغرب الأقصى ذلك أن له ، الى جانب واجهته الشمالية المشتركة المطلة على البحر المتوسط والمعروفة ببـــلاد الريف حديثا وعند الكتاب العرب ببلاد غمارة(٤٣) ، واجهة غربية مطلة على البحر المحيط تكتنفها جبال درن ، وهي جبال أطلس الحالية • وتكون سلاسل الجبال هضابا مرتفعة كما تحوي فيما بينها سهولا عالية • وهذه الواجهة المحيطية هي التي تميز المغرب الأقصى عن بقية بلاد المغرب ، اذ تشق الجبال أودية الأنهار التي تتجه نحو المحيط • ومن أهم هذه الأنهار وادي سبو الذي يعرف أيضا باسم رافده وادي فاس ، ويكون منخفضا في شمال البلاد عرفه الكتاب باسم السوس الأدنى(٤٤) ، تمييزا له عن المنخفض الآخر الواقع في الجنوب الغربي للبلاد ، والذي يشقه وادي سوس (الذي يصب عند أغادير) ويعرف بالنسبة له بالسوس أو السوس الأقصى(٤٥) • ويوجـد بين وادي

---

(٤٢) البكري ، ص ٤٧ ، الاستبصار ، ص ١٥٤ • وقارن قدامة ، كتاب الخراج (ملحق ابن خرداذبة) ، ص ٢٦٥ (حيث يقول ان أول ثغور المغرب افريقية « وهو المسمى القيروان ») •

(٤٣) عن جبل غمارة أنظر البكري ، ص ١٠٠ وتابـــع الادريسي ، ص ١٧٠ — ١٧١ ، والاستبصار ص ١٩٠ والهامش ٣ -وعن تسمية ذلك الساحل بـ « الريف » أنظر ابن سعيد ، الجغرافيا ، ص ١٣٩ •

(٤٤) أنظر ابن عبد الحكم (ص ٢٠٥) ويفهم من روايته أن السوس الأدنى هو المنطقة الواقعة وراء طنجة من حيث كانت توجه العمليات العسكرية أيام موسى بن نصير • وهذا ما ينص عليه البلاذري صراحة (ص ٢٢٩) عندما يقول عن عقبة بن نافع « فغزا السوس الأدنى وهو خلف طنجة » • وأنظر ابن خرداذبة ، المسالك ص ٨٩ ، ٩١ (حيث يقول : وخلف طنجة السوس الأدنى • ويعرف كتاب روض القرطاس (ص ٦) حد السوس الأدنى من وادي ملوية الى وادي أم الربيع ، ويعرفه بأنه أخصب بلاد المغرب •

(٤٥) ابن عبد الحكم يسمي المنطقة بالسوس فقط ، وهي آخر ما وصل اليه عقبة بن نافع (ص ١٩٨) ، ولكنه يحدد موقعها المتطرف في الجنوب عندما يقول ان حبيب بن أبي عبيدة =

سبو ووادي سوس عدد من الأنهار هي (من الجنوب الى الشمال) • وادي تنسيفت(٤٦) وتقع قربه مدينة مراكش ، ووادي أم الربيع وينبع من درن في اقليم تادلا ويصب قرب أزمور(٤٧) ثم وادي بورجرج (أبو الرقراق)(٤٨) الذي يصب عند سلا والرباط (رباط الفتح) •

هذه الأنهار التي كونتها سلاسل الجبال المحيطية هي التي تميز المغرب الأقصى عن الأقاليم المغربية الأخرى • ففي المغرب الأوسط لا نجد الا أنهارا صغيرة قليلة الأهمية • أما وادي ملوية الذي يعتبر حدا فاصلا بين المغرب الأقصى والمغرب الأوسط فهو من أنهار المغرب الأقصى اذ ينبع من الجبال الجنوبية ، فيما وراء تازا . ويكون من روافده نهر زيز ونهر سجلماسة(٤٩) ، ويخترق بلاد مكناسة ويصب في بحر الروم قرب جراوة(٥٠) • وأشهر أنهار المغرب الأوسط وادي شلف(٥١) الذي ينبع من جبل ونشريش الذي يمر عند منتصفه قرب مليانة ويصب شرقي مدينة مستغانم(٥٢) • أما بقية الأنهار التي يذكرها البكري والادريسي وصاحب الاستبصار وابن سعيد فهي أودية لا يكثر فيها الماء الا في فصل الشتاء عند هطول الأمطار ، وبعضها أودية صغيرة يأتيها الماء من العيون أو من قنن الجبال(٥٣) • وفي افريقية لا نجد من الأنهار الهامة الا

= غزا السوس وارض السودان (ص ٢١٧) • ويحدد البلاذري المسافة بين السوس الأدنى والسوس الأقصى بنيف وعشرين يوما (ص ٢٣٠) أما المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ١٦٤ ، فيجعل المسافة بينهما نحوا من عشرين يوما ، وعن صفة السوس الأقصى الذي يطلق عليه أيضا اسم السوس فقط ، انظر كتاب الاستبصار ، ص ٢١١ ، وهامش ٤ وابن سعيد ، الجغرافيا ، ص ١٢٣ • ويحدد كتاب روض القرطاس السوس الأقصى من جبل درن الى بلاد نول (ص ٦) • وانظر تحديد الزهري فيما سبق ص ٦٩ هـ ٣٧ •

(٤٦) الاستبصار ، ص ٢٠٩ ، ابن سعيد ، الجغرافيا ، ص ١٢٣ (نهر تانسفت) •

(٤٧) الاستبصار ، ص ١٨٥ ، ابن خلدون ، العبر جـ ٦ ص ١٠٢ ، الترجمة ، جـ ١ ص ١٩٥ •

(٤٨) انظر مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس ص ١٠٥ هامش ١ •

(٤٩) ابن سعيد ، الجغرافيا ، ص ١٤٠ (فيكون مسافته من منبع سجلماسة في الجنوب نحو مائة ميل) •

(٥٠) الاستبصار ص ١٩٣ ، ابن خلدون ، العبر جـ ٦ ص ١٠٢ والترجمة ج ١ ص ١٩٥ (النص يقول ان ملوية يصب قرب غساسة ، ولكن دسلان يرجح أن المقصود بلدة جراوة) •

(٥١) الاستبصار ، ص ١٧١ •

(٥٢) انظر ابن سعيد ، الجغرافيا ، ص ١٤١ — ١٤٢ (حيث يصف نهر الشلف بأنه مثل النيل يزيد أيام نقص الأنهار •

(٥٣) انظر كتاب الاستبصار ، ص ١٧٦ — ١٧٩ والهوامش ، وقارن ابن سعيد ، الجغرافيا ، ص ١٤٢ (حيث ذكر أنهار مدن : تنس ، والجزائر ، وبجاية ، والقل) •

نهر بجردة أو مجردة(٥٤) الذى يصب بالقرب من مدينة تونس ٠ وبعد ذلك لا توجد أنهار الى حدود مصر ، أما الأنهار التى يذكرها الكتاب فهى اما وديان تسيل أيام الشتاء أو جداول تغذيها الينابيع وخاصة فى الواحات ٠ وهكذا حق لابن سعيد أن يقول فاذا فارقت طرابلس لا تلتقى مدينة فيها حمام ولا خباز الى أن تصل الى الاسكندرية(٥٥) ٠

الوحدة الطبيعية :

رغم التسميات والتقسيمات المختلفة التى ذكرناها ، فان البلاد جميعا ــ من مصر الى المحيط هى ــ « بلاد المغرب » أولا وقبل كل شيء ٠ وهذه التسمية العامة تحمل فى ثناياها معنى وحدة البلاد ٠ والحقيقة ان الكتاب العرب تنبهوا الى أنه اذا جاز أن تقسم بلاد المغرب رأسيا بالشكل الذى رأيناه ، والذى ينبنى على تقسيمات ادارية أو سياسية قديمة ، فانها جميعا تنقسم افقيا الى ثلاثة أقاليم طبيعية متشابهة : أولها الاقليم الساحلى الممتد على بحر الروم من الاسكندرية الى طنجة (على بحر الزقاق) ثم من طنجة على ســـاحل البحر المحيط الى مدينة نول فى السوس(٥٦) ٠ ونلاحظ هنا أن كثيرا من المؤرخين والجغرافيين العرب اعتقدوا أن ساحل المحيط الأطلنطى (أو قيانوس أو لتلانت أو أدلنت)(٥٧) يمتد فى استقامة من الشرق الى الغرب بمحاذاة ساحل البحر المتوسط ولهذا السبب اعتبروا مبدأ جبال درن (أطلس العليــــا) المنحرفة جنوبا فى المغرب الأقصى بداية الحد الغربى للمغرب ـ وهذا ما أخذ به ابن خلدون(٥٨) ٠ وعلى هذا الأساس فسروا توقف التوسع العربى عند بـــلاد السوس الأقصى التى اعتبروها نهاية أرض المغرب (أى نهـــاية شـــمال افريقية)(٥٩) ٠ والاقليم الثانى هو المناطق الصحراوية الممتدة من غرب مصر

---

(٥٤) الاستبصار ، ص ١٢١ ، وقارن ابن سعيد ، الجغرافيا ، ص ١٤٢ ــ ١٤٣ (حيث ذكر انهار منها : بونة وبنزرت ، وقابس) ٠

(٥٥) الجغرافيا ، ص ١٤٦ ٠

(٥٦) ابن خلدون ، العبر ، الفصل الخاص بمواطن البربر ، جـ ٦ ص ٩٨ والترجمة جـ ١ ص ١٨٨ ٠

(٥٧) ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ص ٩٨ ، النص العربى يكتب لتلانت فى شكل البلاية قارن الترجمة جـ ١ ص ١٨٧ وهامش ٣ ٠

(٥٨) ابن خلدون ، العبر ، جـ ١ ص ١٠٠ والترجمة جـ ١ ص ١٩٤ وهامش ١ ٠

(٥٩) أنظر فيما بعد غزوة عقبة بن نافع فى المغرب الأقصى وكيف اعتقد أنه وصل الى نهاية المعمور غربا عندما وصل الى وادى نفيس حيث ينحرف شاطىء المحيط نحو الجنـــوب الغربى ٠

الى جنوب المغرب الأقصى ، وهو اقليم الحدود الجنوبية حيث الجبال التى تعرف عند عرب البادية بالعرق(٦٠) • وبين الاقليمين تمتد سلاسل الجبال موازية للبحر وللمحيط وتكون اقليما طبيعيا ثالثا (بعضه يعرف باسم التل) ، وله مميزاته الخاصة التى تتزاوج فى بعض الأحيان ما بين سمات الاقليم البحرى والاقليم الصحراوى(٦١) •

والبحر هو عامل الربط الأول بين الاقليم الساحلى : فهو يوصل بين مدنه البحرية ومراسيه ، وهو الذى يلطف من مناخه ويمده بالرياح المحملة بالأمطار ، فهو على الجملة الذى يعطى هذا الاقليم شكله الطبيعى الموحد أو المتجانس • والى جانب البحر يربط الطريق التاريخى الممتـــد برا من برزخ السويس الى تازا وفاس بين مختلف المناطق الساحلية • وكانت تبلغ مسافة هذا الطريق من مصر الى فاس ١٤٦ مرحلة ، ومحطاته الكبرى هى : برقة ، وطرابلس ، والقيروان ، وسطيف ، وتاهرت ثم فاس(٦٢) •

والاقليم الصحراوى يمتد من واحات مصر الى واحات برقة الى فزان الى زويلة الى وارجلا(٦٣) (جنوب المغرب الأوسط) الى سجلماسة (التى عرفت منطقتها فيما بعد باسم تفللت أو تفيلالت ، نسبة الى أسرة الشرفاء الفيلاليين) الى وادى درعة (نحو الجنوب الغربى) الى حد البحر المحيط غربا(٦٤) • ورغم ما يوصف به هذا الاقليم من أنه صحراء موحشة ، الا أن الأمر ليس كذلك •

---

(٦٠) ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ص ١٠٠ والترجمة جـ ١ ص ١٩٠ •

(٦١) أنظر ابن خلدون ، جـ ٦ ص ١٠١ والترجمة جـ ١ ص ١٩٣ • وعلى أساس هـــذا التقسيم الثلاثى يميز صاحب كتاب الاستبصار بين أقاليم المغرب ، فيخصص للبلاد الساحلية فصولا (ص ١١٠) وللبلاد الصحراوية والقريبة من الصحراء فصولا أخرى (ص ١٤٢) •

(٦٢) الأصطخرى ، ص ٣٧ •

(٦٣) وتكتب وارجلا أيضـــا فى شكل واركلا (انظر الصفحة التالية) ، وفى شـــكل واركلى (أنظر العبر ٦ ص ١٠٠) ، وفى شكل واركلان (انظر ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق اسماعيل العربى ، بيروت ، ص ١٢٦) ، التى ربما كانت نسبة الى بنى واركلان من قبائل البربر الذين يذكرهم ابن خرداذبة (المسالك ، ص ٩١) • والمعروف أن حرف الكاف فى الكلمة ينطق كما ننطق الجيم المصرية ، ولهذا نجد الاسم فى الادريسى (ط • ليدن ، ١٨٦٤ ، ص ٤ ، ٨ ، ١١ ، ١٢٠ ، ٠٠) فى شكل « وارقلان » •

(٦٤) الأصطخرى ، ص ٣٣ ، وانظر ابن خلدون ، جـ ٦ ص ١٠٠ والترجمة ، جـ ١ ص ١٩٠ ــ ١٩١ • وعن تحقيق موضع سجلمـــة بموضع تفللت الحديثة ، أنظر بلاد السودان العربية لـ « كولى » (W.D. Cooley) بالانجليزية ، لندن ١٩٦٦ ، ط ١ ص ٥ (حيث يرجع الفضل الى شنيير (Chenier)

فمنابع المياه والواحات تنتشر في أرجائه وبفضلها أمكن للقوافل أن تخترقه من أقصاه الى أقصاه في طريق أقصر من الطريق الشمالي بحوالي ثلث المسافة . فطريق البرية من القيروان الى سجلماسة كان يبلغ ٨٠ (ثمانين) مرحلة ، وهو في العمارة ١٢٠ (مائة وعشرون) مرحلة(٦٥) . ويصف العياشي في رحلته (القرن ١١ هـ/١٧ م) ذلك الطريق الصحراوي الذي قطعه من تفللت وسجلماسة الى نفزاوة وطرابلس وصفا دقيقا . والذي يلاحظ هو أنه رغم بعد الطريق عن العمران الا أن الماء متوفر على طوله في أماكن كثيرة . ففي المنطقة شرق سجلماسة توجد أحساء تحفر في رمل طيبة الماء(٦٦) . وبعد هذه الأحساء يوجد وادي جير وهو كثير المرعى تجتمع اليه السيول من المسافات البعيدة(٦٧) .

أما الأراضي الموحشة التي لا خصب فيها ولا ماء فهي الهضاب التي تعرف باسم الحمادة ، وهي عبارة عن أرض حرشة صخرية أو محجرة مرتفعة ، ومن أهمها : الحمادة الكبيرة الواقعة بين سجلماسة ووادي جير ، والتي تقطعها القوافل وهي تحمل مؤونتها من الماء في ثلاثة أيام(٦٨) ، ثم الحمادة التي تفصل وادي جير عن وادي الساروة الذي تمتد قراه مسافة عشرة أيام في أعماق الصحراء الى قريب من مدينة توات في قلب صحراء الجزائر الحالية(٦٩) ، ثم الحمادة الواقعة بين وادي الساروة وتوات(٧٠) (مجمع القوافل الآتية من بلاد السودان)(٧١) ، ثم الحمادة الكبيرة الواقعة في الطريق المؤدي من وادي ايكون (ايجون) الى واركلا (وارجلا في جنوب بلاد الزاب قبلي بجاية) ، وهي مسيرة أربعة أيام في أرض جرداء حرشاء(٧٢) . والطريق يستمر من وارجلا

---

(٦٥) الأصطخري ، ص ٣٧ ــ ٣٨ .

(٦٦) العياشي ، الرحلة ، مخطوط طرابلس ص ١٣ خلف .

(٦٧) نفس المصدر .

(٦٨) نفس المصدر ، ص ١٣ خلف ، ص ١٤ وجه . وعن الحمادة أنظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٠٠ ، والترجمة ج ١ ص ١٩١ وعن وادي جير الذي يصب في الصحراء عند تمنطيت ورجان (ركان) أنظر ج ٦ ص ١٠٢ والترجمة ج ١ ص ١٩٦ وهامش ١ حيث يذكر دسلان ان نهر جير ظل يحمل اسمه القديم وهو (قير) .

(٦٩) العياشي ، الرحلة ، المخطوط ، ص ١٤ وجه ، وقارن ابن خلدون (ج ٦ ص ١٠٣) الذي يسميها قصور توات .

(٧٠) نفس المصدر ، ص ١٥ وجه .

(٧١) نفس المصدر، ص ١٦ وجه .

(٧٢) نفس المصدر ، ص ٣٥ خلف ــ ٣٦ وجه . وعن وارجلا، أنظر فيما سبق ، ص ٧٣ ص ٦٣ .

الى وادي ريغ(٧٣) ثم الى وادي سوف(٧٤) • وقبل الوصول الى نفزاوة في الجنوب التونسي توجد السبخة ، وهي الأرض الملحة الهشة التي يسوخ فيها من ينحرف يمنة أو يسرة عن حدود الطريق الذي لا يمشي فيه الا بعير واحد اثر بعير(٧٥) •

ونفزاوة من الاقليم المعروف باسم قسطيلية والمشهور باسم بلاد الجريد وبلاد التمر أو جزائر التمر لكثرة نخيله ، ومن مدنه نفطة وتوزر وقفصة وبسكرة ، وهو يمتد في جنوب تونس وما يتاخمه من أرض طرابلس والجزائر(٧٦) • ولقد بين ابن خلدون — بما عرف عنه من عمق الملاحظة — أن هذا النوع من الاقليم الطبيعي يمتد من سجلماسة ووادي درعة الى واحات مصر وذلك فيما بين جنوب الجبال التي تحد بلاد التل (الهضاب الشمالية الخصبة) والرمال الجنوبية المعروفة « بالعرق » والتي تحد المغرب من جهة السودان وعلى ذلك فبلاد الجريد (أي بلاد النخيل) لا تقتصر على اقليم قسطيلية كما تعارف على ذلك الجغرافيون بل تشمل حقيقة كل الشريط العظيم الممتد جنوبا (من الغرب الى الشرق) من السوس الأقصى ومدينة تارودنت الى سجلماسة على سمت فاس ، الى فجيج على سمت تلمسان ، الى سفوح جبل راشد جنوب تاهرت ، الى وارجلا على قبلة بجاية وبالقرب منها وادي ريغ ، الى اقليم الزاب

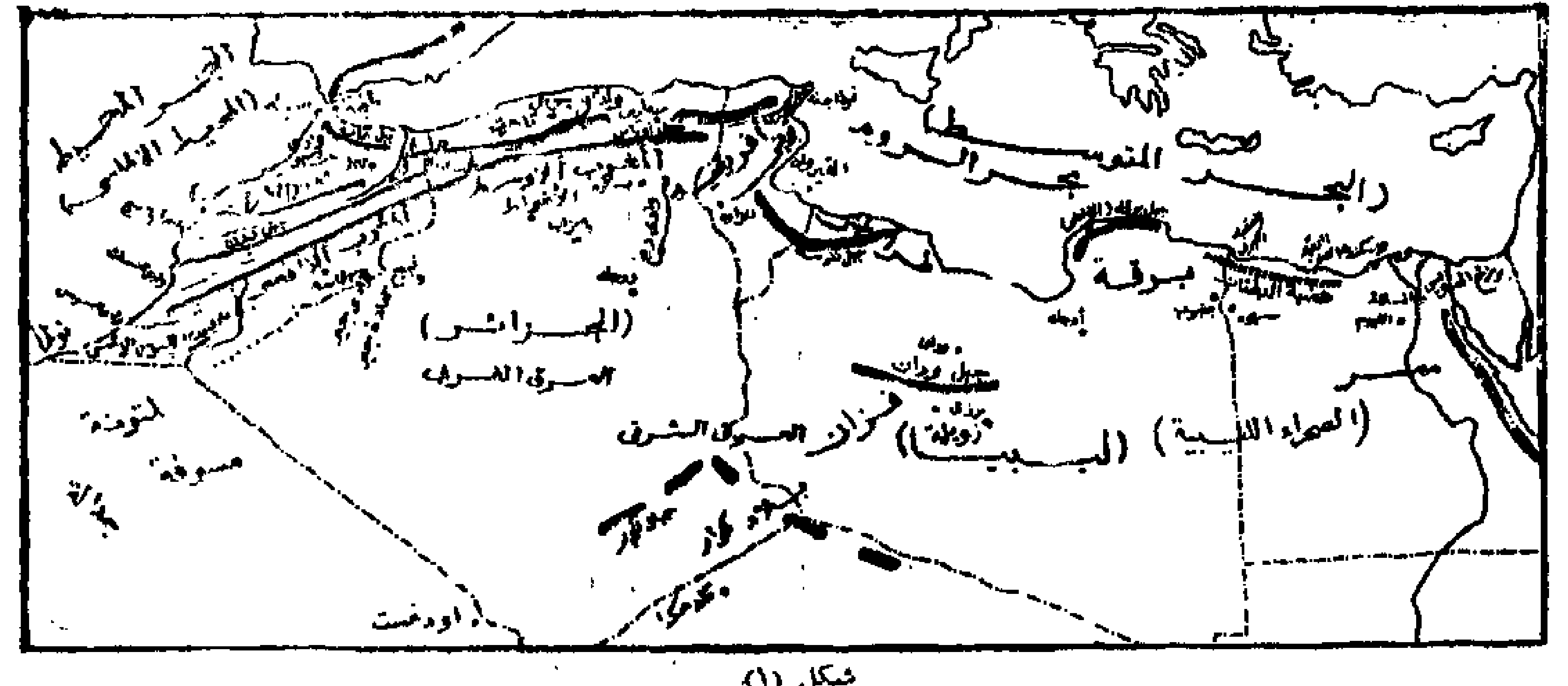
---

(٧٣) نفس المصدر ، ص ٣٩ وجه • وقارن ابن سعيد كتاب الجغرافيا ، ص ١٢٦ (حيث التسمية « بلاد ريغ » شرق وارجلان ، وطولها نحو ٥ أيام ، وهي بلاد نخل ومحمضات واسم قاعدتها « تمارية ») •

(٧٤) العياشي ، الرحلة ، المخطوط ، ص ٤١ وجه •

(٧٥) نفس المصدر ، ص ٤٢ وجه ، وقارن ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، ص ١٢٦ (حيث يصف تلك المنطقة بأنها : « الأرض السواخة التي هي كالصابون ، وطالما هلك فيها من أخذ جنوبا عن بلاد الجريد . وكان جاهلا بها ») •

(٧٦) أنظر ابن حوقل ، ص ٩٢ ، البكري ص ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، الادريسي ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، الاستبصار ص ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٥٧ والهوامش ، ابن سعيد ، الجغرافيا ، ص ١٢٧ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١٠١ ، والترجمة ج ١ ص ١٩٢ ، الزهري كتاب الجغرافية ، النص ١٠٧ ، وقارن الرحلة الورثيلانية تصحيح محمد بن أبي شنب ، ط ٢ — بيروت تصوير ١٩٧٤ ص ٩٣ (عن بسكرة وبلاد الزاب) ص ٦٧٢ عن قسطيلة • ويقول العياشي عن نفزاوة انه كثيرة النخل حتى تشبه قراها بقرى ريف مصر ، وحكى قول ان اسمها (الذي عرفت به قبل الاسلام) أصله ألف زاوية (لكثرة عمرانها) ثم حرف الى نفزاوة (المخطوط ، ص ٤٢ وجه) •



شكل (١)

بلاد المغرب (ومصر) ــ الشكل الطبيعي والأقاليم المختلفة

(وعن خريطة بلاد المغرب ــ كما رسمها الادريسي ــ أنظر ، فيما يلي ص ٣٩٧)

ومدينته بسكرة ، الى بلاد الجريد (قسطيلية) ، الى نفزاوة ثم فزان وودان وأخيرا واحات جنوب برقة(٧٧) ·

وهذا يعني أن الصحراء كانت — مثلها مثل البحر — طريقا للمواصلات والربط بين أقاليم المغرب المختلفة أكثر منها معطلة للفصل والعزل كما قد يتوهم · وكذلك الحال بالنسبة لمنطقة الجبال التي تعتبر هي الأخرى عاملا من عوامل الربط والوحدة بفضل امتدادها في سلاسل أفقية محاذية للسواحل البحرية ، فهي أشبه بالهيكل العظمي الذي يربط البلاد ويشد بين أطرافها من البحر المحيط حتى برقة(٧٨) · والى جانب وحدة التضاريس التي تحققها الجبال فانها بفضل الوديان المحاذية لها ، والتي تحويها بين ضلوعها عملت على وصل الأقاليم الشرقية بالاقاليم الغربية ، وان كانت قد جعلت المواصلات صعبة نسبيا بين المناطق الساحلية والبلاد الداخلية ، كما أنها كونت عددا من المناطق المنعزلة التي احتفظت خلال العصور التاريخية باتجاهات انفصالية مما جعل التوحيد السياسي في بعض العصور من الصعوبة بمكان ·

ويعزى جوتييه صعوبة الوحدة السياسية الى عدم وجود مركز طبيعي للبلاد يمكن أن تتجمع حوله الأقاليم المختلفة بسبب امتداد المغرب أفقيا على طول ساحل البحر والمحيط لمسافة ٣ آلاف كيلو متر ، بينما لا تتسع الاقاليم الخصبة الا الى حوالى ١٥٠ كيلو متر(٧٩) · ولكن وديان الأنهار التي تتجه في معظمها من الأقاليم الداخلية المرتفعة نحو البحر خففت من حـــدة صعوبة المواصلات بين الدواخل والسواحل ، وكذلك عملت طرق القوافل الرأسية

---

(٧٧) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٠٠ — ١٠١ والترجمة ج ١ ص ١٩٢ — ١٩٣ وهذا ما يظهر حقيقة في وصف الادريسي (ص ١٣٢ وما بعدها) ، وما يظهر أيضا في وصف ابن سعيد في كتاب الجغرافيا للجزء الأول والثاني من الاقليم الثالث (ص ١٢٤ وما بعدها) ولكن الفضل لابن خلدون في تقرير نظرية حزام النخيل ، كما قلنا · وعن الواحات ، أنظر البكري ، ص ١٤ وتابع ، والاستبصار ، ص ١٤٧ والهامش ٢ وابن سعيد ، الجغرافيا ، ص ١٢٨ · وأنظر شكل ١ ص ٧٦ ·

(٧٨) أنظر ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، : حيث النص على اتصال جبل نفوسة بجبل دمر وما يتصل به من الجبال الى جبل درن الذي يدخل في البحر المحيط (ص ١٤٥) عند طرف اجادير لمسافة ٦ أميال (ص ١٢٣) ، وأنظر فيما سبق ، ص ٦٦ وه ٣٣ : حيث يعتبر الكتاب ، كما قلنا ، جبل نفوسة جنوب طرابلس وكذلك جبل برقة (الجبل الأخضر) أقصى امتداد لجبل درن (أطلس) في الشرق وأنظر شكل ١ ص ٧٦ ·

(٧٩) E.F. Gautier, Le Passé de l'Afrique du Nord. p. 11.

الموصلة بين المراكز الصحراوية والمدن الساحلية على الوحدة والربط بين الأقاليم الخصبة والأقاليم الصحراوية • وبذلك أعطت للبلاد عرضا عميقا يتناسب مع طولها الكبير وجعلت الصحراء جزءا لا يتجزأ من المغرب • وهذا ما أدركته ثورة التحرير الجزائرية أخيرا عندما رفضت ، ابان مفاوضاتها مع فرنسا من أجل تقرير المصير ، مبدأ التخلي عن الصحراء • والحقيقة ان تاريخ البلاد يتلخص في طبيعة العلاقات بين أهل الحضر وأهل البادية • والحقيقة أيضا أن أطراف الصحراء والبادية كانت آخر ملاجيء يلوذ بها الوطنيون في مدافعتهم للغزاة والمستعمرين •

السكان

التسمية (البربر) :

هذه الوحدة الجغرافية التي حاولنا ايضاح معالمها عملت — بطبيعة الحال ومنذ أقدم العصور — على ايجاد وحدة بشرية أو نوع من القرابة القريبة بين أهل البلاد من حيث السلالة والدم ، ومن حيث النشاط الاجتماعي • ولقد عرف العرب سكان المغرب باسم « البربر » • ولكننا لا نظن أن العرب عرفوا شعب المغرب بهذا الاسم قبل الاسلام ، اذ لا نعرف ان كانت هذه التسمية قد وجدت فيما تأكدت صحته من أخبار العرب في الجاهلية ، فالصلة بين جزيرة العرب وافريقية الشمالية لم تكن قوية • والمفهوم أن علاقات العرب المباشرة لم تذهب آنذاك الى أبعد من مصر غربا • أما أخبار اليمن القديمة وما تذكر من فتوحات ملوك حمير في الصين وفي البربر فانها روايات أسطورية لم تخترع الا في الاسلام ولم تهدف الا الى التغني بمناقب القحطانية(٨٠) • ولكن العرب لما كانوا على علاقة بالرومان والبيزنطيين فمن الممكن أن يكونوا قد عرفوا كلمة « البرابرة » أو « البرابر » أو « البربر » بمعناها العام الذي عرفته أثينا (Barbaroi) أو روما (Barbari) والذي يعني الشعوب الجاهلية أو الهمجية أو الخارجة عن نطاق الحضارة الرومانية •

---

(٨٠) انظر ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة التجارية ، باب فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط ، ص ١٢ • أما عن روايات الاخباريين من اليمنية في فتوحات ملوك اليمن القدماء في بلاد المغرب والأندلس ، فانظر كتاب التيجان لوهب ابن منبه ، ص ٤٨ — ٤٩ ، ٩٢ — ٩٣ وقارن ياقوت ، معجم البلدان ، ط • وستنفلد ، ج ١ ص ٣٢٤ •ولاباس أن يكون المقصود بفتوح اليمن في المغرب في العصور القديمة هي فتوحهم في سواحل الصومال والحبشة ، مما هو ثابت تاريخيا •

ولما كان الرومان قد أطلقوا هذه التسمية على كل الشعوب الجرمانية التي هاجمت امبراطوريتهم في العصور الوسطى المبكرة كان من الطبيعي أن يدخل شعب المغرب تحت نطاق هذه التسمية لسببين : أولهما أنه لم يستكن للرومان ولم يهضم الحضارة الرومانية بل قاوم الحكم الروماني وسبب للدولة كثيرا من المتاعب(٨١) • وثانيهما أن البلاد تعرضت لغزو البرابرة الجرمان من الوندال في القرن الخامس الميلادي وهؤلاء جعلوا من المغرب مملكة بربرية (بالمعنى الأوروبي) الى أن غلبتهم القسطنطينية أيام جستنيـــان وقائده بليزاريوس • وهنا يمكن لنا أن نتساءل أليس من المحتمل أن تكون كلمة البربر قد أطلقت على أهل المغرب عامة في هذا الوقت وأنه قصد بها الوندال أو خلفاؤهم الذين بقوا في المغرب ومن انضم اليهم أو تأثر بحضارتهم من أهل البلاد ؟ وعن هذا الطريق يكون العرب قد نقلوا هذه التسمية ــ كمـــا نقلوا أسماء الاقاليم ــ فأطلقوا اسم البربر على شعب المغرب ، ولكنهم لم يقصدوا معنى الكلمة الجارح (الذي يقصد في اللغات الاوروبية الحديثة) وما كانوا ليقصدوه • فموقفهم من روما ومن الحضارة الرومانية لم يكن يختلف عن موقف البربر منها •

ولقد حاول الكتاب العرب تفسير التسمية حسب مفاهيمهم ، فأوردوا في ذلك عددا من الآراء ، ولكنه مما يسترعي الانتباه أن أحدا منهم لم يرجع كلمة البربر الى أصلها الصحيح ــ حتى أولئك الذين أرجعوا كثيرا من التسميات القديمة الى أصولها الصحيحة (كما ذكرنا في تسمية البلاد) مثل البكري والادريسي وحتى ابن خلدون • فلقد عرض ابن خلدون هذه الآراء المختلفة على مشاهير النسابة ومن كتب في الأنساب مثل ابن الكلبي (أول من ألف في الأنساب ــ توفي ٢٠٤ هـ/٨٢٠ م) ، وابن قتيبـــة (توفي ٢٩٦ هـ/٩٠٧ م) ، والطبري (توفي ٢١٠ هـ/٩٢٢ م) ، والصولي (توفي ٣٣٥ هـ/٩٤٧ م) ،

---

(٨١) أنظر جوتييه (Gautier, Le Passé de l'Afrique, p. 125) الذي يقول ان الكتاب اللاتين أطلقوا كلمة أفري (Afri) أي الافريقيين على الوطنيين الذين خضعوا لحكم قرطاجنة • أما الوطنيون الذين كانوا يثورون على الامبراطورية الرومانية فكانوا يعرفون بأسماء قبائلهم كما كان يطلق عليهم اسم مور (Mauri) وبربر (Barbari) يطلق عليهم اسم الافريقيين أبدا • ونسبة الى المور عرفت أقاليم المغرب الأقصى الخاضعة للدولة الرومانية باسم موريطانية (Mauritaine) وهو الاسم الذي نقله الجغرافيون العرب (البكري ص ٢١) ومنه اشتقت كلمات Moros, Maures, Moors الأوروبية بالانجليزية والفرنسية والأسبانية •

والمسعودى (توفى ٣٤٥ هـ/٩٥٦ م) ، وعلى بن عبد العزيز الجرجانى (له كتاب فى الأنساب ــ توفى بنيسابور ٣٦٦ هـ/٩٦٧ م) وابن حزم القرطبى (توفى فى أول النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى/١١ م) وأبو عمر ابن عبد البر (ولد بقرطبة وقاضى لشبونة توفى ٤٦٣ هـ/١٠٧٠ م) ، والبكرى (توفى بالمرية ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م) ، والسهيلى (ولد بمالقة ٥٠٨ هـ /١١١٤ م وتوفى بمراكش ٥٨١ هـ/١١٨٥ م) ، ومالك بن المرحل (توفى فى أواخر القرن السابع الهجرى/١٣ م)(٨٢) ووجه اليها النقد ــ حسب الأصول التى رسمها فى المقدمة ــ ولكنه لم يشر الى وجود الكلمة عند الروم أو الفرنج ٠

ونلاحظ أن هذه الآراء تنقسم الى قسمين : أولهما ، تفسير كلمة « البربر » تفسيرا لغويا لأن لغة القوم رطانة أعجمية تختلط فيها الأصوات التى لا تفهم ، فقيل لهم « ما أكثر بربرتكم » ! كما يقال بربر الأسد اذا زأر بأصوات غير مفهومة »(٨٣) ٠ اما ثانيهما : فتفسير كلمة « البربر » حسب عادة العرب فى تقسيم الشعوب وعلى الأسس المتعارف عليها عندهم فى علم الأنساب ، اذ قيل ان شعب المغرب اتخذ اسم أحد آبائه البعيدين وهو « بر » ــ وهذا رأى ابن حزم نقله عن يوسف الوراق (والد محمد بن يوسف الوراق أحد مراجع البكرى الهامة ــ توفى سنة ٩٧٣/٣٦٣) الذى نقله عن أيوب ابن أبى يزيد صاحب الحمار(٨٤) ــ أو « بربر » ــ وهذا رأى الصولى(٨٥) (كما ينتسب العرب الى يعرب مثلا) ٠ وهكذا استقر علم الأنساب بالمغرب ،

---

(٨٢) أنظر ابن خلدون طبعة القاهرة ، الفصل الخاص بأنساب البربر جـ ٦ ص ٨٩ ــ ٩٧ ٠ (ابن الكلبى ص ٩٤ ــ ابن قتيبة ص ٩٣ ــ الطبرى ص ٩٣ ، ٩٤ ــ الصولى ص ٩٣ ، ٩٤ ــ المسعودى ص ٩٣ ــ ٩٤ ــ الجرجانى ص ٩٣ ــ ابن حزم ص ٩١ ــ ابن عبد البر ص ٩٣ ، ٩٦ ــ البكرى ص ٩٤ ، ٩٥ ــ السهيلى ص ٩٤ ــ مالك بن المرحل ص ٩٣) والترجمة ص ١٦٨ ــ ١٨٥ ٠

(٨٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٨٩ والترجمة ، ج ١ ص ١٦٨ ، ١٧٦ ٠ وهناك رأى آخر يقول ان العرب لاحظوا أن لغة البربر يكثر فيها استعمال حرفى الباء والراء فقالوا ما هذه البربرة (البارابارا) ٠

(٨٤) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٨٩ والترجمة ، ج ١ ص ١٦٨ ــ ١٦٩ ٠ وأبو يزيد صاحب الحمار هو الثائر الاباضى المشهور الذى خرج على الفاطميين بالمغرب ٠ وابنه هو أبو محمد أيوب الذى سار الى الأندلس مبعوثا عن والده وأقام بعض الوقت فى قرطبة (أنظر ترجمة ابن خلدون ، ص ٢٨ وهامش ١) ٠

(٨٥) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٩٤ ، والترجمة ، جـ ١ ص ١٧٦ ٠

ومع مرور الوقت ظهر المتخصصون فيه من أبناء البلاد ، ولم يأت القرن الرابع الهجري حتى كانت أنساب البربر قد دونت بالعربية(٨٦) ، وأصبحت علما مثل أنساب العرب . ومن مشاهير نسابة البربر الذين يذكرهم ابن خلدون: سابق بن سليم المطماطي وهانيء بن مسدور الكومي ، وكهلان بن أبي لوا(٨٧) ، وهانيء بن بكور الضريسي ، وأيوب ابن أبي يزيد(٨٨) .

أصل البربر :

والظاهر ان هؤلاء النسابة اتخذوا شجرة الانساب العربية التي تقسم العرب الى شعبين كبيرين ينحدران من قحطان ومن عدنان — نموذجا ، فقسموا قبائل البربر الى مجموعتين كبيرتين ، هما : البرانس والبتر . وقالوا ان الجماعة الأولى أبناء برنس ، وان الجماعة الثانية أبناء مادغيس الذي لقب بالأبتر(٨٩) . ولكي تتفق هذه الرواية مع الرواية التي تقول ان قبائل البربر تنتسب الى أصل واحد (كما ينتسب القحطانية والعدنانية جميعا الى ابراهيم) ، قيل : ان برنس والأبتر هما ابنابر(٩٠) جدهم جميعا . ولكن بعض نسابة البربر لم يوافقوا على هذا الرأى الذى قال به ابن حزم في جمهرته ، فقالوا ، ان لكل من الجماعتين جدها الخاص بها فالبرانس أبناء بر ابن مازيغ بن كنعان ، والبتر أبناء بر بن قيس بن عيلان(٩١) .

وهذه النسبة الأخيرة الى الكنعانيين والى القيسية تعني أن البربر قبائل مشرقية الأصل هاجرت الى المغرب في ظروف تاريخية معينة ، وهذا ما يقوله النسابة فعلا . ولقد ناقش ابن خلدون اختلاف الكتاب في هذا الأمر ، وعرض آراءهم . فلقد قال الكتاب الأوائل مثل ابن الكلبي وابن قتيبة والجرجاني والطبرى ومن حذا حذوهم مثل المسعودي والبكرى وابن الأثير ان أصل البربر من الشام وانهم طردوا من فلسطين أيام داود الذي

---

(٨٦) أنظر ترجمة ابن خلدون ج ١ ص ١٦٨ هامش ٣ لدسلان .

(٨٧) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٨٩ والترجمة ج ١ ص ١٦٩ — ١٧٠ (نلاحظ اختلافات في الأسماء في النص العربي فهو مرة يكتب سالم بن سليم ومرة سابق بن سليم كما نجد في هانيء بن مسدور مكتوبة في شكل صابي بن سرور) .

(٨٨) نفس المصدر ج ٦ ص ٩٤ والترجمة ج ١ ص ١٧٨ .

(٨٩) ابن خلدون ج ٦ ص ٨٩ والترجمة ج ١ ص ١٦٨ .

(٩٠) نفس المصدر .

(٩١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٨٩ والترجمة ، ج ١ ص ١٦٩ وانظر شكل ٢ ص ٨٤ . وقارن معجم البلدان لياقوت ، ط . وستنفلد ، ج ١ ص ٥٤١ .

قتل ملكهم جالوت(٩٢) • وقال البعض مثل الصولى وأبو عمر بن عبد البر انهم من مصر من أبناء مصرايم بن حام أو من أبناء قبط بن حام(٩٣) • كما تذكر بعض الروايات أن أصل البربر جميعا من اليمن وأنهم أبناء النعمان بن حمير بن سبأ(٩٤) • ولقد رأى البعض مثل مالك بن المرحل الذى كان فى خدمة السلطان يعقوب بن عبد الحق المرينى والمتوفى فى أواخر القرن السابع الهجرى ـ أن يوفق بين هذه الروايات جميعا ، فقال : انهم من أصول متعددة : حميرية ومضرية وقبط وعماليق وكنعانية وقريشية اجتمعت فى الشام(٩٥) •

ولقد كذب ابن خلدون الآراء فقد أن البربر أبناء ابراهيم ، ودحض قصة جالوت ، وقال ان مسيرهم من الشام تحت قيادة افريقش أسطورة لا تصدق ، ونفى أنهم حميريون أو مضريون • وأثبت ابن خلدون رأى من قال ان البربر أبناء كنعان بن حام بن نوح ـ حسب تقسيمه للشعوب ـ ، وأنهم أقارب الفلسطينيين وليسوا منهم(٩٦) ، رغم أنه قال فى أول كلامه عن البربر انهم جيل من الآدميين سكنوا المغرب منذ القدم(٩٧) • والحقيقة ان فكـــرة هجرة البربر من الشام الى الشمال الافريقى يمكن أن تحوى شيئا من الحقيقة اذ يمكن القول انها تعبر عن الهجرات الفينيقية التى استقرت فى المغرب والتى مثلتها قرطاجنة التى ظلت عاصمة المغرب الى مجىء العرب • وهذا

---

(٩٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٩٣ ــ ٩٦ والترجمة ، ج ١ ص ١٧٧ ، ١٨٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٤ ، ١٧٧ (حسب الترتيب فى المتن) • وقارن ، ابن عبد الحكم ، ص ١٧٠ ، المسعودى حـ ١ ص ٥٥ ابن خرداذبة ، ص ٩١ ، المسعودى ، المروج ، ج ١ ص ٥٥ ، ج ٢ ص ١١٩ ، ابن الأثير (سنة ٢٢) ، ج ٣ ص ١٣ ، الادريسى ، ص ٥٧ • أما ابن حوقل (ص ٩٧ ، ١٠١) فانه يقول عن البربر : « وجميعهم من ولد جالوت الا اليسير منهم » • وقارن معجم البلدان ، ط • وستنفلد ، ج ١ ص ٥٤١ ، وأنظر ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ص ١٢٩ (حيث يشير الى جبل من جبال جنوبى أسيوط اسمه جبل جالوت ، ويقول انه نسب الى جالوت ، على زعمهم لأنه لما فر من فلسطين حيث قتل جالوت الذى كان قبله ، أقام بهذا الجبل ، ومنه دخل بولده وقومه الى المغرب) •

(٩٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٩٦ والترجمة ، ج ١ ص ١٧٦ ، ١٨١ •

(٩٤) نفس المصدر ، ج ٦ ص ٩٣ والترجمة ج ١ ص ١٧٤ ، وقارن المسعودى ، المروج ج ٢ ص ١٤٤ (حيث يقول فى تنازع الناس فى بدء نسب البربر ان منهم من يقول انهم من غسان وغيرهم من اليمن الذين تفرقوا بعد سيل العرم ، ومنهم من يرى أنهم من قيس عيلان ، أو غير ذلك •

(٩٥) نفس المصدر ، ج ٦ ص ٩٤ والترجمة ج ١ ص ١٧٦ •

(٩٦) نفس المصدر ، ج ٦ ص ٩٧ والترجمة ج ١ ص ١٨٤ •

(٩٧) نفس المصدر ، ج ٦ ص ٧٩ والترجمة ج ١ ص ١٦٧ •

يعني أن روايات الكتاب العرب وان كانت من ناحية الشكل ذات طابع أسطورى الا أنها تحمل فى ثناياها أشياء من الحقائق التاريخية ٠

ولقد حاول جوتييه في الفصول التي كتبها عن ماضي شمال افريقيا أن يلقي بعض الأضواء على هذه الروايات العربية بمقارنتها ببعض النصوص اللاتينية واليونانية السابقة ٠ ونجح فى لفت الأنظار الى عدد من الملاحظات الذكية ولو أن كثيرا منها قوبل بنوع من الفتور أو التحفظ من جانب المستعربين(٩٨) ٠ ومن أهم هذه الملاحظات الاصرار على الآثار العميقة التي تركتها قرطاجنة(٩٩) في المغرب : فتاريخ المغرب الحقيقي يبدأ بالحروب البونية(١٠٠) ، واللغة البونية بقيت آثارها فى البلاد الى القرن السادس الميلادى(١٠١) ٠ وعلى أيام القديس اغسطين أى فى القرن الخامس الميلادى كان الفلاحون في منطقة بونة يقولون انهم كنعانيون(١٠٢) ، وهى نفس الفكرة التى يسجلها المؤرخ البيزنطي بركوب (Procope) عندما يقول ان أهل البلاد (المورطانيين) أتوا الى افريقيا من بلاد كنعان عندما غزاها الاسرائيليون(١٠٣) ٠ ويلاحظ جوتييه أن أسطورة بروكوب هذه هى نفس أسطورة ابن خلدون ولكنه ينفي احتمال تأثر ابن خلدون بالمؤرخ البيزنطى ٠

ونلاحظ هنا أنه رغم عدم وجود علاقة بين بروكوب وابن خلدون الا أن المؤرخ المغربى ينقل عن قدامى المؤرخين المشارقة وان أوثق من قال ان أصل البربر من الكنعانيين — كما أشرنا — هو الطبرى ٠ وهنا نكون أمام أحد احتمالين : اما أن يكون الكتاب العرب الأوائل نقلوا بعض معلوماتهم الأولى عن المغرب وشعوبه عن كتاب بيزنطيين مثل بروكوب أو أنهم استقوا هذه المعلومات من واقع البلاد نفسها عن طريق شهود العيان الأوائل ٠ وربما كان الأقرب الى الصحة أنهم أخذوا معلوماتهم عن الطرفين جميعا ، اذ المعروف أن المؤرخين العرب تأثروا بكتب سابقيهم من مؤرخى الروم والفرس كما أنهم زادوا عليها وأضافوا اليها نتائج دراستهم وتجاربهم ٠

---

(٩٨) Gautier, Le Passé de l'Afrique du Nord, pp. 130, 145, 200.

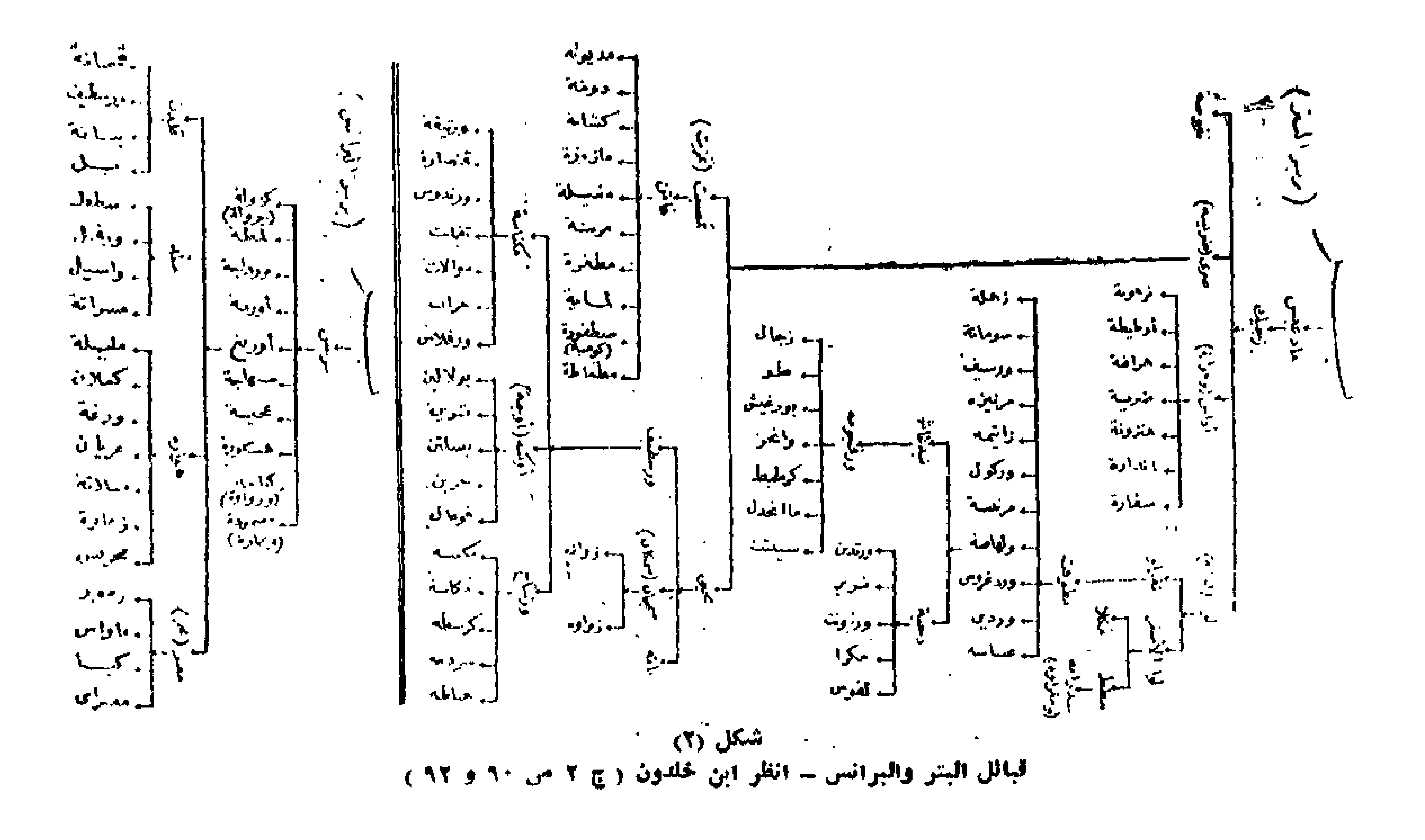
(٩٩) جوتييه ، ماضى افريقية الشمالية (بالفرنسية) الفصل الثانى ص ٤٣ ٠

(١٠٠) نفس المصدر ، ص ٥٩ ٠

(١٠١) نفس المصدر ، ص ١٣٠ ٠

(١٠٢) نفس المصدر ، ص ١٣٩ ٠

(١٠٣) نفس المصدر ، ص ١٤٠ — ١٤١ ٠



شكل (٢)

قبائل البتر والبرانس ـ انظر ابن خلدون (ج ٢ ص ٩٠ و ٩٢)

ورغم ما لرأى الطبرى (الذى يقول ان البربر من بلاد كنعان) من الوزن وهو الرأى الذى رجحه ابن خلدون وأخذ به دون غيره • ورغم ما قلناه من أنه يحوى بعض الحقيقة فان الآراء الأخرى لها وجهة نظرها وربما كان أقربها الى الصحة ذلك الرأى الذى عمل على التوفيق بينها جميعا ، وهو رأى ابن المرحل الذى قال : ان البربر حميرية ومضرية وقبط وعماليق وكنعانية وقريشية(١٠٤) • وهذا يعنى أنهم أخلاط من عرب الجزيرة على اختـــلاف قبائلهم ومن قبائل الشام والمصريين • ولقد أشرنا الى الصلة الوثيقة بين البربر والشام عن طريق قرطاجنة ، وهذا يعنى العلاقة مع بلاد العـــرب ضمنا • هذا ولو أن جوتييه حاول أن يفسر قرابة البربر بالمصريين كمـــا يذكرها الكتاب العرب على أنها نفس القرابة مع القرطاجنيين أو البونيين ، فقال : ان الأمر اختلط على الكتاب ، ودلل على ذلك بأن حميـر يسمى فى الآثار المصرية بون أو بونى(١٠٥) • أما عن القرابة بين البربر والمصريين فهى قرابة طبيعية بحكم الجوار ووحدة البيئة الجغرافية • فعندما حلت فترة الجفاف بأقاليم افريقية الشمالية فى العصور القديمة لجأ كثير من أهلها الى وادى النيل(١٠٦) ، كما أن علماء اللغة وجدوا قرابة بين اللغة المصرية القديمة واللغة البربرية وبعض لغات السودان(١٠٧) ولقد خصص جوتييه فى كتابه عن (ماضى افريقيا الشمالية) فصلا لتبيان العلاقة الأزلية بين مصر والمغرب وانتهى الى القول بأن البربر يرجعون — حسب ما يفهم من الآثار القديمة الموجودة فى الصحراء — الى أصول زنجية مصرية ايجية(١٠٨) ، وهى فكرة ابن المرحل تقريبا •

---

(١٠٤) أنظر فى الصفحات السابقة و ص ٨١ هـ ٨٩ •

(١٠٥) جوتييه ، ماضى افريقية (بالفرنسية) ، ص ١٤٣ •

(١٠٦) Jean Vercoutter, L'Egypte Ancienne coll. (Que sais-je), p. 27.

نجيب ميخائيل ، مصر والشرق الأدنى القديم ، ج ١ مصر ، طبعة ١٩٦٣ ص ٦ • وبسبب القرابة مع المصريين يمكن تفسير الرواية التى يوردها ابن سعيد والتى تقول ان جالوت وقومه استقروا قبل أن يدخلوا المغرب جنوبى مدينة أسيوط ، فى صعيد مصر ، فى الجبل الذى عرف باسمه هناك (أنظر فيما سبق ، ص ٨٢ هـ ٩٥) •

(١٠٧) أنظر نجيب ميخائيل ، مصر والشرق الأدنى القديم ، ج ١ مصر ، طبعة ١٩٦٣ ص ٧ ،

Jean Vercoutter, L'Egypte Ancienne, coll. que sais-je, p. 29.

(١٠٨) جوتييه : ماضى افريقية الشمالية (بالفرنسية) ص ٤٢ (وانظر الفصل الخاص عن علاقة مصر بالمغرب قديما ص ٣٥ وتابع) •

تقسيم قبائل البربر :

ويقسم النسابة قبائل المغرب على جماعتى البربر الكبيرتين كالآتى :

(أ) **البرانس**[١٠٩] ، ومن قبائلهم المشهورة عشر : أزداجة ومصمودة وأوربة وعجيسة وكتامة وصنهاجـــة وأوريغة • وينضاف اليهم حسب رأى البعض : لمطة وهسكورة وجزولة (كزولة) •

وهذه الأصول الكبيرة تنقسم الى فروع صغيرة : فقبيلة هوارة تنحدر من أوريغة ، وقبيلة مليلة تنحدر من هوارة وقبيلة غمارة تنحدر من مصمودة (شكل ٢ ص ٨٤) •

(ب) **البتر**[١١٠] ، ومن قبائلهم المشـــهورة أربع : أداســـة ونفوسة وضريسة وبنو لوا الاكبر • وهذه الأصول الكبيرة تنقسم الى فروع صغيرة : فمن قبائل لوا تعد قبيلتنا نفزاوة ولواتة • ومن لواتة تنحدر قبائل مزاتة ومناغة ، ومنها قبيلة سدراتة أخت قبيلة مغراوة (عن طريق الأم) • وينحدر من نفزاوة قبيلة ولهاصة ، وينحدر من ولهاصة قبيلة تيرغاش ، ومن تيرغاش تنحدر قبيلة ورفجومة •

ومن قبيلة ضريسة ينحدر بنو تمزيت (تمصيت) وبنو يحيى • وفروع بنى تمزيت (تمصيت) هم : مطماطة ، ومطفورة التى تعرف باسم كومية أيضا ، ولماية ومطغرة ومغيلة ومديونة ومزوزة • وفروع بنى يحيى هم : قبائل زناتة جميعا بالاضافة الى ورصطف وسمجان (سمكان) ومن ورصطف تنحدر قبيلة مكناسة •

ومن سمجان تنحدر قبيلتا زواغة وزوارة (شكل ٢ ص ٨٤) •

والذى يلاحظ هو أنه رغم انقسام البربر الى برانس وبتر ، وانقسام هؤلاء الى قبائل مختلفة فان القرابة قريبة بين الجماعتين • كما أن الصلة وثيقة بين فروع كل منهما • فالنسابة يختلط عليهم الأمر الى درجة أنهم

---

(١٠٩) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٨٩ ــ ٩٠ ، الترجمة ، ج ١ ص ١٦٩ ــ ١٧٠ • وقارن ابن حزم ، جمهرة أنســـاب العرب ، نشر بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٤٦١ وما بعدها ــ حيث تظهر استفادة ابن خلدون من الفصل الذى كتبه الفقيه القرطبى فى انساب البربر وبيوتاتهم فى المغرب والأندلس •

(١١٠) انظر ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٩٠ ــ ٩١ ، الترجمـــــة ، ج ١ ص ١٧٠ ــ ١٧٣ •

يضعون قبيلة هوارة في البرانس(١١١) ثم يعدونها من البتر أو يجعلونها أختا لقبيلة أداسة البترية (عن طريق الأم)(١١٢) . وكذلك الأمر بالنسبة لقبيلة زواوة التي تعد من البتر ويعتبرها ابن حزم من كتامة البرنسية(١١٣).

وابن خلدون يحذو حذو من ينفي انتساب البربر الى العرب مثل ابن حزم(١١٤) . ولكنه يكاد يقبل ما قاله ابن الكلبي وما كاد يجمع عليه النسابة من أن قبيلتي صنهاجة وكتامة وهما من البرانس ليستا من البربر وأنهما يمنيتان أصلا ، ولو أنه يتمسك بنظريته عندما يقول « وعندي أنهم من اخوانهم (أي من البربر) والله أعلم »(١١٥) .

والحقيقة أن لنسابة العرب والبربر العذر في جعل شجرة النسب البربرية أشبه ما تكون بشجرة النسب العربية بل وفي نسبة البربر الى أصل عربي . فمما لا ريب فيه أن الشبه قريب بين العرب والبربر ، وهذا أمر وليد البيئة : فطبيعة بلاد المغرب التي يغلب عليها الطابع الصحراوي أشبه بطبيعة بلاد العرب مما يترتب عليه نتائج ذو طبيعة متجانسة من الاجتماع أو العمران(١١٦) . وبناء على ذلك سنترك جانبا القرابة القريبة بين العرب والبربر من حيث السلالة أو الجنس حتى ليصعب التمييز بين العربي والبربري من هذا الوجه(١١٧) ، كما نترك جانبا ما اتفق عليه

---

(١١١) نفس المصدر ج ٦ ص ٩٠ والترجمة ، ج ١ ص ١٦٩ .

(١١٢) نفس المصدر ج ٦ ص ٩٠ والترجمة ، ج ١ ص ١٧٠ .

(١١٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٩١ والترجمة ، ج ١ ص ١٧٣ .

(١١٤) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٧ ، والترجمة ، ج ١ ص ١٧٥ ، ١٨٥ ، والقبائل التي انتسبت الى العرب هي : لواتة (حمير) . وهوارة وأوريغة (كندة) وزناتة (من أبناء تبع أي يمنية) ، وغمارة وزواوة ومكلاتة (حمير) . وفي انتساب قبائل صنهاجة ولمطة وهوارة الى حمير ، أنظر الادريسي ، ص ٥٧ — ٥٨ (حيث تقول الرواية ان هوارة أبناء هوار من عرب الحجاز التي تزوج تازكاي ام صنهاج ولمط البربريين) . وعن نفي ابن حزم لادعاء البربر في انتسابهم الى العرب اليمنية أو القيسية ، أنظر جمهرة أنساب العرب ، ص ٤٦١ .

(١١٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٩٧ والترجمة ج ١ ص ١٨٥ .

(١١٦) أنظر ابن خلدون ، المقدمة ، الفصل الخاص بأثر البيئة .

(١١٧) أنظر جوليان ، تاريخ افريقية الشمالية (بالفرنسية) ، ص ٤٦ — ٥٢ والأشكال ٣٤ — ٣٨ . وأنظر دراسات في المجتمع العربي . تأليف مجموعة من أساتذة كليتي الآداب والاقتصاد ، طبعة سنة ١٩٦١ — ١٩٦٢ . الفصل الخاص بالتعريف بالجزائر ، ص ١١٠ ، حيث يطلق على البربر اسم العرب القدماء .

اللغويون من أن اللغة البربرية واللغات السامية ومنها العربية ؛ وكذلك لغة مصر القديمة) ترجع الى أصل واحد – كما سبقت الاشارة – وهذا ما يؤيد القرابة الجنسية . ونكتفي بالاشارة الى طبيعة ونوع الحياة الاجتماعية التي كانت والتي ما يزال البربر يعيشونها . فالبربر عرفوا التنظيم القبلي مثل العرب وعرفوا حياة الحضر والاستقرار كما عاشوا حياة التنقل والبداوة. وفي ذلك يقول ابن خلدون : « ويظعن أهل العز منهم والغلب لانتجاع المراعي فيما قرب من الرحلة ... ومكاسبهم الشاء والبقر ، والخيل في الغالب للركوب . وربما كانت الابل من مكاسب أهل النجعة منهم . شأنهم في ذلك شأن العرب »(١١٨) . هذا التشابه في طبيعة اجتماع ينتج نوعا واحدا من العمران ويربي عادات وتقاليد مؤتلفة . وهو على الجملة يخرج عنصرية متجانسة تنبني على أساسها كل نظريات القرابة بين العرب والبربر .

أسس التمييز بين البتر والبرانس :

وعلى أساس تقسيم البربر الى « سكان الوبر » (سكان الخيام) و « سكان المدر » (سكان البيوت) ، عند ابن خلدون ، حاول جوتييه تفسير انقسامهم الى جماعة « البتر » وجماعة « البرانس » ، فقال : ان البتر هم أهل البداوة والرحلة ، والبرانس هم أهل الحضارة والاستقرار . وذلك كما كان يقسم البربر في التاريخ القديم الى نوميديين (أي جزائريين) وموريطانيين (أي مغربيين أو مراكشيين) . وكما يقسم أهل المغرب حاليا الى عرب وقبائل (Kabyles) (١١٩) . وهذه النظرية لها أساسها من الصحة اذ أن قبائل البرانس تعيش في معظمها عيشة استقرار في السهول والجبال الخصبة حيث تعمل في الزراعة ، بينما تعيش معظم قبائل البتر عيشة تنقل في الهضاب والمناطق الصحراوية وأشباهها حيث تشتغل بالرعي . ولكن يلاحظ أن هذا التقسيم ليس مطلقا ، فالحضارة والبداوة متبادلة في كل من الجماعتين(١٢٠) . فبعض قبائل البرانس تعيش في جوف الصحراء عيشة

---

(١١٨) ابن خلدون . العبر ، ج ٦ ص ٨٩ . الترجمة ، ج ١ ص ١٦٧ .

(١١٩) انظر .... Gautier, Le Passé de l'Afrique, p. 242

(١٢٠) ومما يؤيد فكرة ان البرانس ليسوا بالضرورة أهل الحضر ما ينص عليه ابن حوقل عن بربر المغرب الأقصى ، اذ يقول : « ومن بادائي سجلماسة والمغرب من البربر يأكلون البر ويمرعونه . والشعير ويزرعونه . والسور والطيبت . وفي أعرابهم أصحاب البرانس المصمون بين السوس وأغمات وفاس . ولهم لوازم على المجتازين من فاس الى سجلماسة » . (صورة الأرض . ص ٩٩) .

جدرية في أنقى صور البداوة مثل صنهاجة الصحراء • ومنهم قبائل لمتونة ومسوفة الملثمون ، رعاة الابل في صحراوات المغرب الجنوبية • وهؤلاء يسميهم الكتاب الأوربيون الرعاة الكبار (grands pasteurs) أو الجمالين الكبار (grands nomades chameliers) (١٢١) •

ويتميز هؤلاء عن رعاة الغنم والماعز الذين يعرفون بالرعاة الصغار petits pasteurs (١٢٢) بأنهم فرسان غزاة • فبفضل نجبهم السريعة العدو (التي عرفت عند كتاب الفرنج باسم dromadaires) كانوا يستطيعون تحطيم الدول واقامتها(١٢٣) • ولقد ظلت قبائل الملثمين (أجداد الطوارق الحاليين) تعيش عيشتها البدائية هذه في قلب الصحراء حتى القرن الخامس الهجرى (١١ م) • وبينما كان العرب يضربون في آفاق التحضر والتمدن في عواصم المغرب والأندلس كان الملثمون لا يعرفون الدقيق ولا الخبز ، انما طعامهم اللحم القديد الى جانب التمر وشرابهم لبان الابل(١٢٤) • وكذلك توجد بين البتر قبائل من أهل الاستقرار والتمدن مثل قبيلة كومية التي عاشت في أحواز تلمسان عيشة حضرية راقية(١٢٥) ، وهي قبيلة عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين •

ولقد فكر وليام مارسيه في تفسير تسمية البرانس والبتر تبعا لنوع

---

(١٢١) G. Marçais, La Berbérie et l'Orient musulman p. 36.
E.F. Gautier, Le Passé de l'Afrique, chap. 4, pp. 215, 224.

(١٢٢) أنظر نفس المصدر •

(١٢٣) يلاحظ هنا أن ابن خلدون (ج ٦ ص ٨٩) يميز اجتماعيا بين قبائل البربر ويقسمها قسمين : أحدهما « أهل العز » أو « المعتزون » وهم « أهل الانتجاع والاظعان في نتاج الابل وظلال الرماح وقطع السابلة » ، والآخر هم « المستضعفون » ومعاشهم « في الفلح ودواجن السائمة » • ويطبق ابن خلدون تقسيمه هذا على قبائل العرب فيجعل راعي الابل اشد واقوى من راعي الغنم والماعز (المقدمة ، الفصل الخامس بالعمران البدوى) • وعن خطورة جمال الملثمين أنظر ابن حوقل (ص ٩٧ — ٩٨) الذي يروى كيف أن ملك أودغست الصنهاجي كان يكفيه أن يأمر باثارة الابل التي كانت لأخته وتنفيرها على جيش كان يضمر الغدر بهم ، لكي تمحص ذلك الجيش مما كان معه من ابل وسلاح وتجعله شذر مذر •

(١٢٤) أنظر البكرى ، ص ١٧٠ ، الادريسي ، ص ٥٨ — ٥٩ ، الاستبصار ، ص ٢١٣ وقارن ابن حوقل ، ص ٩٨ •

(١٢٥) أنظر البكرى (عن كومية قبل ظهورها ، حيث كانت تقيم في حصن صيف بمنطقة تلمسان) ص ٨٠ ، (وعن كومية بعد ظهورها أيام الموحدين) أنظر ابن خلدون ج ٦ ، ص ١٢٦ — ١٢٨ والترجمة ، ج ١ ص ٢٥١ •

الثياب المعروفة في المغرب . فالثوب الوطني المشهور في البلاد كان البرنس ذا غطاء الرأس المخروطي الشكل الذي ما زال مستعملا الى اليوم(١٢٦) . وهو يرى أن العرب لاحظوا اختلافا في زي قبائل البربر الأولى : فمنهم من كانوا يرتدون البرنس الطويل أو البرنس الذي له غطاء للرأس ، وهؤلاء أطلق عليهم اسم البرانس (جمع برنس) . ومنهم من كانوا يلبسون هذا الرداء قصيرا أو دون غطاء للرأس ، وهؤلاء أطلق عليهم العرب اسم البتر (جمع أبتر بمعنى الناقص أو المقطوع)(١٢٧) مثل بتراء زياد بن أبيه المشهورة .

ولكن جوتييه يلاحظ — وله الحق في ذلك — أن هذا الافتراض الذكي الذي يستند الى معرفة عميقة باللغة لا ينطبق على كل قبائل البربر . اذ يصعب ادراج الملثمين من بربر الصحراء في طبقة من الطبقتين . فالملثمون من بربر البرانس ولكنهم لا يلبسون البرنس مطلقـــا ، ولا يحتمل أنهم كانوا يلبسونه في عصر من العصور ، كما لا يظن أن هناك علاقة بين غطاء الرأس في البرنس وبين اللثام عند أهل الصحراء(١٢٨) . وأخيرا يلاحظ جوتييه أن الذين يلبسون البرنس حاليا في المغرب هم حفدة البتر على وجه الخصوص اذ أن البرنس هو لباس الفرسان(١٢٩) . وهذا يعني أن رأي وليام مارسيه لم يخرج

---

(١٢٦) لا بأس من الاشارة الى محاولة جوتييه تتبع أصل البرنس اذ يقول انه شبيه بالثوب الشرقي الذي كان يستعمله القرطاجنيون ، وكان يتكون من رداء (tunique) طويل دون حزام عادة وقلنسوة تبين شكل الرأس (الجمجمة) . ويلاحظ جوتييه ان مثل هذا الرداء كان مستعملا في ايطاليا وذكره الكتب اللاتينية باسم باينولا (Paenula) وهو يرى أنه لا علاقة بين البونيكوم (Poenicum) اللاتيني الذي كان مستخدما في ايطاليا وبين القرطاجنيين ويرى أن كلمة باينولا مشتقة من كلمة باينا (Paina) بمعنى رداء . أنظر : E.F. Gautier, Le Passé de l'Afriuqe. p. 148.

وعن شهرة مدينة نول ، في بلاد الملثمين ، في صناعة السروج واللجم والاكتـــاب المعدة لحمة الابل والأكسية والبرانس التي يساوي الزوج منها خمسين دينارا ، (أنظر الادريسي ، ص ٥٩ .

(١٢٧) .... E.F. Gautier, Le Passé de l'Afrique p. 241

(١٢٨) أنظر Gautier, Le Passé de l'Afrique; p. 241 ، وعن فكرة أن الملثمين لم يعرفوا البرنس ، أنظر ابن حوقل (ص ٨٤) حيث يقول عن قبائل البربر الموغلين في براري سجلماسة ونواحي لمطة وفزان : ان الغالب عليهم الشقاء والالتحاف بالكساء .

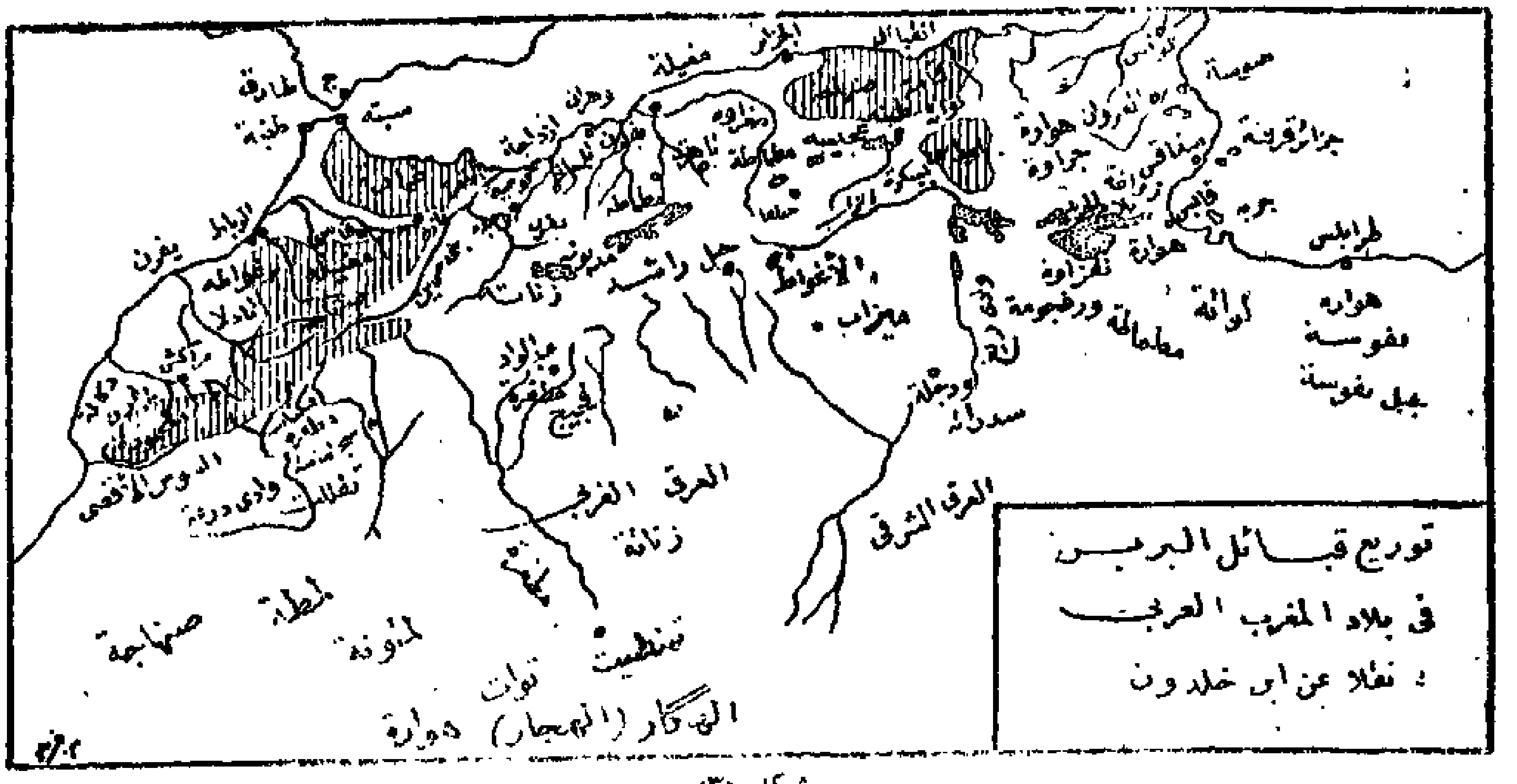
(١٢٩) نفس المرجع ص ٢٤٢ .

عن كونه مجرد افتراض لا يستند الى أساس قوى ، رغم أنه وصفه با عبقرية التي تستند الى معرفة عميقة باللغة ، وان أصل تقسيم البربر ـ عند العرب ـ الى برانس وبتر ما زال أمرا غامضا ٠

ونحن نرى أن كلا من نظريتي جوتييه ووليام مارسيه لهما وجاهتهما وأنهما لا تتعارضان بل ان الواحدة تكمل الأخرى ٠ فجوتييه يورد نظرية ابن خلدون في تقسيم البربر الى سكان الوبر وسكان المدر ، وطبقها على البتر والبرانس ٠ ووليام مارسيه فسر تفسيرا معقولا التسمية العربية لكل من الجنسين ، ولا بأس من التأمل في افتراضه هذا الى أن تثبت صحته أو يتأكد نقضه ٠

توزيع قبائل البربر في المغرب :

لا شك أن رسم خريطة دقيقة لتوزيع قبائل البربر في بلاد المغرب في العصور الاسلامية المبكرة من الصعوبة بمكان ، وذلك أن أقدم الروايات التاريخية التي وصلت الينا ترجع الى القرن الثالث الهجرى (٩ م) ، وكذلك الحال بالنسبة للوصف الجغرافي للبلاد ٠ والحقيقة ان الكتاب الأوائل لم يهتموا باعطائنا المعلومات التفصيلية عن القبائل وتوزيع مواطنها ، بل تكلموا عنها بشكل عام لا يبين وجه البلاد الحقيقي ٠ أما المتأخرون الذين جمعوا هذه المعلومات واضافوا اليها أخبارهم الخاصة ، فانهم لم يعتنوا بتصنيفها تصنيفا منهجيا مرضيا حسب الترتيب الزمني الصحيح ولم يميزوا بين القديم منها والحديث ، ويرجع الفضل لابن خلدون الذى تتبع تاريخ القبائل كل واحدة على حدة ، وبذلك أعطانا صورة كاملة عن توزيع قبائل البربر في كل المغرب كما بين تنقلاتها من موطن الى آخر على مر العصور ورغم ذلك فالملاحظ أن هذا التوزيع ينطبق أولا وقبل كل شيء على عصر ابن خلدون أى القرن الثامن الهجرى (١٤ م) ٠ وربما كان ذلك أمرا طبيعيا فما كان ابن خلدون بمستطيع أن يبين وجه المغرب في العصور القديمة بنفس الوضوح الذى بينه بالنسبة للعصر الذى خبر أحداثه ، وشارك في تجاربه ٠ وابن خلدون له الفضل في محاولة تتبع القبائل من اقليم الى اقليم تبعا للتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي عرفتها البلاد ، ولذلك ما زال كتاب العبر يتمتع بمركز الصدارة بين مراجع تاريخ البربر ٠ ويمكن أن تحدد مواطن القبائل البربرية بشكل عام تحديدا يصلح للقرون الأربعة الأولى ـ للأسباب التي ذكرناها ـ وحتى الهجرة الهلالية (منتصف القرن الخامس الهجرى/



شكل (٣)

انظر العبر (الفصل الخاص بذكر مواطن البربر بافريقية والمغرب) ج ٦ ص ٩٨ – ١٠٣

١١ م) التي ترتب عليها تغيرات جوهرية في توزيع القبائل على البلاد بالشكل التي هي عليه الآن .

ففي الأقاليم الشرقية ، وخاصة في برقة وعلى حدود مصر ، كانت توجد قبائل لواتة(١٣٠) . ويقول ابن خلدون انه كانت لهم في الماضي مدن عريقة مثل لبدة وزويلة وبرقة وقصر حسان(١٣١) ، بمعنى أن أرضهم كانت تمتد من حدود مصر الى طرابلس وربما امتدت مساكن لواتة الى سواحل قابس في افريقية(١٣٢) ، بل وحتى جبل أوراس(١٣٣) . ويظن بعض الكتاب أن اسم لوا أو لواتة هو الاسم القديم الذي عرفت به قبائل هذه المنطقة وأن اليونان هم الذين حوروه الى لوبيين (أو ليبيين)(١٣٤) . ومن لواتة ، قبائل نفزة أو نفزاوة التي أعطت اسمها الى الاقاليم الجنوبية من البلاد التونسية وما يتاخمها من بلاد طرابلس شرقا وصحراء قسنطينة غربا كما رأينا(١٣٥). ومن أهم فروع نفزاوة قبائل ورفجومة المشهورة في أحداث النصف الأول من القرن الثاني الهجري في افريقية(١٣٦) ، ومنها قبائل سدراتة التي أعطت اسمها للمنطقة في جنوب وارجلا (واركلا - واركلان)(١٣٧) . وفي اقليم طرابلس كانت قبائل نفوسة التي أعطت اسمها للجبل المعروف بهذا الاسم (جبل نفوسة) جنوب طرابلس(١٣٨) ، وكانت تجاور نفوسة قبائل

---

(١٣٠) أنظر ابن عبد الحكم ، ص ١٧٠ ، البلاذري ، ص ٢٢٥ ، ابن خرداذبة ، ٩١ ، البكري ، ص ٥ ، الاستبصار ص ١٤٤ وهامش ١ . وعلى أساس وجود قبائل لواتة البدوية في الاقاليم الشرقية يرى جوتييه (ص ٢٣٤ - ٢٣٥) انها مشرقية الأصل (من طرابلس) وهو يفرق بينها وبين مجموعة القبائل البدوية الكبرى وهي زناتة ويقول عن هؤلاء الآخرين انهم بدو وطنيون (autochtones)

(١٣١) العبر ، ج ٦ ص ١٠٣ والترجمة ج ١ ص ١٩٧ .

(١٣٢) أنظر شعيرة (محمد عبد الهادي) الصراع بين العرب والبيزنطيين ، الاسكندرية ، ١٩٤٧ (بالفرنسية) ص ٦٤ .

(١٣٣) أنظر ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، ص ١٤٥ .

(١٣٤) .... Gautier, Le Passé de l'Afrique, p. 239.

(١٣٥) أنظر فيما سبق في كلامنا عن الوحدة الطبيعية للبلاد ص ٧٥ وص ٧٦ .

(١٣٦) أنظر فيما بعد في الفصل الخاص بنهاية أسرة المهريين بافريقية .

(١٣٧) .... Gautier, Le Passé de l'Afrique, p. 230.

وعن وارجلا أنظر فيما سبق ، ص ٧٥ وهامش ٧٢ .

(١٣٨) أنظر فيما سبق في الفصل الخاص بأسماء الاقاليم (ص ٦٦) وكذلك الفصل الخاص بالسكان (قبائل البتر ص ٨٦) .

هوارة(١٣٩) . والى الغرب من ذلك وفي جنوب بلاد الجريد كانت مواطن قبائل مطماطة التي أعطت اسمها لجبل مطماطة هناك(١٤٠) ، هذا ونو أن مساكنهم القديمة كانت حيث جبل مطماطة الآخر فيما بين وهران وتاهرت(١٤١) .

وفي جبال أوراس الشرقية كانت قبائل جراوة التي أتعبت العرب في أواخر القرن الأول الهجري وحتى من زمانه(١٤٢) . ومجموعة القبائل هذه تعتبر من فروع قبائل زناتة البدوية التي ملأت المغرب الاوسط على أيام ابن خلدون . وقبل ذلك كان المغرب الأوسط لأوربة التي سكنت في غرب الزاب وفي أوراس(١٤٣) ، ومغراوة في جنوب غرب الجزائر على وادي شلف ، وبنو ايفرن الى الغرب من مغراوة في جنوب وهران وفي جنوب تلمسان (وهم من البتر)(١٤٤) ، ومضيلة في الأقاليم الساحلية شرق مصب وادي شلف(١٤٥) وكذلك جنوبي فاس في المغرب الأقصى حيث أعطت اسمها لاحدى المدن هناك(١٤٦) . وكانت قبيلة مديونة فيما وراء بني ايفرن جنوبي تلمسان (من جبل راشد الى الجبل المعروف باسمهم جنوبي وجدة ، كما يوجد في ممر تازا جبل عين مديونة شمال غرب فاس)(١٤٧) ، وكومية في الأقاليم الساحلية غرب وهران في تخوم أرشجول وتلمسان – وما زالت مدينة

---

(١٣٩) ابن خلدون العبر ج ٦ ص ١٠٣ ، الترجمة ج ٢ ص ١٩٧ . وقارن ابن خرداذبه (ص ٩١) التي يجعل منازل هوارة في مدينة أياس الطرابلسية . ونفس الرواية توجد في مروج الذهب للمسعودي ، ج ٢ ص ١١٩ .

(١٤٠) أنظر الاستبصار ص ١٠٥ وهامش ٢ ، Gautier, op. cit., p. 226.

(١٤١) أنظر Gautier, Le Passé de l'Afrique, p. 232

(١٤٢) عن مقدمة حصن أوراس أنظر ابن سعيد ، الجغرافيا ، ص ١٤٥ حيث يقول وسكانه أهل غدر وتحصن لا يدخلون تحت طاعة سلطان لامتناع جبلهم العريض الطويل ولما عندهم من الخيل والرجالة والأسلحة . وانظر فيما بعد في الباب الخاص بفتوح حسان بن النعمان .

(١٤٣) أنظر ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٧ ، ١٠٩ والترجمة ج ١ ص ٢٠٨ ، ٢١٣ ، ٢١٤ .

(١٤٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٠٢ والترجمة ، ص ١٩٦ ، وقارن ابن سعيد (الجغرافيا ص ١٤٢ حيث القراءة « مغراوه » (بدلا من هوارة) من زناتة وقاعدتهم مدينة تنس .

(١٤٥) نفس المصدر السابق .

(١٤٦) أنظر الاستبصار ، ص ١٨٨ .

(١٤٧) جوتييه ، ص ٢٣٢ . وعن جبل مديونة (غربي حماة مدغرة) أنظر ابن سعيد الجغرافيا ص ١٤١ .

ندرومة.هناك تحيي ذكرى بعض فروع قبيلة كومية(١٤٨) . والى الغرب من أرض كومية كانت أرض مطغرة (أو مدغرة)(١٤٩) . ولقد كانت موطن مطغرة أيام ابن خلدون ممتدة من تمنطيت وتوات جنوب سجلماسة الى تلمسان(١٥٠) . وهذه القبائل تعتبر من زناتة هي الأخرى ، ولقد انتشرت قبائل زناتة في المغرب الأقصى (عن طريق وجدة وفاس وممر تازا) حتى سهول البحر المحيط .وقبائل لماية كانت في جنوب الجزائر متاخمة للصحراء. وهي من القبائل التي شاركت في تأسيس امارة تاهرت الاباضية ثم انها انتشرت بعد سقوط تاهرت الى الجنوب التونسي ومن لماية قبائل جربة (الأباضية) التي أعطت اسمها للجزيرة المواجهة لقابس(١٥١) . وعلى طول وادي ملوية ، فيما بين المغرب الأوسط والمغرب الأقصى . كانت قبائل مكناسة (التي ما زالت مدينة مكناسة تحيي اسمها) تنتشر من المصب قرب تلمسان الى المنبع بالقرب من سجلماسة قبل أن تزاحمها قبائل أخرى من زناتة على أيام ابن خلدون(١٥٢) . ومن فروع مكناسة قبائل جرسيف وطيلة واليها تنسب المدينتان المعروفتان بهذين الاسمين كما ينسب اقامة رباط تازا أيضا الى قبائل مكناسة(١٥٣) .

أما عن قبائل البرانس فجماعاتها الكبرى هي كتامة وصنهاجة ومصمودة . ولقد كانت مواطن كتامة وصنهاجة في المغرب الأوسط ، في القسم الشرقي منه أي في شرق بلاد الجزائر الذي يعادل منطقة « القبائل » الحالية(١٥٤) . ويظن أن « قبائل » الجزائر التي يسميها الفرنسيون « قبيل

---

(١٤٨) جوتييه ، ص ٢٣٣ . وانظر ابن سعيد (الجغرافيا ص ١٤٠) حيث نجد ارشجول في (ارشغون) ، وهي فرضة تلمسان . وقارن ابن حوقل (ص ٧٩) حيث ارجكوك بدلا من ارشجول . والخطأ يكون هنا في الكاف الاخيرة التي كتبها الناسخ بدلا من اللام التي يمكن أن تحل محلها نون ، اذ نجد القراءة في شكل « ارجكون » (الادريسي ص ١٧٢) لما الشين فيمكن أن تحل محل الجيم ، كما أن الجيم في نطقها المصري (جاف فارسية) يمكن أن تكتب في شكل غين أو قاف (ارشقول — الادريسي ، ص ١٧٢) .

(١٤٩) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٠٢ ، والترجمة ج ١ ص ١٩٦ .

(١٥٠) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٢٠ والترجمة ، ج ١ ص ٢٤٠ ، جوتييه ، ص ٢٣١ .

(١٥١) أنظر جوتييه ، ص ٢٣١ وأنظر فيما بعد الفصل الخاص بامامة تاهرت .

(١٥٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٩٢ ، والترجمة ، ج ١ ص ١٩٥ .

(١٥٣) جوتييه ، ص ٢٣٣ .

(١٥٤) أنظر ابن حوقل ، ص ٨٧ (حيث يورد تفصيلات عن منازل كتامة في الطريق من القيروان الى المسيلة) .

"Kabyles" ، هم سلالة كتامة وصنهاجة . وكانت كتامة تسكن المنطقة التي يسميها الفرنسيون ، القبائل الصغرى "Petite Kabylie" وهي المنطقة الجبلية الواقعة بين مدينتي بجاية وقسنطينة(١٥٥) . ويعتبر ابن حزم قبائل زواوة (وهي معدودة في قبائل البتر) من كتامة لأن أرض زواوة القديمة كانت تتاخم أرض كتامة(١٥٦) .

أما قبائل صنهاجة فمواطنها الى غرب كتامة في المنطقة الجبلية الممتدة من جنوب بجاية الى جنوب مدينة الجزائر ، ويسمي الفرنسيون هذه المنطقة باسم القبائل الكبرى "Grande Kabylie" ،(١٥٧) . والى جوار صنهاجة استوطنت قبيلة عجيسة (البرنسية) الجبال المشرفة على مدينة المسيلة ، كما سكنت بعض فروعها جبل قلعة بني حماد (جنوب بجاية) . ومن الغريب أن هذه القبيلة وقفت الى جانب أبي يزيد صاحب الحمار ضد قرابتها الصنهاجيين اتباع الفاطميين فكان ذلك سببا في القضاء عليها(١٥٨) . وقرب وهران كانت تقطن قبيلة أزداجة وهي من البرانس أيضا ، وكان سكناها في منطقة البتر الزناتية ، وهم حلفاء الأمويين في الأندلس ، سببا في القضاء عليها عندما تحالفت ضدهم مع كتامة(١٥٩) . والى جانب بلاد الجزائر استوطنت جماعة كبيرة من صنهاجة بلاد المغرب الاقصى في جبال درن الشرقية (الأطلس الوسطى) . وهذه الجماعة يسميها ابن خلدون بصنهاجة الجيل الثالث ، وينطق اسمها في شكل زناجة . ويرى جوتييه أن سلالة هؤلاء

---

(١٥٥) G. Marçais, La Berbérie et l'Orient musulman, p. 133.

(١٥٦) ابن خلدون ، ٦ ص ٩٩ ، الترجمة ، ج ١ ص ١٧٣ . والظاهر أن قبائل من كتامة كانت قد تحركت نحو الغرب مع مرور الوقت ، ففي شمال غربي مدينة مكناس اصبحت مدينة القصر تعرف على عهد ابن سعيد (كتاب الجغرافيا ، ص ١٤١) بقصر عبد الكريم وبقصر كتامة الذين يوصفون بأنهم بادية تى بدو ، رغم أنهم من البرانس .

(١٥٧) عن صنهاجة أنظر الاستبصار ، ص ١٢٨ ، ١٣٦ . وانظر ابن خلدون ج ٦ ص ١٥٢ ، وعن القبائل الصغرى والقبائل الكبرى انظر :
H. Larnaude, Algérie, Coll, Union Française, p. 74.

(١٥٨) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤٤ - ١٤٥ والترجمة ج ١ ص ٢٨٥ ، وانظر جوتييه ، ص ٢٣٨ .

(١٥٩) ابن خلدو ن ، ج ٦ ص ١٤٤ - ١٤٥ ، والترجمة ج ١ ص ٢٨٢ ، وانظر جوتييه ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

هم الجماعة المعروفة حاليا في المغرب باسم البرابر ، ومواطنهم بين ممر تازا والصحراء(١٦٠) ٠

أما قبائل مصمودة فاستوطنت جبال درن (أطلس العليا) في جنوب المغرب الأقصى (جنوب مدينة مراكش) ٠ وقبائل المصامدة (ومفردها مصمودة) التي اقامت دولة الموحدين (في منتصف القرن السادس الهجري/ ١٢ م) تحوى عددا كبيرا من القبائل من أشهرها هرغة وهكسورة وجنفسة ٠٠ الخ(١٦١) ٠ وتعتبر قبائل غمارة من مجموعة قبائل المصامدة(١٦٢) ، وكانت مساكن غمارة في الأقاليم الجبلية المواجهة شمالا للبحر المتوسط والمعروفة بجبال الريف(١٦٣) ٠ ولقد أعطت هذه القبائل ـ التي شاركت في أحداث القرن الثالث الهجري بقيادة متنبيها المعروف بحاميم ـ اسمها للمنطقة التي عرفها الكتاب العرب باسم جبال غمارة(١٦٤) ٠

وفي جنوب الريف ، في منطقة مدينة وليلي (Volubilis) القديمة وهي منطقة مدينة فاس الحالية ، سكنت قبيلة أوربة المشهورة ، وهي معدودة من قبائل البرانس ٠ وأوربة هي التي نزل عليها إدريس بن عبد الله العلوي (في أواخر القرن الثاني الهجري/٨ م) وبمساعدتها أقام دولة الأدارسة في المغرب(١٦٥) ٠ ومن قبل قامت أوربة بدور هام في الفتوح الأولى عندما تحالف زعيمها كسيلة مع العرب بعد أن هزموه عند تلمسان ثم عاد وتحالف مع الروم وغدر بعقبة بن نافع قرب بسكرة من بلاد الزاب(١٦٦) ٠ وهكذا

---

(١٦٠) جوتييه ، ص ٢٣٧ ٠

(١٦١) أنظر مذكرات البيذق ، نشرة وترجمة بروفنسال ، ص ٣٣ وتابع ، والترجمة ص ٥٢ وتابع ٠

(١٦٢) أنظر فيما سبق في برابر البرانس ص ٨٦ ٠ وعن كثرة عددهم يقول ابن سعيد (الجغرافيا ص ١٣٩) انهم أمم لا يحصيهم الا الله ٠

(١٦٣) عن تسمية ساحل غماره ، شرق مدينة سبتة ، بالريف ، أنظر ابن سعيد ، الجغرافيا ، ص ١٣٩ ٠

(١٦٤) أنظر فيما سبق في الباب الخاص بأسماء البلاد (ص ٧٠) وعن حاميم أنظر ، البكري ص ١٠٠ ، والاستبصار ، ص ١٩١ وتابع ٠ وأنظر فيما بعد الفصل الخاص بذلك في تاريخ الادارسة (ج ٢) ٠

(١٦٥) أنظر فيما بعد الفصل الخاص بقيام دولة الادارسة ٠

(١٦٦) أنظر ابن عذارى ، طبعة كولان ، ص ٢٨ ـ ٢٩ ، وفيما بعد الفصل الخاص بحملة عقبة الثانية ٠

الأمر جعل بعض المحدثين يظن أن قبيلة أورية استوطنت الاقليم الغربي من جبال أوراس وهي منطقة الشاوية الملاصقة لوادي العبيدى ووادي العرب حاليا(١٦٧) .

والاقليم المواجه للبحر المحيط ، شمال وادى أم ربيع ، كان موطنا لقبائل برغواطة التى شاركت في الأحداث ابتداء من القرن الثاني الهجرى بقيادة متنبيها صالح بن طريف ، والتي ظلت مضطربة الى القرن السادس الهجرى (١٢ م) حتى بنى الموحدون مدينة رباط الفتح (الرباط) لاخضاعهم(١٦٨) . أما الاقليم الساحلى الذى يقع غرب جبال المصامدة ما بين مصب وادى تنسيفت ومصب وادى سوس ، فكانت تقطنه قبائل دكالة وبعدها قبائل جدالة وهي القبائل التى شاركت في أحداث القرن الخامس الهجرى (١١ م) عند اضطراب قبائل الصحراء وقيام دولة المرابطين(١٦٩) . وكانت أكبر جماعات قبائل الصحراء الجنوبية المؤدية الى بلاد السودان (غانة وكوكوا) هي قبائل لمتونة ومسوفة من الملثمين وهم من صنهاجة رعاة الابل(١٧٠) ، وخلفاؤهم الآن هم الطوارق .

التنظيم الاجتماعي والعادات والتقاليد :

اتضح لنا فيما سبق أن البربر عرفوا — مثلهم مثل العرب — التنظيم القبلي الذى يتناسب مع طبيعة البيئة شبه الصحراوية التي عاشوا فيها . وكانت كل قبيلة تنتسب الى أب أو جد واحد بمعنى أن الرابطة بين أفرادها هي رابطة الدم — من الناحية النظرية على الأقل . فأفراد القبيلة هم بنو فلان من الناس أي أبناؤه ، والكلمة المرادفة لكلمة « بنو » العربية هي

---

(١٦٧) ينسب جوتييه (Gautier, Le Passé de l'Afrique, p. 238) هذا الرأى الى ماسكراي (Masqueray) ، ويرى انه بالغ بعض الشيء في اصالة أهل هذه المنطقة .

(١٦٨) الاستبصار ، ص ١٦٧ وأنظر فيما بعد الفصل الخاص بفتح الادارسة لاقليم تامسنا

(١٦٩) الاستبصار ، ص ٢٠٩ (دكالة) وص ٢١٤ (جدالة) وقارن البكرى ، ص ١٦٤ .

(١٧٠) أنظر ابن حوقل ، ص ٩٨ ، البكرى ، ص ١٦٣ ، وياقوت ، معجم البلدان ج ٤ قسم ١ ، ص ٢٢٩ (حيث يقول عن الملثمين ، وقبائلهم : لمتونة ومسوفة ودكالة أكثرهم عددا ، وصنهاجة أجملهم صورا ، ولمتونة أشجعهم ، والملك منهم) . وأنظر فيما سبق ، ص ٨٩ . وعن بلاد السودان الاسلامية أنظر العمري ، مسالك الأبصار (ترجمة Gaudefroy-Demombynes) ص ٤٣ وتبع .

« ايت » بالبربرية • ولقد ظلت بعض القبـــائل تستخدمها حتى من بين القبائل التي تعربت أو أصبحت عربية مثل (ايت عياش) ومنهم الرحالة المشهور العياشي(١٧١) • اما عن رئيس القبيلة أو شيخها فيطلق عليـــه بالبربرية «أمغار» ، وأمثال هذه الكلمات موجودة في كتب تاريخ المغرب كما أنها لا زالت مستعملة بين بعض القبائل الى اليوم(١٧٢) • وبطبيعة الحال لم تكن القبيلة لتستطيع دائما أن تحافظ على نقائها ، فأسماء القبـــائل التي ذكرناها كانت تعني جماعات متفاوتة من حيث عدد أفرادها ، فبعضها كان يتجاوز شكل القبيلة الى شكل الأمة أو الشعب كما هو الحال بالنسبة لاسم زناته أو صنهاجة اذ تتكون كل من الجماعتين من عدد عديد من القبائل حتى قال ابن خلدون ان صنهاجة تبلغ في عددها ثلث أمة البربر(١٧٣) • وهذا يعني أن اسم القبيلة كان يمثل في كثير من الأحيان اسم اتحاد سياسي تدخل فيه أكثر من عصبية أو قبيلة ، اما عن طريق الحلف أو عن طريق الغلبة • وبطبيعة الحال كانت القبيلة أو العصبية صاحبـــة التفوق هي التي تعطي اسمها لمثل هذا الاتحاد • والدليل على هذا الاختلاط بين القبائل هو اختلاف النسابة في وضع بعض القبائل الفرعية في جماعة من الجماعات الكبرى مرة ، وفي جماعة غيرها مرة أخرى كما فعلوا بالنسبة لقبيلتي هوارة أو زواوة ، فوضعوهما مع البتر حينا ومع البرانس أحيانا • وكذلك ما يقال من أن قبيلة سدراتة هي أخت قبيلة مغراوة من جهة الأم أو ما يقال من اسم كومية هو نفس اسم قبيلة صطفورة(١٧٤) • ونجد مثل هذا أيضا عند قبائل العرب اذ يجعل النسابة قبيلة قضاعة مرة ضمن القبائل اليمنية ومرة ضمن القبائل العدنانية(١٧٥) •

---

(١٧١) أنظر محمد القادري ، نشر المثاني (ترجمة فرنسية بمعرفة
Ed. Michaux-Bellaire Archives Marocaines, Paris 1917 vol. 24.
ترجمة سيدي عبد الله بن محمد العياشي ، ص ١٤٢ •

(١٧٢) مذكرات البيذق . نشر بروفنسال ، النص ص ١١٦ — ١١٩ ، والترجمة ١٩٠ ، ١٩١ . ١٩٥ والهامش ١ ، وعن الاستعمال حاليا ، أنظر ،
Célérier, Maroc, p. 105.

(١٧٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٥٢ والترجمة ج ٢ ص ٤ . وقارن ابن سعيد ، الجغرافيا . ص ٢٤ (حيث يقول : « وهذا القبيل أكثر قبائل المغرب ، وفي كل أرض منهم حي . ويذكرون ان أصلهم من عرب اليمن والعروبية بينهم ظاهرة) •

(١٧٤) انظر فيما سبق (الفصل الخاص بقبائل البتر والبرانس) ص ٨٦ وما بعدها •

(١٧٥) أنظر ابن خلدون ، المقدمة (الفصل الخاص باختلاط الانساب وكيف يقع) •

وكان نشاط هذه القبائل يتفاوت ـ حسب طبيعة البيئة ـ ما بين الزراعة عند أهل الاستقرار (سكان المدر عند ابن خلدون) وبين الرعي عند أهل البداوة (سكان الوبر) • والحقيقة ان كل جماعة من الجماعتين تنقسم من حيث طبيعة عملها الى أقسام ثلاثة ، وذلك حسب تقسيم المفكرين للأشياء منذ القديم ما بين التطرف والوسط والاعتدال • وهذا يعني أن الطبقة المعتدلة في كل من الجماعتين تكاد تلتقي من حيث طبيعة عملها الذي يتراوح ما بين الزراعة والرعي ، أي أنهما تكونان طبقة مشتركة أو متوسطة تمثل نشاط جميع السكان • فهي من جهة تعلوها طبقتان من الزراع هم سكان الواحات ثم سكان القرى المتخصصون في التشجير ، ومن الجهة الأخرى توجد تحتها طبقتان من البدو هم رعاة الغنم ثم رعاة الابل(١٧٦) •

والأقاليم الزراعية الجيدة هي التي تتوافر فيها الأمطار ، وذلك على طول المناطق الساحلية للبحر ـ والبحر المحيط خاصة ـ وتزداد الأمطـــار في الأقاليم المرتفعة كما هو الحال في جبـــال شرق المغرب الأوسط في منطقة قسنطينة (القبائل الصغرى) ومنطقة مدينة الجزائر (القبائل الكبرى) وكذلك في المغرب في اقليم وهران • وتكثر المياه في المغرب الاقصى على السواحل وفي جبال درن (أطلس العليا والوسطى) • وعلى ذلك فكل هـــذه الأقاليم وما تحتضنه من السهول الممتدة من السوس الأقصى (من تارودانت وأغادير) الى تازا وجبال غمارة (الريف) صالحة للزراعـــة • ويتأكد ذلك في الأقاليم الشرقية من المغرب في مرتفعات غرب وشمال البلاد التونسية ، وفي جبال نفوسة جنوب طرابلس وحتى جبل برقة المشهور بالجبل الأخضر •

الزراع :

وأصحاب زراعة التشجير أهل استقرار بالضرورة ، لحاجة الشجر الى العناية به طول العام ، ولأنه لا يؤتي ثماره الطيبة الا بعد فترة من الصبر والانتظار قد تطول الى أعوام • وأهم شجرة عرفها المغرب هي الزيتونة التي كانت تكون الغلة النقـــدية الى أيام الفتح العربي • اذ تقـــول الرواية ان عبد الله بن سعد بن أبي سرح عندما رأى كثرة الذهب والفضة بافريقية (سنة ٦٤٩/٢٧) ، قال لأهلها : « من أين لكم هذا ؟ فجعل الرجل منهم

(١٧٦) قارن : Célérier, Le Maroc, p. 84.

يلتمس شيئا من الأرض حتى جاء بنواة زيتون ، فقال من هذا أصبنا الأموال ، لأن أهل البحر والجـــزر ليس لهم زيتون ، فكانوا يمتارونه من هنا(١٧٧) • وما زالت الزيتونة تكون الغلة النقدية في البلاد التونسية وفي طرابلس ، كما تعتبر من الغلات الهامة في بلاد المغرب والجزائر ، هذا اذا تركنا الواحات جانبا ومنها واحات مصر وخاصة سيوة التي عرفها الادريسي باسم سنترية وابن سعيد باسم « سانترية »(١٧٨) والى جانب الزيتونة وجدت أشـــجار الفاكهة مثل التين والكرم • وانتشرت كذلك زراعة الحبوب من القمح والشعير في كل السهول الخصبة في المنطقة ذات المناخ المعتدل حيث تختلف الأرض ما بين السواد والحمرة • وبسبب طبيعة الأرض وصفت مدينة مراكش في أقصى المغرب بالحمراء وكذلك مدينة برقة في أقصى أطرافه الشرقية(١٧٩) • وبطبيعة الحال يعتبر أصحاب حرفة التشجير وزراعـة الحبوب أرقى طبقات الزراع ، فهم سكان القرى المتخصصون في هذه الحرفة •

أما الطبقة الثانية من الزراع فهم سكان الواحات التي تمتد من الجنوب المراكشي الى واحات برقة ومصر عبر النطاق الذي يسميه ابن خلدون بشكل عام ولكن بحق بلاد النخل(١٨٠) • والنخيل ينتشر في الواحات التي تتلاصق جنبا الى جنب في جنوب المغرب الأقصى أشبه ما تكون بحلقات متسلسلة ويمتد النخيل في بطون الأودية على طول عشرات الأميال والمراحل ، كما في وصف العياشي(١٨١) • وهو حاليا يكون شـــوارع حقيقية عظيمة في قلب الصحراء(١٨٢) • وفي ظلال النخيل التي تلطف من حرارة الجو الصحراوي

---

(١٧٧) ابن عذارى ، طبعة كولان ، ج ١ ص ١٢ ، قارن ابن عبد الحكم ، ص ١٨٥ •

(١٧٨) الادريسي ، ص ١٣٦ وانظر كتاب الجغرافيا ، ص ١٢٨ (حيث يصفها بأنها : جزيرة نخل ومياه في صحارى ، وانه توجد في أرضها شجرات من النخل وحب اللوز الذي يجلب الى الاسكندرية • أما عن المسافة بينها وبين البحر — حيث العقبة الصغرى (منطقة مرسى مطروح الحالية) التي تعتبر من أرض الاسكندرية (نفس المصدر ص ١٢٦) — فتقدر بثماني مراحل) •

(١٧٩) أنظر الاستبصار (عن برقة) ، ص ١٤٣ والهامش ١ ، وأما عن مدينة مراكش فما زالت تسمى بالحمراء (مثل غرناطة) الى أيامنا هذه أو ذلك ما كان يصفه بها قاضيها عباس بن ابراهيم المراكشي ، صاحب كتاب « الاعلام » وكنا قد التقينا به لدقائق معدودة في مقره سنة ١٩٥١ •

(١٨٠) أنظر فيما سبق في الباب الخاص بالوحدة الطبيعية ص ٧٥ •

(١٨١) أنظر فيما سبق ص ٧٤ •

(١٨٢) أنظر Célérier, Maroc, p. 86.

تزرع أشجار الفاكهة من الكروم والتين والزيتون ، كما تزرع بالواحات الحبوب من القمح والشعير • وسكان الواحات أهل استقرار فهم أهل قرى لاصقون بالارض ، كما عرفوا بأنهم خبراء في الري وفي حسبان (حساب) أوقات الزراعة(١٨٣) ، ولكنهم وضعوا في الطبقة الثانية من الزراع بسبب علاقاتهم الوثيقة بأهل البادية المتنقلين • فحياة سكان الواحات تعتمد الى حد كبير على بدو الصحراء اذ يحتاجون الى التبادل التجاري معهم • فاهل البادية يأتون الى الواحة من أجل الري والسقيا ، وكذلك لأخذ مؤونتهم من التمر أو نقله الى الأقاليم التي ينفق فيها ، فالتمر كما نعلم أهـم غلة في الواحات • فالى جانب كثرة النخيل نلاحظ أن انتاجه مضمون الى حد كبير اذ لا يعتمد على وفرة المياه أو قلتها في سنة من السنوات ، كما أنه لا يتطلب مجهودا كبيرا في العناية به والدفاع عنه ضد الحيوانات والآفات كما هو الحال بالنسبة لأشجار الفاكهة أو الحبوب ولما كان سكان الواحات يضطرون الى الدفاع عن مزروعاتهم في كثير من الأحيان ضد البدو نجد أنهم سكنوا في البيوت المبنية بالحجارة والطوب ، وأحاطوا واحاتهم بالأسوار الى أن اتخذت شكل القلاع التي عرفت ـ وما زالت تعرف ـ بالقصور(١٨٤) • ولقد ترتب على تلك العلاقة التي تتراوح ما بين الحرب والسلم الى نوع من المـزج بين الجماعتين وتوافق في كثير من العادات والتقاليد ، فقد عرف عن أهل الواحات أنهم تجار رحالة يجوبون الصحراء مثل أهلها في سبيل متاجرهم •

والطبقة الثالثة من الزراع هم أولئك الذين جمعوا بين زراعة الحبوب وتربية الغنم والماشـية ، في الأقاليم الصـالحة للجمع بين الحرفتين حيث تسمح ، المياه بالزراعة في الـوديان وينمو العشب للرعي في الهضـاب والمرتفعات • وتشبه هذه الطبقة من الزراع الطبقة الأولى من الرعاة الذين يجمعون الزراعة الى جانب الرعي في أقاليم الانتقال بين المناطق المعتـدلة الممطرة والمناطق الجافة الصحراوية ، وذلك في الأقاليم المعروفة بالتل أو التلول

---

(١٨٣) المثل لذلك ما يذكره الكتاب عن مهارة أهل قفصة (أشهر واحات بلاد الجريد) في هندسة الري وتنافسهم على سقي جناتهم وخبرتهم في معرفة أوقات النهار من أجل ذلك (انظر الاستبصار . ص ١٥٢ ، ١٥٣) •

(١٨٤) القصور ومفردها قصر بمعنى قلعة وأول من لها قصور حسان في طرابلس • انعر فيما بعد القصر الخاص بهزيمة حسان بن النعمان أيام الكاهنة • وعن الواحات التي تشبه المدن المحصنة ، انظر ، Célérier, Maroc, p. 86. وانظر ايضا ، E. Laoust, L'habitation des transhumants du Maroc Central, Hespéris, t 14, 1932.

من المغرب الأوسط ، وفي أقاليم الريف الشرقية وأواسط وادي ملوية ووادي ام الربيع في المغرب الأقصى ، وفي سفوح جبال تونس الغربية ، وفي طرابلس وجبل برقة . ففي هذه الأقاليم وجدت الزراعة الدائمة حيث يتوفر الماء الذي يتوقف على مقداره ازدياد أو نقصان الرقعة المزروعة . أما العشب الصالح للرعي فهو ينبت سواء كانت الأمطار كثيرة أو شحيحة . وفي هذه الأقاليم تختلط البيوت والمساكن المبنية باللبن والطين بالخيام ، معبرة عن طبيعة حياة الناس التي تتراوح ما بين الاستقرار والتنقل ، كما يذكر ابن خلدون أنهم « يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر »(١٨٥) .

الرعاة :

ومناطق الانتقال هي أرض العشب والمراعي التي تعرف حالياً باسم السهوب (Steppes) . ورغم أنها أرض الغنم دون منازع الا أن العشب فيها يتوفر للخصان الصغير الحجم (القريب الشكل من الحصان العربي والمعروف بالبرزون وجمعها براذين) وكذلك للجمل(١٨٦) . ورعاة الغنم هؤلاء هم الطبقة الثانية أو الوسطى من الرعاة وهم جمهرتهم اذ ينتشرون في كل المغرب من أدناه الى أقصاه ، كما في هضبة مراكش الشرقية (التي تكسوها الحلفا) وما يتاخمها من بلاد الجزائر . والرعاة في هذه الأقاليم لم يعرفوا الحدود السياسية بين البلدين الى اليوم(١٨٧) . والمغرب الأوسط هو بلد الرعي بصفة خاصة ، ولهذا السبب يفسر ابن خلدون كلمة الشاوية التي أطلقت على القبائل في بلاد الجزائر والتي ما زالت مستعملة الى اليوم على أنها تعني رعاة الشاة(١٨٨) . ولقد اشتهرت برقة أيضا بمراعيها التي تجود فيها الغنم المعروفة بلذة لحمها وكثرة شحمها(١٨٩) . ورعاة الغنم

---

(١٨٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٨٩ .

(١٨٦) أنظر ابن حوقل (ص ٩٥) حيث الاشارة الى أن أهل المغرب من البربر لهم الخيل النفسة من البراذين والبغال القره والابل والغنم والبقر . وأنه عندهم من الجمال الكثيرة في براريهم وسكن صحاريهم التي لا تدانيها في الكثرة ابل العرب . وانظر ابن سعيد ، الجغرافيا ، ص ١٤١) حيث يقول عن برابرة قازاز : ان لهم في جبالهم بين نهر سلا ونهر سبو ، ذي الخيل نتاجمشهور .

(١٨٧) أنظر Célérier, Le Maroc, p. 38.

(١٨٨) المقدمة . الفصل الخاص بالعمران البدوي ، طبعة التجارية ، ص ١٢١ .

(١٨٩) الاستبصار ، ص ١٤٣ والهامش ١ .

يتنقلون عادة بقطعانهم بين المراعي المرتفعة في الجبال والتلول وبين المراعي المنخفضة لما تتميز به من الدفء الضروري للحيوان وخاصة من اجل النتاج(١٩٠) . ولكن العشب لا يلبث أن ينقرض بمجرد اشتداد الحرارة في الوقت الذي تكون فيه الأقاليم العالية غنية بالعشب الذي يتأخر ظهوره شتاء لشدة البرد بينما يكون الطقس لطيفا صيفا - وبسبب هذا النوع من التكامل بين السهل والجبل ينتقل الرعاة بخيامهم الى ظهور الهضاب والجبال صيفا . أو يلجأون الى عيون المياه بما يبقونه لديهم من الشياة في الأقاليم السهلية الجافة .

والطبقة الثالثة من البدو هم رعاة الابل أو الجمال . ومساكنهم على حافة الصحراء حيث يقل الماء ولكن حيث توجد أنواع من النباتات الخشنة الصالحة لرعي الابل والتي لا تصلح طعاما لغيرها من الحيوانات الصغيرة ، كما في صحراوات المغرب الاقصى الجنوبية في وادى درعة وسجلماسة (تفللت) حيث كان الملثمون ، وكما في قلب صحراوات الجزائر مثل اقليم الهكار (الهجار) حيث يوجد حفدة الملثمين القدماء وهم الطوارق(١٩١) . ورعاة الجمال هؤلاء كانوا يعتمدون في معاشهم على الابل يشربون ألبانها ويأكلون لحومها المقددة كما يتغذون بتمور الواحات دون غيرها حتى أنهم لا يعرفون الخبز(١٩٢) . وهم بفضل جمالهم يجوبون الصحراء من أدناها الى أقصاها طولا وعرضا ، ينقلون المتاجر والخضسارة الى قلب الصحراء والسودان أو يبحثون عن موارد المياه البعيدة . وحتى أيامنا هذه لوحظ أن الطوارق يقودون قطعانهم من الجمال من الحدود المراكشية (من ايجيدى Iguidi ومن ريو دى أورو Rio de Oro) للسقيا من نهر النيجر(١٩٣) . والحقيقة أن رعاة الابل هم البدو حقيقة دون غيرهم فهم من هذا الوجه « أشد الناس توحشا » كما يقول ابن خلدون(١٩٤) . وهم الرعاة العظام كما يسميهم

---

(١٩٠) ابن خلدون . المقدمة . الفصل الخامس بالعمران البدوى . طبعة البجيرمي، ص ١٢١ .

(١٩١) عن بلاد الهكار انظر ابن بطوطة . الرحلة . ط . التقدم بمصر ، ج ٢ ص ٢٠٦ (حيث يقول ان طائفة مسيرة شهر ، وانها قليلة النبات كثيرة الحجارة وأن أهلها من البربر أهل الشام .

(١٩٢) ابن حوقل ص ٨٤ . ٩٨ . البكرى ، ص ١٧٠ . الاستبصار ، ص ٢١٣ - ٢١٤ .

(١٩٣) أنظر . Larnaude, Algérie, p. 97.

(١٩٤) المقدمة . الفصل الخاص بالعمران البدوى . طبعة التجارية ، ص ١٢١ .

الأوروبيون (Grands Pasteurs Chameliers) (١٩٥) . وبطبيعة الحال لا يدخل ضمن هذه الطبقة أولئك الذين يشتغلون برعي أو تربية الجمال من طبقات الزراع أو رعاة الغنم والخيل الذين ينتشرون في كل البلاد من مراكش الى برقة .

ولقد كان وجود الجمل في المغرب موضوع جدل بين العلماء ، وذلك بعد العثور على النقوش القديمة في صخور صحراء الجزائر التي تبين أن البلاد كانت عامرة في عصر ما قبل التاريخ بحيوانات متوحشة ومنها الفيل والزراف على وجه الخصوص(١٩٦) . أما الجمل فلم يكن من بين هذه الحيوانات كما هو الحال في مصر القديمة(١٩٧) . ووجود الفيل في المغرب قديما دليل على أن الصحراء المغربية كان يسودها جو أشبه بجو اقليم الأعشاب الطويلة المعروفة بالسافانا ، وعندما انحسر هذا الاقليم نحو أواسط افريقية انسحب معه الفيل . ولقد اتضح أن أول ذكر للجمل في المغرب يبدأ مع مطلع التاريخ المسيحي ، وثبت أنه أتى من المشرق وبدأ استخدامه على نطاق واسع ابتداء من القرن الثالث المسيحي كما يشير الى ذلك كتاب الرومان ، الذين سجلوا العمليات العسكرية في ولاية افريقية(١٩٨) . هذا ولو أن بعض كبار المتخصصين في تاريخ المغرب العربي مثل رينيه باسيه (René Basset) أخطأ وظن أن الجمل دخل الى المغرب مع العرب ، وهو يستند في ذلك على دراسته اللغوية التي يتضح منها أن اسم الجمل في كل اللهجات البربرية مشتق من اسمه في اللغة العربية(١٩٩) .

---

(١٩٥) أنظر Gautier; Le Passé de l'Afrique, p. 183

(١٩٦) نفس المرجع ص ٣٩ ، واللوحة رقم ٥ أمام ص ٤٠ وأنظر ص ١٧٠ حيث يتكلم جوتييه عن فيلة قرطاجنة ويقول انه ثبت انها أفريقية الأصل .

(١٩٧) المعروف أن الجمل لم يعرف في مصر القديمة وانه دخل البلاد لأول مرة مع الغزوة الأشورية ثم مع الفرس ، جوتييه ، ص ٢٠٥ .

(١٩٨) M.S. Gsell, La Tripoltaine et le Sahara au 3ème S. de notre ère, p. 145 ، وأنظر Gautier, Le Passé de l'Afrique, p. 103-104.

(١٩٩) جوتييه ، ص ٢٠٠ .

الأقليات غير الوطنية :

الأفارقة :

عندما وصل العرب الى المغرب وجدوا جماعات أخرى من غير أهل البلاد • وأول هذه الجماعات هي التي أطلقوا عليها اسم الأفارق أو الأفارقة(٢٠٠) • ومع أن التسمية نسبة الى افريقية الا أنه يفهم أن الأفارقة يختلفون عن البربر وعن الروم • وعلى ذلك يمكن أن يكون الأفارقة هم أهل البلاد الذين اختلطوا بالروم (فأصبحوا من المولدين) ودخلوا في خدمتهم واصطبغوا بالحضارة الرومانية كما دخلوا في المسيحية(٢٠١) • ورغم أن كثيرين من هؤلاء الأفارقة دخلوا في الاسلام من أجل المحافظة على أراضيهم،فان الكثيرين منهم ظلوا يتكلمون لغة خاصة بهم ربما كانت مزيجا من اللاتينية والبربرية أو لهجة محلية اذ يذكر البكرى أن رطانة أهل سرت لا يعرفها غيرهم(٢٠٢) • ولكنه رغم دخول الأفارقة في الاسلام فالظاهر أنهم ظلوا يحتفظون بميول انفصالية • فالى جانب احتفاظهم بلغاتهم الخاصة ، شارك بعضهم في الحركات المناهضة للخلافة ابتداء من القرن الثاني الهجرى • والمثل لذلك عبد الأعلى بن جريج الافريقي الذى يوصف بأنه رومى الأصل ومن موالى العرب ، والذى كان يرى رأى الصفرية فولاه ميسرة على طنجة »(٢٠٣) •

اليهود :

وقد وجد العرب كذلك جماعات من اليهود ، ولو أنه لا يعرف متى دخلت اليهودية الى المغرب • ويرى بعض الكتاب أن الافكار اليهودية بدأت تعرف طريقها الى البلاد عن طريق الفينيقيين(٢٠٤) ، وذلك قبل أن تهاجر جماعات

---

(٢٠٠) عن الأفارقة انظر ابن عبد الحكم ، ص ١٨٥ ، انظر البكرى ، ص ٥، ٦ حول برقة) ص ٥٦ (حول المستير على سواحل القيروان) ، الادريسى ص ١١٠ (حيث يقول عن سبيطلة أنها كانت مدينة جرجيس ملك الروم الأفارقة) ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢ •

(٢٠١) G. Marçais, La Berbérie, p. 71.

(٢٠٢) انظر البكرى ، ص ٦ الذى يقول « ولهم كلام يتراطنون به ليس بعربى ولا بربرى ولا قبطى ولا يعرفه غيرهم » ، الاستبصار ، ص ٢١١ •

(٢٠٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١٩ ، وانظر فيما بعد عن ثورة ميسرة المطغرى •

(٢٠٤) Nahum Slouschz, Hebraeo-Phéniciens et Judéo-Berbères (Archives Marocaines, vol. 14), Paris, 1908, p. 1 et suiv.

من اليهود الى المغرب على أيام الرومان(٢٠٥) . والظاهر أن هذه الهجـرة اليهودية هي التي جعلت الكتـاب العرب يقولون ان أصـل البربر من فلسطين(٢٠٦) . والى جانب هؤلاء المهاجرين ربما انتشرت اليهودية بين بعض القبائل البربرية ، والمثل لذلك هو ما يذكره ابن خلدون من أن الكاهنـة زعيمة قبائل أوراس كانت يهودية ، و و أنه يشك في هذا الأمر الذي لم يشر اليه كتاب الفتوح الأوائل(٢٠٧) .

واستنادا الى رواية ابن خلدون التي يشك في صحتها ، والى ما يذكره البكري والادريسي وكتاب الاستبصار وابن أبي زرع في روض القرطاس من وجود جماعات من اليهود في بعض أقاليم المغرب ، والى وجود عدد من المواضع التي تحمـل اسم اليهـودية في برقة وفي المغرب الأقصى ، بل وفي بلاد السودان الغربي(٢٠٨) ، بالغ البعض في دراسة أثر اليهودية في المغرب منذ ما قبل الاسلام(٢٠٩) ، وظن البعض أن سلالة اليهود الوطنيين القدماء تتمثل حاليا في الجماعات اليهودية التي تعمل في الزراعة في قرى جبال أطلس العليا في صفرو ودبدو ودمنات(٢١٠) .

ولكنه رغم هذه المبالغات — التي يمكن تفسيرها في مواضعها — فالحقيقة ان الكتاب الأوائل لا يمدوننا بمعلومات عن جمـاعات اليهود التي كانت بالمغرب عقب الفتح . وربما كان أقدم نص يشير الى علاقة اليهود بالعرب هو ما يقال من أن يهود المغرب الأقصى كانوا على علاقات بيهود أسبانيا ، والقرينة هي أن المجمع الكنسي الذي انعقد في طليطلة سنة ٦٩٤ م وقرر اتخاذ اجراءات عنيفة ضد يهود أسبانيا ، كانت ذريعته لذلك أنهم اتصلوا باخوانهم يهود المغرب ليحرضوا العرب على غزو الأندلس(٢١١) .

---

(٢٠٥) Célérier, Marc, p. 82.

(٢٠٦) انظر فيما سبق الفصل الخاص بالبربر ص ٨١ .

(٢٠٧) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٠٨ ، وانظر مارسيه الذي يشك في صحة هذه الرواية (G. Marçais, La Berbérie et l'Orient, p. 34).

(٢٠٨) أنظر الادريسي ص ٤ (عن اليهودية في مدينة لملم) ، ص ٣٩ (حيث النص على أن أهل أرض قمنورية المتصلة بالصحراء المؤدية الى غانة كانوا من اليهود كما يدعى التجار وأنه « في معتقدهم تشويش وليسوا شيء ») .

(٢٠٩) Nahum Slouschz, Hebraeo-Phéniciens et Judéo-Berbères p.p. 274, 282, 285.

وعن الكاهنة التي كانت تعبد صنما في رأى آخر انظر ، المالكي ، ص ٣٥ .

(٢١٠) انظر . Célérier, Maroc, p. 82.

(٢١١) انظر E. Lévi-Provençal, L'Espagne Musulmane, p. 5.

الســـودان :

بلاد المغرب كما رأينا وثيقة الصلة من الناحية الجغرافية ببلاد السودان الغربية ، مثلها مثل مصر الوثيقة الصلة ببلاد السودان الشرقية ، مما ترتب عليه امتزاج الدماء منذ أقدم العصور .

ونلاحظ أن كتاب اليونان القدماء يطلقون اسم الأحباش (الأثيوبيين) على أهل الأقاليم الجنوبية من المغرب(٢١٢) . وفسر بعض المحدثين أن المقصود بالأثيوبيين هم السودان ، واستنتجوا من ذلك أن الصحراء وواحاتها كانت معمورة بجماعات سوداء . وحددوا سكنى الوطنيين من البربر في الواحات والصحراء بالعصر الروماني ، بعـــد أن احتلت روما البلاد ، ومـع توسـع الاستعمار الروماني الذى استولى على الأرض الخصبة في الشمال ، مما ترتب عليه التجاء البربر الى الأقاليم الجنوبية الفقيرة في الصحراء ، وذلك ابتداء من أواخر القرن الثاني الميلادى(٢١٣) . وليس لنا ما نقوله بهذا الشأن الا ما ذكرناه ابتداء من أن الصلة بين سكان الاقاليم الشمالية والأقاليم الجنوبية ينبغى أن تعود الى ما هو أقدم من التاريخ المسيحى .

أما عن كلمة الأثيوبيين القديمة فمن الجائز أن يكون اليونان قصدوا بها السودان فعلا أو أصحاب البشرة السمراء من أهل البلاد ، اما لامتزاجهم بالسودان واما نتيجة لعامل البيئة . والحقيقة ان واحات الصحراء كانت همزة الوصل بين المغرب والسودان ، فكان من الطبيعى أن تكون بالتالى منطقة المزج بين العنصرين الأبيض والأسود . وهذا ما يشير اليه كتاب العرب الأوائل عندما يصفون المـــدن الصحراوية مثـــل غدامس وزويلة وأوجلة وسجلماسة بأنها أبواب السودان(٢١٤) . ونظن أنه عند الفتح العربى لم تكن

---

(٢١٢) يسمى هيرودوت سكان الاقاليم الواقعة جنوبى ليبيا (بمعنى شمال افريقية) بالاحباش (الأثيوبيين) ويظن أنهم على ساحل المحيط الهندى . انظر :
Herodotus, The Histories (The Penguin Classics), 1955, Book 3, p. 181.
M.S. Gsell, La Tripolitaine et le Sahara p. 160 et suivant.

(٢١٣) انظر Larnaude, Algérie, p. 66.

(٢١٤) اليعقوبى ، ص ٣٤٥ (عن زويلة) ، الأصطخرى ص ٣٤ ، ٣٦ (عن زويلة وسجلماسة) البكرى ، ص ١٨١ ـ ١٨٢ (عن غدامس) الاستبصار ، ص ١٤٦ (غدامس) و ص ٢٠٠ (عن سجلماسة) .

توجد في المغرب جماعات سودانية ذات كيان خاص اذ لا يشير الكتاب العرب الى ذلك ، وهذا يعني أن الدماء السودانية الآتية من الجنوب كانت تذوب أولا بأول في دماء أهل البلاد ، كما هو الحال الآن(٢١٥) . والظاهر ان اضطراب الخوارج في المغرب كان فرصة لكي يشارك بعض السودان في الثورة اذ ينص الكتاب على أن أول امام في سجلماسة كان عيسى بن يزيد الأسود(٢١٦) .

الروم والفرنج :

ورغم أن البلاد كانت خاضعة للرومان ثم للروم لمدة طويلة منذ انهيار قرطاجنة أمام روما الا أن هؤلاء ظلوا يكونون جماعة منفصلة عن البربر . حقيقة انه حدث تزاوج واختلاط بين الجماعتين كما يذكر الكتاب العرب أن الملكة الكاهنة كان لها ابن رومي(٢١٧) ولكن الامتزاج كان الى حد محدود لم يتجاوز التحالف أو الجوار في الخدمة العسكرية في بعض الاحيان . وفيما بين الحكم الروماني والحكم البيزنطي وقعت البلاد تحت حكم الوندال الجرمان الذين دخلوها عن طريق أسبانيا في القرن الخامس الميلادي . ورغم القضاء على الوندال نرى أن بعضهم تمكن من النجاة وأنهم لجأوا الى دواخل البلاد حلفاء أو لاجئين لدى بعض القبائل . ومن الطبيعي أن يكون قد حدث اختلاط بينهم وبين البربر . والاقرب الى الحقيقة أن يكون ذلك هو تفسير وجود الشقرة والزرقة بين بعض جماعات البربر ، بدلا من القول بأن النموذج للرجل البربري هو الرجل الأشقر(٢١٨) ، وذلك في محاولة غريبة للابعاد بين المغاربة وأصولهم الحقيقية في المشرق - على ما نظن . ولقد تفنن البعض في ذلك حتى قال ان البربر أتوا مهاجرين الى افريقية من الغرب : من القارة الأسطورية التي اندثرت وكانت موضع المحيط وهي الاتلانتيد (Atlantide) (٢١٩) .

---

(٢١٥) أنظر جوليان حيث يعرض نتائج الأبحاث التي قام بها علماء الأنتروبولوجيا في المغرب ، والمبنية على دراسة العلاقات بين طول الرأس وعرضها وكذلك الوجه والأنف والخ . والتي بينت وجود الدم الأسود في أكثر من جماعة من الجماعات الأربع التي قسم اليها أهل الجزائر : Julien, Hist. de l'Afrique de Nord, p. 51.

(٢١٦) أنظر ابن عذارى ج ١ ص ١٥٦ ، وانظر فيما بعد في الفصل الخاص بامامة بني واسول في سجلماسة .

(٢١٧) أنظر فيما بعد في الفصل الخاص بالكاهنة .

(٢١٨) أنظر الأبحاث الانتروبولوجية التي اوردها جوليان : Julien, Hist. de l'Afrique du Nord, p. 51 et suiv.

ومع أن المعروف أن الروم انسحبوا أمام العرب الى حزر البحر فان جماعات منهم لجأت الى الدواخل حيث دخلوا فى الاسلام من أجل المحافظة على أموالهم ، ولقد بلغ الأمر الى درجة أن صاحب الاستبصار يقول ان أكثر أهل قسنطينة وبلاد الجريد من بقايا الروم هؤلاء(٢٢٠) ٠

اللغــة :

لغة البربر عبارة عن عدد من اللهجات ربما كانت أشبه بلهجات القبائل العربية قبل أن تاتلف وتسودها اللغة القومية الواحدة ، لغــة القرآن ٠ والبربرية كانت تكتب فى العصور القديمة ، ولقد عثر على بعض نقوشها فى الصحراء ولكن رموزها ما زالت غامضة غير أكيدة(٢٢١) ٠ هذا ولو أن نوعا من الكتابة أو النقش البربرى ما زال موجودا عند الطوارق بالصحراء ، ومن الممكن أن يكون سليل الكتابة القديمة ، وهــو يعرف عنـــدهم باسم تفينغ (tifinagh) وتستخدمه النساء خاصـــة ، ولكن بشيء من الصــعوبة والخلط(٢٢٢) ٠ وبعد أن تعرب المغرب كتبت اللهجـــة البربرية بالحروف العربية فى بعض الأحيان ٠ والمثل لذلك تواليف محمد بن تومرت (فى مطلع القرن السادس الهجرى/١٢ م) كالعقيدة والمرشدة(٢٢٣) ٠

ولقد ذكرنا أن بعض الكتاب العرب قال انها لغة يكثر فيها حرفا الباء والراء ، لكنهم فعلوا ذلك فى محاولتهم لتفسير كلمة البربر التى أطلقت على أهل البلاد(٢٢٤) ٠ ولقد وضع بعض الكتاب المحدثين اللهجات البربرية مــع مجموعات اللغات الحامية مثل اللغة القبطية(٢٢٥) بينما وجد آخرون نوعا من التشابه بين اللغة البربرية واللغة المصرية القديمة وبعض لغات السودان مثل الكوتشيتى (Couchitique) وكذلك مجموعة اللغات السامية ومنها العربية

---

(٢١٩) انظر
Gautier, Le Passé de l'Afrique du Nord, p. 41.

(٢٢٠) الاستبصار ، ص ١٥٥ ٠

(٢٢١) انظر Larnaude, Algérie (Coll. l'Union Française), p. 65.

(٢٢٢) Larnaud, Algérie (Coll. l'Union Française), p. 67.

(٢٢٣) مذكرات البيدق ، نشر بروفنسال ، النص العربى ص ٤٠ ، ٦٧ (عن معرفة ابن تومرت البربرية) ، عبد الواحد المراكشى ، طبعة ١٣٢٤ ، ص ١٢٠ ، وانظر كتاب السير للوسيانى ، حيث يورد المؤلف نصوصا بالبربرية وترجمتها الى العربية (المخطوط ، ص ٠٤

(٢٢٤) انظر فيما سبق عن تسمية البربر ص ٦١ ، ٨٠ وهامش ٨٣ ٠

(٢٢٥) Gautier, Le Passé de l'Afrique du Nord, p. 35.

وظن هؤلاء أن هذا التشابه يرجع الى أسباب سياسية تمثلت فى الغزوات والفتوحات التى عرفها العالم القديم كفتوحات مصر القديمة فى آسيا وفى ليبيا والسودان وعكس ذلك ، وكالتوسع الفينيقى فى كل حوض البحر المتوسط • ولكن أبحاث بعض اللغويين أثبتت أن هذا التشابه هو فى الحقيقة نوع من القرابة بين هذه اللغات بمعنى أنها ترجع جميعا الى لغة أم قديمة(٢٢٦) • واذا صح ذلك تكون تلك القرابة من العوامل التى ساعدت على انتشار اللغة العربية فى المغرب (كما فى مصر) • هذا ولو أن بعض الكتاب يفسر سهولة انتشار اللغة العربية فى المغرب بسبب انتشار اللغة البونية (لغة الفينيقيين) قبلها ، كما حلت اللغة الآرامية فى الشام محل الفينيقية لأنهما من فروع السامية ، فى الوقت الذى لم يقبل فيه بعض المتخصصين فى اللغة البربرية مثل وليام مارسيه (W. Marçais) وجود علاقة ما بين اللغة العربية والبونية(٢٢٧) •

والحقيقة انه لا يهمنا هنا ان كان التشابه بين لغات المغرب العربى والمشرق العربى القديمة هو وليد صلة الدم أم وليد الاحتكاك السياسى والحضارى ، انما الذى يهمنا هو أنه تشابه على كل حال ترتب عليه نوع من التوافق أو القربى بين أهل البلاد جميعا منذ العصور القديمة • ولا شك فى أن ذلك كان من عوامل سرعة انتشار اللغة العربية واستقرارها فى المغرب ؛ وكذلك العادات والتقاليد العربية ، مما ترتب عليه أن عاش الناس فى حاضرهم العربى ولم يبق بينهم من تركة العصور القديمة الا بعض الذكريات•

حقيقة ان بعض اللهجات البربرية ما زالت حية فى المغرب وخاصة فى الأقاليم الجبلية غير المطروقة والتى تكون مناطق انعزال ، ولكن هذه اللهجات البربرية تستخدم فى هذه المناطق فى حدود ضيقة فى نطاق الأسرة وداخل المسكن وخاصة بين الحريم • أما فى النطاق العام خارج المنزل والأسرة فاللغة العربية هى المستعملة بين الناس جميعا ، والأمثلة لذلك فى جبل نفوسة من اقليم طرابلس وجزيرة جربة وبعض واحات الجنوب فى تونس • وأكبر منطقة تستخدم فيها اللغة البربرية توجد فى شرق بلاد الجزائر ، فهناك لهجتان بربريتان هما : الشاوية والقبائل(٢٢٨) •

---

(٢٢٦) Jean Vertcoutter, L'Egypte Ancienne, coll Que sais-je. p. 29.

(٢٢٧) Gautier, Le Passé de l'Afrique du Nord, p. 130, note 3.

(٢٢٨) Larnaude, Algérie, p. 65.

ولقد عمل الفرنسيون على احياء اللغة البربرية في اقليم القبـــائل ، والظاهر أنهم فعلوا ذلك بغرض تقسيم البلاد الى بربر وعرب عملا بمبدأ روما القديم « فرق تسد » ، وحتى تتمكن اللغة الفرنسية من الانتشار على حساب العربية ـ عصب القومية . أما في غرب الجزائر فلا توجد الا جزر صغيرة ممن يتكلمون العربية والبربرية وخاصة في الاقليم الساحلي من شرشل وتنس ، وكذلك في بعض واحات الصحراء كما في : سوارة وتوات وفي جنوب غرب وادي زيغ وفي وارجلة من بلاد ميزاب (امزاب) الجنوبية (Mzab) وأخيرا في هضبة الصحراء الوسطى المعروفة بالهجار (اهكار) وهي : بلاد الطوارق(٢٢٩) .

وما زالت بعض اللهجات البربرية موجودة في المغرب الأقصى وخاصة في أطلس العليا الغربية (جبال درن) ووادي سوس (السوس الأقصى) حيث يطلق حاليا على السكان اسم الشلوح (Chleuh) كما يطلق اسم تاشلحيت (Tachelhait) على لهجتهم . ويرى البعض أن الشلوح هم سلالة بربر مصمودة(٢٣٠) ، بينما يظن آخرون أنهم يمثلون خليطا من عناصر متنوعة بعضها من زناتة ، وذلك أن جماعة منهم تحمل اسم الزناتية(٢٣١) . هذا كما تتكلم اللهجة البربرية في اقليم أطلس الوسطى على تخوم الصحراء حيث توجد الجماعة التي تعرف الآن باسم البرابر أو الامازيغن (Imazirhen) وتعرف لهجتهم باسم تامازيغت (tamazirhit) ويظن أنهم من صنهاجة . وتوجد اللغة البربرية كذلك في بعض مناطق الريف(٢٣٢) .

ولا ينبغي أن يهولن المرء تعدد الاقاليم التي ما زالت تحتفظ باللهجة البربرية وانتشارها ما بين طرابلس والبحر المحيط ، فهي جزر صغيرة في محيط لغة الشعب العربية . ونحن نعتقد أن القرابة القديمة التي تربط البربرية باللغة العربية كانت من العوامل المساعدة على بقائها . فكثير من الكلمات البربرية مشتقة من أصول عربية مثل لهجاتنا العربية الدارجة ،

---

(٢٢٩) Larnaude, Algérie, p. 66-67.

(٢٣٠) Célérier, Maroc, p. 80.

(٢٣١) Célérier, Maroc, p. 81.

(٢٣٢) Célérier, Maroc, p. 79-80. (وأسماء امازيغ هي جمع كلمة مازيغ (جد البربر عند ابن خلدون ، ج ٦ ص ٨٩) ومؤنثها تمازيغت . واسم امازيغن أطلق على بعض القبائل بمعنى الرجال الأحرار (انظر جوليان ، ص ٢) .

والمثل لذلك هو قول رينيه باسيه (René Basset) ان الجمل دخل الى المغرب مع العرب استنادا الى أن اسم الجمل في اللهجات البربرية مشتق من أصل الكلمة العربي(٢٣٣) ٠

الـدين :

ليست لدينا معلومات كافية عن معتقدات البربر الدينية قبيل الفتح العربي ، ولكنه يفهم من القطع المتناثرة التي أوردها الكتاب بهذا الشأن ان غالبية البربر كانوا ملاحدة أو مجوسا ، بمعنى أنه لم تكن لديهم أفكار معينة عن الاله أو عن مصير الانسان ٠ وما كان لديهم من المعتقدات الدينية اذا استثنينا من تهود منهم ومن تنصر لم تخرج عن ذلك النوع البسيط المعروف في المجتمعات البدائية ، والذي يتلخص في عبادة الشمس والقمر والأصنام ، كما يقول ابن خلدون(٢٣٤) ، أو الاعتقاد في السحر والشعوذة ٠

ففيما يتعلق بالمجوسية يذكر صاحب كتاب روض القرطاس أن بعض قبائل منطقة فاس كان لهم بيت نار(٢٣٥) ٠ وفيما يتعلق بالوثنية يذكر البكري أن بعض قبائل ودان كان لهم صنم من حجارة مبنى على ربوة يسمى كرزة ، يقربون له القرابين ويستشفون به من أدوائهم ويتبركون في أموالهم(٢٣٦) ٠ وفي الجبل ما بين أغمات والسوس كانت توجد قبيلة من البربر يعبد أفرادها كبشا ، ولهذا السبب المشين كان لا يدخل أحدهم السوق الا مستترا(٢٣٧) ٠ ونظن أنه لمثل هذه الأمور ظهرت أحاديث منسوبة الى النبي — وهي غير صحيحة من غير شك — في ذم جبل درن (أطلس) منها : « ان بالمغرب جبلا يقال له درن يزف يوم القيامة بأهله الى النار كما تزف العروس الى بعلها »(٢٣٨) ٠ والظاهر أن مثل هذا الحديث كان سببا في ظهور أحاديث

---

(٢٣٣) انظر فيما سبق ص ١٠٥ ٠

(٢٣٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٩٤ ٠

(٢٣٥) ابن أبي زرع ٠ روض القرطاس ، ص ١٦ ٠

(٢٣٦) البكري ، ص ١٢ ٠

(٢٣٧) البكري ، ص ١٦١ ٠

(٢٣٨) البكري ، ص ١٦٠ ٠ وقريب من ذلك ما يقال من ان « المغرب يقسي ويوحش الطبع ويطيش اللب ، ويذهب الرحمة ويكسب الشجاعة ويقشع الضراعة ، وفي أهله غدر ، ولهم خبث ومكر ٠ ديارهم مختلفة ، وهممهم غير مؤتلفة ٠ ولديارهم في آخر الزمان نبأ عظيم وخطب جسيم : من أمر يظهر ٠ وأحوال تبهر (مروج الذهب ٠ ج ٢ ص ٦٢) ٠

أخرى مضادة تؤكد صحة اسلام البربر وتقول انهم أسلموا منذ أيام النبى وذلك عندما ذهبت جماعة من قبيلة رجراجة الى مكة لأداء فريضة الحج ، وذلك قبل الهجرة ، بمعنى أنهم أسلموا قبل بعض الصحابة أنفسهم(٢٣٩) .

ولا بأس من الاشارة هنا الى أن الكتاب يعتبرون أن جبل درن يمتد شرقا حتى يشمل جبل أوراس ثم جبل نفوسة حيث الخوارج الاباضية ، كما سبقت الاشارة . ولما كانت الجبال مناطق انعزال فربما لم يكن من الغريب أن تعيش فيها بعض الجماعات وهي محافظة على شيء من العادات والتقاليد القديمة ، والتى لم يستطع الاسلام أن يقتلعها من جذورها العميقة تماما . وهناك روايات غريبة حقا سجلها الكتاب فى حق خوارج جبل نفوسة مثل الرخص في المذهب والتساهل فى أمور خاصة بالعفة والعلاقات الزوجية(٢٤٠) . ومثل هذا يقال عن قبائل كتامة (فى منطقة قسنطينة من أرض الجزائر) التى تنسب اليها بذل أولادها للأضياف النازلين بهم(٢٤١) . وعن قبائل غمارة في جبال الريف قيل انها كانت تمارس عادة « الموازبة » ، وهي أن يحمل شباب الناحية العروس قبل أن يدخل بها زوجها ، ويحتفظون بها مدة تطول وتقصر على قدر جمالها ، وذلك قبل أن يعيدوها الى زوجها(٢٤٢) .

ونحن لا نعرف مبلغ هذه الروايات من الصحة ، فقد تكون من تشنيعات

---

(٢٣٩) M.E. Michaux-Bellaire, Conférences au Cours Préparatoires de Services des Affaires Indigènes, Archives Marocaines, vol. 27 p. 16.

ولا بأس من الاشارة الى أن المؤلف يرى أن أساس هذه الرواية يرجع الى زيادة رسل قبيلة رجراجة لمتنبى قبائل غمارة المعروف بحاميم (عن حاميم أنظر الاستبصار ، ص ١٩١ والفصل الخاص بذلك من تاريخ الادارسة) .

(٢٤٠) أنظر الاستبصار ، ص ١٤٥ .

(٢٤١) الادريسى ، ص ٩٩ . وقارن ابن حوقل (ص ٩١) الذى ينسب هذه العادة الى قوم من بربر المغرب ما بين سجلماسة الى السوس الى نواحي الزاب ومنطقة قسنطينة وكتامة وسطيف . وهو بعد ذلك (ص ٩٢) يذكر اندثار تلك العادة في بربر سطيف بعد مجاهدة أبو عبد الله الشيعى لهم . وخاصة كتامة منهم .

(٢٤٢) الاستبصار ، ص ١٩٢ . وانظر الادريسى ص ١٧٠ الذى يتحدث عن فناء جمع غمارة بسبب « كثرة ذنوبهم ، وضعف اسلامهم ، وكثرة جرائمهم واصرارهم على الزناء المباح والموازبة الدائمة ، وقتل النفس التى حرم الله بغير الحق » .

أهل السنة أو الشيعة وسخريتهم بالخوارج ، وهذا لا يمنع أن تكون المسألة بقايا رواسب قديمة ، كما قلنا . والحقيقة انه لا ينبغي أن تعطي لهذه الحركات أو تلك التقاليد البالية من الاهمية أكثر مما تستحق ، فهي محلية اقليمية على كل حال ، وهي ان دلت على شيء فانما تدل على ان بعض الجماعات المنعزلة من المغاربة لم تكن قد فهمت الاسلام الصحيح أو أنها فهمته داخل اطـــار عاداتها ومعتقداتها القديمة التي لم تكن قد تخلصت منها بعد ـ رغم شدة الاسلام وحرصه على نقائه .

وفيما يتعلق بممارسة السحر والشعوذة ، فالمثـــل لذلك ما يورده الكتاب عن ملكة جبل أوراس المعروفة بالكاهنة لقدرتها على الحدس والتنبؤ . وقصة الكاهنة تتراوح ما بين الحقيقة والأسطورة ، ومنهـــا قد نفهم بعض أساليب السحر المعروفة وقتئذ ، وكيفية التأثير في الناس عن طريق الاتيان بأعمال تثير الرهبة أو الشفقة . فعندما كانت الكاهنة تندمج في حالة الالهام أو الاستقبال كانت تنشر شعرها وتدق صدرها وهي تتفوه بأنباء ما يكون من الأحداث(٢٤٣) . وفي بعض الروايات انها كانت ترمي بأحجارها(٢٤٤) كما يفعل المنجمون الشعبيون في أيامنا هذه ، مما يدعونا الى الظن بأن هذه الرواية ظهرت في وقت متأخر وقريب من ذلك ما ينص عليه ابن سعيد من أن بربر أزكان ، في جنوبي فزان وودان ، كانوا ـ وهم برابرة مسلمون أحذق خلق الله في خط الرمل(٢٤٥) .

وتمدنا قصة الكاهنة بصور لبعض العادات والتقاليد التي كانت مبجلة عند البربر الى درجة العقيدة الدينية . والمثل لذلك عادة المؤخاة عن طـــريق الرضاع الرمزي ، وذلك بأن يبل الدقيق بالزيت ويجعل على ندى المرأة ثم

---

(٢٤٣) ابن عذارى ، طبعة كولان ، ص ٣٧ وعن الكاهنة انظر فيما بعد الفصل الخاص بحسان بن النعمان .

(٢٤٤) نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، نشر ودراسة بروفنسال ، مجلة المعهد المصري بمدريد ، سنة ١٩٥٤ ص ٢٢٢ .

(٢٤٥) انظر كتاب الجغرافيا ، ص ١٢٧ . وقارن الادريسي (ص ٣٦ ، الذي ربما نقل عنه ابن سعيد ، حيث اسم القبيل آزقار ، وحيث الاشارة الى ان خط الرمل هذا ينسب الى النبي دانيال ، وان أهل المغرب يروون عن حذق هؤلاء البربر في خط الرمل ومعرفة مواضع المسروقات والخبايا قصصا عجيبة ، وذلك على كثرة جهلهم وغلظ طبعهم .

يأتي الرجـــل فيأكل من ثديهـــا مع أبنائها فيصبح بذلك إبنـا لهـا وأخا لأبنائها(٢٤٦) ٠

ويستبين من هذه القصة أن المرأة كان لها مركز ممتاز في المجتمـــع البربري يسمح لها بالوصول الى مركز القيادة ، كما في هذه الحالة ٠ وترتب على ذلك أن أصبح النظام « الأموي » في الأسرة (Matriarcat) وهو النظام الذي يسمح بأن تكون المرأة هي سيدة الأسرة على عكس النظام « الأبوي » (Patriarcat) — أمرا مألوفا في هـــذا المجتمع ٠ وعن هـــذا السبيل يرجع النسابة أسماء عدد من القبائل البربرية الى أسماء جداتها — الحقيقية أو الأسطورية ٠ فقبيلة صنهاجة ولمطة في قول ابن حزم من أبناء امرأة اسمها تيزكي ، أما اسم أبيها فغير معروف(٢٤٧) ٠ ونجد في تاريخ المغرب العربي أسرا لامعة اشتهرت بأسماء جداتها مثل بني غانية المرابطين أصحاب جـــزيرة ميورقة(٢٤٨) ٠ وما زال النظام « الأموي » هذا مألوفا عند بعض طـــوائف الطوارق في الصحراء الى الآن(٢٤٩) ٠ ولقد ترتب على مركز المرأة المتـــاز هذا عند البربر أنها كانت سافرة لا تعرف الحجـــاب في الوقت الذي كان يتلثم فيه الرجال في بعض القبائل كما عند قبائل صنهاجة الصحراوية أصحاب اللثام ، وكما هو الحال عند الطوارق(٢٥٠) ٠

اليهودية والنصرانية :

الى جانب المعتقدات الوطنية الساذجة عرف المغرب — كما رأينـــا — الديانتين السماويتين السابقتين على الاسلام ٠ فالأفكار اليهودية دخلت منذ وقت مبكر مع الفينيقيين ثم مع المهاجرين اليهود أيام الاضطهاد الروماني ، والظاهر أنها انتشرت في بعض القبائل الى جانب المعتقدات المحلية ، كمـــا

---

(٢٤٦) ابن عذارى ص ٣٧ وانظر الرقيق القيرواني ، تاريخ افريقية والمغرب ص ٤٨ — ٤٩ ٠

(٢٤٧) ابن خلدون العبر ٦ ص ٩٠ ، الترجمة ج ١ ص ٦٩ (اسم المرأة في النص العربي هو يصكي ولكننا فضلنا تحقيق صاحب الترجمة) ٠

(٢٤٨) عن بني غانية المرابطين أنظر عبد الواحد المراكشي ص ١٩٧ ،
Bell, Le Banou Ghania.

(٢٤٩) Larnaude, Algérie, p. 67.

(٢٥٠) البكري ص ١٧٠ (وهم يلتزمون النقاب لا يميز الرجل منهم وليه ولا حميمه الا اذا تنقب) ، الاستبصار ص ٢٢٣ (حيث يقول النص عن أهل تادمكة انهم) يتنقبون كما يتنقب بربر الصحراء (. وانظر حسن احمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٩ وتابع ٠

أشرنا(٢٥١) • ولقد انتشرت المسيحية هي الأخرى في وقت مبكر ، وقصة انتشارها وثيقة الصلة بالحكم الروماني في المغرب وذلك لأن المسيحية عندما خرجت من الشام فعلت ذلك بهدف غزو وهدم الامبراطورية الرومانية(٢٥٢) • وهكذا بدأ الصراع الذي انتهى بانتصار المسيحية على الامبراطورية بعد جهاد وتضحيات في روما ، حيث صلب بطرس وبولص منكسين ، وفي مصر بلد الشهداء ، وكذلك في المغرب •

الكنيسة الافريقية : تنظيمها وتطورها :

دخلت المسيحية الى المغرب عن طريق مصر وربما عن طريق روما كذلك ، وبدأ تنظيم الكنيسة الافريقية في منتصف القرن الثالث على يدي القديس سيبريان (St. Cyprien). وانتشرت بفضل مبادئها الداعية الى المحبة والسلام ، بين كثير من أهل البلاد الذين كانوا يتلمسون المبادىء التي تحقق لهم ما يصبون اليه من سيادة العدل والانصاف وقامت الدولة التي استشعرت ما يتهددها من الخطر باتخاذ الاجراءات التي رأتها كفيلة بالمحافظة على وحدتها السياسية ، وخاصة على أيام الامبراطور دسيوس (Decius) الذي طلب في سنة ٢٥٠ م من جميع رعاياه أن يعلنوا عن وطنيتهم باعلانهم التمسك بالديانة الوطنية الممثلة في عبادة الأباطرة الى جانب آلهة روما ، والتنصل من كل العبادات الأخرى وخاصة المسيحية والمانوية • وترك كثير من النصارى ديانتهم حتى قال القديس سيبريان كلمته المشهورة « لقد كان عددهم أكثر من قوة ايمانهم »(٢٥٣) • واضطهدت الدولة النصـــارى وعطلت كنائسهم وصادرت أملاكهم وانتهى الأمر باستشهاد القديس سيبريان(٢٥٤) • وعلى

---

(٢٥١) أنظر الصفحات السابقة ١٠٦ ــ ١٠٧ ، ١١٣ • وأنظر جوزيف نسيم • مجتمع الاسكندرية في العصر المسيحي كتاب مجتمع الاسكندرية عبر العصور ، ط • جامعة الاسكندرية ١٩٧٥ ص ٧٩ (حيث الاشارة الى أن القديس مرقس الذي تنسب اليه كنيسة الاسكندرية ومصر كان من أبوين يهوديين اقاما في مدينة القيروان (عاصمة افريقية) وأنهما رحلا الى بيت المقدس عندما تعرضا لمتاعب من قبل البربر) ، مصطفى كمال عبد العليم ، يهود الاسكندرية في عصر البطالمة والرومان . نفس الكتاب ، ص ١٧٤ ــ ١٧٥ (حيث الاشارة الى ثورة اليهود في برقة سنة ١١٥ م وزحفهم على مصر سنة ١١٦ م) •

(٢٥٢) أنظر نورمان بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، الترجمة العربية (مؤنس ومحمود يوسف ، ص ٩٧ • Risler, La civilisation arabe, Paris 1955, p. 23.

(٢٥٣) Julien, Hist. de l'Afrique du Nord, p. 228.

(٢٥٤) المصدر السابق ، ص ٢٣١ ــ ٢٣٢ ، ولا بأس من الاشارة الى أنه عندما اهتمت الكنيسة الأوروبية برفات القديسين أو آثارهم وهو ما يعرف عند الكتاب باسم تقديس الرفات =

عهد دقلديانوس (٢٧٠ — ٢٧٥ م) اشتدت الدولة ضـــد المسيحيين الذين تشبثوا بدينهم ، وقاموا بما يشبه العصيان المدني فرفضوا الخدمة العسكرية. وفي أوائل القرن الرابع توقفت العلاقات بين الدولة والكنيسة حتى أن الكنيسة أعلنت حرمان من يلقى السلاح من رحمتها(٢٥٥) .

الانقسام الدوناتي :

ورغم أن الكنيسة نجحت في تنظيم نفسها بفضل هذا التحالف وانشأت الكثير من الكنائس ، فان المسيحية بقيت على سواحل المغرب مع الرومان ، ولم تصل الى القبائل الوطنية في المغرب الأقصى(٢٥٦) . والى جانب ذلك عرفت المسيحية الانحرافات المذهبية المتأثرة بالأفكار الآتية من المشرق البعيد عن طريق مصر مثل مذهب الفيض الالهي (theosophisme) ومذهب المانوية الثنوية(٢٥٧) . ثم ان الكنيسة المغربية عرفت انقساما خاصا بها ، وهو المذهب الدوناتي — نسبة الى صاحبه دونات (Donat) الكبير ، أسقف الوطنيين ، الذي رفض الاعتراف بشرعيـــة انتخاب سسيليان أســـقفا لقرطاجنة(٢٥٨) . وكان موقف دونات وظهور مذهبه كرد فعـل لاستكانة رؤساء الكنيسة ، أيام اضطهاد دقلديانوس ، للسلطات الامبراطورية . ولهذا السبب اعتبر بعض الكتاب المذهب الدوناتي انقساما في الكنيسة ، ولم يعتبره هرطقة أو زندقة ، لأنه مبني على اصطدام بين الأشخاص وليس بين المبادئ(٢٥٩) . أعلن دونات طلب الاستشهاد واستجاب له كل الساخطين على الدولة وخاصة من طبقات الكادحين .

وعندما اصبحت المسيحية الديانة الرسمية أيام قسطنطين ، وقف هذا الأخير ضد الدوناتية واعتبرهم خارجين على القانون . وترتب على تحالف

= او الآثار (clute des reliques) ســارت سفارة من لــدن شرلمان الى افريقيــة على أيام الاغالبة للبحث عن رفات القديس سيبريان . أنظر بروكلمان . تاريخ الشعوب والدول الاسلامية (بالفرنسية) ص ١٠٥ .

(٢٥٥) Julien, Hist. de l'Afrique du Nord, p. 235.

(٢٥٦) Julien, Hist. de l'Afrique du Nord, p. 236.

(٢٥٧) نفس المصدر . ص ٢٤١ .

(٢٥٨) انظر Julien, Hist. de l'Afrique du Nord, p. 243; Gautier, Le Passé de l'Afrique, p. 236. ، حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٢٩

(٢٥٩) Gautier, Le Passé de l'Afrique, p. 286.

الادارة والكنيسه ضد المذهب الـــدوناتي أن أصبح المذهب رمز المقـــاومة الشعبية ، وازداد انتشاره بزيادة انتشار البؤس والفقر بين الوطنيين الذين ثاروا ضد المستعمرين والأغنياء ، ودعوا الى المساواة وتحرير العبيد(٢٦٠) . وأرادت الدولة أن تقضي على الدوناتية ببريق الذهب عن طريق تعداد الفقراء وتوزيع الأموال عليهم . وعندما فشل هذا الاجراء قررت القضــــاء عليهم باستخدام القوة وبالاستعانة بالكنيسة . وأتت النتيجة عكسية اذ تحالف الكادحون والفقراء مــــع الدوناتية ، واستمر الصراع الى وفاة دونات سنة ٣٥٥ م(٢٦١) ، واتخذ شكل الثورة الوطنية في طرابلس وبـــلاد الجـــزائر (نوميديا Numidie) الى سنة ٣٧٥ م(٢٦٢) .

القديس اغسطين وانتصار الكاثوليكية :

كانت الدوناتية قد عرفت فترة من الهدوء بفضل مرســوم الامبراطور يوليان (اليانس كما يسميه المسعودي) الخاص بحرية العبادة . ولكن عندما أعلنت افريقيـــة انفصالها عن روما بعد انقســـام الامبراطورية الى غربية وشرقية ، تمكنت روما من قمع الثورة وعملت على القضاء على الدوناتيـــة فأرغمتهم على العودة الى الكاثوليكية(٢٦٣) . ولقد وجدت الدوناتية في القديس أغسطين ألد أعدائها ، فهو الذي شهر بها وهاجم أساليبها العنيفة ، وعن طريقه عرفت أخبارها(٢٦٤) . وبفضل أغسطين استخدمت الدولة أساليب العنف والقهر ضد الدوناتية ، مستندة الى نظريته التي أباحت استعمال الارهاب من جانب السلطات العامة في سبيل عودة الخارجين على الكنيسة الى حظيرة الكاثوليكية ومنع ضعاف النفوس من الخروج عليها(٢٦٥) . واستمر أغسطين في محاربة المنشقين على الكنيسة والهراطقة مثل أتباع بلاجيوس (Pelagius) الذي قال بعدم جدوى العفـــو الكنسي(٢٦٦) . وبفضـــل أغسطين انتصرت الكنيسة الافريقية على أعدائها ، وأصبح القـديس أغسطين

---

(٢٦٠) أنظر Julien, Hist. de l'Afrique du Nord, pp. 246-247; Gautier, Le Passé de l'Afrique, p. 286.

(٢٦١) Julien, Hist. de l'Afrique, p. 347.

(٢٦٢) نفس المصدر ، ص ٢٤٨ .

(٢٦٣) نفس المصدر ، ص ٢٥٢ .

(٢٦٤) Gautier, Le Passé de l'Afrique, p. 260.

(٢٦٥) Julien, Hist. de l'Afrique du Nord, p. 256.

(٢٦٦) نفس المصدر ، ص ٢٥٦ .

— الذي مات أثناء حصار الوندال لمدينة بونة(٢٦٧) — من أشهر رجال الكنيسة عرف البكري ذلك فقال عند كلامه عن مدينة بونة : « وهي مدينة أقشتين (القاف تنطق كما تنطق الجيم المصرية) العالم بدين النصرانية »(٢٦٨) . ولم يكن ظفر الكاثونيكية يعني انقضاء تماما على الدوناتيــة التي ظلت بعض جماعاتها الى القرن الســادس الميلادي ، كما أن الأزمة الدينية أدت الى قيام الرهبنة التي مارسها أولئك الذين لم يستطيعوا تحمـــل الهزات العنيفة فاعتزلوا المجتمع(٢٦٩) .

الأريوسية :

عندما وقعت بلاد المغرب تحت حكم قبائل الوندال البرابرة الذين أتوا من أسبانيا تحت ضغط القوط ، واستولى ملكهم جنزريك (Genséric) على قرطاجنة عاصمة افريقيــة سنة ٤٣٥ م ، كان ذلك بداية صراع ديني جديد . فالى جانب تخريب البلاد فرض الوندال على الناس مذهبهم الأريوسي (الذي يقول بطبيعة المسيح البشرية) واضطهدوا الكاثوليك وصادروا أملاك الكنيسة وأموالها وحوّلوها الى الأريوسيين(٢٧٠) . وكان من نتــائج غزوة الوندال أن انقلبت الأوضاع الاقتصادية ، وعمت الاضطرابات السياسية في المغرب الأوســط بشقيه الشرقي (نوميــديا) والغربي (مورطانيــا (Marétainie)) حيث قامت امارات وطنية مستقلة ، وكذلك في ولاية طرابلس حيث هزمت قبائلها ، بقيادة الزعيم الوطني جبون (Gabaon) الوندال في معركة كان للجمال فيها دور هام(٢٧١) . ووسط هذه الثورات الوطنية ضاع الحكم الوندالي في المغرب لكي يعود الحكم الروماني ممثلا هذه المرة في سيادة القسطنطينية أو بوزنطيا كما يسميها المسعودي .

---

(٢٦٧) Gautier, Le Passé de l'Afrique, p. 260

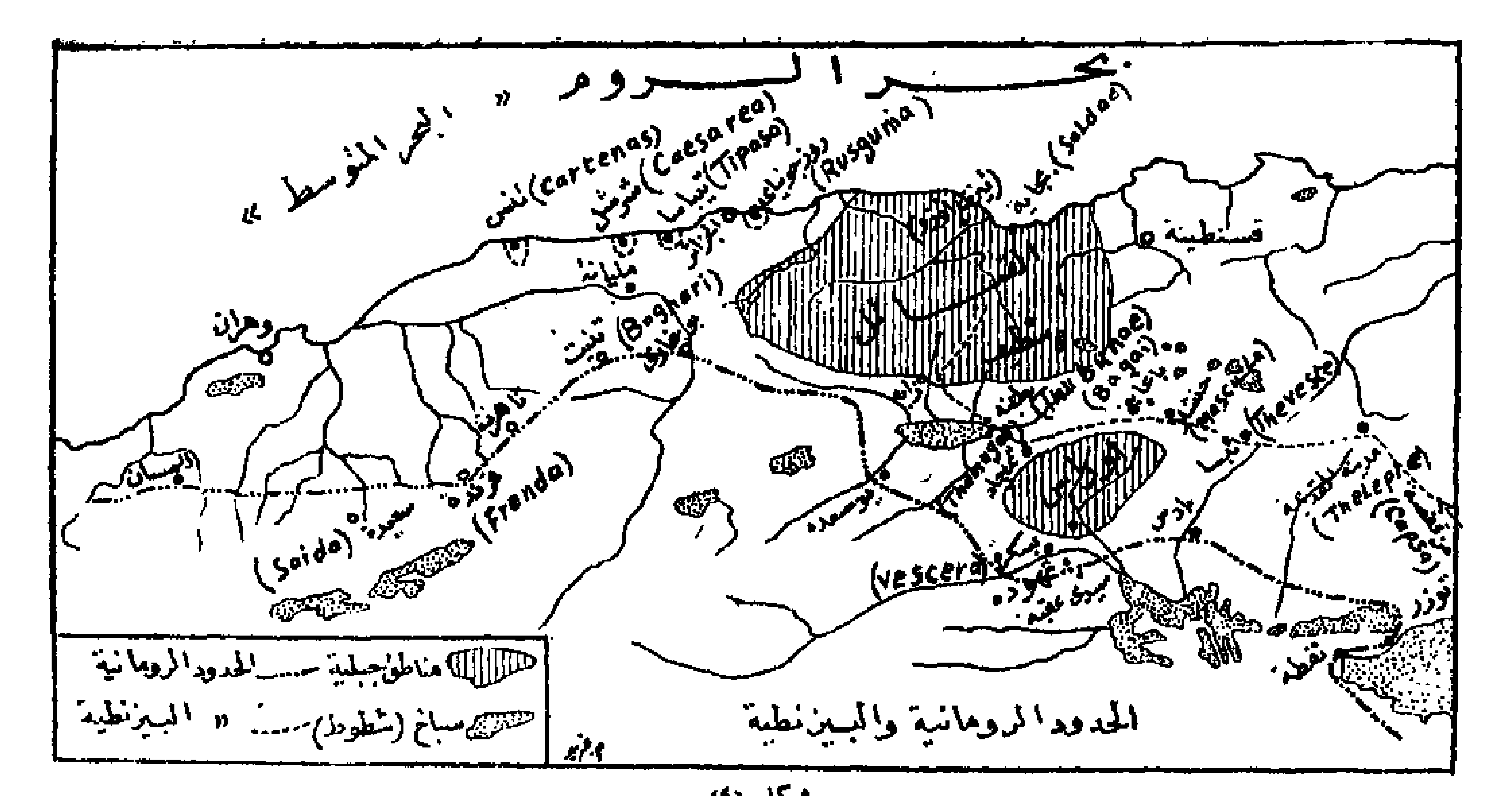
(وبونة قديما كانت تسمى Hippone وهي حديثا تسمى عنابة) .

(٢٦٨) البكري ، ص ٥٤ .

(٢٦٩) Julien, Hist. de l'Afrique du Nord, p. 259.

(٢٧٠) نفس المصدر . ص ٢٧١ . والاريوسية نسبة الى آريوس أسقف القسطنطينية الذي انعقد أول مجمع كنسي في نيقية سنة ٣٢٥ م لمحاكمته واعتباره هرطيقا او زنديقا (أنظر المسعودي ، الفصل الخاص بملوك الروم المتنصرة ، ج ١ ص ٣١٨) .

(٢٧١) Julien, Hist. de l'Afr. p. 286 (في الوقت الذي دار فيه القتال وضع الوطنيون جمالهم في شبه دائرة وجعلوا في وسطها النساء والأموال) .



شكل (٤)

انظر جوتييه (ص ٢١١) وجوليان (الملحق) وأحمد توفيق المدني (خريطة القطر الجزائري ــ طبعة كاربونيل بالجزائر)

القرن الأخير للحكم الروماني في المغرب :

بعد دخول قائد جستنيان (يوسطنياس كما يسميه المسعودي) وهو بليزاريوس قرطاجنة سنة ٥٣٣ م واستسلام آخر ملوك الوندال جليمر (Gélimer) أخذت الدولة في تنظيم الادارة المدنية ، وحسم الخلافات الدينية ، كما نظمت البلاد عسكريا الى أربع قيادات تعادل : طرابلس ، وتونس ، والجزائر ، ومراكش(٢٧٢) • وأعاد جستنيان بناء التحصينات التي خربها الوندال الذين صاروا عبيدا ، وتكونت من خطين من القلاع والمدن الحصينة • وبقايا هذه التحصينات تدل على أن الخط الأول كان يبدأ عند مدينة بجاية (على الساحل الجزائري) وينتهي عند قفصه (في الجنوب التونسي) ويمر بمدينة سطيف وطبنة ثم يدور حول جبل أوراس مارا بتمجاد تي طريقه الى تبسا • وفي منطقة وهران أقيمت سلسلة من الحصون منها شرشل (قيصرية Caesarea) وتنس ، ولقد جعل جستنيان مدينة سبتة مركز ملاحظة هام • أما الخط الثاني في افريقية فكان يبدأ عند قرطاجنة وينتهي عند مدينة قسطنطينة(٢٧٣) • والحقيقة أن هذه التحصينات تدل على مدى انكماش الحدود الرومانية ، ورغم أن بقاياها العظيمة تدل على نشاط الروم وسرعتهم في العمل ، الا أنها تفصح في نفس الوقت عن المتاعب التي واجهتهم من قبل أهل البلاد الذين لم يلبثوا بعد مغادرة بليزاريوس أن قاوموهم في طرابلس وفي المغرب الأوسط ، وكان لجبل أوراس العريق دوره في تلك المقاومة • وكاد الوطنيون يلقون بالبيزنطيين في البحر لولا استجابة بعضهم لاغراء الذهب(٢٧٤) • وكان انقسام البربر سببا في تمكين القوات الرومية من هزيمتهم في الجنوب التونسي ، والفتك بأعداد عظيمة منهم • ورغم ذلك لم تثبط هممهم حتى تطلب الأمر الاستنجاد ببليزاريوس من جديد • ومع ذلك لم تستقر الأمور وقامت قبائل لواتة في طرابلس وتمكنت من قتل

---

(٢٧٢) نفس المصدر ص ٢٩٤ — ٢٩٥ •

(٢٧٣) Julien, Hist. de l'Afr. p. 296. ، وعن امتداد التحصينات في نفس الصحراء الطرابلسية على أيام الرومان أنظر ، M.S. Gsell, La Tripolitaine et le Sahara au 3e S. de notre ère, Paris, 1926, pp. 8-9.

وانظر هنا شكل ٤ ص ١٢١ وكذلك عن تحصينات ليبيا وتونس انظر R. Cagnat, La Frontière Militaire de la Tripolitaine à l'époque Romaine. 1912, p. 8 et suiv.

(٢٧٤) Julien, Hist. de l'Afr. p. 299.

سولومون حاكم افريقيه وخليفة بليزاريوس(٢٧٥) ، وعلى ذلك فعندما مات جستنيان كان الحكم الروماني مزعزعا تماما في البلاد ٠

اما عن السياسة الدينية فان الكاثوليك استعادوا كنائسهم وثأروا من الاريوسيين أشد الثأر واضطهدوا الدوناتية وكذلك اليهود(٢٧٦) ، ولكن ذلك لم يمنع انتشار مذاهب جديدة مثل النسطورية القائلة بثنائية طبيعة المسيح : الالهية (اللاهوت القديم) والانسانية (الناسوت المحدث) ، وان مريم هي أم الرجل وليست أم الاله(٢٧٧) ٠ ولم تنته مشاكل المسيحية عند هذا الحد اذ انقسم اليماقبة (Monophysites) أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة وهو المذهب الرسمي للقسطنطينية على أنفسهم(٢٧٨) ٠ وتدخلت تيودورا زوجة جستنيان في سبيل المحافظة على وحدة الكنيسة ، وقامت باجراءات كان من نتيجتها ثورة أهل افريقية الذين احتجوا على الامبراطور (في القسطنطينية) والبابا (في روما) ٠ واستخدم جستنيان ضدهم العنف والارهاب مما عمل على اتساع الهوة بين الامبراطورية وافريقية(٢٧٩) ٠

وهكذا كانت عودة افريقية الى حظيرة الامبراطورية غير أكيدة : فالتحصينات السريعة التي أقامتها كانت في حاجة الى من يدافع عنها بعزم وغيرة ، والادارة المدنية كانت فاسدة ، كما أن الاضطهاد الديني والاستغلال المالي وفوضى الجيش زادت الأحوال سوءا ٠ حدث كل هذا في الوقت الذي

---

(٢٧٥) نفس المصدر السابق ، ص ٣٠٣ ،
Gautier, Le Passé de l'Afr. p. 265

(٢٧٦) نورمان بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، الترجمة العربية ، ص ١٠٧ ٠

(٢٧٧) انظر Julien, Hist. de l'Afrique, p. 309 والنسطورية نسبة الى نسطورس بطرك القسطنطينية الذي انعقد لمحاكمته المجمع الكنسي الثالث في مدينة افسيس سنة ٤٣١ م وكان الذي شن الهجوم عليه أسقف الاسكندريه (انظر المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ٣٢٤ ، نورمان بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، الترجمة العربية ص ١٠١) ٠

(٢٧٨) مذهب اليماقبة نسبة الى يعقوب البراذعي الانطاكي الذي كان يعمل البراذع (المسعودي مروج الذهب ، ج ١ ص ٣٢٥) ٠
وفكرة الطبيعة الواحدة تقررت في مجمع افسيس ضد نسطورس ، ولكنه في مجمع خلقدونيه سنة ٤٥١ م تقررت صيغة جديدة للطبيعة وهي أنه رغم الجسوس يجب تمييز الطبيعتين الالهية والانسانية في المسيح ٠ وهذا ما تأخذ به كنيسة مصر التي غلبت الطبيعة الالهية الواحدة ٠ ويعقوب البراذعي هو الذي أسس هذا المذهب الذي عرف باسمه في أيام جستنيان (انظر نورمان بينز ، الترجمة العربية ، ص ١٠٥) ٠

(٢٧٩) Julien, Hist. de l'Afr. du N. p. 306.

تهددت القسطنطينية نفسها أخطار الفرس والبرابرة من الهون والآفار(٢٨٠) . وحاول بعض خلفاء جستنيان القيام باصلاحات تعيد الهدوء الى المغرب والمثل لذلك اصلاحات الامبراطور موريس (موريقس كما يسميه المسعودى ــ ٥٨٢ ــ ٦٠٢) الذى ضم طرابلس الى مصر ، وقصر خط حصون جستنيان وأخضع الموظفين المدنيين الى القواد العسكريين ، ولكن جهوده باءت بالفشل ، اذ زادت من مساوىء الأغنياء وعدم انتظام رجال الادارة(٢٨١) .

ولم تكن الكنيسة بأحسن حظا من الامبراطورية فى سياستها الدينية التى انتهت بنشر المفاسد من اشاعة الرشوة (Simonie) وعدم النظام والتحاسد بين رجالها . وكان من نتائج هذا التساهل أن ازدهر من جديد المذهب الدوناتى الذى لفت الأنظار الى مساوىء الاستعمار البيزنطى(٢٨٢) .

ومع مطلع القرن السابع الميلادى أخذت ولاية افريقية تقوم بدور هام فى سياسة الامبراطورية . فلقد تم تدبير مؤامرة خلع الامبراطور فوكاس (فوقاس كما يسميه المسعودى) فى قرطاجنة . وذلك أن حاكم افريقية هرقل كان من قواد الامبراطور السابق موريقس الذى قتله فوكاس فكان يحقد على هذا الأخير . أرسل حاكم افريقية ابن أخيه نيقيتاس بن جرجريوس الى مصر على رأس جيش خرج من المغرب نحو الاسكندرية التى فتحت له أبوابها ــ نكاية فى القسطنطينية عدوتها المذهبية ــ (سنة ٦٠٨ ــ ٦٠٩) . وفى نفس الوقت كان هرقل قد سير ابنه وسميه هرقل بن هرقل على رأس قوة بحرية الى سالونيكا حيث تربص للاستيلاء على القسطنطينية ، وتم له ذلك فعلا فى سنة ٦١٠ ، وبذلك أصبح ابن حاكم قرطاجنة امبراطورا(٢٨٣) . وتهاوت الكوارث على دولة الروم فاحتل الفرس ارمينيا سنة ٦١٩ وحاصروا الاسكندرية ، ولم ير هرقل الا الاعتماد على افريقية لتقويم الموقف فعهد بحكمها الى ابن عمه نيقيتاس نائبه فى مصر .

وهكذا ظهر وكان الامبراطورية البيزنطية ثبتت أقدامها فى افريقية التى أصبح لها ذلك الدور الرئيسى فى سياسة الدولة . وترتب على ذلك الاستقرار

---

(٢٨٠) نورمان بينز . الامبراطورية البيزنطية (الترجمة العربية) ، ص ٥٩

(٢٨١) Bréhier, Vie et Mort de Byzance p. 35 et suiv.
Julien, Hist. de l'Afr. du Nord, p. 309-310.

(٢٨٢) نفس المرجع . ص ٣١٠ .

(٢٨٣) بتلر ، فتح العرب لمصر ، الترجمة العربية . ص ٣٢ ــ ٣٣ ، حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٣٥ .

السياسي ازدهار الكنيسة الافريقية ، رغم أن هذه الاخيرة كانت تقوي علاقاتها بروما التي كانت تسعى بدورها الى بسط سلطانها على البلاد بفضل نشاط رجالها . وهكذا كان الاتفاق بين الادارة البيزنطية والكنيسة الافريقية في مصلحة كل من الطرفين رغم أن الأولى تستمد سلطانهـا من القسطنطينية والثانية توجه أنظارها نحو روما . وكان الخطر يكمن في هذا التناقض (الذى يتمثل في تنازع العاصمتين الكبيرتين على سيادة العالم المسيحى) مما ترتب عليه أن أصيبت الكنيسة الافريقية بأزمة زعزعتها الى الأعماق . فقد ظهر فيها مذهب سرجيوس بطريق القسطنطينية الذى يقول بالطبيعة الواحـدة الالهية والانسانية معا ، والذى وقف الى جانبه هرقل رغبة منه في اكتساب تأييد اليعاقبة(٢٨٤) . وعارضت الكنيسة الافريقيـة ووجهت الاحتجاجات ضد هذا المذهب الى الامبراطور والبابا ، وانتهى الأمر بأن أعلنت أسقفية قرطاجنة عدم صلاحية الامبراطور(٢٨٥) . وتعقد الموقف عندما وصل الى افريقية جماعات من الرهبان والراهبات الـذين خرجوا من مصر فرارا من الاضطهاد وبعدا عن مواطن الخطر في الوقت الذى كان العرب يفتحون فيه مصر . وأخذ هؤلاء ينشرون مذهبهم اليعقوبى بحرية في كنف الامبراطور الجديد قسطنطين الثالث مما أثار سـخط الكاثوليك وتبـاعدهم أكثر عن الامبراطور(٢٨٦) . وعلى ذلك عندما اعتـلى عرش القسطنطينية قسطنطين الرابع في سنة ٦٤٥ م وكان من أتباع مذهب الطبيعة الواحـدة الانسانية الالهية معا ، وهو المذهب المونوثيلي (Monothélisme) لم يجد المعارضون وعلى رأسهم الراهب مكسيموس (Maximus) صعوبة كبـيرة في الثـورة اعلان حـاكم افريقيـة جريجوريوس بن نيقيتـاس بن جريجـوريوس امبراطورا(٢٨٧) . وجريجوريوس هذا هو الذى عرفه العرب في افريقيـة وسموه بجرجير (Grégoire).

كانت هذه حالة المسيحية في المغرب قبل ظهور الاسـلام : مذاهب منشقة ، أهمها بالنسبة لأهل البلاد المنصبغين بالصبغة الرومانية هو الزندقة الدوناتية التي دعت الى الخروج على الكنيسة الرسمية المتحالفة مع الدولة ، وبالتالى الى قلب الأوضاع الاجتماعية التي كانت تستندها الكنيسة . وستعود

---

(٢٨٤) Julien. Histoire de l'Afrique du Nord, p. 312.

(٢٨٥) نفس المصدر .

(٢٨٦) نفس المصدر .

(٢٨٧) أنظر حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٤٦ وتابع . وعن المونوثيلية في مصر ، أنظر السيد الباز العريني ، مصر البيزنطية ، ص ٢٠٠ .

الى الاشارة الى المذهب الدوناتي عند الكلام عن حركات الخوارج في المغرب • هذا ولا ينبغي أن يغيب عن الذهن أن كل ذلك كان يجرى في المناطق الساحلية حيث انكمش نفوذ الامبراطورية ، رغم ما يقال من أنه عندما وصل العرب الى المغرب كان في البلاد أكثر من ٢٠٠ (مائتي) اسقفية(٢٨٨) • وهكذا لم يكن من الصعب على الاسلام ـ بمبادئه التي تدعو الى المساواة والاشتراكية ـ أن يقضي على المسيحية بسهولة في المغرب ، اذ أنها خرجت مع البيزنطيين عندما جلوا عن المناطق الساحلية التي كانوا يحتلونها •

---

(٢٨٨) أنظر Pierre de Cenival, Le prétendu évêché de la Kalà de Beni Hammad. Hespéris, t. 15, Année 1932, Fasc. I. p. 1.

الباب الثانى

الفتح العربى للمغرب

(٢٣ هـ/٦٤٤ م ـ ٩٥ هـ/٧١٣ م)

الفصل الأول : ما بين الفتح والاستكشاف (٢٢ ـ ٥٠ هـ/ ٦٤٣ ـ ٦٧٠ م)

الفصل الثانى : الاستقرار والفتح الشامل (٥٠ ـ ٩٥ هـ/ ٦٧٠ ـ ٧١٣ م)

خاصية الفتح :

يتصف فتح المغرب ـ دون الفتوحات العربيـــة الأخرى ـ بالصعوبة الشديدة والمقاومة العنيدة من جانب أهل البلاد وهم البربر • وذلك أن المغاربة مثل العرب ـ كما قلنا ـ أهل نجدة وقوة لا يرضون بالضيم ولا يرضخون للذل ، وهذه طبيعة الرجل البدوى الذى يفضل تغيير موطنه على الخضوع لمستبد اذ الرحلة جزء من حياته والهجرة منجاه من عوادى الزمن • وهكذا لم يخضع قلب جزيرة العرب ، قديما ولا حديثا ، لاستبداد الـدول الكبرى التي لم تكن لتستطيع الاستقرار الا على الأطراف ، وكذلك الحال بالنسبة لبلاد المغرب • فحرب فارس لم تتطلب من العرب الا بضعا من الوقائع وانتصارين فاصلين ليتم خضوع المملكة الساسانية جميعا فى أقل من عشرين سـنة • والشام لم تتطلب هي الأخرى الا عددا قليلا من المعارك وموقعتين فاصلتين • أما مصر فيمكن القول انها أخذت دون قتـــال ، فلم يتطلب الأمر أكثر من الوقوف قليلا أمام « حصن باب اليون » وسنة أو بعض سنة أمام أسوار الاسكندرية • أما فتح المغرب فقد تطلب بضع عشرات من السنين قضاها العرب في صراع مرير ، عرفوا خلالها حلاوة الانتصارات وذاقوا مرارة الهزائم حتى ظهر فى بعض الأحيان وكأن تمام الفتح ضرب من المحال • وفي ذلك يقول ابن خلدون ـ عن أيوب بن أبى يزيد صاحب الحمار ـ أن البربر ارتدوا عن الاسلام اثنتى عشرة مرة ، ولم يثبت اسلامهم الا فى أيام موسى بن نصير أو بعدها(١) أى خلال اثنين وسبعين عاما تقريبا •

ولقد استتبع طول أمد الفتح وصعوبته نتيجة ربما كانت منطقية ، وهى صعوبة تاريخ هذه الفترة تأريخا صحيحا يضع الأحداث فى مواضعها الحقيقية حسب ترتيبها الزمنى الصحيح • والحقيقة أن تلك الصعوبة التى يلقاها المؤرخ لا ترجع الى كثرة الأحداث خلال هذه الفترة الطـــويلة بل الى قلة المعلومات التى وصلتنا عنها ثم تداخل هذه المعلومات وتشابكها بدرجة تجعل التمييز بينها من الصعوبة بمكان • ويضاف الى ذلك اختلاط الحقائق التاريخية بالخرافات والأساطير الشعبية بشكل يجعل الوصول الى الحقيقة فى كثير من الأحيان أمرا صعب المنال •

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٠٢ والترجمة ، ج ١ ص ١٩٨ •

الفصل الأول

مابين الفتح والاستكشاف

(٢٣ هـ/٦٤٣ م - ٥٠ هـ/٦٧٠ م)

١ - فتح ليبيا (برقة - فزان - طرابلس) :

أ - فتح برقة :

على عكس ما قلناه من أن فتح المغرب اتصف بالصعوبة الشديدة ، نلاحظ أن فتح الأجزاء الشرقية من هذا المغرب اتصف بالسهولة الشديدة مثلها مثل مصر • والحقيقة ان برقة وطرابلس كانت تابعة لمصر من الناحية الادارية منذ اصلاحات الامبراطور موريقس (Maurice) (٢) • ورغم أن النصوص العربية لا تبين لنا أن حاكم مصر (المقوقس) كان له سلطان ما على برقة وطرابلس ، ورغم ما يقول المختصون في تاريخ افريقية البيزنطية من أن حكام قرطاجنة كانوا يبسطون سلطانهم على طرابلس وبرقة قبل دخول العرب(٣) • فالظاهر أن برقة وطرابلس كانتا في حالة انقطاع عن مصر وعن افريقية اللتين انشغلتا بأمورها الداخلية - وهذا ما ستبينه الأحداث • ومع ذلك فالذى كان معروفا عند العرب هو أن برقة - على الأقل - كانت داخلة في حدود مصر : فمصر منذ عرفت بهذا الاسم كانت تمتد من « خلف العريش الى أسوان طولا ، ومن برقة الى أيلة عرضا »(٤) • ونعتقد أن هذا الأمر هو الذى وجه أنظار العرب نحو برقة وطرابلس في وقت مبكر عقب تمام فتح مصر بفتح الاسكندرية في أوائل سنة ٢١ هـ/٦٤١ م - ٦٤٢ م •

---

(٢) أنظر فيما سبق ، ص ١٢٣ - ١٢٤ •

(٣) أنظر مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٥٠ . محمد عبد الهادى شعيرة ، الصراع بين العرب والبيزنطيين (بالفرنسية) ، ط • الاسكندرية ، ١٩٤٧ ، ص ٦٣ •

(٤) أنظر ابن عبد الحكم ، ص ٩ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧ (يقول عن المقوقس انه صاحب الاسكندرية وبرقة ، ويجعل طرابلس وصبرة ولاية لها صاحبها وهو عامل ملك القسطنطينية) •

وهذا يعني أيضا أن فتح برقة وطرابلس كان ضرورة (استراتيجية) عسكرية ، لحماية حدود مصر الغربية ضد ما قد يتهددها من خطر الروم في افريقية ، كما حدث عند الثورة ضد فوكاس ثم الهجوم على الفرس .

وعندما سار العرب الى برقة لم يستهدفوا فتح الأقاليم الشمالية العامرة فقط حيث المدن الخمسة القديمة التي عطت اسمها للمنطقة وهي أنطابلس (تحريف لبنطابلس Pentapolis) ، بل فتحوا الأقاليم الجنوبية الصحراوية كذلك . وهكذا نفهم من النصوص أن العرب عندما قرروا التقدم نحو الغرب ساروا حسب خطة استهدفت تسيير قوتين احداهما نحو الشمال الى مدينة برقة نفسها . وثانيتهما نحو الجنوب الى فزان . ومعظم الروايات التي ترجع الى الواقدي والتي يوردها البلاذري(٥) ، وكذلك روايات ابن عبد الحكم(٦) التي يرجع كثيرا منها الى ابن لهيعة (توفي ١٧٤ هـ/٧٩٠ م) والليث بن سعد توفي (١٧٥ هـ/٧٩١ م) يفهم منها أن حملة الشمال التي قادها عمرو بن العاص سبقت الحملة الجنوبية التي قادها عقبة بن نافع الفهري (قريب عمرو) . فبعد فتح الاسكندرية سنة ٢١ هـ/٦٤٢ م سارع عمرو على رأس جيشه نحو المغرب ، ويفهم من رواية ابن عبد الحكم أن قواته كانت من الفرسان(٧) . ومع أن النصوص لا تبين الطريق التاريخي الذي سلكه عمرو فالمعروف أن الطريق من الاسكندرية الى برقة هو الطريق التاريخي الساحلي (حاليا عبر مطروح السلوم) . ولم يلق عمرو مقاومة ما في الطريق كما لا يوجد ذكر للمدن الساحلية المعروفة في برقة مثل : طبرقة (طبرق) أو درنة أو سوسة أو طلميثة ، مما يفهم منه أنها لم تكن مدنا مهمة في ذلك الوقت . وعندما وصل الى مدينة برقة ضرب عليها الحصار(٨) . ونفهم من البلاذري الذي يقول ان عمرا « قاتلهم على الجزية »(٩) ، أنه عرض أهل برقة الثلاث خصال التي عرضها على المقوقس وأهل مصر (وهي الاسلام أو الجزية أو القتال) .

ورغم أن أهل برقة كانوا من قبيلة لواتة العريقة في المنطقة والتي كانت

---

(٥) فتوح البلدان ، ص ٢٢٤ .

(٦) فتوح مصر والمغرب ، ص ١٧٠ .

(٧) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٠ ، البلاذري ، ص ٢٢٤ .

(٨) البلاذري ، ص ٢٢٤ .

(٩) البلاذري ، ص ٢٢٤ .

لها الذكر في مقاومة الرومان والوندال والبيزنطيين ، الا أنهم لم يسببوا لعمرو أية متاعب ، ولا شك في أنهم رحبوا بمقدم العرب كما رحب به المصريون ، اذ أنهم ركنوا الى الصلح • وتم الاتفاق على أن يدفع اللواتيون من أهل برقة جزية سنوية قدرها ثلاثة عشر ألف دينار • ويرجع الفضل لابن عذارى الذي بين كيفية فرض هذه الضريبة ، اذ يقول انه : « صالح أهلها على الجزية : دينار على كل حالم(١٠) • وهذا يعني أن عدد اللواتيين من الراشدين الذين يجب عليهم دفع الدينار بلغوا ثلاثة عشر ألف رجل • واذا ما قدرنا أن نسبة هؤلاء الى عدد سكان المدينة واعمالها يبلغ الربع تقريبا (نظرا لاستثناء النساء كما جرت العادة) ، لكان عدد لواتة في المنطقة ما بين أربعين وخمسين ألفا • ورغم أن جزية برقة كانت نصف جزية أهل مصر ـ وهذا أمر يبين أن العرب قدروا ضعف برقة الاقتصادي وقلة مواردها بالنسبة لوادي النيل ، فانصفوا أهلها من هذا الوجه ـ الا أن كتاب الصلح اشترط أمرا غريبا • ففي رواية الليث بن سعد : « كتب عمرو بن العاص على لواتة من البربر في شرطـــه عليهم أن « عليكم أن تبيعوا أبناءكم وبناتكم فيما عليكم من الجزية »(١١) • وبطبيعة الحال لا يفهم من ذلك أن لواتة كانت ملزمة ببيع أبنائها وبناتها في الجزية ، فان ذلك الأمر كان اختياريا ، وهذا ما توضحه الروايات الاخرى التي تقول : « على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم في جزيتهم »(١٢) • والنص على ذلك كتابة يبين أحد أمرين : أولهما أن عمرا عرف فقر اللواتيين وتخوف من عدم مقدرتهم على أداء الجزية فرأى أن يؤدوها عن هذا الطريق ، وثانيهما أن اللواتيين هم الذين اقترحوا ذلك ولم يكن أمام عمرو الا الترحيب بهـــذا العرض •

والحقيقة ان أخذ صغار لواته من البنين والبنات ، لتربيتهم في كنف العرب ، كان يحقق ثلاثة أهداف رئيسية أولها ديني بتنشئتهم على العقيدة الاسلامية ، ونشر الدين عمل من أعمال البر والتقوى ، وثانيها اجتمـــاعي بتعريبهم عن طريق اللغة العربية وتربيتهم على العادات والتقاليد العربية ،

---

(١٠) ابن عذارى ، طبعة كولان وبروفنسال ، ص ٨ •

(١١) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٠ ، البلاذري ، ص ٢٢٥ ،وقارن الطبري في ذخائر العرب ، أحداث سنة ٢١ ، ج ٤ ص ١٤٤ ، تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم العمري ، ط • النجف ، ج ١ ص ١٣٨ •

(١٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٠ ، البلاذري ، ص ٢٢٤ وفيه : « يبيعون فيه من أبنائهم من أحبوا بيعه » •

التزاوج معهم . ونشر العروبة كان رسالة العرب . وثالثها سياسي ، وهو نتيجة طبيعية لسابقيه ، بتوثيق أواصر الصلة بين العرب والبربر ، وفي ذلك توحيد وتقوية لدولة العرب ·

ولا سبيل الى القول بانه ربما كان المقصود بالأبناء نوعا من العبيد او المماليك[١٣] ، فلقد تكلم في ذلك قدامى الرواة ، وقال الليث بن سعد : « فلو كانوا عبيدا ما حل ذلك منهم »[١٤] ، ولو أنه يفهم من هذا النص ان الرأى الذى يعارضه الليث اعتبر لواته من العبيد · والنص الأول يتضح منه تماما أن المقصود هم أبناء وبنات اللواتيين ، والبنات بصفة خاصة فيما نرى · يؤيد ذلك ما كتبه فيما بعد الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز — الذى راعه الأمر — « في اللواتيات ان من كانت عنده لواتية فليخطبها الى أبيها أو فليردها الى أهلها »[١٥] · وهذا يعنى أن دفع البنات في جزية لواتة ظل معمولا به الى أواخر القرن الأول الهجرى ·

ب — فتح صحراء برقة وفزان :

بعد فتح برقة تاتى حملة عقبة بن نافع في الصحراوات الجنوبية · وتقول رواية ابن عبد الحكم أن عمرا وجهه « حتى بلغ زويلة وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين »[١٦] · وتزيد رواية البلاذرى أن عقبة قام بهذا الفتح بعد أن عهد اليه عمرو بولاية المغرب[١٧] · ولا نعرف ان كان ذلك يعنى ان تلك الفتوحات تمت بعد أن ترك عمرو برقة (سنة ٢٢ هـ) في اتجاه طرابلس ، أو بعد عودته من هذه الغزوة الى مصر في سنة ٢٣ هـ قبيل مصرع

---

(١٣) يميل الأستاذ الدكتور شميرة الى الأخذ بهذا الرأى,ولقد سجله في كتاب « تاريخ ليبيا والعالم الاسلامي » الذى اشرف وشارك في كتابته ، طبعة القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٤٤ · والظاهر ان شميرة استند في رأيه هذا الى ما ستوضحه النصوص فيما بعد سنة ٤٠ هـ عندما تقول ان جزية أهل فزان كانت من العبيد .(انظر فيما بعد — باب ولاية عقبة بن نافع وغزواته في صحراوات طرابلس وافريقية) ·

(١٤) البلاذرى ، ص ٢٢٥ ·

(١٥) البلاذرى ، ص ٢٢٥ ·

(١٦) ابن عبد الحكم ، ص ١٧١ وانظر شكل ٥ ص ١٣٤ ·

(١٧) البلاذرى ، ص ٢٢٤ ·

بحر الروم
(البحر المتوسط)
خليج سرت
سرت
تاورغا
ودان
جبل ودان
زلة
جبل السوداء
سوكنة
زويلة
مرزوق
جالو
أوجلة
الكفرة
فزان

برقة وطرابلس وفزان
مرتفعات
بحيرات (سبخات)
وديان

شكل (٥)

البلاد الليبية بأقاليمها المختلفة

الخليفة عمر(١٨) . ورغم اتفاق ابن عبد الحكم والبلاذرى على ترتيب الأحداث بهذا الشكل نجد نصا فى ابن عذارى يغير هذا الوضع ، ويجعل فتح عقبة ابن نافع للصحراء الجنوبية سابقا لفتح عمرو لمدينة برقة اذ يقول : « فاول من دخل افريقية غازيا فى زمن عمر بن الخطاب ــ رضه ــ عمرو بن العاص . وكان استفتح مصر فى سنة ٢٠ من الهجرة ، ووجه منها عقبة بن نافع الفهرى الى لوبية وافريقية فافتتحها . ثم توجه عمرو بنفسه الى برقة ... »(١٩) . ولا يفهم من هذا النص أن حملة عقبة سبقت حملة عمرو فى برقة فقط وأن عقبة خرج غازيا المغرب من مصر . ونحن نعتقد فى صحة هذا الرأى ونرى أن مسير عقبة لم يكن عبر الطريق الساحلى مع عمرو بل عن طريق الفيوم أو الصعيد أى طريق الواحات الذى تجتازه القوافل ، وهو الطريق الذى ستتخذه الجيوش الفاطمية أكثر من مرة فى مسيرها نحو مصر . وتتضح هذه الحقيقة وسط سيل الأساطير الموجودة فى كتاب فتوح البهنسة والفيـــوم المنسوب للواقدى(٢٠) . ويمكن أن نستند فى تقرير هذا الأمر على ترتيب ابن عبد الحكم لأحداث الفتح اذ يتكلم عن فتح برقة عقب كلامه عن فتح الفيوم مباشرة(٢١) . هذا كما أن وجود والد عقبة ، وهو نافع بن عبـــد القيس الفهرى ، فى فرسان العرب الذين ساروا ليرابطوا على حدود النوبة(٢٢) ما يمكن أن يكون قرينة على دخول عقبة صحراء برقة من ناحية الفيـــوم أو الصعيد ــ كما نقول ــ اذ المعقول أن يكون عقبة قد صحب والده فى مسيره هذا نحو النوبة .

---

(١٨) يرى مؤنس (فتح العرب للمغرب ، ص ٥٨) أن هذا النص خاص بولاية عقبـــة لافريقية على أيام معاوية . ومع أن ذلك قد يكون صحيحا ، كما حدث فى الخلط بين أحداث فتح الاسكندرية الأول وفتحها الثانى سنة ٢٥ (أنظر ابن عبدالحكم ، ص ٨٠ ، ٨٤) ، فان مؤنس يستند فى استنتاجه الى أن النص يتكلم عن تنظيم الضريبة فى برقة ثم ان النص يقول ان عمرا ولى عقبة المغرب .والمعروف أن الضريبة كان ينبغى أن تنظم منذ البداية ، أما عن ولاية المغرب فيمكن أن يكون المقصود بها الرباط فى المغرب .

(١٩) ابن عذارى ، ص ٨ . ونعتقد أن كلمتى « لوبية وافريقية » فى النص لا تستقيمان والا فينبغى تغييرهما الى لوبية ومراقية (أنظر فيما سبق ص ٦٤ ــ ٦٥) ، وابن عذارى سيتكلم فيما بعد عن فتح افريقية كما هو معروف فى كل المصادر . ولا شك أن نص ابن عذارى الذى نشره دوزى والذى نقرأ فيه بدلا منها « زويلة وبرقة » (أنظر مؤنس ، ص ٥٩) أصح ، وهذا ما يتفق مع رواية ابن عبد الحكم (ص ١٧) ورواية البلاذرى (ص ٢٢٤) .

(٢٠) فتوح البهنسة وفيوم من اقليم مصر ، أنظر للمؤلف ، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة والأسطورة ، مجلة كلية الآداب بالاسكندرية ، سنة ١٩٦٣ ، ص ١٧ .

(٢١) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٠ .

(٢٢) ابن عبد الحكم ص ١٦٩ ــ ١٧٠ .

والحقيقة أن عقبة بن نافع كان يخطو خطواته الأولى نحو الشباب ، إذ يحدد مولده بسنة قبيل وفاة الرسول(٢٣) ، بمعنى أنه كان يبلغ من العمر ما بين ثلاث عشرة سنة وأربع عشرة سنة في هذا الوقت ، مما يشكك في أن تكون له قيادة القوات في تلك الفتوح الخطيرة ، وهو في تلك السن المبكرة . واذا كان الأمر كذلك فالمعقول أن يكون هذا الفتح لنافع بن عبد القيس الفهرى والد عقبة ، وأن عقبة الشاب الصغير كان في صحبته ولما ذاعت شهرة عقبة بصفته فاتح المغرب كما سنرى ، نسب هذا الفتح اليه كما اختلطت بعض أحداثه بفتوحه الثانية . والحقيقة ان شخصية نافع اختلطت بشخصية ولده عقبة في كثير من روايات ابن عبد الحكم الذى لم يستطع التمييز بينهما في كثير من الأحيان فهو عند كلامه عن الدور التي اختطها نافع بالفسطاط ، يتبع اسم نافع بن عبد القيس الفهرى بقوله : « ويقال بل هو عقبة ابن نافع »(٢٤) .

والذى يفهم من النصوص أن فتح صحراوات برقة هذه كان سهلا ، اذ ليس هناك ذكر لمقاومة ما لقيها عقبة في طريقه حتى بلغ زويلة . ويشيد الرواة بهدوء تلك الأقاليم فيقال : « ان ما بين زويلة وبرقة مسلم كلهم حسنة طاعتهم قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم الجزية ... »(٢٥) . واشتهرت برقة بحسن الطاعة حتى أن الأمر لم يكن يتطلب ذهاب الجباة اليها لتحصيل ما عليها من الأموال التي كانت تبعث بها الى مصر وقت استحقاقها(٢٦) . وبلغ الاطمئنان والأمن في برقة الى درجة جعلت عبد الله بن عمرو بن العاص

---

(٢٣) ابن عذارى ، ص ١٩ .

(٢٤) ابن عبد الحكم . ص ٩٣ ، ٩٩ ، ١١١ . أما عن الروايات التي تنسب فتوح المغرب الى الصحابي المعروف عقبة بن عامر الجهني الذى شارك في فتح مصر (ابن عبد الحكم ، ص ٩٤ ، ١٠٠ ، ١٧٨) ووليها أيام معاوية (سنة ٤٤ — ٤٧ هـ) ودفن بها (ابن عبد الحكم ص ٢٥٣) ، فلا نستطيع الأخذ بها لانه لم يعرف لعقبة الجهني صوح في المغرب . أما الخلط بين عقبة الفهرى وعقبة الجهني فقد أتى مما عرف عن الفهرى من الصلاح والتقوى اذ أراد مؤرخو سيلة العباد الصالحين ان يجعلوه صحابيا أو ظنوا أنه يجب ان يكون كذلك (انظر أبو العرب طبقات علماء افريقية ، طبعة الجزائر . ص ٩ ، وانظر للمؤلف . فتح العرب للمغرب بين الحقيقة والاسطورة مجلة كلية الآداب بالاسكندرية سنة ١٩٦٣ ، ص ٣٠ — ٣١) .

(٢٥) البلاذرى . ص ٢٢٤ .

(٢٦) أنظر ابن عبد الحكم . ص ١٧١ « لم يكن يدخل برقة يومئذ جابي خرج انما كانوا يبعثون بالجزية اذا جاء وقتها » . وقارن البلاذرى . ص ٢٢٤ .

يقول : « لولا مالي بالحجاز لنزلت برقة فما أعلم منزلا أسلم ولا أعزل منها »(٢٧) ، هذا ولو أننا نعتقد أن هذه المقالة ترجع الى وقت ما بعد الفتنة - بعد عودة عمرو الى مصر أيام معاوية ٠

جـ - فتح طرابلس (اطرابلس) :

في مثل هذه الظروف التي تدعو الى الطمانينة بعد فتح برقة وصحراواتها دون تعب ، كان عمرو بن العاص يستطيع مواصلة المسير نحو الغرب قاصدا طرابلس ٠ ولا تذكر النصوص شيئا عن المدن الساحلية والقريبة من الساحل على الطريق من برقة الى طرابلس ، وهي اجدابية وسرت ولبدة ٠ ولا شك في أن هذه المدن كانت خاملة مغمورة في ذلك الوقت ، فلم يكن بها ما يطمع العرب فيها أو ما يجعلهم يخشون خطرها(٢٨) ٠ وكان لطرابلس أسوارها التي تحيط بها الا من جهة البحر ، فقد كانت الأسوار تمتد الى البحر في شرقي المدينةوغربيها تاركة الواجهة البحرية مفتوحة أمام الميناء والمراكب ٠ وأقبل عمرو بقواته من جهة الشرق ورابط في موضع مرتفع يشرف منه على المدينة ٠ ولما لم يكن العرب حتى ذلك الوقت قد خبروا حرب الحصون ، فانهم فعلوا كما فعلوا ببابليون والاسكندرية ، فضربوا الحصار على المدينة طوال شهر دون طائل ٠ ومرجعنا الأول هنا هو ابن عبد الحكم الذي يسجل روايات الليث بن سعد وعثمان بن صالح (توفي عام ٢١٩ هـ/ ٨٣٤ م) التي تناقلها الكتاب فيما بعد حرفيا أو بشيء من التفسير ٠ ويقول ابن عبد الحكم : « فنزل (عمرو) على القبة التي على الشرف من شرقيها فحاصرها شهرا لا يقدر منهم على شيء »(٢٩) ٠ أما بقية الرواية فموضوعها

---

(٢٧) البلاذري ، ص ٢٢٤ ٠

(٢٨) ولا بأس من الاشارة هنا الى أن رواية تاريخ خليفة بن خياط (ج ١ ص ١٢٥) تنفرد بالنص على أن عمرو بن العاص افتتح لبدة من أرض طرابلس ، وليس اطرابلس نفسها ، وذلك في سنة ٢٢ هـ ، وأنه رجع في سنة ٢٤ هـ ٠

(٢٩) ابن عبد الحكم ، ص ١٧١ ٠ ولا نعرف ماذا يقصد ابن عبد الحكم بالقبة ، ويعتقد الزاوي (تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، ص ٣٨) أن ابن عبد الحكم يقصد قبة الشيخ عبد الله الشعاب الحالية ٠ وهو يحاول أن يستدل على ذلك بأن الشعاب توفي سنة ٢٤٣ هـ قبل ابن عبد الحكم بحوالي أربعة عشر عاما فهو معاصره ٠ وهذا الاستنتاج يمكن ان يكون معقولا لو تحققنا من ان قبة الشعاب بنيت فعلا عقب وفاة الشيخ ، وهذا ما لا نعرفه ٠ وعن مسجد الشعاب . انظر البكري ، ص ٧ ، وانظر محمد بن عثمان الحشائشي (التونسي ، توفي =

قصة سقوط طرابلس بمحض الصدفة ، وبطل القصة أحد العرب المدلجيين ولا نعرف اسمه • والذي يفهم من النص أن العرب بعد أن طال بهم الوقوف أمام المدينة أخذت جماعات منهم ترتاد الاقليم بحثا عن المغانم أو بقصد الاستكشاف أو طلبا للصيد والتنزه فالمدلجي ترك المعسكر العربي في شرق المدينة ويصحبته ستة من أصحابه بغرض الصيد ، واتخذ الطريق جنوبي المدينة في اتجاه الغرب • وأثناء رحلة العودة أرهقت حرارة الجو الجماعة فرأت أن تخفف عن نفسها باتخاذ طريق البحر • وعندما اقتربوا من جناح سور طرابلس الغربي ، وهم ينظرون الى مراكب الروم وهي رافعة أشرعتها أمام بيوتهم المطلة على الميناء ، لاحظ المدلجي انحسار البحر عن السور ، تاركا طريقا يمكن الدخول منه • وعبرت الجماعة الصغيرة هذا المسلك في اتجاه كنيسة المدينة ، وهناك صاحوا على الروم مكبرين • وكان للمفاجأة أثرها في قلوب الروم الذين تركوا المدينة هاربين نحو سفنهم • وتنبه عمرو بسرعة الى وجود اخوانه في الداخل فأسرع على رأس رجاله حتى دخل عليهم ، ولم تفلت الروم في المراكب الا بما خف حمله من المتاع ، بينما استولى العرب على كل ما كان في المدينة(٣٠) •

ونظرا للتشابه بين هذه الرواية وقصة فتح بابليون على يدي الزبير ابن العوام ، ظن مؤنس أن « الأمر اختلط على بعض الرواة بين الفتحين فوضعوا في ثانيهما ما وقع في الأول »(٣١) • ومع أن هذا الفرض محتمل الا أننا نجد فيما أضافه التجاني لرواية ابن عبد الحكم ما يمكن أن يفسر الحقيقة • فالتجاني يقول ان المدلجي وأصحابه عندما رأوا « البحر قد حسر من جهة المدينة عن مسلك يمكن النفوذ اليها منه ، فندبوا منهم جماعة واقتحموا المدينة »(٣٢) بمعنى أن الجماعة الصغيرة كانت على اتصال بالجيش وأنها طلبت معونة من اخوانها ولم تدخل طرابلس وحدها •

وهكذا يمكن أن يفسر خروج المدلجي وأصحابه على أنهم كانوا طليعة استكشافية ولم يكونوا متصيدين أو متنزهين ، وأنهم عندما وجدوا الثغرة

= ١٣٤٠ هـ) جلد كرب عن طرابلس الغرب ، نسخة بالآلة الكاتبة عن مكتبة الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب بتونس ، مكتبة بلدية الاسكندرية رقم ٣٥٩١ ب ، ص ١٥ - ١٦ ، حيث يقول ان الشعابي هو الذي بني المسجد الذي سمي باسمه •

(٣٠) ابن عبد الحكم ، ص ١٧١ •

(٣١) مؤنس ، ص ٦٣ •

(٣٢) التجاني ، ص ٢٣٥ •

أخبروا عمرا ففاجأ طرابلس على غرة من أهلها . أما عن تحوير الرواية في شكل مغامرة مثيرة فنظن أنه يرجع الى المدلجيين الذين نسبوا بطولتها الى واحد منهم ، مثلهم في ذلك مثل اخوانهم المذحجيين الذين كان لهم شأن وقصص مع عمرو في فتح الاسكندرية(٣٣) .

والاسكندرية نفسها كان لها قصة عندما أخذت عنوة بعد أن ثارت سنة ٢٥ هـ اذ اشترى العرب أحد حراس الابواب الذى مكنهم من دخـول المدينة على غفلة من الروم(٣٤) . ولا ينكر على العرب بطبيعة الحال أن يتلمسوا أسهل الطرق لفتح الحصون المنيعة لعدم خبرتهم ذلك الوقت بحرب الحصار، ولكي يتجنبوا الخسائر الكبيرة في الأنفس والأرواح ، والحرب خدعة ومكر ومكيدة قبل أن تكون رميا وطعنا وفروسية .

وهكذا فتحت طرابلس دون صعوبة رغم ما تقوله بعض النصوص من أن أهلها استنجدوا بقبيلة نفوسة ، سكان الجبل المعروف بهذا الاسم في جنوب طرابلس(٣٥) ، أو ما يقوله البلاذري في روايته المقتضبة من أن عمرا « قوتل ثم افتتحها عنوة »(٣٦) . والبلاذرى يضيف تفصيلا عن مغانم عمرو فيقول : « واصاب بها أحمال « بزيون » كثيرة مع تجار من تجارها فباعه وقسم ثمنه بين المسلمين »(٣٧) . ولا بأس من أن يكون المقصود أحمال زيتون كما قرأها مؤنس دون أن يشـير الى حقيقتها في النص(٣٨) . فافريقيـة وطرابلس عرفت بغناها في الزيتون والزيت في القديم وحتى اليوم . واذا كان الأمر كذلك فربما كانت هذه الأحمال معدة في الميناء لتحملها مراكب الروم ، التى اضطرت الى الفرار بسرعة ، فقد كان الزيتون هو الغلة التقدية في البلاد(٣٩) والى ذلك يضيف التجاني أن عمرا هدم سور المدينة ، وهذا ما لم يشر اليه الكتاب الأقدمون . ونعتقد أن التجاني — أو من نقل عنه —

---

(٣٣) انظر ابن عبد الحكم ، ص ١٧٥ .

(٣٤) انظر ابن عبد الحكم ، ٨٠ .

(٣٥) ابن عذارى ، ص ٨ ، التجاني ، ٢٣٩ .

(٣٦) البلاذرى ، ص ٢٢٥ . هذا ولو ان البلاذرى يعود فيسرد رواية منسوبة الى الليث ابن سعد يقول فيها ان طرابلس فتحت بعهد (انظر ص ٢٢٦) .

(٣٧) البلاذري ، ص ٢٢٥ .

(٣٨) فتح العرب للمغرب ، ص ٦٦ ; هذا ولو انه يمكن ان يكون المقصود « أحمال بز » آتية من قابس القريبة التي اشتهرت بالتوت والحرير دون غيرها من مـدن افريقيـة ، انظر الاستبصار ، ص ١١٣) .

(٣٩) انظر فيما سبق ، ص ١٠١ .

استنتج ذلك قياسا على ما حدث فيما بعد من هدم بعض أسوار الاسكندرية بعد أن نقضت سنة ٢٥ هـ ، أو هدم تحصينات قرطاجنة بعد نقضها أيام حسان بن النعمان سنة ٧٩ هـ/٦٩٨ م ، وهنا يكون القياس غير صحيح أو مشتبها فيه على الأقل(٤٠) ٠

د ـ فتح صبراتة (صبرة) :

واتبع عمرو استيلاءه على طرابلس بالاستيلاء على آخر مدن الأقاليم الساحلية الهامة في اتجاه الحدود التونسية ، وهي مدينة صبراتة القديمة التي يكتبها القدماء في شكل صبرة أو سبرة أو سبرت(٤١) ٠ وقصة فتح صبراتة لا تختلف كثيرا عن فتح طرابلس من حيث الخطة والسهولة ٠ ورواية ابن عبد الحكم هي التي يتداولها الكتاب بالنص أو بشيء من التعديل الذي لا يمس الا الأسلوب ٠ وتقول هذه الرواية ان أهل صبراتة لما بلغهم نبأ وصول عمرو الى طرابلس ، وأنه لم يستطع اقتحام أسوارها واكتفى بضرب الحصار عليها اطمأنوا ٠ وهذا يفهم منه أن صبراتة كانت حصينة ، وأن حصانتها ربمـــا فاقت طرابلس ، والا لما أمن أهلها ٠ وتنص الرواية على أنه بمجرد استيلاء عمرو على طرابلس سير قوة كبيرة من فرسانه ، وأمرهم بالاسراع نحـــو صبراتة ومفاجأتها على غرة ٠ ونجحت الخيالة العربية في اقتحام المدينـــة صباحا ، وقد اطمأن أهلهـــا الى سلامتهم ، ففتحوا أبواب السور لتسرح ماشيتهم في المـــراعي القريبـــة ٠ هكذا دخلت قـــوات عمرو الى اصبراتة بسهولة ولم يتمكن أحد من أهل المدينة حتى من الفرار(٤٢) ٠ وهذا يعني

---

(٤٠) أنظر التجاني ، ص ٢٣٩ ٠ ولقد تبع الزاوي مقالة التجاني فقال ـ دون ان يذكر سنده ـ ان عمرا هدم أسوار كل المدن التي فتحها في برقة وطرابلس حتى لا يعتصم أهـــل هذه المدن خلف أسوارها من جديد (أنظر الفتح العربي في ليبيا ، ص ٢٢ ، ٤٠) ٠

(٤١) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٢ وهامش ١ ٠ ويفهم من رواية ابن عبد الحكم أنه بنى بالقرب من المدينة القديمة مدينة محدثة سميت نبارة وأن السوق نقل من صبرة الى نبـــارة سنة ١٣١ هـ ٠

(٤٢) يلاحظ أن التيجاني (ص ٢١٢) يضيف الى هذه الرواية أن عبد الله بن الزبير كان على رأس هذه القوة مع أن المعروف أن ابن الزبير لم يدخل افريقية الا مع ابن أبي سرح سنة ٢٧ هـ ٠ ونظن ان الزبيريين هم الذين عملوا على تمجيد زعيمهم لنسبوا اليه دخول المغرب في هذا الوقت المبكر ٠ (أنظر للمؤلف فتح المغرب بين الحقيقة والأسطورة ، مجلة كلية الآداب =

ان أهل صبراتة كانوا يعتقدون أن عمرا لن يحاول غزو مدينتهم طالما امتنعت عليه أسوار طرابلس طرابلس ، كما يعني أيضا أن عمرا كان على علم باطمئنان أهل صبراتة واستهتارهم بأمره ، وأنهم لم يتخذوا الحيطة لتفادي أي هجوم يمكن ان يتوقع من جانبه ، فبادر بأخذهم على غفلة منهم قبل أن يصلهم نبأ سقوط طرابلس ، وهذا يؤكد أن هذه الأخيرة فتحت فجأة كما قلنا . وتقول الرواية ان العرب استولوا على كل ما كان في صبراتة ، ثم انهم عادوا الى عمرو أي الى حيث كان ، بطرابلس .

ويختم ابن عبد الحكم قصة فتح طرابلس وصبراتة برواية منسوبة الى أبي تميم الجيشاني ، عن مسالة قضاء صوم أيام من رمضان ، هل تقضى مرة واحدة أو متفرقة ، ويفهم منها أن هذه الغزوة وقعت في شهر رمضان(٤٣) ، وهذا يرجح أن يكون الفتح قد تم فعلا في أواخر سنة ٢٢ هـ ـ حسب الرواية التي يبدأ بها ابن عبد الحكم(٤٤) .

هـ ـ تمام فتح الاقاليم الصحراوية في فزان :

يفهم من سياق الأحداث ، كما هي في المصادر الرئيسية ، انه بفتح مدينتي طرابلس وصبراتة تمت حملة عمرو في ولاية طرابلس ، ولكن بعض المعلومات المتناثرة في ثنايا فتوح المغرب التالية تدعو الى الظن بأن عمرا سير حملة أخرى نحو الصحراء الجنوبية لطرابلس . فابن عبد الحكم بعد ان يختم فتح طرابلس وصبرة بالشكل الذي ذكرناه يعود عند كلامه عن فتح افريقية فيقول ان عمرا سير ـ أثناء حصار طرابلس ـ قوة على رأسها بسر ابن أبي أرطاة نحو ودان فافتتحها(٤٥) . وودان هي مدينة فزان أي قصبتها وتقع جنوب طرابلس فيما وراء سرت والطرف الشرقي لجبل نفوسة(٤٦) .

= ١٩٦٣ ، ص ٢٩) . وكذلك يضيف التجاني أن عددا قليلا من أهل صبراتة نجوا في المراكب الى صقلية ، وان عمرا أمر غزاة المدينة بعد أن عادوا اليه بهدمها واحراقها . وهذا لم يقله أحد غيره ولا نعرف مصدره .

(٤٣) فتوح مصر والمغرب ، ص ١٧٢ .

(٤٤) فتوح مصر والمغرب ، ١٧١ .

(٤٥) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ١٩٤ ، وانظر البكري (ص ١٢) الذي يجعل حملة بسر هذه في سنة ٢٣ هـ (وعلى عكس ما تذكره مؤنس ص ٥٦ وهامش ١ لا يذكر البلاذري ولا ابن الأثير هذا الفتح أثناء غزو ولاية طرابلس مثل ابن عبد الحكم) .

(٤٦) عن ودان انظر ابن حوقل ، ص ٧٠ . وعن الطريق من طرابلس الى جبل نفوسة الى ودان وزويلة . انظر البكري ، ص ٩ ـ ١١ وانظر شكل ٥ ص ١٣٤ .

ولقد حاول مؤنس أن يفند ما يحيط بحملة بسر بن أبي أرطاة من الشك نظراً لحداثة سنه اذ كان في أوائل مرحلة الشباب — مثل عقبة بن نافع — كما يروى البلاذري عن الواقدي فشك في رواية الواقدي(٤٧) . وهذا ممكن ، فالبلاذري يورد روايات أخرى جعلت من ابن أبي أرطاة صحابيا(٤٨) ، كما جعل البعض عقبة بن نافع صحابيا فوضعوا مكانه عقبة بن عامر . والحقيقة انه يمكن الشك في ان تكون أحداث فزان قد اختلطت في مراحل الفتح المختلفة ، ولكن هذا لا يمنع من أن تكون ودان قد فتحت في هذا الوقت حتى يصبح ما بين برقة وزويلة للمسلمين فعلا كما تجمع النصوص(٤٩) . هذا ولو أن فتح ودان عن طريق طرابلس (المدينة) كان يعني فتح جبل نفوسة ، وهذا ما قال به الزاوي(٥٠) ، رغم أن النصوص لا تشير الى شيء من ذلك اللهم الا ما قاله ابن عذارى من أهل طرابلس استنجدوا بنفوسة أثناء حصار عمرو لهم(٥١) .

وبعد أن تم فتح اقليمي طرابلس وفزان أخذ عمرو بن العاص يوجه السرايا للغارات وحمل الغنائم كما يقول ابن الحكم(٥٢) . ونعتقد أن هذه الحملات كان يقصد بها اتمام اخضاع بقية قبائل الصحراء وادخالها في الاسلام أو العهد ، وذلك أن عمرا بدأ يفكر في توسيع الفتح نحو ولاية افريقية أي نحو بلاد المغرب الحقيقية .

٢ — فتح افريقية (البلاد التونسية) :

التفكير في الفتح على ايام عمر :

ليس من الغريب أن يفكر عمرو بن العاص في فتح افريقية في ذلك الوقت المبكر ، (سنة ٢٢ — ٢٣ هـ) بعد أن تحقق له فتح البلاد الليبية الحالية دون عقبات كبيرة في حملة أشبه ما تكون بنزهة عسكرية — اذا جاز استعمال هذا المصطلح . ولكنه قبل أن يفعل ذلك رأى استئذان الخليفة ، ولكن عمر بن الخطاب لم يوافق على ذلك . فالرواية التي ينقلها ابن عبد الحكم

---

(٤٧) أنظر فتح عرب للمغرب ، ص ٦٥ — ٦٦ .
(٤٨) أنظر البلاذري ، ٢٢٨ .
(٤٩) أنظر فيه سبق ، ص ١٣٥ — ١٣٦ .
(٥٠) أنظر الفتح العربي في ليبيا ، ٤٣ .
(٥١) أنظر فيه سبق ، ص ١٣٩ وهامش ٣٥ .
(٥٢) فتوح مصر والمغرب ، ١٨٣ .

باسنادها والتي يلخصها البلاذري ، تقول ان عمرا كتب الى عمر بن الخطاب : « ان الله قد فتح علينا أطرابلس وليس بينها وبين افريقية الا تسعة أيام فان رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل . فكتب اليه عمر : لا انها ليست بافريقية ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها لا يغزوها احـــد ما بقيت »(٥٣) .

واستئذان عمرو من الخليفة يعني أن فتح المغرب كان يتم حسب خطة موضوعة وان كان نتيجة طبيعية لتطور الأحداث . أما عن رفض عمر فيمكن أن يفسر على أن مؤسس الدولة العربية وبطل توسعها العسكري ، وصاحب تنظيماتها الادارية والسياسية ، خشي أن تتهور الجيوش العربية في بلاد المغرب البعيدة أو أن تخرج عن رقابته ، خاصة وهي تحت قيادة قائد طموح مثل عمرو . ولقد أخذ مؤنس بما قاله ديل (Diehl) من أن حدود افريقية الشرقية كانت محصنة ، وأنه كان قد بقي أمام عمرو عدد من الحصون المنيعة في ولاية طرابلس نفسها(٥٤) ، فقال « ولو وجد عمرو التقدم ميسورا لتقدم في غير عناء دون أن يستأذن عمر ... »(٥٥) . ومع جواز صحة هذا الرأي الذي يعبر عنه ابن عذاري عندما ينسب الى عمرو أنه ذكر في كتابه لعمر : « وأن ليس أمامه (عمرو) الا بلاد افريقية ، وملوكها كثير ، وأهلها في عدد عظيم وأكثر ركوبهم الخيل ، فأمره بالانصراف عنها(٥٦) . فان ابن عبد الحكم يمدنا برواية يفهم منها أن أحوال مصر الداخلية كانت تتطلب عودة عمرو سريعا . ونص هذه الرواية المنسوبة الى عثمان بن صالح : «فأتى عمرو بن العاص كتاب المقوقس يذكر له فيه أن الروم يريدون نكث العهـــد ونقض ما كان بينهم وبينه ، وكان عمرو قد عاهد المقوقس على أن لا يكتمه أمرا يحدث ، فانصرف عمرو راجعا مبادرا لما أتاه »(٥٧) . ومع أنه يمكن الشك في هذه الرواية من حيث الشكل . اذ أن المقوقس كان قد توفي سنة ٦٤٢ م/٢١ هـ(٥٨) ، الا أنه لا غبار عليها من حيث الموضوع . وهي أقرب الى الصحة من الاستنباطات

---

(٥٣) فتوح مصر والمغرب ، ١٧٣ . وبقية الرواية لها نفس المعنى وان اختلف الأسلوب بعض الشيء . ومنها أن عمر قال : « افريقية المفرقة ثلاث مرات لا أوجه اليها أحدا ما مقلت عيني الماء » . وانظر البلاذري ، ص٢٢٦ .

(٥٤) مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٦٦ وهامش ٣ .

(٥٥) مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٦٧ .

(٥٦) البيان المغرب ، ج ١ ص ٨ .

(٥٧) فتوح مصر والمغرب ، ص ١٧٣ .

(٥٨) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٣١٣ .

المبنية على الغروض • ولقد أتت ثورة الاسكندرية وغدر الروم بالعرب بعد حوالى سنتين تؤكد صحة هذه الرواية •

وبناء على ذلك يحق لنا انقول ان ظروف مصر هي التي أملت على عمرو الاحجام عن غزو افريقية بل والعودة سريعا الى الفسطاط • والحقيقة اننا نشك في صحة الرواية التي تنسب الى الخليفة انه قال : « ما هي بافريقية ولكنها مفرقة غادرة •• » • فهناك روايات أخرى تنسب الى عمر أنه كتب الى عمرو بن العاص عن افريقية « لا تقربها فانها باب من أبواب جهنم »(٥٩) • وأكثر من هذا بالغت الروايات فنسبت الى النبي أنه قال لاحدى سراياه التي أرسلها الى افريقية ، عندما رجع أصحابه وشكوا اليه شدة برد أصابهم : « ان افريقية أكثر بردا وأعظم أجرا »(٦٠) • وهذه الروايات وان كانت مصطنعة — من غير شك — فانها تعبر عن شعور الكراهية والعداء التي أكنها العرب بالنسبة لحروبهم في المغرب ، سواء في فترة الفتح أو فيما بعد • فهناك أحاديث أخرى تعبر عن طول الصراع ومرارته ضد البربر ، منها حديث تنسب روايته الى عقبة بن عامر الجهني ، يقول فيه : « الخبث سبعون جزءا ، للبربر تسعة وستون جزءا والجن والانس جزء واحدا »(٦١) • ومنها حديث يقول : « ينقطع الجهاد من جميع الجهات ولا يبقى الا ببلاد افريقية »(٦٢) • ولا بأس من الاشارة الى أن الظاهرة حدثت أيضا بالنسبة لمصر ، ولكن بشكل مخالف • فبسبب استقبال مصر الطيب للعرب وتحالف المصريين معهم ضد الروم ، ظهرت سلسلة من الأحاديث تشيد بقبط مصر ، وبأنهم أحسن الأعاجم على الاطلاق ، بل وتنبه الى صلة القرابة بينهم وبين العرب عامة وقريش خاصة(٦٣) •

---

(٥٩) أبو العرب . طبقات علماء افريقية ، ص ١٦ •

(٦٠) البكري ، ص ٢١ — ٢٢ . كتاب الاستبصار . ص ١١٢ •

(٦١) ابن عبد الحكم . ٢٨٧ •

(٦٢) البكري ، ص ٢١ . الاستبصار ، ص ١١٢ . وقارن أبو العرب . طبقات علماء افريقية ص ٦ . رياض النفوس ، ص ٤ •

(٦٣) ابن عبد الحكم . ص ٢ — ٣ . وللمؤلف ، تاريخ الاسكندرية منذ أقدم العصور طبعة محافظة الإسكندرية ١٩٦٣ ، ص ٢٥٣ • ولقد كان من الطبيعي بعد ذلك أن تظهر أحاديث أخرى (مصطنعة بطبيعة الحال) — أنظر ابن أبي دينار . المؤنس في أخبار افريقية وتونس ، طبعة تونس ١٢٨٦ . ص ١٦ — حيث يوافق ابن ناجي على أن هذه الأحاديث موضوعة تشيد بأهل المغرب ، مثل : « لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة » و « لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على الحق حتى تقوم الساعة ••• » • أنظر رياض النفوس . ص ٣ — ٤ وانظر أبو العرب ص ٠١ •

وبطبيعة الحال ليس من المعقول أن النبي تكلم عن الغزوات البعيدة التي لم تبدأ الا بعد عشرة أعوام أو خمسة عشرعاما أو أكثر من وفاته، ولكن أصحابها قصدوا باصطناعهم اياها التعبير عن وجهة نظر أصبحت شبه عامة في وقت من الأوقات أما عن ذكر اسم النبي بصدد هذه الفتوحات والتصاقه بها كما نرى ، فيفسر بسبب اشتراك عدد كبير من الصحابة وأبنائهم والتابعين فيها • ولهذا اهتم ابن عبد الحكم بذكر الصحابة الذين دخلوا مصر والمغرب فخصص فصولا من كتابة لذلك •

نخرج من كل هذا بأن عمرو بن العاص لم يكن ليستطيع التقدم الى قلب المغرب والروم شوكة في ظهره في مصر ، فآثر العودة الى الفسطاط ليطمئن على أحوالها ، فهي قاعدة فتوح المغرب • وبعد عودة عمرو بقليل كان مصرع الخليفة عمر في أواخر سنة ٢٣هـ/٦٤٣ م •وبعد فترة قضاها عمرو في الفسطاط سار الى الحجاز ليفاوض الخليفة الجديد عثمان بن عفان في أمر تنحية عبد الله بن سعد بن أبي سرح عن امارة الصعيد(٦٤) حتى تكون البلاد جميعا له دون منازع • وفشلت المفاوضات وانتهى الأمر بعزل عمرو واثبات ابن أبي سرح في ولاية مصر جميعا • حدث ذلك في سنة ٢٥ هـ/٦٤٥ — ٦٤٦م في الوقت الذي بدأت فيه ثورة الاسكندرية مما سمح لعمرو بالعودة الى مصر لقمع الثورة ولكنه تركها بعد شهر واحد اذ رفض ما اقترحه الخليفة من أن تكون الولاية شركة بينه وبين ابن أبي سرح •

بداية الفتوح في البلاد التونسية على ايام عثمن :

١ — عبد الله بن سعد واللقاء الأول مع الروم :

يتفق الكتاب على أن عمر بن الخطاب هو بطل الفتوح والتوسع الاسلامي بمعنى أنه باني الدولة العربية ، وعلى العكس من ذلك اعتبروا أن خلافة عثمان هي عهد الفتنة أو الحرب الأهلية ، بما قد يفهم منه أنه لم يكن للخليفة الثالث أفضال على الدولة الناشئة • واذا كان الأمر الثاني صحيحا بالنسبة

---

(٦٤) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٣ •

للسنوات الأخيرة من خلافة عثمان فهو ليس بصحيح بشكل مطلق . فالحقيقة أن الخليفة الثالث بخس الكثير من حقه : فعهد عثمان يعتبر مرحلة تطور هامة في توسع الدولة العربية يمكن أن تجارى المرحلة التي بدأت بخلافة عمر ، ولا نحب أن نجترىء على « أبي حفص » فنخالف ما انعقد عليه الاجماع ونقول أنها ربما فاقتها . فعثمان هو الذى سمح لمعاوية بانشاء الأسطول — وهذا مالم يسمح به عمر — فأصبحت الدولة العربية قوة بحرية بعد أن كانت برية فقط ، وبذلك بدأت الفتوحات في البحر في جزر أرواد ورودس وقبرص ، كما حطم العرب الأسطول البيزنطى في « ذى الصوارى » في أواخر سنى عثمان سنة ٣٤ هـ/٦٥٤ م . وعلى أيام عثمان تمت فتوح فارس بمقتل يزدجرد الثالث على حدود التركستان في سنة ٣١ هـ/٦٥١ م . وعلى أيامه أيضا بدأت فتوح المغرب الحقيقية في افريقية — وهذا ما عارض فيه عمر كما يقول الكتاب . حقيقة ان الأزمة التى انتابت الخلافة بعد مقتل عثمان كان لهـــا آثارها فى توقف الفتوح ، ولكن التوسع الذى تم على أيامه يعتبر من وجـــه استمرارا لبرنامج عمر ، كما يعتبر من وجه آخر تخطيطا للفتوحات الكبرى التى ستتم على أيام الأمويين أقاربه — باعدادات أعظم وبطريقة أكثر تنظيما ، وخاصة في بلاد المغرب .

رفض عمرو بن العاص أن يشاركه عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، والى الصعيد فى ولاية مصر فيكون لابن سعد الاشراف على الخراج . ولم يرض عمرو أن يكون « كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها »(٦٥) ، فعزله عثمان وجعل الامارة لابن سعد . والكتاب الذين يجعلون من مآخذ عثمان أنه عهد بولاية الأقاليم والقيادات العسكرية الى أقاربه ممن لم تكن لهم سابقة فى الاسلام ، والذين لم يدخلوا فى الدعوة المحمدية الا جريا وراء مصالحهم الشخصية بعد أن تأكدوا من نجاحها . يضعون عبد الله بن سعد بن أبى سرح بين هؤلاء الولاة المتهمين فى مشاعرهم الفاترة نحو الاسلام (٦٦) .

والحقيقة أن ابن أبى سرح انتابه نوع من التردد ازاء الاسلام على أيام الرسول . فبعد أن كان يكتب الوحى للنبى عاد واتخذ جانب المكيين . فلما

---

(٦٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١٧٨ .
(٦٦) انظر المسعودى : مروج الذهب طبعة المطبعة البهية ، ج ٢ ص ٣٤٣ ، ابن الأثير : حوادث سنة ٣١ ج ٣ ص ٥٧ .

دخل النبي مكة استجار ابن سعد بعثمان فأخذ له الأمان من النبي(٦٧) ۔ وكان عثمان مدفوعا في ذلك بعلاقة وعاطفة قوية نحو ابن سعد ، فقد كانت أم عبد الله بن سعد مرضعة عثمان بمعنى أنه كان أخـــاه في الرضاعة ۔ والحقيقة أن مثل هذا التردد الذى انتاب ابن سعد لا ينبغي أن يؤخذ عليه الى الأبد ، فقد كان نوعا من الشك الذى يسبق اليقين ويؤكـــده ، وسيرة الكثير من اعلام المسلمين والصحابة مليئة بمثل هذا التردد التى يهـــدف الى تبيان الحقيقة ، فاذا ما اتضحت أصبحت راكزة على أساس مكين ۔ وحقيقة أخرى هي أنه كان للرجل مزاياه وأفضاله ولم يخف ذلك على عمر ، فهو الذى جعل له ولاية الصعيد الى جانب عمرو ، وهذا ما رد به عثمان على عمرو عندما جادله في أمر ابن سعد (٦٨) ۔

والبلاذرى يقول ان عثمان جعل لابن سعد ولاية مصر والمغـــرب(٦٩) ۔ وهذا تعبير عن تبعية المغرب لوالي مصر في هذا الوقت المبكر وما يليه حينما كانت الفسطاط هي قاعدة العمليات العسكرية في المغرب ۔ وسار عبد الله ابن سعد على نفس السياسة العسكرية التى انتهجها عمرو بعد فتح طرابلس، وهي التى كان يقوم هو نفسه بتنفيذها كما يفهم من رواية ابن الأثير (٧٠) ۔ فأخذ يرسل جماعات الخيالة في شكل سرايا تغير على أطراف افريقية وترجع بالمغانم والأسلاب (٧١) ۔ ولا شك أن هدف هذه الغارات لم يكن المغانم والسبي فقط بل كان هدفها الاستكشاف بغرض جس نبض العدو ، ومعرفـــة قواه وما لديه من عدة وعتاد ۔ فعلى نتائج هذه الاستطلاعات كان يقدر ما يمكن أن يلقاه العرب من المقاومة ، وعلى أساس هذا التقدير كانت تعد خطة الغزو ۔ ونظرا للنجاح الذى حققته هذه الغارات فكر عبد الله بن سعد فى القيام بالحملة الحقيقية على افريقية ۔ وبدأ باستشارة الخليفة كما فعل عمرو من قبل ، فأبلغه بدقة الوضع الاستراتيجي للعرب بالقرب من قوات الروم في افريقية واستأذنه في غزوها (٧٢) ۔ والظاهر أن عثمان هو الآخر كان يخشى

---

(٦٧) ابن هشام ، السيرة ، طبعة ١٩٣٦ ، ج ٤ ص ٥١ ــ ٥٢ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٩ ۔

(٦٨) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر المغرب ، ص ١٧٣ ۔

(٦٩) فتوح البلدان ، ص ٢٢٦ ۔

(٧٠) يقول ابن الأثير في أحداث سنة ٢٥ (ج ٣ ص ٤٢) ان عمرو بن العاص سير عبد الله بن سعد « الى أطراف افريقية غازيا بأمر عثمان وكان عبد الله من جند مصر » ۔

(٧١) أنظر ابن عبد الحكم ، ص ١٨٣ ، البلاذرى ص ٢٢٦ ، ابن عذارى ، ص ٩ ۔

(٧٢) أنظر ابن عبد الحكم ، ص ١٨٣ ۔

تهور العرب في تلك البلاد البعيدة اذ يقول البلاذري انه كان « متوقفـا عن غزوها » (٧٣) وأنه وافق على الغزو بعد أن وصلته أنباء مشجعة عن نجاح حملات ابن أبي سرح على أطراف افريقية ، وبعـد أن استشار كبـار الصحابة (٧٤) ٠

وكانت الموافقة تعني ارسال الامدادات والجيوش لابن سعد ٠ وفعلا دعا عثمان الناس لغزو افريقية ، واجتمع خلق كثير من العرب من كل القبائل، وخاصة تلك التي كانت تقطن حول المدينة (٧٥) ٠ وقام عثمان فيهم خطيبا وحثهم على الجهاد ، ووزع عليهم السلاح كما أمدهم بألف بعير يحمل عليهـا ضعفاء الناس أي فقراؤهم(٧٦) ، وجعل القيادة أثناء الطريق من المدينة الى مصر الى قريبه الحارث بن الحكم أخي مروان(٧٧) ٠

ويمدنا الكتاب بتفصيلات لا بأس بها عن ذلك الجيش الذي عبأه عثمان والذي دخل افريقية لأول مرة ، وعن مشاهير رجال العرب الذين شاركوا فيه ومعظمهم من الطبقة الثانية من كبار أبناء الصحابة ٠ فممن يذكر من الهاشميين معبد بن العباس بن عبد المطلب ، ومن الأمويين مروان بن الحكم بن العاصي وأخوه الحارث الذي أسندت اليه قيادة جيش المدينة ، ومن بني زهرة المسور ابن مخرمة بن نوفل ، ومن بني عدي عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وعاصم ابن عمر وعبيد الله بن عمر ، ومن بني عامر بسر بن أبي أرطاة ومن بني هذيل أبو ذؤيب خويلد بن خالد الشاعر ، ومن بني سهم المطلب بن السائب ٠ أما أشهر هؤلاء فهم : عبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن الزبير(٧٨) ، وعبد الله بن عباس(٧٩) ، ولهذا السبب

---

(٧٣) انظر فتوح البلدان ، ص ٢٢٦ ٠

(٧٤) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٣ والبلاذري ، ص ٢٢٦ ٠

(٧٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٦ ٠

(٧٦) ابن عذاري ، ج ١ ص ٩ ، والنويري ، ص ٦٣ أ ٠

(٧٧) ابن عبد الحكم، ص ١٨٣ ٠

(٧٨) أنظر البلاذري ، ص ٢٢٦ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٩ ، أبو العرب ، طبقات علماء افريقية ، ص ١٣ ــ ١٤ ، النويري ، نهاية الأرب ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٦٣ أ ، ٦٣ ب (حسب ناشر القصري وغيره) ، المالكي ، ج ١ ص ٩ ــ ١٠ ، وقارن تاريخ خليفة ابن خياط ، ج ١ ص ١٢٤ ــ ١٢٥ (حيث لا يذكر عبد الرحمن بن أبي بكر) ٠ أما رواية فتوح افريقيه المنسوبة للواقدي والتي تجعل عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أحد العبادلة ، بل بطل هذه الغزوة فهي من الروايات الشيعية المصطنعة ، كما نرى ٠ انظر بحثنا في فتح العرب للمغرب =

عرفت هذه الغزوة عند بعض الكتاب باسم « غزوة العبادلة »(٨٠) . وهذا لا يعني أن كل هؤلاء ساروا دفعة واحدة تحت قيادة الحارث بن الحكم ، إذ سنرى فيما بعد أن بعضهم سار مددا ، والمثل لذلك أشهرهم وهو عبد الله ابن الزبير . وعندما وصل الحارث الى الفسطاط سلم قواته الى عبد الله ابن سعد الذي آلت اليه القيادة بصفته والي مصر وقائد قواتها ، وبلغ جيش ابن سعد بفضل هذا المدد عشرين ألف رجل (٨١) . أما من يذكره الكتاب من جماهير الناس في هذا الجيش ، فمن قبيلة مهرة ستمائة (٦٠٠) رجل ، ومن غنث ؟ من الأزد سبعمائة (٧٠٠) رجل ، ومن ميدعان من الأزد أيضا سبعمائة (٧٠٠) رجل ، وكان على مقاسم هؤلاء الأخيرين شريك بن سمي(٨٢) . ومن أسلم ثلاثمائة (٣٠٠) رجل ، ومن مزينة ثمانمائة (٨٠٠) رجل ، ومن بني سليم أربعمائة وخمسون (٤٥٠) رجلا(٨٣) ، ومن جهينة ستمائة رجل (٦٠٠) رجل ،ومن بني الديل وضمرة خمسمائة (٥٠٠) رجل ، ومن غطفان وأشجع وفزارة سبعمائة(٧٠٠)رجل، ومن بني كعب بن عمرو أربعمائة(٤٠٠) رجل ، وهؤلاء الأخيرون كانوا آخر من قدم على عثمان والناس معرسون بالجرف على ثلاثة أميال من المدينة(٨٤) . ولما كان العدد الكلي لهؤلاء الرجال يناهز الستة

= بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية . وهو الأمر الذي لم يغب عن السلاوي (الاستقصا ، ط . الدار البيضاء ١٩٥٤ ، ج ١ ص ٨٧) الذي يشير الى وجوب وضع عبد الله بن عمرو بن العاص كأحد العبادلة بدلا من عبد الله بن جعفر .

(٧٩) ابن الأثير ، أحداث سنة ٢٦ ، ج ٣ ص ٤٣ ، المالكي ، ج ١ ص ١٣ ، النويري ، المخطوط ، ص ٦٢ أ .

(٨٠) تاريخ خليفة بن خياط ، ج ١ ص ١٣٤ ، المالكي ، ج ١ ص ١٠ ، النويري ، المخطوط ، ص ٦٢ أ ، ابن حجر ، الاصابة ، ترجمة عبد الله بن الزبير رقم ٤٦٨٢ ، ج ١ ص ٣٠٩ . وانظر مؤنس ، هامش ٢ ، ص ٨١ .

(٨١) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٩ ، المالكي ، ج ١ ص ١٠ ، أبو العرب ، ص ١٤ (يقول أن عدة من قدم من المدينة ٢٠ ألفا) .

(٨٢) أنظر ابن عبد الحكم ، ص ١٨٤ . والمقصود بالمقاسم هنا هو الاشراف على تقسيم المغانم وتوزيعها على العسكر .

(٨٣) المالكي ، رياض النفوس ، ص ١٠ . وانظر مؤنس ، ص ٨١ والهامش ٢ . ويرى مؤنس أنه « ربما كان بعض هذه الأسماء مدخولا اخترعه مؤرخو المغرب للتعظيم من شأن افريقية» . ومع أن هذا الرأي مقبول فان نسبة الاختراع الى علماء المغاربة والاستدلال على ذلك بأنه لم يرد مفصلا إلا في كتبهم يمكن أن يرد عليه بأن ذلك كان أمرا طبيعيا ، فالمغاربة اهتموا أكثر من غيرهم بتاريخ بلادهم — كما فعل غيرهم بالنسبة لأوطانهم — وصاحب البيت أدرى بما فيه كما يقال . أما عن الكتب المشرقية الأولى الخاصة بفتوح المغرب فكثير منها لم يصل الينا .

(٨٤) النويري ص ٦٢ ب ، ٦٣ أ .

آلاف رجل ، فلا باس ان يكونوا جملة الجيش الذى بعث به عثمان من المدينة، وان عدد رجال الحملة بلغ ٢٠ (عشرين) ألفا بعد أن انضم هؤلاء الى جند مصر •

وخرج عبد الله بن سعد على رأس هذا الجيش الكبير من الفسطاط ، وربما أناب عنه الصحابي المعروف عقبة بن عامر الجهني(٨٥) — الذى سيلي مصر على أيام معاوية (٨٦) وكان خروج ابن سعد فى سنة ٢٧ هـ/٦٤٧ — ٦٤٨ م حسب رواية الليث بن سعد التى أخذنا بها ، والتى ينقلها ابن عبد الحكم(٨٧) • ولا يبين الكتاب الطريق الذى اتخذته الحملة نحو الغرب ، وأغلب الظن أن ابن سعد اتخذ الطريق الساحل المؤدى الى برقة وهو طريق قوافل الحاج الذى يمر جنوب الاسكندرية الى أبى صير • ووصل عبد الله بن سعد الى برقة حيث انضم اليه عقبة بن نافع الفهرى وأصحابه ، وكانوا مرابطين هناك حسب رواية ابن الاثير (٨٨) • هذا ولا نعرف ان كان مع عقبة فى ذلك الوقت أخوه عبد الله بن نافع بن عبد القيس أم انه كان فى قوات عبد الله بن سعد ، وذلك أن ابن الاثير يذكر أن عبد الله بن نافــع كان مع ابن سعد فى حملة وجهتها افريقية — ولكن قبل حملتنا هذه بسنة (٨٩) • ونظن أنها كانت غارة من تلك التى كان عمرو يرسل فيها قواده الى أطراف افريقية ، كما قلنا ابتداء •

ومن برقة اتجه ابن سعد على رأس قواته المكونة من جيش المدينة وفيه عبد

---

(٨٥) انظر مؤنس ، ص ٨٢ الذى يشير هنا الى الكندى (ص ١٣) • ولـكن الـكندى يذكر تلك النيابة عندما سار ابن سعد الى عثمان لما تكلم الناس بالطعن عليه •

(٨٦) الكندى ، الولاة والقضاة ، طبعة بيروت ١٩٠٨ ، ص ٣٦ — ٣٨ •

(٨٧) فتوح مصر والمغرب ، ص ١٨٧ ، تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ١٣٤ • وهذه الرواية هى التى أخذ بها ابن عذارى (ج ١ ص ٨) • أما البلاذرى (ص ٢٢٦) فانه الى جانب سنة ٢٧ يسجل أيضا سنة ٢٨ وسنة ٢٩ • وبخلاف هذه الروايات التى تبدأ بسنة ٢٧ يسجل ابن الاثير (أحداث سنة ٢٥ ، سنة ٢٦ ، ج ٣ ص ٤٢ ، ٤٣) غزوة ابن أبى سرح فى سنة ٢٦ ، كما يقول ان ابن أبى سرح قام بغزوة سابقة لافريقية سنة ٢٥ على رأس جيش قوامه عشرة آلاف رجل • وانظر النويرى ، ص ٦٣ أ الذى يجعل تجمع الناس فى المدينة فى المحرم من سنة ٢٧ هـ ، أما ابن خلدون (ج ٦ ص ١٠٧) فانه يجعل حملة ابن سعد فى سنة ٢٩ هـ ولو أنه يخطىء ويقول انها فى زمان عمر •

(٨٨) ابن الأثير ، أحداث سنة ٣٦ ج ٣ ص ٤٣ ، وانظر السلاوى ، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، طبعة الدار البيضا ، ص ٣٣ •

(٨٩) ابن الأثير ، أحداث سنة ٣٦ ، ج ٣ ص ٤٣ (حيث النص أن تلك الحملة كانت من عشرة آلاف رجل) •

الله بن عباس ، وجند مصر وفيهم معاوية بن حديج ، ومرابطة برقة وفيهم عقبة بن نافع ، ويفهم من خطبة منسوبة الى عبد الله بن الزبير يصف فيها الحملة أنه جعل الطريق على مراحل ، كل مرحلة مسـافة بريدين . وكان المسير ليلا مما يحقق للعرب أمرين : عدم تسرب أخبارهم الى العدو ، وتفادى حرارة الجو ولفح الشمس نهارا . كما كان من الطبيعى أن يسرع ابن أبى سرح فى المناطق القفرة الجدبة ويبطىء فى الأقاليم الخصبة ليمتار الناس وترعى الخيل والابل (٩٠) وتقدمت الطلائع تستكشف البلاد وتمهد الطريق ، وتأتى بالمؤن للجيش وبالعلف للخيل(٩١) ويظن أن مدينة طرابلس كانت قد خرجت عن طاعة العرب بعد فتحها الأول اذ يقول ابن الأثير ان العرب نهبوها (٩٢) . والظاهر أنهم نهبوا بعض أطرافها كما تذكر الرواية المنسوبة الى الواقدى ، والتى تقول ان طلائع العرب أصابوا سفينة فى طرابلس وأنهم أسروا من فيها وعددهم مائة رجل ، فكتفوهم الى أن وصل ابن سعد فأمر بقتلهم ، بينما تحصن أهل طرابلس خلف أسوار مدينتهم ولم يخرجوا للقاء ابن سعد ، ولم يهاجمهم هو الآخر (٩٣) .

ولا شك فى أن العرب ، وخاصة أولئك الذين خبروا الحرب على حدود افريقية ، كانوا يعلمون أن أهل طرابلس يكتفون منهم بتركهم فى أمان ، وعلى ذلك رأى ابن سعد ألا ينهك قواه فى اعادة فتح طرابلس . فتركها خلف ظهره كما ترك قابس بعدها (٩٤) ، واتجه نحو أرض افريقية الحقيقية مبتعدا عن الشاطىء الى أن وصل الى قرب الموضع الذى ستبتنى فيه مدينة القيروان ، وهى فى المنطقة التى تعرف باسم قمونية(٩٥) . وكان فى ذلك الموضع مدينة قديمة هى سبيطلة (Sufetula) وكان لهذه المدينة أهمية خاصة فى ذلك الوقت . فالى جانب أهميتها العسكرية باعتبارها واحدة من سلسلة المدن التى تكون خط الدفاع الثانى الذى أقامته بيزنطة ، للدفاع عن البلاد ضد ما يتوقعه الروم من هجمات أهل البلاد من البربر (٩٦) ، كانت سبيطلة بمثابة عاصمة افريقية بدلا من قرطاجنة ، وهذا ما ينص عليه ابن الأثير اذ يقول :

---

(٩٠) المالكى ، رياض النفوس ، ج ١ ص ١٦ .

(٩١) أنظر المالكى ، ج ١ ص ١٠ .

(٩٢) ابن الأثير ، أحداث سنة ٢٦ ج ٣ ص ٤٣ .

(٩٣) المالكى ج ١ ص ١٠ ، وقارن النويرى ، المخطوط ، ص ٦٣ ب .

(٩٤) النويرى ، المخطوط ، ص ٦٣ ب .

(٩٥) المالكى ص ١٢ .

(٩٦) Julien. Hist. de l'Afrique du Nord, p. 296, 316.

« وهذه المدينة (سبيطلة) كانت في الوقت دار الملك »(٩٧) ٠

والظاهر أن الاعتبارات الاستراتيجية التي أملت على العرب ترك المدن والقلاع الساحلية في طرابلس وافريقية واتخاذ الطريق الداخلي هي التي أملت على حاكم افريقية ، المعروف عند العرب بـ «جرجير» وهو جريجوريوس ، اتخاذ سبيطلة عاصمة له ٠ فبعد أن ثار جرجير بمساعدة رجال الكنيسة على الامبراطور كما رأينا(٩٨) ، أعلن استقلاله بالمغرب ، وهذا ما يعرفه الكتاب العرب اذ يقولون انه خلع هرقل وضرب الدنانير ونقش عليها صورته(٩٩) ، وصار ملكه من طرابلس الى طنجة(١٠٠) ٠ ولما كان مقامة بقرطاجنة — وهي المدينة البحرية الهامة — يعرضه لخطر الأسطول البيزنطي الذي كانت له السيطرة حتى ذلك الوقت على البحر ، فانه فضل أن يكون بمأمن في الداخل واختار المقام في سبيطلة الحصينة ٠ والحقيقة أن بعض الكتاب الأوائل خفي عليهم أمر سبيطلة هذا ، فابن عبد الحكم رغم علمه باستقلال جرجير ، الا أنه يقول : « وكان مستقر سلطان افريقية يومئذ بمدينة يقال لها قرطاجنة ، وكان عليها ملك يقال له جرجير ٠٠ » (١٠١) ٠

ولا شك في أن كلمة قرطاجنة هنا أشبه ما تكون بالخطأ المطبعي ، فهي خطأ من النساخ على ما تظن ، والدليل أن ذكر قرطاجنة هنا كعاصمة تطلب قولهم ان ابن سعد حاصر قرطاجنة عقب الموقعة (١٠٢) ، وهذا خطأ وصحته سبيطلة (١٠٣) ٠ أما ما أخذ به مؤنس مستندا فيه الى بعض أقوال ديل (Diehl) من أن جرجير استخدم سبيطلة قاعدة له عندما استشعر خطر

---

(٩٧) الكامل أحداث سنة ٢٦ ، ج ٣ ص ٤٣ ٠ وهذا ما يأخذ به المالكي (ج ١ ص ١٢) عندما ينقل عن أهل « العلم بالسير ومغازي افريقية » فيقول عن جرجير حاكم افريقية الرومي « وهو صاحب سبيطلة » ٠ وقارن خليفة بن خياط ، ج ١ ص ١٢٤ (حيث يجعل سبيطلة على ٧٠ ميلا من القيروان) ، ص ١٣٥ (حيث يقول انها مدينة قمودة — يقصد قمونية — أو عاصمتها) ٠

(٩٨) أنظر فيما سبق ، ص ١٢٥ والهوامش ٠

(٩٩) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٣ ٠ والقراءة فيه « وضرب الدنانير على وجهه » . أنظر مؤنس (ص ٨٤) وما يقوله من أنه لم توجد نقود برسم جرجير ٠

(١٠٠) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٣ ، البلاذري ، ص ٢٢٦ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٩ ٠

(١٠١) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٣ ٠

(١٠٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢ ، المالكي ، ج ١ ص ١٣ ٠

(١٠٣) قارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٠٧ « وكانت ، دار ملكه (جرجير) سبيطلة » ٠

العرب بعد اخضعهم طرابلس وصبرة (١٠٤) ، فمع أنه معقول الا أنه يكون اكثر قبولا لو أن جرجير سار الى هذا الموضع عندما علم بمسير ابن سعد اليه ، أو لسد الطريق أمام القوات العربية الزاحفة الى بلاده . وفي هذه الحالة كان يجب وقوفه في منطقة قابس الاستراتيجية كما يبين مؤنس (١٠٥) ، فهي أشبه بعنق الزجاجة كما يقول العسكريون . أما أن ينتقل جرجير الى سبيطلة مع أهله وحريمه وذخائره ، كما تذكر الروايات ، فهذا اجراء لا تمليه الضرورة العسكرية . وعلى ذلك فالاقرب الى الصحة أن جرجير اتخذ سبيطلة عاصمة خشية هجوم الأسطول البيزنطي عليه ، تماما كما ترك العرب مدن الساحل الطرابلسية والافريقية خشية نفس الخطر ، وهذا ما يقوله ديل كما يلخصه مؤنس (١٠٦) .

وصل اذن ابن سعد الى اقليم قمونية غير بعيد من سبيطلة ، وحط رحاله ليستريح الجند من عناء الطريق وليأخذوا في الاستعداد للقاء الروم . من جم الكراع واصلاح السلاح . وفي هذه الأثناء أخذ يرسل السرايا تستكشف البلاد في كل الجهات (١٠٧) ، وتأتي بالمؤن والعلف (١٠٨) . وقبل أن يبدأ القتال بين القوات الرئيسية دارت مفاوضات بين الطرفين ، واختلف رسل ابن أبي سرح الى جرجير يعرضون عليه - كما هي العادة - الاسلام أو الخضوع للعرب ودفع الجزية (١٠٩) . وفشلت المفاوضات اذ رفض جرجير قبول شروط العرب ، وأصبح على القوة أن تقرر لمن ستكون اليد العليا .

الانتصار في سبيطلة :

ووقف الجيشان العربي والرومي وجها لوجه في موضع أمام سبيطلة على بعد يوم وليلة واحدة من المدينة (١١٠) ، وهذا الموضع يسمى عقوبة (١١١) .

---

(١٠٤) أنظر مؤنس ، ص ٧٥ .
(١٠٥) نفس المرجع ، ص ٨٥ ، وانظر شكل ٦ ص ١٥٥ .
(١٠٦) نفس المرجع السابق ، ص ٩٦ هامش ٢ .
(١٠٧) ابن الأثير ، أحداث سنة ٢٦ ، ج ٢ ص ٤٣ ، وانظر المالكي ، ص ١٦ .
(١٠٨) المالكي ، ج ١ ص ١٠ .
(١٠٩) ابن الأثير ، سنة ٢٦ ، ج ٣ ص ٤٣ . المالكي ، ج ١ ص ١٠ - ١١ ، النويري ، المخطوط ، ص ٦٣ ب .
(١١٠) ابن الأثير ، سنة ٢٦ ، ج ٣ ص ٤٣ . وانظر شكل ٦ ص ١٥٥ .
(١١١) البلاذري ، ص ٢٧ ، النويري ، المخطوط ، ص ٦٣ أ .

ويصف الكتاب العرب جرجير وقواته وصفا رائعا يذكر بوصفهم للقائدالفارسى رستم وقواته الهائلة في موقعة القادسية • فالقوات الرومية بلغت ١٢٠ ألف رجل(١١٢) ، « قد رفعوا الصليب ، وعليهم من السلاح ما الله أعلم به ، وفيهم من الخيل مالا يحصى » (١١٣) • وهذا العدد مبالغ فيه من غير شك ، والمعتقد أن أصحاب هذه الرواية أرادوا ابراز النتائج العظيمة التى حققها العــــرب بامكانيات بسيطة • أما جرجير فكان يقف خلف قواته ممتطيا برذونا أشهب اللون ، وعن يمينه وشماله جاريتـــان تظلانه من حـــرارة الشمس بريش الطواويس(١١٤) ، بينما كانت ابنته تطل على أرض المعركة من أعلى المنصة (الديدبان) التي أقامها والدها ليشرف منها على عساكره أثناء القتال ، أو من أعلى الحصن القريب ، كما نرجح ، تحيط بها أربعين وصيفة عليهن أجل الثياب وأثمن الحلى (١١٥) • واذا كان من الجائز أن يكون الخيال قد لعب دورا هاما فى تلك الروايات التى لا نجدها بمثل هذا التفصيل المزوق عند ابن عبد الحكم ، فليس من الضرورى أن تكون جميعا من نسج الخيال • فقصة جرجير وحاملات المظلات ، وابنة جرجير ومن يحطن بها من الوصيفات مقبولة ، وان كانت ستطلق العنان لخيال الكتاب والرواة حتى تطورت الى أساطير بعيدة عن الحقائق التاريخية كما فى « كتاب فتوح افريقية » المنسوب للواقدى (١١٦) •

أما عن قوات ابن سعد فكانت تقف في هيئة القتـــال ميمنة وميسرة وقلبا(١١٧) ، وفيها الفرسان على ظهور الخيل العربية الضـــامرة السريعة العدو ، القادرة على تحمل المشاق ، وفيها الرجالة بأسلحتهم الخفيفـــة وملابسهم البسيطة ، بينما كانت الجمال في الخلف ــ على ما نعتقد ــ حيث

---

(١١٢) ابن الأثير ، سنة ٢٦ ، ج ٣ ص ٤٣ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠ ، ابن خلدون ، ج ٦ص ١٠٧ ، المالكى ، ج ١ ص ١٤ •

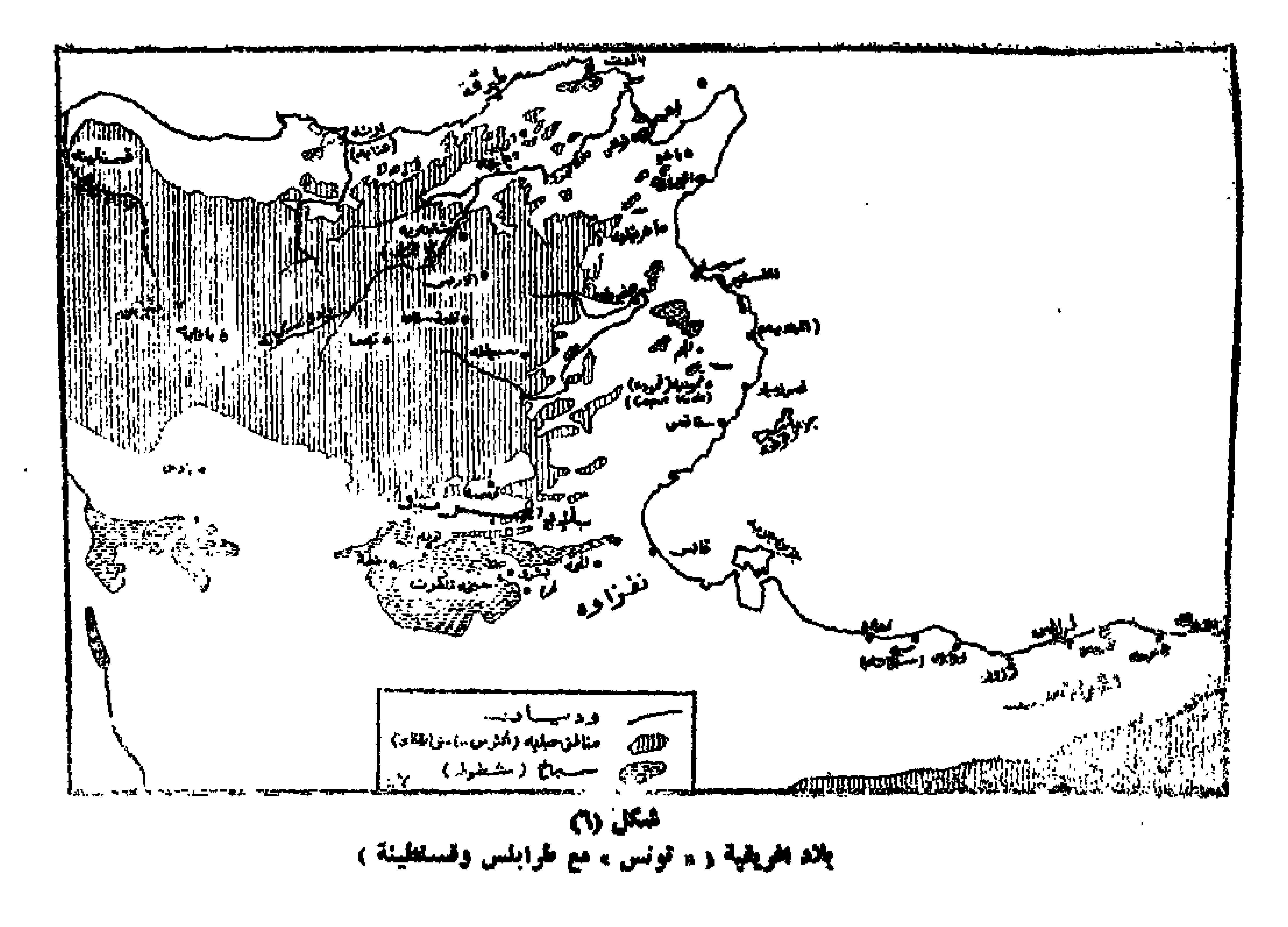
(١١٣) المالكي ، ج ١ ص ١١ •

(١١٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١ ، المالكى ، ج ١ ص ١٤ ، وقارن النويرى ، المخطوط ، ص ٦٤ أ الذى يقول أن ابنة جرجير هى التى كانت تحمل على رأسها مظلة من ريش الطاووس •

(١١٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠ ، المالكى ، ج ١ ص ١٤ •

(١١٦) فيما يتعلق بالمعركة التى يمكن أن تعادل معركة سبيطلة عنه نجد فى كتـــاب فتوح افريقية المنسوب للواقدى وصفا خياليا رائعا لقواد الروم عليهم حلل الذهب ودروع الذهب وجيوبهم مليئة بالدنانير الذهبية •••• الخ • انظر للمؤلف ، فتح المغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية ، مجلة كلية الآداب سنة ١٩٦٣ ، ص ٢٦ •

(١١٧) المالكى ، ج ١ ص ١١ •



شكل (٦)

بلاد إفريقية (« تونس » مع طرابلس وقسنطينة)

الأثقال والأحمال في حراسة بعض الرجال · ولما كان في ذلك الجيش الكثير من الصحابة وأبنائهم ، فان الصفوف كانت عامرة بقراء القرآن ، الذين يتلون الآيات التي تحض المؤمنين على حسن القتال وطلب الاستشهاد في سبيل الله ، ويذكرون الأحاديث التي تحض على الجهاد · ومن هنا نشأت مجموعة الأحاديث الخاصة بفتوح افريقية على ما نظن ، والتصق اسم الرسول بهذا الفتح كما قلنا · وبطبيعة الحال كان الشعراء ، وتذكر النصوص منهم أبا ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي(١١٨) ، ينشدون أشعار الحماسة ، بينما كان ابن سعد يحرض الناس ويبث فيهم روح الفدائية والاقدام (١١٩) ·

وبدأت المناوشات ثم استمرت الحرب سجالا في « عقوبة » دون طائل(١٢٠) · ويفهم من النصوص أن كلا من الجانبين كان يخشى الآخر ، فالروم كانوا يرهبون العرب وينهزمون أمامهم (١٢١) ، والعرب كانوا يخشون كثرة الروم وعظم معداتهم (١٢٢) · وهذا ما يستشف أيضا من الروايات التي تقول انهم كانوا يقتتلون ويتبارزون نهارا ، من الصباح الى صلاة الظهر ، ثم يعودون الى معسكراتهم فلا يستأنفون القتال الا في اليوم التالي (١٢٣) · ويمكن أن نفهم من ذلك أن الطرفين كانا يودان لو انتهى الأمر الى الاتفاق · وأخيرا هناك رواية تقول ان جرجير وعد من يقتل عبد الله بن سعد من رجاله بتزويجه ابنته ، وأن عبد الله بن سعد رد على ذلك بالنداء في عسكره . أن من قتل جرجير من المسلمين نفله ابنته وما معها (١٢٤) ·

أما عن النصر النهائي فيرجع الى تغيير عبد الله بن سعد لخطة القتال هذه ، وذلك بعد أن استمع الى نصح الناصحين له بأن يقسم قواته الى قسمين يشترك أحدهما في القتال بينما ينتظر الآخر في شكل كمين حتى اذا انتهى القتال كالعادة ظهرا ، خرج الكمين على الروم وقد تعبوا فيتمكن من

---

(١١٨) أنظر فيما سبق ص ١٤٨ ·
(١١٩) أنظر المالكي ، ص ١٦ ·
(١٢٠) البلاذري ، ص ٢٢٧ ·
(١٢١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٠ ، المالكي ، ج ١ ص ١١ ·
(١٢٢) أنظر ابن عبد الحكم ، ص ١٨٥ حيث يقول ان رجال ابن سعد قطعوا الصلاة ذات يوم عندما سمعوا جلبة فظنوا أنهم العدو ثم انهم أعادوها ·
(١٢٣) ابن الأثير ، أحداث سنة ٢٦ ، ج ٣ ص ٤٣ ·
(١٢٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٠ ، المالكي ، ج ١ ص ١٤ ، وقارن النويري ، المخطوط ص ٦٤ ب ·

هزيمتهم (١٢٥) . ونجحت الخطة وثارت الكمائن بالروم فانهزموا . ولحق العرب بالمنهزمين فقتلوا منهم أعدادا كبيرة ، ثم سبقوهم الى أبواب سبيطلة ومنعوهم من دخولها . بينما بقي جرجير مجندلا في أرض المعركة ، ووقعت ابنته أسيرة في أيدي العرب (١٢٦) . وتنسب كثير من الروايات فخر هذا الانتصار الى عبد الله بن الزبير دون عبد الله بن سعد . فتقول انه وصل مددا لابن سعد من قبل عثمان بعد أن تأخرت أخبار الحملة عن الخليفة ، وانه الذي نصح ابن سعد بتطبيق الخطة الحربية للمعركة . وتنسب اليه كذلك الكثير من أعمال البطولة النادرة والشجاعة الشخصية : فهو الذي اخترق صفوف الروم ، وهو الذي قتل جرجير وفتن الأميرة ابنته التي أقرت بذلك رميزته من بين فرسان العرب(١٢٧) .

والظاهر أن الزبيريين وشيعتهم هم الذين عملوا على اذاعة أمجاد أسرتهم ، وخاصة بعد أن بلغت أوج عظمتها خلال السنوات التي طالب فيها عبد الله بن الزبير بالخلافة ، وكان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق مأربه الذي دفع فيه والده — من قبل — حياته دون جدوى . والحقيقة أن كثيرا من رواة فتوح مصر والمغرب كانوا من الأسرة الزبيرية وأشهرهم عروة بن الزبير وابنه هشام بن عروة (توفي سنة ١٤٦ هـ) (١٢٨) . فقصة مقتل جرجير تظهر أولا مقتضبة عند ابن عبد الحكم الذي يعود فيقول « وكان الذي قتله فيما يزعمون عبد الله بن الزبير »(١٢٩) ، بينما تجد رواية ثانية تقول ان الذي نصح ابن سعد بعمل الكمائن هو أحد القبط (١٣٠) ، ثم رواية ثالثة تقول أن ابنة جرجير كانت من نصيب أحد الأنصار ، وان الشابة الاغريقية فضلت أن تلقي بنفسها من على ناقته فتدق عنقها(١٣١) . والظاهر

---

(١٢٥) ابن الأثير ، سنة ٢٦ ، ج ٣ ص ٤٣ — ٤٤ ، المالكي ، ج ١ ص ١١ .

(١٢٦) ابن الأثير ، سنة ٢٦ ، ج ٣ ص ٤٤ . ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨ ، المالكي ، ج ١ ص ١١ ، النويري ، المخطوط ، ص ٦٥ ب .

(١٢٧) نفس المصدر .

(١٢٨) انظر ابن حجر ، الاصابة ، طبعة ١٣٢٨ هـ ، ترجمة عبد الله بن الزبير ، رقم ٤٦٨٢ ، ج ٢ ص ٣٠٩ — ٣١٠ — ٣١١ . وانظر للمؤلف ، فتح المغرب بين الحقيقة والأسطورة ، مجلة كلية الآداب ، اسكندرية سنه ١٩٦٣ ، ص ٣٩ .

(١٢٩) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٣ وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٦ ، ج ٣ ص ٤٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١ .

(١٣٠) المالكي ، ج ١ ص ١١ .

(١٣١) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٤ — ١٨٥ ابن الأثير ، سنة ٢٦ ج ٣ ص ٤٤ .

في قصة انتحارها صحيحة فلو انها آلت الى ابن الزبير أو الى غيره لعرفنا أخبارها أو أخبار عقبها ، كما عرف عقب سارة ابنة ملك الاندلس القوطي(١٣٢) .

وهكذا انتهت معركة عقوبة أو سبيطلة الأولى بانتصار سهل لابن أبي سرح ، فانهزمت القوات الرومية أمام العرب ، وقتل حاكم افريقية وانتحرت ابنته ، ولا بأس من أن تكون ألقت بنفسها من أعلى سور القلعة — التي جورت الى ناقة — أسفا على والدها . واتبع ابن سعد ذلك بضرب الحصار على مدينة سبيطلة نفسها بعد أن منع المنهزمين من الاعتصام بها . وبذلك حرمت المدينة من المدافعين عنها ، وسقطت بسهولة في معركة ثانية ، وغنم العرب فيها غنائم كثيرة لم يعرفوا مثيلا لها في غيرها من المدن(١٣٣) ، وكان أكثرها الذهب كما تقول احدى روايات المالكي (١٣٤) . وأرسل ابن سعد بخبر الفتح مع عبدالله ابن الزبير كما يرجح الرواة (١٣٥) ، فسار الى المدينة سريعا في أقل من ثلاثة أسابيع ، وهناك أعلن أنباء انتصارات القوات العربية في افريقية في مسجد الرسول وفي حضرة الخليفة وكبار الصحابة (١٣٦) .

وأقام ابن أبي سرح معسكره في الأرض التي بنيت فيها القيروان فيما بعد (١٣٧) ، ومن هناك أخذ يوجه السرايا تضرب في أرجاء افريقية ، فبلغت

---

(١٣٢) انظر ابن القوطية . تاريخ افتتاح الأندلس . طبعة بيروت . ص ٣٢ . ليفي بروفنسال . تاريخ اسبانيا الاسلامية (بالفرنسية) طبعة ١٩٥٣ ص ١٨٥ (عن بني القوطية وبني غيطشة) .

(١٣٣) ابن الأثير ، سنة ٢٦ ، ج ٣ ص ٤٤ . النويري المخطوط ، ص ٦٥ ب ، وانظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢ ، والمالكي ، ج ١ ص ١٣) الذي يخطىء عندما يتكلم هنا عن حصار قرطاجنة ، وهو يقصد بطبيعة الحال سبيطلة ، ولقد أتى هذا الخطأ من الاعتقاد بأن قرطاجنة هي عاصمة افريقية وأن جرجير هو ملك افريقية أي صاحب قرطاجنة .

(١٣٤) المالكي ، ج ١ ص ١٣ .

(١٣٥) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٥ — الذي يبدأ بقول ان عقبة بن نافع هو الذي سار بالفتح ثم عاد وقيل بل عبدالله بن الزبير . ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢ . ونفهم هنا قول ان ابن عبد الحكم يورد رواية أخرى (ص ١٨٦ — ١٨٧) يفهم منها أن ابن سعد وجه مروان بن الحكم الى عثمان بالبشرى . ومن الجائز أن يكون ذلك قد تم في وقت تال حين استقر الأمر على نحو ما سيتضح من التفاصيل . وانظر تاريخ خليفة ابن خياط ، ج ١ ص ١٣٦ .

(١٣٦) انظر ابن عبد الحكم ، ص ١٨٥ (في عشرين ليلة) — ١٨٦ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣ ، المالكي ، ج ١ ص ١٥ — ١٦ .

(١٣٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣ .

جنوبا أرض قفصة من بلاد الجريد ثم جازت الى مرماجنة(١٣٨) ، كما بلغت حصن الجم على طريق سوسة حيث اجتمعت فلول المنهزمين ، وفتحته صلحا بعد أن ضربت عليه الحصار(١٣٩) · وانسحب الروم الى الجزيرة — وهي شبه الجزيرة الواقعة بين تونس وسوسة — التي عرفت باسم جزيرة شريك ، نسبة الى شريك العبسي والد قرة بن شريك والي مصر أيام الوليد بن عبد الملك ، واجتمعوا هناك في مدينة تعرف باقليبية ومنها انسحبوا بحرا الى جزيرة قوسرة (١٤٠) ·

مشكلة الغنائم :

وأتت هذه السرايا بالمغانم الكثيرة والاسلاب ، واستاقت من المواشي ما تقدر عليه (١٤١) · ورأى بطارقة افريقية ألا قبل لهم بمواجهة العرب فركنوا الى الصلح ، ورأوا أن يشتروا انسحاب ابن أبي سرح بالمال · وتم الاتفاق على أن يدفعوا للعرب جزية سنوية بلغت ٣٠٠ (ثلاثمائة) قنطار من الذهب(١٤٢)· ويورد البلاذري رواية ثانية تقول ان الصلح تم على ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ دينار (الفي الف دينار وخمسمائة الف دينار) (١٤٣) · أما ما يتفق عليه الكتاب فهو أن ابن أبي سرح أخرج الخمس من الغنيمة ثم وزع الأخماس الأربعة الباقية على رجاله بمعرفة عبد الله بن عباس ، فكان نصيب الراجل ١٠٠٠

---

(١٣٨) ابن عذاري ج ١ ص ١٢ ، المالكي ، ج ١ ص ١٣ ، النويري ، المخطوط ص ٦٦ أ ·

(١٣٩) ابن الأثير ، سنة ٢٦ ، ج ٣ ص ٤٤ ، النويري المخطوط ، ص ٦٦ أ ، التجاني (الذي يسمي الحصن : الجم والأجم) ، ص ٥٧ ، ٦٥ ، وانظر حسين مؤنس ، فتح العرب ، ص ٩٧ وهامش ٢ ·

(١٤٠) انظر البكري (ص ٤٥) الذي ينقله التجاني ، الرحلة ، ص ١١ ، ١٢ (وتقول الرواية ان الروم أقاموا بجزيرة قوسرة الى خلافة عبد الملك بن مروان حينما غزا عبد الملك ابن قطن كل جزر الريقية) ·

(١٤١) البلاذري ، ص ٢٢٧ ·

(١٤٢) البلاذري ، ص ٢٢٧ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢ (وكان من شروط الصلح ان ما أصابه المسلمون قبل الصلح فهو لهم أما ما أصابوه بعد الصلح ردوه) ، والمالكي ، ج ١ ص ١٧ (حيث يقول انهم وجهوا لابن سعد ١٠٠) مائة قنطار فقط (· وقارن خليفة بن خياط ، ج ١ ص ١٣٥ (حيث يقول أن أهل القصور والمدائن صالحوا ابن سعد على مائتي الف رطل ذهبا) ·

(١٤٣) البلاذري ، ص ٢٢٧ ، ابن الأثير ، سنة ٢٦ ، ج ٣ ص ٤٤ ، النويري ، المخطوط ص ٦٦ أ ·

(ألف) دينار ونصيب الفارس ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) دينار (١٤٤) . مما يثير عجب الكتاب . ونعتقد أن هذه الرواية الاخيرة مبالغ فيها . اذ لو صحت لوجب أن تكون قيمة الغنائم في هذه الحملة حوالى ٤٠ (أربعين) مليون دينار . على زعم أن نسبة الفرسان الى الرجالة في جيش ابن سعد الـذى بلغ عشرين الفا لم تزد على الربع فقط ـ والمعتقد أنها كانت أكثر ـ أو أن يكون مقدار الغنيمة نصف هذه القيمة أى حوالى عشرين مليونا ، لو كان جيش ابن سعد يبلغ عشرة آلاف رجل فقط ، لو أخذنا برواية ابن الأثير عن الحملة التى قادها ابن سعد سنة ٢٥ هـ(١٤٥) . وهذه أرقام مبالغ فيها من غير شك فما كان يمكن الحصول عليها من مدينة واحدة أو أثناء حملة واحدة ، فالمعروف أن جزية مصر جميعا (دون الاسكندرية) لم تزد فى أول الأمر على اثنى عشر مليون دينار .

أما عن أصل الرواية المنسوبة الى الليث بن سعد . وهى التى تحدد نصيب الراجل بألف دينار والفارس بثلاثة آلاف ، فنرجع الى ان رجلا من جيش ابن سعد توفى فى طريق العودة فى موضع يعرف بذات الحمام (ونظن انها الحمام الحالية على طريق مرسى مطروح الاسكندرية) ، « فدفع الى أهله بعد موته ألف دينار » (١٤٦) . ومع أن الرواة يؤكدون أن الألف دينار كانت سهمه فى الغنيمة فان الأقرب الى الصحة أن يكون ذلك مال الرجل الخاص ، الذى حصل عليه من نصيبه فى مغانم الجيش وفى مغانم خاصة أخرى تهيأت له فى الغزوة . وأن أصحابه ردوا هذا المال الى أهله . ونحن نستند فى ذلك الى روايات يوردها ابن عبد الحكم يفهم منها أن الناس كانوا يتاجرون فى الذهب والتبر ، وأن بعض هذه العمليات التجارية لم تكن سليمة (١٤٧) . أما عن الثلاثة آلاف دينار وهى سهم الفارس فنظن أنها أتت نتيجة لعملية حسابية . قياسا على ما كان لهذا الراجل من المال : فالمعروف فى الحرب أن نصيب الفرس وحده سهمان . هذا ومن الجائز أن يكون الخيال قد لعب دورا فى هذه المبالغة . « اذ قال غير الليث من مشايخ أهل مصر : فى كل دينار وربع »(١٤٨) . بمعنى أن السهم الحقيقى كان ١٢٥٠ دينار للراجل و ٣٧٥٠ دينار للفارس .

---

(١٤٤) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٤ . تاريخ خليفة بن خياط ، ج ١ ص ١٣٥ . ابن الأثير ، سنة ٢٦ ج ٣ ص ٤٤ . ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢ .

(١٤٥) أنظر فيما سبق ، ص ١٤٩ وهامش ٨١ ، ص ١٥٠ وهـ ٨٩ .

(١٤٦) ابن عبد الحكم ص ١٨٤ .

(١٤٧) أنظر ابن عبد الحكم ١٨٤ .

(١٤٨) نفس المصدر .

ويعبر الرواة عن عظم هذه الأموال عندما يقولون أن ابن سعد دهش لأكوام المال التي كانت توضع بين يديه . فسأل الأفارقه : «من أين لكم هذا» ؟ فجعل انسان منهم يدور كالذي يتلمس الشيء حتى وجد زيتونة فجاء بها اليه . فقال من هذا الورق . قال وكيف ؟ قال ان الروم ليس عندهم زيتون فكانوا يأتون فيشترون منا الزيت فنأخذ هذا الورق منهم » (١٤٩) . وعلى كل حال كان ابن سعد على حق عندما اكتفى بما كان يحمله هو ورجاله من المغانم والأموال ، فوافق على الصلح واتخذ طريق العودة الى مصر دون أن يترك واليا من قبله على افريقية ، ودون أن يترك بها حامية عربية (١٥٠) . والظاهر أن المغانم كانت من الكثرة بحيث يصعب حملها ، اذ تقول رواية يوردها المالكي ـ ولا نعرف مبلغ صحتها ـ ان ابن سعد كتب الى نائبه في مصر ، وهو عقبة بن عامر الجهني ليرسل اليه المراكب في طرابلس ، وبعد أن حملت هذه المراكب أثقال الجيش في البحر ، سار ابن سعد وأصحابه الى مصر (١٥١) . ونظن أن ابن سعد خرج من هذه الحملة بنصيب وافر من المال مما أثار سخط الناس(١٥٢) . اذ تقول بعض الروايات ان عثمان بن عفان كان قد وعده بخمس الخمس أى خمس نصيب الخلافة ، وان مروان أخذ في المدينة من مال افريقية ٥٠ (خمسين) ألف دينار كذلك (١٥٣) ، فكانت تلك من المآخذ التي أخذت على عثمان (١٥٤) .

ولقد استغرقت الحملة في افريقية سنة وشهرين كما تقول احدى الروايات (١٥٥) . ولما كان البلاذري يقول ان الغزوة وقعت في سنة ٢٧هـ ـ وهو التاريخ الذي أخذنا به ـ أو في سنة ٢٨ هـ أو في سنة ٢٩ هـ(١٥٦) ،

---

(١٤٩) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٥ . وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢ .

(١٥٠) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٣ (ولم يول عليهم أحدا ولم يتخذ بها قيروانا) . البلاذري ، ص ٢٢٧ (ولم يول على افريقية أحدا ولم يكن لها يومئذ قيروان ولا مصر جامع) .

(١٥١) المالكي ، ج ١ ص ١٧ .

(١٥٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣ .

(١٥٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣ (عن الطبري) .

(١٥٤) أنظر ابن الأثير الذي يلخص الروايات التي نسبت الى عثمان أنه أعطى خمس افريقية لعبد الله بن سعد في هذه المرة ، وأنه أعطى خمسا آخر لمروان في غزوة أخرى (أحداث سنة ٢٦ ج ٣ ص ٤٤) .

(١٥٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣ ، المالكي ، ج ١ ص ١٧ ، الاستقصا ، طبعة الدار البيضاء ، ص ٣٤ ، ٦٨ (سنة وثلاثة أشهر) .

(١٥٦) أنظر فيما سبق ، ص ١٥٠ هامش ٨٧ .

يمكن أن نستنتج أن هذه التواريخ صحيحة جميعها • فيكون خروج عبد الله ابن سعد من مصر قد حدث في أواخر سنة ٢٧ هـ ، واستغرقت الحملة سنة ٢٨ هـ في افريقية(١٥٧) ، وعادت في أوائل سنة ٢٩ هـ •

وتقول بعض الروايات ان مسألة المغانم والخمس سببت سخطا في جيش سبيطلة العربي على عبد الله بن سعد ، فطالب الناس بعزله عـــن قيادتهم ، واستجاب لهم عثمان بن عفان • والظاهر أن عزل عثمان لابن سعد عن قيادة الجيش الافريقي تعني عزله عن امرة افريقية ، وبقاء مصر وحدها له • فبعد عودته الى مصر آلت قيادة قوات افريقية الى عبد الله بن نافع بن عبد القيس أخي عقبة بن نافع • هذا ما يفهم من رواية لابن الاثير — رغم ما يحيط بها من الغموض الذي يثير الشك في أصالتها ، اذ ترد بصدد التفكير في غزو الاندلس من جهة البحر ، على أيام عثمان (١٥٨) • ونحن نعتقد أن عقبة بن نافع بقي مرابطا مع أخيه على حدود المغرب — ان لم يكن النص يقصد عقبة نفسه دون أخيه عبد الله •

موقعة ذي الصواري البحرية ، وبداية الفتنة في مصر :

استمر عبد الله بن سعد في نشاطه الحربي وخاصة ضد الروم ، الى نهاية ولايته على مصر (سنة ٣٦ هـ/٦٥٦ م)(١٥٩) • فلقد أمن حدود مصر الجنوبية بغزو بلاد النوبة (الأساود) في سنة ٣١هـ/٦٥١م ، وكانت حملة عنيفة اشترك فيها معاوية بن حديج وفقد احدى عينيه ، وانتهت الى الصلح على أن يدفع النوبة ٣٦٠ (ثلثمائة وستين) رأسا (من العبيد) في كل سنة (١٦٠) وهو الصلح الذي عرف عند بعض الكتاب باسم صلح البقط(١٦١) •

---

(١٥٧) يؤيد ذلك ما ينص عليه تاريخ خليفة بن خياط (ج ١ ص ١٣٦) من أن قدوم عبد الله بن الزبير على عثمان بالفتح كان في سنة ٢٨ هـ فعلا •

(١٥٨) أنظر ابن الأثير ، أحداث سنة ٢٦ ، ج ٣ ص ٤٥ •

(١٥٩) نلاحظ أن الدكتور مؤنس (فتح العرب للمغرب ، ص ١١٠) يتكلم عن ركود الفتوح وتوقفها عقب عودة عبد الله بن سعد بسبب الفتنة أيام عثمان • وهذا ليس بصحيح فأزمة الخلافة لم تبدأ الا على أواخر أيام عثمان ، وفي مصر بعد سنة ٣٤ هـ — بعد غزو الصواري على وجه الدقة (أنظر ابن الأثير) أحداث سنة ٣١ — ٣٤ ، ج ٣ ص ٥٧ ، وقارن ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤ • وانظر فيما بعد حيث نناقش هذا الأمر (ص ١٦٤ — ١٦٥) •

(١٦٠) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٨ •

(١٦١) أنظر مصطفى محمد مسعد ، الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ، ط القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١١٢ و هـ ٢٢ (حيث تفسير كلمة البقط في خطط المقريزي بالعهد (Pactum) أو بالضريبة العينية) •

ورغم ما تقوله رواية ابن الأثير من عزل عبد الله بن سعد عن افريقية عقب حملة سبيطلة ــ دون تحديد تاريخ ذلك ــ يذكر عريب بن سعد في مختصره أن عبد الله بن سعد قام بحملة في افريقية سنة ٣٣ هـ/٦٥٣ م ، وذلك بعد أن نقض أهلها العهد (١٦٢) . ورغم أننا لا نجد ذكرا لهذه الغزوة عند قدامى كتاب المغازي ، الا انه يمكن أن تكون هذه الغزوة جزءا من نشاط ابن سعد ضد الروم الذي سبق الغزوة البحرية المشهورة بذي الصواري . ويفهم ذلك من وصف ابن عبد الحكم لهذه الوقعة اذ يقول ان الأسطول الرومي كان يقصد الاسكندرية (١٦٣) وان ابن سعد عندما أرسى بشاطئ ذي الصواري ، أرسل نصف رجالة الأسطول سرية في البر بقيادة بسر بن أبي أرطأة(١٦٤) . ونحن نعتقد أن سرية بسر هذه كانت في اتجاه الغرب . وقرينتنا على ذلك أن بسرا كان من أبطال فتوح المغرب كما رأينا(١٦٥) ؛ كما أنه بعد انهزام الأسطول البيزنطي الذي ثارت به الأنواء والعواصف ، ألقت الريح بسفينة القيادة وفيها الامبراطور قسطنطين بن هرقل بصقلية (١٦٦) . ويؤيد ما نريد أن نذهب اليه من أن وقعة ذي الصواري كانت ناحية سواحل المغرب وليس سواحل الشام وآسيا الصغرى (١٦٧) . أنه رغم أن ابن الأثير يسجل أن الاسطول العربي كان عليه معاوية ــ وهذا ما لم يقله ابن عبد الحكم ــ وابن سعد ، فانه يقول ان سبب الغزوة هو استيلاء العرب على افريقية (١٦٨) . ولقد سجل الأستاذ حسن ابراهيم ــ دون أن يذكر مصدره للأسف ــ أن هذه الوقعة كانت في ناحية زوارة (١٦٩) ، وزوارة من مدى سواحل طرابلس

---

(١٦٣) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤ .

(١٦٣) ابن عبد الحكم ، ص ١٩١ .

(١٦٤) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٠ .

(١٦٥) أنظر فيما سبق ، ص ١٤٨ .

(١٦٦) ابن عبد الحكم ، ص ١٩١ . ابن الأثير . أحداث سنة ٣١ ــ (٣٤) ، ج ٣ ص ٥٧ .

(١٦٧) انظر محمد عبد الهادي شعيرة ، الصراع بين العرب والبيزنطيين (بالفرنسية) ، ص ١٠٢ .

(١٦٨) ابن الأثير ، أحداث سنة ٣١ ــ (٣٤) ، ج ٣ ص ٥٧ .

(١٦٩) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي والاجتماعي ، ج ١ ص ٢٦٢ (زوارة) .

الغرب غير بعيد من الحدود التونسية (١٧٠) • وكانت ذو الصوارى آخر الانتصارات التى حققها العرب على أواخر أيام عثمان ، وذلك فى سنة ٣٤هـ/ ٦٥٤ م حسب رواية ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد(١٧١) •

وتعتبر غزوة الصوارى بداية الخلل الحقيقى فى القوات العربية فى مصر ، والانتقاض على عثمان • فقد صحب عبد الله بن سعد فى هذه الوقعة محمد بن ابى حذيفة ومحمد ابن أبى بكر ، وكانا أول من تكلم « فى أمر عثمان فى هذه الغزوة وأظهرا عيبه وما غير ، وما خالف به أبا بكر وعمر ، ويقولان استعمل عبد الله بن سعد رجـــلا كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد أباح دمه . ونزل القرآن بكفره ••• »(١٧٢) • والحقيقة ان بعض الروايات الخاصة بحملة ابن سعد على سبيطلة تعبر عن عدم رضاء أبناء الصحابة من المهاجرين والأنصار عن قيادة ابن سعد لهم ، ولكن الأمر لم يتجاوز المعارضة الصامتة فى ذلك الوقت على ما نظن • أما فى غزوة الصوارى فالظاهر أن المعارضة اخذت ترفع من صوتها ، وأن الخلل بدأ يدب فى صفوف العـــرب بشكل يبشر بالقطيعة التامة وينذر باندلاع شرر الفتنة • فابن سعد رفض أن يركب ابن أبى حذيفة وابن أبى بكر فى مراكبه الرئيسية حتى « ركبا فى مركب ما معهما الا القبط ، فلقوا العدو فكانا أقل المسلمين نكاية وقتالا» ، وانتهى الأمر بأن « فسد النـــاس بقولهما ، وتكلموا ما لم يكونوا ينطقون به » (١٧٣) •

وبمقتل عثمان فى أواخر سنة ٣٥هـ/٦٥٦ م انفتحت أبواب الفتنة على مصاريعها وكان من الطبيعى أن يكون لاضطراب مركز الخلافة فى المشرق اثره على الفتوح • ففى مصر التى آلت الى على ، عزل عبد الله بن سعد بن

---

(١٧٠) عن زوارة أنظر التجانى ، ص ٢٠٧ ، ٢١٠ ، وانظر شكل ٦ ص ١٥٥ •

(١٧١) لقد أخذنا بهذه الرواية رغم ما يقوله بعض الكتاب منسوبا الى الواقدى من أن ذا الصوارى وقعت فى سنة ٣١ هـ • اذ الحقيقة أن ابن سعد كان مشغولا سنة ٣١ هـ فى حرب النوبة : أنظر ابن الأثير ، أحداث سنة ٣١ — (٣٤) ، ج ٣ ص ٥٧ م • وابن الأثير بعد أن يضعها فى سنة ٣١ هـ هى وغزوة الأساورة (وهو يقصد الأساود — أى السودان تقريبا) يتبع ذلك بتسجيل الرواية التى تقول انها حدثت فى سنة ٣٤ هـ • وأنظر ابن عذارى الذى الذى ينقل ابن الأثير أو من نقل ابن الأثير عنه (ج ١ ص ١٤) •

(١٧٢) ابن الأثير ، أحداث سنة ٣١ ، ج ٣ ص ٥٧ ، وقارن فيما سبق ص ١٤٦ •

(١٧٣) ابن الأثير . أحداث سنة ٣١ ، ج ٣ ص ٥٧ • وعن احتكار المصريين لصناعة السفن فى ذلك الوقت ، وامداد الأسطول المصرى بما يلزمه من المعدات والرجال من صعيد مصر ، انظر شعيرة ، الصراع بين العرب والبيزنطيين (بالفرنسية) ص ٩٢ — ٩٣ •

أبى سرح فى سنة ٣٦هـ/٦ – ٦٥٧م (١٧٤) ، وسار الى معاوية فى الشام حيث مات بعسقلان فى نفس هذه السنة(١٧٥) وصارت الولاية الى قيس بن عبادة الأنصارى ثم الى محمد بن أبى بكر فى السنة التالية (٣٧ هـ/٧ – ٦٥٨م)(١٧٦)، ولم تستقر الأمور فى مصر اذ اضطربت بها العثمانية بقيادة معاوية بن حديج، ونجح عمرو بن العاص بمعونته فى استعادة مصر لمعاوية ، بعد قتل محمد بن أبى بكر والتمثيل به فى سنة ٣٨ هـ/٨ – ٦٥٩م (١٧٧) . واستمرت الفتنة الى مقتل على وخلوص الأمر تماماً لمعاوية ، وعندئذ عادت الفتوح قوية من جديد فى المشرق وفى المغرب على السواء . والحقيقة ان معاوية ترك أمور المشرق لولاة العراق ووالى البصرة بصفة خاصة بينما اهتم هو بأمر المغرب والحرب مع بيزنطة ، بعد أن كان قد هادن ملك القسطنطينية – أثناء الفتنة – واشترى سكوته عنه بالمال .

ب – معاوية بن حديج واللقاء الثانى بين العرب والروم :

مع أن عمرو بن العاص عاد الى ولاية مصر من سنة ٣٨ هـ/٦٥٨ م الى سنة ٤٤هـ / ٦٦٤م ، فلايذكر الكتاب له نشاطا ما فى المغرب خلال هذه الفترة ، وعمرو كما نعرف رجل حرب أولا وقبل كل شىء ، حتى أنه كان يقول « ما كنت بشىء أتجر منى بالحرب »(١٧٨) . ولقد فسر مؤنس قلة نشاط عمرو بكبر سنه ، وانشغاله بأمور المشرق ، وعداء معاوية وخشيته من نشاط ما يقوم به عمرو فى افريقية(١٧٩) . ونحن نرى أنه منذ غزوة عبد الله بن سعد فى افريقية أصبحت الخلافة تهتم مباشرة بأمر هذه البلاد ، بمعنى أن سلطات والى مصر لم تعد مطلقة على الجيش الافريقى . هذا ما يفهم من رواية ابن الأثير التى أشرنا اليها والتى تقول ان عثمان بن عفان عزل عبد الله بن سعد عن افريقية ، وترك فى عمله عبد الله بن نافع بن عبد القيس (١٨٠) . والظاهر

---

(١٧٤) ابن عذارى ج ١ ص ١٥ .

(١٧٥) ابن الأثير ، أحداث سنة ٣٦ ، ج ٣ ص ٢٤٥ ، وقارن البخارى ، كتاب التاريخ الكبير ط . حيدر آباد الدكن ، ١٣٦١ هـ ، ج ٣ قسم ١ (حيث النص على أنه مات بالرملة فارا من الفتنة) .

(١٧٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥ .

(١٧٧) الكندى ، الولاة والقضاة ص ٢٩ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥ .

(١٧٨) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٠ .

(١٧٩) فتح المغرب ، ص ١١١ .

(١٨٠) أنظر فيما سبق ص ١٦٢ وهامش ١٥٨ .

أن الأمر ظل هكذا أيام ولاية عمرو الثانية اذ أن الكتاب يشيرون الى غزوات قام بها العرب فى المغرب خلال تلك الفترة ، ولكنها تنسب الى غير عمرو . وأشهر أبطال الغزو بعد عبد الله بن سعد هو معاوية بن حديج السكونى(١٨١)، الذى ساعد عمرو بن العاص على استعادة مصر سنة ٣٨ هـ ، والذى يقال انه ولى امرة مصر بعد عبد الله بن عمرو أو بعد غزو افريقية فى سنة ٤٧ هـ/ ٦٦٧م (١٨٢) . أما عن تاريخ غزوته الكبيرة فى افريقية فيجعله ابن عبدالحكم، وعنه ينقل المتأخرون ، فى سنة ٣٤ هـ/٦٥٤ - ٦٥٥ م على أيام عثمان(١٨٣) . ولقد شك ابن عبد الحكم فى صحة هذا التاريخ فقال عن غزوة ٣٤ هـ هذه انها غزوة لا يعرفها كثير من الناس ، ثم ذكر أن لابن حديج غزوتين أخريين فى افريقية فى سنة ٤١ هـ/٦٦١ م ، وفى سنة ٥٠ هـ/٦٧٠ م(١٨٤) ورغم أن ابن عذارى يقول ان ابن حديج غزا افريقية ثلاث مرات أولها فى سنة ٣٤هـ الا أنه يجعل الثانية فى سنة ٤١ هـ/٦٥١ م ، والثالثة وهى الغزوة الكبرى فى سنة ٤٥/٦٦٥ م ، وهو التاريخ الذى أخذ به خليفة بن خياط ثم الرقيق وابن خلدون (١٨٥) .

وهكذا نجد أمامنا مشكلة تعدد التواريخ ، وهذه الظاهرة تلاحظ أيضا عندما يتعلق الأمر بالأحداث الكبرى مثل فتح مصر ووقعة القادسية أو اليرموك . ونحن نعتقد فى وجود أساس من الصحه لهذه التواريخ جميعا وفى عدم اصطناعها . وذلك أنه ينبغى التفرقة بين الرواية التاريخية وتحديد التاريخ :

---

(١٨١) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٣ (يلقبه بالكندى) ، وقارن النويرى الذى يسميه بابن خديج بالخاء وليس بالحاء (المخطوط ، ص ٦٦ ب) ويلقبه بالكندى ، وكذلك ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٨ ولكنه يلقبه بالسكونى .

(١٨٢) انظر البلاذرى ، ص ٢٢٨ (ولى بعد عبد الله بن عمرو لمدة ٤ سنين) ، ابن عذارى ، ج ١ ص١٨ (وليها بعد غزو افريقيه وذلك فى سنة ٤٧ هـ) ، وانظر فيما بعد فى أول الفصل الخاص بعقبة بن نافع .

(١٨٣) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٣ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤ .

(١٨٤) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٤ . المالكى (عن ابن أبى العرب) ج ١ ص ١٨ - ٢٩ . وانظر تاريخ خليفة بن خياط ، ج ١ ص ١٩٦ - ١٩٧ (حيث يجعل معاوية بن حديج فى المغرب سنة ٥٠ هـ ، وذلك بعد كلامه عن بناء عقبة للقيروان فى نفس السنة) .

(١٨٥) انظر هذه التواريخ فى [illegible] المغرب ، ص ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ على التوالى وتاريخ خليفة بن خياط ، ج ١ ص ١٩٣ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٠٨ ، وابن أبى دينار (المؤنس فى أخبار افريقية وتونس ، ص ٣٤) الذى يذكر اختلاف المؤرخين فى هذا الصدد .

فالاصطناع شائع في الأولى بغرض خدمة شخص لذاته أو الترويج لفكرة معينة ، وهذا ما لا يرجى من اصطناع التوقيت أو التحديد الزمني الا في مجال ضيق ، وكذلك الامر بالنسبة لخطأ النساخ . وتعدد التواريخ هنا يعني أحداثا متوالية وتلك طبيعة الحرب التي تعلق بسيرها مصير أقاليم شاسعة وأمم متعددة . وحرب المغرب في تلك المرحلة كانت أشبه ما تكون بالغزوات السنوية المعروفة بالصوائف ، وهي حرب الثغور ، مما يخشى معه أن تكون أحداث الحملات المختلفة قد اختلطت وتداخل بعضها في بعض ، أو أن تكون قد جمعت كلها في غزة واحدة . وبناء على ذلك وللتوفيق بين هذه التواريخ المتعددة ، نأخذ بما قاله ابن عبد الحكم من أن حملة ابن حديج الأولى في سنة ٣٤ هـ كانت حملة صغيرة أي « صائفة من تلك الصوائف . ولهذا السبب لم يعرفها كثير من الناس ؛ وربما كان مقتل معبد بن العباس في افريقية سنة ٣٥ هـ (١٨٦) أثناءها . أما عن حملتي سنة ٤٠ هـ وسنة ٤١ هـ فنرى أنهما حملة واحدة ، اذ يجوز أن تكون قد بدأت في أواخر السنة الاولى وانتهت في بداية الثانية . ونظرا لان هذا الوقت يعني بداية استقرار أمور الدولة لمعاوية ، فليس من المحتمل أن تكون غزوة ابن حديج الكبرى قد وقعت فيه . وعلى ذلك يحق لنا أن نأخذ بالتاريخ الذي حدده خليفة بن خياط ثم الرقيق والذي أخذ به ابن عذاري والمالكي لتحديد وقت هذه الحملة ، وهو سنة ٤٥هـ / ٦٦٥م (١٨٧) ، وذلك بعد وفاة عمرو بن العاص .

أما عن الدوافع التي أدت الى قيام ابن حديج بحملته على افريقية فهي، كما ترد عند الطبري والرقيق (كما ينقله ابن عذاري) وابن الأثير ومن ينقل عنهم ، وثيقة الصلة بحملة عبد الله بن سعد ــ مثلها في ذلك مثل وقعة الصواري . فيفهم من تلك الرواية أن ملك الروم هالته الضريبة العظيمة التي دفعها أهل افريقية للعرب ــ فأرسل الى أهلها قائدا (بطريقا) « وأمره أن يأخذ منهم مثل ما أخذ المسلمون ، فنزل البطريق قرطاجنة ، وجمع أهل

---

(١٨٦) ابن الأثير ، حوادث سنة ٣٥ ، ج ٣ ص ٩٩ .

(١٨٧) تاريخ خليفة بن خياط ، ج ١ ص ١٩٢ ، ابن عذاري ج ١ ص ١٦ ــ ١٧ ، المالكي ج ١ ص ١٧ . ونشير هنا الى ان النص الذي نشره بروفنسال لأحد معاصري ابن عذاري ، وهو عبد الله بن صالح بن عبد الحليم ، لا يذكر لمعاوية بن حديج حملات في المغرب . ولا يذكر له الا غزوة في صقلية ، ولكنه يبين أن معاوية ولاه افريقية بعد عام الجماعة (سنة ٤٠هـ) ــ انظر صحيفة المعهد المصري في مدريد ، سنة ١٩٥٤ (ص ٢٠٢ عن شخصية صاحب النص ، ص ٢١٨ عن ابن حديج) .

افريقية وأخبرهم بما أمره الملك ٠٠ »(١٨٨) ٠ ورفض أهل افريقية أن يجيبوا الملك ـ كما تقول الرواية ـ وقالوا : « نحن نؤدى ماكان يؤخذ منا وقد كان ينبغي له أن يسامحنا لما ناله المسلمون منا » (١٨٩) ٠ وترتب على ذلك اضطراب افريقية واشتعال نيران الفتنة بها ، مما دعا بعض قوادها الى الاستنجاد بالعرب ٠ ومع أن ابن عبد الحكم والبلاذري لا يشيران الى هذا الأمر فان مسألة الحاح الدولة البيزنطية في زيادة الضريبة على أهل الولاية بعد ما أخذه العرب منها معقولة ، وكذلك مسألة استنجاد أهل البلاد في صراعهم الداخلي بالعرب مقبولة هي الأخرى ، كما سيحدث في فتح الاندلس عندما اتخذ أبناء الملك القوطي غيطشة جانب العرب ضد المغتصب لذريق(١٩٠) أما ما يؤخذ على هذه الرواية ، فهو تحديدها زمن عودة الروم الى افريقية ومطالبتهم بالأموال عقب انسحاب ابن سعد مباشرة ٠ ونعتقد أن هذا غير صحيح : فابن عذارى ينص على أن أهل افريقية نقضوا العهد سنة ٣٣ هـ/٦٥٣ ـ ٦٥٤ م(١٩١) ، وابن الأثير يجعل حملة ابن حديج تحت عنوان « ذكر انتقاض افريقية وفتحها ثانية » (١٩٢) ٠

ولما كانت الروايات تقول ان ابن حديج له حملة في سنة ٣٤ هـ/٦٥٤ ـ ٦٥٥ م ، كان ذلك اثباتا للتاريخ الذى يحدده ابن عذارى ٠ والمعقول فعلا أن يكون الروم قد عادوا الى افريقية على أواخر أيام عثمان ، في الوقت الذى دبروا فيه حملة ذى الصوارى بقصد مفاجأة الاسكندرية ، وربما كانوا على علم بأزمة الخلافة واضطراب المشرق العربي في ذلك الوقت(١٩٣) ٠

بناء على ما تقدم تكون افريقية قد بقيت منقطعة عن الروم وفية بالعهد للعرب الى سنة ٣٣ هـ ٠ فبعد مقتل جرجير قام بأمر الولاية أحد القواد الذى يطلق عليه اسم حباحبه أو جناحه (١٩٤) ، وهو تحريف لاسم جناديه أو

---

(١٨٨) ابن الأثير ، أحداث سنة ٢٦ ، ج ٣ ص ٤٥ ، الطبرى (ذخائر العرب) ، سنة ٢٧ ج ٤ ص ٢٥٦ ٠

(١٨٩) نفس المصدر ٠

(١٩٠) أنظر ليفي بروفنسال ، تاريخ اسبانيا الاسلامية (بالفرنسية) ص ١٥ وهامش ١

(١٩١) البيان المغرب ، ج ١ ص ١٤ ٠

(١٩٢) ابن الأثير ، سنة ٢٦ ، ج ٣ ص ٤٤ ٠

(١٩٣) قارن مؤنس ، ص ١١٢ (الذى يذكر نقلا عن ديل (Diehl) ان الدولة البيزنطية لو كانت على شيء من القوة لاستعادت افريقية بسهولة) ٠

(١٩٤) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦ ـ ١٧ (حباحبة) ، النويرى ، ص ٦٧ (جناحة) ٠

جناديوس (Gennadius) (١٩٥) ، الذى ظل قابضا على ناصية الأمور الى أن تهيأت الفرصة لملك الروم فأرسل الى افريقية قائدا من لدنه يسميه الرقيق أوليمه (١٩٦) . وربما كان تحريفا لاسم « الوتيرة (Eluthère) (١٩٧) ·
والظاهر أن بعض أهل البلاد انضم الى جانب هذا الاخير ، فقام صراع بين القائدين وأتباعهما انتهى بانهزام أوليمة وطرده من البلاد(١٩٨) ، ولكن الأمور لم تستقر لجناديوس اذ قام ضده قائد يسميه الرقيق الاطريون (١٩٩) ·
ولما وجد جناديوس أنه لا يستطيع الصمود أمام خصومه ، لجأ الى الاستنجاد بالعرب ، فسار الى معاوية بالشام وشرح له أحوال افريقية وعظم له خيراتها وسهل له أمر فتحها · وقرر معاوية أن يسير حملة الى افريقية وعهد بقيادتها الى معاوية بن حديج · والظاهر أن معاوية سير قوات أهل الشام مع القائد الرومي نحو مصر ، كما يفهم من ابن الأثير الذى يقول ان معاوية سير مع الرومي معاوية بن حديج (٢٠٠) · وربما اتخذ ابن حديج الاسكندرية قاعدة لتعبئة قواته واعداد عدته ، فذلك ما يمكن أن يفهم من رواية الطبرى التى ينقلها ابن عذارى ، والتى تقول ان ابن حديج سار الى الاسكندرية فاستعمل عليها القائد الرومي جناديوس (٢٠١) · والاقرب الى الصحة أن يكون جناديوس مات فى الاسكندرية كما يقول ابن الأثير (٢٠٢) ·

وخرج ابن حديج من الاسكندرية بجيشه الذى بلغ عشرة آلاف رجل(٢٠٣)، وبصحبته عدد من المهاجرين والأنصار من أبنائهم ممن كانت لهم خبرة بالحرب فى افريقية · ومع أن ابن عبد الحكم لا يذكر من هؤلاء الا عبد الملك بن مروان، وسليمان بن يسار الذى تنسب اليه بعض الروايات عن الحملة ، وجبلة بن

---

(١٩٥) أنظر جورج مارسيه Le Berbérie et l'Orient. p. 30.
(١٩٦) ابن عذارى (ينقل الرقيق) ج ١ ص ١٧ ، النويرى المخطوط ، ص ٦٦ ب ·
(١٩٧) أنظر جورج مارسيه G. Marçais, Le Berbérie et l'Orient., p. 30
(١٩٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧ ·
(١٩٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧ ، وقارن النويرى ، المخطوط ، ص ٦٧ أ (الاطريون أو الاطيلون) وربما كان المقصود أريطيون (Aretion) مثل حاكم بيت المقدس عند الفتح العربي ، أنظر الباز العرينى ، مصر البيزنطية ، ص ٤٠٧ ·
(٢٠٠) ابن الأثير ، سنة ٢٦ ، ج ٣ ص ٤٥ ، النويرى ، المخطوط ، ص ٦٧ أ ·
(٢٠١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦ ·
(٢٠٢) ابن الأثير ، أحداث سنة ٢٦ ، ج ٣ ص ٤٥ ، النويرى ، المخطوط ، ص ٦٧ أ ·
(٢٠٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦ ·

عمرو الأنصارى (٢٠٤) ، فاننا نجد أيضا عند غيره من المتأخرين ذكرا لعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، ويحيى بن الحكم(٢٠٥) ، وحنش الصنعانى (٢٠٦) والأكدر بن حمام اللخمى ، وكريب بن أبرهة بن الصباح ، وخالد بن ثابت الثقفى ، وأشارف من جند مصر(٢٠٧) ·

ونحن نشك فى أن يكون ابن عمر وابن الزبير بصفة خاصة قد اشتركا فى هذه الغزوة اذ لم يذكرهما ابن عبد الحكم ، وربما كانت قصة اشتراكهما فيها من صنع الزبيريين ، وربما كانت صدى من أصداء « غزوة العبادلة » · حقيقة أن معاوية كان يرغم ابن الزبير وابن عمر وابن عباس على الاشتراك فى بعض غزواته ، كما حدث عندما سيرهم مع ابنه يزيد لغزو القسطنطينية سنة ٤٩هـ/٦٦٩م (٢٠٨) ،ولكنه يظن أنه فعل ذلك عندما استشعر خطرهم عليه ، وعندما كانت الحملات قريبة من رقابته · فبعد الفتنة استقر عظماء أبناء المهاجرين والأنصار هؤلاء فى الحجاز يتربصون بالأمويين ، ويحاولون استرجاع ما كان لهم ولمدينة الرسول من سلطان مفقود ، بينما كانت العصبية — وهى أبرز ما تكون فى الجيش — لبنى أمية وانصارهم من أهل الشام · هذا ما يحدونا الى الشك فى مشاركتهم فى تلك الغزوة ·

ومهما يكن من أمر فقد سار ابن حديج بقواته عبر برقة وطرابلس . ولا شك فى أن سلطان العرب كان قد توطد فيهما اذ لا تذكر النصوص عمليات عسكرية هناك · ونعتقد أن الحامية العربية التى كانت مرابطة فى برقة وعلى رأسها ابنا نافع بن عبد القيس الفهرى ، عقبة وعبد الله ، انضمت الى ابن حديج الذى استفاد من خبرة رجالها ومعرفتهم بطبيعة الحروب فى تلك الاقاليم (٢٠٩) — كما حدث فى حملة سبيطلة · وانتهى المطاف الى قرب الموضع الذى نزل فيه عبد الله بن سعد (سنة ٢٨ هـ) فى منطقة قمونية .

---

(٢٠٤) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٣ · وقارن تاريخ خليفة بن خياط ، ج ١ ص ١٩٦ . (حيث الاشارة الى أن معاوية هو الذى أمر مروان بن الحكم بتسيير ابنه عبد الملك على بعث المدينة الى بلاد المغرب ، وان كان يجعل ذلك فى سنة ٥٠ هـ) ·

(٢٠٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٠ ، وقارن المالكى ، ص ١٨ ، النويرى ، المخطوط ، ص ٦٧ أ ·

(٢٠٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨ ·

(٢٠٧) أنظر المالكى ، ج ١ ص ١٨ ، النويرى ، المخطوط ، ص ٦٧ أ ·

(٢٠٨) أنظر ابن الأثير ، أحداث سنة ٤٩ ، ج ٣ ص ٢٣١ ·

(٢٠٩) أنظر فيما بعد ص ١٧٦ (عن غزوات عقبة فى صحراوات طرابلس وافريقية) ·

غربيها(٢١٠) . وحينما وصل ابن حديج كان الاضطراب في افريقية قد بلغ أوجه كما تقول النصوص (٢١١) .

وتذكر الروايات أن الأسطول البيزنطي كان قد أنزل حملة بقيادة أحد البطارقة واسمه نقفور (Néciphore) في الساحل (٢١٢) ، وهي المنطقة الواقعة فيما بين سفاقس وسوسة - وسميت بالساحل لكثافة غابات الزيتون فيها ، التي ترى من داخل البلاد وكان سوادها ساحل البحر (٢١٣) . ونحن لا نعرف ان كانت نقفور قد وصلت الى الساحل قبل أو بعد وصول ابن حديج، وربما كان الأقرب الى الصحة أنها أرسيت عقب وصوله . يفهم ذلك من الروايات التي تقول أن ابن حديج بدأ باتخاذ معسكر له في موضع القيروان الى جانب جبل القرن (٢١٤) وان معاوية بن حديج هو الذي أعطى للجبل هذا الاسم عندما قال لأصحابه : « اذهبوا بنا الى هذا القرن » ، كما عرف هذا الجبل باسم ممطور أيضا : لهطول الأمطار عليه عندما بلغه ابن حديج(٢١٥) .

وبعد أن استقر معاوية في معسكره أخذ يوجه السرايا ، وتمكن من فتح عدد من الحصون كما حصل على غنائم عظيمة (٢١٦) . وبناء على ذلك فالظاهر ان الأسطول البيزنطي كان يقصد مهاجمة المعسكر العربي عندما نزل منطقة الساحل في سوسة ، اذ المعروف أن سوسة هي ميناء القيروان (٢١٧) . ونعتقد أن الروايات العربية تبالغ عندما تقول ان جيش نقفور كان يبلغ ٣٠ (ثلاثين) الف مقاتل ، وذلك أن معاوية بن حديج لم يتكلف مشقة المسير بنفسه للقاء

---

(٢١٠) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٣ (الكلمة هنا في شكل قونية لم يصححها الناشر) .
ابن الأثير ، احداث سنة ٢٦ ، ج ١ ص ٤٥ ، النويري ، المخطوط ، ص ٦٧ أ .

(٢١١) ابن الأثير ، أحداث سنة ٢٦ ج ١ ص ٤٥ (كانت نارا تضطرم) ، النويري ، ص ٦٧ أ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦ (كانت حربا كلها) .

(٢١٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦ (نقفور هنـــا مكتوبة في شكل نجفور ، وكذلك في النويري المخطوط ، ص ٦٧ ب .

(٢١٣) أنظر التجاني ، ص ٦٦ .

(٢١٤) ابن عبد الحكم ، ١٩٣ .

(٢١٥) خليفة بن خياط ، ج ١ ص ١٩٢ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ١٥ ، النويري ، المخطوط ، ص ٦٧ .

(٢١٦) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٣ .

(٢١٧) أنظر ابن جوقلي ، ص ٧٤ (وهي من القيروان على مرحلة) ، وأنظر البكري ، ص ٣٢ (على بعد ٣٤ ميلا من القيروان) ، وقارن النويري ، ص ٦٧ أ الذي يقول ان نقفور نزل على ساحل البحر بسنطبرية .

تلك القوة الكبيرة بل أرسل اليها بعض قواته • وما أن رأى الروم القوة العربية حتى انهزموا الى مراكبهم دون قتال(٢١٨) • وهنـــاك روايات تنسب فخر هذا الانتصار الى عبد الله بن الزبير ، وتجعل منه بطلا أسطوريا كما كان في فتح سبيطلة • فلقد خرج ابن الزبير من معسكر ابن حديج في جيش كثيف وسار في اتجاه سوسة ،ونزل في موضع أستراتيجي مرتفع على بعد ١٢ (أثني عشر) ميلا يشرف منه على المدينة • وبعد أن انهزم نقفور ورجاله في المراكب نزل ابن الزبير بأصحابه على الشاطيء أمام باب سوسة ومع أن العدو كان بمرأى منه فانه أقبل على الصلاة مع أصحابه والروم يتعجبون من هذه الجرأة • وعندما فكروا في اغتنام الفرصة ، « فاخرجوا اليه جمعا منهم كثيرا من كماتهم رجالا وركبانا » ، ظل البطل مقبلا على صلاته لا يهوله أمر العدو حتى قضى الصلاة ثم ركب وحمل على الروم بمن معـه فانكشفوا منهزمين (٢١٩) •

وأتبع ابن حديج ذلك النصر بتحقيق انتصار آخر فاستولى على قلعة جلولاء الحصينة ، على مسيرة ٢٤ (أربعة وعشرين) ميلا من القيروان (٢٢٠)• ولقد ضرب ابن حديج الحصار على الحصن البيزنطي الذى يعتبر من أهم حصون خط الدفاع الثاني لولاية افريقية (٢٢١) دون طائل ، واستمر القتال مدة ، ولحق برجال ابن حديج كثير من الخسائر « فقد جرح عامة أصحابه ، وقتل منهم » (٢٢٢) • وبعد لأى سقطت جلولاء وحصل ابن حديج منها على كثير من الغنيمة والسبى(٢٢٣) • وتجعل الروايات العربيـــة لسقوط جلولاء قصة ينسـج الخيال كثيرا من خيوطها • وبطل القصة هو عبد الملك بن مروان (الخليفة فيما بعد) ، أما تفصيلاتها فمزيج قريب الشبه من وقائع بابليون وطرابلس وسبيطلة • فعبد الملك خرج الى جلولاء في ألف رجل فلم يصنع شيئا ، وعند عودته تهدم جزء من سور الحصن فأثار غبارا شديدا ، فظن

---

(٢١٨) ابن الأثير ، سنة ٢٦ ، ج ٣ ص ٤٥ •

(٢١٩) انظر البكري ، ص ٣٤ – ٣٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦ ، التجاني ، الرحلة ، ص ٢٧ •

(٢٢٠) عن جلولاء انظر البكري ، ص ٣١ •

(٢٢١) أنظر ج • مرسيه ، ص ٣١ ، جوليان ، Hist. de l'Afrique du Nord, p. 319.

(٢٢٢) انظر ابن عبد الحكم ، ص ١٩٣ •

(٢٢٣) نفس المصدر •

عبد الملك أو العدو يتعقبهم فكر مع جماعة من أصحابه فرأى الحائط قد وقع ، فدخل المدينة بغير خيل ولا رجال (٢٢٤) .

وكان من الطبيعي أن يحصل ابن حديج ، الذي استقر في معسكرمواخذ يوجه سراياه نحو سوسه وجلولاء ، على مغانم كثيرة . والحقيقة ان بعض الروايات تقول انه وجه سراياه كذلك في اتجاه بنزرت (٢٢٥) ، كما تقول رواية انه تم فتح جزيرة جربة في ذلك الوقت ، على يدى الصحابى رويفع بن ثابت الانصارى (دفين برقة) ، الذى ولاه ابن حديج طرابلس سنة ٤٦ هـ فقام بغزوته هذه سنة ٤٧ هـ/٦٦٧ م(٢٢٦) ، كما سير حملة الى صقلية (٢٢٧) حيث أقام المسلمون شهرا بقيادة عبد الله بن قيس ، « وعادوا الى افريقية بغنائم كثيرة ورقيق وأصنام منظومة بالجوهر »(٢٢٨) وقسمت الغنيمة وأخرج الخمس للخليفة ، ووزعت الاخماس الاربعة على الرجال فأصاب الراجل ٢٠٠ (مائتى) دينار ، وكان نصيب الفارس ٦٠٠ (ستمائة) دينار بحساب أن للفرس سهمين ، هذا ولو أن النصوص تجعل ذلك من غنيمة جلولاء وحدها (٢٢٩) . وكانت غنائم حملة جلولاء ـ مثلها مثل مغانم سبيطلة ـ سببا فى منازعات فى المعسكر ، اذ أراد أفراد السرية التى فتحتها أن تكون غنيمتها وسبيها لهم وحدهم دون بقية المعسكر ، حتى أن ابن حديج اضطر الى مخاطبة الخليفة فى

[illegible]

(٢٢٤) أنظر ابن عبدالحكم ، ص ١٩٣ ، خليفة بن خياط ، ج ١ ص ١٩٦ ، البكرى ، ص ٣٢ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧ ، المالكى ، ج ١ ص ١٨ ، النويرى ، ص ٦٧ ب . وهنا تقول الرواية أن ابن حديج كان يقاتلهم أثناء النهـار ثم ينصرف الى عسكره (قارن سبيطلة) ، وان اكتشاف تهدم السور كان مصادفة ، اذ نسى عبد الملك قوسا له معلقا فى شجرى قرب الحصن فلما عاد ليأخذه وجد جانب السور قد انهدم .

(٢٢٥) المالكي ، ج ١ ص ١٩ (تقول رواية المالكى ان حملة بنزرت وقعت فى سنة ٥٠ هـ ، وربما كان هنا موضعه الصحيح) .

(٢٢٦) أنظر التجاني ، الرحلة ، ص ١٢٤ ، وقارن تاريخ خليفة بن خياط ، ج ١ ص ١٩٣ (حيث ذكر غزو رويفع لأطرابلس ودخوله افريقية ثم انصرافه فى نفس سنة ٤٧ هـ) . (وعن رويفع وقبره فى برقة أنظر البكرى ، ص ٥ . المسالكى ، ج ١ ص ٥٣ ، والعياشى ، الرحلة ، مخطوط طرابلس ، ج ١ ص ٨١) .

(٢٢٧) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦ ـ ١٧ (حيث ينقل ابن عذارى هنا عن مختصر عريب للطبرى) و ص ١٨ (حيث يجعل تلك الغزوة وحدها فى سنة ٤٦ هـ وذلك نقلا عن البلاذرى) . قارن مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٢٦ (حيث يرجح أن يكون المقصود سنة ٣٦ هـ) .

(٢٢٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧ ، النويرى ، المخطوط ، ص ٦٨ أ .

(٢٢٩) أنظر ابن عبد الحكم ، ص ١٩٣ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦ (٢٠٠ مثقال) .

ذلك ، فرد معاوية بن أبي سفيان : ان العسكر رده للسرية » (٢٣٠) والظاهر أن ابن حديج أراد أن يسترضي رجاله فجعل لهم نصيبا أكثر مما يستحقون اذ نفلهم « النصف بعد الخمس » . ونظن أن المقصود بذلك أنه وهبهم نصف الخمس المخصص للخلافة . ورضي الناس بذلك ومن جملتهم بعض الصحابة الا جبلة بن عمرو الأنصاري الذي أبي (٢٣١) .

وهكذا انتهت حملة معاوية بن حديج بطرد القوات البيزنطية من ساحل سوسة وسقوط أهم حصون الدفاع الثاني في افريقية وهو حصن جلولاء . ونشر ابن حديج سراياه في البلاد «فسكن الناس وأطاعوا وعاد الى مصر »(٢٣٢) محملا بالمغانم والسبي . ويقدر ابن الأثير أعمال ابن حديج في افريقية تقديرا عظيما يعبر عن أنه أقر « السلام العربي » في البلاد ، فيقول : « ثم لم يزل أهل افريقية من أطوع أهل البلدان وأسمعهم الى زمان هشام بن عبدالملك ... » (٢٣٣) . ومع أن مقالة ابن الأثير هذه تحوي في ثناياها كثيرا من المبالغة ـ كما سنرى فيما بعد ـ اذ أن ابن حديج رجع ولم يترك واليا ولا حامية عربية في افريقية ، بل ولم يعقد اتفاقا ما مع أهل البلاد ، تماما كما فعل عبد الله ابن سعد بن أبي سرح (٢٣٤) . فانها تعبر عن أهمية هذه الحملة . وتتلخص تلك الأهمية في أن بلاد افريقية أصبحت أرضا مألوفة بالنسبة للعرب ولم تعد أرضا مخوفة « غادرة مغدور بها » كما كان الحال من قبل . وأكثر من هذا فانها أصبحت بالنسبة للعرب أرض المغانم والأسلاب والسبي ، أرض أكوام الورق وقناطير الذهب والسبايا الجميلات ، التي ينبغي أن تكون جمعا من أقصاها الى أقصاها ـ وليس أطرافها الشرقية فقط ـ أرض العروبة والاسلام . وهذا ما سيقع على عاتق رجال جديرين بالقيام بمثل هذه الأعمال الجليلة ، من أهل الحرب والادارة . وأول هؤلاء وأشهرهم هو عقبة بن نافع الفهري .

---

(٢٣٠) ابن عبد الحكم . ص ١٩٢ .

(٢٣١) انظر نفس المصدر .

(٢٣٢) ابن الأثير . أحداث سنة ٣٦ . ج ٣ ص ٤٥ .

(٢٣٣) نفس المصدر .

(٢٣٤) انظر فيما سبق ص ١٦١ وهامش ١٥٠ . ص ١٦٨ و هـ ١٨٩ .

الفصل الثاني

الاستقرار والفتح الدائم

(٥٠ - ٩٥هـ / ٦٧٠ - ٧١٣م)

عقبة بن نافع

المرابط الأول في المغرب :

رجع معاوية بن حديج الى مصر سنة ٤٧ هـ/٦٦٧ م على ما نظن : فرغم أن أحداً من الكتاب لا يشير الى تاريخ عودته فهناك رواية تقول أن معاوية بن أبي سفيان ولاه مصر في تلك السنة (١) . ومع أن هذا ليس بصحيح اذ أن الذي ولي مصر في سنة ٤٧ هـ هو مسلمة بن مخلد (٢) ، فنحن نرى أن تلك الرواية تعني نجاح حملة ابن حديج على افريقية ، وأن فكرة ولايته مصر في تلك السنة تعني مكافأته أو تقدير الخليفة لذلك النجاح . وهكذا اذا تركنا النص جانبا أمكننا الاستفادة من التاريخ كتوقيت لعودة ابن حديج من افريقية (٣) . ورغم النجاح الذي حققه العرب في المغرب حتى ذلك الحين ، فان العمليات الحربية التي قاموا بها لم تكن سوى غارات بعيدة المدى ، الهدف منها الاستكشاف والحصول على المغانم والسبي ، الى جانب العمل على نشر الاسلام وطلب الاستشهاد . أما عن الحملة التالية التي قادها عقبة بن نافع فكانت لها نتائج مختلفة ، وذلك أن عقبة رسم لنفسه برنامجا للعمل يرمي الى تحقيق أهداف أبعد من كل أهداف سابقيه . وتتلخص خطته

---

(١) أنظر ابن الأثير ، أحداث سنة ٤٧ ، ج ٣ ص ٢٢٠ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨ .

(٢) رواية الكندي هي أوثق الروايات فيما يتعلق بالحوليات المصرية (أنظر الولاة والقضاة ص ٣٨) .

(٣) قارن مؤنس ، ص ١٣٧ ، الذي يفترض أن عقبة بدأ غزو افريقية سنة ٤٩ هـ ، فيكون ابن حديج قد رجع الى مصر في أوائل سنة ٤٨ هـ .

دولا في تثبيت أقدام العرب في المغرب سوعدا وسيلة من أجل تحقيق الهدف الثاني — وهو غايه — وهو نشر الاسلام والا يعبد في الارض سوى الله • وهكذا يظهر عقبة بن نافع بمظهر المجاهد العربي النموذجي : فهو المحارب العابد ، والحرب هي الجهاد الأصغر والعبادة هي الجهاد الأكبر — جهاد النفس •

وكان اختيار معاوية بن أبي سفيان لعقبة بن نافع لولاية حرب افريقية وضعا للشيء في موضعه الصحيح • فعقبة من أوائل جند افريقية اذ دخل برقة مع عمرو بن العاص سنة ٢٣ هـ/٤٣ — ٦٤٤ م وظل مرابطا هناك منذ ذلك الوقت • وخلال اقامته التي بلغت حوالي ربع قرن من الزمان في هذا الثغر ، كان عقبة بن نافع دائب الجد والاجتهاد في العمل على توطيد قواعد العروبة والاسلام • والحقيقة أنه ينسب الى عقبة القيام بكثير من الفتوحات والغزوات ، كما تجعل الروايات منه بطلا أسطوريا في بعض الأحيان ، وقطبا عارفا في بعض الأحيان ، فهو « عقبة المستجاب » •

١ — غزوات عقبة في صحراوات طرابلس وافريقية :

دخل عقبة المغرب مع ابن خالته عمرو(٤) ، وكان في ذلك الوقت في بداية مراحل الشباب ، في حدود الرابعة عشرة من عمره(٥) • ولهذا السبب رأينا أنه ربما كان في صحبة والده نافع بن عبد القيس الذي سار لحرب النوبة مع عبد الله بن سعد ، وانه ربما دخل برقة عن طريق الصعيد أو الفيوم (٦) • ويتفق جميع الكتاب على أن عقبة — وهو في هذه السن المبكرة — فتح كل البلاد ما بين برقة وزويلة فأصبحت جميعا للاسلام (٧) • ولكننا نخشى أن يكون الأمر قد اختلط على الرواة فمزجوا بين أحداث هذا الوقت المبكر وما قام به عقبة فيما بعد ، وهذا مالاحظه مؤنس بصدد رواية البلاذري التي تتكلم عن تنظيم عقبة للضرائب في تلك الأقاليم (٨) • وبقي عقبة في برقة مجاهدا بعد عودة عمرو الى مصر . وعندما سار عبد الله بن سعد الى افريقية سنة ٢٧ هـ انضم اليه عقبة(٩) ، ولكننا لا نعرف الدور الذي قام به

---

(٤) أنظر ابن الأثير ، سنة ٤١ ج ٣ ص ٢١٢ . تاريخ خليفة بن خياط ، ج ١ ص ١٨٩ •

(٥) يقول ابن عذاري (ج ١ ص ١٩) أن عقبة ولد قبل وفاة الرسول بسنة واحدة •

(٦) أنظر فيما سبق (عن فتح برقة وفزان) ، ص ١٣٥ •

(٧) أنظر فيما سبق ، ص ١٣٦ •

(٨) أنظر مؤنس ، ص ١٣٤ . وفيما سبق ، ص ١٣٦ •

(٩) أنظر فيما سبق ، ص ١٥٠ •

في تلك الغزوة • وبعد عزل عبد الله بن سعد عن قيادة جند افريقية سنة ٢٩ هـ ، آلت هذه القيادة الى عبد الله بن نافع أخي عقبة (١٠) : والظاهر أن عقبة بقي مع أخيه مرابطا في افريقية ، ان لم يكن المقصود بذلك هو عقبة نفسه • ومنذ ذلك الحين والى سنة ٤١ هـ/٦٦١ م ، لا يذكر الكتاب شيئا عن عقبة ونظن أنه « كان مقيما ببرقة وزويلة منذ فتحها أيام عمر » كما تقول الرواية التي يأخذ بها ابن الاثير (١١) •

ففي سنة ٤١ هـ بعث عمرو بن العاص ـ بعد أن آلت اليه ولاية مصر من جديد ـ جيشا على رأسه عقبة لغزو لواته فهزمهم أكثر من مرة في نواحي برقة وطرابلس ، وفرض عليهم شروطا قاسية منها : « ان شئنا أقررناكم وان شئنا بعناكم » كما يفهم من رواية الكندي ، بمعنى أنهم عقدوا عهدهم هذا بعد أن نقضوا ، وهو ما ينص عليه خليفة بن خياط(١٢) • والحقيقة أن عمرو بن العاص كان قد غزا لواته في العام السابق سنة ٤٠ هـ /٦٦٠ م على يدي شريك بن سمي الغطيفي (١٣) وأتبع ذلك بغزو مزاته ، والحق بهم الهزيمة أكثر من مرة (١٤) ، ثم فتح غدامس في سنة ٤٢ هـ / ٦٦٢ م ثم غزا هوارة في سنة ٤٣/٦٦٣ م ، كما افتتح في هذه السنة كورا من كور السودان(١٥)، وانتهت هذه الغزوة في أواخر تلك السنة عندما كان عمرو مريضا مرضه الذي مات فيه (١٦) •

ورغم أن النصوص لا تشير الى عقبة بن نافع أثناء الحملة الكبيرة التي قام بها معاوية بن حديج في افريقية سنة ٤٥ هـ/٦٦٥ م نرى أن عقبة شارك في العمليات العسكرية مشاركة فعالة تشبه من وجهة النظر الاستراتيجية

---

(١٠) أنظر فيما سبق ، ص ١٦٢ وهامش ١٥٨ •

(١١) ابن الأثير ، أحداث سنة ٥٠ ، ج ٣ ص ٢٢٤ •

(١٢) الولاة والقضاة ، ص ٣٢ ، وقارن تاريخ خليفة بن خياط ، ج ١ ص ١٨٩ : حيث النص على ان عمرو بن العاص ولى عقبة بن نافع افريقية سنة ٤١ هـ وان عقبه غزا تلك السنة لوبية ومراقية لأنهم كفروا بعد الطاعة) •

(١٣) أنظر الكندي ، الولاة والقضاة ، ص ٣٢ (وينسب لشريك بن سمي أيضا غزو لبدة سنة ٤٣ هـ/٦٦٣ م) • وانظر فيما بعد ص ١٧٩ (حيث يلقب ابن عبد الحكم شريك بن سمي « بالمرادي ») •

(١٤) ابن الأثير ، أحداث سنة ٤١ ، ج ٣ ص ٢١٢ •

(١٥) نفس المصدر ، وانظر تاريخ خليفة بن خياط ، ج ١ ص ١٩٠ (حيث الاشارة الى فتح ودان بعد فتح كور السودان) •

(١٦) الكندي ، الولاة والقضاة ، ص ٣٢ ـ ٣٣ •

تلك التى قام بها مع عمرو . فكما حدث أن عمرا اتجه الى طرابلس لفتح الأقاليم الشمالية ، وسير عقبة نحو زويلة لفتح الأقاليم الجنوبية ، تذكر النصوص أن عقبة بن نافع قام بحملة كبرى فى الصحراوات الجنوبية ، فى فزان وما وراءها من الواحات ، فى سنة ٤٦هـ/٦٦٦ م فى الوقت الذى كان معاوية بن حديج يفتح الأقاليم الشمالية فى سوسة وبنزرت . ومع أن ابن عبد الحكم ومن نقل عنه مثل البكرى (١٧) ، يجعلون بدء هذه الحملة بداية لولاية عقبة لافريقية ومسيرة لبناء القيروان ، فان الأقرب الى الصحة أن تكون حملة سنة ٤٦ هـ غير حملة سنة ٥٠ هـ — التى بنيت فيها القيروان ، كما يتفق على هذا الحدث الأخير أهل الثقة من الكتاب(١٨) . والحقيقةان رواية ابن عبدالحكم كما نرى تشتمل على معلومات عن الحملتين جميعا ، وبناء على ذلك فلا داعى لتخطئه تاريخ ابن عبد الحكم ومحاولة تصحيح سنة ٤٦ هـ/٦٦٦ م بسنة ٤٩ هـ/٦٦٩ م كما فعل مؤنس (١٩) ، فطبيعة حرب الثغور كانت تتطلب القيام بحملات سنوية هى المعروفة بالصوائف — كما سبقت الاشارة .

ولا عبرة بما يشير اليه الكتاب تعميما عندما يقولون ان الأمن والهدوء عم برقة وطرابلس وان « السلام العربى » عم افريقية الى أيام هشام بن عبد الملك . فالاضطراب فى مركز الخلافة كانت له آثاره فى المغرب ، ولهذا السبب توالت الصوائف كما شهدنا فى سنة ٤٠ هـ وسنة ٤١ هـ ، وسنة ٤٢ هـ ، وسنة ٤٣ هـ ثم حملة ابن حديج سنة ٤٥ هـ . وبناء على ذلك فليس هناك ما يدعو الى عدم قبول قيام حملة عقبة بن نافع فى الصحراوات الجنوبية فى سنة ٤٦هـ/٦٦٦ م كما يقول ابن عبد الحكم ، وذلك قبل توليته قيادة الحرب فى افريقية سنة ٥٠ هـ/٦٧٠ م ، وبنائه مدينة القيروان فى تلك السنة (أو التى تليها) . وهذا الأمر الأخير هو الذى أخذ به ابن الأثير نقلا عن ثقات « أهل التاريخ من المغاربة » ، ونظن أنه يقصد ابراهيم بن القاسم الرقيق الذى ينقله ابن عذارى فى بيانه (٢٠) . وهذا يعنى اذن انه فى الوقت الذى كان معاوية بن حديج يعمل على فتح سواحل قابس وسوسة وبنزرت،

---

(١٧) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٤ ، ١٩٦ ، البكرى ، ص ١٢ ، ١٤ .

(١٨) تاريخ خليفة بن خياط ، ج ١ ص ١٩٧ ، ابن الأثير ، سنة ٥٠ ، ج ٣ ص ٢٣٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠ (سنة ٥١ هـ) ، الاستقصا ، ج ١ ص ٦٩ .

(١٩) فتح العرب للمغرب ، ص ١٣٧ .

(٢٠) أنظر ابن الأثير ، أحداث سنة ٥٠ هـ ، ج ٣ ص ٢٣٤ . وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩ .

كان عقبة بن نافع يجول في صحراوات طرابلس وافريقية الجنوبية ، يؤدب القبائل الثائرة ويخضعها بشكل ثابت لدولة العرب ، ويعمل على إدخالها في الاسلام بصيغة نهائية .

وكان عقبة على رأس سرية صغير ، ولا عبرة هنا بما يقال من أن عقبة ترك جيشه واستخلف عليه عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوى(٢١) ، فليس من المعقول أن يترك عقبة جيشه الكبير دون عمل مدة خمسة أشهر بينما يذهب هو — القائد الأعلى — في غزوة فرعية يمكن أن ينوب عنه فيها أحد قواده ، والأقرب الى الصحة أن يكون عقبة هو أمير هذه الغزوة الفرعية . أما استخلافه لعمر القرشي وزهير البلوى فكان على القيروان عندما قام بحملته الكبرى سنة ٦٢ هـ/٦٨٠ — ٦٨٢ كما سنرى فيما بعد(٢٢) .

وخرج عقبة من مغمداس من أرض سرت (٢٣) ومعه ٤٠٠ (أربعمائة) فارس ، وبصحبته قائدان من خبراء حرب الصحراء ، هما : بسر بن أبى أرطاة (الذى سبق له غزو ودان أيام عمرو الاولى) ، وشريك بن سمى المرادى (٢٤) (الذى اشترك مع عقبة في غزو قبائل طرابلس فيما بين سنة ٤٠ هـ وسنة ٤٣ هـ) . واستعد عقبة لعبور الصحراء المقفرة فجهز ٤٠٠ (أربعمائة) بعير تحمل الأثقال و ٨٠٠ (ثمانمائة) قربة ماء (على كل بعير قربتان) . وخرجت الصائفة الصحراوية من مغمداس مخترقة بلاد هوارة(٢٥) في اتجاه ودان حيث يبلغ النفوذ العربي منتهاه . وأعلنت قبائل المنطقة خضوعها (٢٦) ، ورغم ذلك فان عقبة أخذ شيخ المدنية أو ملكها كما يقول

---

(٢١) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٤ .

(٢٢) يزيد ما نذهب اليه ما ينص عليه المالكى (ج ١ ص ٢٢) من استخلاف عقبة لعمر القرشي وزهير البلوي أثناء حملته في المغرب الأقصى (أنظر فيما بعد ص ١٩٥) .

(٢٣) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٤ . وقارن البكرى ، ص ١٣ (يقول غدامس) وكذلك الاستبصار ص ١٤٧ (غدامس) .

(٢٤) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٤ ، وقارن البكرى ، ص ١٣ (حيث يسميه شريك ابن سحيم المرادى) . انظر مؤنس ، ص ١٣٥ (الذى يكتب لقبه المرادى) ، وفيما سبق ، ص ١٧٧ وهامش ١٣ (حيث يلقبه الكندى بالقطيفي وليس بالمرادى) .

(٢٥) أنظر البكرى ، ص ١٢ .

(٢٦) أنظر ابن عبد الحكم ، ص ١٩٤ . البكرى ، ص ١٣ (يقول النص هنا انه افتتحها بينما يفهم من بقيته أن اهلها لم يقاتلوا المسلمين لانه كان بينهم وبينهم عهد) . وقارن تاريخ خليفة بن خياط ، ج ١ ص ١٩٠ (حيث يجعل فتح ودان هذا بعد غزو كور السودان سنة ٤٣ هـ) .

النص ، فجدع أذنه • وعندما احتج الرجل وذكر عقبة بأن هناك عهدا بينه وبين المسلمين (٢٧) ، أفهمه عقبة أن ذلك أدب له حتى لا يفكر في حرب العرب • وأخذ عقبة الضريبة المفروضة على ودان وهي ٣٦٠ (ثلاثمائةوستون) رأسا ، والمفهوم أنها كانت من العبيد ،خاصة وأن بلاد فزان تعتبر باب السودان من حيث يجلب الرقيق ، وهذا ما ستبينه نفس النصوص بعد ذلك مباشرة • وسأل عقبة عما وراء ودان من البلاد فدله أهل المنطقة على مدينة جرمة (عاصمة الجرمنتيين Garamantes القديمة ، وقاعدة فزان وقتئذ)، فسار اليها ووصلها بعد مسير ثماني ليال • ونزل على بعد ستة أميال من المدينة ، ودعا أهلها الى الاسلام فأجابوه ، وخرج زعيم المدينة (أو ملكها كما تقول الرواية) راكبا للقاء عقبة الذي أرسل بعض فرسانه فأنزلوا الرجل من ظهر مطيته وأمشوه ، فما وصل الزعيم الجرمي الناعم الى عقبة حتى كان يبصق الدم • وعندما احتج الرجل على تلك المعاملة العنيفة مع أنه أتى طائعا ، رد عليه عقبة مثل رده على زعيم ودان ، كما فرض على الجرميين ضريبة مماثلة لما كان يدفعه أهل ودان أي ٣٦٠ (ثلاثمائة وستين) عبدا (٢٨) •

والظاهر أن المغانم والسبي بلغت من الكثرة درجة جعلت عقبة يوجهها الى المشرق كما يقول ابن عبد الحكم(٢٩) ، وربما أرسلها الى مركز قيادته في مغمداس أو الى ابن حديج في افريقية • وكان خضوع جرمة يعني خضوع جميع الواحات الحصينة (القصور) بالأقاليم فافتتحها عقبة واحدة بعد الأخرى(٣٠) • وسأل عقبة عن الأقاليم الواقعة فيما وراء فزان،فأخبره الأدلاء عن اقليم كوار ، وعاصمته خاوار(٣١)، وهي مدينة صحراوية جيدة التحصين (قصر

---

(٢٧) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٤ (القراءة هنا : « وقد عاهدتني ») ، قارن البكرى ، ص ١٣ (القراءة : « وقد عاهدني المسلمون » وهو ما أخذنا به رغم أن ابن عبد الحكم يريد الاشارة الى فتوح عقبة الأولى في فزان •

(٢٨) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٥ ، وقارن البكرى ، ص ١٣ (والنص هنا يقول عن الضريبة انها ٣٦٠ عبدا رئيس رأسا، ولا بأس في ذلك اذا كان صلح عمرو مع أهل برقة سمح بأن « يبيعوا من أحبوا من ابنائهم في جزيتهم » (أنظر فيما سبق ، ص ١٣٢) •

(٢٩) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٥ •

(٣٠) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٥ ، البكرى ، ص ١٣ • وعن كلمة القصور ومفردها قصر (Castra) أي حصن ، أنظر شعيرة ، الصراع بين العرب والبيزنطيين (بالفرنسية) ، ص ٦٤ ، عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ط ١٩٦٠ ، ج ٢ ص ٥٢ وحاشية ٧ •

(٣١) أخذنا بقراءة ابن عبد الحكم ، ص ١٩٥ ، قارن البكرى ص ١٣ (حيث القراءة : حاوار) •

عظيم) ، على ظهر جبل في أول الصحراء الكبرى (المفازة) • وتطلبت الرحلة اليها ١٥ (خمس عشرة) ليلة ، وضرب عقبة الحصار على المدينة التي امتنعت عليه مدة شهر • وهنا رأى أن يقوم بجولة في الاقليم لاخضاع الواحات الأخرى فتم له ذلك • ووجد شيخ الاقليم (ملكه) في آخر قصر من القصور « وأدبه » بأن قطع اصبعه ، حتى يتذكر فلا يفكر في الخروج على طاعة العرب • وكذلك فرض على واحات كوار ضريبة قدرها ٣٦٠ (ثلاثمائة وستين) راسا • وعرف الأدلاء عقبة أنهم لا يعرفون بلادا أخرى بعد كوار الا خاوار ، فقرر عقبة أن يحتال في أخذها • ففي طريق العودة مر بالقصر الحصين دون ان يعرض له ، وسار مسافة ثلاثة أيام حتى اطمأن أهله وأقام عقبة وأصحابه بعض الوقت في موضع يسميه الكتاب « ماء الفرس » ، اذ يتسبب الى فرس عقبة اكتشاف صفاة ماء في هذا المكان ، وقت أن كانت السرية تعاني من الجهد والعطش(٣٢) • وبعد أن استراح الرجال ورويت الدواب ، قرر عقبة مفاجأة أهل خاوار بعد أن شغلوا بأعمالهم وتركوا الحذر ، فسار اليهم « من غير طريقه التي أقبل منها فلم يشعروا به حتى طرقهم ليلا ، فوجدهم مطمئنين قد أمنوا » • وفتحت المدينة عنوة ، وأنزل عقبة بالمدينة المتمردة عقوبة رادعة تجعلها مثلا لغيرها ، فقتل المقاتلة وسبى الزرارى والنساء ، وأخذ الأموال • وهكذا انتهت أول جولة كبرى في صحراوات جنوب طرابلس ، ورجع عقبة محملا بالمغانم والسبي الى قاعدته الأولى في مغداس ، مارا بزويلة ، بعد خمسة أشهر (٣٣) • وكان من نتائج تلك الغزوة تثبيت سلطان العرب في الصحراء ، ونشر الاسلام بين قبائل البربر هناك •

وبعد أن استراح عقبة وأصحابه بعض الوقت في منطقة سرت حتى جممت خيولهم وابلهم(٣٤) قام بحملة أخرى في جنوب البلاد التونسية (بلاد الجريد) • وعلى ذلك لم يتخذ الطريق الساحلي الرئيسي المعروف بـ « الطريق الأعظم »(٣٥) ، أو « الجادة »(٣٦) في مسيره غربا بل انحرف عنه جنـوبا

---

(٣٢) عن ماء الفرس ، أنظر البكري ، ص ١٤ . الاستبصار ، ص ١٤٦ — ١٤٧ ، ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص ٢٧ (يسمى الموضع « عين الفرس » بدلا من « ماء الفرس » •

(٣٣) ابن عبدالحكم ، ص ١٩٥ (النص يقول هنا : حتى قدم على عسكره) ، البكري ، ص ١٣ •

(٣٤) ينسب ابن عبد الحكم (ص ١٩٦) ، ذلك الى الجيش الكبير الذي سيقوده عقبة فيما بعد . سنة ٥٠ هـ • أما البكري (ص ١٤) فلا يشير الى ذلك •

(٣٥) ابن عبدالحكم . ص ١٩٦ •

(٣٦) البكري ، ص ١٤ •

واخترق أرض مزاته . وأخضع كل واحاتها ثم اتجه نحو قفصة افتتحها واتبع ذلك بكل المنطقة وهي بلاد قسطيلية ثم انصرف الى القيروان ٠

وفتح قفصة هذا يؤيد ما ذهبنا اليه من أن حملة عقبة هذه تعتبر فرعا لحملة ابن حديج سنة ٤٥ هـ/٦٦٥ م ٠ فالكتاب يشيرون الى أن ابن حديج سير سرية افتتحت قفصة وقسطيلية ولا يذكرون قائدها ، بينما ينصون على أن ابن حديج كان قائما في معسكره في موضع القيروان ويبث السرايا ٠ ولا ينبغي أن نخدع هنا بكلمة « القيروان » وذلك أن معناها موضع العسكر مثلها مثل كلمة « الفسطاط » ٠ فالكتاب عندما يتكلمون عن حملتي عبد الله بن سعد ومعاوية بن حديج يذكرون أنهما لم يتخــذا بافريقية قيروانا(٣٧) ، ولو أن بعضهم كما نرى سمى معسكر ابن حديج بالقيروان ٠ وعلى ذلك يكون عقبة قد عاد الى معاوية بن حديج في معسكره بجوار جبل القرن بالقرب من موضع القيروان ٠

ونحن نرى أن عقبة عاد بعد ذلك الى المشرق مع ابن حديج سنة ٤٧ هـ/ ٦٦٧ م قبل أن يعهد اليه معاوية بن أبي سفيان بولاية افريقية سنة ٥٠هـ / ٦٧٠ م ٠ ومن هنا جاء الخلط بين غزوة عقبة في سنة ٥٠ هـ وغزوة ابن حديج فقال ابن عبد الحكم وخليفة بن خياط ومن نقل عنهما أن ابن حديج غزا افريقية في سنة ٥٠ هـ (٣٨) ، ولو أنهم لا يشيرون الى تفصيلات ما عن هذه الحملة ٠ ومن هنا جاء الخلط أيضا بين عقبة بن عامر الجهني وعقبة بن نافع ، فابن الأثير يقول في أحداث سنة ٤٩ هـ « وفيها كانت غزوة عقبة بن نافع البحر فشتى بأهل مصر »(٣٩) ، والحقيقة أن المقصود بذلك هو عقبة بن عامر الجهني الذي آلت اليه القيادة البحرية في مصر بعد أن عزله معــاوية بمسلمة بن مخلد سنة ٤٧هـ/٦٦٧ م وأمره بالغزو في البحر بأهل مصر(٤٠)، وهذا ما يقوله ابن الأثير نفسه في أحداث سنة ٤٨ هـ/٦٦٨م (٤١) :

---

(٣٧) أنظر فيما سبق ، ص ١٦١ وهامش ١٥٠ . ص ١٦٨ و هـ ١٨٩ . ص ١٧٤ ٠

(٣٨) أنظر فيما سبق . ص ١٦٦ و هـ ١٨٤ ٠

(٣٩) ابن الأثير . أحداث سنة ٤٩ ، ج ٣ ص ٢٣١

(٤٠) أنظر الكندي (ص ٣٨) الذي يقول أنه سار لغزو رودس وخرج من الاسكندرية ٠

(٤١) ابن الأثير ، أحداث سنة ٤٨ ، ج ٣ ص ٢٣٠ ٠

٢ - ولاية عقبة وبناء القيروان :

ولقد حق لابن الأثير أن يأخذ بما ذكره المؤرخون المغاربة - « وهم أخبر ببلادهم » كما يقول (ولو أنه لم يذكر أسماؤهم) - من أن ولاية عقبة بن نافع لافريقية كانت في سنة ٥٠ هـ /٦٧٠ م • والظاهر أن معاوية بن أبي سفيان عرف للرجل جهاده وحسن بلائه بالمغرب في سبيل العروبة والاسلام، فكافأه بأن جعل له قيادة الجيش العربي الافريقي بعد أن ظل قائدا مرؤسا لمدة طالت الى أكثر من خمس وعشرين سنة • وتتركز اهمية ولاية عقبة هذه في الحملة التي قام بها في تلك السنة ، والتي انتهت بتأسيس عاصمة عربية جديدة لولاية أفريقية هي مدينة القيروان • وهذا ما أشار اليه كتاب المغاربة الذين نقل عنهم ابن عذارى ، وهو ما تنبه اليه ابن الأثير الذي جعل موضوع تلك الحملة هو بناء القيروان فقط وبيان أهمية هذا الحدث • فعندما استعمل معاوية في سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م عقبةبن نافع على افريقية ، سير اليه عشرة آلاف فارس ، منهم ٢٥ (خمسة وعشرون) من الصحابة كما ذكر بعض المحدثين (٤٢) ، وسائرهم من التابعين كما تنص رواية ابن عذارى (٤٣) • وازدادت قوات عقبة بمن انضم اليها من البربر الذين دخلوا في الإسلام(٤٤) • وكان عقبة عسكريا عنيفا في سياسته كما رأينا من قبل - اذ يقول ابن الأثير انه وضع السيف في أهل البلاد ، لأنهم كانوا اذا دخل اليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الاسلام فاذا عادالأمير منهم نكثوا وارتد من أسلم منهم (٤٥) ، وهذا يعني انه قام بجولة في البلاد التي سبق أن أخضعها من قبل • والحقيقة أنه يمكن القول انه قام في ذلك الوقت باعادة اخضاع الجنوب التونسي عبر قفصة وقسطيلية أي المنطقة التي كان قد فتحها عقب جولته الكبرى في صحراوات فزان وودان (٤٦) •

والظاهر أن ظروف العرب كانت مواتية اذا اضطربت أحوال بيزنطة بعد مقتل قسطنطين الثاني ، وانشغال خليفته قسطنطين بوجوناتا(Pogonat)

---

(٤٢) انظر أبو العرب ، طبقات علماء افريقية ، ص ١٧ •

(٤٣) البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٠ (١٨ ثمانية عشرة من الصحابة . النويري . المخطوط . ص ٦٨ ب) •

(٤٤) النويري ، المخطوط ، ص ٦٨ أ •

(٤٥) ابن الأثير . أحداث سنة ٥٠ . ج ٣ ص ٣٣٤ •

(٤٦) انظر الصفحات السابقة و ص ١٧٨ •

بالصراع ضد أحد المتغلبين في صقلية ، مما دعا الى استدعاء معظم القوات البيزنطية الموجودة في المغرب • وربما يفسر ذلك فعلا عدم لقاء عقبة لمقاومة تذكر في حملته التاديبية هذه(٤٧) • وهكذا عندما وصل الى الموضع الذى كان معاوية بن حديج قد أقام فيه معسكره ، فكر في اقامة مدينة عربية تكون قاعدة أمامية للفتوح العربية في المغرب ، ومركزا لنشر العروبة والاسلام(٤٨)، وذلك جريا على السياسة التى ابتدأها العرب في المشرق عندما أنشأوا الكوفة والبصرة في العراق ثم الفسطاط في مصر • واستشار عقبة أصحابه في بناء مدينة لهم حتى يستقر الأمر للعرب ولا يعود أهل البلاد الى العصيان • ولقيت الفكرة قبولا من العسكر بل ان مستشارى عقبة بلغوا في حماسهم الى درجة أنهم « اتفقوا على أن يكون أهلها مرابطين فيها ، وقالوا نقربهـــا من البحر ليتم الجهاد والرباط » (٤٩) • ولم يوافق عقبة ـ رغم ما عرف عنه من الجرأة التى تبلغ حد التطرف ـ على هذه الفكرة المتهورة ، وبين لأصحابه خطورة الرباط على ساحل البحر خشية الروم • وأخيرا تم الاتفاق على أن تكون بعيدة عن الساحل خشية الأسطول البيزنطي ، وكذلك غير متوغلة في الداخل خشية البربر . واختير الموضع قريبا من السبخة حيث يمكن أن ترعى الابل في أمان(٥٠) • وهكذا بنيت المدينة في موضع استراتيجي أولا وقبل كل شيء ، فكانت طبيعتها تختلف عن طبيعة غيرها من المدن • فوضعها العسكرى الخاص في نهاية الطريق الممتد من مصر الى افريقية(٥١) جعـــل منها شبه مدينة اصطناعية • وهذا ما يفسر كيف أنها بعد أن عظمت وأصبحت كبرى مدن الغرب ، عادت الى وضعها الطبيعي (وضع سبيطلة أو الجم)مدينة اقليمية ، بينما استعادت مدينة تونس (قرطاجنة الحديثة) مكانتها كعاصمـــة البلاد الافريقية •

وكان بناء المدينة موضوع كرامة عجيبة تنسب الى عقبة بن نافع • ويفهم من هذه القصة أنه كان بالموضع شعراء وشجر كثيف ـ وهذا أمرمقبول فمنطقة القيروان عرفت بغابات الزيتون الوحشى حتى قيل ان القيروانيين كانوا

---

(٤٧) أنظر جورج مارسيه ، ص ٣١ •

(٤٨) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٤ (أراد أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم) •

(٤٩) الاستبصار ، ص ١١٣ والهامش ١ •

(٥٠) الاستبصار ، ص ١١٣ ـ ١١٤ •

(٥١) أنظر Despois, La Tunisie Orientale..., Paris, 1940, p. 165

يحتطبون الدهر من زيتونها فلا يتأثر(٥٢) ـ سكنه سباع الأرض من الحيوانات والحشرات والهوام • وعندما لفت أصحاب عقبة نظره الى خشيتهم من المقام في هذا الموضع الموحش ، دعا عقبة السباع والحشرات ـ باسم صحابة رسول الله ـ الى مغادرة المكان ، فحدثت المعجزة وخرجت السباع تحمل صغارها ، والذئاب تحمل أجراءها ، والحيات تحمل أولادها (٥٣) • ولقد وجدنا في كتاب « فتوح افريقيه » المنسوب للواقدى ـ رغم ما يحويه من أخطاء وأساطير ـ تفسيرا منطقيا لتلك الكرامة نعتقد أنه أصلها التاريخي : فعقبة قبل أن يبدأ البناء رأى أن ينظف المكان مما فيه من الأشجار والأشواك فأطلق فيه النار (٥٤) • وهذا ما يحدث الى اليوم عندما يراد تنظيف مكان مما فيه من الحشائش والأشواك حتى لا تعود الى الانبات مرة أخرى ، وذلك أسهل وأكثر جدوى مما تقول به الروايات الأخرى من أنه قطع الأشجار (٥٥) وكان من الطبيعي أن تفزع الحيوانات والحشرات هاربة من الموضع ، وذلك ما يشاهد الى الآن عندما تشتعل النار في غابة من الغابات أو احدى القرى ، وكثيرا ما تصيب النار بعض هذه الحيوانات أو الطيور فتنطلق لتزيد من رقعة الحريق (٥٦) •

---

(٥٢) البكرى ، ص ٢٦ •

(٥٣) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٦ ـ ١٩٧ ، الطبرى ، أحداث سنة ٥٠ ، البلاذرى ، ص ٢٢٨ ، ابن الأثير ، سنة ٥٠ ج ٣ ص ٢٣٤ ، تاريخ خليفة بن خياط ، ج ١ ص ١٩٥ •

(٥٤) فتوح افريقية ، طبعة تونس ، ص١٣ ، وأنظر للمؤلف ، مجلة كلية الآداب ،اسكندرية ١٩٦٣ ، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية ••• ، ص ١٩ ـ ٢٠ ، وقارن ابن الأثير ، أسد الغابة ، طبعة ١٢٨٦ ، ج ٣ ص ٤٢١ (فأمر بقطع تلك « الأشجار » واحراقها) ، وأنظر الرحلة الورثيلانية ، تصحيح محمد بن أبي شنب ، ط ٢ سنة ١٩٧٤ ، ص ٩٤ •

(٥٥) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٤ •

(٥٦) قارن حسين مؤنس الذى يأخـــذ برواية المالكى « (ج ١ ص ٢١) والنويرى (ص ٦٩ ب) التى تقول انه كان فى الموضع كنيسة او قصر حربى قديم (قمونية) فيظن أن هذا القصر كان مسكونا بالحيوانات الوحشية التى فزعت عندما سمعت صوت جنبة الجيش (فتح العرب للمغرب ، ص ١٤٢) • ولقد كان من الطبيعي أن تنظم الاسطورة مع مرور الوقت ، فبعد أن ظهرت قصيرة كما فى الطبرى (أحداث سنة ٥٠) ازدادت بصفة خاصة فى تراجم العباد الزهاد (أبو العرب ، ص ٨ ، المالكى ، ٧ ، ٢٠) وظهرت لها ذيول أو هوامش : فلقد قيل أن قبيلا من البربر شاهد تلك الكرامة فدخل فى الاسلام (ابن الأثير ، أحداث سنة ٥٠ ، ج ٣ ص ٢٣٤) ، وقيل أن موضع القيروان ظل خاليا من الحشرات والهوام مدة أربعين سنة حتى كان السبع أو العقرب يطلب بألف دينار فلا يوجد (ابن عبد الحكم ، ص ١٩٦ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠) •

وحسب الطريقة التي أصبحت تقليدية في بناء المدن العربية ، منذ بناء الكوفة والبصرة والفسطاط ، بدء ببناء المسجد الجامع ودار الامارة ثم قسمت الأرض المحيطه بهما على القبائل والناس لبنـاء الدور والمساكن ، وكذلك المساجد الخاصة • والظاهر أن موضوع المدينة ودار الامارة والمسجد وأي منها بني قبل الآخر كان محل جدل بين الكتاب • فابن عذارى ينص على أن دار الامارة بنيت أولا(٥٧) • بينما يفهم من ابن الأثير أن المـدينة بنيت قبل المسجد الجامع (٥٨) • ومع أنه من الجائز أن يكون المقصود هو نزول عقبة في الموضع الذي بني فيه دار الامارة وكذلك نزول القبائل والناس في الأماكن التي اتخذوها لأنفسهم قبل بدء بناء الجامـع ، فانه من المعقول أن يكون البدء في بناء دار الامارة قد سبق بناء المسجد • فالبكري يقول إن اختيار اتجاه القبلة كان موضع جدل بين الناس ، وأن هذا الأمر أهم عقبة بعض الوقت وأخيرا ألهم اختيار مكان المحراب بكرامة أكرمه الله بها ، وذلك عندما سمع في منامه هاتفا يقول له انه سوف يسمع تكبيرا في الموضـع الصحيح للقبلة فلما سمع التكبير وضع رمحه في المكان (٥٩) •

ورغم أنه يغلب على الظن أن هذه القصة مصطنعة اذ يقول ابن عبد الحكم ان عقبة ركز رمحه لتحديد موضع المدينة وليس لتحديد موضع القبلة(٦٠) فربما كان أمر اختيار عقبة نفسه لموضع القبلة — دون أن يحدده العارفون بشئون الفلك — صحيحا ، اذ يلاحظ أن موضع القبلة في مسجد القيروان ، وهي نفس قبلة عقبة ، ينحرف قليلا عن الموضع الصحيح (٦١) •

وتختلف الروايات في تقدير مساحة المدينة • فيقول ابن الأثير أن دورها (أي محيطها) كان ٣٦٠٠ (ثلاثة آلاف وستمائة) باع(٦٢) بينما يقول ابن عذارى ان دورها بلغ ١٣٫٦٠٠ (ثلاثة عشر ألفا وستمائة) ذراع (٦٣) • والمساحة الأولى التي تقدر بحوالي ٥٨٠٠ متر معقولة بالنسبة لخطة المدينة

---

(٥٧) البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٠ •
(٥٨) ابن الأثير ، أحداث سنة ٥٠ ج ٣ ص ٢٣٤ •
(٥٩) أنظر البكري ، ص ٢٢ ، الاستبصار ، ص ١١٤ •
(٦٠) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٦ •
(٦١) انظر أحمد فكري ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ٢٢ — ٢٣ •
(٦٢) ابن الأثير ، سنة ٥٠ ج ٣ ص ٢٣٤ (والنويري ، المخطوط ، ص ٦٩ ب) •
(٦٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠ •

الأولى واقامة الأسوار ووسائل الدفاع ـ أي بالنسبة للمدينة العسكرية ٠ أما المسافة الثانية التي تقدر بحوالى ٧٠٠٠ متر فهي معقولة بالنسبة لمساكن العسكر والقبائل ومن انضاف اليهم من أهل البلاد ٠ وعلى ذلك يمكن القول ان المدينة العسكرية الأصلية المسورة ـ حيث المسجد الجامع ودار الامارة والذخائر ـ كان محيطها ٣٦٠٠ باع بينما انتشرت حولها مساكن القبائل والمساجد الخاصة بهـا في محيط بلغ ١٣٫٦٠٠ ذراع ٠ وهـذا ليس بغريب : ففي الوقت الذى استقر العرب مع عمرو في الفسطاط (سنة ٢١هـ/ ٦٤٠ م) اتخذت بعض القبائل مقرا لها بعيدا عنه في موضع الجيزة عبر النيل (٦٤)٠ وهذا لا يمنع من أن تكون القبائل قد اتخذت أسوارا هي الاخرى في مواضعها حول المدينة ، وهذا يذكرنا بما حدث في بغداد فيما بعد عندما بني حولها سوارن ، الأمر الذى سيصبح تقليديا في تحصين المدينة العربية اذ سيكون السور الداخلي بقوته وارتفاعه هو السور الحقيقي ، بينما سيطلق على السور الخارجي وهو أضعف وأقل ارتفاعا اسم « الستارة» (٦٥) ٠

وبطبيعة الحال لم يتم بناء المدينة بهذا الشكل دفعة واحدة اذ كمل البناء في أربع سنوات ، وذلك في سنة ٥٥ هـ (٦٦) ، وكانت المدينة تعمر وتتسع شيئا فشيئا خلال تلك الفترة ٠ ولم يوجه عقبة خلال ذلك الوقت كل نشاطه للبناء اذ كان يوجه السرايا توطد سلطان العرب في البلاد ، وتأتي بالمغانم والأسلاب ٠ وكان بناء المدينة في ذاته حدثا هاما في تاريخ الفتح العربي للمغرب ٠ هذا ما فهمه بحق ابن الأثير وأصر عليه فقال : « ودخل كثير من البربر في الاسلام ، واتسعت خطة المسلمين ، وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان ، وأمنوا واطمأنوا على المقام ، فثبت الاسلام بها»(٦٧)٠ وفي الوقت الذى أتم عقبة بناء القيروان أتى الأمر بعزله ، فكان جزاء غريبا بعد قيام الرجل بهذا العمل الكبير في خدمة الخلافة والاسلام ، وسنرى أمثلة لمثل ذلك فيما بعد عندما تقابل الخلافة خدمات كبار رجال الحرب والادارة بما يمكن أن يبدو انكارا للجميل ٠

---

(٦٤) أنظر ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ص ١٢٨ ٠

(٦٥) انظر البكري ، ص ٢٤٠ (حيث يقول عن تحصينات مدينة طرابلس ، « ويحيط بهذا السور الآن فصيل آخر أقصر منه على العادة في ذلك يسمونه الستارة ٠٠٠ ») ٠

(٦٦) هذا ما يقوله ابن الأثير (سنة ٥٠ ج ٣ ص ٢٣٤) ، وهو ما يفهم من سياق كلام ابن عذارى الذي يحدد عزل عقبة عن افريقية في تلك السنة (ج ١ ص ٢١) ٠ وهذا ما ينقله النويري ، المخطوط ، ص ٦٩ ب ٠

(٦٧) ابن الأثير احداث سنة ٥٠ ج ٣ ص ٢٣٥ ٠

٣ – « أبو المهاجر » وعزل عقبة بن نافـع (٥٥ – ٦٢ هـ/٦٧٤ – ٦٨١ م) :

عزل عقبة عن ولاية افريقية في ظروف لا يبينها الكتاب بوضوح ، ولكنهم يربطون بينها وبين ولاية مسلمة بن مخلد لمصر • فيقولون ان معاوية ابن أبي سفيان استعمل مسلمة ، وجعل له مصر وافريقية فكان « مسلمة أول من جمعت له مصر والمغرب » (٦٨) • والذى يفهم من هذا النص أن الخليفة جعل لوالى مصر مسلمة حرية التصرف في أمور افريقية بعد أن كان الخليفة يتدخل مباشرة فى شئون الفتوح في المغرب • ولكنه يبقى بعد ذلك أن نعرف متى آل هذا الحق الى مسلمة : عند توليه مصر مباشرة أم في الوقت الذى تم فيه عزل عقبة ؟وذلك أن مؤرخي المغرب ربطوا بين ولاية مسلمة مصر وافريقية وبين عزل عقبة ، فهم لا يتكلمون عن ولاية الأول الا عندما يتكلمون عن عزل الثاني • ولما كانت ولاية مسلمة لمصر تبدأ من سنة ٤٧هـ/٦٦٧م(٦٩)، فاننا نعتقد أن جعل ولاية افريقية لمسلمة كانت قبيل سنة ٥٥ هـ/٦٧٤ – ٦٧٥ م وهو التاريخ الذى تحدده الرواية المغربية التى أخذنا بها لعزل عقبة (٧٠) • ويمكن أن يفسر عزل عقبة بسبب السياسة العنيفة التي كان يتبعها فى المغرب ، والتى لم يكن مسلمة ليرضى عنها ، والدليل على ذلك أن والى المغرب الجديد من قبل مسلمة سار على سياسة مغايرة لها تماما • والى جانب الاختلاف في السياسة العامة نظن أنه كانت هناك مسائل شخصية بين مسلمة وعقبة – ربما بسبب التنافس بين كل من الرجلين اللذين كانا من كبار رجال الدولة – اذ تنص الروايات على أن عقبة عزل أسوأ العزل ؛ وأنه أهين وحبس ، وأن الأمر تطلب تدخل الخليفة لخروجه من المحنة •

أما الوالى الجديد فمشهور عند الكتاب بكنيته وهي « أبو المهاجر » أكثر من اسمه وهو دينار • أما عن ما ضيه فلا نعرف الا أنه كان مولى لمسلمة بن مخلد ، وأنه كان شديد القرب من مسلمة الذى كان يقول : « أبو المهاجر كواحد

---

(٦٨) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٧ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٥٠ ج ٣ ، ص ٢٢٥ (يقول مصر وافريقية ، النويرى ص ٦٩ ب) ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١ (ويقول مصر وافريقية) •

(٦٩) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٧ ، الكندى الولاة والقضاة ، ص ٣٨ •

(٧٠) أنظر فيما سبق هامش ٦٦ ص ١٨٧ ، وقارن المالكي الذى يجعل ذلك في سنة ٥٧هـ – رواية المالكي هنا مضطربة أشد الاضطراب (ج ١ ص ١٩ ، وقارن تعليق مؤنس في الهامش ص ١٤٩) •

منا » أي كواجد من أهـــل بيته • ويفهم من نص ابن عـــذاري أن مسلمة أراد أن يكافيء مولاه أبا المهاجر على اخلاصه له وحسن تفانيه في خدمته ، فعهد اليه بولاية افريقية(٧١) أي جعله نائبا له في المغرب ، فانضاف سبب شخصي آخر لعزل عقبة ـ وكان ذلك التعيين فاتحة لاستخدام المـــوالي في الوظائف الكبرى في الدولة العربية ، وهو الأمر الذي توسع فيه العباسيون فيما بعد حتى أصبح سمة من سمات عصرهم • ورغم أن النصوص تجمع على أن أبا المهاجر أساء عزل عقبة الا أنها أنفت أن تلقي بمسئولية اهانة عقبة ـ الذي يضعه الكتاب في مرتبة الأولياء ـ على أحد زعماء العرب مثل مسلمة فنفوا التهمة المشينة عنه ،والقوا بكل عبئها على المولى : فمسلمة «أوصى مولاه بعزل عقبة أحسن العزل » و « أساء أبو المهاجر عزل عقبة وأوقره حديدا » ، يعني أنه اعتقله ، وذلك قبل أن يأمر الخليفة بتخلية سبيله وأشخاصه اليه(٧٢) وكان من الطبيعي ـ في نظر الرواة ـ أن يعتذر مسلمة في مصر عما بدر من مولاه في حق عقبة ، وكذلك الخليفة في دمشق(٧٣) •

ومع أن ولاية أبي المهاجر للمغربطالت الى ما يقرب من ٧ (سبع) سنوات (٥٥ـ٦٢ هـ) الى حين عودة عقبة الى المغرب مرة ثانية ، فان الرواة يمرون بأعماله الانشائية مرا سريعا ولا يصرون الا على ما فعله بعقبة • وربما كان مرجع ذلك الى الفهريين من أقارب عقبة الذي كان لهم مركز ممتاز في مصر والمغرب والأندلس ، وكان منهم رواة واخباريون ، وذلك رغم أن بني أبي المهاجر كان لهم مركزهم في المغرب وكان منهم اخباريون أيضاً . ولكنهم لا يرقون الى مرتبة الفهريين •

والرواة لا يذكرون تفصيلات ما عن خروج أبي المهاجر من مصر أو القوات التي صحبها معه أو الطريق الذي سار فيه ، وليس لدينا الا ما يمكن استخراجه من رواية المالكي التي تكون مزيجا من المعلومات غير المنسجمة منها الصحيح ومنها الخطأ ، ففيها أن أبا المهاجر خرج من مصر في سنة ٥٥ هـ/٤ ـ ٦٧٥ م

---

(٧١) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١ ، ابن عبد الحكم ، ص ١٩٧ . ابن الأثير ، أحداث سنة ٥٠ ج ٣ ص ٢٣٥ •

(٧٢) ابن عبدالحكم ، ص ١٩٧ ، ابن الأثير ، أحداث سنة ٥٠ ج ٣ ص ٢٣٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢ •

(٧٣) نفس المصدر (ويقول الرواة أيضا ان معاوية وعد عقبة باعادته الى عمله) •

بجيوش أهل الشام ومصر (٧٤) • وعندما وصل الى أرض افريقية لم يكتف بما فعله بعقبة من سوء العزل والاستخفاف بل انه « كره النزول فى قيروان عقبة » . ولو أنه نزل فى نفس الموضع على بعد ميلين من القيروان ، حيث ابتنى ونزل بالقرب من قرية بربرية تعرف بـ « دكرور» (٧٥) • وهذا يعبر عن تفكير أبي المهاجر في المزج والتقريب بين العرب والبربر ، وهو الأساس الذى انبنت عليه سياسته • ويذكر الكتاب لأبي المهاجر أنه أول من طبق سياسة الاستقرار الدائم للعرب في افريقية : فيقول ابن عبدالحكم ان «أول من أقام بعد الغزو بافريقية أبو المهاجر» الذى «أقام بها الشتاء والصيف »(٧٦)، بينما الحقيقة ان هذا الفضل يرجع الى عقبة (٧٧) •ويمكن أن يفهم من رواية المالكي ورواية ابن خياط أن أبا المهاجر بدأ نشاطه العسكرى جديا فى سنة ٥٩ هـ/٦٧٩ م ، فاخذ يوجه السرايا نحو الأقاليم التى لم تكن قد افتتحت من افريقية فى اتجاه قرطاجنة وفحص تونس ، وأنه فتح « الجزيرة» — أى جزيرة شريك أو باشو — ووزع المغانم على العساكر ، وبعث بالخمس الى مصر(٨٧) • وسار أبو المهــاجر على سياسته المخالفة لسياسة عقبة العسكرية الصارمة فعمل على اكتساب البربر باللين والمداراة ، وهو ما يسميهالدكتور

---

(٧٤) المالكي . رياض النفوس . ج ١ ص ٣٠ ، أما عن رواية خليفة بن خياط (ج ١ ص ٢١١) التى تنص على أن أبا المهجر كان فى الحملة التى بعث بها والى مصر مسلمة بقيادة خالد بن ثابت الفهرى لغزو المغرب . وأن مسلمة أمر خالد بن ثابت أن يستخلف أبا المهاجر دينارا من الأمصار . فانصرف « وخلف أبا المهاجر » فلا يمكن التعويل عليها وذلك أن ابن خياط يختلط بعد ذلك فى ترتيب الأحداث فيجعل حسان بن النعمان فى المغرب فى سنة ٥٧ هـ ، فى الوقت الذى يتحدث عن غزوات لثالث الأبجر ثم لأبى المهاجر فى افريقية والمغرب الأوسط فى السنتين التاليتين ٥٨ هـ . ٥٩ هـ • وهذا لا يمنع بطبيعة الحال من الاستفادة من المعلومات التفصيلية للأحداث . وهو الأمر الذى لا يتعارض فى بعض الأحيان مـع الخطأ فى الترتيب العلم •

(٧٥) ابن عبد الحكم . ص ١٩٧ . ابن عذارى . ج ١ ص ٢٢ (تقول الروايات ان أبا المهاجر نزل بموضع للبربر يعرف بدكرور او تكرور . وان البربر كانوا يسمون المعسكر العربي الجديد تيكروان مما دعا البعض الى التفكير في أنتكون كلمة القيروان تعريبا لكلمة بربرية الأصل ، وهذا ما لم يثبت) • أنظر المالكي . ج ١ ص ٣٠ . ومناقشة مؤنس لهذه المسألة . فتح المغرب . ص ١٥٣ — ١٥٤ •

(٧٦) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٨ •

(٧٧) ينبغى أن نلاحظ هنا أن الذى دعا ابن عبد الحكم الى القول بأن ابا المهاجر كان أول من أقام بافريقية هو أنه يجعل عزل عقبة فى سنة ٥١ هـ أى بعد بناء القيروان أو بعد تخطيطها على وجه أصح •

(٧٨) أنظر المالكي . ج ١ ص ٣٠ . وقارن بتاريخ خليفة بن خياط . ج ١ ص ٢١٥ (حيث =

شعيرة « بسياسة الحلف »(٧٩) . فلقد واصل أبو المهاجر أعماله الحربية النشطة في اتجاه المغرب الأوسط فوصل الى موضع عرف بعيون أبي المهاجر، وتم له فتح ميلة (٨٠) ، وانتهى به المطاف الى أبواب تلمسان حيث هزم برير أوربة ، وهم فرع من البرانس ، ومعهم زعيمهم كسيلة ـ الذي يقال انه كان نصرانيا ـ ولكنه صالح الزعيم الأوربي واكتسبه الى الاسلام واتخذه حليفا(٨١) ، وعاد به الى القيروان في سنة ٦١ هـ/٦٨٠ م(٨٢) .

وتعبر رواية المالكي عن سياسة المدارة اتبعها أبو المهاجر بشكل عام فتقول أنه لم يصالح البربر فقط بل وكذلك عجم افريقيــة(٨٣) ولا بأس أن يكون المقصود بالعجم هنا : الروم أو الجماعات الموالية لهم ، مثل الأفارقة . ولا شك أن سياسة أبي المهاجر هذه عملت على ازدياد نطاق الاسلام في المغرب ، فدخول زعماء البربر في الاسلام يعني دخول قبائلهم هي الأخرى في الدعوة العربية بالتبعية . وهكذا أقام أبو المهاجر في القيروان يوطد أركان الاسلام في المغرب الى وفاة معاوية وخلافة ابنه يزيد الذي أعاد عقبة من جديد الى ولاية المغرب .

٤ ـ ولاية عقبة الثانية وفتح المغرب الأقصى (٦٢ ـ ٦٤ هـ / ٦٨١ ـ ٦٨٤ م) :

خرج عقبة بعد عزله عن افريقية في سنة ٥٥ هـ/٦٧٤ ـ ٦٧٥ م نحو المشرق وسار الى دمشق حيث عاتب معاوية ، والظاهر أنه أقام في دمشق

= النص على ان فتح الجزيرة تم صلحا بعد قتال شديد كثر فيه القتل والجراح) . وعن جزيرة باشو وهي شبه الجزيرة الواقعة ما بين تونس شمالا وسوسة جنوبا ، انظر التجاني ، ص ١١ ـ ١٣ .

(٧٩) انظر محمد عبد الهادي شعيرة ، الممالك الحليفة ، مجلة كلية آداب اسكندرية ، سنة ١٩٤٨ ، ص ٢٤ ، ٣٧ ، (وموضوعها تطبيق سياسة الحلف هذه مع قبائل الترك ، وكان الدكتور شعيرة قد عرض نظرية الحلف في رسالته للدكتوراه ، في موضوع : الصراع بين العرب والبيزنطيين (بالفرنسية ، ط. الاسكندرية ، ١٩٤٦) .

(٨٠) تاريخ خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٢١٥ .

(٨١) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٨ ـ ٢٩ . ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٠٨ ، تاريخ خليفة ابن خياط ، ج ١ ص ٢٤٥ (كسيلة كان نصرانيا) .

(٨٢) تاريخ خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٢١٥ (حيث النص على ان تلك الغزاة الموضوعة في أحداث سنة ٥٩ هـ استمرت نحوا من سنتين) .

(٨٣) المالكي ، رياض النفوس ، ج ١ ص ٢١ .

انتظارا لما وعده به الخليفة ـ حسب سياسة المداراة التي كان يتبعها معاوية ازاء عماله عندما كان يعزلهم برفق ويعدهم خير الوعود . واذا صح ذلك يكون عقبة قد أقام في الشام حوالى خمس أو ست سنوات (وليس عشر سنوات أو احدى عشرة سنة كما تعنى الرواية التي تحدد عزله بسنة ٥١ هـ) الى أن توفى معاوية وخلفه ابنه يزيد . ورغم أن مسلمة بن مخلد ظل واليا على مصر الى أن توفى سنة ٦٢ هـ /٦٨٢ م ، فان علاقة يزيد بمسلمة لم تكن تصل بأى حال الى قوة العلاقة بين معاوية ومسلمة (٨٤) . وعلى ذلك استجاب يزيد لشكوى عقبة وسمح لنفسه باسترجاع المغرب من والى مصر ومولاه ، وأعاد عقبة الى عمله (٨٥) . ويحدد الكتاب ولاية عقبة الثانية بسنة ٦٢ هـ/٦٨١ ـ ٦٨٢ م ، وهى نفس السنة التى يجعلون فيها وفاته .

ولما كان عقبة قد قام بأعمال كبيرة لا يمكن أن تكون قد تمت فى سنة واحدة . كما سنرى ، فالأقرب الى الصحة أن يكون عقبة قد استعاد ولايته عقب وفاة معاوية مباشرة وربما حدث ذلك فى سنة ٦١ هـ/٦٨٠ ـ ٦٨١ م . وتصر الروايات جميعا على أن عقبة كان متعجلا في الرجوع الى ولايتـــه ، ويفهم أنه كان يتحرق شوقا للأخذ بثأره والانتقال من أبى المهاجر (٨٦) . وقد خرج عقبة من الشام في بعض قوات الخلافة ، ويقول ابن عذارى انه كان بصحبته ٢٥ (خمسة وعشرون) رجلا من الصحابة ، ومر سريعا بمصر حيث اعتذر اليه مسلمة مرة أخرى(٨٧) . وعندما وصـــل الى افريقية كان

---

(٨٤) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢ . وعن وفاة مسلمة في شهر رجب/مارس انظر الكندى ص ٤٠ .

(٨٥) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٩ ، ابن الأثير ، أحداث سنة ٥٠ ج ٣ ص ٢٣٥ وأحداث سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٣ (وابن الأثير يسوق هنا رواية يفهم منها أن عقبة لم يشك الى معاوية أمر عزله بل فعل ذلك عندما ولى يزيد ، وهذا يجعلنا نظن أنه ربما كان لعقبة نشاطه في أمور المشرق بعد العهد ليزيد الذى أثار كثيرا من زعماء العرب وخاصة أبناء المهاجرين والأنصار حتى أنه كان ليزيد ما يمكن أن يشبه بالحزب الذى يؤيده ويعاونه . وانظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣ .

(٨٦) نفس المصادر (تقول بعض الروايات انه بعد أن عزل عقبة دعا على أبى المهـــاجر الذى ظل خائفا منه نادما على ما فعله به ـ ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢) .

(٨٧)ابن عذارى،ج ١ ص ٢٣ ، وانظر الرقيق ، تاريخ افريقية والمغرب ، ص ٣٩ ـ ٤٠ . وتقول رواية المالكى (ج ١ ص ٢٢) انه قدم افريقية بعشرة آلاف فارس ، ونعتقد ان المقصود بذلك هو الجيش الذى قاده عقبة فى حملته الكبرى الآتية ، ولا شك في أنه الجيش الافريقى الذى كان مرابطا بالمغرب اذ ليس من المعقول ان يأتى الوالى الجديد بجيش كامل والا كان معنى ذلك عودة الوالى القديم بكل قوات الدولة التي كانت تحت قيادته .

أول ما فعله هو القبض على أبي المهاجر وتوثيقه في الحديد ، وأخذ ما كان لديه من الأموال(٨٨) ، ثم انه أمر بتخريب مدينته دكرور . وجدد ما كان قد خرب من عمارة القيروان ، ورد الناس اليها(٨٩) . وهكذا أكد عقبة استقرار القاعدة العربية الأولى في افريقية واستمرارها ، وبدأ منها حملة كبرى تختلف عن كل الحملات السابقة ، اذ أنه ساح في كل صحراوات المغربين الى أن انتهى به الأمر الى سواحل السوس الاقصى .

وحملة عقبة هذه نجدها سريعة مقتضبة عند الكتاب الأوائل مثل ابن خياط أو ابن عبد الحكم والبلاذري وفيما ينقلونه من روايات الواقدي(٩٠) ، ولكنها تزداد في مداها وتفصيلاتها عند المتأخرين مثل ابن عذاري ، مما جعل هذه الحملة موضع جدل بين البـــاحثين حتى قال روبرت برونشفيج : « اذا كان من الممكن أن ننظر الى حملة عقبة بن نافع على أنها حقيقة تاريخية ، فان سلامة الحس تحدونا الى أن نقصرها على (بلاد) الجزائر الوسطى ، وربما جاز أن نقول انها بلغت — على أكثر تقدير — منطقة وهران الحالية ووادي شلف حتى نعثر على ما يدحض ذلك الفرض(٩١) » . والحقيقة أن هـــذا الرأي يستشف كما قلنا ، من الروايات القديمة المقتضبة عن حملة عقبة كما نجدها في ابن عبد الحكم والبلاذري ولكن التفصيلات الدقيقة التي توجد في البكري ، وكذلك في نص ابن عذاري الذي نشره بروفنسال وكولان وكذلك في النص الجديد الذي نشره بروفنسال ، تدعو — كما يقول هـــذا الأخير — الى اعادة النظر في هذا الرأي فهي رغم تأخرها نسبيا (من القرن الرابع الى القرن السابع الهجري) تمثل الرواية الأندلسية المغربيةوالرواية

---

(٨٨) أنظر المالكي (ج ١ ص ٢٢ ، الذي يقول ان المال الذي أخذه عقبة من أبي المهـــاجر بلغ ١٠٠ ألف دينار . وقارن الرقيق . ص ٤٠ (حيث لا نجد الاشارة الى المال) .

(٨٩) أنظر ابن عذاري ج ١ ص ٢٣ (الذي يفسر ازدهار القيروان كأهم مركز علمي اسلامي في المغرب بفضل دعاء عقبة لها اذ قال . « رب املأها علما وفقها . واملأها بالمطيعين لك ... » ، وقارن الرقيق . ص ٤٠ (حيث نجد الدعاء الذي ربما نقله ابن عذاري عنه) .

(٩٠) أنظر تاريخ خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٢٤٥ . ابن عبد الحكم ، ص ١٩٨ ، البلاذري ، ط ٠ ١٨٦٦ ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩ ، ابن الأثير . سنة ٦٢ ج ٤ ص ٤٣ . ابن عذاري ج ١ ص ٢٣ — ٣٠ (ونلاحظ هنا أن الطبعة الأخيرة التي قام بها كولان وليفي بروفنسال سدت الثغرة الخاصة بحملته في نشرة دوزي) .

(٩١) أنظر ليفي بروفنسال ، نص جديد عن فتح العرب للمغرب . صحيفة المعهد المصري بمدريد . ١٩٥٤ . ص ١٩٧ .

الافريقية عن فتح العرب للمغرب (٩٢) . ويؤيد بروفنسال رأيه هذا بقوله : « ومن المؤكد أنه في بيئة محافظة مقفلة كالبيئة البربرية في جنوبي مراكش — حيث لا زالت ذكريات دعوة محمد بن تومرت وحركة الموحدين حية يتناقلها الناس — ألا تتلاشى ذكريات حلقات الفتح الاسلامي لهذه النواحي حتى زمن ابن عذارى ... »(٩٣) . وهكذا لا نستطيع الا أن نقبل حملة عقبة بن نافع في المغرب الأقصى على أنها حقيقة تاريخية . وأما ما يحيط بها في بعض الأحيان من المبالغات أو الاساطير فهو أمر طبيعي له مغزاه وتفسيره ، كما رأينا في فتوح الأجزاء الشرقية من المغرب . والحقيقة ان سلامة الحس تتطلب أيضا أن يكون العرب قد بدأوا التعرف على أقاليم المغرب الأقصى بعد أربعين سنة من بداية تعرفهم على أقاليمه الدنيا : فبدون ذلك لا يمكن أن نفسر كيفية استقرار سلطان العرب في المغرب الأقصى بعد أقل من ثلاثين سنة ، ودخل البربر في تلك الجهات في الاسلام وفي الجيش العربي ، ومشاركتهم في الفتوح واحتلالهم لمراكز قيادية كما حدث في فتح الأندلس .

اجتياح المغرب الأوسط :

أعد عقبة العدة لحملته ، والمفهوم أنه جهز ١٠ (عشرة) آلاف فارس (٩٤)، وقرر ان يترك في القيروان بعض قواته التي تقدر بحوالي ٦ (ستة) آلاف رجل (٩٥) ، على رأسهم قائدان هما عمر بن علي القرشي ، وزهير بن قيس البلوي (٩٦) . والظاهر أن عمر بن علي القرشي الذي ذكر ابن عبد الحكم اسمه هنا أولا كان القائد الأول ، وانزهير كانقائدا ثانيا — على عكس ما يأخذ به جمهرة الكتاب من أن قيادة عسكر القيروان كانت لزهير الذي استخلفه عقبة (٩٧) . وكان على تلك القوة التي بقيت في القيروان أن تدافع عنالمدينة، وأن تحمي ما بها من الذراري والأموال . وقبل الخروج من القيروان جمع عقبة الناس ، كما أحضر أولاده وخطب فيهم مبينا لهم هدف الحملة ، وهو طلب الاستشهاد في سبيل الله ، كما أوصاهم وصية يذكر المالكي أنها

---

(٩٢) نفس المصدر ، ص ١٩٧ — ٢٠٠ .

(٩٣) نفس المصدر ، ص ٢٠٠ .

(٩٤) المالكي ، ج ١ ص ٢٢ (النص يقول هنا ان عقبة أتى الى افريقية على رأس هـذا الجيش ، وانظر ص ٧٩ هامش ٣) .

(٩٥) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٨ .

(٩٦) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٨ ، المالكي ، ج ١ ص ٢٢ .

(٩٧) قارن خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٢٤٤ ، ابن الأثير ، سنة ٦٢ ج ، ص ٥٣ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٣ .

شملت على ثلاث خصال : النهي عن الاهتمام بالشعر على حساب حفظ القرآن ، وترك الاستدانة . ثم الزهد في أخذ العلم عن المغرورين (٩٨) . وودع عقبة أولاده وأهل القيروان وداعا مؤثرا ، فقال « أراكم لا ترونني بعد يومكم هذا (٩٩) » ، وخرج محتسبا . واتخذ عقبة الطريق الصحراوى الذى يخترق المغرب الأوسط فى اتجاه تاهرت والسوس الأدنى (سوس طنجة) والكتاب — كما قلنا — لا يتفقون على مراحل تلك الغزوة ، فابن عبد الحكم والبلاذرى يقولان باختصار ان عقبة سار الى السويس وجول فى بلادهم . أما الروايات المفصلة التى يقدمها المالكى وابن عذارى ، والتى ترجع أصلا الى الرقيق ، كما نظن ، فانها ليست منسجمة الترتيب . فرواية المالكى واضحة الاضطراب لانها تقدم فتح تلمسان على فتح الزاب ، وتسبق فتح الزاب على فتح تاهرت . وأما ابن عذارى فيجمع عديدا من التفصيلات المفيدة ، ولكن يؤخذ عليه الحشو الذى يثير اضطراب الرواية فى بعض الأحيان : فهو يتحدث عن حصار باغاية ثم يعود فيتكلم عن غزو قرطاجنة ثم عن غزو المنستير قرب سوسة مرتين . وفى رأينا ان رواية ابن الأثير التىينقلها عن الرقيق هو الآخر ، هى أكثر الروايات اتزانا ووضوحا وتسلسلا منطقيا ، وعلى هديها يمكن فعلا ترتيب روايات المالكى وابن عذارى التى تختلط فى بعـــــض الأحيان(١٠٠) .

فتح الزاب :

اتجه عقبة نحو مدينة باغاية عند أقدام جبل أوراس على الأطـــراف الشمالية لبلاد الجريد ، وكان بالمنطقة حامية رومية كبيرة خرجت للقاء العرب . ووقعت معركة حامية الوطيس ولكنها انتهت بانكسار الروم الذين انهزموا الى داخل أسوار المدينة بعد أن تركوا عديدا من القتلى والكثير من المغانم . وبعد

---

(٩٨) المالكى ، ج ١ ص ٢٢ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣ .

(٩٩) المالكى ، ج ١ ص ٢٢ ، ابن الأثير ، سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٣ (النويرى ، ص ٧٠) (نلاحظ هنا ان الكتاب يبالغون فى مناقب عقبة اذ يرون أنه كان يعرف أمر استشهاده منذ دخوله من الشام الى مصر ، وذلك حسب حديث ينسب الى الرسول — وهو مصطنع من غير شك — يبىء بمقتل جماعة من أمته على الجهاد فى سبيل الله ثوابهم كثواب أهل بدر وأحد — البخترى ، ص ٧٣ ، الاستبصار ، ص ١٧٤) . وقارن الرقيق ، ص ٤١ ، حيث يقوم المحقق النص المخروم فى شكل : « ولست أدرى أترونني بعد (يومى) هذا او أراكم ، لأن أملى الموت فى سبيل الله أو ردى الكفر . كما أحب ») .

(١٠٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣ ، المالكى ج ١ ص ٢٣ ، وقارن الرقيق ، ص ٤١ .

أن ضرب عقبة عليهم الحصار رأى ألا ينهك قواه في حصارهم ، واكتفى بما ناله العرب من المغانم (١٠١) ، وخاصة من خيل جبل أوراس التي « لم ير المسلمون في مغازيهم أصلب متها » (١٠٢) • ومن باغاية دخل عقبة بلاد الزاب الفسيحة وقصد عاصمتها المسيلة(١٠٣) • وتبدد الروم ومن في خدمتهم من البربر ، فلجأوا الى القلعة الحصينة ، بينما فر بعضهم الى الجبال(١٠٤) • ونازل الروم العرب بعض الوقت وكانت المعارك القاسية تنتهي بانهزامهم ، ومقتل كبار فرسانهم فلما وجدوا ألا طاقة لهم بالعرب اكتفوا بالاعتصام بالحصون ، وبذلك أصبحت السيادة على بلاد الزاب للعرب ، وهذا ما يعبر عنه الكتاب بقولهم : ذهب عز الروم من الزاب ، وذلوا الى آخر الدهر(١٠٥) •

ويعتبر غزو الزاب بداية مرحلة جديدة في فتوح المغرب ، اذ أن العرب لم يلقوا حتى ذلك الوقت مقاومة الا من جانب الروم • وهذا الأمر يدعو الى التساؤل عن طبيعة العلاقة بين الروم والبربر في هذا الوقت ؟ والذي يفهم من النصوص أن تلك العلاقة كانت سلبية : فالروم يعتصمون بالسواحل وبالقلاع في الداخل والى جانبهم قلة قليلة من أهل البلاد الذين اصطبغوا بالصبغة الرومانية ، واعتنقوا المسيحية ، ونعتقد أن الكتاب يقصدون هؤلاء مع الروم عندما يذكرون انكشاف النصارى أمام عقبة (١٠٦) • أما جمهرة المغاربة الذين لم يكونوا قد اتصلوا بعد بالعرب ، فكانوا في الدواخل يقفون موقف المتفرج على الطرفين المتنازعين • وعندما وجد الروم — بعد انتصارات عقبة في الزاب — ألا قبل لهم بمواجهة العرب فكروا في الاستعانة بالبربر • ولا نعرف الظروف التي تمت فيها الاتصالات والاتفاق بين الروم والبربر ،

---

(١٠١) أنظر ابن الأثير ، سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٣ ، المالكي ، ج ١ ص ٢٣ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣ ، قارن الرقيق ، ص ٤١ (حيث يذكر حصار قلعة مجانة في تفصيلات تتصل بباغاية) •

(١٠٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤ ، النويري ، المخطوط ، ص ٧٠ أ ، وقارن الرقيق ص ٤١ (حيث يتضح أنه مصدر الرواية) وعن الحصان المغربي الحديث ، الصلب المتنوع ، أنظر ، مقدمة (Gautier, p. 20)

(١٠٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤ ، وقارن النويري ، المخطوط ، ص ٧٠ ب حيث القراءة « يلبش » وهي من أعظم مدن الروم) ، الرقيق ، ص ٤٢ (حيث قراءة المحقق « المسن ») •

(١٠٤) ابن الأثير ، سنة ٦٢ ، ج ٤ ص ٥٣ ، ولا بأس أن تكون القلعة الحصينة هي التي يسميها الرقيق (ص ٤٢) أذنة ـ والتي قد توجد أيضا في شكل اربة ، وازبة (انظر الهامش ٤ للمحقق) •

(١٠٥) المالكي ، ج ١ ص ٢٣ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤ ، النويري ، المخطوط ، ص ٧٠ ب ، وانظر ، الرقيق ص ٤٣ •

(١٠٦) أنظر ابن الأثير سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٣ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣ — ٢٤ •

ولا ما هية الوعود أو التنازلات التي قدمها الروم ، فكل ما يقوله الكتاب هو أن الروم استغاثوا بالبربر (١٠٧) ، أو استعـــــانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم (١٠٨) • فعندما وصل عقبة الى منطقة تاهرت وجد نفسه أمام تحالف كبير من الروم والبربر لم يعهد ا لعرب له مثيلا من قبل (١٠٩) • وأعد عقبة العدة لخوض المعركة ، فعبأ رجاله في هيئة القتال ، وخطبهم خطبـــة حضهم فيها على الجهاد وحسن القتال • ولقى المسلمون كثيرا من الجهد في الوقعة الكبيرة لكثرة العدو ، ولكن القتال أنتهى بانهزام الروم والبربر الى المدينة •وقطع العرب طريق المنهزمين الى باب المدينة وقتلوا كثيرا منهم ، وغنموا أموالهم وسلاحهم (١١٠) • وهكذا كانت أحمال العرب وأثقالهم تزداد على طول الطريق الى طنجة حيث تبدد الروم أمامهم وكذلك قبائل البربر بعد أن تركوا بين أيديهم السلاح والأموال ، والسبايا الجميلات الغاليات الثمن اللاتي سيرن الى أسواق المشرق حيث كانت « الجـارية الروميـــة بالمشرق بألف دينار» (١١١) •

دخول المغرب الأقصى :

وترك عقبة الروم يعتصمون بالحصون والقلاع لا يبرحونها ، وأوغل في الغرب الى أن نزل على طنجة(١١٢) التي يعرف صاحبها باسم يليان • والمفهوم من سياق النصوص أنه أمير رومي على عكس ما تقوله بعض الروايات من أنه أعجمي أو قوطي ، أو ما يريد أن يذهب اليه بعض المحدثين من الأسبان والمغاربة

---

(١٠٧) المالكي ، ج ١ ص ٢٣ •

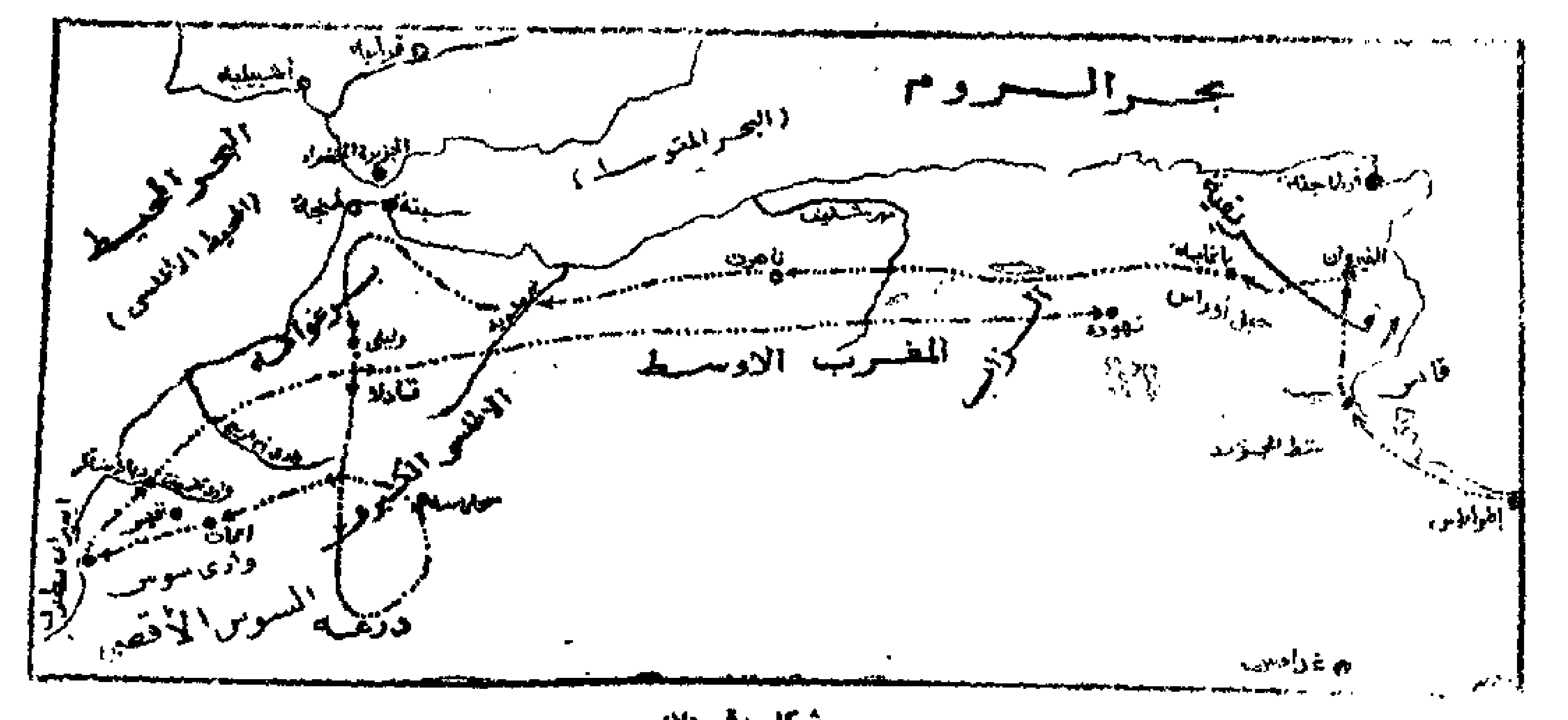
(١٠٨) ابن الأثير ، سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٣ ، وانظر الرقيق ، ص ٤٣ (حيث يتفق النصان ، فيما عدا كلمة « اجابوهم » الموجودة في شكل « اعانوهم » في الرقيق) •

(١٠٩) أنظر ابن الأثير ، سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٣ (النويري ، ص ٧٠ ب) المالكي ، ج ١ ص ٢٣ ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤ (حيث القراءة تيهرت ، تماما كما في الرقيق ، ص ٤٣) ، ليفي بروفنسال . نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، مدريد ، ص ٢١٩ (يعدد النص قبائل البربر في منطقة تاهرت وهي : « لواتة ، وهوارة ، وزواغة ، ومطماطة ، وزناتة ، ومكناسة ، وغيرهم •

(١١٠) نفس المصادر ، والرقيق ، ص ٤٤ •

(١١١) المالكي ، ج ١ ص ٢٣ ، وانظر الرقيق ، ص ٤٦ (حيث الاشارة الى الجاريات الغاليات من سبي طنجة) •

(١١٢) ابن الأثير ، سنة ٦٢ ، ج ٤ ص ٥٣ (النويري ، ص ٧٠ ب) ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٦ (بلغ أحواز طنجة) ، الرقيق ، ص ٤٤ ـ ٤٥ •



شكل رقم (٧)

حملة عقبة بن نافع في المغرب الأقصى – انظر ليفي بروفنسال ، نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، صحيفة المعهد المصري بمدريد ١٩٥٤ ، ص ١٩٩

من أنه بربري(١١٣) • أما عن امارة طنجة فكانت تشمل الأقاليم الواقعة على ساحل المجاز (الى الأندلس) وخاصة مدينتي طنجة وسبتة وما حولها ، ولو أننا لا نعرف ان كانت كورة طنجة ، في العصور الاسلامية ، التي كان عملها يبلغ مسيرة شهر(١١٤) احتفظت بنفس مساحة امارة طنجة القديمة • والظاهر أن البطريق يليان كان يعمل جاهدا على المحافظة على الاستقلال بامارته الطنجية ، وأنه في سبيل ذلك انتهج سياسة المداراة وحسن الجوار مع جيرانه في الشمال عبر الزقاق ، والبربر في دواخل طنجة • وعندما وصل العرب الى أحواز ولايته سارع الرجل الذكي الى الارتباط بعلاقات الود والصداقة معهم ، فراسل عقبة واستعطفه ، وقدم اليه الهداية الحسنة ، وسأله المسالمة (١١٥) • وظهر عقبة بمظهر الرجل السياسي القدير هو الآخر ، فرأى أن يرتبط بهذا الحليف المفيد الى حد كبير ، فقبل ما عرضه عليه الرومي ،وتم الاجتماع بينهما ، ووضع يليان معارفه وخبرته في خدمة العرب ، وأصبح بمثابة المستشار السياسي والعسكري لعقبة • فلقـــد أمـده بالمعلومات عن القوط في الأندلس ، وعن البربر في المغرب الأقصى (١١٦) ، ولفت نظره الى عدم التفكير في أمر الأندلس ، وذلك في ضوء ظروفه الدقيقة : اذ ترك الروم وراء ظهره ، بينما البربر أمامه في جموع كثيرة «لا يعلم عددهم الا الله»(١١٧)، «هم جاهلية ، لم يدخلوا في دين النصرانية ولا غيرها » (١١٨) •.وهذه المشورة

---

(١١٣) هذا الجدل يدور حول شخصية يليان عند الكلام عن فتح الأندلس الذي شارك فيه مشاركة ايجابية (أنظر ليفي بروفنسال ، تاريخ أسبانيا الاسلامية » بالفرنسية » ، طبعة ١٩٤٤ ص ١١ وهامش ١) • وانظر الاستقصا ، ج ١ ص ٦٢ ، ٧٣ ، ٧٦ (الذي يسميه يليان الغماري نسبةالى قبيلة غمارة التي تقطن جبال الريف) • وانظر الرقيق (ص ٤٥) حيث اليان الذي لقيه عقبة في طنجة ، ولو أنه يضيف اليه فيما بعد ، بمناسبة فتـح الأندلس (ص ٧١) شخصا آخر يسمى « اليان » ، ويعرف به على أنه ابن ملك الأندلس الذي كان غلاما حدثا جاء يحرض طارقا على غزو البلاد • وهذا ما لم يشر اليه أي من المصادر الأخرى •

(١١٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٦ •

(١١٥) ابن الأثير ، سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٣ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٦ ، الرقيق ، ص ٤٤ ــ ٤٥ •

(١١٦) ابن الأثير سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٣ (النويري ، المخطوط ، ص ٧١ أ) ، الرقيق ، ص ٤٥ •

(١١٧) ابن عذاري ج ١ ص ٣٦ •

(١١٨) نفس المصدر ، وقارن النويري (ص ٧١ أ) الذي يقول عن البربر حينئذ « وهم قوم ليس لهم دين يأكلون الميتة ويشربون الدم من أنعامهم وهم أمثال البهائم » ، وهي الرواية المأخوذة عن الرقيق • أنظر [illegible] افريقية والمغرب ، ص ٤٥ •

تعني بطبيعة الحال البرنامج الذي ينبغي على عقبة أن يتبعه في المغرب : أي القضاء على ما بقي للروم من قواعد (أصبحت كالشوكة في جنب العرب) ثم اخضاع بربر المغرب الأقصى (حتى يمكن لسلطان العرب أن يستقر في البلاد) • ولم يكن عقبة لينكص على عقبيه فقرر أن يتقدم الى الأمام ويخضع قبائل المغرب الأقصى ، وبدأ بالسوس الأدنى (خلف طنجة) وهي البلاد المعروفة بـ « تامسنا » حيث مساكن قبائل مصمودة (١١٩) • وتقول النصوص انه قتل في بربر السوس قتلا ذريعا ، ووجه رجاله في كل الاتجاهات يغزون ويغنمون(١٢٠) • أما عن مراحل الغزوة فيعتبر بيان ابن عذاري أوفى المصادر• ولقد جاء النص الجديد الذي نشره بروفنسال يؤيد رواية البيان ، ولو أنه في الحقيقة يمثل نسخة منقحة منها فمصدرهما واحد (١٢١) •

اتجه عقبة من طنجة جنوبا نحو مدينة وليلي القديمة (Volubilis) قرب الموضع الذي ستبنى فيه مدينة فاس فيما بعد ، وهناك التقى بجموع بربر أطلس الوسطى ، وهزمهم وأتبعهم جنوبا عبر بلاد تادلا نحو صحراء وادي درعة • ولما كان هدف عقبة هو الاحتساب والعمل في سبيل الله ، فانه اجتهد في نشر الاسلام لأول مرة في صحراوات بلاد مراكش ، فبنى مسجدا في درعة (١٢٢) • وكان من الطبيعي ألا يكتفي عقبة بالصحراء فوجه أنظاره نحو الاقاليم الغنية في الغرب وكان عليه أن يسير نحو الشمال الغربي الى منطقة تافللت (حيث ستبنى مدينة سجلماسة) ، لكي يدور حول جبال أطلس العليا وليدخل بلاد صنهاجة حيث أطاعه الناس دون قتال(١٢٣) •

---

(١١٩) نص المصدر . وقارن النويري (ص ٧١ أ) الذي يخطئ فيكتب « ترودنت » بدلا من تامسنا ، وهي الرواية التي ينقلها عن الرقيق (ص ٤٥) والتي لم يلتفت اليهـا المحقق •

(١٢٠) ابن الأثير سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٣ . ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٦ •

(١٢١) نص جديد عن فتح العرب للمغرب . صحيفة المعهد المصري بمدريد ، سنة ١٩٥٤ ، دراسة بروفنسال ، ص ٢٠٧ • أما القطعة من الرقيق التي نشرها الكعبي فلا تضيف شيئا الى حملة عقبة . وربما كان ذلك بسبب الخرم الموجود فيها اذ تنتقل من حرب السوس الأقصى الى استسلام القيروان لكسيلة . وهو الأمر الذي لم يشر اليه المحقق •

(١٢٢) النص الجديد ، ص ٢٠٨ . ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٧ •

(١٢٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٧ النص الجديد . دراسة بروفنسال ، ص ٢٠٨ • ونلاحظ أن النص نفسه (ص ٢١٩) يسجل روايتين أولاهما تقول : ان عقبة عاد من درعة الى تلمسان ومن هذه الأخيرة دخل بلاد صنهاجة • أما الرواية الثانية فلا نرى ذلك وهي التي اعتمدناها لأنها أقرب الى المعقول •

واتبع ذلك بدخول منطقة قبائل هسكورة (١٢٤) في طريقه الى قصبة تلك الأقاليم ، وهي مدينة أغمات (التى ستبنى بالقرب منها مدينة مراكش الحالية) ٠

والظاهر أن تلك المنطقة المزدهرة كانت على علاقات بالروم أو أنها كانت متأثرة بالحضارة الرومانية على الأقل ، وذلك أن بربر أغمات كانوا نصارى ٠ ولم يخرج أهل أغمات للقاء عقبة بل اعتصموا بمدينتهم ، ولكنهم لم يلبثوا أن نزلوا علىحكم عقبة بعد أن ضربعليهم الحصار مدة قصيرة (١٢٥) ٠ ومن أغمات اتجه عقبة غربا الى مدينة نفيس ـ عاصمة الوادى المعروف بهذا الاسم ـ الخصيبة ٠

ويقول البكرى أن عقبة حاصر بها الروم ونصارى البربر الذين اجتمعوا بها لحصانتها وسعتها وبنى بها مسجدا (١٢٦) ٠ وبدخول عقبة مدينة نفيس الحصينة انفتح أمامه وادى السوس الأقصى ، فقصد عاصمته وهي مدينة ايجلى التى بنى فيها مسجدا هي الأخرى (١٢٧) ٠ ودعا عقبة قبائل المنطقة الى الدخول في الاسلام فأجابته قبائل جزولة الذين أتوه فأسلموا وعادوا الى منازلهم ٠ ومن ايجلىسار الىماسة ، ومنها الى رأسايغيران يط(Cap Guir) على البحر المحيط(١٢٨) ٠ وحسب الفكـــرة الجغرافيـــة السائدة فى ذلك الوقت ، والتى تعتبر أن الساحل الأطلنطى للمغرب يتجه من الشرق الى الغرب ، اعتبر عقبة أنه أنهى فتح المغرب ٠ ويعبر المتأخرون من الكتاب عن

---

(١٢٤) نفس المصدر وأنظر الخريطة شكل ٧ ص ١٩٨ ٠

(١٢٥) ابن عذارى ج ١ ص ٢٧ ٠ ويحدد النص هنا مدينة أغمات بأنها « أغمات وريكة » ٠ والحقيقة أن أغمات كما يقول الجغرافيون مدينتان هما : أغمات وريكة ، وأغمات هيلانة (أنظر البكرى ، ص ١٥٣ ، الاستبصار ، ص ٢٠٧ ، رحلة لسان الدين بن الخطيب فى المغرب ، طبع جامعة الاسكندرية ، ١٩٤٨ ، ص ١٣٠) ، وقارن النص الجديد ، ص ٢١٩ ٠

(١٢٦) أنظر البكرى ، ص ١٦٠ ، الاستبصار ، ص ٢٠٨ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٧ ، والنص الجديد (ص ٢١٩) حيث نلاحظ أن بناء عقبة لمسجد نفيس موضوع جدل بين الكتاب اذ يرى بعضهم أن عقبة لم يبن فى المغرب الا مسجد القيروان ، ومسجدا بدرعة ، ومسجدا بالسوس الأقصى « وأما غير ذلك من المساجد المسماة باسمه فان الناس ـ والله أعلم ـ بنوها بموضع نزوله » أى احياء لذكراه ٠

(١٢٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٧ ، النص الجديد ، ص ٢٢٠ ٠

(١٢٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٧ ، ابن الأثير سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٤ (يكتب ايغيران فى شكل ماليان) ٠

ذلك بقولهم أن عقبة اقتحم المحيط بفرسه حتى وصل الماء الى تلابيبه ، وقال : يارب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهدا فى سبيلك (١٢٩) .

طريق العودة :

وهكذا اتخذ عقبة طريق العودة وهو يعمل على نشر الاسلام فى المغارب البعيدة ، فعرج على قبائل حاحة ، ورجراجة ثم صودة . والذى يفهم من سياق النصوص أن تلك القبائل استجابت لدعوة عقبة ودخلت فى الاســـلام . فعند وادى تنسيفت — فى منتصف المسافة بين مدينتى مراكش وموجادور — توقف عقبة حيث ترك واحدا من أصحابه اسمه شاكر لتعليم البربر أصول الاسلام ، وهذا الموضع عرف باسم هذا التابع فهو رباط شاكر عند الكتاب ، وهو حاليا يعرف بسيدى شيكر (حسب النطق الدارج هناك) (١٣٠) .

وحتى ذلك الوقت لم يجد عقبة كما رأينا مقاومة جدية ، ولكن النصوص تأخذ فى الاشارة الى ما بدأ يلقاه عقبة من المتاعب . فعند ما دخل بلاد دكالة (شمال وادى نفيس بين وادى تنسيفت ووادى أم الربيع) ودعاهم الى الاسلام امتنعوا عليه . والظاهر أنهم دبروا الغدر به ، وعندما قاتلهم انتهى القتال بانهزامهم ، ولكن بعد أن قتل كثير من أصحاب عقبة حتى سمى موضع المعركة بمقبرة الشهداء (١٣١) . ويقول النص الجديد الذى نشره بروفنسال ان مثل ذلك حدث فى بلاد هسكورة . ولو أن ابن عذارى يخالف ذلك ويذكر أن بربر هسكورة فروا أمام عقبة ، وأنه لم يقاتله بعد ذلك أحد من أهل المغرب (١٣٢) . ثم اتجه عقبة شمالا بغرب نحو طنجة لكى يعود الى المغرب الأوسط عبر ممر تازا ، وعندما وصل الى بلاد الزاب اتخذت الأمور شكلا غريبا انتـــهى باستشهاد البطل الكبير — بمعنى أن الانتصار الفاصل انتهى بكارثـــة مروعة .

---

(١٢٩) انظر تلك الرواية فى ابن الاثير ، سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٤ ، المالكى ، ج ١ ص ٢٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٧ .

(١٣٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٧ ، النص الجديد ، ص ٢٢٠ (وعن سيدى شيكر انظر الدراسة ص ٢٠٩ وهامش ١) .

(١٣١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٨ ، النص الجديد ، ص ٢٢٠ ، وقارن ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٨ (حيث يقول ان المصامدة حاصروا عقبة فى جبال درن) .

(١٣٢) النص الجديد لبروفنسال ، ص ٢٢٠ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٨ .

استشهاد عقبة :

وتتلخص الكارثة في أنه في الوقت الذى عادت معظم القوات العربية نحو القيروان تاركة قائدها في عدد قليل من الرجال ، وجد عقبة أمامه حلفا كبيرا من الروم والبربر • ومع أن الكتاب يلبسون نهاية عقبة ثوبا روائيا : من معرفته سلفا بنهايته الدامية ، ووقوفه في قلة من أصحابه ، واسراع والى المغرب السابق « أبى المهاجر » الى طلب الاستشهاد وهو مكبل بالحديد، فان تلك النهاية مقبولة على كل حال • فسبب التحالف بين الروم والبربر هو أن عقبة عندما اصطحب معه أبا المهاجر والزعيم الأوربى عامل هذا الأخير دون رعاية ـ رغم وصية أبى المهاجر ـ واستخف به مما أثار حقد كسيلة فاضمر الغدر (١٣٣) • وبطبيعة الحال لم يكن هذا السبب الشخصي ليكفي لقيام تحالف بين الروم والبربر ، ولكننا نعتقد أن عنف عقبة مع البربر ـ ذلك العنف الذى يعبر عنه ابن الأثير تعبيرا رائعا عندما يقول : « وقتل المسلمون فيهم حتى ملوا ، وغنموا منهم وسبوا سبيا كثيرا » (١٣٤) ـ هو الذى أزعج البربر ، وأوجد نوعا من التوافق أو التعاطف بينهم وبين الروم ، فوقفوا جنبا الى جنب في بعض المواضع من المغرب الاقصى • ثم أتت الصعوبات التى لقيها عقبة في نهاية الحملة ، واستشهاد عدد كبير من أصحابه لتشجع التحالف بين الروم والبربر في المغرب الأوسط أيضا •

في هذه الظروف راسل الروم كسيلة ، وهو في صحبة عقبة ، وليس من غير المحتمل أن يكونوا قد سهلوا له طريق الهرب الى قبيلته حيث جشد عددا كبيرا من أورية تقدر الرواية عددهم بـ ٥٠ (خمسين) ألف رجل(١٣٥) • أما عن سبب بقاء عقبة في عدد قليل من أصحابه فتمر عليه بعض الروايات مرا سريعا فابن عبد الحكم يقول : ان عقبة « انصرف الى افريقية فلما دنا من ثغرها أمر أصحابه فافترقوا عنه ، وأذن لهم حتى بقي في قلة »(١٣٦) •

---

(١٣٣) ابن الأثير ، سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٩ ، المالكي ، ج ١، ص ٢٧ (تقول الرواية ان عقبة كان يرغم كسيلة على سلخ الغنم) وهناك رواية غريبة (المالكي ، ج ١ ص ٢٥) تزعم أن سبب ثورة كسيلة انه سعى لتخليص صديقه ابى المهاجر من اعتقال عقبة •

(١٣٤) ابن الأثير ، سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٤ •

(١٣٥) النص الجديد لبروفنسال ، ص ٢٣٠ ، وقارن ابن خلدون (ج ٦ ص ١٠٩) حيث يقول ان كسيلة تراسل وقومه •

(١٣٦) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٨ ، وقارن المالكي ، ج ١ ص ٢٥ •

أما رواية ابن الأثير فتقول : انه « أمر أصحابه أن يتقدموا فوجا فوجا ثقة منه بما نال من العدو (١٣٧) » والحقيقة انه ليس من الغريب أن يأذن عقبة لرجاله بالاسراع الى أهليهم وذراريهم ، بعد ما أنجزوه من الأعمال في تلك الحملة الكبرى التي استمرت أكثر من عام من غير شك (١٣٨) ، وخاصة انهم كانوا محملين بالمغانم والسبي · وطبيعة الحال هذه لا تدع مجالا لما يقوله جوليان من أن عقبة ربما لم يكن مسيطرا عـــلى قواته(١٣٩) · أما ما يقـــوله ليفي بروفنسال من أنه « لابد أن أخبارا مقلقة قد بلغت عقبة من افريقية ، فلا يكاد يصل الى المغرب الأوسط حتى يبعث معظم جنده الى القيروان على عجل (١٤٠)» فمع أن هنالك نصوصا في ابن عبد الحكم قد تؤيده ، كتلك التي تقول ان القيروان تعرضت لهجمات قوية من الروم ومن البربر (١٤١) ، فان طبيعة الأشياء لا تسمح بهذا الفرض · فلو أن عقبة أراد نجدة العرب في القيروان لما تباطأ هو نفسه في نفسه في العودة قبل الناس · والأقرب الى المنطق هو ما تتفق عليه الروايات من أن الرجل العسكري الذي لا يكل من الحرب ولا يمل، رأى عندما وصل الى مدينة طبنة ـ على مسيرة ٨ (ثمانية) أيام من القيروان ـ أن يعود معظم رجاله الى القيروان ، واستبقى معه عددا من خيرة الرجال لينهي به ما قد أجله في أول الحملة من ترك عدد من الحاميات الرومية معتصمة بقلاعها · وذلك ما أخذه عليه يليان عندما طلب منه المشورة ·

وهكذا فكر عقبة في الاستيلاء على مدينتي تهودة وبادس (غير بعيد من بسكرة) ، ونعتقد أن هذا الأمر لم يكن يتطلب من عقبة الا الابقاء على بضع مئات من رجاله ،وليس خمسة آلاف كما تقول بعض النصوص (١٤٢) · وفي هذه الظروف حدثت المراسلات بين الروم وكسيلة ، وتمكن البربري من الهرب ، وحشد أهله وبني عمه (١٤٣) · وعرج عقبة في جماعة أصحابه

---

(١٣٧) ابن الأثير ، سنة ٦٢ ، ج ٤ ص ٥٤ . وقارن ابن عذارى ج ١ ص ٢٨ (أمر أصحابه فتقدموا ثقة منه بما دوخ من البلاد ···) ·

(١٣٨) يقول ابن عذارى (ج ١ ص ٣٠) : مكث عقبة في المغرب ٣ (ثلاث) سنوات ·

(١٣٩) Julien, Hist. de l'Afrique du Nord, p. 321.

(١٤٠) النص الجديد صحيفة المعهد المصري بمدريد ، ١٩٥٤ ، الدراسة ، ص ٢٠٩ ·

(١٤١) أنظر ابن عبد الحكم ، ص ٦٩ ، وفيما بعد ، ص ٢٠٦ ·

(١٤٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٦ ، النص الجديد ، ص ٢٢٠ ، وقارن ابن الأثير (سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٤) الذي يقول انه سار الى تهودة في نفر يسير ، وابن عذارى (ج ١ ص ٢٨) الذي يقول : انه كان في قلة من أصحابه ·

(١٤٣) ابن الأثير ، سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٤ (النويري ، ص ٧٢ أ) ·

الصغيرة على تهودة ، فانتصبت الحامية الرومية بالحصن ، وأخـذ الروم الاستخفاف بأصحاب عقبة للتشفي ، فجعلوا يشتمونه ويرمونه بالحجارة والنبل وهو يدعوهم الى الله ... »(١٤٤) . وعلى حين غرة وجد عقبة نفسه أمام جموع كسيلة .وعرف عقبة ما يضمره الأوربي له من الشر ، وكان من الطبيعي ألا يجفل المحارب العريق وجماعة فرسانه الصغيرة ، ومعهم أبو المهاجر ، من كثرة العدو وهوله ، فقرروا مواجهة المحنة ببطولة الشجعان ، فنزلوا عن خيـــولهم ــ حتى لا يفـــروا ــ ، وكسروا أجفـــان سيوفهم ، حتى تظل مسلولة الى النهاية ــ ، وقاتلوا حتى قتلوا « جميعا » كما تصر على ذلك كل الروايات ، رغم أنها تذكر أن بعضهم أسر مثل محمد بن أوس الانصاري في نفر يسير ، فخلصهم صاحب قفصة وبعث بهم الى القيروان(١٤٥) .

والكتاب لا يحددون وقت استشهاد عقبة بشيء من الدقة اذ يفهم من الروايات أنه استشهد في نفس السنة التي ولى فيها وهي سنة ٦٢هـ/٦٨١ ــ ٦٨٢ م . ولكن هناك رواية في ابن عـــذاري تقول ان غزوة عقبة ربمـــا استغرقت العـــام الأول من ولايته والـــذى يليه (١٤٦) ، بمعنى أن وفاة عقبة كانت في سنة ٦٣هـ/٦٨٢ ــ ٦٨٣ م ، وهذا ما يقول به النص الجديد الذى نشره بروفنسال (١٤٧) . هذا ، ونحن نميل الى الأخذ برواية ثالثة لابن عذارى تقول ان عقبة مكث في المغرب ٣ (ثلاثة) أعوام ، وهـذا يعنى أنه توفي في أواخر سنة ٦٤ هـ/٦٨٤ م أو أوائل سنة ٦٥ هـ/٦٨٤ م(١٤٨) ، مما يترتب عليه تقليل الفترة ما بين مقتل عقبة والثأر له على يدى زهير سنة ٦٩ هـ/٦٨٨ ــ ٦٨٩ م ، وهذا أقرب الى المعقول . وقبر عقبة يعرف الآن باسم « سيدى عقبة » وهو الاسم الذى غلب على مدينة تهودة ، وقبره مبجل من المغاربة جميعا ، يحجون اليه من كل مكان . وهو يعتبر من أقدم نماذج العمارة

---

(١٤٤) ابن عذارى . ج ١ ص ٢٨ . قارن النويرى . المخطوط ، ص ٧١ ب .

(١٤٥) ابن عبد الحكم . ص ١٩٩ . المالكى ، ج ١ ص ٥ . ابن الأثير سنة ٦٢ ص ٥٤ . ابن عذارى ج ١ ص ٢٩ . النص الجديد . ص ٢٢٠ . النويرى . المخطوط ، ص ٧٢ ب .

(١٤٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤ .

(١٤٧) النص الجديد ، ص ٢٢٠ . وقارن تاريخ خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٢٤٥ (حيث تضع الغزوة جميعا في سنة ٦٣ هـ) .

(١٤٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٠ .

الاسلامية في بلاد المغرب (١٤٩) .

كسيلة امير القيروان (٦٥ - ٦٩ هـ/٦٨٤ - ٦٨٨ م) :

وحشد كسيلة كل قبائل أوراس والمغرب الأوسط ، وزحف نحو القيروان. ولا شك في أنه كان لنبأ استشهاد عقبة صدى هائل في القيروان بلبل الأفكار وزعزع الثقة في نفوس الناس الذين انقسموا الى فريقين : فريق يريد القتال وصد الزحف البربري أو الاستشهاد وعلى رأسه نائب عقبة وهو زهير بن قيس البلوي ، وفريق يرى ألا سبيل الى الوقوف أمام العاصفة الهوجاء وأنه لابد من الانحناء أمامها الى أن تمر ، وكان على رأس هـذا الفريق التابعي المشهور حنش (بن عبد الله) الصنعاني (١٥٠) . ولا نعرف ان كان حنش من المسكر الذي بقي مع زهير في القيروان أو أنه حضر غزو المغرب الأقصى مع عقبة ، ولو أننا نميل الى هذا الرأي الأخير ، فقد عرف عن حنش نشاطه العسكري واشتراكه في الشئون العامة في المغرب حينئذ ثم في الاندلس مع موسى بن نصير ، وفي المشرق أيام فتنة ابن الزبير فيما بين هذا وذاك .

والظاهر أن القيروان تعرضت أثناء غياب عقبة لهجمات من جانب الروم والبربر ، وربما وقع هذا بعد ذلك التلاقي أو التحالف بين الفريقين . فابن عبد الحكم يذكر أنه بعد مسير عقبة « خالفه رجل من العجم (والمقصود هنا الروم) في ٣٠ (ثلاثين) ألفا الى عمر بن علي ، وزهير وهما في ستة آلاف » ، ثم يقول في موضع آخر أن ابن الكاهنة (والمقصود هنا البربر كما سنرى فيما بعد) هاجم القيروان وبها القرشي وزهير ، ولكنهما نجحا في هزيمته وكبداه خسائر في أصحابه (١٥١) . ونعتقد أن ذكر ابن الكاهنة في هذا المقام ان لم يكن صحيحا ، فهو يمثل فكرة تحالف بربر المغرب الأوسط (بربر جراوة قبيلة الكاهنة وجبل أوراس) وبربر المغرب الأقصى (بربر أوربة قبيلة كسيلة وحلفاؤهم من البرانس) . وهكذا اختلف العرب أمام ذلك التحالف الكبير في المقاومة أو الانسحاب من افريقية ، وبدأ حنش الصنعاني

---

(١٤٩) أنظر بروكلمان . تاريخ الشعوب والدول الاسلامية (بالفرنسية) ، ص ٧١ .
وأنظر : Julien, Hist. de l'Afrique du Nord, p. 321.

(١٥٠) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣١ .

(١٥١) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٩ .

بالانسحاب نحو مصر (١٥٢) ، وتبعه بعد أن وجد نفسه في قلة قليلة من الرجال لا تستطيع الوقوف أمام كسيلة • ولم يبق في القيروان من المسلمين الا الشيوخ والنساء والأطفال (١٥٣) ، بعد أن خرجت جماعات أخرى من العرب والموالي من البربر الى طرابلس حيث أقاموا (١٥٤) • وهكـــذا انتهت حملة عقبة الكبرى بكارثة اذ فقد العرب كل فتوحاتهم في افريقية والمغرب ، فقد كان انسحاب زهير الى اقليم برقة (١٥٥) حيث أقام في المنطقة التي عرفت باسم « لوبية ومراقية » (١٥٦) •

ودخل كسيلة القيروان وتأمر على العرب والبربر فيها ، وأصبح أشبه ما يكون بملك لافريقية • والذي يفهم من النصوص أن كسيلة لم يرتد عن الاسلام ، وقرينة ذلك أنه عامل المسلمين في القيروان معاملة طيبة (١٥٧) • والحقيقة ان كسيلة ما كان ليرتد بعد أن حسن اسلامه ، ولا شك في أنه فهم أن اساءة عقبة له لم تكن لتزيد عن مسألة شخصية لا علاقة لها بمبادئ الاسلام المبنية على الأخاء والمساواة • هذا ما يفهم من بعض النصوص التي تقول ان كسيلة عندما ثار بعقبة انما فعل ذلك من أجل تخليص صديقه أبي المهاجر من اعتقال عقبة (١٥٨) • واستمر كسيلة أميراً للقيروان ما يقرب من ٤ (أربع) أو ٥ (خمس) سنوات منذ مقتل عقبة سنة ٦٥ هـ (حسب ما أخذنا به من بعض روايات ابن عذارى) (١٥٩) الى سنة ٦٩هـ /٦٨٨ ــ ٦٨٩ م • وخلال

---

(١٥٢) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٣١ (قال حنش : يا معشر المسلمين من أراد منكم القفول الى مشرقه فليتبعني فتبعه الناس ») •

(١٥٣) المالكي ، ج ١ ص ٣٨ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٣١ • أما عن رواية خليفة بن خياط (ج ١ ص ٢٤٥) فتحوى خطأ جسيما اذ تقول أن كسيلة قتل زهير بن قيس وأصحابه ، رغم انها تعود الى ذكر العكس من ذلك في حوليات السنة التالية ٦٤ هـ (ج ص ٢٤٨) •

(١٥٤) ابن عبدالحكم ، ص ٢٠٠ •

(١٥٥) ابن الأثير ، سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٤ ، ابن عذارى ج ١ ص ٣١ •

(١٥٦) المالكي ، ج ١ ص ٣٩ (ويلاحظ ان رواية المالكي هنا مضطربة اذ يخلط بين انهزام زهير الى برقة وانتصاره فيما بعد على كسيلة) • وعن لوبية ومراقية ، أنظر فيما سبق (الفصل الخاص بالبلاد) ، ص ٦٤ ــ ٦٥ والهوامش •

(١٥٧) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٣١ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٠٩ ، اما ما يقوله الكتاب عن ارتداد البربر (ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٠٣) ، فالمقصود به ثوراتهم لا أكثر ولا أقل •

(١٥٨) انظر فيما سبق هامش ١٣٣ ص ٢٠٣ •

(١٥٩) أنظر فيما سبق ص ٢٠٥ •

تلك الفترة لا نعرف طبيعة العلاقة التي قامت بينه وبين الروم : هل كانت علاقة تحالف أم خضوع أم صداقة وحسن جوار ؟

٥ ـ زهير بن قيس والثأر لعقبة :

ولقد كانت أحوال الخلافة مواتية بالنسبة لكسيلة ، ففي الوقت الذي انسحب فيه زهير كان الخليفة يزيد بن معاوية قد مات ، وانفتحت أبواب فتنة ابن الزبير على مصاريعها · وقضى مروان بن الحكم خلافته القصيرة في صراع من أجل استرداد مصر ـ طريق المغرب ـ كما قضى عبد الملك ابنه السنوات الاولى في استعادة العراق والمشرق ، مما اضطره الى شراء سكوت ملك القسطنطينية عنه بالمال (١٦٠) وعندما بدأت الأحوال تميل الى الاستقرار انتهز عبد الملك فترة هدوء نسبي ، وفكر في أمر استعادة القيروان والمغرب· وعقد عبد الملك مجلسا من كبار أصحابه واستشارهم في أمر المغرب ، وفي خير وسيلة لاستنقاذ القيروان من المسلمين والأخذ بثأر عقبة(١٦١) · وتم الاتفاق على أن تكون قيادة قوات افريقية الى زهير بن قيس لأنه « صاحب عقبة ، وأعلم الناس بسيرته وتدبيره ، وأولاهم بطلب دمه »(١٦٢) ·

ويفهم من رواية الرقيق التي يقدمها ابن عذاري أنه تمت مراسلات بين عبد الملك في دمشق وزهير في برقة ، وأن هذا الأخير أطلع الخليفة على قوة الروم والبربر · وعلى ذلك عهد عبد الملك بولاية افريقية الى زهير وأمده بالخيل والرجال من الشام ، والأموال من مصر ، كما بعث اليه بعدة من

---

(١٦٠) أنظر فلهوزن . تاريخ الدولة العربية ، ترجمة أبو ريدة ، ص ١٨٣ وهامش ٣ عن اليعقوبي ·

(١٦١) انظر ابن الأثير . أحداث سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٥ (يعرف ابن الأثير أن ذلك حدث سنة ٦٩ هـ ولكنه ينبه الى أنه يذكر الحادثة هنا « ليتصل خبر كسيلة ومقتله فان الحادثة واحدة واذا تفرقت لم تعلم حقيقتها ») ـ نفس الصفحة · وعلى ذلك فهو يشير الى زهير في أحداث سنة ٦٩ هـ اشارة سريعة · وانظر ابن عذاري ج ١ ص ٣١ ، وانظر الرقيق ، ص ٤٦ ـ ٤٧ · أما ابن عبد الحكم فهو يشير في موضع الى أن عبد العزيز بن مروان هو الذي أرسل بعد ان ولي مصر الى زهير يأمره بغزو افريقية ثم انه يشير في موضع آخر الى أن حسان ابن النعمان هو الذي وجه زهيرا . ولو أنه يتبع ذلك بقوله : والله أعلم (الفتوح ، ص ٢٠٠) ·

(١٦٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣١ . النويري . المخطوط ص ٧٣ ا ، وقارن أصل الرواية في الرقيق ص ٤٧ ·

زعماء العرب من رجال الحرب (١٦٣) ، ومن هؤلاء تبيع ابن امرأة كعب الأخبار (١٦٤) الذى كان خبيرا بحرب الروم فى آسيا الصغرى وجزر البحر (١٦٥) ٠

موقعة ممش :

وفي سنة ٦٩هـ/٦٨٨ م خرج زهير فى جيش كثيف من برقة صوب افريقية ، وعندما دخل أرض قمونية (أى منطقة القيروان) عبأ رجاله فى هيئة القتال (١٦٦) ٠ وكان كسيلة قد علم بمقدم زهير وحشد رجاله من الروم والبربر ، فكانوا اضعاف أصحاب زهير اضعافا مضاعفة (١٦٧) ٠ ورغم ما يفهم من رواية المالكى المختلطة ، والتى يأخذ فيها عن أبى العرب ، من أن زهيرا هاله العدو وكاد يأخذه الرعب ، وأن الفضل يرجع الى ابن حيان الحضرمى وكذلك تبيع فى تهدئة روع زهير وبث الثقة فى نفوس المسلمين (١٦٨) ، فان كسيلة لم يشأ لقاء زهير بالقرب من القيروان ٠ وتفسر النصوص ذلك على أساس استراتيجى أخلاقى يتلخص فى أن كسيلة كان يخشى أن يثب عليه عرب القيروان من خلف ، ورغم ذلك لم يرد أن يغدر بهم حفاظا لما لهم عليه من العهد٠ هذا الى جانب أنه رأى أن يختار للمعركة موضعا آخر قريبا من الجبل ، فان تحقق له النصر نزل فى اثر العرب وطاردهم الى طرابلس ،وان انهزم اعتصم بالجبل وغاباته (الشعراء) فكان له نعم الملجأ (١٦٩) ٠ وهكذا سار كسيلة الى موضع يعرف بـ « ممش » على مسيرة يوم من القيروان ، وهذا الموضع

---

(١٦٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣١ ، المالكى ج ١ ص ٣٠ ، وانظر الرقيق ، ص ٤٧ - ٤٩ ٠

(١٦٤) المالكى ، ج ١ ص ٣٩ ، وقارن النص الجديد لبرونشفال ، ص ٢٢١ ، وأنظر ابن حجر الاصابة رقم ٨٦٠ ، ج ١ ص ٨٧ (الذى يحدد وفاته فى سنة ١٠١ هـ - عن ابن يونس فى تاريخ مصر) ٠

(١٦٥) عن تبيع واشتراكه فى حرب الروم بالمشرق أنظر الطبرى ، سنة ٥٤ ٠

(١٦٦) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٠ ، وقارن خليفة بن خياط (ج ١ ص ٢٤٨) الذى يجعل فتح زهير وقتل كسيلة (اكسيل) فى سنة ٦٤ هـ ، فكأنه يربط بين مقتل عقبة ومقتل كسيلة ٠

(١٦٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣١ - ٣٢ ٠

(١٦٨) المالكى ، ج ١ ص ٢٨ ٠

(١٦٩) ابن الأثير ، أحداث سنة ٦٢ ، ج ٤ ص ٥٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٢ ، المالكى ج ١ ص ٣٠ ، وقارن الرقيق ، ص ٥٠ ٠

يتميز الى جانب أهميته الاستراتيجية بتوفر الماء فيه (١٧٠) . وسار زهير نحو القيروان ولكنه لم يدخلها ، بل أقام بظاهرها بموضع باب سالم ، ثلاثة أيام الى أن استراح وأراح رجاله ودوابه استعدادا للمعركة الكبرى . وفي اليوم الرابع (١٧١) وصل زهير في اثر كسيلة الذي خرج هو الآخر مع بربره ورومه ، ووقف الجيشان وجها لوجه في آخر النهار ، وكان عليهما ان ينتظرا صباح اليوم التالي فباتا على أهبة الاستعداد (١٧٢) . وفي صبيحة اليوم التالي تم اللقاء الرائع بين الجمعين ، وشهدت ممش قتالا لم تعرف افريقية له مثيلا من قبل اذ فشى القتل في الفريقين ، وآيس الناس من الحياة . ولكنه ما كاد اليوم يشرف على الانتهاء حتى حقق العرب نصرا كبيرا فانهزم البربر والروم، وقتل كسيلة وكثير من كبار أصحابه . وتبع العرب المنهزمين يقتلونهم ويثأرون منهم (١٧٣) . وبالغت بعض الروايات فقالت ان العرب تمادوا في مطاردتهم (طلبهم) حتى سقوا خيلهم من نهر ملوية (١٧٤) . ثم انهم اتبعوا ذلك بفتح مدينة شقبنارية (١٧٥) .

عودة زهير ومقتله في برقة :

ويفهم من النصوص أن غزوة زهير هذه كانت حملة تأديبية أولا وقبل كل شيء . فبعد أن انتقم زهير لمقتل عقبة ، وأخذ بثأر البطل الشهيد عاد نحو المشرق في طريقه الى مصر . ويفسر الكتاب ذلك بأن زهيرا كان « من رؤساء العابدين وأشراف المجاهدين »(١٧٦) . وأنه « رأى بافريقية ملكا عظيما فأبى

---

(١٧٠) انظر الرقيق ، ص ٥٠ . المالكي ، ج ١ ص ٣٠ (وفي صفحة ٢٨ يقول ان اللقاء تم بعصر أبي عبيد أو بمشى . ولو أنه يحدد ذلك قبل رحيل زهير الى لوبية ومراقية) .

(١٧١) أنظر الرقيق ، ص ٥١ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٢ ، النويري ، ص ٧٣ أ . المالكي ، ج ١ ص ٣٠ (يقول يوم الاربعاء بدلا من اليوم الرابع) .

(١٧٢) المالكي ، ج ١ ص ٣٠ (بات الناس على مصافهم) . وفي رواية المالكي (ص ٢٩) التي تحدد خطأ تلك الوقعة قبل انسحاب زهير الى لوبية ومراقية يفهم أن اللقاء وافق عيد الأضحى . وان زهيرا سأل الروم تأخير موعد القتال من أجل العيد فأجابوه .

(١٧٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٠ . وانظر الرقيق ، ص ٥١ ، ابن الأثير ، سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٥ .

(١٧٤) انظر الرقيق ، ص ٥٢ (حيث يفهم من النص أن المطاردة عن طريق مرماجنة على الحدود التونسية الجزائرية حاليا) ، المالكي ، ج ١ ، ص ٣٠ ، ابن عذاري ج ١ ص ٣٢ .

(١٧٥) المالكي ، ص ٣٠ (وعن سقبنارية التي تعرف حاليـــا باسم « الكف » أنظر الاستبصار ، ص ١٦٤ وهامش ٣ ، ومؤنس . فتح المغرب ، ص ٢٢٥) .

(١٧٦) المالكي ، ج ١ ص ٢٩ .

أن يقيم ، وقال انما قدمت للجهاد فأخاف أن أميل الى الدنيا فأهلك» (١٧٧) ·
ورغم ما تقول النصوص من أنه ترك القيروان آمنة لخلو البلاد من عدو أو ذي شوكة (١٧٨) ، فالحقيقة كانت غير ذلك : فقد كانت الأقاليم الشرقية من المغرب في ذلك الوقت فريسة لغارات تخريبية من جانب الروم ، وهذا هو السبب — من غير شك — في عودة زهير نحو المشرق فعندما علم الروم برحيل زهير من برقة نحو افريقية(١٧٩) لقتال كسيلة ، رأوا أن يهاجموا برقة · والظاهر أنهم أرادوا أن يوقعوا القوات العربية بين شقي الرحى (بين البربر في أفريقية وهم في برقة) فخرجوا من جزيرة صقلية في أسطول عظيم وأرسوا على الساحل البرقي (١٨٠) ·

ورواية ابن عبد الحكم الخاصة بمقتل زهير مضطربة — وهذا ما يفسر اضطراب رواية المالكي — وذلك أنه يجعل مقتل زهير بعد ولاية حسان بن النعمان ، وذلك في سنة ٧٦ هـ أيام ولاية عبد العزيز بن مروان لمصر · ولكنه رغم هذا الخطأ الزمني فان الرواية تحتوي على تفصيلات مفيدة — لا يقلل ذلك الخطأ من أهميتها (١٨١) · وحسب هذه الرواية هرب والي برقة ، وهو ابراهيم ابن النصراني ، تاركا العرب وأهل الذمة بين أيدي الروم الذين احتفظوا ببرقة مدة أربعين يوما(١٨٢) · وتشبه الروايات الحملة البيزنطية بغزة انتقامية

---

(١٧٧) ابن الأثير ، سنة ٦٢ ، ج ٤ ص ٥٥ (النويري ، المخطوط ، ص ٧٢ ب) ، وقارن الرقيق ص ٥٢ (الذي يظن أنه مصدر هذه الرواية) . المالكي ج ١ ص ٣٠ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٢ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٠٦ ·

(١٧٨) ابن الأثير ، سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٥ ، ابن عذاري ج ١ ص ٣٢ ، المالكي ج ١ ص ٣٠ ·

(١٧٩) الرقيق ، ص ٥٢ ونلاحظ هنا خلطا في ابن عذاري لم يتنبه اليه محقق النص اذ يقول « فبلغ الروم خروجه من افريقية الى برقة » وهو ما لا يستقيم مع بقية النص (انظر ج ١ ص ٣٣) · ومثل هذا الخطأ يوجد أيضا في النص الجديد لبروفنسال (ص ٢٢١) مما يترتب عليه قول بروفنسال في دراسته للنص ان الروم أقبلوا الى افريقية (ص ٢١١) والظاهر أن ابن عذاري ترك الجملة التي تقول بخروج زهير من برقة الى افريقية ، وهو يقتبس من الرقيق . واخذ الجملة التي تأتي بعدها وتقول ان غارة الروم وافقت « قدوم زهير من افريقية الى برقة » وهكذا كان الصحيح ما ينقله المالكي (ج ١ ص ٣٠) وابن الأثير (سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٥) وهو ما أخذنا به ·

(١٨٠) ابن الأثير سنة ٦٢ ، ج ٤ ص ٥٥ ·

(١٨١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٢ — ٢٠٣ ، وعن المالكي انظر ج ١ ص ٢٩ ·

(١٨٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٢ ·

لا تهدف الى استعادة المدن اليونانية القديمة بل تهدف الى التخريب والقتل والنهب والسبي (١٨٣) ٠

وتتلخص أهمية رواية ابن عبد الحكم في أنها تبين السبب الحقيقي في عودة زهير من القيروان نحو المشرق ، وذلك لتخليص برقة وأهلها من الروم وليس الخوف من أن تفتنه دنيا افريقية ٠ فافريقية في ذلك الوقت كانت أرض الرباط والجهاد بمعنى أنها كانت قبلة الراغبين في الآخرة والباحثين عن الاستشهاد في سبيل الله ٠ ويفهم من رواية ابن عبد الحكم أن الروم كانوا قد اتخذوا مدينة درنة (القريبة من طبرقة) مركزا لهم(١٨٤) ، وعلى مشارف تلك المدينة كانت نهاية زهير بن قيس التي يجعلها الكتاب أشبه ما تكون بنهاية مأساة عقبة الدامية ٠ فزهير عندما التقى بالروم لم يكن معه كل رجاله بل كان على رأس عدد قليل منهم يبلغون ٧٠ (سبعين) رجلا(١٨٥) ٠ والظاهر أن طبيعة المنطقة الجبلية (وجبل برقة لا يبعد عن الساحل بل ينقض عليه أو يكاد في منطقة درنة) لم تسمح للعرب بالتقدم جميعا ٠ فاضطر زهير الى التقدم في جماعة صغيرة من الفرسان نحو الساحل في مسالك الجبل وشعابه الضيقة ، تاركا جمهرة رجاله في الطريق الرئيسي(١٨٦) ٠ والظاهر أنه عندما علم الروم بمقدم زهير أخذوا في الاستعداد للرحيل عن برقة ، فعندما أشرف زهير على الساحل كان الروم يدخلون سباياهم من نساء العرب وذراريهم في مراكبهم ٠ ورأى زهير حشد الروم كبيرا وتأكد من أن جماعته القليلة لا تستطيع الوقوف أمام العدو ، والظاهر أنه فكر فعلا في الانتظار لحين مجيء بقية قواته أو العودة للاستنجاد بها ٠ فهذا ما يفهم من الروايات التي تقول أنه لم يمكنه الرجوع (١٨٧) . وهذا ما يقوله صراحة ابن عبد الحكم ، لولا حماس بعض الشباب من أصحاب زهير الذين دفعوه دفعا الى خوض غمار المعركة غير المتكافئة (١٨٨) ٠ في هذه الظروف الصعبة استجاب زهير لاستغاثة

---

(١٨٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٢ ، وقارن الرقيق ، ص ٥٢ ، ابن الاثير سنة ٦٢ ج ٤ ص ٥٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٣ ، المالكي ، ج ١ ص ٣٠ ٠

(١٨٤) ابن عبد الحكم ص ٢٠٢ ٠

(١٨٥) نفس المصدر . وقارن الرقيق (ص ٥٣) حيث يقول انه كان معه « عدة من أشراف الناس » ٠

(١٨٦) أنظر المالكي ج ١ ص ٣٠ ٠

(١٨٧) ابن الأثير ، سنة ٦٢ ، ج ٤ ص ٥٥ ، ابن عذارى ج ١ ص ٣٣ ٠

(١٨٨) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ (تقول رواية ابن عبد الحكم : « فتوقف ليلحق به الناس فقال له فتى شاب كان معه ، جبنت يا زهير ، فقال : ما جبنت يا ابن أخي ولكن قتلتني وقتلت نفسي » ٠ هذا كما يمكن المعنى في ان تكون هناك انشقاق أو اضطراب في قوات =

المسلمين ، والروم يدخلونهم ، فامر اصحابه بالنزول (١٨٩) . بمعنى أنهم تركوا خيولهم وأصبحوا رجاله لوعورة الارض التى لا تسمح بحرب الخيالة، وبمعنى أنهم لن يبرحوا أماكنهم مهما كانت نتيجة المعركة .

وهكذا تكاثر الروم على زهير وأصحابه . واقتتلوا حتى عانق بعضهم بعضا ، ولم تستطع جماعة الفرسان الصغيرة — وهى تحارب بدون خيلها — الصمود ، فاستشهدوا عن آخرهم (١٩٠) كما استشهد عقبة فى تهودة .ويقول ابن عبد الحكم ان قبورهم هناك معروفة(١٩١) تدعى قبور الشهداء(١٩٢) وفى مدينة درنة اليوم قبر مازال يحيى ذكرى استشهاد زهير وأصحابه فى تلك الوقعة ، يقال أنه قبر زهير .

وسمع بالكارثة رجل من بنى مذحج اسمه عطية بن يربوع كان فارا من الوباء فى موضع يعرف بأملس من برية برقة فاستغاث بالمسلمين فى تلك البرية ، واستطاع أن يجمع حوالى ٧٠٠ (سبعمائة) رجل زحف بهم على الروم الذين لجأوا الى مراكبهم بخيلهم وسلاحهم ، وبمن معهم من سبى المسلمين (١٩٣) .

ووصلت أنباء مقتل زهير الى دمشق فكان لها رنة حزن عميقة ، «وكانت المصيبة بزهير وأصحابه مثل المصيبة بعقبة بن نافع وأصحابه »(١٩٤) . واهتم الخليفة عبد الملك بن مروان بالأمر ، ولكنه لم يكن فى وضع يسمح له بالعمل الايجابى فى المغرب ، فقد كان عليه أولا أن يتخلص من منافسه عبد

= زهير ، فابن عبد الحكم يورد رواية يعترض فيها زهير على أن يكون عارض الجند فى قواته رجلا اسمه جندل بن صخر لأنه اشتهر بفظاظته وغلظته ، وشدته على الناس (ص ٢٠٢ — وهو يوجه كلامه هنا الى عبد العزيز بن مروان) . كما يفهم من رواية ابن عبد الحكم أيضا أن الوباء كان يجتاح برقة فى تلك السنة (ص ٢٠٣) ولا نعرف ان كان قد أثر عـــلى قوات زهير أم لا .

(١٨٩) انظر الرقيق (ص ٥٣) حيث يقول النص أن زهيرا نادى بأصحابه : « النزول رحمكم الله ، فنزلوا » ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٣ .

(١٩٠) انظر ابن عبد الحكم . ص ٢٠٣ ، الرقيق ص ٥٣ ، ابن الأثير سنة ٦٢ ، ص ٥٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٣ ، المالكى ، ج ١ ص ٣١ .

(١٩١) فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٠٣ .

(١٩٢) البلاذرى . فتوح البلدان ، ص ٢٢٩ .

(١٩٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٣ المالكى ، ج ١ ص ٣١ .

(١٩٤) الرقيق ، ص ٥٣ ، المالكى . ج ١ ص ٣١ ، النويرى ، ص ٧٢ ب .

الله بن الزبير — بطل وقعة سبيطلة • وعلى ذلك لم تتمكن الخلافة من استعادة المغرب الا بعد مقتل ابن الزبير فى سنة ٧٣هـ/٦٩٢م • ورغم أننا لا نعرف بشيء من الدقة ما كانت عليه أحوال افريقية والمغرب في فترةالسنوات الأربع من سنة ٦٩ هـ الى سنة ٧٢ هـ ، فمن المعروف أن الروم انسحبوا من برقة فكانت بين أيدى المسلمين ، وكان يليها مولى لعبد العزيز بن مروان اسمه تليد (١٩٥) • ويفهم أيضا أن القيروان ظلت عربية اسلامية بعد أن أمنها زهير ، اذ لا تذكر النصوص أن العاصمة العربية الافريقية تعرضت خلال تلك الفترة الى أعمال عدائية من جانب الروم أو البربر ، ولا لأعمال مضادة من جانب حسان بن النعمان الذى وقع على عاتقه عبء الثأر لزهير واقرار الأمور فى المغرب •

المقاومة الأخيرة وتثبيت أقدام العرب نهائيا في المغرب :

١ — أعمال حسان بن النعمان الغساني (٧٣ هـ/٦٩٣ م — ٨٥ هـ/ ٧٠٤ م) :

ا — الصراع ضد الروم والبربر :

بعد أن انتهت أزمة الخلافة الثانية ، وتخلص عبد الملك بن مروان من مناقسة عبد الله بن الزبير ، انصب تفكير الخليفة على المغرب فجهز جيشا كبيرا عهد بقيادته الى أحد مشاهير قواد الشام ، وهو حسام بن النعمان ، من سلالةملوك عرب الشام القدماء من الغساسنة ، وعهد اليه بولاية المغرب (١٩٦) • واختيار حسان يدل على اهتمام الخليفة فى دمشق اهتماما مباشرا بالمغرب ، فحسان هو أول قائد من أهل الشام يدخل المغرب ويعهد اليه بولايتها زمن بنى أمية ، كما ينص على ذلك المالكى (١٩٧) • فقد كان القواد والولاة قبل ذلك من أهل مصر • ويشير الكتاب الى عظم كثافة جيش حسان فيقولون ان عدته بلغت ٤٠ (أربعين) الف رجل • أما عن وقت دخوله المغرب فيختلفون فى تحديده ، فالبعض يجعله فى سنة ٦٩ هـ/٦٨٨ م أى مكانه

---

(١٩٥) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٣ •

(١٩٦) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٠ ، ابن الأثير ، سنة ٧٤ ج ٤ ص ١٧٩ • وعن نسب حسان انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٢ (حسان بن النعمان بن عدس بن بكر بن مغيث بن عمرو ابن مزيقيا بن عامر بن الأزد) •

(١٩٧) المالكى ، ج ١ ص ٣١ •

دخول زهير (١٩٨) ، والبعض يضعه في سنة ٧٨ هـ/٦٩٧ (١٩٩) م أى في موضع دخوله الثاني كما سنرى • والأقرب الى الصحة هو التاريخ الذى يحدده ابن عبد الحكم وهو سنة ٧٣ هـ/٦٩٢ م ، بعد مقتل ابن الزبير مباشرة • وهذا لا يتعارض مع ما يأخذ به ابن الأثير من أن حملة حسان كانت سنة ٧٤ هـ/٦٩٤ ـ ٦٩٤ م(٢٠٠) ، اذ الحقيقة أن الجيش الكبير لم يخرج الى المغرب مباشرة بل ان الأوامر صدرت الى حسان بالاقامة في مصر الى أن يتم اجتماع رجاله ، وحتى تتبين الأمور وتتضح • أما عن نفقات القوات العظيمة واعطيات الرجال فكان على خزانة مصر أن تدبره ، وكان ذلك يتطلب أيضا بعض الوقت •

فتح قرطاجنة :

وهكذا أعدت الحملة في سنة ٧٣ هـ ، وخرج حسان من مصر في سنة ٧٤هـ على رأس جيشه الذى لم يدخل بلاد المغرب مثله من قبل (٢٠١) • ونزل في طرابلس حيث انضم اليه من كان هناك من عرب افريقية وطرابلس (٢٠٢) • وبعد أن أصلح من شأنه خرج نحو افريقية وعلى مقدمته محمد بن أبي بكير، وهلال بن ثروان اللواتى (٢٠٣) ، ودخل القيروان حيث تجهز منها للغزو • واتبع حسان خطة عسكرية جديدة أساسها مقابلة أعدائه من الروم والبربر كل على حدة حتى يسهل عليه القضاء عليهم • وهذا ما تعبر عنه الروايات العربية عندما تقول انه لما دخل أفريقية سأل عن أعظم ملوكها فقيل له صاحب قرطاجنة ، فلما تم القضاء على الروم سأل عمن بقي من الملوك فدلوه على زعيمة جبل أوراس وهي الكاهنة(٢٠٤) • وبدأ حسان بتوجيه ضربته الأولى

---

(١٩٨) المالكى ، ج ١ ص ٣١ ، النص الجديد ليروفنسال ، ص ٢٢١ ، النويرى ، ص ٧٤ أ (ينقل رواية الرقيق) •

(١٩٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٤ •

(٢٠٠) ابن الأثير ، سنة ٧٤ ، ج ٤ ص ١٧٩ (النويرى ، المخطوط ، ص ٧٤ أ) • وقارن خليفة بن خياط (ج ١ ص ٢٦٤) حيث يضع غزو حسان لجبل اوراس في أحداث سنة ٧٣ هـ •

(٢٠١) نفس المصدر •

(٢٠٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٠ •

(٢٠٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٠ (ويضيف ابن عبد الحكم هنا زهير بن قيس وذلك لانه يجهل وفاته كما أشرنا بعد ولاية حسان) •

(٢٠٤) المالكى ، ج ١ ص ٣١ ، ٣٢ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٤ ، ٣٥ ، النويرى ص ٧٤ أ ، ٧٤ ب •

الى قرطاجنة عاصمة افريقية القـــديمة ، ولم يكن العرب قد حاربوها من قبل (٢٠٥) • وضرب حسان الحصار على المدينة الحصينة ، وكان بها عدد كبير من الروم ، ودارت معارك طاحنة بين العرب والروم بين تراشق بالنبل والسهام والرومي بالمنجنيقات ، وما بين تلاق بين الفرسان والكماة ، وكان العــرب شديدي الوطأة على خصومهم ، الذين يأسوا من امكانهم الصمود ، حتى أن كثيراً منهم فر في المراكب الى جزائر البحر وخاصة نحو صقلية (٢٠٦) • والظاهر أن ذلك تم خديعة اذ توجد رواية في البكري ينقلها التجاني تقول : انهم طلبوا الامان من حسان فلما أوقف القتال هرب الروم في المراكب(٢٠٧)• ويؤكد ذلك ما يقوله ابن عبد الحكم من أن حسان لم يصب فيهم الا قليلا من ضعفائهم (٢٠٨) • وأما ما يكاد يجمع عليه المتأخرون من أن حسان قتل الروم قتلا ذريعا وأنه خرب قرطاجنة(٢٠٩) ، فهو خاص بأخذ المدينة عنوة في المرة الثانية (سنة ٧٩هـ/٦٩٨ م كما سنرى) ، وهذا لا يمنع من صحة توقيت المعارك التالية • فلقد أتبع حسان دخول قرطاجنة بالحاق الهزيمة بالروم وبمن انضم اليهم من البربر عند صطفورة وبنزرت غير بعيد من قرطاجنة ، كما أخذ يوجه سراياه في كل أنحاء افريقية • واكتفى حسان بانهزام أعدائه، ولم ير ضرورة لانهاك كل قواه في حرب باجة حيث هرب الروم وتحصنوا أولا في بونة (عنابة الحــالية في شرق الجزائر على حدود تونس) حيث لجــأ البربر (٢١٠) • وكانت الجراح قد فشت بين العرب خلال معاركهم العديدة، فرجع حسان الى القيروان لتضميد جراح الناس ، ولاصلاح شئونه(٢١١) •

---

(٢٠٥) ابن الاثير ، سنة ٧٤ هـ ج ٤ ص ١٨٠ (وينبغي الاشارة هنا الى أن ابن الأثير يقول ان حسان وجد فيها الروم والبربر وهذا ما لا يقوله غيره مثل ابن عبد الحكم والمالكي وابن عذاري) •

(٢٠٦) لا تقول النصوص العربية انهم فروا نحو صقلية فقط (وهذا أمر معقول لان صقلية كانت من أهم مراكز الثقل في ذلك الوقت) بل ونحو الاندلس أيضا (وهذا موضع شك فالاندلس كانت قوطية ولم تكن رومية . ولو انه من الممكن ان يكون المقصود هو أنهم فروا نحو سبتة وطنجة مثلا وكانت لهما علاقات بالاندلس) ـ ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٩ •

(٢٠٧) البكري . ص ٣٧ ، التجاني ، ص ١٠ ، وانظر حسين مؤنس ص ٢٣٦ •

(٢٠٨) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٠ •

(٢٠٩) ابن الأثير . سنة ٧٤ ج ٤ ص ١٨٠ ، ابن عذاري . ج ١ ص ٣٥ ، المالكي ج ١ ص ٣٢ •

(٢١٠) ابن الأثير سنة ٧٤ ص ١٨٠ (النويري ، ص ٧٤ ب) ، ابن عــذاري ج ١ ص ٣٥ . المالكي ، ج ١ ص ٣٢ •

(٢١١) نفس المصدر •

الصراع ضد الكاهنة :

وهكذا نجحت أولى حملات حسان بدخوله عاصمة افريقية الازنيـة في سنة ٧٤ هـ ، وبذلك كان يظن أن أمر المغرب قد تمهد أو كاد بعد القضاء على المقاومة النظامية من جانب الروم ، فلم يعد أمامهم الا بعض تجمعات من القبائل غير المنظمة التي يسهل اخضاعها • ولم يكن الأمر كذلك اذ تمثلت المقاومة البربرية في ذلك الوقت في تحالف قبائل جبل أوراس تحت قيادة امرأة يعرفها الكتاب العرب باسم الكاهنة • وتحيط بهذه المرأة روايات شبه اسطورية ولكنه يمكن أن يكون لها أساس من الصحة • فالحقيقة ان الكاهنة ليس اسم المرأة بل هو لقب أطلق عليها نظراً لخبرتها بالسحر وفراستها في التنبؤ بما يقع من الأحداث ، وهذا ما عرف به الكهان قديما ، وهذا ما كان شائعا بين البربر في جاهليتهم (٢١٢) ، وماكان يشتهر به المغاربة بيننا الى عهد قريب• أما اسم المرأة كما تقول بعض الروايات فهو دهيار (٢١٣) ،والظاهر أن هذا هو الآخر صفة أو لقب أطلق عليها لاتصافها بالدهاء ، وهو الصفة الأساسية عنـــد السحرة والمشـــعوذين • أما ما يقال من أن المرأة كانت يهودية (٢١٤) ، فهذا مالم تشر اليه النصوص الأصيلة وما لم يثبت له دليل رغم ما هو معروف من أن الأفكار اليهودية عرفت بالمغرب منذ القديم(٢١٥) • فعلى العكس من ذلك تقول بعض الروايات انه كان مع الكاهنة صنم عظيم من خشب كانت تعبده بمعنى أنها كانت وثنية (٢١٦) • أما ما هو معروف فالكاهنة بربرية من قبيلة جراوة، وهذه القبيلة من مجموعة قبائل البتر(البدو) التي سكنت جبل أوراس • ونجحت المرأة العجيبة في جمع قبائل أوراس حولها حتى سماها ابن عبد الحكم والبلاذري « بملكة البربر » (٢١٧) ، وحتى قال مستشارو حسان له « ان قتلتها دان لك المغرب كله » (٢١٨) • ولا نعرف ان كانت المرأة استمدت قوتها من البربر فقط أو من علاقة كانت بينها وبين

---

(٢١٢) انظر فيما سبق ، ص ١١٤ ـ ١١٦ •

(٢١٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٠٩ (دهيا بنت ماتيـــة بن تيفان ملكة جبـــل أوراس) •

(٢١٤) نفس المصدر ، ج ٦ ص ١٠٧ •

(٢١٥) أنظر فيما سبق ، ص ١١٧ ، هـ ٢٥١ •

(٢١٦) المالكي ، ص ٣٥ وانظر فيما سبق ، ص ١١٥ ـ ١١٦ والهوامش •

(٢١٧) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٠ ، البلاذري ، ص ٢٢٩ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٧٠ •

(٢١٨) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٠ • وقارن ابن الاثير ، سـنة ٦٢ ج ٤ ص ١٨٠ • المالكي ، ج ١ ص ٣٢ •

الروم أيضا • فهناك بعض النصوص تقول انه كـــان من بين اولادها ابن يوناني (٢١٩) ، مما يحتمل معه أن يكون الروم قد أعانوها على تثبيت مركزها أو أن بعضهم ربط مصيره بمصيرها •

هزيمة حسان :

بدأ حسان في تنفيذ الشطر الثاني من خطته في القضاء على مقاومة البربر بعد أن شفى رجاله مما أصابهم من الجراح ، وبعد أن أصلحوا من أحوالهم ، فسار نحو جبل أوراس ، في صميم المنطقة حيث لقي عقبة مصرعه • وبدأت المرأة الغريبة في تطبيق سياسة ستمارسها فيما بعد على نطاق واسع ، وهي سياسة التخريب الحربية أو ما يسمى حاليا ، « حرب الأرض المحترقة » التي تهدف الى ترك الأرض خرابا يبابا أمام الخصم ، حتى لا ينتفع بخيراتها ويزهد في الاقامة بها • فعندما اقترب منها حسان أسرعت الى حصن باغاية وخربته (٢٢٠) • والظاهر أنها خشيت أن يعتصم فيه حسان (٢٢١) ، واتباعها يريدون الحرب في الأرض المفتوحة • وانسحبت الملكة البربرية الى مجرى ماء يختلف الكتاب في اسمه : فابن عبد الحكم والرقيق يسميانه وادي أو نهر « البلاء » (٢٢٢) ، وهذه التسمية أطلقت عليه فيما بعد تنويها الى ما أصاب العرب في المعركة ، ويضيف الرقيق انه سمي وادي العذارى ، نسبة الى مقتل زهرة شباب العرب ، بينما يسميه ابن الأثير تيني (٢٢٣) ، والظاهر أنه أحد روافد نهر مسكيانة ، وهو الاسم الصحيح كما في ابن عذاري (٢٢٤) • ووقف الجيشان على ضفة الوادي وجها لوجه في آخر النهار ، وبات الفريقان ليلة المعركة على أهبة الاستعداد للحرب • ورغم ما تقوله النصوص من أن

---

(٢١٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٧ •

(٢٢٠) ابن الأثير ، سنة ٧٤ ، ج ٤ ص ١٨٠ (النويرى ، ص ٧٤ ب) • وقارنه ابن عذارى (ج ١ ص ٣٥) الذى يقول انها أخرجت الروم من الحصن وهدمته والمالكى (ج ١ ص ٣٢) الذى يقول انها أخرجت من بها وهدمتها •

(٢٢١) الرقيق ، ص ٥٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٦ •

(٢٢٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٠ ، وقارن الرقيق ، ص ٥٦ حيث يقول ان التسمية « بلى » بربرية أصلا ، وهو الأمر الذى يشكك فيه ما تقوله الرواية بعد ذلك (ص ٥٧) من أن الوادى سمى بوادى البلاء ، وهو ما رجحناه •

(٢٢٣) ابن الأثير ، سنة ٧٤ ج ٤ ص ١٨٠ •

(٢٢٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٦ ، وقارن المالكى (ج ١ ص ٣٣) الذى يسميه مجرى نهر مكناسة •

الجيش العربي كان في أعلى الوادي (أي في مركز استراتيجي جيد) وأن جموع البربر كانت في أسفله (٢٢٥) ، فان القتال المرير انتهى بانهزام حسان هزيمة منكرة ، ولم يفلت الا بعد أن ترك في أرض المعركة عددا كبيرا من زهرة شباب العرب حتى أطلق على موضع المعركة اسم وادي العذارى (٢٢٦)٠ ووقع في أسر الكاهنة حوالى ٨٠ (ثمانين) رجلا من وجوه أصحاب حسان أشهرهم خالد بن يزيد القيسي الذي تبنته واتخذته مستشارا لها (٢٢٧) ٠

وتبع رجال الكاهنة حسان حتى خرج من حـدود قابس منسحبا الى ما وراء مدينة طرابلس حيث أقام في موضع ما زال الى الآن يحتفظ باسم قصور حسان(٢٢٨) ، وذلك قرب مدينة تاورغى الحالية على بعد حوالى ٢٥٠ كيلو متر شرق مدينة طرابلس ٠ والظاهر أنه أقام في بعض الحصون القديمة هناك ، وأنه أضاف اليها بناء بعض الحصون الجـديدة في ذلك المكان الذي تعتبره بعض الروايات من أرض برقة(٢٢٩) ٠

وهكذا اضطر العرب الى التخلي عن فتوحهم في افريقية والمغرب للمرة الثالثة خلال عشر سنوات (من ٦٥ هـ الى ٧٤ هـ) ولم يبق بين أيديهم الا أقاليم اجـدابية ، وبرقة ، ولوبية ومراقيـة(٢٣٠) ٠ وتطلب الأمر خمس سنوات طوال(٢٣١) لـكي تسترجع البـلاد التي سادتها الـكاهنة كخليفة لكسيلة(٢٣٢) ٠ ورغم ما يصف الكتاب به تلك المرأة من الشعوذة واعتنـاق

---

(٢٢٥) الرقيق ، ص ٥٦ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٦ ٠

(٢٢٦) الرقيق ، ص ٥٧ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٦ ٠

(٢٢٧) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٠ ، ابن الأثير ، سنة ٧٤ ج ٤ ص ١٨٠ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٦ ، المالكي ، ج ١ ص ٣٣ (ابن عبد الحكم والمالكي يقولان انه عبسي ـ أما ابن الأثير فيسميه القيسي ، وهو ما تؤكده رواية الرقيق ، ص ٥٧ ، ٥٨) ٠

(٢٢٨) انظر الرقيق ، ص ٥٧ ٠

(٢٢٩) انظر فيما سبق ص ٦٥ (ونلاحظ أنه ترتب على قـول بعض الكتاب أن قصور حسان في برقة أن ظن بروفنسـال أن حسان ارتد الى منطقة قرين (شحات حاليا) أي الى منطقة مدينة برقة (انظر النص الجديد ، الدراسة ، ص ٢١٢) ٠ ويفهم من رواية البلاذري (ص ٢٢٩) أن أهم حصن في تلك القصور كان بناء قديما ، وذلك أن سقفه كان مبنيا من عقود (آزاج) ، وهذا يرجح أن تكون القصور قديمة ثم زاد فيها حسان ٠

(٢٣٠) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٠ ٠

(٢٣١) الرقيق ، ص ٥٧ ، ابن الأثير ، أحداث سنة ٧٤ ج ٤ ص ١٨٠ ، ابن عذارى ج ١ ص ٣٦ ٠

(٢٣٢) انظر ابن الأثير ، أحداث سنة ٧٤ ج ٤ ص ١٨١ ، حيث ينقل الواقدي أن الكاهنة خرجت لثأر كسيلة ٠

اليهودية أو الوثنية وسوء السيرة ، ورغم أنهم لا يشيرون الى أى علاقة ودية بينها وبين العرب ، فالمفهوم أن الكاهنة — مثلها مثل كسيلة — كانت لا تكن للعرب الحقد أو الضغينة ، ان لم نقل انها كانت تحترمهم وتعرف لهم قدرهم فى قرارة نفسها على الأقل • فكما فعل كسيلة عقب مقتل عقبة ، أطلقت الكاهنة سراح الأسرى العرب وأعادتهم الى حسان • وأكثر من هذا استبقت منهم يزيد بن خالد ، الذى أعجبها جماله وشجاعته ورجاحة عقله ، وتبنته حسب التقاليد البربرية المعروفة في ذلك الوقت بشكل قريب من التبنى والمؤاخاة عن طريق الرضاعة المعروفة عند العرب والمسلمين(٢٣٣) • أما عن علاقتها بالروم التي أشرنا اليها(٢٣٤) فالظاهر أنها لم تكن فى قوة علاقة كسيلة بهم حتى أنهم انقلبوا عليها فى آخر الأمر •

تخريب افريقية :

واتبعت الملكة البربرية سياسة مبنية على مبادىء التنظيم القبلى الذى تعرفه قبيلتها جراوة البترية ، وهو التنظيم البدوى الذى لا يعرف مفاهيم الاقتصاد المدنى ، والذى لم يكن ليلائم البلاد التى عرفت بالمدنية والنظم الاقتصادية العريقة • فكانت الكاهنة تحكم البلاد بمساعدة أبنائها وبمعونة خالد بن يزيد ومشورته(٢٣٥) ودرست الكاهنة موقفها من العرب ، وعرفت أنهم لابد عائدون بعد حين كما فعلوا من قبل ، وتملكت المرأة فكرة « حرب الأرض المحترقة » ، التى بدأت تطبيقها عندما أخرجت الروم من باغاية وخربتها(٢٣٦) ، حتى ييأس العرب من الاقامة بالبلاد • فالنصوص تقول انها قالت للبربر : « ان العرب انما يطلبون من افريقية المدائن والذهب والفضة . ونحن انما نريد منها المزارع والمراعى ، فلا نرى لكم الا خراب افريقية كلها حتى ييأس منها العرب ، فلا يكون لهم رجوع اليها الى آخر

---

(٢٣٣) يقول الرقيق (ص ٥٨ — ٥٩) الذى ينقله ابن عذارى (ج ١ ص ٣٧ ، وقارن المالكى ، ج ١ ص ٣٤) انها جهزت دقيق شعير ولتته بزيت ، وجعلته على ثديها ، ودعت خالدا وولديها وجعلتهم يأكلون على ثديها فلما فعلوا قالت لهم صرتم اخوة • وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٠٩ وأنظر فيما سبق ، ص ١١٥ — ١١٦ •

(٢٣٤) أنظر فيما سبق ، ص ٢١٨ وهامش ٢١٩ •

(٢٣٥) النص الجديد ، ص ٢٢٢ •

(٢٣٦) أنظر فيما سبق ، ص ٢١٨ وهامش ٢٢٠ •

الدهر »(٢٣٧) ٠

وهكذا نزل اتباعها يقطعون الشجر ، ويهدمون الحصون ، ويخربون القرى(٢٣٨) ٠ ولذلك ينسب الكتاب خراب البلاد الى الكاهنة وقبيلتهـــا جراوة ، ويقولون « كانت افريقية ظلا واحدا من طرابلس الى طنجة ، وقرى متصلة ، ومدائن منتظمة حتى لم يكن فى أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ، ولا أكثر مدائن وحصونا من اقليم افريقية والمغرب ، مسيرة ألفى ميل ، فخربت الكاهنة ذلك كله »(٢٣٩) ٠

ولقد كانت سياسة التخريب التي اتبعتها الـكاهنة موضع جدل بين الكتاب الاوربيين ، فبروفنسال يؤيد مقالة جاتو (Gateau) ويقول انه : « من الواضح أن نسبة هذا العمل ، الذى يخالف طباع البربر ، الى الكاهنة لابد أن تكون محل شك ٠ ولا ريب أن العرب – وهم المسئولون الحقيقيون عما أصاب افريقية من خراب البلاد الاقتصادى الزراعى بعد ذلك بسنوات – هم الذين نسبوا الى بطلة الأوراس هذه الجريمة التى لابد أن نضيفها الى حسابهم دون أدنى ظل من الشك أو التردد »(٢٤٠) ٠ ولـكن هـذا الرأى لا ينبنى الا على مجرد الفرض أو التخمين ، وهو يجافى ما أجمعت عليـــه النصوص ٠ والحقيقة ان أساس هذا الرأى هو أنه ما كانت الـكاهنة ومن معها من البربر ليستسيغوا اعادة بلادهم الى طبيعتهــــا الرعوية ، وتدمير مصادر ثروتها(٢٤١) ٠ وهذا الرأى قد يكون مقبولا لو كان الأمر أمر تفكير هادىء ، فى ظل ظروف عادية ، لمشاكل البلاد الاقتصادية ، ولـــكنها كانت

---

(٢٣٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٦ ، وقارن نص الرقيق (ص ٦١) الـــذى ينقله ابن عذارى ، وانظر النص الجديد ، ص ٢٢٢ ، وابن الأثير ، أحـــداث سنة ٧٤ ج ٤ ص ١٨٠ (النويرى ، ص ٧٥ أ) ٠

(٢٣٨) نفس المصدر ٠

(٢٣٩) ابن عـــذارى ، ج ١ ص ٣٦ ، وانظر الجزء الأول من النص فى الرقيـــق (ص ٦١) منسوبا الى قاضى افريقية واخباريها عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٠٩ ، وقارن ابن الأثير (سنة ٧٤ ج ٤ ص ١٨٦) الذى يقول « وهذا هو الخراب الأول لافريقية » ٠ أما الخراب الثانى فالمقصود به أيام بنى هلال فى منتصف القرن الخامس الهجرى/١١ م ٠

(٢٤٠) النص الجديد ، الدراسة ، ص ٢١٢ – ٢١٣ ٠

(٢٤١) النص الجديد ، الدراسة ، ص ٢١٢ ٠

الظروف الاستثنائية . ظروف الحرب التي تبيح المحظورات في بعض الأحيان .

وبناء على ذلك فلا يمكن اهمال ما أجمعت عليه النصوص ، والأخذ بما يجانبها أو بما هو على نقيضها دون دليل أو بينة . والنصوص تبين بوضوح الحكمة من القيام بهذا العمل التخريبي ، وهى حكمة عسكرية . أما لو سأل سائل ، ولماذا اذن لم يطبق كسيلة مثل هذه السياسة من قبل فيمكن الرد على هذا التساؤل بأن كسيلة وبربرة من أوربة كانوا من البرانس ، أهل المدن والحضارة ، أما الكاهنة وبربرها من جراوة فكانوا من البتر أهل البداوة الذين لا يفهمون الاقتصاد المدني . وأما القول بأن عرب بني هلال سوف يخربون الاقتصاد المغربي ، ويقلبون الأوضاع رأسا على عقب بعد ذلك بحوالي ٤ (أربعة) قرون ، فلماذا لا يكون أسلافهم قد فعلوا مثلهم ؟ فهذا قلب للأوضاع ، ووضع للنتائج قبل المقدمات بشكل لا يستقيم مع منطق الأحداث ، فلكل عصر ظروفه ، والتاريخ لا يدور في حلقة مفرغة ولا يعيد نفسه بشكل آلي كما قد يتبادر الى أذهان البعض ، والا هان معناه وبطل مغزاه . ثم انه فيما يتعلق بعرب بني هلال فان مؤرخي العرب واجهوا الحقائق بشجاعة فنصوا على ما قام به الهلالية من أعمال تخريبية كتلك التي قامت بها الكاهنة وبربرها ، وان اختلفت الدوافع والأسباب .

عودة حسان :

ولقد ترتب على أعمال التدمير والتخريب موجة من الذعر بين أهل البلاد من الروم خاصة ، وأتباعهم من الأفارقة ، فترك كثير منهم البلاد فرارا من الكاهنة ، ورحلوا في المراكب الى صقلية وجزائر البحر ، وكذلك الى الأندلس(٢٤٢) ، وكان حسان وهو معسكر في أحواز طرابلس على علم بما يدور في المغرب ، وذلك عن طريق العرب المقيمين في افريقية ، أو عن طريق السرايا التي كان يبعث بها الى هناك(٢٤٣) . وتقول النصوص انه كان

(٢٤٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٧ ، وانظر فيما سبق ، ص ٢١٦ وهامش ٢٠٦ ، وفيما يأتي عن [illegible] .

(٢٤٣) وهذا لا يمنع من [illegible] الى ان يتأخر خليفة [illegible] من خروج حملتين الى افريقية خلال الفترة التي تقابل وجود حسان في حيز برقة . ففي سنة ٧٤ هـ [illegible] سفيان [illegible] (ج ١ ص ٣٦٧) ، وفي سنة ٧٥ هـ ، [illegible] عمير بن عبيد الخولاني [illegible] ج ١ ص ٣٦٨ .

راسل خالد بن يزيد ، وكان هذا الأخير يكتب اليه بأخبار الكاهنة(٢٤٤) .

ومع أن أخبار تلك المراسلات يشوبها الطابع القصصي ، وخاصة من حيث مقدرة الكاهنة على معرفة ما كان يدور ضدها من وراء ظهرها ، فانها مهمة بالنسبة لبيان الأساليب التي كانت متبعة قديما في اخفاء الكتب والرسائل السرية حتى لا تنكشف(٢٤٥) . وبطبيعة الحال كانت تلك المراسلات بين حسان وعيونه في المغرب تعني اعداد العدة لاسترجاع البلاد . وهكذا عندما أصبحت الظروف مواتية أمده الخليفة عبد الملك بالرجال والأموال ، وأمره بالمسير الى افريقية(٢٤٦) .

والنصوص تختلف في تاريخ عودة حسان الى افريقية الا أننا نرى أن رواية الرقيق التى ينقلها كل من ابن الأثير وابن عذارى هي أكثرها اتزانا . وهذه الرواية لا تحدد التاريخ ولكنها تقول ان حسان أقام ببرقة خمس سنين ، ولما كانت هزيمته في سنة ٧٤ هـ تكون عودته الى المغرب في سنة ٧٨ أو ٧٩ هـ/٦٩٧ – ٦٩٨ م(٢٤٧) . ورواية الرقيق التى ينقلها ابن الأثير

---

(٢٤٤) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٠ ، وانظر الرقيق ، ص ٥٩ – ٦٠ (وان كانت الروايه مقطعة الأوصال من الخروم) .

(٢٤٥) من الأساليب التي يذكر استخدامها في اخفاء كتب خالد الى حسان وضع الكتاب في الخبزة قبل انضاجها في النار ، وكذلك وضع الكتاب في قربوس (والقربوس نوع من النبات حسب ابن عبد الحكم ، اما الرقيق الذى ينقله ابن الأثير فيقول قربوس السرج بمعنى الجزء المرتفع منه) أنظر ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ ، الرقيق ، ص ٦٠ ، ابن الأثير سنة ٧٤ ج ٤ ص ١٨٠ ، ابن عذارى ج ١ ص ٣٧ . المالكى ، ج ١ ص ٣٤ .

(٢٤٦) أنظر الواقدى الذى ينقله ابن الأثير ، سنة ٧٤ ج ٤ ص ١٨١ .

(٢٤٧) الرقيق . ص ٥٧ . وانظر ابن الأثير . سنة ٧٤ ج ٤ ص ١٨٠ (النويرى ، ص ٧٥ أ) ، ابن عذارى . ج ١ ص ٣٦ . هذا ويجب الاشارة الى أن ابن الأثير ينقل رواية للواقدى تقول ان حسان اقام في برقة الى سنة ٧٤ هـ . ومفهوم أن المقصود بذلك هو خروجه لأول مرة . أما ابن عبد الحكم فيورد روايتين احداهما تقول ان حسان أنهى أعماله في المغرب سنة ٧٦ هـ والثانية أنه إنهاها في سنة ٧٨ هـ ، وهذا ما لا يتفق مع بقية الروايات . وهذان التاريخان يمكن أن يقبلا كبداية لعودة حسان الى المغرب ، فهناك رواية في المالكى (ص ٣٣) تقول انه اقام في برقة ٣ (ثلاث) سنين ، وهذه تتفق مع التاريخ الأول ، أما الثاني فهو قريب مما يحدده ابن الأثير هذا واذا كان ابن خياط (ج ١ ص ٣٦٧) يجعل مقتل الكاهنة في سنة ٧٤ هـ وهي سنة هزيمة حسان ، فان النص بعد ذلك على أن الخليفة عبد الملك رد حسان الى افريقية سنة ٧٨ هـ (ج ١ ص ٧٨) يعني عودته في تلك السنة . بصرف النظر عن خلط ذلك بولاية موسى بن نصير . (وانظر أيضا ج ١ ص ٣٠٠ – ٣٠١) .

هي الوحيدة التي تعطينا تفصيلات عن الطريق الذي سلكه حسان من حدود افريقية حتى خرجت اليه جماعات من أهلها ، وخاصة من الروم يستغيثون من الكاهنة(٢٤٨) ، فكان في ذلك تأييد مادي ومعنوي لحسان الذي سر بذلك. ووصل حسان الى قابس حيث استقبله أهلها استقبال المخلص ، فرحبوا به وقدموا له الأموال(٢٤٩) . وبعد أن ترك حسان عاملا من قبله في قابس ترك الطريق الرئيسي الساحلي الطويل ، واتخذ الطريق الصحراوي القصير عبر بلاد الجريدة الى قفصة التي أعلنت خضوعها هي الأخرى . واتبع حسان ذلك بالاستيلاء على كل بلاد نفزاوة وقسطيلية(٢٥٠) .

والظاهر أن أهل البلاد لم يكتفوا بالاستغاثة بحسان ثم بالترحيب به ، بل قدموا المعونة للعرب بشكل ايجابي ، فأمدوه بالرجـــال الى جانب الأموال . فهذا يفهم من رواية ابن عبد الحكم الذي يقول انه كان مع حسان جماعة من البربر من البتر(٢٥١) .

حول نهاية الكاهنة :

وعندما اقترب حسان من الكاهنة أدركت المرأة الغريبة بفراستها أن نهايتها قريبة . ورغم الطابع الأسطوري لقصة نهاية الكاهنة فانها معقولة . فالمرأة لم ترض بالاستسلام ووجدت ان ذلك من العار ، ورضيت أن تقتل حافظة شرفها وشرف قومها (٢٥٢) . ولكنها في نفس الوقت رأت أن يأخذ أبناؤها الأمان وينضموا الى جانب حسان . وأكثر من ذلك تقول الروايات ان حسان عهد الى ولديها قيادة قواته البربرية قبل المعركة بمعنى ان أبناء الكاهنة حاربوا في صفوف العرب ضد قوات والدتهم(٢٥٣) ورغـــم أن

---

(٢٤٨) أنظر الرقيق ، ص ٦١ (حيث يقول ان من لقيه من الروم واستعانوا به كانوا ٣٠٠ (ثلاثمائة) رجل ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٧٤ هـ ج ٤ ص ١٨١ .

(٢٤٩) الرقيق ، ص ٦١ (حيث يقول : ان أهل قابس « كانوا يتحصنون من كل أمير منهم » وقارن ابن الأثير ، سنة ٧٤ هـ ج ٤ ص ١٨١ (حيث يقول انهم كانوا قبل ذلك يتحصنون من الأمراء) .

(٢٥٠) الرقيق ، ص ٦٢ ، ابن الأثير سنة ٧٤ ج ٤ ص ١٨١ .

(٢٥١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠١ ، وانظر الرقيق ، ص ٦٤ .

(٢٥٢) أنظر الرقيق ، ص ٦٢ (حيث قالت : كيف أرحل وأسير . وأنا ملكة والملوك لا تفر من الموت ، فأقلد قومي عارا آخر الدهر » .

(٢٥٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠١ ، ابن الأثير ، سنة ٧٤ ج ٤ ص ١٨١ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٣١ ، والمالكي ج ١ ص ٣٤ .

«الاقرب الى المعقول أن يكون أبناء الكاهنة قد طلبوا الأمان بعد القضاء على والدتهم ، وهذا ما تشير اليه نفس الروايات في نفس الوقت . او أن يكونوا قد خرجوا عليها كما خرج غيرهم ممن لم يرضوا عن سياستها . وان هذا العمل العدائي من جانب الكاهنة مقبول بالنسبه لانكار أهل ذلك العصر (القديم) بل وهو صحيح أيضا بالنسبة لعصرنا (الحديث) . فالوالد المسن يمثل الماضي الفاني والابناء يمثلون الحاضر والمستقبل . وكان المستقبل للعرب والاسلام . هذا ما أدركته ملكة أوراس الذكية العدائية .

مقتل الملكة الأسطورة :

وهكذا تم اللقاء بين حسان الذى كانت تتضخم قواته وتزداد بمن ينضم اليها من أهل البلاد وبين الكاهنة التي كان ينفض عنها أتباعها شيئا فشيئا . والنصوص المتأخرة نسبيا تشير الى أن اللقاء وقع غير بعيد من حصن الجم (في منتصف الطريق ما بين سوسة وصفاقس) ، وأن الكاهنة اعتصمت بهذا الحصن(٢٥٤) . وهذه الرواية تعني أن الكاهنة تقدمت للقاء حسان على الطريق الرئيسي صوب قابس . وهذا ما تبدأ به رواية المالكي فعلا (٢٥٥) . ولكن ذلك لا يستقيم مع الروايات التي يفهم منهـا أن الكاهنة كانت تنتظر مصيرها الدامي مع مقدم حسان . وأما رواية ابن عبد الحكم فتقول ان اللقاء تم في أصل جبل(٢٥٦) ، ويمكن ان يفهم من ذلك أن المعركة وقعت في بلد الكاهنة نفسها أي في جبل أوراس ، وهذا ما يقوله ابن خلدون(٢٥٧) . وهذا ما تؤيده الرواية الاولى التي تقول ان الكاهنة عندما اعتصمت بحصن الجم « حفرت منه سربا في الحجر الصلد نفذت به إلى أصل مدينة سلقطة ، وكانت أختهـا هنالك ، فكان الطعام يجاء به اليهـا في ذلك السرب على ظهور الدواب »(٢٥٨) والظاهر أن الحقيقـة تتفق مع ما يذكره المالكي(٢٥٩) أنه حدثت معركتان كبيرتان بين حسان والكاهنة ، الأولى منهما عند قابس

---

(٢٥٤) البكري ، ص ٢٠ ــ ٢١ ، التجاني ، ص ٥٧ ، وأنظر الاستبصار (ص ١١٨) الذى يسميه قصر لجم والظاهر أنه حدث تحوير في الاسم القديم فنسب الموضع الى اللخميين . وعلى هذا الأساس يقول الادريسي (ص ١٢٨) ان اسم المنطقة مشتق من اسم اهله . وقارن فيما سبق ص ١٥٩ وهامش ١٣٩ .

(٢٥٥) المالكي ، ج ١ ص ٣٥ .

(٢٥٦) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠١ .

(٢٥٧) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٠٩ .

(٢٥٨) البكري ، ص ٣١ ، التجاني ، ص ١٠٩ ، وقارن الاستبصار ، ص ١١٨ .

(٢٥٩) المالكي ، ج ١ ص ٣٥ .

وتظن أنها المعركة التي يقال انها وقعت قرب حصن الجم ، والثسانية وهي الفاصلة وقعت في جبل أوراس ، وهذا ما تؤيده بوضوح رواية الدباغ(٢٦٠) ، وأن طلب أبناء الكاهنة الأمان وقع ما بين المعركتين .

أما عن القتال نفسه فكان رهيبا بذل فيه الفريقان قصارى طاقتهما ، وكثر القتل « حتى ظن الناس أنه الفناء »(٢٦١) . وانتهت المعركة الثسانية بانهزام البربر ، وطارد العرب المنهزمين وأدركوا الكاهنة فقتلوها(٢٦٢) في موضع يسميه الكتاب بئر الكاهنة(٢٦٣) ، وتبعوا رجالها وقتلوا منهم عددا كبيرا . أما عن تاريخ مقتل الكاهنة فللأسف انه ساقط في كتاب ابن عبد الحكم ، ويكتفي الرقيق الذي ينقله ابن الأثير بالقول ان حسان عاد الى القيروان في رمضان سنة ٧٤ هـ/٦٩٤ م(٢٦٤) . ولا شك أن هذه الرواية تخلط بين هزيمة حسان التي وقعت في سنة ٧٤ هـ (٢٦٥) وبين انتصاره هذا الذي كان في سنة ٧٩ هـ/٦٩٨ م ، كما قلنا . وبناء على ذلك فالراجح أن تكون عودة حسان الى القيروان بعد النصر في سنة تالية لتلك السنة . وفي ذلك تقول رواية ان عودة حسان الى القيروان كانت في سنة ٨٢ هـ/ ٧٠١ م(٢٦٦) . ونحن لا نستطيع أن نتخذ تلك السنة الأخيرة كتاريخ لمقتل الكاهنة(٢٦٧) ، فقد جرت فيما بين مقتل الكاهنة وعودة حسان الى القيروان أحداث هامة هي التي انبنى عليها استقرار العرب بصفة نهائية في المغرب .

---

(٢٦٠) أنظر معالم الايمان ، تونس ١٣٢٠ هـ ، ص ٦٠ ، وانظر مؤنس ، فتح المغرب ، ص ٢٥٩ وهامش ٣ (ولكنه يلاحظ أن تلك الرواية تعود وتقول ان الكاهنة قتلت عند طبرقة شرقي بنزرت) .

(٢٦١) الرقيق ، ص ٦٣ ، ابن الأثير سنة ٧٤ ج ٤ ص ١٨١ ، وقارن ابن عذارى ج ١ ص ٣٨ ، النص الجديد ، ص ٢٢٣ ، النويري ، ص ٧٥ ب ، الدباغ ، ص ٦١ .

(٢٦٢) ابن الأثير سنة ٧٤ ج ٤ ص ١٨١ ، وانظر الرقيق ، ص ٦٣ .

(٢٦٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠١ ، الرقيق ، ص ٦٤ ، النص الجديد ، ص ٢٢٣ المالكي ج ١ ص ٣٦ .

(٢٦٤) الرقيق ، ص ٦٤ ، ابن الأثير سنة ٧٤ ج ٤ ص ١٨١ .

(٢٦٥) أنظر فيما سبق ، ص ٢١٨ وص ٢٢٣ ، ص ٢١٩ وص ٢٢٠ .

(٢٦٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٨ ، النص الجديد ، ص ٢٢٣ .

(٢٦٧) قارن مؤنس (فتح العرب للمغرب ، ص ٢٥٦ وهامش ١) الذي يوافق على هذا التاريخ ، وكذلك دراسة بروفنسال للنص الجديد (ص ٢١٣) حيث يقول انه انقضت فترة عشر سنوات ما بين انهزام حسان سنة ٧٣ هـ وانتصاره سنة ٨٢ هـ ، وهذا ما لا يتفق مع منطق الأحداث مما كانت الخلافة لتنتظر عشر سنوات طوال لكي تسير حسان من جديد الى المغرب .

استعادة قرطاجنة وتخريبها :

فبعد القضاء على المقاومة البربرية بقي على حسان القضاء على الروم في قرطاجنة . والنصوص التي بين أيدينا لا تذكر أن حسان سار الى قرطاجنة بعد القضاء على الكاهنة أو هي — بشكلها الراهن — لا تبين ذلك صراحة . وذلك أنها تخلط بين فتح قرطاجنة في حملة حسان الأولى سنة ٧٤ هـ ، وفتحها الثاني في حملته سنة ٧٩ هـ . وفتح قرطاجنة هذا يذكرنا بفتح الاسكندرية سنة ٢١ هـ ثم سنة ٢٥ هـ ، والأول فتح صلح والثاني فتح عنوة(٢٦٨) . فالكتاب عند كلامهم عن فتح قرطاجنه على يدي حسان يتكلمون عن الصلح مع الروم ثم نقضهم ، واعادة الفتح عنوة ، وتخريب المدينة . والمالكي هو الوحيد الذي يتحدث عن أخذ قرطاجنة بعد القضاء على الكاهنة والعودة الى القيروان . ولكننا نعتقد أنه يخلط أيضا بين الصلح والعنوة(٢٦٩) . والحقيقة انه ينبغي أن يكون الصلح قد وقـــع في الفتـــح الأول (سنة ٧٤ هـ)(٢٧٠) والعنوة في الفتح الثاني . وهناك نص في البكري يقـــول : وأغارت الروم من البحر على من بقي من المسلمين بمدينة «تونس» (والمقصود قرطاجنة) ، خرجت اليهم في المراكب فقتلوا من بها وسبوا وغنموا ، ولم يكن للمسلمين شيء يحصنهم من عدوهم ، انما كانوا معسكرين هناك »(٢٧١) . ويفهم من هذا النص أن المسلمين كانوا معسكرين في قرطاجنة بمعنى أن المدينة اذن لم تخرب بمجرد فتحها . وأما عن الغارة على العرب في قرطاجنة فان الروم انتهزوا فرصة انسحاب حسان الى برقة (سنة ٧٤ هـ/٩٣ — ٦٩٤ م) وسيروا حملة في البحر بقيادة البطريق يوحنا ، استطاعت أن تفتك بالحامية العربية الصغيرة . وأن تستعيد المدينة (٢٧٢) .

---

(٢٦٨) أنظر ابن عبد الحكم ، ص ٨٠ .

(٢٦٩) أنظر المالكي ، ج ١ ص ٣٧ (الدباغ ، معالم الايمان ، ص ٦٢) .

(٢٧٠) أنظر فيما سبق ص ٢١٥ — ٢١٦ .

(٢٧١) البكري ، ص ٣٧ — ٣٨ ، وقارن النجاني (ص ٦) الذى يذكر غارة الروم هذه على رادس وهي ميناء تونس . والظاهر أن تلك الرواية مأخوذة أصلا من الرقيق (ص ٦٥ — حيث الاشارة الى مرابطة حسان برادس سنة ٨٦ هـ/٧٠٥ م بعد وفاة عبد الملك وخـــلافة الوليد ، وهو الأمر غير الصحيح) .

(٢٧٢) Ch. Diehl et G. Marçais, Le monde oriental..., Paris, 1944, p. 207.

مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٢٥٤ (النصوص البيزنطية تقول ان حملة يوحنا كانت سنة ٦٩٧ م — ٧٨ هـ) .

وهكذا كان على حسان بعد أن قضى على الكاهنة أن يسير ضد قرطاجنة ٠ أما عن مرجعنا فعبارة عن المعلومات المقتضبة الخاصة بتخريب قرطاجنة ٠ فلقد سار حسان نحو العاصمة الافريقية دون أن يلقى مقاومة في الطريق ٠ ويمكن القول انه كان بصحبة القوات العربية في هذه الغزوة قوات مساعدة من البربر ٠ فالنصوص تقول انه بعد انهزام البربر تم الصلح بينه وبينهم على أن يمدوه بـ ١٢ (اثنى عشر) ألف رجل يجاهدون العدو معه ، وانه قسم تلك القوة الى جماعتين عهد بقيادة كل منها الى أحد أبناء الكاهنة ، وانه « أخرجهم يجولون في المغرب يقاتلون الروم ومن كفر من البربر »(٢٧٣) ٠ وضرب حسان الحصار على المدينة ، ولم يطق الروم مدافعة العرب فهربوا في سفنهم ، ودخل حسان المدينة عنوة في تلك المرة ٠ واذا كان عمرو بن العاص عندما دخل الاسكندرية ثانية أقسم ليهدمن سورها ، وليجعلنها مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان(٢٧٤) ، فان حسان قرر أن يتخلص من قرطاجنة كلها ، وهي الباب الذي يأتي منه الروم ، وذلك بسبب تطرفها وصعوبة الدفاع عنها ٠ فبعد أن أعلن أهل الاقاليم المجاورة خضوعهم ، أرسل اليهم حسان فأتوه مسرعين ، فأمرهم بتخريب المدينة ، وقطع القناة التي تجلب اليها الماء ، ففعلوا(٢٧٥) وهكذا انتهت المدينة الأزلية ، التي عاشت بعد تخريبها في الحرب البونية الثالثة ، « وأصبحت كأمس الغابر » كما يقول ابن عذارى(٢٧٦) ٠ وعاد حسان الى القيروان في رمضان سنة ٨٢ هـ(٢٧٧) ٠

ب - أعمال حسان الادارية والعمرانية :

بالقضاء على مقاومة البربر ، وبتخريب قرطاجنة استقر سلطان العرب ٠ وبذلك يمكن اعتبار حسان بن النعمان الفاتح الحقيقي لبلاد المغرب ٠ فلقد أقام حسان في القيروان « لا يغزو أحدا ولا ينازعه أحد »(٢٧٨) ٠ وبناء

---

(٢٧٣) ابن الأثير سنة ٧٤ ، ج ١ ص ١٨١ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٨ ، النويرى ، ص ٧٥ ب ٠ ويدون الرقيق (ص ٦٤) الذي يظن أن الرواية له أصلا ٠

(٢٧٤) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٥ ٠

(٢٧٥) ابن عذارى ج ١ ص ٣٥ - ابن الأثير سنة ٧٤ ج ٤ ص ١٨٠ ، المالكي ، ج ١ ص ٣١ - ٣٢ ٠

(٢٧٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٥ ٠

(٢٧٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٨ ، النص الجديد ، ص ٢٢٣ ، وانظر فيما سبق ، ص ٢٢٦ وهامش ٢٦٧ ٠

(٢٧٨) الرقيق ، ص ٦٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٨ ، ابن الأثير ، سنة ٧٤ ج ٤ ص ١٨١ ٠

على ذلك بدأ حسان يهتم بعمران مدينة القيروان حتى تصبح جديرة بمركزها كعاصمة للبلاد بدلا من قرطاجنة · وبدأ بالمسجد الجامع بالقيروان فجعله موضع عنايته · وابن عبد الحكم يقول « وبنى مسجد جماعتها »(٢٧٩) . والظاهر أنه جدد بناءه كما يقول المالكي ، وزاد فيه (كما سيفعل أمراء افريقية فيما بعد) ، وتم ذلك في شهر رمضان من سنة ٨٤ هـ/سبتمبر ٧٠٣ م(٢٨٠) · ومع الأمن والسلام انتشر العمران في المدينة واتسعت رقعتها ·

واعتنى حسان بتنظيم الادارة المالية والجيش : فهناك اشارات سريعة الى أنه دون الدواوين(٢٨١) بمعنى أنه اتخذ السجلات والموظفين · والدواوين هنا يمكن أن تنطبق على الترانيب الادارية وأهمها كتابة الرسائل · وكان حسان عندما يخرج من القيروان ينيب عنه مولاه أبا صالح(٢٨٢) ، وهكذا أصبح استخدام الموالي في أهم المناصب بالمغرب ـ الأمر الذي بدأ بولاية أبي المهاجر ـ شيئا عاديا · وهنا ينبغي الاشارة الى ما ينص عليه ابن عبد الحكم من أنه كان على برقة مولى لعبد العزيز بن مروان اسمه تليد ، وأنه لما ضاق الناس بامامة عبد لهم أعتقه عبد العزيز(٢٨٣) · وفيما يتعلق بالسياسة المالية نظم حسان الضرائب ففرض الخراج على الروم بافريقية ، وكذلك على نصارى البربر ، وكان معظم هؤلاء من بربر البرانس وأقلهم من البتر(٢٨٤) · ومع أنه من الواضح أن النصوص تقصد بكلمة الخراج هنا الجزية (أي ضريبة الرؤوس التي يدفعها أهل الذمة) ، نعتقد أنه قصد بالخراج التعميم أي الضريبة عامة سواء كانت جزية أو ضريبة أملاك وعقارات ، أي كل ما يخرجه المرء من الأموال ·

وفي هذا المجال ينسب الى حسان أنه احتفظ بدار الضرب التي كانت في قرطاجنة ، وأنه ضرب النقود في افريقية ـ حسب السياسة التي رسمها

---

(٢٧٩) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠١ ·

(٢٨٠) المالكي ج ١ ص ٣٧ (الدباغ ، ص ٦١) ·

(٢٨١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠١ ، الرقيق ، ص ٦٤ ·

(٢٨٢) ابن الأثير ، ص ٧٤ ج ٤ ص ١٨١ ، وانظر المالكي ، ج ١ ص ٣٧ (عن بعض أعمال أبي صالح) ·

(٢٨٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٣ ·

(٢٨٤) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠١ (النص هنا يسمي الروم أيضا بـ « عجم افريقية ») ، قارن الرقيق ، ص ٦٤ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٨ ، النص الجديد ، ص ٢٣ ·

الخليفة عبد الملك في المشرق — على الطريقة البيزنطية · ولا بأس أن يكون حسان قد أدخل بعض التعديلات على رسم ذلك الطراز الرومي من النقود · فجعل على وجه الدينار صورة عبد الملك وابنه الوليد (بدلا من صورة القيصر وولي عهده) مع كلمات باللاتينية تعبر عن « اسم الله الرحمن الاله الأحد » ، وجعل على ظهر الدينار صورة صولجان (بدلا من الصليب البيزنطي) مع كلمات باللاتينية تعبر عن معنى « وحدة لا شريك له ولا مثيل له » ، مع تاريخ الضرب ومكانه بافريقيـــة(٢٨٥) · واذا كان الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ينسب هذه التعديلات الى موسى بن نصير ، فانه ينص على أن تحول النقود الافريقية الى طراز عربي صميم لم يتم الا في ولاية اسماعيل ابن أبي المهاجر(٢٨٦) · أي في خلافة عمر بن عبد العزيز ·

أما عن السياسة العسكرية فكان من الطبيعي أن تكون وثيقة الصلة بالسياسة الدينية ؛ فالغرض من الفتح كمـــا هو معروف نشر الاســـلام والتعريب، وتلك كانت رسالة العرب· ويرجع الفضل الى حسان في أنه كان أول من أدخل البربر بشكل جدي منظم في الجيش العربي الافريقي · حقيقة ان نشر الاسلام بين البربر بدأ منذ وطئت أقوام العرب البلاد، وكان لعقبة بن نافع نشاطه في هذا الميدان منذ أيام عمرو بن العاص ، وان تلك السياسة بدأت تؤتي ثمارها بشكل واضح أيام ولاية أبي المهاجر الذي أدخل كسيلة في الاسلام وحالفه ، الا أن اسلام البربر وتحالفهم مع العرب ، حتى ذلك الوقت، كان مؤقتا يتراوح ما بين الاخلاص والسياسة · فحسان هو الذي فرض الخدمة العسكرية على أهل البلاد جنبا الى جنب مع العرب · فعند دخوله المغرب لأول مرة كان على مقدمته أحد زعماء لواته ، وهو هلال بن ثروان اللواتي(٢٨٧)، ونظن أن هذا القائد كان يرأس قوة من قومه اللواتيين · وعندما طلب أبنـــاء

---

(٢٨٥) أنظر محمد علي دبوز ، تاريخ المغرب الكبير ، ج ٢ ص ١١٩ — حيث الاشارة الى محاضرات للشيخ عبد العزيز الثعالبي عن فتح المسلمين لشمـــال افريقية ، جريدة الضياء المصرية ، عدد ٢٧ مارس ١٩٣١ ·

(٢٨٦) أنظر حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات ، القسم الأول ، ط · تونس ١٩٦٥ ، ص ٤٠٠ — ٤٠٤ · وعن الفلوس النحاسية التي ضربها موسى بن نصير بافريقية في تلمسان (تلمسين) والمنقوشة بالعربية تماما ، وان كانت تحمل صورة وجه شخص ملتح بذقن مدببة على الطريقة العربية ، وشعر رأسه مفروق من الوسط ناحية الأذنين ، انظر نفس المرجع ، ص ٤٠٥ — ٤٠٦ ·

(٢٨٧) أنظر فيما سبق ، ص ٢١٥ وهامش ٢٠٣ ·

الكاهنة الأمان أعطاهما اياه دون حقد أو غضاضة ، بل انه اكتسبهما تماما الى جانب العرب عندما جعلهما على رأس القوات البربرية التي كانت تخدم معه . وبعد أن تم له النصر على الكاهنة أخذ ١٢ (اثنى عشر) ألفا من البربر جعل منهم فرقتين كل واحدة منها ستة آلاف ، وعهــد بقيادتهما الى يفرن ويزديان ولدى الكاهنة . وكانت الخدمة في الجيش العربي تعنى دخولهم في الاسلام ، فقد عهد حسان بتعليمهم القرآن وأصول الاسلام ١٣ (ثلاث عشر) فقيها من أجله التابعين من أصحابه(٢٨٨) . وبطبيعة الحال كان تعليم القرآن لهؤلاء البربر وغيرهم يعني تعليمهم اللغة العربية ، ونشر التقاليد والعادات العربية بينهم ، واكتسابهم الى جانب العروبة بصفة نهائية ، وبذلك سار التعريب جنبا الى جنب مع الاسلام منذ بداية الشوط .

هكذا دخل البربر في الاسلام بنية صحيحة(٢٨٩) في هــذه المرة ، فبنوا المساجد ، وحولوا القبلات للمساجد التي كانت لهم قبــل ذلك ، واستعملوا المنابر في المساجد التي عزموا على أن يجعلوا فيها الجمعات »(٢٩٠). ولم يقف هذا النشاط الديني عند حدود افريقية والمغرب الأوسط بل تعداه الى المغرب الأقصى حيث بنى عقيبــة مسجدى درعــة ونفيس ، فتقول بعض النصوص انه على أيام حسان استخدم المنبر لأول مرة في جامع أغمــات هيلانة ، وذلك في سنة ٨٥ هـ/٧٠٤ م ، ونقش ذلك التاريخ على المنبر(٢٩١)، أي قبيل نهاية امارة حسان .

بناء تونس :

اذا كان اسم حسان قد التصق بخراب العاصمة الافريقية القديمة فان اسمه لصق بالعاصمة الحالية وهي مدينة تونس التي أعطت اسمها للبلاد . فبعد أن استقر حسان في القيروان ، وأشاع الأمن والسلام في البلاد ، فكر في بناء مدينة تكون نافذة جديدة تطل منها افريقية على العالم الخارجي — ولكن

---

(٢٨٨) أنظر النص الجديد ، ص ٣٢٣ .

(٢٨٩) نفس المصدر .

(٢٩٠) نفس المصدر .

(٢٩١) نفس المصدر ، وتلاحظ أن نصوصا أخرى (ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٣) تنسب اقامة منبر اغمات الى موسى بن نصير ، وربما كان ذلك بسبب أنها تجعل نهاية امارة حسان وبداية ولاية موسى بن نصير قبل هذا التاريخ (انظر فيما بعــد هامش ٣١٨ ص ٢٣٨) والحقيقة اننا لا نعرف شيئا عن طبيعة علاقة حسان بالمغرب الأقصى .

بشيء من التربص والحذر ـ وتحل محل قرطاجنة . وكاتب حسان الخليفة عبد الملك في هذا الأمر ورأى الخليفة أن تساهم مصر بخبراتها البحرية ، فأرسل الى أخيه عبد العزيز بن مروان والي مصر بأن يجهز ألف أسرة قبطية من أهل المعرفة بصناعة السفن ، ويرسلهم الى افريقية لانشاء المدينة الجديدة التي تقرر ان تكون قاعدة بحرية ازاء الروم(٢٩٢) . وكان على البربر أيضا أن يساهموا في البناء ، فتقرر ان يكون جلب الخشب اللازم لصناعة المراكب من غابات الجبال الداخلية نوعا من « التكليف » يقومون به . ونظن أن ذلك العمل كان نوعا من الخدمة أشبه بالجندية الالزامية اذ يقول النص : « ليكون ذلك جاريا عليهم الى آخر الدهر(٢٩٣) » ولهذا آثرنا أن نسميه « تكليفا » كما نقول اليوم .

وخرج حسان من القيروان في سنة ٨٤ هـ/٧٠٣ م لارتياد موضع غير بعيد من خرائب قرطاجنة . ويفهم من رواية المالكي(٢٩٤) أن خروج حسان كان أشبه ما يكون بحملة بوليسية ، اذ تم خلاله القضاء على بعض جيوب المقاومة التي بقيت قرب السواحل . فعندما وصل حسان الى قرية طنبذة على مسيرة أميال من تونس(٢٩٥) ، وجه مولاه أبا صالح الى قلعة زغوان فنزل بموضع أمام القلعة عرف باسمه فهو « فحص أبي صالح » ولكنه عجز عن أخذ القلعة بعد أن نشب أهلها القتال ثلاثة أيام حتى اضطر حسان الى المسير اليها على رأس فرسانه وأخذها . ومن زغوان رجع الى طنبذة ، ومنها تقدم الى الموضع الذي اختير لبناء تونس(٢٩٦) . ويفهم من الروايات أن المكان لم يكن غير مأهول اذ كان في موضـــع المدينـــة قرية عرفت باسم ترشيش

---

(٢٩٢) انظر البكري ، ص ٣٧ (التجاني ، ص ٦) . وقارن رواية الرقيق (ص ٦٥ـ٦٦) التي تجعل مكاتبة حسان الى الوليد بعد وفاة عبد الملك ، مع ان المعروف أن عبد العزيز بن مروان والي مصر توفي قبل أخيه الخليفة عبد الملك ـ وهذا ما جعل التجاني يرد رواية الرقيق هــذه .

(٢٩٣) البكري . ص ٣٧ .

(٢٩٤) المالكي . ص ٣٧ .

(٢٩٥) عن طنبذة التي سيكون لها شأن في تاريخ الأغالبة . انظر الجنحـــاني . ص ٨ وهامش ١ (وكانت تسمى أيامه بالمحمدية) .

(٢٩٦) المالكي ص ٣٧ (وقارن الدباغ ، ص ٦١ حيث طنجة بدلا من طنبذة . ص ٦٢ حيث زعفران بدلا من زغوان) .

(أو طرشيش) . وأن موضع المرسى كان يسمى في ذلك الوقت رادس(٢٩٧). أما عن الاسم الذى أعطى للمدينة وهو تونس ، فتقول بعض الروايات انه أطلق على الموضع لوجود صومعة للرهبان كان يلجأ الناس الى جوارها فيأتنسون بترتيل رهبانها ، فكانوا يقولون هذه الصومعة تؤنس فسمي المكان « تونس »(٢٩٨) . والأقرب الى الصحة أنه كان في المكان قرية قديمة اسمها تونس او تينس (Tynès) (٢٩٩) حاول البعض أن يجد له أصلا عربيا ، كما هو الحال بالنسبة لغيرها من المدن .

والفضل للبكرى الذى أمدنا بمعلومات طريفة عن موضع تونس وكيفية انشائها ، فقد قصد بها بناء « دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر ... وأن يصنع بها المراكب ويجاهد الروم في البر والبحر ، وأن يغار منها على ساحل الروم فيشتغلوا عن القيروان ، نظراً للمسلمين وتحصينا لشأنهم »(٣٠٠) . ووصل القبط في البر الى حسان ، فسيرهم الى ترشيش حيث تقرر أن تكون موضعا « للترسانة » الجديدة ، وكانت تتميز بأنها غير مفتوحة على البحر مثل قرطاجنة . فقرطاجنة تقع على لسان يكون شبه جزيرة محصورة بين السبخة (سبخة الريانة) شمالا والبحيرة (بحيرة تونس) جنوبا ، بينما تقع تونس الى الداخل غرب البحيرة التى تتصل بالبحر من جهة الشرق حيث يقع مرسى رادس . ولما كانت البحيرة ضحلة لا تسمح بسير المراكب الحربية وجب حفر قناة في وسطها تصل ما بين دار الصناعة في تونس والمينى (الميناء) أو المرسى في رادس ، وهذا ما فعله حسان (أنظر شكل ٨ ص ٢٣٤) . وبطبيعة الحال كان يمكن اغلاق ذلك الممر عند فوهة البحيرة بواسطة سلسلة ، وهذا ما كان يحدث على أيام البكرى نفسه(٣٠١) .

---

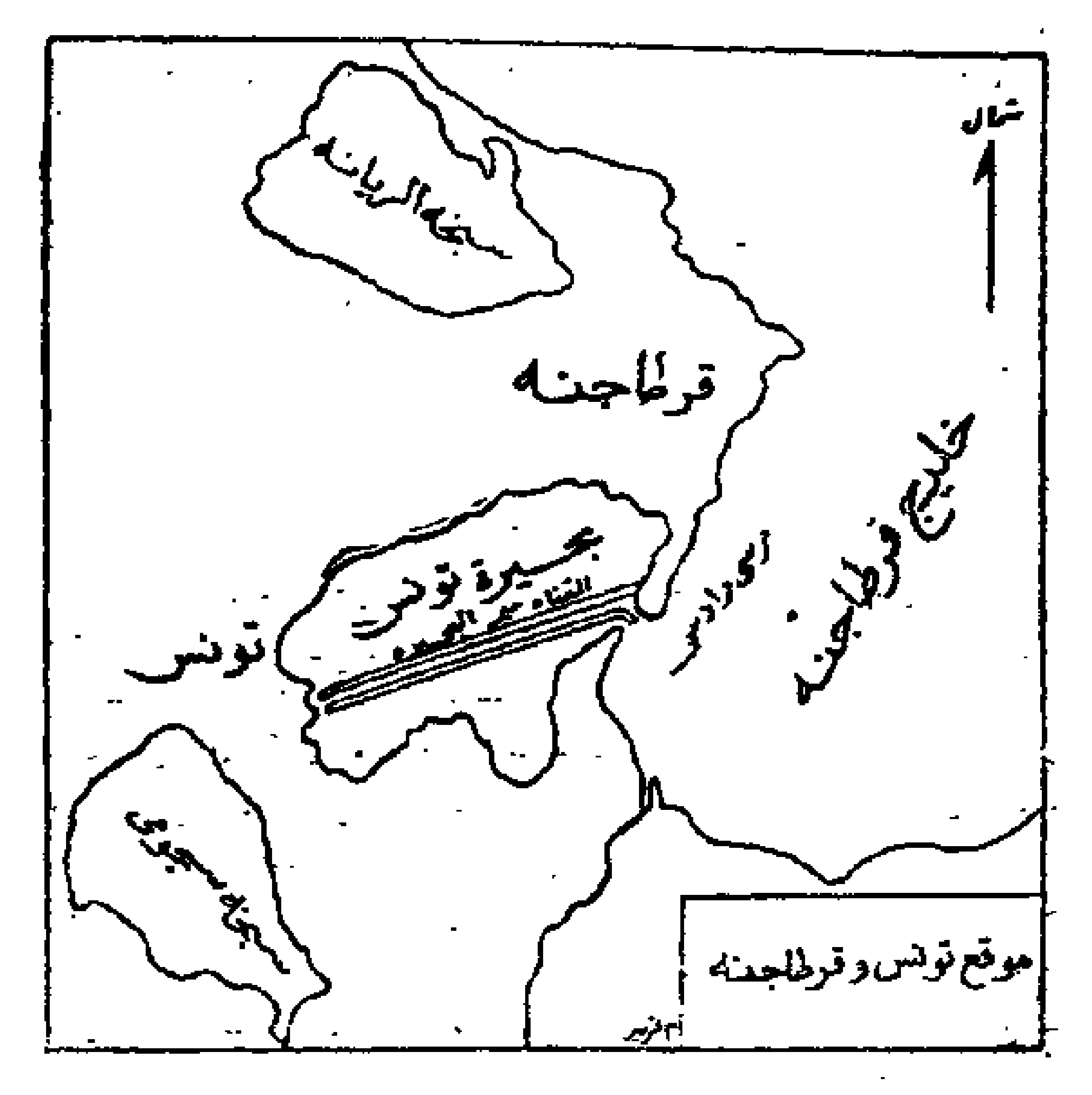
(٢٩٧) البكرى ، ص ٣٧ ، الاستبصار ، ص ١٢١ وقارن الادريسي ، ص ١١١ ، ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ٦ وتابع . وعن ترشيش (التى ربما كانت تحريفا لـ « طرسوس » كما نظن) أنظر مؤنس ، فتح المغرب ، ص ٢٦٢ وهامش ٢ .

(٢٩٨) البكرى ص ٧٨ الاستبصار ، ص ١٢١ .

(٢٩٩) انظر جوتييه . Gautier, Le Passé de l'Afrique du Nord, p. 127.

(٣٠٠) البكرى ص ٣٨ (ولقد اشتهر اسم رباط رادس . وقامت الدعاية لحث المجاهدين على المرابطة فيه - من ذلك ما يقال من أن علماء المشرق كتبوا الى أهل افريقية : « من رابط عنا برادس يوما واحدا حججنا عنه حجة » - وهى رواية الرقيق (ص ٦٥) التى ينقلها التجانى (ص ٦) .

(٣٠١) البكرى ، ص ٣٨ (التجانى ، ص ٦ وكذلك ص ٧ حيث يورد قول البعض ان موضع بحيرة تونس كانت مزارع وسواقى قبل ان يخرقه حسان) .



(شكل رقم ٨)
أنظر جوتييه ، ص ١٢٧ ، جوليان ، ص ٦٧

وقامت المدينة البحرية بما كان يرجى منها اذ عمر القبط دار صناعتها ، ومنها انتشروا الى بقية سواحل المغرب[٣٠٢] يقيمون صناعة المراكب المصرية العتيدة • « ولم تزل تونس معمورة من يومئذ يغزو منها المسلمون بلاد الروم، ويكثرون فيهم النكاية ، ولهم الاذاية »[٣٠٣] •

وكان قيام المدينة الجديدة يعنى أن العرب فى المغرب أصبحوا قـــوة بحرية بعد أن كانوا قوة برية تخشى غشيان السواحل • كما كان يعنى

(٣٠٢) التجانى ، ص ٦ •
(٣٠٣) البكرى ، ص ٣٦ •

انحسار قوة الروم البحرية ، فلم يصبحوا كسابق العهد بهم خطرا يحسب حسابه • وهكذا كان بناء تونس التي ورثت تراث قرطاجنة ، تتويجا لأعمال حسان في المغرب • وحق « للشيخ الأمين » - كما كان يسمى - أن يعود الى المشرق ليقدم حسابا عن أعماله • فرجع الى دمشق ولكنه لن يعود الى ولايته •

٢ - عزل حسان وولاية موسى بن نصير :

عزل حسان :

ظروف عزل حسان وولاية موسى بن نصير لافريقية تشبه الى حد كبير ظروف عزل عقبة وولاية أبي المهاجر دينار على أواخر أيام معاوية ، من حيث أن الأهواء والأغراض الشخصية كان لها دورها في مجرى الأحداث ، ومن حيث شعور والي مصر بقوته ازاء الخليفة ، ومحاولته الاستئثار بالسلطة في المغرب وحجبها عن دمشق• فبينما كان عبد الملك بن مروان يهتم بأمور المغرب مباشرة - سيرا على السياسة التي أصبحت تقليدية - كان أخوه وولي عهده في ذلك الوقت عبد العزيز بن مروان يلي مصر وكأنه ملك متوج وليس أميرا تابعا • وأخذ والي مصر العظيم يتطلع نحو المغرب ، وكان له الحق في ذلك اذ كانت مصر قاعدة الفتح ومادته ، كما كان هو نفسه يرنو بأنظاره الى ما هو أكبر من المغرب ، الى دمشق والخلافة •

هكذا يضع الكتاب عزل حسان عن ولاية المغرب في ذلك الاطار الضيق ، وكأنه نتيجة لنوع من المنافسة بين عبد الملك وأخيه عبد العزيز أو كأنه نوع من النزاع على اختصاصات والي المغرب • فمن جهة كان عبد العزيز غير راض عن حسان (وهو ممثل عبد الملك) ، ويود أن يستبدل به محميه موسى بن نصير الذي لم يكن عبد الملك راضيا عنه • ومن جهة أخرى كان حسان - بصفته والي المغرب - يريد أن يمارس سلطاته على كل البلاد فكان ينازع عبد العزيز في أن يكون له الاشراف على برقة التي تدخل في حدود مصر(٣٠٤) •

هكذا سجل الرقيق ونقل عنه ابن عذارى أن عبد العزيز بن مروان هو

---

(٣٠٤) عن النزاع بين عبد العزيز بن مروان وحسان بن النعمان على برقة أنظر ابن قتيبة ، الامامة والسياسة طبعة القاهرة ١٣٢٨ هـ ج ٢ ص ٤٩ وأنظر الصفحة التالية •

الذى عزل حسان عن المغرب(٣٠٥) ، استنادا الى ان والى المغرب تابع لـوالى مصر • أما ابن عبد الحكم فيرى أن حسان عاد الى عبد الملك يطلعه على ما تم على يديه من الفتوح ، وليقـدم له الحساب عما حصل عليه من المغـانم والأموال(٣٠٦) ، ثم انه عندما وصل الى مصر فى طريق عودته الى ولايته ، وقعت مشادة بينه وبين عبد العزيز بشأن برقة التى كان يديرها عبد العزيز عن طريق غلام (أى عبد) له اسمه تليد(٣٠٧) •

ولا يتفق الكتاب على تاريخ عودة حسان الى المشرق • فالأمر يختلط على القدامى منهم مثل ابن خياط وابن عبد الحكم اللذين يحـددان عودته بسنة ٧٦ هـ/٦٩٥ م و ٧٨ هـ/٦٩٧ م ، وذلك حتى يتفق هذا التاريخ مع الروايات التى يوردانها ، ومن أخذ عنهما من الكتاب ، عن الخلاف بين عبد العزيز بن مروان (الذى توفى فى سنة ٨٥ هـ/٧٠٤ م) وبين حسان(٣٠٨) • ولقد فعل ابن عبد الحكم ذلك أيضا بالنسبة لعبد العزيز وزهير بن قيس البلوى ، فقال إنه كان ثمة نزاع بينهما ، ولهذا السبب جعل مقتل زهير فى سنة ٧٦ هـ بل وجعله تحت قيادة حسان(٣٠٩) حتى تستقيم الرواية • ونحن نرى أن التاريخ الذى يحدده ابن الأثير لولاية موسى بن نصير مقبول ، وهـو سنة

---

(٣٠٥) أنظر الرقيق (ص ٦٥ ـ ٦٦) الذى يضع ذلك خطأ فى عهد الوليد بن عبد الملك، ويقال ان عبد العزيز أمر حسان بالقدوم عليه ، « وبعث اليه أربعين رجلا من أشراف أصحابه ، وأمرهم أن يحفظوا جميع ما معه » ـ فكان طمع عبد العزيز فى غنائم المغرب كانت سبب العداء بينه وبين حسان . الذى احتال ، كما تقول الرواية لقصصية ، « فعمد الى الجوهر والذهب والفضة فجعله فى قرب الماء . وطرحه فى العسكر . واظهر ما وراء ذلك » . وذلك عنـدما استعد لمغادرة المغرب الى الشام . ابن عذارى ، ص ٣٨ • وقارن ابن قتيبة (الامام والسياسة ، ج ٢ ص ٥٠) الذى يقول ان عبد العزيز ولى موسى فى صفر سنة ٧٩ هـ • وخليفة بن خياط ، ج ١ ص ٢٧٦) الذى يسجل مثل هذه الرواية •

(٣٠٦) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠١ ، وقارن رواية الرقيق (ص ٦٧) التى تبالغ فيما حمله حسان معه من السبى (٣٥ ألف رأس) ، والأموال والخيل ، التى تخير منها عبد العزيز ما أحب الى حد ... ، مما جعل هذا الأخير يشكو الى الخليفة . وهو يقدم له ... حمله اليه خفية من الذخائر والاموال •

(٣٠٧) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٣ •

(٣٠٨) انظر خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٢٧٦ ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ ، ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٠ . وانظر فيما سبق، ص ٢٣٥ •

(٣٠٩) ابن عبد الحكم . ص ٢٠٠ (وانظر فيما سبق ص ٢١١) •

٨٦ هـ/٧٠٥ م(٣١٠) ، وذلك أن حسان خرج لبناء تونس كما رأينا في سنة ٨٤ هـ/٧٠٣ م(٣١١) . وعلى ذلك يكون الذي عزل حسان – ان كان قد عزل – عن المغرب هو عبد الله بن عبد الملك(٣١٢) الذي خلف عمه عبد العزيز بن مروان في ولاية مصر سنة ٨٥ هـ/٧٠٤ م . وتكون قصة نزاع عبد العزيز مع حسان غير صحيحة ، وتكون هذه القصة المثيرة سببا في أن عمد الكتاب الى تعديل تاريخ عزل حسان وجعله في الثمانينات بدلا من التسعينات من القرن الاول الهجري . ومما يصحح ما يقوله الرقيق وما ينقله ابن عذارى عنه . من أن حسان عندما وصل الشام كان الخليفة في ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك الذي خلف والده في أواخر سنة ٨٦ هـ .

والظاهر أن ذلك هو ما جعل ابن عذارى يستمر في سرد رواية الرقيق التي تقص استيلاء عبد العزيز بن مروان (المتوفى في سنة ٨٥ هـ) على ما كان مع حسان « من الخيل والاحمال والأمتعة والوصـــائف والوصفان »(٣١٣) . ولا يمنع ذلك الاضطراب الزمني – الذي تنبه اليه ابن عـــذارى فقـــال : « وغزوات لم تنضبط بتاريخ محقق » – من صحة المعلومات الخاصة برجوع حسان محملا بالأموال والجواهر والذهب والفضة المخبأة في قرب الماء ، وكذلك الوصائف والوصفان والجواري من بنات عظماء الروم والبربر(٣١٤) . ورواية الرقيق التي ينقلها ابن عذارى تقول ان الخليفة الوليد بن عبد الملك استعظم ماقدمه له حسان من الأموال والذخائر . ولكن الرواية تحمل في ثناياها ما يشتم منه رائحة الخلاف على تقدير المغانم والأموال ، فحسان يقول للوليد : « انما خرجت مجاهدا في سبيل الله ، وليس مثلي يخون الله والخليفـــة »(٣١٥) . ورغم أن الخليفة عرض على حسان أن يرده الى عمله بالمغرب وأن يحسن اليه ، فان الوالي المعتز بكرامته حلف : « لا أولى لبني أمية أبدا » . وأخيرا تقول الرواية:

---

(٣١٠) ابن الأثير ، احداث سنة ٨٦ ، ج ٤ ص ٢٥٩ . وقارن النويري المخطوط ، ص ٧٦ (حيث التاريخ سنة ٨٩ – ونظنه خطأ من الناسخ) .

(٣١١) انظر فيما سبق ، ص ٢٣٣ .

(٣١٢) يورد ذلك ابن الأثير في أحداث سنة ٧٤ ، ج ٤ ص ١٨١ ، وكذلك ابن عذارى ج ١ ص ٣٤ ، في أحداث سنة ٨٦ . ولكن الرواية تخطئ هنا في التعريف بشخصية عمه ، اذ تقول ان الوليد ولى مصر عمه عبد الله بن مروان . ويضع ابن الأثير بعد ذلك الاسم صحيحا في أحداث سنة ٨٥ (ج ٤ ص ٢٤٧) فيقول بعد موت عبد العزيز بن مروان « ولى عبد الملك عمله الى ابنه عبد الله بن عبد الملك وولاه مصر » .

(٣١٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٩ ، وقارن الرقيق ، ص ٦٧ .

(٣١٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٩ ، والرقيق ، ص ٦٧ .

(٣١٥) ابن عـــذارى ، ج ١ ص ٣٩ ، وقارن الرقيق ، ص ٦٧ ، وقارن النـــويري ، المخطوط ، ص ٧٦ .

« وكان حسان يسمى الشيخ الأمين »(٣١٦) ، ولا نعرف ان كان يقصد تثبيت صفة اتصف بها حسان أم انه قصد أن ينفي ما يمكن ان يحوم حول حسان من الشكوك أو الشبهات في الأموال ، وهذا ما سيروح ضحيته خليفة حسان في ولاية المغرب ، وهو موسى بن نصير ٠

ورغم كل هذا الجدل حول عزل حسان وعودته ، فربما كانت وفاة حسان بعد قليل من عودته الى المشرق(٣١٧) أو مرضه الذى مات فيه ، السبب الحقيقي في عدم عودته الى المغرب ٠

ولاية موسى بن نصير :

ولى موسى بن نصير افريقية من قبل الوليد بن عبد الملك في سنة ٨٦ هـ/٧٠٥ م ، حسب رواية ابن الاثير التي فضلناها على غيرها من الروايات المتضاربة في تحديد ذلك التاريخ للأسباب التي ذكرناها آنفا(٣١٨) ٠

والكتاب القدامى يختلفون في أصل موسى بن نصير ، اذ يقول البعض انه من لخم ، ويقول البعض انه من بكر بن وائل أو أنه بلوى مثل زهير(٣١٩) ٠

---

(٣١٦) نفس المصدر ٠ ولا بأس في أن يكون ما عرضه الخليفة على حسان من العودة الى ولايته ورفض هذا الأخير ، هو السبب فيما يروى من أن حسان كان في طريق عودته الى افريقية وان والى مصر عبد العزيز هو الذى منعه من العودة (انظر خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٢٧٦ ، ص ٣٠٠ — ٣٠١) ٠

(٣١٧) أنظر ابن عبد الحكم (ص ٢٠٣) الذى يقول بعد الإشارة الى النزاع بين عبد العزيز بن مروان وحسان بن النعمان ان هذا الأخير « لم يلبث يسيرا حتى توفى » ٠

(٣١٨) أنظر فيما سبق ص ٢٣٦ ٠ وقارن النص الجديد (ص ٢٢٣) الذى يجعل مسير موسى الى المغرب سنة ٨٩ هـ (وهذا تاريخ متأخر نسبيا وربما كان ٨٦ أصلا) ٠ أما ابن عذارى فهو يورد عبارة تقول ان حسان ولى في سنة ٨٣ هـ (ج ١ ص ٢١) ، ولكن آخر كلامه عن موسى يجعل ولايته في سنة ٨٨ هـ (المقرى نفح الطيب ج ٦ ص ١٠٨) ووفاته في سنة ٦٨ هـ ٠ ولكنه يتبع ذلك بقوله ان امارته على الأندلس والمغرب بلغت ١٨ (ثمانية عشر) عاما (ج ١ ص ٤٦) ، ولو كان ما ذكره صحيحا لكانت عشرة أعوام فقط ٠ أما عن تفسير ذلك الخطأ فلانه أخذ — كما نعتقد — بالروايات التي تقول ان ولاية موسى كانت حوالى سنة ٨٠ (انظر روايات ابن عبد الحكم التي أشرنا اليها) وهذا ما دعا البعض الى القول ان ولاية موسى كانت من قبل عبد الملك بن مروان ، كما هي عند من روايات خليفة بن خياط (انظر ج ١ ص ٣١٦) ٠

(٣١٩) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٩ ، البلاذرى ، ص ٢٣٠ ٠ ولقد كان لاختلاف القدماء هذا أثره على اختلاف آراء المحدثين بشأن موسى ، فبينما قال دوزى انه من العرب اليمنية (تاريخ المسلمين في أسبانيا ، بالفرنسية ، ج ١ ص ١٣٢) ، لاحظ فلهوزن (تاريخ الدولة العربية ، تعريب الدكتور أبو ريدة ، ص ٢٥٢ — ٢٥٣) انه وأبناءه لم يستفيدوا من سياسة الخليفة سليمان المتعصبة للمسنة التي يؤكدها دوزى ٠

والظاهر أن المتأخرون أرادوا أن يضعوا حدا لهذا الاختلاف بالنسبة للرجل اللامع ، الذى أصبح لحفدته شأن مرموق فى مصر والمغرب والاندلس ، فجعلوه من أبناء الصحابة ، فقالوا انه موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن يزيد صاحب رسول الله(٣٢٠) • وهذا يعنى أنهم جعلوه أنصاريا أولا وقبل كل شيء ، وأنه من أسرة نابهة وليس من أسرى عين التمر الذين أصابهم خالد ابن الوليد أو من موالى بنى أمية(٣٢١) •

والحقيقة ان نصيرا والد موسى شغل منصب قائد حرس معاوية وهو أمير على الشام ، وانه كان له من قوة الشخصية وأصالة الرأى ما يسمح له بعدم اجابة كل رغبات معاوية حتى فى وقت الأزمات الخطيرة(٣٢٢) • أما موسى فانه كان قد شغل فى المشرق وظائف هامة آخرها وظيفة مستشار اخى الخليفة عبد الملك ، وهو الشاب الصغير بشر بن مروان والى البصرة ، ولقد ألقى عليه الخليفة مسئولية فساد ادارة أموال البصرة ، وأراد عقابه فلجأ موسى الى عبد العزيز بن مروان — اذ كان أثيرا لديه — فتدخل من أجله لدى عبد الملك حتى عفا عنه ، وأقام موسى فى كنف عبد العزيز بالفسطاط(٣٢٣) • ولا نعرف ماذا كان نشاط موسى فى مصر ، ولكن الظاهر أن عبد العزيز بن مروان كان يلح فى أن تؤول ولاية المغرب الى ابن نصير ، وأن فشل ولاة الخلافة فى المغرب أمام ثورات البربر كان من الاسباب المواتية لكى يصر عبد العزيز على تقديم رجله • فابن عبد الحكم ينسب الى عبد العزيز انه قال لحسان عندما طلب منه أن يسحب مولاه تليدا من برقة : « ما كنت لأفعل بعد أن ضيعتها فاستولى عليها الروم »(٣٢٤) • وهكذا نستطيع أن نقول ان موسى كان المرشح لولاية افريقية بعد وفاة حسان ، ونظن أن الذى أيد الترشيح

---

(٣٢٠) هذا ما يذكره ابن شكوال فى الصلة ، الترجمة ، رقم ١٠٦١ ، ج ٢ ص ٤٩١ ، وما ينقله ابن عذارى (ج ١ ص ٣٩) ، والنص الجديد (ص ٢٢٣) •

(٣٢١) أخبار مجموعة ، ص ٣ ، البلاذرى ، ص ٢٣٠ •

(٣٢٢) أنظر ابن الأثير سنة ٨٦ ج ٤ ص ٢٥٩ (يقول ان نصيرا لم يجب معاوية الى المسير معه ضد على فى صفين اذ قال له : « لا أسركك بكفر من هو أولى بالشكر منك وهو الله عز وجل ، فسكت عنه معاوية ») • ابن خلكان ج ٤ ، ص ٤٠٢ •

(٣٢٣) أنظر ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ج ٢ ص ٤٨ — ٤٩ ، وأنظر ابن عذارى (ج ١ ص ٤٠) الذى يقول ان عبد الملك أغرم موسى ١٠٠ (مائة) ألف دينار فغرم عبد العزيز نصفها •

(٣٢٤) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٣ •

في ذلك الوقت هو والي مصر الجديد عبد الله بن عبد الملك أخو الخليفة الوليد ابن عبد الملك كما أشرنا (٣٢٥) ، فسيره الوليد الى افريقية · ويفهم من رواية الرقيق أن الخليفة الوليد ، عندما عين موسى بن نصير ، قرر فصل افريقية عن ولاية مصر . وأنه جعلها ولاية تابعة للخلافة بدمشق مباشرة(٣٢٦) ·

أ — أعمال موسى في المغرب :

وصل موسى الى القيروان ، وتسلم مقاليد الأمور من أبي صالح مولى حسان ونائبه على افريقية(٣٢٧) ، ويقول ابن قتيبه انه أساء اليـــه فأغرمه عشرة آلاف دينار ، ووجهه الى المشرق في الحديد(٣٢٨) · و نظاهر أن موسى سار الى المغرب وهو يرنو الى تحقيق ما لم يستطع سابقوه أن يحققوا مثله · هذا ما يفهم مما يرويه ابن قتيبة وينقله ابن عذارى من أن موسى عندما وصل الى افريقية وصار على رأس الجيش ذبح عصفورا وقع عليه ولطخ بدمه صدره من فوق ثيابه ، ونتف ريشه وطرحه على نفسه . وقال هو الفتـــح ورب الكعبة(٣٢٩) · وأنه صعد المنبر وخطب الناس فقال ، انما كان من قبلي على افريقية أحد رجلين : مسالم يحب العافية ···· أو رجل ضعيف العقيدة قليل المعرفة ···· وايم الله لا أريم هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها ويذل أمنعها ويفتحها على المسلمين »(٣٣٠)· والحقيقة أن حسان وان كان قد مهد افريقية والمغرب الأوسط فان المغرب الاقصى لم يكن قد مهد أمام العرب ، وهذا ما وقع على كاهل موسى ·

---

(٣٢٥) انظر فيما سبق . ص ٢٣٧ وبعد ٢١٢ ·

(٣٢٦) نص الرقيق ص ٦٨ و حيث يقول : « وكتب الوليد بن عبد الملك — رحمه الله — الى عبد العزيز ؟ بن مروان . يأمره بأن يوجه الى افريقيه موسى بن نصير من قبل الوليد ، ويقطع افريقية عن عبد العزيز ؟ » ·

(٣٢٧) ابن الأثير . سنة ٨٦ ج ٤ ص ٢٥٩ . وقارن ابن خياط ج ١ ص ٣٠٠ (حيث يذكر ان حسان استخلف سعدي بن مالك الفهمي) ·

(٣٢٨) ابن قتيبة الامامة والسياسة ج ٢ ص ٥٠ وقارن ابن خياط . ج ١ ص ٣٠٠ حيث يشير الى أن موسى ولى ابن اخت حسان . وهو بدر بن سعدن بن مالك ، افريقية) ·

(٣٢٩) ابن قتيبه ، الامامة والسياسة . ج ٢ ص ٥١ ، ابن عذارى ج ١ ص ٤١ ·

(٣٣٠) ابن قتيبه ، الامامة والسياسة ج ٢ ص ٥١ ·

وبدأ موسى أعماله بالقضاء على بقايا جيوب المقاومة في افريقية . فسير كتيبة من ٥٠٠ (خمسمائة) فارس الى قلعة زغوان (على مسيرة يوم من القيروان) فتم فتحها ، ودخل الى القيروان من سبيها عشرة آلاف رأس(٣٣١)، كما دخل من سبي حملةطبنة وصنهاجة عشرين ألفا (٣٣٢) .

أما عن حملات موسى في المغرب الأوسط والاقصى فقــد نجحت نجاحا باهرا ، وكانت أشبه ما تكون بنزهات عسكرية — كما يقال . فالكتـــاب لا يتكلمون الا عن أعداد خيالية من السبي والأسرى تصل في بعض المدن الى ١٠٠ (مائة) ألف رأس وأكثر(٣٣٣). واذا كانت التواريخ غير ثابتة أو مجهولة اطلاقا ، فان مواضع العمليات العسكرية هي الاخرى غير أكيـــدة بالمرة . والذي تتفق عليه النصوص هو أن موسى بن نصير قام بثلاث عمليات عسكرية كبرى ، قاد احداها هو بنفسه وذلك غير حملة طبنة التي سجلهـا خليفة بن خياط(٣٣٤) وقام بالاثنتين الاخريين ابناه عبد الله (أكبر أبنائه) ومروان . وهناك ذكر لعملية رابعة قام بها زرعة بن أبي مدرك . ويرجع الفضل الى نص عبيد الله ، الذي نشره بروفنسال ، في توضيح الخطوات الرئيسية لتلك الحملات التي كان هدفها المغرب الأقصى ، والتي تذكر بالحملة الكبرى التي قام بها عقبة بن نافع قبل ذلك بعشرين سنة . وهنا ينبغي أن نشير الى أنه من المحتمل أن يكون الكتاب قد خلطوا بين أعمال موسى بن نصير وأعمال عقبة بن نافع ، وأنهم نسبوا الى عقبة بعض أعمال موسى .

وهكذا بدأ موسى بأن أخضع قبائل البربر التي خرجت على الطاعة بعد مسير حسان الى المشرق(٣٣٥) ، وكذلك التي لم تكن قد خضعت بعد للعرب ،

---

(٣٣١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤١ .

(٣٣٢) أنظر تاريخ خليفة بن خياط الذي يجعل حملة طبنة وصنهاجة معا في سنة ٨١ هـ (ج ١ ص ٢٧٧ — أحداث سنة ٧٩ هـ) ثم يعود فيجعل حملة طبنة وحدها بقيادته (ج ١ ص ٢٨٠ — أحداث سنة ٨١ هـ) ثم يجعل حملة صنهاجة بقيادة المغيرة ابن أبي بردة العبدي في أحداث سنة ٨٢ هـ (ج ١ ص ٢٨٩) . ولا بأس هنا في الاستفادة من التفصيلات رغم عدم صحة التواريخ ، كما قلنا .

(٣٣٣) انظر ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٤ ، ابن عذارى ج ١ ص ٤٠ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٨٦ ج ٤ ص ٢٥٩ ، النويري ، ص ٧٦ ب ، الا ان المقطعــــة التي وضعها عن اوفيق (ص ٦٩) فلا تذكر الا السبي الكثير من البربر .

(٣٣٤) انظر هامش ٣٣٢ .

(٣٣٥) ابن الأثير ، سنة ٨٦ ، ج ٤ ص ٢٥٩ .

حتى قبيلة صنهاجة(٣٣٦) . ثم انه خرج من افريقية نحو المغرب الأوسط وولاية طنجة ، فتبددت القبائل أمامه نحو الغرب(٣٣٧) ، فتتبعها عبر السوس الأدنى حتى بلاد سجلماسة ووادى درعة(٣٣٨) . والظاهر أن القبائل التى استبد بها الخوف(٣٣٩) اختلطت ببعضها البعض خلال تلك المطاردة الرائعة . فبينما يذكر عبيد الله(٣٤٠) أن موسى وجد كتامة هناك (بدرعة) ، وأنه قتل ملكهم كمامون ، يضيف ابن عذارى الذى ينقل عن ابن قتيبة(٣٤١) الى كتامة قبائل هوارة وزناتة . وخضعت تلك القبائل لموسى الذى ولى عليهم رجـــلا منهم . وتركهم بعد أن استوثق منهم بأخذ الرهائن من أشرافهم ، وعاد بالسبى الكثير(٣٤٢) . ورجع موسى الى المغرب الأوسط حيث لقى مرة أخرى قبائل صنهاجة ، وقتل منكهم على وادى ملوية(٣٤٣) .

... وتبالغ الروايات فى عظم النتائج التى حصل عليها موسى فى حملته هذه ، حتى قيل ان سبى مدينة سجوما (أو سكوما) الصغيرة — وهى من مدن قبيلة أوربة — كان ١٠٠٠٠٠ (مائة) ألف مما أدهش الخليفة الوليد ، فكتب الى موسى : « ويحك أظنهـــا احدى كذباتك فان كنت صـــادقا فلهذا حشر الأمم »(٣٤٤) . وتقول الرواية ان موسى أخذ من جديد بثأر عقبة فى سجومة

---

(٣٣٦) أنظر هـ ٣٣٢ فى الصفحة السابقة .

(٣٣٧) ابن عذارى ج ١ ص ٤٢ .

(٣٣٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٢ .

(٣٣٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٢ .

(٣٤٠) النص الجديد ، ص ٢٢٤ .

(٣٤١) أنظر ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ج ٢ ص ٥٣ (حيث يذكر خطأ مقتل كسيله ابن لمزم . والظاهر أنه يريد أولاد كسيلة أمراء قبيلة أوربة) ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٤١ (يسمى الأمير الكتامى طامون ، ويقول ان موسى لم يقتله بل « بعث به الى عبد العزيز بن مروان حتى قتله عند البركة التى عنه قرية عقبة فسميت بركة طامون الى اليوم » . وقارن تاريخ خليفة بن خياط (ج ١ص ٢٧٧) حيث الاشارة الى ان : أول قبيل من البرابر غزاهم موسى بن نصير : الذين قتلوا عقبة بن نافع . سار اليهم بنفسه ، فقتل وسبى وهرب ملكهم كسيله (مكان المقصود قبيلة أوربة) .

(٣٤٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤١ ، ٤٢ .

(٣٤٣) النص الجديد ، ٢٢٤ . وقارن ابن خياط ، ج ١ ص ٢٧٧ (سنة ٧٩ ، وص ٢٨٩ ، سنة ٨٢) .

(٣٤٤) البكرى ، ص ١١٧ — ١١٨ ، الاستبصار ، ص ١٩٤ وهامش ٣ ، وقارن ابن قتيبه (ج ٢ ص ٥٤) الذى يجعل هذا الفتح فى سنة ٨٣ هـ ويجعل قواد موسى : عياض بن عقبة ، وزرعه ابن أبى مدرك ، والمغيرة بن أبى برده ، ونجدة بن مقسم ، وقارن الرقيق ، ص ٧٧ =

على يدى أولاد عقبة أنفسهم . وهم عياض ، وعثمان ، وأبو عبيدة ، وموسى ، الذين كانوا معه فقتلوا ٦٠٠ (ستمائة) رجل من كبار أعيان تلك المدينة(٣٤٥) .

وكان من الطبيعي وقد حقق موسى ذلك النجاح الباهر أن يوسع دائرة نشاطه في بقية أنحاء المغرب . فسير ابنه مروان على رأس قوة من خمسة آلاف رجل الى السوس الأقصى(٣٤٦) ، كما سير قائده زرعة بن أبي مدرك الى بربر مصمودة في طرابلس العليا(٣٤٧) . ونجحت الحملتان فرجع مروان بسبي كثير كان مجالا خصبا لخيال الكتاب(٣٤٨) ، أما زرعة فلم يلق حربا من المصامدة الذين أعلنوا خضوعهم ، وقدموا اليه رهائنهم كما قدمت غير مصمودة الرهائن(٣٤٩) - وكانت هذه هي المرة الثانية التي تطأ فيها الخيالة العربية أرض مصمودة بعد دخول عقبة . وتأكد انتشار الاسلام في بلاد المصامدة الذين دخلوا فيه طوعا(٣٥٠) ..

ـ حيث اسم المدينة « سقيوما » ، وابن خياط ج ١ ص ٢٩١ ، سنة ٨٤ (حيث يذكر أن موسى نزل في شكوما على أوربة فقاتلوه ، ثم فتح الله ، فقتل وسبى) .

(٣٤٥) انظر رواية ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ٢ ص ٥٤ — ٥٥ ، وابن عذارى (الذي ينقلها) ج ١ ص ٤١ ، والنص الجديد ، ص ٢٢٤ . وقارن رواية الرقيق (ص ٧٢) التي تشير الى مدينة سقيوما ولكن خلال فتح طارق للأندلس ، فتشير الى أن عياض بن عقبة ، وسليمان بن أبي المهاجر هاجماها وأنهما طلبا أن يعاونهما موسى بن نصير قبل عبوره الى الأندلس ، ولكنه كره ذلك لأن أهلها في الطاعة . ومع ذلك فقد هاجماها مما يدعو الى عدم الثقة بتلك الرواية .

(٣٤٦) النص الجديد ، ص ٢٢٤ ، وانظر ابن الأثير ، سنة ٨٦ ج ٤ ص ٢٥٩ حيث يسميه هارون . وقارن ابن قتيبة ، الامامة ، ج ٢ ص ٥٨ .

(٣٤٧) النص الجديد ، ص ٢٢٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٣ (رواية ابن القطان) .

(٣٤٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٤ ، حيث يقول . انه لما قدم مروان من السوس خرج موسى لاقائه فلما التقيا أمر مروان بوصيف او وصيفة لكل رجل مع والده ، وأمر موسى بمثل ذلك لرجال مروان ، فرجع الناس كلهم بوصيف أو وصيفة . وقارن خليفة بن خياط الذي يجعل حملة مروان في سنة ٨٩ هـ . وينص على أن السبي بلغ أربعين ألفا .

(٣٤٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٣ . النص الجديد ص ٢٢٥ . وهكذا لا نجد ذكرا خاصا لحملة عبد الله بن موسى في المغرب الأقصى ، وان كان خليفة بن خياط يسجل لعبد الله قيادة أكثر من حملة بحرية . كما نشير الى ذلك فيما بعد .

(٣٥٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٣ .

ب — فتح طنجة :

وهكذا بعد أن تم لموسى اخضاع المغرب الاوسط والمغرب الاقصى ، من سجلماسة ودرعة الى السوس الاقصى الى بلاد الملثمين ، اتجه موسى نحو طنجة التي كانت تخضع للامير الرومي يليان (جوليان) صاحب سبتة . والمقصود بطنجة هنا هو الولاية التي كانت في المغرب [illegible] سبتة(٣٥١) وليس المدينة حتى أن الكتاب عندما يتكلمون عن فتح طنجة يشيرون الى فتح السوس الادنى . وفي البلاد الواقعة خلف مدينة طنجة ، [illegible] القبائل هناك ، وولى عليهم موسى واليا من قبله أحسن سيرة [illegible](٣٥٢) . ونجح موسى في انتزاع طنجة (المدينة) لاول مرة ، وكان [illegible] من البربر تعرف من البتر والبرانس ممن لم يكن دخل في الطاعة(٣٥٣) . ووضع موسى على ساحل طنجة حامية أو رباط تتكون من ١٧٠٠ (ألف وسبعمائة) رجل تحت قيادة ابنه مروان(٣٥٤) . والظاهر أن ظروف المرابطة لم تكن ملائمة بالنسبة لمروان فلم يلبث أن انصرف بعد أن [illegible] جنده هو وأصحابه ، تاركا القيادة من بعده الى طارق بن زياد(٣٥٥) . والظاهر أن البربر أقبلوا على الرباط على الساحل الطنجي بحماس لا نظير له اذ لم تلبث قوات طارق أن بلغت ١٢ (اثني عشر) ألف رجل . هذا ولو أن كان من بين هؤلاء البربر رهائن المصامدة . وغيرهم من رهائن بربر افريقية والمغرب . مع بضع عشر رجلا من فقهاء العرب يعلمونهم قواعد الاسلام وأصول الشريعة(٣٥٦) . وبذلك تم فتح المغرب

---

(٣٥١) انظر [illegible] ، ص ١٩٩ وهـ ١٠٢ .

(٣٥٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٣ ، وانظر الرقيق ، ص [illegible] .

(٣٥٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٣ ، [illegible] ، ص [illegible] ، والبكري [illegible] ص ١٠٨ [illegible] موسى [illegible] ص ٢٠٧ [illegible] سنة ٩٢ هـ بالاشارة الى أن موسى وجه طارق [illegible] .

(٣٥٤) انظر ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٤ .

(٣٥٥) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٤ .

(٣٥٦) انظر ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٤ ، [illegible] من العرب [illegible] البربر [illegible] الاسلام [illegible] ص ٢٧ [illegible] .

الأقصى الا اقليم سبتة الذى بقى بين يدى يليان(٣٥٧) . وانتشر الاسلام فيه . وذلك حوالى سنة ٩٠ هـ/٧٠٨ م ، وهو قريب من التاريخ الذى يجعل فيه بعض الكتاب ولاية موسى للمغرب(٣٥٨) . وقرر موسى العودة الى افريقية بعد أن استعمل طارق بن زياد على طنجة(٣٥٩) ، وفى الطريق الى القيروان فتح موسى مدينة مجانة ، على مسيرة ٣ أيام من القيروان على الحدود التونسية الجزائرية الحالية ، على يدى بشر بن فلان الذى أعطاها اسمه فأصبحت تسمى قلعة بشر(٣٦٠) .

جـ ــ النشاط البحرى :

وتعتبر ولاية طارق بن زياد على طنجة واستقلاله بقيادة الجيش العربي في المغرب الأقصى أجمل نتائج التطور الطبيعي لعلاقة العرب بالبربر ، علاقة المؤاخاة والحلف ، التي بدأت تؤتي ثمارها بتحالف كسيلة مع أبي المهاجر ثم باستخدام أبناء الكاهنة في قيادة قوات حسان ، وأخيرا باستقلال طارق

= وكانوا قد دخلوا الاسلام ، وحسن اسلامهم ، فتركهم موسى وانصرف بعسكره من العرب خاصة وتاق في خلق عظيم. وأمر العرب السبعة والعشرين الذين ترك عند طارق بن زياد أن يعلموا البرابر القرآن ، وأن يفقهوهم في الدين . وقارن ابن عذارى ج ١ ص ٤٣ . وابن الأثير ، سنة ٨٦ ج ٤ ص ٢٥٩ . وقارن ابن خلكان (ج ٤ ص ٤٠٣) الذى يقول ان قوة طارق بلغت ١٩ الف فارس من البربر .

(٣٥٧) أنظر ابن عبد الحكم الذى ينص على أنه كان ليليان أيضا مدينة المجاز وهى (الجزيرة) الخضراء على الساحل الأندلسي (ص ٢٠٥) .

(٣٥٨) أنظر النص الجديد ص ٢٢٤ . أما ابن عبد الحكم (ص ٢٠٥) فيجعل ذلك فى سنة ٩٢ هـ وهذا تاريخ متأخر اذ وقع فيه غزو الأندلس الذى ما كان ليتم الا بعد فترة من الراحة والتروى . وعن تاريخ ولاية موسى أنظر فيما سبق ، ص ٢٣٨ وهامش ٣٦٨ .

(٣٥٩) أنظر ابن عبد الحكم (ص ٢٠٥) حيث يقول ان موسى عزل الذى كان استعمله على طنجة ــ ونظن انه يقصد بذلك مروان بن موسى (انظر الصفحة السابقة) ــ وولى طارق ابن زياد .

(٣٦٠) ابن الاثير سنة ٩٢ جـ ٤ ص ٢٥٩ (النويرى ص ٧٦ ب) . أما ابن عبد الحكم (ص ٢٠٥) فانه يقول ان الذى فتحها هو بسر بن أبي أرطاة وانها سميت لذلك قلعة بسر . والمعروف ان ابن أبي ارطاة شارك فى الفتوح الأولى الى جانب عقبة ولكنا لا نعرف أنه صاحب ابن نصير فى المغرب والحقيقة انه اختلف في وقت وفاته فقيل انه توفى أيام معاوية وقيل بل أيام عبد الملك (أنظر ابن الأثير ، أسد الغابة جـ ١ ص ١٨٠) وابن عبد الحكم يأخذ بالرواية الأولى (ص ٢٦٠) . وقارن الرقيق (ص ٧٠ ــ ٧١) الذى يوافق ابن عبد الحكم في أن بسر (بسر) بن أرطاة هو الذى فتح مجانة عنوة وباسمه عرفت ، ويضيف الى ذلك أنه غنم منها أموالا كثيرة بلغت مائة ألف دينار ، اذ كان نصيب الخلافة ، وهو الخمس ، ٢٠ (عشرين) الف دينار .

بالقيادة وقيامه بعد ذلك بأعظم عملية عسكرية فى المغرب ، وهى فتح الاندلس . ولقد بلغ ذلك التطور ذروته تلك خلال ثلاثة أجيال كما يفهم من نسب طارق . فهو وأبوه وجده عبد الله يحملون أسماء عربية أما جد أبيه فهو ولغو بن ورفجوم من بربر نفزاوة[٣٦١] . واذا كان الفضل فى فتح الأندلس ينسب الى طارق فينبغى ألا ننسى أفضال موسى فى توسيع دائرة نشاطه الى ما وراء البحر ـ فبدون ذلك النشاط البحرى ما كان من الممكن أن يتم فتح الأندلس ـ فى غارات بعيدة المدى الى صقلية أو الى سردانة وجزر ميورقة وميورقة (البليار) ، كتلك التى يشير اليها خليفة بن خياط فى تاريخه ، والتى كانت القيادة فى بعضها الى عبدالله بن موسى بن نصير[٣٦٢].

ولقد مهد موسى لذلك بالاهتمام بعمران مدينة تونس ، وتوسيع دار الصناعة بها ، وشق القناة التى توصل بين الميناء (رادس) وبين المدينة على طول ١٢ (اثنى عشر) ميلا . وبفضل تلك القناة أصبحت المدينة نفسها مشتى للمراكب تكنها من العواصف والأنواء[٣٦٣] .

والمفهوم أن حملة صقلية قامت من تونس ، وأن الذى قام بها هو عياش ابن أخيل الذى نزل على مدينة سرقوسة « فغنمها وجميع ما بها ، وقفل سالما غانما »[٣٦٤] . وأما عن أشهر غزوات سردانية على عهد موسى ، فرغم أن الرواية تعطى اهتمامها للمغانم الهائلة التى تم الاستيلاء عليها فيها الا انها لم تنته نهاية سعيدة . ويفهم من رواية ابن عبدالحكم أن القيادة فى تلك الغزوة كانت الى اعطاء بن رافع الهذيلى قائد أسطول مصر الذى خرج من مدينة سوسة[٣٦٥] ، وكان بصحبته أبو عبد الرحمن الحبلى والتابع المشهور حنش

---

(٣٦١) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٣ . أما عن الروايات التى تقول انه همذانى او فارسى فلا أساس لها من الصحة (أخبار مجموعة ، ص ٦) ونظن أنها من صنع كتاب الفرس الذين أرادوا أن ينسبوا كل عظيم الى بنى جنسهم . وذلك اثر نشاط حركة الشعوبية بينهم .

(٣٦٢) أنظر تاريخ خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ (حيث الاشارة الى غزو سردانية مرتين فى سنة ٨٧ هـ . اولاهما بقيادة عبد الله بن موسى والثانية بقيادة عبد الله ابن حذيفة الأزدى) ، ص ٣٠٥ (حيث الاشارة الى حملة بحرية قام بها عبد الله فى سنة ٨٩ هـ على جزيرتى ميورقة وميورقة ، وتدعى غزوة الأشراف ، لأنه كان معه أشراف الناس) .

(٣٦٣) ابن قتيبة ج ٢ ص ٥٦ . وانظر فيما سبق ص ٢٣٣ وشكل ٨ ص ٢٣٤ .

(٣٦٤) ابن عذارى ج ١ ص ٤٣ . ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ٢ ص ٥٧ (يجعل هذه الغزوة فى سنة ٨٦) .

(٣٦٥) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ (يسميه عطاء بن رافع مولى هذيل) ، ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ٢ ص ٥٦ .

ابن عبد الله الصنعاني(٣٦٦) . ونزل البحارة العرب على عاصمة الجزيرة . وكانت الكاتدرائية (البيعة الكبرى كما يسميها ابن الاثير)(٣٦٧) بصفة خاصة هي هدفهم ، فاستولوا على ما كان فيها من الذخائر من آنية الذهب والفضة ، وما كان يكتنزه رجالها من الأموال(٣٦٨) . وللرواية هنا اهمية خاصة اذ تشير الى عدم انتظام الرجال الذين أغواهم بريق الذهب ، فاحتفظوا لانفسهم بأموال المغانم (الغلول) ، وتفننوا في إخفائها عن قائدهم في أجفان السيوف بل وفي زمم القطط . ولم تشأ الأقدار أن يتمتع الناس بما أخذوه غدرا وخيانة فلقيت مراكبهم المتاعب في رحلة العودة ، فثارت بهم الرياح وضربت المراكب بعضها البعض حتى تكسرت(٣٦٩) ، وغرق كثير من الناس قرب الساحل الافريقي — على ما يقول ابن قتيبة — وذلك أنه عثر على « أكثر الغرقى والدنانير على أوساطهم »(٣٧٠) . وكان أبو عبد الرحمن الحبلي ، وحنش الصنعاني من الناجين لانهما « لم يكونا نديا من الغلول بشيء »(٣٧١) .

وهكذا يجعل الكتاب تلك النهاية التعسة عقابا من السماء لأولئك الذين سمحوا لأنفسهم بأن يغتصبوا ما ليس من حقهم أو يخونوا . وبطبيعة الحال ما كان موسى بن نصير ليسكت على مثل هذا الخروج على النظام في قواته فارسل أعوانه ، ومنهم عمرو بن أوس ويزيد بن مسروق ، يفتشون الناجين من رجال الحملة . واكتشف عمرو وسائل غريبة لاخفاء الأموال مثل : وضع الدنانير في القصب واستخدامه كعصي للاتكاء عليها ، أو دفنها في الزفت ، وحتى مثل تخبئتها في مواضع حساسة من الجسم ، ثم انه حمل من عثر عليه من هؤلاء النوتية الى دار الصناعة بتونس(٣٧٢) .

أما عن تاريخ هاتين الغزوتين فالكتاب يضعون غارة صقلية في ثنايا

---

(٣٦٦) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٩ (يلقبه بالسبئي وليس بالصنعاني) .

(٣٦٧) ابن الأثير ، سنة ٩٢ ج ٤ ص ٢٧٢ .

(٣٦٨) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٩ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٩٢ ج ٤ ص ٢٧٢ (النويري ص ٨٢ أ) (الرواية تشير الى أن أخذ الأموال من الكنيسة تم عندما رمى رجل بعض الصنم بسهم فوقع السهم في السقف وانكسر منه لوح خشب فانهال عليهم بالمال) .

(٣٦٩) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٩ .

(٣٧٠) ابن الأثير سنة ٩٢ ، ج ٤ ص ٢٧٣ ; وابن الأثير يقول هنا انهم غرقوا عن آخرهم والظاهر أنها صيغة مبالغة تعني غرق كثير منهم) . ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ٢ ص ٥٨ .

(٣٧١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٩ .

(٣٧٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٠ . ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ج ٢ ص ٥٧ .

فتح المغرب(٣٧٣) ثم هم يخلطون بين فتح الأندلس وغزوة سردانية مما دعا ابن الأثير الى وضعها في أحداث سنة ٩٢ هـ/٧١١ م(٣٧٤) . والأقرب الى المنطق أن يكون غزو سردانية قد تم من القواعد البحرية المغربية وليس من الاندلس . ففتح الأندلس كان في بدايته ، ولم يكن العرب في سنة ٩٢ هـ قد وصلوا الى سواحله الشرقية . وهذا ما تقول به الرواية المصرية كما يذكر ابن عبد الحكم عن سعيد بن عفير(٣٧٥) . وهذا ما تؤيده روايات خليفة بن خياط الذي يسجل غزوتين بسردانية سنة ٨٧ هـ/٧٠٦ م كما يسجل غزو عبد الله بن موسى لميورقة ومينورقة في سنة ٨٩ هـ/٧٠٨ م(٣٧٦) . وبناء على ذلك لا يثبت فقط أن تلك الغارات البحرية قد وقعت قبل فتح الأندلس مباشرة ، بل ونتأكد أنها التي شجعت على القيام بالمغامرة الكبرى فيما وراء بحر الزقاق — الى جانب الرباط في طنجة .

د — طارق في تلمسان وعلاقته بيليان :

هكذا استقر موسى بن نصير في القيروان ، « ولم يبق له في افريقية من ينازعه » ، بينما نائبه ومولاه طارق بن زياد في طنجة يتم تمهيد المغرب ، ويتطلع الى الأندلس . ولقد لاحظ بعض الكتاب — ولهم الحق في ذلك — انه كان من الغريب أن يكون طارق في طنجة ، التي تكاد تكون هي وسبتة مدينة واحدة ذات شطرين على المجاز الى الأندلس ، بينمـا كانت سبتة بين يدي يليان . فرجح البعض ان مستقر طارق كان في شمال بلاد درعة في المنطقة التي ستبنى فيها سجلماسة ، وهي تفللت حاليا « لآن سلا وما وراءها من أرض فاس وطنجة وسبتة كانت للنصارى »(٣٧٧) . ولكن هذا الاحتمال منقوض من وجهين : أولهما أنه يتعارض مع النصوص التي تجمع على أن طارق ابن زياد كان بطنجة أو بساحلها . وثانيهما أنه ما كان العرب ليستقروا في الصحراء الجنوبية القاحلة بعد أن كانت لهم الأقاليم الخصبة الساحلية في

---

(٣٧٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٣ .

(٣٧٤) انظر ابن الأثير ، سنة ٩٢ ج ٤ ص ٢٧٣ ـ ويورد ابن الأثير بعد هذه العبرة غزوات العرب التالية على سردانية أيام ابن حبيب (سنة ١٣٥ هـ) والمنصور الفاطمي (سنة ٣٢٣) ومجاهد العامري أميرد انية سنة ٤٠٦ هـ/١٠١٥ م .

(٣٧٥) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٩ (وقارن ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ٢ ص ٥٦ ـ ٥٧ حيث يجعل تاريخ ذلك سنة ٨٤ وسنة ٨٥ أي قبيل ولاية موسى ؟) . انظر فيما سبق .

(٣٧٦) أنظر فيما سبق ص ٢٤٦ وص ٣٦٢ .

(٣٧٧) أنظر ابن عذارى ، (الذي ينقل رواية ابن القطان) ، ج ١ ص ٤٤ .

الشمال ، وهذا ما وجههم فعلا نحو الأندلس شمالا بدلا من الاتجاه نحو السنغال والسودان الغربي وجنوبا •

وحقيقة الأمر أن الكتاب يقصدون بطنجة الولاية الفسيحة ، وليس المدينة الصغيرة • واذا ما كانت ولاية طنجة تمتد الى مسيرة شهر كما أشرنا(٣٧٨) ، واذا ما كانت مدينة سلا (حيث مدينة الرباط الحالية) تعتبر داخلة في نطاقها من جهة الغرب ، يكون امتداد مدينة طنجة من جهة الشرق الى حدود المغرب الأوسط ومدينة تلمسان • وهذا ما تؤيده بعض روايات ابن عبد الحكم التي تقول ان يليان ، عندما أرسل الى طارق يحثه على فتح الأندلس ، «كان طارق يومئذ بتلمسان ، وموسى بالقيروان »(٣٧٩) • وهذا يعني أن تلمسان كانت بالنسبة للمغرب في ذلك الوقت قرينة للقيروان بالنسبة لافريقية ، مما يحمل على الظن بأن مدينة طنجة ذاتها دخلت في حوزة العرب مع مدينة سبتة وبقية أملاك يليان عندما تم التحالف بين هذا الأخير وبين طارق وموسى • ولا يمنع من ذلك ما يفهم من رواية أخبار مجموعة من أن موسى بن نصير افتتح فعلا طنجة ، وانه حاول فتح سبتة ولكنه وجد عند يليان « عدة وقوة ونجدة ليست تشبه ما قبلها فلم يطقهم فرجع عنهم الى طنجة ، وجعل يجتث ما حولهم بالمغاورة فلم يطقهم »(٣٨٠) ، فلو صح ذلك لكان من المغامرة أن يقيم طارق الى جوار خصمه القوى الذى لا يطيقه •

أقام اذن طارق بتلمسان مع زوجته أم حكيم(٣٨١) على حدود ولاية طنجة الشرقية كما يقول ابن عبدالحكم ، واستمر اتباع سياسة حسن الجوار التي اتبعها العرب ازاء يليان منذ أيام عقبة بن نافع ، ولم يحاول أن ينتزع مدينة سبتة ، ولو أن العرب استولوا على دواخلها • وأخذ طارق يراسل يليان ويلاطفه ، واستجاب الأمير الرومي الذى كان يقف موقفا دقيقا بين القوط في الأندلس والعرب في المغرب لرغبة طارق ، وتوثقت عرى الصداقة بينهما ، فكانا يتبادلان الهدايا(٣٨٢) ، وانتهى الأمر بأن أدى يليان خدمات حاسمة للعرب فكان العامل الفعال في فتح الأندلس •

---

(٣٧٨) انظر فيما سبق ـ ص ٢٤٤ ـ ص ١٩٩ وص ١١٤ •

(٣٧٩) ابن عبد الحكم ـ ص ٢٠٥ •

(٣٨٠) أخبار مجموعة ـ ص ٤ •

(٣٨١) ابن عبد الحكم ـ ص ٢٠٥ •

(٣٨٢) ابن عبد الحكم ـ ص ٢٠٥ •

ومع أن الكتاب يجعلون من دخول العرب الى الأندلس مادة لقصص منيرة ، أشهره قصة ابنة يليان وملك الأندلس لذريق(٣٨٣) ، فان الذى يهمنا هنا هو أن فتح الأندلس كان نتيجة طبيعية لتمام فتح المغرب . فمن جهة نلاحظ أن العلاقة وثيقة بين المغرب والأندلس من النواحي الطبيعية حتى أن الكتاب العرب اعتبروا الأندلس جناحا غربيا للمغرب(٣٨٤) ، ومن جهة أخرى كان للأحداث التاريخية في كل من البلدين آثارها العميقة في الآخر منذ أيام الفينيقيين وقرطاجنة ، وعلى أيام الوندال ، واستمر هذا التأثير المتبادل على أيام العرب والاسلام ، وحتى العصور الحديثة والى الآن .

والذى ميز فتح الأندلس عن غيره من الفتوح العربية حتى ذلك الوقت هو اشتراك المغاربة ، أى أهل البلاد التى تم فتحها فى التو والنحظة ، الى جانب العرب اشتراكا ايجابيا فى هذا الفتح حتى ليمكن القول انه وقع على كاهلهم وحدهم . وهذا عمل عظيم من غير شك ، يشهد للعرب بالمجد والفخار اذ نجحوا في أداء رسالتهم ــ رسالة الاخاء والمساواة ــ فاكتسبوا الى جانبهم أهل البلاد قلبا وقالبــا ، فأصبح البربر أشد حماســا من العرب للعروبة والاسلام في تلك الفترة الوجيزة ، فقاموا الى جانب اخوانهم العرب ينشرون الرسالة فى أوروبا ، يبذلون المهج والنفوس رخيصة فى هذا السبيل .

وهكذا نزل طارق ابن زياد أرض الاندلس في سنة ٩٢ هـ/٧١١ م على رأس قواته التي بلغت ١٢ (اثنى عشر) ألف رجل جلهم من البربر(٣٨٥) . وحققت القوة الاسلامية نجاحا باهرا لم يسبق له مثيل ، فضربت في قلب شبه جزيرة ايبرية كما يضرب النصل الماضى في قالب من الزبد . ووصلت موسى بن نصير وهو فى القيروان أنباء ذلك النجاح بعد أن كان وصله نصيبه فى الخمس من الأموال والسبايا من الاسبانيات الجميلات(٣٨٦) ، فهرع في

---

(٣٨٣) أنظر ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٥ ، أخبار مجموعة ، ص ٥ ، وانظ رفيما سبق ، هـ ١١٤ ص ١٩٩ ــ حيث رواية الرقيق الأسطورية (عن ان يليان على عهد طارق ، كان ابنا لملك الأندلس التي ربما كانت صدى لقصة ابنة يليان وملك القوط الاسبانى) .

(٣٨٤) أنظر فيما سبق ص ٦٣ .

(٣٨٥) أخبار مجموعة ، ص ٦ . ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٣ (جاز طارق الى الى الأندلس بمن كان معه من العرب والبربر ورهائنهم الذين ترك موسى عنده ، والذين أخذهم حسان من المغرب الأوسط عنده) .

(٣٨٦) أخبار مجموعة ، ص ٦ .

السنة التالية (٩٣ هـ/٧١٢ م) بمن كان معه من القوات العربية ، وبصحبته عدد من المشاهير منهم مغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك ، والتـابع المشهور حنش الصنعاني ، وحبيب بن أبي عبيدة الفهري ، واستخلف عـلى القيروان ابنه عبد الله(٣٨٧) . وعبر المضيق الى الأندلس ليتم فتحها أو ليكاد ، الى جانب طارق في قرابة سنتين . أما عن ذخائر الأندلس وكنوزها وسباياها فقد أثارت خيال الكتاب العرب بشكل فاق ما أثارته كنوز افريقية والمغرب ، بل وكنوز المشرق وآل ساسان(٣٨٨) .

هـ — نهاية ولاية موسى بن نصير :

وبتمام فتح الأندلس انتهت ولاية موسى بن نصير للمغرب اذ استدعاه الخليفة الوليد بن عبد الملك ليعرفه بما تم على يديه من الفتوح ، وليحاسبه عما حصل عليه من الأموال والذخائر . وأعد موسى العدة للعودة الى المشرق فاستخلف ابنه عبد العزيز على الأندلس ، واستصحب طارق بن زياد وعبر بالأموال والذهب والفضة والجواهر في المراكب الى طنجة(٣٨٩) . ويصف الكتاب موكب النصر الذي سار فيه موسى عبر المغرب وصفا رائعا . فالذهب والجواهر والأموال حملت من طنجة على العجلات « فكانت وسق مائة عجلة وأربعة عشرة عجلة » . أما السبايا — حسب مقالة الليث بن سعد — « فلم يسمع قط بمثل سبايا موسى بن نصير في الاسلام »(٣٩٠) .

---

(٣٨٧) أنظر ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٧ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٣ ، وعن حنش انظر ابن قتيبة الامامة والسياسة ، ج ٢ ص ٦٥ (القراءة خطأ هنا « حبيش الشيباني » والصحيح في ابن قتيبة ، ملحق ابن القوطية ، طبعة مدريد ، ص ١٣٧) . وانظر مقدمة جاتو (Gateau) لابن عبد الحكم ، ص ١٩ .

(٣٨٨) عما وقع بين أيدي المسلمين من كنوز الأندلس وأشهرها المائدة الأسطورية انظر ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٨ ، ٢١١ ، ابن عذارى ج ١ ص ٤٣ ، أخبار مجموعة ، ص ١٩ ، ابن قتيبة ، ج ٢ ص ٦٣ ، الرقيق ، ص ٧٥ (حيث موكب ودريق العجيب) ، ص ٧٦ حيث اشارة سريعة الى الغنائم) ، ، ص ٧٩ — ٨٠ (حيث الاشارة الى مغانم طليطلة ومنها مائدة سليمان الأسطورية التي كانت أصلا في بيت المقدس ثم حملت الى روما ثم الى الاسكندرية من حيث حملها الروم — وهم يفرون أمام العرب — الى طرابلس ، وقرطاجنة ثم طليطلة ، حيث وقعت بين أيدي العرب) ، ص ٨١ (حيث أسطورة رمي موسى لتلك الكنوز في النيران ، وأخذ منها ما لم تقدر عليه النار فقط) .

(٣٨٩) الرقيق ، ص ٨٢ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٣ . وقارن خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٣١٠ (أحداث سنة ٩٤ هـ) .

(٣٩٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٣ ، وقارن الرقيق ، ص ٨٢ ، ابن خياط ، ج ١ ص ٣١١ (سنة ٩٥ هـ) .

وسار الموكب العظيم نحو القيروان ، بعد أن ترك موسى ابنه عبد الملك على طنجة[٣٩١] ، فوصل العاصمة الافريقية فى آخر سنة ٩٥ هـ/أغسطس ٧١٤ م[٣٩٢] . ولم يدخل موسى القيروان بل نزل على مقربة منها فى موضع يعرف بـ « قصر الماء »[٣٩٣] ، حيث جاءته وفود المهنئين من قواد الجيوش العربية فى القيروان . فكان لهم نصيبهم مما كان معه من « جوار مختلفات كأنهن البدور الطوالع من بنـــات ملوك الـــروم والبربر . عليهن الحـــلى والحلل »[٣٩٤] .

وبعد أن أقر موسى أمور افريقيـــة ، استخلف عليهـــا ابنـــه الأكبر عبد الله[٣٩٥] وسار فى أوائل سنه ٩٦ هـ/خريف سنة ٧١٤ م نحـــو المشرق ، وبصحبته بقية أولاده ومنهم مروان وعبد الأعلى ، وأشراف العرب ، ووجوه البربر ، وأمراء القوط[٣٩٦] . ودخل الموكب مدينة الفسطاط فى يوم الخميس ٢٣ من شهر ربيع الأول سنة ٩٦ هـ/٨ ديسمبر سنة ٧١٤ م[٣٩٧] ، حيث عرض موسى ما كان معه من الطرف ، واظهر كرمه الملوكى فأهدى كل من بالفسطاط من الفقهاء والشرفاء[٣٩٨] . وفى فلسطين استقبله بنو زنباع استقبال الملوك المنتصرين فنحروا له ٥٠ (خمسين) بعيرا ، فأجزل لهـــم العطاء ، وخرج من عندهم بعد أن ترك لديهم بعض أهله وصـــغار ولده ،

---

(٣٩١) ابن عذارى ج ١ ص ٤٤ . وانظر الرقيق . ص ٨٨ .

(٣٩٢) الرقيق . ص ٨٦ . ابن عذارى ج ١ ص ٤٤ .

(٣٩٣) ابن عبد الحكم . ص ٢١١ . الرقيق . ص ٨٧ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٤ .

(٣٩٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٤ (النص هنا يقول انه كان يتباهى بما كان معه من الجوارى اللاتى اعتبرهن ملكا له . وانه فرقهن على الناس بعد أن لفت نظره على بن رباح اللخمى الى خطورة استحواذه عليهن جميعه) . وقارن الرقيق (مرجع ابن عذارى) . ص ٨٧ — حيث وصف الجوارى بالحسناء . والتعدد وتكسره . وحيث لقب على بن رباح هو « اللخمى » وليس « السلمى » .

(٣٩٥) ابن عبد الحكم ٢١٠ الرقيق (الـــذى نقله) . ص ٨٨ . تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ٣١١ . ٣١٦ . وابن عذارى ج ١ ص ٤٤ .

(٣٩٦) أنظر ابن عذارى (ج ١ ص ٤٤) الذى يقسم أشرف العرب الى قرشيين . واعصار وغيرهم . ويذكر من البربر بنى كسيلة وابناء الكاهنة وبنى يسور ومردانة ملك السوس الى جانب أمراء مدن افريقيه . ويذكر أمير ميورقة ومينورقة الى جانب أمراء القوط . قارن ابن قتيبة . ج ٢ ص ٦٦ .

(٣٩٧) ابن عبد الحكم ص ٢١١ .

(٣٩٨) ابن عذارى . ج ١ ص ٤٤ . ابن قتيبة . ص ٦٧ .

ووصل الى دمشق حيث استقبله الخليفة الوليد وهو على سرير مرضه الذى مات فيه(٣٩٩) ٠

وتوفى الوليد في جمادى الآخرة من سنة ٩٦ هـ/فبراير ٧١٥ م ووقع موسى بن نصير فريسة لسخط الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك ٠ والروايات تختلف في سبب نكبة موسى بن نصير ، وتقدم لذلك أسبابا شخصية منها سوء معاملة موسى لطارق بن زياد بسبب تنافسهما على فتح الأندلس ، والاستيلاء على كنوزه وذخائره(٤٠٠) ، ومنها أن موسى فوت على سليمان تملك تلك الكنوز فقدمها الى الوليد وهو يحتضر(٤٠١) ٠

مسالة الأموال ونهاية موسى :

ولا شك أن مسألة الأموال كانت من أسباب السخط على موسى الذى سمح لنفسه بالتصرف في بعضها : فغمر بكرمه وجوه الناس على طول الطريق من القيروان الى الفسطاط الى فلسطين ٠ والمعروف أن سليمان جرى على التقليد الذى بدأه معاوية ، فحاسب موسى حسابا شديدا ، ولم يعدم الشهود الذين يشهدون ضد ابن نصير ٠ ومن هؤلاء رجل من أهل المدينة هو عيسى ابن عبد الله الطويل ، الذى كان يشغل منصب صاحب المغانم (أو المقاسم) في جيش موسى ٠ فقد شكا لسليمان ، وقال له : « ان الله أغناك بالحلال عن الحرام ٠٠٠٠ ان موسى لم يخرج خمسا من جميع ما أتاك به » مما دعا سليمان الى ادخال كل ما اتى به موسى الى بيت المال(٤٠٢) ٠ وانتهى الأمر بتعذيب موسى ، واغرامه مبالغ كبيرة من المال ثم وفاته في تلك الظروف التعسة(٤٠٣) فكأنما سقط من حالق ٠

---

(٣٩٩) انظر الرقيق ، ص ٨٨ — حيث ينص على ان الوليد كان مريضا بدير من غوطة دمشق ٠

(٤٠٠) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، وانظر الرقيق ، ص ٨٩ ، ٩١ ٠

(٤٠١) انظر الرقيق ، ص ٨٩ ، ٩١ ، ابن عذارى ج ١ ص ٤٥ ، المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ص ١٣٣ ٠

(٤٠٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢١١ ٠

(٤٠٣) انظر الرقيق ، ص ٩١ — حيث تقول الرواية ان سليمان اغرم موسى ٣٠٠ (ثلاثمائة) ألف دينار وأمر بتعذيبه ، وعزم على قتله لولا استجارته بيزيد بن المهلب الذى شفع له ، ولكن سليمان أصر على ان يدفع موسى الغرم الذى فرضه عليه ٠ وعن وفاة موسى في المدينة في موسم حج سنة ٩٨ هـ وهو بصحبة سليمان بن عبد الملك ، انظر ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ط ٠ مصر ١٣٢٨ هـ ج ٢ ص ٨٢ — ٨٣ ٠

ولم تكن مسألة الخيانة في المال هي التي أودت وحدها بموسى بل شاركتها السياسة الجديدة للدولة التي صاحبت النقلة من عهد الوليد الى عهد أخيه سليمان . فلقد أودت تلك السياسة بآخرين غير موسى من كبار رجال الدولة من أهل الحرب والسياسة . فطارق بن زياد انتهى هو الآخر في المشرق نهاية مغمورة ، وقتيبة بن مسلم بطل فتوح « ما وراء النهر » راح هو الآخر ضحية سخط سليمان ، فتم اغتياله على أيدي رجاله الذين طالما قادهم الى ميادين البطولة والظفر . هؤلاء الرجال أدوا للخلافة والاسلام خدمات جليلة ، فوسعوا حدودهما الى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ولقوا في النهاية نكران الجميل أو جزاء سنمار . والى جانب مزاج الخليفة أو أهوائه الشخصية حاول البعض تفسير ذلك التغيير العنيف في سياسة الدولة عن طريق مسألة النزاع العصبي بين القبائل العربية ، فرأوا أنه بعد أن كان الوليد يسير على سياسة محاباة القيسية والاعتماد عليهم في أمور الحرب والادارة ، سار سليمان على سياسة عكسية تحابي اليمنية واستخدمهم وأنزل سخطه بخصومهم(٤٠٤) . ولكن هذه النظرية — مع صحتها الى حد كبير — ليست فوق مستوى النقد : فطارق بن زياد كان من الموالي ، وموسى بن نصير نفسه اختلف في أمره ورجح البعض أنه لخمي من أصل عربي يمني (٤٠٥) . وربما كان لموقف هؤلاء العاثر أو العدائي من سليمان بن عبد الملك ، وهو ولي للعهد وعملهم من وراء الستار على تحريض الخليفة عبد الملك على أن يعهد لبعض ولده بدلا من أخيه أثره فيما أصابهم من سخط سليمان(٤٠٦) .

والى جانب كل هذا نظن أن الخلافة استشعرت شيئا من الخطر من وجود رجال ممن ليم مثل باع موسى بن نصير وقتيبة بن مسلم — ممن يذكرون بعمرو بن العاص وخالد بن الوليد — في أطراف الدولة البعيدة ، خشية نزوعهم الى الاستقلال أو محاولة التحرر من سلطان الخلافة . والظاهر أن

---

(٤٠٤) انظر دوزي ، تاريخ المسلمين في الاندلس (بالفرنسية) ، ج ١ ص ١٣٣ — ١٣٤ .

(٤٠٥) انظر مناقشة ذلك في فلهوزن (تاريخ الدولة العربية ، تعريب أبو ريده ، ص ٣٤٣) الذي يعد دوزي [illegible] من مسألة النزاع بين العنصرين العربيين الكبيرين لم تكن قد ظهرت بعد .

(٤٠٦) عن رغبة الوليد في العهد لابنه بدلا من سليمان انظر حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي [illegible] ، ج ١ ص ٣٣٤ .

هؤلاء القواد تصرفوا في تلك الاقطار النائية — ولهم الحق — بشيء من الحرية ينم عن الطموح والرغبة في الاستزادة من السلطان • فبعض الروايات تشير الى أن فتح الأندلس تم ما بين الحاح موسى وتردد الوليد(٤٠٧) ، تماما كما يقال ان عمرو بن العاص دخل مصر دون موافقة عمر(٤٠٨) ، كما تفسر بعضها سخط موسى على طارق بن زياد بأن الأخير خرج على تعليمات قائده فتوغل في قلب الأندلس دون اذن سابق(٤٠٩) • ويتبين طموح موسى في فتوحه البعيدة في وادى الابرة وأعالى أراجون ، ذلك الطموح الذى كان يتعدى طاقة رجاله حتى احتج عليه حنش الصنعاني قائلا : « أتريد أن تخرج من الدنيا أو تلتمس أكثر وأعظم مما أعطاك الله »(٤١٠) • ولقد ظهر تحرر موسى بشكل أوضح في تصرفه في أموال المغانم • فبينما حرص على جمع أكبر قدر من المال حتى أنه حرم رجاله في بعض الأحيان من حقهم في الأخماس ، حسب شهادة صاحب المقاسم كما أشرنا(٤١١) ، استحوذ لنفسه على كثير من الأمـــوال والسبايا الجميلات حتى لفت بعض كبار أصحابه نظرة الى خطورة ذلك فسمح لنفسه بالتصرف فيها بشكل منح وهدايا(٤١٢) • وكان ذلك يعنى نوعا من الاستهانة بالخليفة ، صاحب الحق الأول والأخير في التصرف في الأموال •

وهكذا حق للخليفة ومستشاريه أن يخشوا بأس ذلك الرجـــل الذى سئل ، وهو في محنته ، عن عدد من كان يعتد فيهم هو وأهل بيته من الموالى والحشم ، وهل قاربوا الألف مثلا ؟ فقال : « نعم ! وألف وألف الى منقطـــع النفس »(٤١٣) ، والذى اتبع ذلك ، عندما سئل لماذا لم يمكث في عزه وجاهه بعيدا عن منال الخلافة ، بقوله : « والله لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافي شيئا ولكن آثرت الله — عز وجل — ورسوله ولم أر الخروج عن الطاعة(٤١٤) •

---

(٤٠٧) انظر أخبار مجموعة ، ص ٥ ، ٦ •

(٤٠٨) ابن عبد الحكم ، ص ٥٦ •

(٤٠٩) أنظر ابن قتيبة (ملحق ابن القوطية ، ص ١٢١) •

(٤١٠) ابن قتيبة ، ج ٢ ص ٦٥ وملحق ابن القوطية ، ص ١٣٧ ، وقارن رواية الرقيق ، ص ٨٠ — ٨١ (حيث النص على أن حنشا احتج على توغل موسى عندما وصل الى « أربونة » (نربونة) •

(٤١١) أنظر فيما سبق ، ص ٢٥٤ •

(٤١٢) أنظر فيما سبق ، هامش ٢٩٤ ص ٢٥٢ •

(٤١٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٦ ، ابن قتيبة (عن عدد موالى موسى) ج ٢ ص ٦٩ •

(٤١٤) نفس المصدر ، وعن اتهام موسى بالخلع انظر ابن قتيبة ، ملحق ابن القوطية ص ١٢٦ •

والحقيقة انه رغم أن موسى وقع في قبضة الخلافة وأصبح تحت رحمة خصومه ، الا أنه كان يمثل خطرا شديدا على سليمان • فلقد حضر موسى الى الشام تاركا بلاد المغرب والأندلس جميعا تحت سلطان أبنائه : فلقد كان عبد الله بن موسى في القيروان ، وعبد الملك بن موسى في طنجة ، وعبد العزيز بن موسى في اشبيلية • فكان على الخليفة أن يكون حذرا في معاملة موسى ، وفي العمل على استخلاص ولاياته الغربية من أيدى أبنائه •

ورغم ما يؤخذ على سليمان من نكرانه لجميل كبار قواد الدولة حتى عد ابن عذارى فعله مع موسى وبنيه من هفواته التي لم تزل تنقم عليه ، الا أن سليمان يعتبر من عظماء خلفاء بني أمية • عهد الذى قام بأكبر محاولة لاخذ القسطنطينية ، ثم يكفيه فخرا أنه عهد بالولاية بعده الى الخليفة الورع عمر ابن عبد العزيز • ولا شك أنه عندما فعل بموسى وغيره من رجال الدولة مافعل كان يهدف الى اصلاح الأوضاع . ويعمل على بسط سلطان الخلافة على كل أرجاء الدولة . وخضوع جميع العمال لسلطة الخليفة • وهو عندما استبدل بالعمال القدماء غيرهم تحرى حسن الاختيار •

الباب الثالث

الإدارة الأموية

أخطاؤها ورد الفعل بين المغاربة

حركات الخوارج

محاولات الإصلاح

١ ـ محمد بن يزيد القرشي وتصفية آل موسى بن نصير :

بدأ سليمان بالبحث عن رجل له فضل يوليه افريقية ، ووقع اختياره على محمد بن يزيد القرشي بالولاء(١) ، بعد أن أوصاه بتقوى الله وحده الذي لا شريك له والقيام فيما ولاه بالحق والعدل(٢) . ولقد تم اختيار محمد بن يزيد في سنة ٩٦ هـ/٧١٥ م(٣) ، ووصل الى مقر ولايته بافريقية في سنة ٩٧ هـ/أواخر سنة ٧١٥ م(٤) .

والظاهر أن محنة موسى بن نصير لم تبدأ الا بعد أن استقر محمد بن يزيد في القيروان اذ وصلته الأوامر من سليمن بأخذ عبد الله بن موسى بن نصير ، وآل موسى واستئصال أموالهم حتى يؤدوا ما فرضه عليهم من الغرم ، وهو ٣٠٠ (ثلثمائة) ألف دينار . وتفذ ابن يزيد أوامر الخليفة ، فأخذ عبد الله بن موسى ، وزج به في السجن وعذبه ثم انه قتله بعد ذلك على يدى خالد ابن أبي حبيب القرشي(٥) . وهكذا لم يعدم الخليفة وواليه على افريقية وجود

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٣ (يلقبه « بالقرشي ») ، الرقيق ، ص ٩٣ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٧ (يقول « مولى قريش » ـ النويرى ، المخطوط ، ص ٨٢ ب) ، وقارن أخبار مجموعة ص ٢٢ ـ حيث القراءة عبيد الله بن زيد مرة وعبد الله بن يزيد مرة أخرى ، وربما كان المقصود هو كنيته « أبو عبد الله » كما هي العادة بالنسبة لمن اسمه محمد . أما عن ولائه لقريش فالنص يقول « لا أدرى لمن من قريش ! » . أما خليفة بن خياط (ج ١ ص ٣٢٤) فيقول انه «مولى/بحابه بنت أبي العاصى ؟ » ثم يعود (ج ١ ص ٣٢٣) ليلقبه بالأنصارى .

(٢) الرقيق ، ص ٩٣ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٧ ، النويرى ، المخطوط ، ص ٨٢ ب .

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٣ ، ويورد ابن عبد الحكم رواية أخرى عن الليث بن سعد يقول ان ولاية محمد بن يزيد كانت في سنة ٩٧ هـ ـ وهو ما ينص عليه خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٣٢٤ ، عند ذكر عزل عبد الله بن موسى وولاية محمد بن يزيد . ولقد رأينا أن الروايتين يمكن أن تكونا صحيحتين بمعنى أنه عين في سنة ٩٦ هـ ، ووصل الى افريقية في سنة ٩٧ هـ . وقارن النويرى (ص ٨٢ ب) الذى يجعل ولايته سنة ٩٩ هـ ، كما ينقل ذلك عن الرقيق (ص ٩٣) ، وهذا خطأ من الناسخ على ما نظن .

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٧ .

(٥) الرقيق ، ص ٩٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٧ ، وقارن ابن عبد الحكم الذى يجعل =

خصوم لآل نصير — بعد المكانة العالية التى بلغوها في المغرب — يساعدونه على كسر شوكتهم ٠

ونجح سليمان أيضا في التخلص من عبد العزيز بن موسى بالأندلس ٠ والظاهر أن عبد العزيز اظهر نوعا من الاستقلال — وحق له أن يفعل بعد ما نزل بأبيه وأخيه — ولكن الخليفة ألب عليه قواد العرب ، كما نظم ضده دعاية واسعة لم تكتف بالتنديد بخروجه على الطاعة(٦) بل ونجحت فى ايهام الناس بأنه تنصر تحت تأثير زوجته القوطية(٧) ٠ وتمت مؤامرة ضـــد عبد العزيز اشترك فيها بعض أقاربه الى جانب خصومه ، وتم اغتياله في أواخر سنة ٩٧ هـ/٧١٦ (أو ٩٨ هـ/٧١٧ م) على أيدى زياد بن النابغة التميمى ، وأحد حفدة عقبة بن نافع وهو حبيب بن أبى عبيدة(٨) ٠ وأرسلت رأسه الى الخليفة الذى بالغ فى تعذيب موسى بن نصير فعرضها عليه(٩) ٠ وعهد محمد بن يزيد بولاية الأندلس الى الحر بن عبد الرحمن الثقفى(١٠) ٠

أما عن أعمال ابن يزيد الأخرى فلا نجد الا ما يشير اليه ابن عذارى من

= (ص ٢١٥) مقتل عبد الله بن موسى فى سنة ١٠٢ هـ أيام خلافة يزيد بن عبد الملك وولاية بشر بن صفوان ، وذلك لاتهامه فى مقتل يزيد بن أبى مسلم كما سنرى ، وبسبب ذلك التاريخ المتأخر بالنسبة لنكبة موسى ، وبسبب الطابع الاسطورى للقصة ، رأينا انه ربما اختلط الأمر على ابن عبد الحكم ، فوضع نهاية عبد الله بن موسى موضع نهاية ابن آخر لموسى بن نصير ، ونظن انه عبد الملك اذ الحقيقة ان الخلط بين الاسمين ممكن لتشابه رسمها (انظر فيما بعد ص ٢٦٩ وهـ ٤٨ ، ص ٢٧٠) ٠ ولذلك فضلنا الأخذ برواية ابن عذارى بصفتها أكثر واقعية ٠

(٦) الرقيق ، ص ٩٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٧ ، النويرى (رواية الواقدى) ، المخطوط ، ص ٨٣ أ ٠

(٧) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ ، الرقيق ، ص ٩٤ — ٩٥ ، النويرى ، المخطوط ، ص ٨٢ أ ٠

(٨) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ ، ٢٢ ، الرقيق ، ص ٩٥ (حيث يقول ان الذين اشتركوا فى قتله ثلاثة ، هم : حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ، وزياد بن عابدة البلوى ، وزياد بن نابغة ، ويجعل قتله فى آخر سنة ٩٨ هـ) ، النويرى ، المخطوط ، ص ٨٣ ب ٠

(٩) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٢ ، الرقيق ، ص ٩٦ ، وقارن ابن عذارى (ج ١ ص ٤٧) الذى يقول ان رأس عبد العزيز ارسلت مع رأس عبد الله حتى وضعتا بين يدى موسى وهو فى عذابه ٠ أما أخبار مجموعة (ص ٢٢) ففيها « انه لما بلغ سليمان مقتل عبد العزيز بن موسى شق ذلك عليه » ٠

(١٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٧ ، انظر أخبار مجموعة ، ص ٢٢ (يسميه خطأ الحر بن عبد الله) ، وقارن الرقيق ، ص ٩٦ (حيث يسمى والى الأندلس : الحسن بن عبد الرحمن القيسى) ٠

أنه كان « يبعث السرية الى ثغور افريقية فما أصاب قسمه عليهم »(١١) . ونظن أن في ذلك اشارة الى أنه التزم بتطبيق قانون المغانم ، على عكس ما كان يفعله موسى بن نصير كما تقدم(١٢) . واستمرت ولاية محمد بن يزيد الى وفاة سليمان بن عبد الملك (في صـــفر سنة ٩٩ هـ/سبتمبر - أكتوبر ٧١٧ م) وخلافة عمر بن عبد العزيز(١٣) التى تعتبر نقطة تحول هامة في تاريخ الدولة الأموية عامة .

ب - خلافة عمر بن عبد العزيز مرحلة حاسمة في تاريخ المغرب :
علاج الأزمة المالية :

والحقيقة أن خلافة عمر بن عبد العزيز القصيرة الأمد كانت - زمنيا - نقلة من القرن الأول الى القرن الثانى الهجرى ، كانت - سياسيا - نقلة أيضا في مسير الأحداث في المغرب ، كمـا في بقية أرجاء الـــدولة(١٤) . فمحاولات عمر بن عبد العزيز للاصلاح معروفة ، وهى تتلخص في رغبته في العودة بالاسلام الى سيرته الأولى ، ولهذا السبب اعتبره بعض المؤرخين خامس الخلفاء الراشدين(١٥) . وهذا البرنامج كما يتأتى بالقضاء على أسباب الانقسام والفرقة . ولكى يحقق عمر وحدة الجماعة فاوض الخوارج ، وحاول ارضاء الشيعة ، كما عمل على ايجاد تسوية لما حدث من التضارب أو التناقض بين السياسة المالية والسياسة الدينية ، وهو الأمر الذى زاد تفاقمه مع مرور الوقت .

---

(١١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٧ .

(١٢) انظر فيما سبق ، ص ٢٥٢ وهامش ٣٩٤ ، ص ٢٥٣ .

(١٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٣ ، وقارن ابن عذارى ، (ج ١ ص ٤٧) الذى يجعل مدة ولاية محمد بن يزيد سنتين وأشهرا على أساس ان ولايته تنتهى بوفاة سليمان . والحقيقة ان الوالى الجديد لم يعين الا في سنة ١٠٠ هـ .

(١٤) نشير هنا الى أنه يفهم ان قدامى الكتاب يربطون بين نهاية القرن الأول وبداية القرن الثانى وبين تطور الأحداث الحاسم بالنسبة للدولة الأموية بأسباب خفية ترجع الى اعتقاد أهل تلك العصور في علاقة ما بين الزمن والوجود ، ولهذا السبب اعتبر عمر بن عبد العزيز مجدد الاسلام في مطلع القرن الثانى الهجرى (أنظر السبكى ، طبقات الشـــافعية الكبرى . ط ١٣٢٤ هـ ، ج ١ ص ١٠٥ - ١٠٦) . والحقيقة ان مثل هذا الاعتقاد كان وما زال قائما حتى أيامنا هذه عندما ينتظر الناس أحداثا جليلة ليس في بداية كل قرن فقط بل وفي منتصفه أيضا .

(١٥) انظر ابن الأثير ، أحداث سنة ١٠١ هـ ، ج ٥ ص ٢٤ ، البخارى ، كتاب التاريخ الكبير ، ط . حيدر آباد الدكن ، ١٣٦١ هـ ، ج ٣ قسم ٢ (حيث مقارنة خلافة عمر بن عبد العزيز بخلافة أبى بكر) .

ولا شك في ان الدولة الاموية لم تكن مسئوله عن ذلك التناقض ، فلقد كان تكدس الأموال ، في بيت المال وبين أيدى كبار الصحابة ، من الأسباب التي أدت الى أزمة الخلافة أيام عثمان[١٦] . ثم أتى الأمويون واتسعت الدولة العربية الى أقصى حدودها ، فكان ذلك يعنى قلة أموال المغانم بعد توقف الفتح ، وتبع ذلك دخول أهل الأمصار المفتوحة في الاسلام واعفاؤهم من دفع الجزية ، فكان ذلك يعني قلة أموال الجزية الواردة الى بيت المال . حدث ذلك في الوقت الذى أخذت الدولة تتحضر وترقى ، وتتخذ الجيوش النظامية ، وتنظم الادارة والدواوين ، وتستخدم الموظفين بمعنى أنها في حاجة الى المزيد من الأموال أكثر من ذى قبل . وبناء على ذلك سعت الدولة الى جمع المال من كل الوجوه ، واستخدمت في ذلك عديدا من الوسائل : فحاسبت العمال محاسبة دقيقة ، وتشدد هؤلاء بدورهم مع رعاياهم ، وتكفى الاشارة الى أعمال الحجاج وتعسفه في سياسته المالية ، وهذا أمر متفق عليه[١٧] .

وانتهى الحال الى التفرقة بين المسلمين ومعاملتهم ، فتميز العرب بوضع خاص في المجتمع الجديد ، وحرم غير العرب من المسلمين من كثير من حقوقهم ، اذ أجبر كثير منهم على الاستمرار في دفع الجزية ، أو الخدمة في الجيش دون أخذ العطاء . وأكثر من هذا طلبت الدولة من الداخلين في الاسلام من أهل الأمصار اثبات صحة اسلامهم ثبوتا قاطعا – وهذا أمر صعب – أو اشترطت شروطا لم يكن من السهل تحقيقها أو تبيانها في بعض الأحيان مثل الختان والالتزام باقامة الشعائر . ومع أن الدولة كانت تستند في تصرفاتها تلك الى أصول شرعية أو أحكام اتخذت مع الوقت صفة الشرعية ، الا أنه ترتب على ذلك أنها خرجت – من حيث لا تشعر – على المبادىء الاسلامية الأولى ، مبادىء المساواة والاخاء .

عرف عمر بن عبد العزيز ذلك ، وكانت فكرته عن الاسلام أوسع أفقا من أفكار سابقيه . فجعل همه نشر الاسلام أولا وقبل كل شىء ، وفى ذلك ينسب اليه الكتاب أنه قال : « ان الله بعث محمدا هاديا ، ولم يبعثه جابيا » ، أو

---

(١٦) هذا ما لاحظه المسعودي بحق (مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٤١ – ٣٤٣) عندما أشار الى تكدس الأموال والثروات لدى الصحابة (مثل الزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد ابن أبي وقاص وزيد بن ثابت ويعلى بن منية) ولدى عثمان نفسه .

(١٧) عن أعمال الحجاج واجراءاته المالية الشديدة في العراق ، التي بلغت الى حد تحريم الهجرة من الريف الى المدن ، انظر فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ، تعريب أبو ريدة ص ٢٧٠ .

أنه كتب الى واليه على خراسان عندما استشاره فى امتحان الداخلين فى الاسلام بالختان : « ان الله بعث محمدا – صلى الله عليه وسلم – داعيا ولم يبعثه خاتنا »(١٨) . ولكى يحقق عمر بن عبد العزيز سياسته . كان عليه أن يغير عمال الدولة السابقين ، ويعين بدلا منهم عمالا يسيرون سيرته(١٩) .

ولاية اسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر (١٠٠ – ١٠٢ هـ/٧١٨ – ٧٢٠ م)

وفيما يتعلق بالمغرب قام عمر بعزل محمد بن يزيد القرشى ، واستعمل بدلا منه اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بنى مخزوم ، وذلك فى شهر المحرم من سنة ١٠٠ هـ/أغسطس ٧١٨ م(٢٠) . وولاية حفيد أبى المهاجر هذه تبين أن الفاتحين الأوائل كونوا أسرا قوية فى المغرب وكذلك فى مصر ، وسنرى فيما بعد كيف سيكون لبنى عقبة بن نافع ، وبنى معاوية ابن حديج ، وبنى موسى بن نصير دورهم فى مسير الأحداث فى مصر والمغرب . أما ما يهمنا الآن فهو أن اسماعيل بن عبد الله جمع فى ولايته الحرب والخراج والصدقات كما ينص ابن عبد الحكم(٢١) ، وكانت العـادة أن يفصل بين أمور السياسة والادارة ، وشئون المال ، فيكون لكل عاملها الخاص . والتفرقة هنا بين الأموال وتقسيمها الى خراج وصدقات تعنى اهتمام عمر بن عبدالعزيز بالمسألة المالية ، كما قلنا .

والحقيقة أن اختيار اسماعيل بن عبد الله تم لما عرفه عمر فيه من التقوى التى تبعث على الشجاعة فى تقرير الصدق وقول الحق عند مواجهة أولى الأمر ، وخاصة عندما يتعلق الأمر بصحة الجباية وجمع المال من وجوهه الحقة . فقد جرت العادة ، عند ورود جبايات الأمصار الى دمشق ، على أن يأتى مع جباية كل بلد وفد من أهله يتكون من عشرة رجال من الأعيـان وكبار القادة . وكان على هؤلاء أن يقسموا بأن كل دينار ، وكل درهم من تلك الجباية « أخذ بحقه ، وأنه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية

---

(١٨) نفس المصدر ص ٢٨٤ (عن الطبرى) .

(١٩) أنظر نفس المصدر (عن ولاة عمر بن عبد العزيز فى سائر الأمصار) ص ٢٦١ – ٢٦٣ .

(٢٠) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٣ ، خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٣٣٠ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٨ ، أخبار مجموعة ، ص ٢٢ ، وقارن الرقيق . ص ٩٧ (حيث يحدد ولايته بسنة مائة وسنة احدى ومائة فى خلافة عمر بن عبد العزيز) .

(٢١) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٣ .

بعد أخذ كل ذى حق حقه »(٢٢) . وعلى أيام سليمان بن عبد الملك أتى وفد افريقية بالخراج ، وحلف ثمانية من العشرة بصحة جمع المال ، ورفض اسماعيل بن عبد الله ، وتبعه في ذلك السمح بن مالك الخولانى . وأعجب عمر بن عبد العزيز ، الذى كان حاضرا ، بالرجلين « فضمهما الى نفسه فاختبر منهما صلاحا وفضلا » ، فلما صارت اليه الخلافة ولى اسماعيل افريقية وعهد الى السمح بولاية الأندلس(٢٣) .

وأحسن اسماعيل بن عبد الله السيرة فى المغرب « فكان خير أمير ، وخير وال »(٢٤) . وكان على اسماعيل أن يطبق سياسة عمر المالية التى تهدف الى وضع الأمور فى نصابها ، من تمييز أرض الصلح عن أرض العنوة ، وأن « يقر القرى فى يدى غنامها بعد أن يأخذ الخمس »(٢٥) . وترتب على اصلاحات عمر بن عبد العزيز فى المغرب أن خفت الأعباء المالية على المسلمين من أهل البلاد ، فاصبحوا يحتفظون بأرضهم ولا يدفعون عنها الا الخراج الى جانب الزكاة التى عرفت بالصدقة . ثم انه الغى ما كان متبعا منذ أيام عقبة الذى صالح لواتة على أن يبيعوا فى خراجهم من أحبوا من أبنائهم ، وذلك تطبيقا لمبدأ المساواة بين المسلمين ، فلم يعد مستساغا أن تبيع لواتة — بعد أن أسلمت — بناتها فى جزيتها . وصدرت أوامر عمر بن عبد العزيز : « ان من كانت عنده لواتية فليخطبها الى أبيها ، أو فليردها الى أهلها »(٢٦) . واهتم اسماعيل بن عبد الله بدعاء البربر الى الاسلام ،

---

(٢٢) أخبار مجموعة ، ص ٢٢ — ٢٣ .

(٢٣) أخبار مجموعة ، ص ٢٣ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٨ (يجعل ولاية السمح من قبل اسماعيل بن عبد الله فى رمضان سنة ١٠٠ هـ) .

(٢٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٨ ، النويرى ، المخطوط ، ص ٨٣ ب ، وأصل الرواية للرقيق (ص ٩٧) . وقارن خليفة بن خياط ج ١ ص ٣٣٠ (حيث النص على انه كان حسن السيرة) .

(٢٥) أخبار مجموعة ، ص ٢٣ (هذا النص خاص بأوامر عمر بن عبد العزيز الى والى الأندلس السمح بن مالك ، وكنا أخذنا به بالنسبة للمغرب لما بين البلدين من الصلات الوثيقة ، ولأن ابن عذارى (هامش ٣ ص ٢٣٥) يرى ان ولاية السمح كانت من لدن اسماعيل ابن عبد الله . أما ما يقوله النص عن اقرار القرى فى أيدى غنامها ، وأخذ الخمس منها فالظاهر ان المقصود به هو الجزء الأخير من النص أى أخذ نصيب الدولة من الأراضى التى وضع العرب أيديهم عليها ولم تبق بين أيدى أصحابها الأصليين) .

(٢٦) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٣٦ .

واستجاب البربر جميعا لدعائه : « فلم يبق في ولايته يومئذ من البربر أحد الا أسلم »[٢٧] .

ويرجع الفضل فيما تحقق في هذا الميدان الى الخليفة نفسه ، اذ ينسب اليه الكتاب أنه بعث الى المغرب عشرة من فقهاء التابعين من أهـــل العلم والفضل ، منهم أبو الجهم عبد الرحمن بن نافع[٢٨] ، وأبو مسعود سعد ابن مسعود التجيبي[٢٩] ، وأبو عبد الرحمن الحبلي[٣٠] ، واسماعيل بن عبيد الأنصاري المعروف بتاجرالله [٣١] ، وموهب بن حي المعافري [٣٢] وحيان بن أبي جبلة القرشي[٣٣] ، وأبو ثمامة بكر بن سوادة الجذامي[٣٤] ، وأبو سعيد جعثل بن عاهان بن عمير[٣٥] ، واسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر[٣٦] .

---

(٢٧) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٣ ، خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٣٣٠ ، ابن عذارى ج ١ ص ٤٨ ، وقارن النويري ، المخطوط ، ص ٨٣ ب ، وانظر الرقيق ، ص ٩٧ (حيث النص : وما زال حريصا على دعاء البربر الى الاسلام ، فأسلم بقية البربر على يديه) .

(٢٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٨ ، وانظر المالكي (ج ١ ص ٧٢) حيث غير المحقق ابن نافع الى ابن رافع حسب طبقات أبي العرب التي يلقبه بالتنوخي أيضا . ولقد ولي عبد الرحمن قضاء القيروان لموسى بن نصير سنة ٨٠ هـ/٦٩٩ م وتوفي بالقيروان سنة ١١٣ هـ/٧٣١ م .

(٢٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٨ ، المالكي ، ج ١ ص ٦٦ — ٦٧ (لا يذكر المالكي تاريخ وفاته ولكنه يفهم من ترجمته أنه حضر ثورة الخوارج سنة ١٢٢ هـ أيام حنظلة بن صفوان كما سنرى) .

(٣٠) المالكي ، ج ١ ص ٦٤ ، وانظر أيضا ص ٦٦ حيث يسميه عبد الله بن أبي يزيد الافريقي (انتفع به أهل افريقية وبث فيهم علما كثيرا . توفي بالقيروان سنة ١٠٠ هـ/٧١٨ — ٧١٩ م ، ودفن بباب تونس) وانظر الدباغ ، ج ١ ص ١٣٨ (أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافري الافريقي الحبلي) .

(٣١) المالكي ، ص ٦٩ — ٧٢ (عرف بتاجر الله لأنه جعل ثلث كسبه لله تعالى يصرفه في وجوه الخير » ص ٧٠) . وينسب اليه بناء جامع الزيتونة . توفي سنة ١٠٧ هـ/٧٢٥ — ٧٢٦ م) ، الدباغ ، ج ١ ص ١٤٦ .

(٣٢) المالكي ، ص ٧٣ ، الدباغ ، ج ١ ص ١٦١ (ابن يحيى) .

(٣٣) المالكي ، ص ٧٣ (حيان قرشي بالولاء فهو مولى بني عبد الدار . سكن القيروان وانتفع به أهلها . توفي سنة ١٢٥ هـ/٧٤٣ م) وانظر الدباغ ، ج ١ ص ١٥٨ (حبان) .

(٣٤) المالكي ، ج١ ص٧٤ (كان فقيها مفتيا . سكن القيروان وبها توفي سنة ١٢٨ هـ/ ٧٤٥ — ٧٤٦ م) وانظر الدباغ ، ج ١ ص ١٦٠ .

(٣٥) المالكي ، ج ١ ص ٧٥ (أهم ما يعرف عنه أنه كان أحد الفقهاء ، وأنه ولي قضاء الجند بافريقية على أيام هشام بن عبد الملك وانه توفي في أول خلافة هشام) ، وانظر الدباغ ، ج ١ ص ١٥٣ (جعيل) .

(٣٦) هو نفس والي افريقية والمغرب على أيام عمر بن عبد العزيز . واسمه الكامل كما يرد في المالكي (ص ٧٥) هو أبو عبد الحميد اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر القرشي =

وطلق بن جابان الفارسي(٣٧) . بفضل جهود هؤلاء التابعين ، وغيرهم ممن لا يعدون في كتب تراجم الصالحين ضمن العشرة ، تعلم المغاربة أصـــول الاسلام فقرأوا القرآن . وعرفوا اللغة العربية - فحتى ذلك الوقت لم يكن أهل افريقية — كما يقال — يعرفون الحلال والحرام ، وكانت الخمر بافريقية حلالا حتى وصل التابعون فبينوا تحريمها(٣٨) .

والحقيقة أن وجود هؤلاء الأعلام بالمغرب لا يرجع الى خـــلافة عمر بن عبد العزيز ، فلقد رأينا بعضهم في افريقية من قبل ، كما أن بعضهم استمر في عمله الورع بعد عمر بفترة طويلة ، وهذا يعني أن تعليم الناس مبادىء الشرع وأصول الاسلام كان يسير جنبا الى جنب مع تقدم العرب السياسي . ولكن الكتاب أرادوا أن ينسبوا الكثير من أعمال الورع والتقوى الى أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز التي لم تبلغ سنتين ونصف السنة . فأيام عمر الثاني — في نظرهم — هي أيام سيادة الفضيلة وعمل الخير .

٢ — اضطرابات المغرب بعد عمر بن عبد العزيز :

أ — يزيد بن أبي مسلم ، وتطبيق سياسة الحجاج العنيفة :

ويكاد يجمع الكتاب على أنه بانتهاء خلافة عمر بن عبد العزيز (توفي في رجب أو شعبان سنة ١٠١ هـ/ديسمبر ٧١٩ أو يناير ٧٢٠ م) انتهى عصر الاصلاح . وعادت الدولة الى سيرتها الأولى من الاستبداد بأهل الأمصار . وكانت المسألة المالية هي الصخرة التي تحطمت عليها فكرة المساواة والاخاء بين العرب وغيرهم من المسلمين . ولقد اتخـــذت الأحداث في بلاد المغرب شكلا خطيرا ، بعد ذلك النجاح الباهر الذي لم يتمثل في دخول الناس في الاسلام فقط بل وفي الجيش العربي الافريقي أيضا .

وبدأت الأزمة في المغرب عندما عزل الخليفة يزيد بن عبد الملك والي عمر الورع اسماعيل بن عبد الله ، واستعمل مكانه يزيد بن أبي مسلم ،

= المخزومي . وهو قرشي ومخزومي بالولاء كما نعرف . اذ كان جده أبو المهاجر مولى لمسلمة بن مخلد . وكانت وفاة إسماعيل بالقيروان في سنة ١٣٢ هـ ٧٤٩ — ٧٥٠ م) ، الدباغ ، ج ١ ص ١٥٤ .

(٣٧) المالكي ، ص ٧٦ ، الدباغ ، ج ١ ص ١٦٢ (ابن حبان) .
(٣٨) ابن عذارى ج٢ ص ٤٩ .

أحد تلامذة الحجاج ومعاونيه والذي شغل لديه وظيفة الكاتب ثم صاحب الشرطة(٣٩) ·

وعندما استقر يزيد في المغرب سنة ١٠٢ هـ/٧٢٠ م طبق سياسة الحجاج العنيفة على المستويين الخارجي والداخلي · فهو من جهة أخذ يلح بالحرب على الروم في البحر ، فسير في نفس السنة حملة بقيادة محمد بن أوس الأنصاري نزلت صقلية وعادت سالمة بالمغانم(٤٠) · ومن جهة أخرى أخذ يتتبع أموال الولاة السابقين ، وبدأ بموالي موسى بن نصير من البربر فجعلهم أخماسا ، وأحصى أموالهم وأولادهم ثم جعلهم حرسه وبطانته كما يقول ابن عبد الحكم(٤١) ، والظاهر أنه بعث للخليفة نصيبه في أموالهم وأولادهم حسب قانون الأخماس · واتبع ابن مسلم ذلك بالقبض على الوالي الأسبق محمد بن يزيد القرشي ، وأساء اليه اساءات بالغة من تعذيب وجلد وتعطيش ، وحبس في سجن ضيق أشبه ما يكون بما يسمى الآن بالحبس الانفرادي · ومع أن المفروض أنه فعل ذلك محاسبة لمحمد بن يزيد وبحثا عما لديه من أموال ، فانه ليس بمستغرب أن يكون للمسائل الشخصية دورها في ذلك ، فابن عبد الحكم يقول : « وكان محمد بن يزيد قد ولي عذاب يزيد ابن أبي مسلم بالمشرق في زمن الحجاج ·· »(٤٢) ·

---

(٣٩) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٣ ، الرقيق ، ص ٩٨ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٨ ، النويري ، المخطوط ، ص ٨٣ ب (مولى الحجاج) · وانظر السلاوي ، الاستقصا ، طبعة الدار البيضاء ، ج ١ ص ٩١ الذي يقول انه كان من رجال الوليد ، وان الوليد قال فيه : « ما مثل ومثل الحجاج وابن أبي مسلم بعده الا كرجل ضاع منه درهم فوجد دينارا » ·

(٤٠) تاريخ خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٣٣٣ (سنة ١٠٢ هـ) ، وانظر فيما بعد ، ص ٢٦٩ وص ٤٩ ·

(٤١) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٤ (والنص يصح غمعنه انه وشم ايديهم ، وهذا ما سنتكلم عنه بعد قليل) ، النويري ، مخطوط ، ص ٨٣ ب ·

(٤٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٤ · وقارن ابن خياط (ج ١ ص ٣٣٣) حيث الاشارة الى ان الضغينة بين الرجلين ترجع حتى الى عهد عمر بن عبد العزيز · وتقول الرواية ان محمد بن يزيد ترك ابن أبي مسلم في السجن بينما أخرج كل من كان في حبس سليمان بن عبد الملك · وهكذا نفر ابن أبي مسلم ثم ابن يزيد ، وعندما قبض عليه في افريقية ، قال له : « الحمد لله الذي امكنني منك بلا عهد ولا عقد » . ورد ابن يزيد : « وانا طال ما سألت الله أن يمكنني منك » · وكان رد ابن أبي مسلم : « فوالله ما أعاذك الله مني ، والله لو أن ملك الموت سابقني اليك لسبقته » · فكان خلاص ابن يزيد لم يتحقق بعد هذا الوعيد الا بمقتل ابن أبي يزيد كما يأتي ·

وأراد يزيد بن أبي مسلم أن يطبق تنظيماته الشديدة على حرسه من البربر - وهنا نشير الى أن هذا الحرس لم يكن خاصا بيزيد بل كان حرس الولاة من قبله كما ينص على ذلك ابن عبد الحكم(٤٣) . وهذا النص يبين في الحقيقة أن الدولة أصبحت لها نظمها المستقرة الثابتة ، فلم يعد الوالي يأتي الى ولايته ومعه قواته من أهله وعشيرته ، فاذا ما عزل عاد بهم وترك للوالي الجديد ما يشبه الفراغ ، بمعنى أن الوالي لم يعد الا موظفا مؤقتا على رأس ادارة دائمة لا تتأثر بعزله أو بغيابه . وكان حرس الولاة هذا يتكون من البربر . البتر خاصة ليس فيهم من البرانس أحد »(٤٤) ، وربما كان ذلك نتيجة لدخول بربر الكاهنة وهم جراوة في الجيش العربي بأعداد وفيرة، كما رأينا .

رد الفعل واغتيال ابن أبي مسلم :

أراد يزيد أن يخضع حرسه هذا الى تنظيمات دقيقة تجعل له كيانه وشخصيته وهيبته ، وذلك باتباع التقليد البيزنطي الذي كان يميز قوات الحرس بكتابة اسم الرجل بالوشم في راحة يده اليمنى وصفته ك « حرسي » في راحة يده اليسرى ، حتى يعرفهم الناس فيسرعون الى تنفيذ أوامر الوالي(٤٥) . ورفض البتر الخضوع لهذا التنظيم واعتبروه نوعا من التفرقة لا تتفق مع مبادىء الاسلام ، وقالوا « جعلنا بمنزلة النصارى »(٤٦) . وقرروا التخلص من ابن أبي مسلم الظلوم الغشوم . وكان أنسب مكان لاغتيال الوالي - كما أصبحت العادة - هو المسجد أو المصلى حيث يتواجد الوالي في أوقات الصلوات . فعندما خرج يزيد من داره الى المسجد لصلاة المغرب هاجمه رجال حرسه ، ... بيد أحدهم واسمه حريز(٤٧) . والحقيقة اننا

---

(٤٣) نفس المصدر .

(٤٤) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٤ ، الرقيق ، ص ٩٠ [illegible] النص : « فمكث أشهرا وحرسه بربر خاصة ، ليس فيهم أحد من البرانس ») .

(٤٥) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٤ ، [illegible] الرقيق ، ص ٩٩ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٨ .

(٤٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٨ ، وانظر الرقيق ، ص ٩٩ (مصدر الرواية) .

(٤٧) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٥ ، [illegible] يزيد [illegible] احداهما تقول انه قتل في داره [illegible] بعد أن تناول طعام العشاء واحتز رأسه وأتى به الى المسجد ، والثانية تقول انه قتل في المسجد وهي [illegible] ابن عذارى ج ١ ص ٤٨) .

لا ندري ان كان ثمة يد أخرى لها علاقة بمقتل ابن أبي مسلم · فمحمد بن يزيد الوالي السابق اعتق غلمانه الذين أتوه - وهو في الحبس - بخبر مقتل يزيد (٤٨) · هذا كما أن توقيت اغتيال يزيد يمكن أن يفهم منه أن الأمر كان مبيتا بحيث يأمن القتلة العقاب السريع على الأقل ، فقد قتل في الوقت الذي كانت قواته ، بقيادة قائد الأسطول محمد بن أوس الأنصاري ، تقوم بالغارة على صقلية(٤٩) ·

قائد الأسطول واليا مؤقتا :

وتشاور الناس فيمن يولونه الأمـــر الى أن تأتي أوامر الخليفة ، وتم الاتفاق على اختيار رجل من أعيان القرشيين بافريقية ، هو المغيرة بن أبي بردة القرشي حليف بني عبد الدار(٥٠) ، ولكن ابنه نصحه بألا يفعل خشية اتهامه في مقتل يزيد ، فاستجاب الرجل للنصيحة ، وآثر السلامة(٥١) · وأخيرا تم الاتفاق على أن يعهد بالأمر الى قائد الأســـطول ، محمد بن أوس الأنصاري - وهذا حل أكثر اتزانا - الذي لم يلبث أن عاد من غزواته ، فارسلوا اليه في تونس ، وعهدوا اليه بالأمر(٥٢) · وكتب ابن أوس الى الخليفة بن يزيد يخبره بما حدث ، وبعث كتابه مع رسول من أهل تونس اسمه خالد ابن أبي عمران · وتقبل الخليفة الأمر الواقع ، فعفا عن الجناة ، ولم ينتقم منهم(٥٣) ، ولو أنه لم يرض عن أن يقوم بأمر الولاية غير رجل

---

(٤٨) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٤ (رواية ابن عبد الحكم تشير الى اتهام عبد الله بن موسى بن نصير الذي قلنا انه قتل في سنة ٩٧ هـ (أنظر فيما سبق ، ص ٢٥٩) وانه ربما كان المقصود ابن آخر لموسى بن نصير (أنظر الصفحة التالية) ·

(٤٩) ابن عذاري ، ج ١ ص ٤٩ ، الرقيق ، ص ١٠٠ ، وقارن ابن عبد الحكم (ص ٢١٤) الذي يذكر فقط ان ابن اوس كا نصاحب البحر بتونس ·

(٥٠) أنظر ترجمته في المالكي (رقم ٤٤ ، ص ٨٠ - ٨١) حيث يذكر انه رجل من أهل الفضل ، معدود من التابعين ، وأن له جهاده مع موسى بن نصير ، وقارن الدباغ ، ج ١ ص ١٥٠ ، وأنظر الرقيق ، ص ١٠٠ ·

(٥١) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٤ ، الرقيق ، ص ١٠٠ ، ابن عذاري ، ص ٢١٥ ، المالكي ، ص ٨١ ·

(٥٢) ابن عبد الحكم ص ٢١٥ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٤٩ ، وقارن الرقيق ، ص ١٠٠ ·

(٥٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٥ ، وانظر الرقيق ، ص ١٠٠ (حيث اسم الرجل التونسي : خالد بن أبي عبيدة المجيبي) ، وقارن ابن الاثير ، سنة ١٠٢ (يقول انهم ولوا الوالي السابق محمد بن يزيد) ·

عريق النسب(٥٤) ، فجعل أمر افريقية الى واليه على مصر ، وهو بشر بن صفوان الكلبي في نفس السنه (١٠٢ هـ/٧٢١ م) ـ حسب رواية ابن عبد الحكم(٥٥) .

ب ـ بشر بن صفوان :

سياسة داخلية هدفها استئصال بقايا الخصوم ، وجمع الأموال :

استخلف بشر أخاه حنظلة بن صفوان على مصر ، وخرج الى افريقية . والظاهر أنه تتبع المتهمين في مقتل يزيد بن أبي مسلم ، ومن هؤلاء واحد من أبناء موسى بن نصير ، يقول ابن عبد الحكم إنه عبد الله بن موسى(٥٦) . ولما كان عبد الله قد قتل في سنة ٩٧ هـ/٧١٦ م قبيل مقتل أخيه عبد العزيز، وذلك حسب رواية ابن عذاري المنقولة من الرقيق التي أخذنا بها(٥٧) ، فنرى أنه ابن آخر لموسى ، وربما كان عبد الملك الذي لم نعرف عنه شيئا منذ تركه والده على طنجة . وابن عبد الحكم يقول ان الذي شهد على أن ابن موسى بن نصير دس لقتل يزيد هو خالد بن أبي حبيب القرشي(٥٨) ، ومعه محمد بن أبي بكير ، فانهما اللذان حرضا بشر بن صفوان على تنفيذ أمر الخليفة بقتل ابن موسى قبل أن يأتي حكم العفو عنه . فلقد تدخل الربيع صاحب خاتم الخليفة يزيد ، وزوج أخت ابن موسى ، واستصدر عفوا عن المحكوم عليه . ولكن الرسول الذي حمل العفو والذي وعد بمكافأة جزيلة تبلغ ٣ (ثلاثة) آلاف دينار وصل بعد تنفيذ الحكم بساعات(٥٩) . أما ابن عذاري فلا يذكر الا أن بشر بن صفوان استصفى بقايا آل موسى بن نصير(٦٠) . وزعم أن

---

(٥٤) ابن عبد الحكم (ص ٢١٥) يروي أن يزيد بن عبد الملك احتفل بخالد بن عمران ، بعد أن سأله عن محمد بن أوس ، فقال له « فما كان بها قرشي ؟ » . وقارن الرقيق (الذي ينقل ابن عبد الحكم) ، ص ١٠١ .

(٥٥) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٥ ، وانظر الرقيق ، ص ١٠٢ (حيث النص على انه قدم وعمه سنة ١٠٣ هـ/٧٢١ ـ ٧٢٢ م ، وهو ما نقله النويري (المخطوط ، ص ٨٤ أ) بعد عرفه ابن عذاري (ج ١ ص ٤٩) فجعل ولاية مصر في تلك السنة (١٠٣ هـ) .

(٥٦) ابن عبد الحكم ص ٢١٥ .

(٥٧) انظر ص ٢٥٩ وهـ ٥ .

(٥٨) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٥ وكذلك ص ٢١٨ حيث يسميه الفهري .

(٥٩) ابن عبد الحكم ص ٢١٥ .

(٦٠) ابن عذاري ، ج ١ ص ٤٩ .

بشرا كان صاحب الأمر في الأندلس أيضا فانه لم يكن يمارس سلطاته هناك فعلا ، فلقد عزل السمح بن مالك ، وإلى عمر بن عبد العزيز ، ولكنه كان مضطرا الى الاستجابة لأهل الأندلس في تبديل الولاة وتغييرهم(٦١) ٠

وفي بداية سنة ١٠٥ هـ/٧٢٣ م خرج بشر بن صفوان نحو المشرق يحمل الهدايا الى الخليفة يزيد بن عبد الملك ، ولكي يعرفه بأحوال البلاد . يكن المنية وافت يزيد بن عبد الملك (شعبان سنة ١٠٥ هـ/يناير ٧٢٤ م) . ووصل بشر الى الشام فقدم هداياه للخليفة الجديد هشام بن عبد الملك(٦٢)٠ ولا نعرف ان كانت تلك الهدايا قد أتت بما كان يرجوه منها بشر ، وذلك أن هشام بن عبد الملك أعاده من جديد الى المغرب في سنة ١٠٦ هـ/٧٢٤ - ٧٢٥ م ٠ وينص ابن عبد الحكم(٦٣) على أن بشرا عندما قدم الى افريقية تتبع أموال موسى بن نصير وعذب عماله(٦٤) ٠ ومع أننا لا نعرف ان كان الأمر قد أبهم على ابن عبد الحكم فذكر ما فعله بشر على أيام يزيد بن عبد الملك متأخرا على أيام هشام(٦٥) ، فالمعروف أن المسألة المالية التي حاول عمر ابن عبد العزيز ايجاد حل لها تفاقمت على أيام هشام الذي سعى حثيثا في البحث عن الأموال ، مما لا يستبعد معه أن يكون بشر قد تتبع أموال موسى ابن نصير بناء على أوامر هشام ٠

سياسة خارجية هدفها تأكيد سلطان العرب في البحر :

حملات سنوية على جزر : سردانية وكورسيكا وصقلية :

يظهر أن وصول قائد الاسطول محمد بن أوس الأنصاري الى منصب

---

(٦١) أخبار مجموعة ، ص ٢٥ ٠

(٦٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٥ ٠

(٦٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٦ ٠

(٦٤) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٥ ٠

(٦٥) ينبغي الاشارة هنا الى ان ابن عذارى (ج ١ ص ٤٩) يذكر أن بشرا استصفى بقية آل موسى بن نصير على أيام يزيد (أنظر الصفحة السابقة) ٠ ومما يدعو الى الظن ان ابن عبد الحكم يخلط بين أعمال بشر على أيام يزيد وأعماله على أيام هشام أنه يجعل ص ٢١٥ . وانظر ابن عذارى ج ١ ص ٤٩ - حيث رواية الرقيق ، ص ١٠٢ ، التي تكتب عنبسه في شكل عبد الله ، عهد بشر بولاية الأندلس لعنبسة بن سحيم أيام هشام ٠ والحقيقة أنه كانت في سنة ١٠٣ هـ/٧٢١ م على أيام يزيد (انظر قائمة ولاة الأندلس في أخبار مجموعة ، ملحق الترجمة الإسبانية ص ٢٥١ . وانظر بروفنسال : تاريخ اسبانيا الاسلامية بالفرنسية) ، ص ٣٨) ٠

ولاية افريقية والمغرب باختيار أهل الحل والعقد عقب اغتيال يزيد بن أبي مسلم في سنة ١٠٢ هـ/٧٢٠ م ، كان علامة مميزة في تاريخ البحرية العربية الناشئة في تونس ، فكأنها كانت قد وصلت الى مرحلة الفتوة والقوة مع مطلع القرن الثاني الهجري ، اثر استيلاء المسلمين على سواحل البحر الغربية في اسبانيا •

هذا ما يظهر بجلاء في حوليات خليفة بن خياط حيث تتوالى الحملات البحرية سنويا في شكل رتيب على جزر سردانيا وكورسيكا (قورسقة) - مما يعني أن أسطول المغرب العربي أخذ يلح بالحرب الدورية على قواعد الروم القريبة في البحر بهدف ارهاب العدو ، وبالتالي حماية سواحل المغرب ، مما يمكن أن يمثل تمهيدا للقفز على تلك القواعد والاستقرار فيها بعد طرد الروم منها •

غزو سردانية وكورسيكا :

ففي سنوات ١٠٣ هـ/٧٢١ م ، و ١٠٤ هـ/٧٢٢ م ، و ١٠٦ هـ/٧٢٤ م ، و ١٠٨ هـ/٧٢٦ م ، و ١٠٩ هـ/٧٢٧ م — أي طوال ولاية بشر بن صفوان — توالت زيارات الأسطول لجزيرة سردانية ، وكان قائد الحملة الأولى يزيد بن مسروق اليحصبي ، بينما كانت قيادة الثانية الى عمرو بن فاتك الكلبي ، وكانت القيادة في الحملتين الأخيرتين لحسان بن محمد بن أبي بكر مولى بني جمح(٦٦) • واذا كانت حوليات ابن خياط تجعل كورسيكا من أهداف حملة سنة ١٠٦ هـ/٧٢٤ م ، فانها لا تنص على وجهة الحملتين البحريتين اللتين سيرهما بشر في سنتي ١٠٤ هـ/٧٢٢ م و ١٠٨ هـ/٧٢٦ بقيادة عمرو بن فاتك الكلبي وقثم بن عوانة الكلبي اللذين عادا سالمين بالمغانم(٦٧) • ولا بأس أن يكون الأسطول قد زار فيهما نفس سردانية وكورسيكا ان لم يكن قد عرج في طريقه على صقلية التي خرج اليها بشر بن صفوان نفسه في سنة ١٠٧ هـ على ما نظن . وهو ما لا نجده في سنويات ابن خياط(٦٨) •

---

(٦٦) أنظر تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٣٦ ، ص ٣٤٩ ، ص ٣٥٢ ، وانظر في فتوح صقلية ، ج ٢ ص •

(٦٧) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٣٨ ، ص ٣٥١ •

(٦٨) أنظر في فتوح صقلية ، فيما بعد ، ج ٢ ص والهوامش •

غزو صقلية :

والحقيقة أن من أهم أعمال بشر بن صفوان في ولايته تلك قيامه بغزو صقلية • والظاهر أنه قام بغزوته هذه في سنة ١٠٧ هـ/٧٢٥ م ، بعد أن بلغته أنباء استشهاد واليه وابن عصبيته في الأندلس (فرنسا) عنبسة بن سحيم الكلبي ، فسار بنفسه في البحر بعدأن استخلف على القيروان النعباس ابن باضعه الكلبي(٦٩) • ورغم ما يقوله ابن عبد الحكم من أن الحملة انتهت بنهاية تعسه ، نتيجة لظروف جوية صعبة حتى « هلك نذلك من جيشه خلق كثير(٧٠) ، فان بشرا عاد من صقلية الى القيروان وبصحبته سبى كثير(٧١) • وتوفي بشر بن صفوان بالقيروان في شوال سنة ١٠٩ هـ/ديسمبر سنة ٧٢٧ – يناير ٧٢٨ م متأثرا من مرض يقال له الدبيلة ، بعد ولاية طالت الى سبع سنوات(٧٢) • وكان بشر عندما مرض مرضه الذى مات فيه استخلف على القيروان نفاش بن قرط الكلبي(٧٣) •

ج – عبيدة بن عبد الرحمن السلمي : سياسة العصبية والعنف :

وعندما بلغ نبأ وفاة بشر الى دمشق في أوائل سنة ١١٠ هـ/٧٢٨ م عهد هشام بن عبد الملك بولاية افريقية والمغرب الى عبيدة بن عبد الرحمن السلمي(٧٤) ، وهو ابن أخي أبي الأعور صاحب خيل معاوية بصفين(٧٥) •

---

(٦٩) ابن عذاري ، ج ١ ص ٤١ ، وقارن الرقيق ، ص ١٠٢ (حيث القراءة ابن ناصحة بدلا من ابن باضعة – ولكن بمناسبة غزو صقلية) •

(٧٠) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٥ – ٢١٦ •

(٧١) الرقيق ، ص ١٠٢ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٥٠ •

(٧٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٥ (الدبيلة خراج ودمل كبير يظهر في الجوف فيقتل صاحبه (طبعة عامر عاشى ١ ص ٢٩١) ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٩ ، النويرى ، المخطوط ، ص ٨٤ أ وقارن الرقيق ، ص ١٠٢ •

(٧٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٦ ، خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٥٢ ، ٣٧٥ • وقارن ابن عذارى (ج ١ ص ٤٩) الذى ينقل الرقيق (ص ١٠٢) اذ يجعل خليفة بشر نفس العباس ابن باضعة الكلبي الذى استخلفه بشر على القيروان عندما خرج في سنة ١٠٧ هـ/٧٢٥ م لغزو صقلية) •

(٧٤) الرقيق ، ص ١٠٤ (حيث تفصيلات قصصية عن خروج عبيدة من الشام) ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٠ ، وقارن ابن عبد الحكم ، ص ٢١٦ (الذى يلقبه بالقيسى بدلا من السلمى) خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٧٥ •

(٧٥) ابن عذارى ، ج١ ص ٥٠ ، النويرى ، المخطوط ، ص ٨٤ أ ، وقارن الرقيق ، ص ١٠٤ (حيث يجعل عبيدة أخا للأعور السلمي ، وهو الأمر المشكوك فيه) •

ووصل عبيدة الى القيروان في ربيع الأول من سنة ١١٠ هـ/مايو - يونية ٧٢٨ م ، وكان حضوره بغتة مفاجأة مذهلة لنائب بشر بن صفوان الذي كان يتهيأ لشهود صلاة الجمعة ، فقال : « لا حول ولا قوة الا بالله ، هكذا تقوم الساعة بغتة ، وألقى بنفسه فما حملته رجلاه »(٧٦) . ولم تختلف سياسة الوالي الجديد عن تلك التي كان ينتهجها سلفه بشر اذ قامت على دعامتي تثبيت أركان الدولة بالقهر داخليا ، ومواصلة الالحاح على الروم بالحرب البحرية خارجيا .

سياسة داخلية مبنية على العصبية والعنف :

فكما جرت العادة بدأ عبيدة يتتبع عمال الوالي القديم ومعاونيه ، في سبيل البحث عما اكتنزوه غدرا من الأموال « فاخذ عبيدة عمال بشر وأصحابه فحبسهم وأغرمهم ، وعذب بعضهم »(٧٧) .

والظاهر أن عبيدة استخدم العنف والشدة في حكم البلاد ، وخاصة مع كبار الموظفين ، لم يفرق في ذلك بين عماله وعمال الولاة السابقين ، من مدنيين وعسكريين . فهو لم يتردد في انزال العقاب الصارم بقائد الأسطول ، وهو المستنير بن الحبحاب الحرشي ، الذي أخطأ تقدير الوقت المناسب لعودته من حملة قام بها على صقلية في سنة ١١١ هـ/٧٢٩ م ، حتى هجم عليه الشتاء وثارت الأنواء بمراكبه فحطمتها . فلقد أمر عبيدة بشد وثاقه ، وجلده ، وحبسه والتشهير به في كل جمعة ، كما يأتي في الغزو البحري(٧٨) .

واستشرى عنف عبيدة وشدته ، وكان من بين من نالهم سوء معاملته

---

(٧٦) ابن عذاري ، ج١ ص ٥٥ ، وقارن الرقيق ، ص ١٠٥ .

(٧٧) مما يؤيد فكرة سعي الولاة حثيثة في البحث عن الأموال من كل وجه ما يرويه ابن عبد الحكم (ص ٢١٦) عن عبيدة بن عبد الرحمن هذا : عندما استعمل عبيدة على الأندلس عبد الرحمن الغافقي ، وغزا هذا الأخير بلاد افرنجة ، وأصاب هناك بعض الغنائم من الذهب والجوهر ، فكسره وأخرج الخمس ، وقسم سائر ذلك في المسلمين الذين كانوا معه ، فغضب عبيدة غضبا شديدا وكتب الى الغافقي يتوعده ، فكتب اليه الغافقي : ان السماوات والأرض لو كانتا رتقا لجعل الرحمن للمتقين منها مخرجا ، ثم خرج اليهم غازيا فاستشهد وعامة أصحابه (في بلاط الشهداء سنة ١١٤ هـ/٧٣٢ م) . وقارن ابن الأثير ، أحداث سنة ١١٣ والرقيق ، ص ١٠٥ .

(٧٨) انظر فيما بعد ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

أحد زعماء اليمنية من عمال بشر بن صفوان السابقين ، وهو أبو الخطار حسام ابن ضرار الكلبي ، الذي ولي ولايات كبيرة في افريقية أيام بشر ، والذي كان - الى جانب شرفه في قومه - فصيحا شاعرا - فلما عزله عبيدة ، ونكل به ، ندد بموقف الخلافة الأموية من عصبيته الكلبية فقال أبياتا منها :

أفأتم بني مروان قيسنا دماءنا ... وفي الله ان لم تنصفوا حكم عدل

كأنكم لم تشهدوا مرج راهط ... ولم تعلموا من كان ثم له الفضل

تعاميتم عنا بعين جلية ... وأنتم كذا ما رعيتم لنا فعل(٧٩) .

وتقول رواية ابن عذاري انه عندما وصلت هذه الأبيات الى الخليفة هشام أمر بعزل عبيدة(٨٠) ، ولكننا نميل الى الأخذ برواية ابن عبد الحكم التي تقول ان عبيدة خرج بالهدايا من افريقية ، بعد أن استخلف عليها عقبة بن عبد الله ابن قدامة التجيبي ، لزيارة الخليفة هشام ، وأنه استعفاه فأعفاه(٨١) ، وذلك انه لن يكون لقصيدة أبي الخطار هذه صدى - ان كانت قد أحدثت صدى - الا فيما بعد سنة ١٢٣ هـ/٧٤٠ - ٧٤١ م(٨٢) .

الحرب البحرية الدورية في سواحل صقلية وسردانية :

ويفهم من استمرار الغارات البحرية على جزر صقلية وسردانية طوال السنوات الخمس التي وليها عبيدة بن عبد الرحمن السلمي ، أن الالحاح بالحرب

---

(٧٩) ابن عذاري ، ج ١ ص ٥٠ وكذلك هامش ١ ، حيث توجد هذه الأبيات مع تغيير بعض ألفاظها ، وقارن ابن القوطية ص ١٨ - ١٩ حيث يورد سبعة أبيات من القصيدة : مختلفة بعض الاختلاف ، وكذلك الأمر في النويري ، المخطوط ، ص ٨٤ أ ، وابن الأثير ، سنة ١٢٥ ، وانظر الرقيق ، ص ١٠٥ - ١٠٦ (حيث يورد أربعة أبيات ، وانظر هـ ١ في نفس ص ١٠٦) .

(٨٠) ابن عذاري ، ج ١ ص ٥١ ، وقارن الرقيق ، ص ١٠٦ .

(٨١) ابن عبد الحكم ، ٢١٧ (أما طبعة عامر ص ٢٩٣ ففيها عقبة بن قطامة) ، وانظر النويري ، المخطوط ، ص ٨٤ أ (الذي يضيف انه ترك على القضاء عبد الله بن المغيرة بن بردة العبسي) ، وقارن ابن خياط ، ج ١ ص ٣٧٥ .

(٨٢) يقول ابن القوطية (ص ١٩) انه عندما بعث الخليفة هشام بن عبد الملك تلك الأبيات التي قالها أبو الخطار أمر واليه على المغرب حنظلة بن صفوان الكلبي (بعد سنة ١٢٣ هـ) بأن يولي أبا الخطار الأندلس ، فعل ، نشر بروفنسال ، تاريخ أسبانيا الاسلامية ، بالفرنسية ، ص ٣٤ ، وعن أعمال أبي الخطار وحتفه في افريقية ، انظر فيما بعد ص ٣٠١ .

الدائبة على بلاد الروم فيما وراء البحر كان قد أصبح سياسة مستقرة لا يجوز الاخلال بها . والفضل في تسجيل تلك الصوائف البحرية يعود الى حوليات خليفة بن خياط ــ وان كان بشكل مقتضب .

ففي سنة ١١٠ هـ/٧٢٨ م ، وبمجرد قدوم عبيدة الى افريقية سير عثمان ابن أبي عبيدة (الفهري) في المراكب على رأس ٧٠٠ (سبعمائة) مقاتل لغزو سرقوسة عاصمة صقلية . ورغم تنبه الروم وخروجهم للقاء العرب ، فقد انتهت الحملة بنجاح مرموق يؤكده وقوع قائد العسكر الرومي (بطريقهم) أسيرا بين أيدي رجال عثمان(٨٣) .

ورغم أن حملة السنة التالية (١١١ هـ/٧٢٩ م) على صقلية بقيـــادة المستنير هي التي استرعت انتباه ابن عبد الحكم ، بسبب ما لحق بها من الفشل، وما نزل بقائدها من العقاب . فأسهب بعض الشيء في ذكرها فان رواية ابن خياط المقتضبة تتميز بدقة معلوماتها ، اذ تنفرد بتحديد التاريخ وتسجيل عدد مراكب الأسطول الافريقي ، وعدد ما سلم من الأنواء منها .

والمهم أن عبيدة سير المستنير بن الحبحاب القرشي لغزو صقلية(٨٤) في ١٨ (ثمانين ومائة) مركب ، فنزل على سرقوسة وضرب عليها الحصار(٨٥) . ولا نعرف ان كان المستنير قد أخطأ في تقدير زمن الغارة أم أن المغانم استهوته الى أن هجم عليه الشتاء . ففي طريق العودة تغيرت الأحوال الجوية واشتدت أمواج البحر وعواصفه مما أدى الى غرق معظم المراكب فلم ينج منها الا ١٧ (سبعة عشر) مركبا(٨٦) ، وجرف البحر مركب القيادة وفيها المستنير الى طرابلس . وعندما بلغ نبأ الفاجعة الى عبيدة أرسل الى واليه على طرابلس ، وهو يزيد بن مسلم الكندي « يأمره أن يشد وثاقه ، ويبعث معه ثقله »(٨٧) .

---

(٨٣) أنظر ابن خياط ، ج ٢ ص ٣٥٣ ــ ٣٥٤ حيث نجد سرقوسة في شكل « سرافس » .

(٨٤) أنظر ابن عبد الحكم ، ص ١١٦ . وقارن ابن خياط ، ج ٢ ص ٣٥٥ (حيث الاسم المستنير « بن الحارث » وهو ما نجده أيضا في ابن الأثير (أحداث سنة ١١٣) ، كما يوجد في هامش ١٠من ابن عبد الحكم حسب بعض المخطوطات الأخرى .

(٨٥) انظر ابن خياط ، ج ٢ ص ٣٣٥ ــ حيث النص « فنزل وحاصرهم » دون تحديد مكان الحصار . ولما كانت سرقوسة هي الهدف في حملة السنة السابقة حيث « لقوه وأسر بطريقهم » فقد نرجح ان المقصود بكلمة « وحاصرهم » هم روم سرقوسة العاصمة .

(٨٦) ابن خياط ، ج ٢ ص ٣٥٥ .

(٨٧) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٦ .

وعندما وصل القائد البحرى السيء الحظ لدى عبيدة « جلده جلدا موجعا ، وطاف به القيروان على أتان ثم جعل يضربه في كل جمعة حتى أبلغ اليه »(٨٨) . وظل المستنير محبوسا عند عبيدة(٨٩) .

واستمر الالحاح بالغزو البحرى على صقلية ، كما نجده في سنوات : ١١٢ هـ/٧٣٠ م ، و ١١٤ هـ/٧٣٢ م ، و ١١٥ هـ/٧٣٣ م ، وذلك بقيادة كل من : ثابت بن خيثم (الأردني) ، « وعبـــد الله » بن قطن ، وبكر بن سويد(٩٠) .

أما سردانية فلقد خصصت لها حملة منفردة في صوائف سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢ م ، كانت قيادتها الى عبد الله بن زياد الأنصارى(٩١) .

وتنص حوليات ابن خياط على أن كل تلك الحملات كانت موفقة اذ غنمت وسبت وعادت سالمة ، باستثناء حملة بكر بن سويد (سنة ١١٥ هـ/٧٣٣ م) الذى « لقيه الروم فرموا مراكبه بالنار » ، وان كنا لا نعرف الى أى حد أثرت النار اليونانية في الأسطول العربي . واذا كانت النصوص لا تعرفنا بتفصيلات ما كانت تجلبه تلك الحملات من المغانم والسبى ، فان ما عاد به عبيدة من الكنوز والذخائر والهدايا المختلفة الى المشرق يمكن أن يفسر علة أخرى من علل ذلك الالحاح السنوى على جزر الروم بتلك الحرب البحرية الدورية .

عودة عبيدة الى دمشق مستعفيا :

والظاهر أن عبيدة غادر المغرب في أواخر سنة ١١٤ هـ/٧٣٢ م(٩٢) ، ووصل الى دمشق في أوائل سنة ١١٥ هـ/٣٣٣ م(٩٣) . وينص ابن عبد الحكم

---

(٨٨) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٦ .

(٨٩) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٦ .

(٩٠) تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٥٧ ، ص ٣٦٠ (ولا بأس أن يكون « عبد الله » ابن قطن هو في الحقيقة تحريف لاسم « عبد الملك » بن قطن الذى ولى الاندلس مرتين ، ثانيتهما بعد اضطراب المغرب على أيدى الخوارج سنة ١٢٢ هـ - أنظر فيما بعد ص ٢٨٩ وهـ ١٣٦) ، ص ٣٦١ .

(٩١) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٦٠ .

(٩٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥١ (شوال سنة ١١٤ هـ - نوفمبر ٧٣٢ م وبذلك استمرت ولايته ٤ سنوات - النويرى ، ص ٨٤ أ) ، وقارن الرقيق (صاحب الرواية) ص ١٠٦ .

(٩٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٧ . ويورد ابن عبد الحكم رواية أخرى تحدد مسير عبيدة الى الشام في رمضان سنة ١١٧ هـ - أكتوبر ٧٣٥ م . وهذا غير صحيح فان ولاية ابن الحبحاب بدأت سنة ١١٦ هـ - ٧٣٤ م .

على عظم الهدايا والذخائر التى خرج بها عبيدة ، والتى اشتملت على العبيد والاماء والجوار المتخيرة (٧٠٠ جارية) والخصيان ، والخيل والدواب ، والذهب والفضة والآنية(٩٤) مما يذكر بأيام الفتح الأولى ، قبل دخول البلاد فى حوزة الاسلام ، عندما كان المغرب أرض المغانم الثمينة والسبى الجميل . والظاهر ان عبيدة هو الذى طلب فعلا اعفاءه من منصبه — كما يقول ابن عبد الحكم — وان الأمر تطلب بعض الوقت . وذلك أن الخليفة هشام بن عبد الملك لم يعف عقبة التجيبى ، نائب عبيدة ، ويعهد بولاية افريقية الى ابن الحبحاب الا فى ربيع الاول سنة ١١٦ هـ/ ابريل ٧٣٤ م(٩٥) .

د — عبيد الله بن الحبحاب — سياسة قوية مبنية على العصبية :

ووالى المغرب الجديد هو عبيد الله بن الحبحاب بن الحرث القيسى بالولاء اذ كان مولى لبنى سلول(٩٦) . ويصفه ابن عذارى نقلا عن الرقيق بأنه « كان رئيسا نبيلا وأميرا جليلا ، بارعا فى الفصاحة ، حافظا لأيام العرب وأشعارها ووقائعها »(٩٧) . بدأ ابن الحبحاب حياته العامة كاتبا ثم تناهى به الأمر الى أن وصل الى وظيفة عامل خراج مصر فى سنة ١٠٩ هـ(٩٨) ، ثم الى ولاية المغرب .

---

(٩٤) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٧ . وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٥١ .

(٩٥) انظر الرقيق ، ص ١٠٧ ، النويرى ، المخطوط ، ص ٨٤ ب ، ابن عبد الحكم ، ص ٢١٧ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٥١ . أما البكرى (ص ٣٧) فيجعل ابن الحبحاب فى تونس سنة ١١٤ هـ .

(٩٦) ابن خياط ، ج ٢ ص ٣٦١ ، أخبار مجموعة ، ص ٢٥ ، ابن القوطية ، ص ١٤ ، ابن عذارى ج ١ ص ٥١ ، النويرى ، المخطوط ، ص ٨٤ ب .

(٩٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥١ . وقارن الرقيق ، ص ١٠٧ ، النويرى ، المخطوط ، ص ٨٤ ب .

(٩٨) يلاحظ أن ابن الحكم (ص ٢١٧) يقول انه عمل هشام على مصر دون أن يحدد نوع عمله . أما ابن عذارى (ج ١ ص ٥١) فيجعله والى مصر وافريقية والأندلس والمغرب كله . والمعروف أن ولاية مصر من سنة ١٠٩ هـ — ٧٢٧ م الى سنة ١١٧ هـ ٧٣٥ م كانت الى الوليد بن رفاعة بن خالد بن ثابت الفهمى ، ولكنها كانت ولاية الصلاة فقط كما يذكر الكندى (ص ٧٥) . وفى نفس الوقت لم يذكر الكندى ولاية ابن الحبحاب ولكنه يقول انه كان يتصل بالخليفة هشام ويستأذنه فى نزول القيسية بأرض مصر . ويظهر الخليفة فيقول : « ولا يكسر ذلك خراجه » (الكندى ، ص ٧٦) . وهذا يعنى أنه كان والى الخراج الى جانب الوليد بن رفاعة والى الصلاة . وهذا لا يمنع من أن يكون ابن الحبحاب قد حمل فى بعض الأحيان لقب الأمير ، كما يقول ذلك جروهمان . انظر : Grohmann, Aperçu de papyrologie arabe. p. 54-55

وخرج عبيد الله بن الحبحاب من مصر بعد أن استخلف على خراجها ابنه القاسم(٩٩) ، وقدم الى افريقية في شهر ربيع الثاني من سنة ١١٦ هـ/ مايو ٧٣٥ م(١٠٠) ، وتسلم ولايته من عقبة بن عبد الله بن قدامة نائب عبيدة .

والمفهوم من النصوص أن عبيد الله بن الحبحاب - مثله مثل كبار القادة - انتهج سياسة قوية استهدفت تحقيق ثلاثة أهداف : أولها تقوية سلطان العرب بشكل أكيد في المغرب القريب ، والعمل على اخضاع الأقاليم أو القبائل في المغرب البعيد بشكل نهائي . وثاني هذه الأهداف : الاستمرار في سياسة الغزو البحري المنظم ، ولكن بشكل أكثر ترتيبا وبامكانيات أعظم . وهذا ما يمكن أن يساهم في تنمية موارد الولاية المالية . والثالث : الاجتهاد في جمع الأموال اللازمة لاتمام هذا العمل . ولسد مطالب بيت المال ، وارضاء حاجات الخلافة .

النشاط البحري : بين الالحاح على صقلية وسردينيا ، والعناية بتونس :

ومما يؤسف له أن الكتاب يجملون أعمال ابن الحبحاب دون أن يضعوا لها تواريخ معينة . وذلك باستثناء حوليات خليفة بن خياط فيما يتعلق بالحملات البحرية الدورية على صقلية وسردينية وغيرهما من الجزر الخاضعة للبيزنطيين . وهكذا يسجل ابن خياط صوائف ابن الحبحاب من افريقية بشكل رتيب اعتبارا من ١١٦ هـ/٧٣٥ م ، على مدى أربع سنوات متوالية ، حتى سنة ١١٩ هـ/٧٣٨ م . ثم انه ينص بعد ذلك في سنة ١٢٠ هـ/٧٣٩ م على أنه لم يكن هناك غزو من افريقية ، مما يعني أن التوقف عن الغزو البحري في سنة من السنين يعتبر أمرا استثنائيا غير مقبول - الأمر الذي يتطلب التعليل والتفسير . ولا بأس أن تكون أحوال البلاد الداخلية هي التي أملت الاخلال بتلك السنة الأكيدة .

والمهم أن ابن الحبحاب اجتهد بما عرف عنه من جد ونشاط في العناية بالبحرية الافريقية . وفي هذا المجال بدأ - كما هي العادة - بتغيير ما لم

---

(٩٩) ابن عبد الحكم ص ٢١٧ ، الرقيق ص ١٠٧ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٥١ .

(١٠٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥١ . أما ابن عبد الحكم (ص ٢١٧) فيقول ان أمر هشام صدر اليه بالمسير الى افريقية في ذلك التاريخ . وقارن ابن الأثير الذي يجعلها في سنة ١١٧ .

يستحسنه من أعمال سلفه ، فأخرج المستنير بن الحبحاب ، قائد حملة صقلية التعسة ، من حبس الوالي السابق ، وعهد اليه بولاية مدينة تونس (١٠١) وتظن أن هذا يعني قيادة الأسطول أيضا ، أو الاشراف عليه • ولقد كان من الطبيعي فعلا أن يوجه عبيـــد الله بن الحبحاب عنـــايته الى مدينـــة تونس بصفتها قاعدة الأسطول الذي كان عليه أن يمد نشاطه باستمرار الى ما وراء البحار • فينسب الكتاب اليه أنه بني دار الصناعة بتونس(١٠٢) ، والحقيقة ان حسان ابن النعمان هو الذي بناها ، وأن موسى بن نصير اعتنى بها ، فكأنهم يريدون بذلك أنه جددها — هو الآخر — وزاد فيها • هذا كما اعتنى ابن الحبحاب بعمران مدينة تونس نفسها ، فينسب اليه بناء مسجدها الجامع الذي عرف فيما بعد بمسجد الزيتونة(١٠٣) •

وفيما يتعلق بالغزو البحري ، فبمجرد قدوم ابن الحبحاب الى افريقية سنة ١١٦ هـ/٧٣٥ م ، سير أولى صوائفه البحرية الى صقلية ، بقيادة عثمان ابن أبي عبيـــدة (الفهري) • ونجحت الحملة في النزول في بعض نواحي الجزيرة — التي لا يحددها ابن خياط — وعاد الرجال الى سفنهم بما اعتادوا اصابته من المغانم والأسلاب • وفي طريق العودة اعترضت بعض وحـــدات الأسطول البيزنطي مراكب عثمان • ورغم ما تقوله الرواية من أن القتال انتهى بهزيمة أسطول الروم الا أنها تنص على أن البيزنطيين أصابوا من المسلمين وأسروا منهم عددا من الأعيان ، منهم : ابنا قائد الحملة عثمان بن أبي عبيدة ، وهما : عمر وأبو الربيع سليمان ، وكذلك عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (قاضي افريقية بعد ذلك في عهد المنصور) وأخوه المغيرة بن زياد(١٠٤) • أما عن حملة سنة ١١٧ هـ/٧٣٦ م التالية فكانت بقيادة أخي عثمان ، وهو حبيب ابن أبي عبيدة (الفهري) وكانت وجهتها جزيرة سردانية • ونجح حبيب في مفاجأة بعض قرى الجزيرة وأنزل باهلها هزيمة منكرة وعاد منهم بكثير من

---

(١٠١) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٧ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ١١٣ ، ج ٥ ص ٦٤ •

(١٠٢) أنظر البكري ، ص ٣٧ . ابن عذاري ، ج ١ ص ٥١ ، النويري ، المخطوط ، ص ٨٤ ب •

(١٠٣) أنظر الاستبصار ، ص ١٢٠ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٥١ ، النويري ، المخطوط ، ص ٨٤ ب ، السلاوي ، الاستقصا ، ط • الدار البيضاء ج ١ ص ٩٤ •

(١٠٤) أنظر تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٦٢ — حيث الاشارة الى انهم لم يزالوا في أيدي الروم حتى ولاية عبدالرحمن بن حبيب (سنة ١٢٧ هـ) الذي فدى ابني عمه وناسا من أسارى المسلمين ، وكذلك عبد الرحمن بن زياد (في سنة ١٢١ هـ ؟) ، وأنظر فيما سبق ، ص ٢٣ — ٢٤ •

السبى(١٠٥) ٠

وفي سنة ١١٨ هـ/٧٣٧ م سير ابن الحبحاب حملته البحرية نحو صقلية ، وذلك بقيادة قثم بن عوانة الكلبي الذى نزل على مدينة «أوليه » ٠ والظاهر أن تلك الحملة لم تحقق أغراضها ، ان لم تكن قد باءت بالفشل ، وذلك أن الرواية تقول ان الروم أحاطوا بقثم ثم انهم خلوا عنه(١٠٦) ٠

ولقد صاحب سوء الحظ قثم بن عوانة عندما صدرت اليه أوامر ابن الحبحاب في السنة التالية ، سنة ١١٩ هـ/٧٣٨ م ، بغزو سردانية ٠ فلقد هاجم قثم بعض قلاع الجزيرة ، ولكنه قدر له الغرق في رحلة العودة في ظروف غير معروفة ، اذ تقول الرواية : انه غرق « في مراكب من المسلمين ، وسلم بعضهم »(١٠٧) ٠ ولا ندري ان كان الأسطول البيزنطى قد اعترض مراكب المسلمين أم أن ظروفا جوية سيئة هي التي تسببت في غرقها ٠

ولا بأس أن تكون تلك الكارثة التي ألمت بالأسطول هي التى منعت من الغزوة التالية في سنة ١٢٠ هـ/٧٣٩ م ، كما ينص على ذلك ابن خياط(١٠٨) ، ان لم يكن ذلك نتيجة لظروف داخلية أخرى ، مثل بدء اضطرابات الخوارج في المغرب الأقصى التي بلغت الذروة أثناء حملة سنة ١٢٢ هـ/٧٤١ م على صقلية ٠

سياسة داخلية صارمة : تقسم المغرب الى ولايتين ، والعمل بحزم على اقرار الأمور فيه :

والذى يفهم من النصوص أن ابن الحبحاب قسم ما دون افريقية من المغرب الى ولايتين : أولاهما السوس الأدنى ، وهو ما يعادل طنجة وما والاها من المغرب الأقصى ، وجعل هذا الاقليم في أول الأمر الى ابنه اسماعيل بن عبيد الله ، قبل أن يعهد به الى عمر بن عبد الله المرادى الذى ظل واليا الى سنة ١٢٢ هـ /

(١٠٥) انظر ابن خياط ، ج ٢ ص ٣٦٢ ، وانظر ابن الأثير (أحداث سنة ١١٣ ، أحداث سنة ١١٧) ، وقارن ابن عبد الحكم ، ص ٢١٧ ٠

(١٠٦) ابن خياط ، ج ٢ ص ٣٦٣ ٠

(١٠٧) خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٦٤ ٠

(١٠٨) تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٦٥ ٠

٧٤٠ م(١٠٩) . وثانيتهما السوس الاقصى حيث بعث حبيب بن أبى عبيدة الفهرى (حفيد عقبة بن نافع) غازيا(١١٠) .

أما الأندلس فانه عهد بها في سنة ١١٦ هـ/٧٣٥ م الى وليه عقبة بن الحجاج السلولى . تكريما له واعترافا بما كان له عليه وعلى آله من أفضال(١١١) .

والظاهر أن ابن الحبحاب كما كان يلح عـــلى الروم بالحرب البحرية الدورية ، فانه كان يتبع سياسة داخلية صارمة في اخضاع الاقاليم التى لم تكن قد خضعت تماما لسلطان القيروان ، وخاصة في بلاد المغرب البعيد ، وفيما وراءها من الصحراوات الغربية فى طريق بلاد السودان .

وهكذا أمر ابن الحبحاب قائده حبيب بن أبى عبيـــدة الفهرى بالغزو فتوغل فى السوس الأقصى نحو الجنوب حتى بلغ أرض السودان كما تقـــول النصوص(١١٢) ، والمقصود بذلك الصحراوات الجنوبيـــة ، من بلاد مسوفة ولمتونة الصنهاجية(١١٣) ، المؤدية الى مدينة أودغست (أولى بلاد السودان) .

---

(١٠٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥١ ، وانظر ابن الاثير (سنة ١١٧ هـ) الذى يقول ان المرادى كان الى جانب اسماعيل على طنجة ، وقارن ابن عبد الحكم (ص ٢١٧) الذى يسمى الولاية « السوس » فقط ، ولا يذكر ولاية عمر بن عبد الله المرادى بل يجعله والى طنجة ، بينما يجعل اسماعيل بن عبد الله والى السوس (ص ٢١٨) ، وذلك عند ثورة البربر سنة ١٢٢ هـ ، وقارن الرقيق ص ١٠٨ ، وتاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٧٦ .

(١١٠) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٧ . ابن خياط ، ج ٢ ص ٣٦١ . ابن عذارى ، ، ج ١ ص ٥١ ، وقارن الرقيق . ص ١٠٨ .

(١١١) أنظر فهرس ولاة الأندلس في أخبار مجموعة ، ملحق بالترجمة الأسبانية ، ص ٢٤١ ، والنص ص ٢٥ . ويلاحظ أن النص (ص ٢٨) يقول ان عقبة دخل الأندلس « سنة عشر ومائة » ونعتقد أنها خطأ من الناسخ الذى كتب « سنة » بدلا من « ستة » ، وانظر الرقيق ص ١٠٨ (وحيث نجد عزل عنبسة بن سحيم الكلبى ، واستعمال عقبة بن الحجاج ، دون تاريخ — والمعروف أن عنبسة استشهد فى فرنسا كما سبقت الاشارة . انظر فيما سبق ص ٢٧٣) .

(١١٢) ابن عبد الحكم . ص ٢١٨ . ابن عذارى . ج ١ ص ٥١ ، وانظـــر الرقيق ، ص ١٠٨ ، ابن خياط ، ج ٢ ص ٣٦١ (حيث القراءة عبد الرحمن بن حبيب بدلا من حبيب — وتحت السنة ١١٦ هـ .

(١١٣) ابن خلدون . العبر ، ج ٦ ص ١١٠ ، الترجمة ، ج ١ ص ٢١٦ ، وقارن الرقيق ، ص ١٠٨ ، حيث الاشارة الى صبى قبيلة « مسوفة » ، التى تركها المحقق فى شكل « مسرقة » ، وان كانت القصة لها شكل الاسطورة .

وانتهت الحملة بنجاح كبير ، فخضعت القبائل فى تلك الأقاليم ، وعاد حبيب بعدد وفير من السبى ، وأحمال عظيمة من التبر(١١٤) • والظاهر أن حبيب ابن أبى عبيدة اعتبر حملته غزوة فى « دار حرب » ، فذلك ما يفهم مما تقوله النصوص من أن والى طنجة عمر بن عبد الله المرادى « أساء السيرة ، وتعدى الصدقات والعشر ، وأراد تخميس البربر ، وزعم أنهم فىء المسلمين » ، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله ، كما يقول ابن عذارى الذى ينقل عن الرقيق(١١٥) • وحقيقة أن بعض الولاة كانوا يخمسون البربر ولكن من لم يدخل فى الاسلام منهم فقط ، وليس من أسلم(١١٦) •

الاستبداد بالمغاربة وسوء الاستغلال :

ونعتقد أن الذى دفع عبيد الله بن الحبحاب وعماله الى تلك القسوة مع المغاربة هو الرغبة فى ارسال المزيد من الاموال والسبى الى الخلافة • فابن عذارى يقول : « وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ، ويبعثون فيها الى عامل افريقية فيبعثون لهم بالبربريات السبيات • فلما أفضى الأمر الى أن ابن الحبحاب مناهم بالكثير ، وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان ، فاضطر الى التعسف وسوء السيرة •• »(١١٧) • وهناك نص آخر يورده صاحب أخبار مجموعة ــ ولو أنه لا يعتقد فى صحته ــ يفهم منه أنه كانت للخلافة رغبة شديدة فى بعض طرائف المغرب ، وأن هذه الطرائف كانت تسبب للناس خسائر فادحة • ومن ذلك « أن الخليفة وولده كانوا يكتبون الى عمال طنجة فى جلود الخرفان العسلية ، فتذبح مائة شاة فربما لم يوجد منها جلد واحد ــ وهو قول أهل البغض للأئمة »(١١٨) وهكذا كان سوء الادارة ، والعمل أولا

---

(١١٤) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٧ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٥١ •

(١١٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥١ ــ ٥٢ ، وقارن الرقيق ، ص ١٠٩ (حيث اختلاف طفيف فى القراءة . مثل : « وتعدى الصدقات والقسم » بدلا من : ••• الصدقات والعشر) • النويرى ، المخطوط ، ص ٨٤ ب . وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١٠ ، الترجمة ج ١ ص ٢١٦ ، ابن الأثير ، سنة ١١٧ •

(١١٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٢ ، النويرى المخطوط ، ص ٨٤ ب ، وانظر الرقيق ، ص ١٠٩ (صاحب الرواية أصلا) •

(١١٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٢ ، وقارن ابن الأثير ، أحداث سنة ٢٦ •

(١١٨) أخبار مجموعة ، ص ٣١ ــ ٣٢ • ولا نعرف ماذا يقصد بجلود الخرفان العسلية ، ونظن أنه من نوع معين من الضأن لا يعرف الا باختباره بعد ذبح الشاة • وربما كان المقصود جلود معينة لأجنة الغنم مما كان يتطلب ذبح الشاة دون الحملان ــ وفى ذلك مبالغة فى =

وقبل كل شيء على استغلال البلاد ، دون النظر في مصالح أهلها أو مطالبها ، سببا في ثورة عارمة بقيادة رجل اسمه ميسرة ، فجرت كل طاقات المغرب ضد العرب ·

مقدمات الثورة :

ويذكر الطبرى وابن الأثير أنه سبق الانفجار الرائع محاولات من أهل البلاد استهدفت لفت نظر الخلافة الى مساوىء عمالها فى المغرب · فلقد سار وفد من المغاربة يبلغ حوالى عشرين رجلا برئاسة ميسرة صاحب الثورة لعرض شكواهم ومطالبهم على الخليفة هشام ، ولكنه طال مقامهم بباب الخليفة دون جدوى · ولا نعرف ان كانت شكواهم قد وصلت الى مسامع الخليفة هشام أم أن رجال الحاشية حجبوها عنه · أما عن المطالب التى قدمها الوفد فكانت تتلخص في أن أمير المغرب عندما يغزو بجنده (العربى) وبهم (أى المغاربة) فانه يحرمهم من نصيبهم في الغنيمة ، ويقول : « هذا أخلص لجهادكم » · واذا حاصروا مدينة قال : « تقدموا وأخر جنده » · وأرادت الجماعة أن تعرف : « أعن رأى أمير المؤمنين هذا أم لا » ؟(١١٩) · وموضع الشكوى فى هذه الرواية — كما نرى — هو امتياز العرب على المغاربة مما يتضمن عـــدم تطبيق مبدأ المساواة والأخاء بين المسلمين ، ممـــا يعتبره البعض خروجا على مبـــادىء الاسلام ·

المذهب الخارجي فى المغرب الأقصى :

والحقيقة أن خطورة الثورة التى أشعلها ميسرة فى المغرب سنة ١٢٢ هـ/ ٧٤٠ م لا تتمثل فى شكلها السياسى بل تكمن طابعها الدينى · فالثورة رفعت شعار المساواة بين جميع المسلمين دون اية تفرقة عنصرية ، وهو المبدأ الذى

= الحسارة ، فهذا ما يقوله الطبرى (أحداث سنة ٢٧ ج ٤ ص ٢٥٤ — ذخائر العرب) « فيجعلوا يشقونها (الماشية) على السخال يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين ، فيقتلون الألف شاة فى جلد » (وقارن ابن الأثير فى أحداث سنة ٢٦) وهذا ما يقوله ابن خلدون فى شرح ذلك ·· « كانت الصرمة من الغنم تهلك ذبحا لاتخاذ الجلود العسلية (الألوان ؟) من سخالها ، ولا يوجد فيها مع ذلك الا الواحد وما قرب منه ··· » ج ١ ص ١١٩ · وانظر الاستقصا ، ج ١ ص ٩٥ ·

(١١٩) الطبرى (ذخائر العرب) أحداث سنه ٢٧ ج ٤ ص ٢٦٤ — ٢٦٥ ، ابن الأثير ، أحداث سنة ٢٦ ج ٣ ص ٣٥ ·

ترتكز عليه أفكار الخوارج · ولقد قامت الثورة بعد تمهيد كبير ودعاية واسعة قام بها الخوارج في المغرب · فلزاء ضغط الدولة على الخوارج في مركز الخلافة ، وخاصة بعد عنف الحجاج وشدته ضدهم في العراق ، اضطر هؤلاء الى الالتجاء الى أطراف الدولة البعيدة : شرقا في خراسان ، وشمالا في أرض الجزيرة ، وجنوبا على سواحل الخليج (الفارسي) ، وكذلك في المغرب · ولقد وجد البربر في المذهب الخارجي — الذي يدعو الى المساواة التامة بين جميع المسلمين مهما اختلفت أجناسهم ، والى الرجوع بالاسلام الى نقائه الأول — رابطة معنوية تؤلف بينهم ضد العرب الذين أساءوا السيرة فيهم ، كما وجدوا فيه قاعدة شرعية للخروج على الخلافة ، بعد أن شككوا في صحة تصرفاتها من النـــاحية الدينية ، وخاصة بعد أن جعـل أساسه السياسي : ألا طـــاعة لمخلوق في معصية ·

أما عن توقيت دخول المذهب الخارجي الى المغرب ، فهو غـــير معروف تماما ، وابن خلدون يربط بين دخوله المغرب وبين مقتل يزيد بن أبي مسلم سنة ١٠٢ هـ/٧٢٠ م(١٢٠) ، والأقرب الى الصحة أن تكون مبادىء المذهب قد دخلت المغرب قبل ذلك · فالمذهب الخارجي وان بدأ تبلوره بعد التحكيم بين علي ومعاوية (سنة ٣٧ هـ/٦٥٨ م) فان جذوره ترجع الى وقت مبكر منذ بداية فتنة عثمان ، أي منذ الوقت الذي نسب فيه بعض المتعصبين أو المتزمتين من أصحاب الضمائر الحساسة الى عثمان تهمة الخروج على التقاليد الاسلامية التي عرفت على أيام النبي . ورماهم هو بالخروج عن الطاعة ومنها اشتق اســـم « الخوارج » · وازاء الضغط الذي لاقاه الخوارج في مركز الخلافة ، كان من الطبيعي أن تلجأ جماعات منهم الى المغرب ، وربما انضم بعضهم الى الجيش العربي الافريقي ، كما فعل أهل المدينة والحجاز بعد تنكيل الشاميين بهم بعد وقعة الحرة سنة ٦٣ هـ/٦٨٢ م(١٢١) ، وبعد مقتل ابن الزبير سنة ٧٣ هـ/٦٩٢ م ، فقد كان الخوارج يتحالفون في بعض الأوقات مع ابن الزبير ، كمـــا هو معروف ·

---

(١٢٠) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١٠ ، الترجمة ج ١ ص ٢١٦ · أما ابن الأثير فينسب ذلك الى دخول أهل العراق الى المغرب أيام هشام (أحداث سنة ٢٦) ·

(١٢١) عن أهل المدينة الـــذين انضموا الى الجيش الافريقي ودخلوا من المغرب الى الأندلس ، انظر دوزي ، تاريخ المسلمين في اسبانيا ، بالفرنسية ، ج ١ ص ٦٩ ، ١٦٤ — ١٦٥ والهوامش ·

اما عن اول اشارة الى الخوارج في المغرب فترتبط بغزو الأندلس : اذ تذكر النصوص أن طريف بن ملوك الذي قاد اول سرية اسلامية الى أرض الجزيرة الخضراء سنة ٩١ هـ/٧١٠ م ، والذي سميت به جزيرة طريف[١٢٢] ، كان مع الخوارج في ثورة ميسرة ، وأنه هو الذي نشر الزندقة التي عرفت بين قبائل برغواطة في اقليم تامسنا[١٢٣] . كما كان من أهم أعوان ميسرة عبد الأعلى بن جريج ، مولى موسى بن نصير ، الرومي الأصل[١٢٤] هذا ولو أننا لا نعرف ان كان طريف وعبد الأعلى قد اعتنقا المذهب الخارجي قبل نهاية القرن الاول الهجرى أم بعدها . والظاهر أن تسامح عمر بن عبد العزيز ومحاولته مصالحة الخوارج كان هدنة أو نوعا من الهدوء هيأ لهم استعادة قواهم . كما جعلهم يعدلون ـ أيضا ـ أو يعدلون عن آراء المتعصبين منهم مثل الازارقة . وهكذا ظهر الخوارج في المغرب في شكل جماعة الصفرية . ونسب ابن خلدون أيهم مقتل يزيد بن أبي مسلم الذي خلف اسماعيل بن عبد الله والى عمر بن عبد العزيز[١٢٥] . ولا شك في أن مبادىء المذهب الآتية من العراق كانت تنتشر في صمت وسرية . والظاهر أن الدعاة لم ينشروها تحت اسم مذهب معين ، بل أذاعوها باسم الاصلاح والدعوة الى العمل بالكتاب والسنة مما يسميه ابن خلدون الباس الحق بالباطل[١٢٦] . وفي سنة ١٢٢ هـ /٧٤٠ م كان المذهب الخارجي قد استهوى عددا من الأنصار لا يسمح بمعارضة الحكومة فقط بل وبالثورة والانتصار على القوات العربية في المغرب .

ثورة ميسرة .

وقائد الثورة هو ميسرة المدغرى (أو المطغرى) نسبة الى قبيلة مدغرة

---

(١٢٢) بروفنسال ، تاريخ اسبانيا الاسلامية بالفرنسية ، ص ١٣ .

(١٢٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٧ ، وقارن البكرى ، ص ١٣٤ ، الاستبصار ، ص ١٩٧ (وهو ينسب تلك الزندقة الى صالح بن طريف) .

(١٢٤) انظر تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٦١ (حسب التاريخ خطأ في ١١٦ هـ وصحته : ابن حبيب ، بدلا من ابن جريج) وص ٣٦٨ (احداث سنة ١٢٢ هـ) . وانظر نفس بعد ، ص ٢٨٩ وص ٤٥٠ .

(١٢٥) الصفحة السابقة وهامش ١٢٠ . ولا بأس من الاشارة هنا الى ما يقال من أن عكرمة مولى ابن عباس كان اول من دعا الى نشر مذهب الصفرية في المغرب . انظر الدرجيني المخطوط ورقة ٦ ، والشماخي ، ص ٧٦ . وانظر نفس المصدر ، ج ٢ (في نظام الدولة الرستمية) .

(١٢٦) نفس المصدر السابق .

(أو مطغرة) ، وهى من القبائل البترية ، ويلقبه بعض الكتاب بـ « الفقير »(١٢٧) ؛ وربما كان ذلك لقبه بين أتباعه نسبة الى فقره وزهده ، بينما يلقبه آخرون بـ « الحقير »(١٢٨) استهانة به ، وهؤلاء خصومه من أعداء الخوارج • وكان الرجل فى مبدأ حياته بسيطا اذ اشتغل سقاء يبيع الماء فى سوق القيروان(١٢٩) ، عاصمة افريقية ، ومركز الاشعاع الدينى ، حيث العلماء والفقهاء ، ومنهم أجلة التابعين من أهل الزهد والورع والتقوى • ولا شك فى أنه كان من بين هؤلاء كثيرون ممن يدعون الى العودة بالاسلام الى نقائه الأول ، ويقفون فى وجه الاجراءات التى تخل بمبدأ الاخاء والمساواة بين جميع المسلمين ، بمعنى أنهم كانوا يروجون ــ عن غير قصد كما نظن ــ لمبادىء الخوارج أى لمبادىء الثورة على الدولة(١٣٠) • ولا بأس من أن يكون ميسرة أخذ هذه المبادىء عن بعض علماء القيروان هؤلاء ، ولو أن الكتاب لا يشيرون الى ذلك • وكل ما يقولونه عنه ، قبل الثورة ، انه كان يسعى الى تحقيق المساواة فى الأعطيات بين العرب والبربر فى الجيش الافريقى كما أشرنا(١٣١) ، وربما كانت لاقامة ميسرة فى دمشق عندما ذهب لعرض شكواه على الخليفة أثرها فى زيادة التعرف على مبادىء الخوارج • ففى ذلك الوقت انتشرت فى المشرق فرقة من الخوارج عرفت بالصفرية ــ نسبة الى مؤسسها زياد بن الأصفر • وهذه الفرقة أشبه بفرق الوسط اذ تمثل مرحلة تطور المبادىء الخارجية : من التطرف المذموم الذى مثله الأزارقة من قبل نحو الاعتدال المقبول الذى مثله الأباضية فيما بعد • وعلى مبادىء الصفرية الوسط قامت ثورة ميسرة(١٣٢) •

---

(١٢٧) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٨ •

(١٢٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٢ •

(١٢٩) ابن خياط ، ج ١ ص ٣٦٨ •

(١٣٠) أنظر ابن الأثير ، (أحداث سنة ١١٧) الذى يقول : « وظهر فى ذلك الوقت جماعة بافريقية فأظهروا مقالة الخوارج » ، وقارن الرقيق ، ص ١٠٩ (حيث النص على أنه كان فى المغرب يومئذ قوم فيهم دعوة الخوارج ، وفيهم عدد كثير وشوكة) •

(١٣١) أنظر فيما سبق ، ص ٢٨٤ •

(١٣٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٣ ، وقارن أخبار مجموعة (ص ٢٨) التى يقول « ثارت البربر على فرق الأباضية والصفرية » والمعروف أن خوارج هذه الثورة كانوا من الصفرية فقط • أما ثورات الاباضية فسنراها فيما بعد فى طرابلس ثم فى تاهرت • وأنظر ابن الأثير ، أحداث سنة ١١٧ • وعن الصفرية الذين يسمون أيضا بالزيادية نسبة الى مؤسس المذهب أنظر الشهرستانى ، طبعة ليبزج ١٩٢٣ ، ص ١٠٢ • أما ابن الأثير فينسبهم الى عبد الله بن الصفار السعدى (سنة ٦٤ ج ٤ ص ٨٢) •

عاد ميسرة وجماعته من الشام بعد أن خاب رجاؤهم في انصاف الخليفة ، وتأكد لديهم أن العمال يعملون بأمر الخلفاء ، وقرروا السير على المنهاج الذى يسير عليه خوارج المشرق ، فخرجوا من المعارضة الصامتة الى الثورة المسلحة . وانتهز ميسرة فرصة خروج أحد نائبي عبيد الله بن الحبحاب في المغرب الأقصى ، وهو حبيب بن أبي عبيدة الفهرى في حملة بحرية لغزو صقلية(١٣٣) . وبدأت الثورة في اقليم طنجة (السوس الأدنى) في ١٥ رمضان سنة ١٢٢ هـ / ١٣ أغسطس ٧٤٠ م في مواطن مدغرة قبيلة ميسرة ، حيث أعلن هذا الآخير نفسه اماما وبايعه الناس(١٣٤) . وسرعان ما انضمت الى قبيلته جميع قبائل المنطقة من غمارة ومكناسة وبرغواطة ، وكانت دعوة الخوارج منتشرة في هذه القبيلة الأخيرة بفضل طريف رئيسها (١٣٥) . وسار الثوار بقيادة عبد الأعلى ابن جريج نحو مدينة طنجة حيث هزموا عاملها عمر بن عبد الله المرادى ، وقتلوه واستولوا على المدينة(١٣٦) . والظاهر أنهم انتقموا من أهل المدينة اذ يقول صاحب أخبار مجموعة انهم قتلوا أهلها ، ويقال انهم قتلوا الصبيان(١٣٧) ، كما سبوا النساء(١٣٨) . وعندما بلغ ابن الحبحاب سقوط طنجة بين أيدى الثوار أرسل الى واليه على الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى يأمره بقمع الثورة . واضطر عقبة الى المسير بنفسه الى طنجة ، وقتل البربر قتلا ذريعا ، ولكنه لم ينجح في اخماد الثورة مما ترتب عليه ثورة الأندلسيين

---

(١٣٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٧ (يقول انه غزا في البحر) . ابن عذارى ، ج ١ ص ٥١ - ٥٢ (يقول انه خرج الى بلاد الروم) ويرجع الفضل للرقيق (ص ١٠٩) الذى ينقله ابن الأثير (سنة ١١٧) الذى ينفرد بتفصيلات عن هذه الغزوة التى قام بها في سنة ١٢٢ هـ حبيب وبصحبته ابنه عبد الرحمن الذى حقق انتصارات هائلة فارغم أهل سرقوسة على دفع الجزية حتى عزم حبيب على المقام بالجزيرة الى تمام فتحها لولا ثورة ميسرة . وعن تلك الحملة أنظر فيما بعد في فتح صقلية ، ج ٢ ص .

(١٣٤) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٨ (يقول « وادعى الخلافة وتسمى بها » وهو يقصد الامامة كما هو معروف عند الخوارج ، وحدث في ذلك الوقت المبكر ، وقارن الرقيق ، ص ١١٠ .

(١٣٥) أنظر فيما سبق ، ص ٢٨٦ . وعن زندقة برغواطة انظر فيما بعد الفصل الخاص بذلك من تاريخ الأدارسة .

(١٣٦) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٧ . ابن الأثير ، سنة ١١٧ ، النويرى ، المخطوط ، ص ٨٤ ب ، وقارن الرقيق ، ص ١٠٩ حيث اسم والى طنجة عمر بن عبيد المرادى . ابن خياط ج ١ ص ٣٧٦ (حيث اسم والى طنجة « عمرو بن عبد الله العبسى ») .

(١٣٧) أخبار مجموعة ، ص ٣١ .

(١٣٨) ابن خياط ، ج ٢ ص ٣٧٦ .

به ، فخلعوه واختاروا مكانه وانيهم السابق عبد الملك بن قطن(١٣٩) .

واستعمل ميسرة — بصفته الامام — على طنجة عبد الأعلى بن جريج الافريقي ، الرومي الأصل ، وأحد موالى موسى بن نصير(١٤٠) . ومن طنجة خرج الثوارة نحو السوس الأدنى ، وهزموا الجيش الذى سيره اليهم اسماعيل ابن عبيدالله ثم فاجأوا اسماعيل نفسه وقتلوه(١٤١) .وشجعت تلك الانتصارات المبدئية على اشعال لهيب الثورة ضد العرب في كل المغرب « فوثب كل قوم من البربر على من يليهم فقتلوا وطردوا »(١٤٢) . وجمع الثوار شملهم وساروا في اتجاه افريقية(١٤٣) ، قاعدة العرب ، حيث عبيد الله بن الحبحاب . وللأسف تمر المصادر سريعا بالأحداث التالية ، فتقتضبها اقتضابا ، فلا نعرف ماذا وقع من الأحداث اللهم ما يقوله ابن عذاري من أنه « كانت وقائع مثيرة بين أهل المغرب الأقصى ، وأهل افريقية يطول ذكرها »(١٤٤) . وازاء دقة الموقف أعد عبيد الله بن الحبحاب العدة لمواجهة الثوار ، فأخذ في تجهيز عسكر افريقية ، وأرسل الى حبيب بن أبي عبيدة يأمره بالرجوع من صقلية ليسير معهم ضد ميسرة(١٤٥) . ولما لم تكن الظروف تسمح بالانتظار لحين عودة حبيب فان ابن الحبحاب سير خالد بن أبى حبيب الفهرى على رأس قوات افريقية فيهم «وجوه أهل افريقية من قريش والأنصار وغيرهم »(١٤٦) .

---

(١٣٩) أخبار مجموعة ، ص ٢٩ ، ابن الأثير ، لحداث سنة ١١٧ ، الرقيق ، ص ١١١ ، ابن خلدون ، ج ١ ص ١١٩ (القراءة « ابن قطر » خطأ) ، النويرى ، المخطوط ، ص ٨٥ أ — ٨٥ ب ، وانظر ليفى بروفنسال ، تاريخ اسبانيا الاسلامية ، بالفرنسية ، ص ٣١ .

(١٤٠) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٨ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٢ ، وانظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١٠ (حيث يذكر مبايعة ميسرة لابن جريج قبل أن تصير اليه الامامة) و ص ١١٩ (حيث القراءة « ابن خديج » بدلا من « جريج » وابن خلدون يقول هنا ان عبد الأعلى هو أصل الخارجية . ويحدد ولايته لطنجة بسنة ١٢٥ هـ) .

(١٤١) أنظر خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٦٨ — ٣٦٩ ، ابن عبد الحكم ، ص ١٢٨ .

(١٤٢) أخبار مجموعة ، ص ٢٩ .

(١٤٣) نفس المصدر السابق .

(١٤٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٢ .

(١٤٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٣ ، الرقيق ، ص ١٠٩ ، ابن الأثير ، سنة ١١٧ .

(١٤٦) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٨ ، وقارن الرقيق ، ص ١١٠ ، وابن عذارى ، ج ١ ص ٥٣ .

انتصار الصفرية في وقعة الأشراف :

وقصة الأحداث التالية غير آكيدة تماما في فتوح ابن عبد الحكم الذي يورد روايات مختلفة عن الليث بن سعد وغيره ، وكذلك الحال في تاريخ ابن خياط ، وفي بيان ابن عذاري الذي يسجل روايات للرقيق وغيره . ومما يؤسف له أن قطعة الرقيق التي تم اكتشافها لا تضيف معلومات جديدة الى ما نقله ابن الاثير وابن عذاري ، ووجه الاختلاف يتلخص أساسا في أبطال المعارك : فمن جهة البربر يتراوح الأمر ما بين ميسرة وعبد الأعلى بن جريج وابن حميد الزناتي ، ومن جانب العرب ما بين خالد بن أبي حبيب وحبيب بن أبي عبيدة وعبد الرحمن بن المغيرة العبدي . أما عن مواضع اللقاء فتتراوح بين وادي شلف وما دون طنجه أو بمقربة منها ، وكذلك بالقرب من تلمسان(١٤٧) . ولكنه رغم اختلاف الروايات يمكن التوفيق بينها وترتيب الأحداث على الوجه التالي : تقدم خالد بن أبي حبيب بعسكر افريقية حتى وصل الى وادي شلف ، غير بعيد من مدينة تاهرت ، حيث تم اللقاء بينه وبين الخوارج . وكان لقاء عنيفا استبسل فيه الفريقان وانتهى بانسحاب ميسرة في ظروف لا نعرفها تماما(١٤٨) .

والظاهر أنه حدث انشقاق بين ميسرة وأتباعه الذين أخذوا عليه الانسحاب دون الاستماتة في القتال ، وانتهى الأمر بأن قتلوه ، وذلك حسب مبادىء الخوارج التي تسمح بالتخلص من الامام اذا ما انحرف عن طريق

---

(١٤٧) أنظر ابن عبد الحكم ، ص ٢١٨ . الرقيق ص ١١٠ . وابن عذارى ، ج ١ ص ٥٣ ، وقارن ابن الأثير ، أحداث سنة ١١٧ وابن خلدون ، ج ١ ص ٢١٩ ، والنويري المخطوط . ص ٨٤ ب .

(١٤٨) أنظر الرقيق ، ص ١١٠ (حيث يجعل خالد بن حبيب يعبر وادي شلف في اثر ميسرة ، بينما يأتي بعده حبيب بن أبي عبيدة ليعسكر على وادي شلف ولا يبرح مكانه) ، وقارن ابن الأثير ، (سنة ١١٧) الذي يقول بانسحاب ميسرة الى طنجة ولكنه يجعل القتال بالقرب منها . وكذلك ابن عذارى ج ١ ص ٥٣) الذي يذكر وصول خالد الى وادي شلف ، ثم يجعل القتال عند طنجة ، أما ابن خلدون (ج ٦ ص ١١٠) فيجعل المعركة الكبرى عند شلف . بينما ابن عبد الحكم يقول في رواية (ص ٢١٨) ان اللقاء تم مباشرة بين خالد والبربر قرب طنجة ، وقتل خالد وأصحابه . ثم يذكر رواية أخرى فيها أن خالدا لقي ميسرة دون طنجة فقتل ومن معه ثم انصرف ميسرة الى طنجة . ويذكر رواية ثالثة عن الليث بن سعد تقول أن ميسرة قتل اسماعيل بن عبيد الله ، وخالد بن أبي حبيب سنة ١٢٣ هـ/٧٤١ م ثم بعد ذلك يوم ابن الحبحاب بعد هلاك حبيب بن أبي عبيدة .

بجماعة(١٤٩) ، مما أدى الى انقسام أتباعه الصفرية الى فرقتين : « فرقة عليها خالد بن حميد ، وفرقة عليها سالم أبو يوسف الهوارى »(١٥٠) . وواصل خالد بن أبى حبيب تقدمه فى اتجاه طنجة ، واشتبك مع البربر بالقرب من طنجة ، فى الوقت الذى كان أصحاب ميسرة قد عادوا الى الاتفاق ، واعترفوا جميعا بامامة خالد بن حميـــد الهتورى الزناتى ، ووضـــعوا انفسهم تحت قيادته(١٥١) . وفى أثناء المعركة الطاحنة وعلى حين غرة ، فاجأ خالد بن حميد الزناتى وأصحابه الصفريه العرب من الخلف وتكاثروا عليهم . واستنكف خالد الفهرى من الفرار ، وقرر أن يعيد سيرة عقبة فى تهودة ، فألقى بنفسه وأصحابه الى الموت ... فقتل ابن أبى حبيب ، ومن معـــه حتى لم يبق من أصحابه رجل واحد » — حسب مبالغات الرواة(١٥٢) ، وذلك فى أواخر سنة ١٢٢ هـ/٧٤٠ م أو أوائل سنة ١٢٣ هـ/٧٤١ م(١٥٣) . وهكذا فقد العرب فى هذه الوقعة أعيان فرسانهم وأبطالهم من القرشيين والأنصار ، ولهـــذا السبب اطلق الكتاب عليها اسم « غزوة الأشراف »(١٥٤) .

---

(١٤٩) أنظر الرقيق (ص ١١٠) ، وابن عذارى (ج ١ ص ٥٣) حيث الرواية التى أخذنا بها ، والتى يمكن أن تفسر اختلاف الروايات التى تخلط بين ميسرة وبين ابن حميد الزناتى خليفته (وقارن النويرى ، المخطوط ، ص ٨٤ ب) . وقارن : Fournel, Etude sur la Conquête de l'Afrique par les Arabes..., p. 77, et Note 1.

(١٥٠) أنظر تاريخ خليفة بن خياط (ج ٢ ص ٣٧٠) الذى يلقب أبا يوسف بالأزدى ، بينما يلقبه ابن عبد الحكم (ص ٢٢٠) بالهوارى . وهو يحدد هذا الانقسام بين الصفرية بسنة ١٢٤ هـ/٧٤٢ م ، بعد وفاة ميسرة ، فكأنه يجعل انتصار الصفرية فى وقعة الأشراف تحت قيادة ميسرة ، وهو الأمر الذى لا نستطيع النظر فيه حاليا فى ضوء المعلومات المخالفة له التى بين أيدينا .

(١٥١) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٣ . أما ابن عبد الحكم (ص ٢١٨) فانه يخطىء هنا عندما يقول ان البربر بعد أن قتلوا ميسرة « ولوا أمرهم عبد الملك بن قطن » ، اذ الحقيقة ان عرب الأندلس هم الذين ثاروا بواليهم عقبة بن الحجاج فعزلوه ووضعوا مكانه عبد الملك بن قطن (أنظر فيما سبق ص ٢٨٩ وهامش ١٣٦ . وقارن ابن خلدون الذى يقول ذلك (ج ١ ص ١١٠) ثم يذكر رواية أخرى تدل على ان الحق حسب ميسرة هو يحيى بن حارث (ج ١ ص ٢١٩) . وانظر فورنيل Fournel ص ٧٧ وهامش ٣ .

(١٥٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٤ ، الرقيق ص ١١٠ (حيث الرواية الأصيلة) ابن عبد الحكم ص ٢١٨ ، النويرى المخطوط ص ٨٥ أ ، ابن الأثير ، سنة ١١٧ .

(١٥٣) تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٦٩ (حيث يقول ان الوقعة حدثت عند نهر يسمى « نهر الكور ») .

(١٥٤) نفس المصادر . وقارن خليفة بن خياط الذى يعدد من قتل فى المعركة ، الى جانب خالد بن أبى حبيب وابنه : عثمان بن أبى عبيدة الفهرى وابنه ابراهيم ، وموسى بن عبد الرحمن وعبد الكريم بن مسعدة بن عتبة بن عمرو بن الخطاب ، وزرارة بن عمر (من بنى عمير من بنى عبد الدار بن قصى (ج ٢ ص ٣٦٨ — ٣٦٩) .

وعندما وصلت أنباء الكارثة الى القيروان ، حاول ابن الحبحاب سد طريق افريقية على الثوار ، فأرسل عبد الرحمن بن المغيرة العبدي واليا على تلمسان • وهناك اخذ عبد الرحمن في الانتقام من الصفرية فقتلهم قتلا ذريعا حتى سمي بـ « الجزار » • مما أدى الى موجة من السخط عليه انتهت بارغامه على مغادرة المدينة(١٥٥) • وفي هذه الأثناء كان حبيب بن أبي عبيـدة قد عاد من غزو صقلية ، فسيره ابن الحبحاب على رأس قواته ضد الثوار(١٥٦) • وسار حبيب نحو وادي شلف ، ولكنه لم يتقدم بل رابط عند المجاز(١٥٧) ، والظاهر أنه أقام هناك يستطلع الأخبار • ثم انه تقدم الى تلمسان التي لم تكن قد سقطت بين أيدي الثوار ، بعد ما قام به هناك عبد الرحمن العبدي من أعمال العنف والقسوة • وهناك قبض على واليها السابق موسى بن أبي خالد مولى معاوية ابن حديج ، بتهمة الدس والتحريض على الفتنة ، وأنزل به عقوبة المفسدين، فقطع يده ورجله(١٥٨) • ولا نعرف ما كان من أمر حبيب بعد ذلك ، والظاهر أنه أقام في منطقة وادي شلف ، كما يفهم من الأحداث التالية(١٥٩) • ولكن أمور المغرب اختلفت على ابن الحبحاب ، «فاجتمع الناس عليه وعزلوه»(١٦٠) كما فعلوا بواليه على الأندلس(١٦١) • وعندما وصلت تلك الأنباء التعسة الى الخليفة هشام ، أقسم : « والله لأغضبن لهم غضبة عربية ، ولأبعثن اليهم جيشا أوله عندهم وآخره عندي ، ثم لا تركت حصن بربري الا جعلت الى جانبه خيمة قيسي أو تميمي » ، وأرسل يستدعي ابن الحبحاب الذي ترك المغرب في جمادى الأولى من سنة ١٢٣ هـ/مارس ٧٤١ م(١٦٢) •

---

(١٥٥) ابن خياط ، ج ٢ ص ٣٦٩ •

(١٥٦) هذه رواية الليث بن سعد التي أخذنا بها. (أنظر ابن عبد الحكم ، ص ٢١٨) ، أما ابن عذارى (ج ١ ص ٥٣) الذي ينقل الرقيق (ص ١١٠) فيقول ان حبيب ابن أبي عبيدة سار في اثر خالدبن ابي حبيب مما يفهم منه أن مسيره حدث قبل معارك خالد بن أبي حبيب مع الخوارج ومقتله • هذا ولو أن رواية مقتل خالد بن ابي حبيب لا ذكر فيها لحبيب ابن أبي عبيدة (نفس الصفحة) •

(١٥٧) أنظر الرقيق ، ص ١١٠ (حيث النص على أن حبيب بن أبي عبيدة « نزل على وادي شلف . فأقام ولم يبرح » ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٣ •

(١٥٨) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٨ •

(١٥٩) أنظر فيما بعد ص ٢٩٤ والهوامش •

(١٦٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٤ ، وقارن الرقيق ، ص ١١١ •

(١٦١) أنظر فيما سبق ، ص ٢٨٩ ، وهامش ١٣٩ •

(١٦٢) أنظر الرقيق ، ص ١١ ١، وقارن ابن عذاري ، ج ١ ص ٥٤ ، ابن عبد الحكم ، =

هـ - كلثوم بن عياض القشيري : وقعة وادي سبو (بقدورة) .

ولم ينكث الخليفة في قسمه ، ففي الشهر التالي (جمادى الثاني سنة ١٢٣ هـ/ابريل ٧٤١) اختار لولاية افريقية شيخا من أعيان القيسية الخلص (بدلا من ابن الحبحاب القيسي بالولاء) هو كلثوم بن عياض القشيري(١٦٣) ، وجعل له نائبين يتوليان الامارة بالتوالي اذا ما حدث له حدث ، هما : ابن أخيه بلج بن بشر القشيري ، وثعلبة بن سليمة العاملي(١٦٤) . ويرجع الفضل الى كتاب أخبار مجموعة الذي يضيف تفصيلات هامة عن جيش كلثوم الى جانب ما سجله ابن عبد الحكم وابن عذاري . فقد جهز هشام جيشا عظيما من أهل الشام بلغ عدده ٢٧ (سبعة وعشرين) ألف رجل من الجند النظامي . فكان على كل جند (أي كورة) من أجناد الشام الاربعة : دمشق وحمص والأردن وفلسطين ، أن يقدم ٦ (ستة) آلاف رجل ، وكان على أهل قنسرين (حلب) أن يقدموا ثلاثة آلاف . وأخرج الخليفة مع كلثوم رجلين لهما معرفة بالمغرب والأندلس ، هما : هارون القرني مولى معاوية بن هشام (والد عبد الرحمن الداخل) ، ومغيث الرومي مولى الوليد (وصاحب موسى بن نصير) على أن يكونا مستشاريه . كما أعطاه سلطات مطلقة في البلاد التي يمر بها ، وكتب الى عماله في مصر والمغرب بطاعة كلثوم ، وتقديم العون له من الرجال والأموال(١٦٥) .

وهكذا استمدت الجيوش الخلافية من الجند النظامي والمتطوعة فعلا للمضي من الشام الى افريقية ، وصدقت كلمة هشام . وخرج كلثوم بأهل الشام ومعه

= ص ٢١٨ ، وانظر ابن الأثير ، سنة ١١٧ والنويري ، المخطوط ، ص ٨٥ ، والترجمة في ملحق ابن خلدون ج ١ ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

(١٦٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٨ (يسميه القيسي) ، ابن خياط ج ٢ ص ٣٧٠ ، ابن عذاري ج ١ ص ٥٤ ، النويري ، المخطوط ، ص ٨٥ أ ، والترجمة في ملحق ابن خلدون ج ١ ص ٣٦١ . ومما يؤسف له أن قصة كلثوم مبتورة في أولها في القطعة التي وجدت من الرقيق ، مما جعل المحقق يترك (ص ١١٢) بياضا .

(١٦٤) أخبار مجموعة ، ص ٣٠ ، ٣٥ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٥٥ . هذا ولو أنه في ص ٥٤ يقول ان بلجا هو ابن عم كلثوم ، وهو ما تذكره رواية ابن خياط (ج ٢ ص ٣٧٠) .

(١٦٥) أخبار مجموعة ، ص ٣٠ - ٣١ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٥٤ ، ابن الأثير ، سنة ١١٧ .

بلج على مقدمته من الخيالة ، وثعلبة بن سلمة على جند الاردن . وعندما دخل مصر انضم اليه من جندها ٣ (ثلاثة) آلاف رجل من الجند النظامى فصار جيشه ٣٠ (ثلاثين) ألفا ، سوى من معهم من الموالى والاتباع ، ومن صار معهم من المتطوعة(١٦٦) . وأخذت قوات كلثوم تزداد عددا على طول الطريق نحو المغرب بمن انضم اليه من جند برقة وطرابلس(١٦٧) . الى أن وصل الى افريقية فى شهر رمضان من نفس السنة (١٢٣ هـ/يولية ٧٤١ م)(١٦٨) .

ومع أن جيش كلثوم تضخم تضخما عظيما بمن انضم اليه من جند افريقية حتى بلغ عدده ٧٠ (سبعين) ألف رجل(١٦٩) ، الا أن الانشقاق والانقسام دب بين صفوفه بشكل جعل سيطرة كلثوم عليه من الصعوبة بمكان. فالظاهر أن أهل الشام أتوا يزهون بعددهم وعديدهم ، وبما أباح لهم الخليفة من الاباحات ، على التأكيد من أهل افريقية والمغرب الذين حطمهم البربر فى أكثر من موقعة . ولم يكن أهل افريقية ليرضوا من أهل الشام بتلك المعاملة الغريبة بعد جهادهم وحسن بلائهم . فاذا كان كلثوم قد تجنب النزول فى القيروان ، وسار الى سبيبة على مسيرة يوم منها(١٧٠) ، فان ابن أخيه بلج طلب من أهل افريقية ألا يغلقوا أبوابهم حتى يعرف أهل الشام منازلهم ، « ومع ذلك كلام كثير يغيظهم به »(١٧١) . وغضب حبيب بن أبى عبيدة عندما بلغته ، وهو معسكر على وادى شلف ، أنباء الاهانات التى لحقت بأهل بلده ، وكتب الى كلثوم يندد بما فعله ابن أخيه بلج ، ويطلب منه الرحيل بعسكره من افريقية ، والا حول قواته ضده(١٧٢) . ورغم ما تقوله الرواية من أن كلثوم ابن عياض كتب الى حبيب يعتذر اليه ، « ويأمره بأن يقيم بشلف ولا يجاوزه

---

(١٦٦) أخبار مجموعة ، ص ٣١ .

(١٦٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٤ ، ابن عبد الحكم ، ص ٢١٨ ، وقارن النويرى ، مخطوط ، ص ٨٥ ـ .

(١٦٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٤ ، النويرى ، المخطوط ، ص ٨٥ ب ، والترجمة ، ملحق ابن خلدون ، ج١ ص ٣٦١ ، وقارن ابن خياط ، ج ٢ ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ .

(١٦٩) أخبار مجموعة ، ص ٣١ .

(١٧٠) ابن عبد الحكم ، ٢١٩ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٤ ، وقارن النويرى ، (المخطوط ، ص ٨٥) [illegible] سبيبة .

(١٧١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٤ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ١١٧ .

(١٧٢) نفس المصدر ، وانظر الرقيق ، ص ١١٣ ، وان كانت الرواية مبتورة فى [illegible] .

حتى يقهم عليه »(١٢٣) . فقد كانت تلك الأحداث بداية للتصدع بين قوتي الخلافة الشامية وجيشها الافريقي ، وبضمنه القوات المصرية .

كارثة الجيش الخلافي في بقدورة :

وفي هذه الظروف العابسة استخلف كلثوم على القيروان قاضي افريقية عبد الرحمن بن عقبة الغفاري على الصلاة ، ومسلمة بن سوادة القرشي على الحرب(١٧٤) ، وخرجت قوات افريقية معه وعلى رجالتها مغيث الرومي ، وعلى فرسانها هارون القرني(١٧٥) . ولم يلبث النزاع مع حبيب بن أبي عبيدة أن تجدد عند وادي شلف فلقد استهان بلج بحبيب عندما لقيه ، كما طعن كلثوم فيه « وشتمه وأهل بيته »(١٧٦) . وأخذ الحماس عبد الرحمن بن حبيب ـ الذي كان شابا حدث السن بصحبة والده ـ فتدخل في النزاع حتى كاد الأمر ينتهي الى الفتنة(١٧٧) ، « وصاح الناس ، السلاح ! السلاح ! فمال أهل افريقية الى ناحية ، وبعهم أهل مصر ، ثم سعى بينهم في الصلح ... فكان هذا الاختلاف سبب هلاكهم ، مع سوء رأي كلثوم وبلج » ، كما يقول ابن عذاري نقلا عن الرقيق(١٧٨) . وخرج الجيش العظيم ـ الذي كانت تنخر في عظامه الأحقاد والضغائن ـ نحو أرض طنجة لتأديب الثوار الذين جمعوا جموعهم تحت قيادة امامهم الجديد خالد بن حميد الزناتي ، وتم اللقاء على الضفة الشمالية لأسافل وادي سبو(١٧٩) (نهر مدينة فاس) في موضع يقال له « بقدورة »(١٨٠) :

---

(١٧٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٩ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٥٤ ، وانظر الرقيق ، ص ١١٣ ، وقارن ابن الأثير الذي يقول ان حبيبا كان بتلمسان (أحداث سنة ١١٧) .

(١٧٤) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٨ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٥٤ ، وقارن النويري ، المخطوط ص ٨٥ ب والترجمة ، ملحق ابن خلدون ، ج ١ ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ ، والرقيق ، ص ١١٣ (حيث يذكر استخلاف القاضي فقط) .

(١٧٥) أخبار مجموعة ، ص ٣١ .

(١٧٦) انظر ابن عبد الحكم ، ص ٢١٩ ، وقارن الرقيق ، ص ١١٣ (حيث يشير الى أن بلج بن بشر ، وحده هو الذي استهان بحبيب وسبه في بعض خطبه) .

(١٧٧) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٩ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٥٤ ، وقارن الرقيق ، ص ١١٣ .

(١٧٨) ابن عذاري ، ج ١ ص ٥٤ ، وقارن الرقيق ، ص ١١٣ (حيث يوجد النص مبتورا) .

(١٧٩) ابن عذاري ، ج ١ ص ٥٥ ، ابن خلدون ، ج ١ ص ١١٩ ، وقارن النويري ، المخطوط ، ص ٨٥ ب والترجمة ، ملحق ابن خلدون ، ج ١ ص ٣٦٢ حيث يسمى النهر وادي طنجة ، وهو ما يقوله ابن خياط (ج ٢ ص ٣٧٠) .

(١٨٠) أخبار مجموعة ، ص ٣٢ ، وهناك قراءة أخرى هي نقدورة (ص ٣٩) أو نفدورة . انظر دوزي ، ج ١ ص ١٥٤ وهامش ٢ .

وكان لقاء هائلا استبسل فيه الصفرية بشكل يذكر باستماتة اخوانهم خوارج المشرق في حروبهم مع جيوش الخلافة ، وانتهى نهاية لم تكن متوقعه اذ تحطم جيش كلثوم ، العظيم بفرسانه وعدده وعتاده ، أمام مقاومة البربر العزل من السلاح أو الذين يكادون ٠

ويصف كتاب أخبار مجموعة المعركة وصفا رائعا : فجيش كلثوم كان يحتوى على فرقتين من الخيالة ، أولاهما خيالة أهل الشام وعليها بلج بن بشر ، ويبلغ عدد فرسانها حوالى ١٠ (عشرة) آلاف فارس(١٨١) ٠ وثانيتهما خيالة افريقية وعليها هارون القرني(١٨٢) أما الخوارج « فلم تكن لهم خيل تكافىء خيل المسلمين »(١٨٣) - أما عن الرجالة فمع أن كلثوم بن عياض كان معه حوالى ٢٠ (عشرين) ألفا من أهل الشام الى جانب أهل افريقية ، وعليهم مغيث ثم قوات حبيب بن أبي عبيدة ، فان الذى يفهم من النص هو أن البربر كانوا أكثر عددا ، اذ « أقبل خالد بن حميد الزناتي قد جمع جموعا ليس يحصى عددها »(١٨٤) ، بينما يقول ابن عذارى ان عدد الذين ساروا منهم نحو القيروان بعد ذلك بلغ حوالى ٣٠٠ (ثلثمائة) ألف رجل(١٨٥) ٠ ولكنه وان صحت كثرة عددهم فان عددهم وسلاحهم كان بدائيا بسيطا ، فقد « أقبلوا عـــراة متجردين ليس عليهم الا السراويلات(١٨٦) ، ومعهم الجلود اليابسة فيهـــا الحجارة »(١٨٧) ٠ ورغم ذلك فقد كان يعوضهم عن ذلك الضعف عزمهم الصادق على الاستقتال في الحرب مثل اخوانهم في المشرق ، فقد حلقوا رءوسهم « اقتداء

---

(١٨١) أخبار مجموعة ، ص ٣٣ ٠ الحقيقة ان النص يذكر هنا عددين هما : ١٢ (اثنا عشر) ألفا ، ٧ (سبعة) آلاف ٠ وصاحب الرواية يميل الى الأخذ بالعدد الثاني اذ يقول : « وهو أصح العددين »٠ونعتقد أن العددين صحيحان : فالأول يمثل عدد الفرسان جميعا من أهل الشام ، وهذا ما يقوله النويري (المخطوط ، ص ٨٥ ب والترجمة ، ملحق ابن خلدون ج ١ ص ٣٦١) ، أما الثاني فهو يمثل عدد الفرسان الذين بقوا مع بلج بعد الهزيمة ٠

(١٨٢) أخبار مجموعة ، ص ٣٢ -

(١٨٣) أخبار مجموعة ، ص ٣٣ ٠

(١٨٤) أخبار مجموعة ، ص ٣٢ ، وقارن ابن خلدون ج ١ ص ١١٩ (النص يذكر ميسرة خطأ بدلا من خالد بن حميد ، وميسرة كان قد قتل كما ذكرنا - أنظر فيما سبق ، ص ٢٩٠-٢٩٢٠

(١٨٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٦ ٠

(١٨٦) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٦ ، ابن عذارى ، ج ٢ ص ٥٥ (فخرجوا اليــه عراة) ٠

(١٨٧) أخبار مجموعة ، ص ٣٣ وقارن ابن خلدون ، ج ١ ص ١١٩ ٠

بالأزارقة وأهل النهروان ، أصحاب الراسبي عبـــد الله بن وهب وزيد بن حصين » ، ونادوا بالتحكيم الى جانب رفع المصاحف(١٨٨) ٠

وطلب كلثوم النصيحة من مستشاريه ، وكاد يقف موقفا دفاعيا باتخاذ خندق ، واخراج الكتائب تقاتل البربر ثم تعود الى مواقعها ، ولكنه عاد واستمع الى نصيحة ابن أخيه بلج المعتز بنفسه اذ قال له : « لا تفعل ، ولا يرعك كثرة هؤلاء فان أكثرهم عريان أعزل لا سلاح لهم »(١٨٩) ٠ وهكذا بدأ القتال وقواد كلثوم غير راضين عن خطته(١٩٠) ٠ وكانت خطة كلثوم أن يعتمد على الخيالة كقوة ضاربة لتحطيم الثوار : « فوجه بلج بن بشر على الخيل ليدوسهم بها ، وكانت الخيل أوثق فى نفس كلثوم من الرجالة »(١٩١) ٠ وفاجأ بلج بن بشر البربر صباحا ، فاستقبلوه بالصـــياح والحجارة ، فكانت الخيـــل تنفر منهم(١٩٢) ٠ واحتال البربر فى شل حركة الفرسان العرب حتى يجبروهم على الحرب رجالة ، مثلهم : « فعمدوا الى الرمك الصعبة ، فعلقوا فى أذنابها القرب والأنطاع اليابسة ثم وجهوها نحو عسكر كلثوم فنفرت الخيل ، ونادى الناس فنزل أكثرهم ، وكان ذلك حاجة البربر لكثرتهم ، وانهم لم تكن لهم خيل تكافىء خيل المسلمين(١٩٣) ٠

وترتب على ذلك اضطراب نظام الصفوف فى جيش كلثوم ، وزحف البربر دون أن ينجح بلج ــ الذى بقى فى سبعة آلاف فارس ــ فى ايقافهم حتى « خالطوا صفوف أهل الشام »(١٩٤) ٠ وحاول بلج أن ينقذ الموقف بحملة خاطفة على الصفرية ، ونجح فعلا فى شـــق جموعهم ، ولكن الهجمة انتهت

---

(١٨٨) اخبار مجموعة ، ص ٣٢ ٠

(١٨٩) نفس المصدر ٠

(١٩٠) يضيف ابن عبد الحكم الى ما ذكرنا : أنه عندما « أشار حبيب بن أبى عبيدة على كلثوم أن يقاتلهم الرجالة بالرجالة ، والخيل بالخيل ، قال له كلثوم : ما اغنانا عن رأيك يابن أم حبيب » (ص ٢١٩) ٠ وانه عندما تأزم الموقف عرض كلثوم القيادة على حبيب فرد عليه : « قد فات الأمر » (ص ٢٢٠) ، وقارن ابن الأثير ، سنة ١١٧ ٠

(١٩١) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٩ ٠

(١٩٢) اخبار مجموعة ، ص ٣٣ ، ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٠ ٠

(١٩٣) اخبار مجموعة ، ص ٣٣ ، وقارن ابن خلدون (ج ٦ ص ١١٩) السنى بقوله ٠ وكان كيدهم فى لقائهم اياه وملؤا الشنان بالحجارة وربطوها بأذناب الخيل ، فتقطع الحجارة فى شنانها تنفرت خيولهم واختل مصافهم ٠٠٠ ٠

(١٩٤) نفس المصدر ٠

بانفصاله عن قوات عمه الرئيسية اذ حال انشــوار بينه وبين الرجوع الى عسكره • وانقلبت الآية ، وانقسم جيش كلثوم ، وأحاطت جماعات من البربر بينهم ومعه عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة ، بينما وجه خالد بن حميد الزناتي قواته الرئيسية نحو كلثوم • وغلب الخوارج بكثرتهم واستماتتهم جيش كلثوم ، وقتل حبيب بن أبي عبيدة ، ومغيث الرومي ، وهارون القرني ، وسليمان بن أبي المهاجر ، وكثير من وجوه العرب وانهزمت قوات افريقية من الخيالة والرجالة(١٩٥) ، الا عبد الرحمن بن حبيب الذي بقي مع بلج(١٩٦) •

مقتل كلثوم :

وثبت كلثوم ثباتا رائعا ، فجلس على منصته (ديدبانه) ترفرف عليه راية قيادته ، وطلب من أصحابه أن يدافعوا عنه اذا نالته سيوف الخوارج ، وقتل وهو يتلو الآيات . « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ••• » ، وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ••• » (١٩٧) • وبمقتل كلثوم في وقعة « بقدورة » سنة ١٢٣ هـ/ ٧٤١ م(١٩٨)، تقرر مصير المعركة اذ أخذت الراية ، وانهزم الجيش الخلافي تماما نحو افريقيــة وتبعه البربر يقتلون ويأسرون . « فثلث أهل الجيش مقتــول . وثلث منهــزم ، وثلث مأسور »(١٩٩) •

عبور بلج وأهل الشام في سبتة :

أما عن بلج وفرسانه فكان في المؤخرة ، ومعه ثعلبة بن سلمة وعبــد الرحمن بن حبيب . يقتل في خصومه قتلا ذريعــا ، ولكنهم لم يمكنوه من

---

(١٩٥) أخبار مجموعة ، ص ٣٤ . ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٥ ، ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٠ •

(١٩٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٦ ، ابن الأثير ، أحداث سنة ١١٧ •

(١٩٧) أخبار مجموعة ، ص ٣٤ • القرآن الكريم ، سورة التوبة آية ١١١ ، سورة آل عمران آية ١٤٥ •

(١٩٨) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٠ (هذا ولو أنه يذكر رواية أخرى عن الليث بن سعد فيها أن مقتل كلثوم كان في سنة ١٢٤ هـ) ، وقارن أخبار مجموعة (ص ٣٥) الذي يقول ان عبور بلج الى الأندلس كان في سنة ١٢٣ هـ ، وابن عذارى ج ١ ص ٥٦ •

(١٩٩) أخبار مجموعة ، ص ٣٤ ، وقارن ابن خياط (ج ٢ ص ٢٧٠) الذي يذكر - الى جانب كلثوم - من أعيان القتلى : محمد بن عبد الله الأزدي ، ويزيد بن سعيد بن عمرو الحرشي، وحبيب بن أبي عبيدة • كما يذكر انهم استباحوا عسكر كلثوم وسبوا الذرية •

الملحاق بالجيش ، فلما فرغوا من كلثوم رجعوا اليه ٠ وأمام كثرتهم الطاغية انسحب ماضيا في بلادهم ، وهم يتبعونه نحو الشمال ٠ وحاول دخـــول طنجة فلم يستطع فسار الى مدينة سبتة الحصينة ، واعتصم بها(٢٠٠) ٠ وسير الثوار الى بلج جيشا بقيادة زعيمهم الثاني وهو سالم أبو سيف الهوارى ، ولكن بلج بن بشر قتله ، وشتت رجاله(٢٠١) ٠ وتوالت جيوش الخوارج على سبتة : كلما قضى بلج على جيش سيروا اليه آخر ، حتى هزم لهم خمسة جيوش أو ستة(٢٠٢) ٠ وأخيرا رأى الصفرية ألا سبيل الى القضاء على بلج ورجاله الا بتجويعهم ، وقطع الميرة عنهم ٠

ولما كانت الأرض حول طنجة عامرة كثيرة الخيرات فانهم قرروا تخريبها واقفارها حول المدينة على مسيرة يومين(٢٠٣) ٠ ونجحت الخطة فعلا وأصبح قيام بلج ورجاله بالغارات البعيدة من أجل الحصول على الطعام أمرا صعبا ، « فانقطع عنهم المعاش ، فجـــاعوا حتى أكلـــوا دوابهم(٢٠٤) ، « وأكلوا الجلود »(٢٠٥) ، وما حملت الأرض من البقل والعشب(٢٠٦) ٠ ورفض والى الأندلس العجوز عبد الملك بن قطن المدنى الأصل ، والذى حارب أهل الشام بالمدينة في وقعة الحرة سنة ٦٣ هـ/٦٨٢ م ، أن يستجيب لاستغاثتهم باسم الطاعة لأمير المؤمنين ، وباسم العربية (العروبة) ، بل على العكس من ذلك « تغافل بهم ، وسره هلاكهم ، وخافهم على نفسه » ٠ وبلغ الحقد على أهل الشام من ابن قطن الى درجة أنه عاقب الزعيم اللخمى عبد الرحمن بن زياد الأحرم ، الذى أشفق على هلاك اخوانه على الشاطئ الآخر للزقاق ، فأرســـل اليهم « قاربين قد شحنهما بالشعير والأدم » ، رغم أن ذلك « لم يبلغ منهم مبلغا حتى أشرفوا على الهلاك »(٢٠٧) ٠

---

(٢٠٠) اخبار مجموعة ، ص ٣٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٥ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١٩ ٠

(٢٠١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٠ ، وقارن ابن خياط ، ج ٢ ص ٣٧٠ (حيث النص على ان الذى صبر لأبى يوسف ــ الذى يسميه ابن حميد خطأ ــ وهزم رجاله وقتله هو قائد مؤخرة جيش بلج واسمه حسان بن عتابة) ٠

(٢٠٢) اخبار مجموعة ، ص ٣٥ ٠

(٢٠٣) نفس المصدر ٠

(٢٠٤) اخبار مجموعة ، ص ٣٥ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ١٢٣ ٠

(٢٠٥) اخبار مجموعة ، ص ٣٧ ٠

(٢٠٦) اخبار مجموعة ، ص ٣٨ ٠

(٢٠٧) اخبار مجموعة ، ص ٣٧ ــ ٣٨ ٠

وأخيرا قبل ابن قطن مضطرا — « (ولم ير شيئا ..) أعــز له من الاستمداد بأهل الشام » — الموافقة على نزول بلج ورجاله الى الأندلس ، ولكن بعد أن ثار البربر بالأندلس. واقتدوا بأصحاب ميسرة فحلقوا رؤوسهم(٢٠٨)، وقتلوا العرب ، وعجزت قواته عن قمع ثورتهم . وقبل ابن قطن ذلك شريطة أن يدفعوا له رهنا من قوادهم ، وعلى أن يعود أهل الشام ، بعد فراغهم من حرب البربر في الأندلس ، في نحو سنة ، الى افريقية جملة دون أن يفرقهم او يعرضهم للبربر(٢٠٩) .

الخوارج في المغرب الأدنى :

ووصلت أنباء الهزيمة الموجعة الى دمشق فكان لها رنة حزن عميق ، وأسف هشام بن عبد الملك على ما أصاب عصبيته من أهل الشام ، وتمنى لو أنه كان أضاف اليها قوات من أهل العراق وغيرهم « لئلا يؤتى جيشه من قلة »(٢١٠) . وحق للخليفة أن يأسف ، وحق له أن يحلف « لئن بقي ليخرجن اليهم مائة ألف كلهم يأخذ العطاء ، ثم ليخرجن مائة ألف ، ثم ليخرجن حتى اذا لم يبق غير نفسه وغير بنيه ، أقرع بينه وبينهم ، ثم أخرج نفسه ان وقعت عليه القرعة »(٢١١) .

والحقيقة ان انتصارات البربر الرائعة على جيوش الخلافة الكبيرة ، كانت نذيرا باشتعال الثورة في كل بلاد المغرب من طرابلس الى الاندلس ، كمــا كانت تعني انتصار المذهب الخارجي بشكل ستكون له آثاره الدائمــة في البلاد . فبعد مسير كلثوم الى طنجة ، انتقض البربر الخوارج في أقاليم نفزاوة، ما بين صبرة (سبراتة) وقابس . بمعنى أن القيروان أصبحت محصورة بين الثوار من الغرب والشرق أيضا . ففي منطقــة قابس ثار عكاشة بن أيوب الفزاري الزناتي ، وهو خارجي صفري ، وارسل أخا له نحو مدينة صبرة من طرابلس . حيث جمع قبائل زناتة في المنطقة ، وسار بهم نحو المدينة الجديدة

---

(٢٠٨) أخبار مجموعة ، ص ٣٨ ، ٤٠ ، وقارن ابن خلدون (ج ١ ص ١١٩) الذي يقول عن بربر ميسرة : « وقد فحصوا عن أوساط رؤوسهم » .

(٢٠٩) أخبار مجموعة ، ص ٣٨ — ٣٩ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٥٦ . ابن الأثير ، سنة ١٢٣ .

(٢١٠) أخبار مجموعة ، ص ٣٦ .

(٢١١) نفس المصدر .

التي عرفت بسوق سبرت • والظاهر أنه اختار يوم الجمعة حيث اجتمع الناس ، وعلى رأسهم عاملهم حبيب بن ميمون ، في المسجد الجامع ، وضرب عليهم الحصار – كما يفهم من رواية ابن عبد الحكم(٢١٢) • ووقع تخليص صبرة الجديدة من أيدى الثوار على كاهل والى طرابلس ، وهو صفوان بن أبي مالك ، الذي خرج ونجح فعلا في هزيمة أخي عكاشة ، الذي فر الى أخيه بقابس ، بعد أن ترك كثيرا من أصحابه الزناتية وغيرهم قتلى فى أرض المعركة(٢١٣) •

أما عن تأديب خوارج منطقة قابس – وهي من أرض افريقية – فانه آل الى النائب الثاني لكلثوم بن عياض في افريقية ، وهو مسلمة بن سوادة القرشي • وخرج مسلمة فى أهل القيروان الى عكاشة ، ولكنه لم يكن حسن الطالع مثل صفوان ، اذ انهزم أمام الفزارى ، وعاد الى القيروان بعد أن فقد كثيرا من أصحابه • بينما لاذ بعضهم بمدينة قابس • هذا ما يفهم من رواية ابن عبد الحكم الذى يقول ، بعد أن يذكر عودة مسلمة الى القيروان : « وتحصن عامة من كان مع مسلمة من أهل القيروان ، وعليهم سعيد بن بجرة الغساني »(٢١٤) • وينص ابن خياط على أن عكاشة رجع الى مدينة قابس حيث كان عبد الأعلى بن عقبة مع سعيد بن بجرة فى عسكر القيروان ، وضرب عليهم الحصار •• ويفهم من الرواية أن هزيمة مسلمة في قابس كانت سببا في اضطراب عسكر قابس الذين التفوا ، فى حصن المدينة ، حول الزعيم الشامي « أبو الخطار الكلبي » وعهدوا اليه بالقيادة ، ولكنهم عادوا ورضخوا لضغط أهل القيروان الذين تماسكوا بنائبهم القاضى عبد الرحمن بن عقبة(٢١٥) • ويورد ابن عبد الحكم بعد ذلك رواية تقول : ان صفوان بن أبي مالك ، والى طرابلس ، خرج بناء على أوامر كلثوم الذى كتب اليه يستمده . وأن صفوان

---

(٢١٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٩ . وقارن ابن الأثير ، سنة ١١٧ •

(٢١٣) نفس المصدر •

(٢١٤) أنظر ابن عبد الحكم . ص ٢١٩ – حيث القراءة مسلمة بن سوادة القرشى فى نفس الصفحة ، ومسلمة بن سوادة الجذامي في ص ٢٢١ • أما سعيد بن بجرة فيكتب فى ص ٢٢١ فى شكل سعيد بن بحرة . وقارن الرقيق ، ص ١١٤ (حيث توجد أسطر في الرواية المنثورة تشير الى هزيمة مسلمة ، ورحيل عكاشة « الى المكنسة ، وهي من حدود تهودة مما يلي سبيبة » – وهو ما يمكن أن يكون قد حدث اثر هزيمة عكاشة فيما بعد •

(٢١٥) تاريخ خليفة بن خياط . ج ٢ ص ٣٧٠ • وأغلب الظن أن سوء معاملة كلثوم وابن أخيه بلج لأبي الخطار واليمنية فى افريقية هي التي جعلت أبا الخطار يقف هذا الموقف المعادي من غالب كلثوم • والمرجح أن يكون شعر أبي الخطار الذى وجهه الى الأمويين وهو يشكو تحيزهم الى القيسية قد قيل في هذه الفترة (أنظر فيما سبق ، ص ٢٧٥ – ٢٧٧) •

عندما وصل الى قابس انتهى اليه خبر مقتل كلثوم فانصرف(٢١٦) .

والظاهر أنه كان قد تم الاتفاق مسبقا بين والى طرابلس ونواب كلثوم بالقيروان على الانسياق على عكاشة في قابس . فبينما كان صفوان يسير في اتجاه قابس ، كان سعيد بن بجرة ، ومن تحصن معه من أصحاب مسلمة بن سوادة قد خرجوا اليه من قابس . وعندما أحس الفزارى بأنه قد يقع بين شقى الرحى تنحى عن قابس ، واتخذ مواقع جديدة له على نهر يقال له الجمة على بعد ١٢ (اثنى عشر) ميلا من قابس . ولكنه لما رجع صفوان الى طرابلس (اثر سماعه بنكبة كلثوم) رأى سعيد بن بجرة أن يسرع بقواته الى قابس حيث احتمى بأسوارها خوفا من عكاشة . ولكن فلول المنهزمين في طنجة من جيش كلثوم أتت لتنقذ الموقف الصعب . فلقد نهض بهم عبد الرحمن بن عقبة الغفارى ، نائب كلثوم على الصلاة ، بعد أن استخلف على القيروان عبد الحميد بن ذويب ، والتقى بعكاشة فيما بين قابس والقيروان ، في موضع يعرف بـ « الفحص الأبيض » ، وهزمه في صفر سنة ١٢٤ هـ/ديسمبر ٧٤١ — يناير ٧٤٢ م ، فلحق الصفرى بطبنة عاصمة الزاب(٢١٧) .

و — حنظلة بن صفوان : انتقام الخلافة في وقعتى الأصنام والقرن :

في هذه الظروف الصعبة عجل الخليفة هشام بن عبد الملك بتعيين والى مصر حنظلة بن صفوان الكلبى ، أخى بشر بن صفوان ، واليا على المغرب ، وأمره بالمسير الى ولايته . وخـــرج حنظلة من مصر في ٣٠ (ثلاثين) ألف رجل(٢١٨) ، في ٧ من ربيع الآخر سنة ١٢٤ هـ/١٨ فبراير ٧٤٢ م(٢١٩) ، ووصل الى افريقية بسرعة في أواخر هذا الشهر(٢٢٠) ، ثم سير اليه هشام

---

(٢١٦) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٦ .

(٢١٧) أنظر تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٧٠ — ٣٧١ ، ابن عبد الحكم ، ص ٢٢١ ، النويرى ، المخطوط ، ص ٨٦ أ ، وقارن الرقيق ، ا ص ١١٤) حيث الاشارة الى أن انتصار قاضى القيروان عبد الرحمن بن عقبة على عكاشة كان في موضع الكنسة ، الذى كان قد انسحب اليه عكاشة عقب انتصاره على مسمة على حدود تهودة . والأرجح ان يكون انسحاب عكاشة الى ذلك الموضع قد حدث عقب هزيمته أمام عبد الرحمن ابن عقبة الغفارى .

(٢١٨) أخبار مجموعة ، ص ٣٦ .

(٢١٩) الكندى ، ص ٨٢ ، عن ولاية حنظلة الثـــانية على مصر فانظـــر ص ٨١ — ٨٢ ، ابن الأثير ، سنة ١٢٤ ، النويرى ، المخطوط ، ص ٨٦ أ ، وقارن الرقيق ، ص ١١٥ .

(٢٢٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٨ ، قارن ابن عبد الحكم ، ص ٢٢١ ، وابن خياط (ج ٢ ص ٣٧١ ، ٣٧٦ ، الذى يجعل وصوله في النصف من الشهر التالى — جماد الأول ، أخبار مجموعة ، ص ٣٦ حيث يحدد ذلك بسنة ١٢٣ هـ .

بعد ذلك ٢٠ (عشرين) ألف رجل(٢٢١) . ورغم ما يقوله ابن عذارى من أن صفرية المغرب توجهوا بعد مقتل كلثوم يريدون القيروان لاستباحتها ونهبها ، وهم في ٣٠٠ (ثلاثمائة) ألف رجل ، وأن أهل القيروان هزموهم ، وكانوا في ١٢ (اثني عشر) ألفا فقط(٢٢٢) ، فالظاهر أنه يقصد خوارج طرابلس وافريقية ، وذلك أن الخطر الذى هدد القيروان فى ذلك الوقت أتى من جانب عكاشة بن أيوب الفزارى ، ثم من حليفة عبد الواحد بن يزيد الهوارى (ثم المدهمى) ، وكان صفريا هو الآخر . وهذا لا يمنع ، بطبيعة الحال ، من وجود علاقات قوية بين خوارج طنجة وخوارج افريقية(٢٢٣) .

وفيما يتعلق بخوارج طنجة فيورد المالكى رسالة ينسب كتابتها الى العشرة التابعين الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز ، باسم حنظلة بن صفوان ، الى أهل طنجة : « ليقتدى بها المسلمون ويعتقدون ما فيها »(٢٢٤) . وهذه الرسالة تبين طبيعة ما تدعو اليه آيات القرآن من الأمر بالمعروف ، والزجر عن المنكر ، والتبشير بالجنة ، والانذار بالنار ، كما توضح أن من يحلل الحلال ويحرم الحرام ، مع الطاعة الواضحة والنية الصالحة ، « فقد أفلح وأنجح ، وحيا حياة الدنيا والآخرة »(٢٢٥) . وهذه الرسالة وان كان يمكن الشك فى أصالتها من حيث الشكل فانها مقبولة من حيث الموضوع اذ تبين أن حنظلة استخدم السياسة لدعوة ثوار طنجة الى الدخول فى الطاعة سلميا .

وفيما يتعلق بعكاشة فان حنظلة سير اليه عبد الرحمن بن عقبة الغفارى الذى نزل بلاد الزاب في شهر رمضان/أغسطس ، وتمكن من هزيمته ومن

---

(٢٢١) أخبار مجموعة ، ص ٣٦ .

(٢٢٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٦ .

(٢٢٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٢ ، وانظر الرقيق ، ص ١٥ — ١٦ ، ١٨ . ابن الأثير سنة ١٧٧ (يسميه « المدغشى ») . النويرى ، المخطوط ، ص ٨٦ أ ، وكذلك ص ٨٦ ب حيث يقول ان عبد الواحد كان فى ٣٠٠ « ثلاثمائة » ألف رجل . وقارن ابن خياط (ج ٢ ص ٣٣٠ — ٣٧١) : حيث الاشارة الى أن الذى وجه عبد الواحد بن يزيد الهوارى الى افريقية من أعلام الصفرية فى المغرب الأقصى : خالد بن حميد — خليفة ميسرة .

(٢٢٤) المالكى ، رياض النفوس ، ترجمة سعيد بن مسعود التجيبى رقم ٣١ ، ج ١ ص ٦٧ ، وعن التابعين العشرة انظر فيما سبق ، ص ٢٦٥ — ٢٦٦ .

(٢٢٥) المالكى ، رياض النفوس ، ج ١ ص ٦٧ .

معه من الصفرية من جديد مرتين (٢٢٦) ، واخرجه من طبنة . ولكنه عندما انضم عبد الواحد بن يزيد الهوارى الى عكاشة لم يستطع عبد الرحمن بن عقبة ، وهو فى أهل الزاب ، من الوقوف أمامها ، فانهزم وقتل ، وذلك فى منتصف ذى القعدة من نفس سنة ١٢٤ هـ/٢١ سبتمبر ٧٤٢ م(٢٢٧) .

والظاهر أن ذلك الانتصار الذى حققه الصفرية على قوات القيروان فى اقليم الزاب كان السبب فى بدء النزاع بين عكاشة وعبد الواحد على من تكون له الرئاسة منهما . والظاهر أن عبد الواحد بدأ يعمل لحسابه الخاص ، فوجه أنظاره نحو مدينة تونس ، . وعندما سير اليه حنظلة بن صفوان قائده ثابت ابن خيثم ليقطع عليه الطريق تمكن عبد الواحد من هزيمة جيش القيروان وقتل ثابت ، وذلك فى أول صفر سنة ١٢٥ هـ/٤ ديسمبر ٧٤٢ م . وهنا اتضح لحنظلة صعوبة التمسك بمدينة تونس ، فترك لواليها المستنير بن الحبحاب الحرشى حرية الدفاع عنها أو الجلاء ، ففضل المستنير الخروج منها ، وقدم الى القيروان بعائلات الجند(٢٢٨) .

وهكذا تهيأت مدينة تونس للسقوط كثمرة ناضجة بين يدى عبد الواحد الذى استولى عليها ، وهناك بايعه أصحابه(٢٢٩) . ورغم ما تنص عليه رواية خليفة بن خياط من أن مبايعة عبد الواحد بالخلافة فى تونس لم تلق قبولا حسنا لدى خالد بن حميد ، امام الصفرية فى طنجة ، وأن هذا الأخير سير واحدا من قواده ، هو عبد الأعلى المعروف بزرزور ، مولى موسى بن نصير ، فى الخيل « وأمره أن يحل لواء عبد الواحد وأن يولى أمر أصحابه »(٢٣٠) ، فمن الواضح أن كلا من عبد الواحد وعكاشة كان يعمل فى افريقية لحسابه الخاص . والظاهر أن الزعيمين الصفريين فكرا فى أن من تكون له الامامة حقا هو الذى

---

(٢٢٦) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٢ ، ابن خياط ، ج ٢ ص ٣٧٠ .

(٢٢٧) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٢ ، ابن خياط ، ج ٢ ص ٣٧١ (حيث الاشارة الى أنه قتل مع عبد الرحمن بن عقبة : مروان بن عثمان الغسانى ، ومحمد بن يوسف فى بشر ، كما استولى عبد الواحد على عيالات أهل طبنة) ، وانظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٨ الذى ينقل الرقيق ، ص ١١٦ (حيث يقول النص أن عكاشة وعبد الواحد افترقا من الزاب) ، وقارن النويرى ، ص ٨٦ ا والترجمة ج ١ ص ٣٦٣ .

(٢٢٨) انظر تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٧١ .

(٢٢٩) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٢ (يقول ابن عبد الحكم انه سلم عليه « بالخلافة » والأصح « بالامامة » كما كانت عادة الخوارج فى ذلك الوقت) .

(٢٣٠) انظر ابن خياط ، ج ٢ ص ٣٧١ .

يستولى على القيروان أولا ، وذلك أنهما بدآ فى سباق نحو العاصمة الافريقية(٢٣١) . فسار اليها عكاشة على طريق مجانة (على الحدود التونسية الجزائرية) بينما أخذ عبد الواحد على طريق جبال باجة وعلى مقدمته قائده أبو قرة المغيلى(٢٣٢) ، وأرسل انذارا الى حنظلة باخلاء القيروان(٢٣٣) .

ويرجع الفضل الى القطعة الجديدة التى اكتشفت من تاريخ الرقيق فى اضافة معلومات تفصيلية أهملتها كتب الذين نقلوا من الرقيق ، كما لا نجد لها ذكرا فى رواية ابن عبد الحكم التى تعتبر اقدم رواية كاملة عن هذه الأحداث والتى يظهر أثرها فى رواية الرقيق فى كثير من المواضع ، مما دعانا الى اعتماد الترتيب الزمنى الذى قرره ابن عبد الحكم لتلك الأحداث ، والذى يجعل وقعة الأصنام قبل وقعة القرن ، على عكس رواية الرقيق وجمهرة الكتاب الذين نقلوا عنه . ولو أن رواية الرقيق تشير فعلا الى أخذ عكاشة بعد مقتل عبد الواحد ، الى جانب تفصيلات عن معركة القيروان، الأمر الذى يظهر أيضا فى النويرى(٢٣٤)

ففيما يتعلق بحرب عبد الواحد يضيف الرقيق رواية لعمر بن غانم تقول: ان حنظلة أرسل اليه فى منطقة باجة جيشا عظيما يبلغ عدده ٤٠ (أربعين) الف فارس – حسبما تبالغ الرواية على ما نظن – بقيادة رجل من لخم . ويفهم من الرواية أن المنطقة الجبلية الوعرة لم تكن مناسبة لقتال الخيالة التى انهزمت بعد شهر من القتال فى ظروف غير مواتية ، منها : افتقاد العلف للخيل الى جانب وعورة الأرض . ومن الراجح أن الرواية تبالغ أيضا عندما تقول أن القائد اللخمى عندما عاد مهزوما من باجة الى القيروان دفعة واحدة ، أحصى فرسانه فوجد أنه فقد نصف قوته ، أى ٢٠ (عشرين) ألف فرس ، وان كان ذلك بسبب المرض الذى تفشى فى الخيل نتيجة لاطعامها القمح بدلا من الشعير(٢٣٥) .

---

(٢٣١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٢ .

(٢٣٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٨ . وقارن الرقيق ، ص ١١٦ (حيث الاسم أبو عمرة المغيل) ، ابن عبد الحكم (ص ٢٢٢) (حيث الاسم أبو قرة المغيلى ، النويرى (ص ٨٦ أ والترجمة ج ١ ص ٣٦٣) حيث القراءة – عن الرقيق – « أبو عمرة المبيل » ثم « المعكى » .

(٢٣٣) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٢ .

(٢٣٤) الرقيق ، ص ١٢٢ ، النويرى ، ص ٨٦ ب ، والترجمة (ص ٦٣٤) .

(٢٣٥) أنظر الرقيق ، ص ١١٨ ، وقارن ابن الأثير (أحداث سنة ١١٧ هـ) الذى ينقل عن الرقيق ، وكذلك النويرى (المخطوط ، ص ٨٦ ب) .

وعندما وصل نبأ زحف البربر في جموعهم الحديدة الى القيروان توقع الناس سوء المصير ، وظنوا أنهم سيسبون ، فسرى الفزع والرعب في المدينة حتى أن الرسول لم يكن يخرج من عند حنظلة الى مسيرة ٣ (ثلاثة) أميال ليأتيه بالأخبار الا بخمسين دينارا(٢٣٦) . وانتهى الأمر بأن توقف عسكر كل من عبد الواحد وعكاشة بالقرب من القيروان : الأول على بعد مرحلة ، في موضع يعرف بالأصنام — لوجود آثار وتماثيل قديمة في المكان على ما نظن — ، والثاني على مسافة ستة أميال بموضع يعرف بالقرن(٢٣٧) . ولا نعرف ان كان ذلك قرب الجبل الذي يعرف بهذا الاسم حيث كان قيروان معاوية بن حديج(٢٣٨) . واستعد حنظلة ورأى أن يتخذ موقفا دفاعيا في القيروان ، فحفر لها خندقا ، وفكر في أن يطلب المدد من الخلافة ، ولكن مستشاريه نصحوه بالخروج وملاقاة العدو(٢٣٩) ، فكتب الى واليه على طرابلس ، معاوية بن صفوان ، بالخروج لمعونته(٢٤٠) .

الأصنام :

وانتهز حنظلة فرصة اختلاف عدويه ، وقرر لقاء كل منهما على حدة . وفي سبيل ذلك عمل على الا يتفقا ضده من جديد ، فراسل عكاشة ، وأخذ يرهبه ويمنيه(٢٤١) . وأخرج حنظلة كل ما كان في خزائنه من الأموال والسلاح

---

(٢٣٦) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٢ ، وقارن الرقيق (ص ١١٩) حيث النص على أن حنظلة كان يدفع خمسين دينارا كعطاء للجند الذين أخرجهم لقتال عبد الواحد ، فلما كثروا أنقصهم الى ٤٠ (أربعين) ثم الى ٣٠ (ثلاثين) .

(٢٣٧) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ . وانظر الرقيق ، ص ١١٨ (الذي ينقل عنه النويري (ص ٨٦ ب والترجمة ج ١ ص ٣٦٣) الذي يجعل الأصنام في بلد جراوة على بعد ٣ ميال من القيروان .

(٢٣٨) أنظر فيما سبق ، ص ١٧١ . والظاهر أنه كان في البلاد أكثر من موضع عرف بالأصنام وبالقرن : فالادريسي (ص ١٣٤) يذكر موضعين بين قصور حسان وسرت يعرفان بهذين الاسمين . وعن امكانية أن يكون المقصود بالأصنام موضع جلولاء حيث كانت المعركة ، أنظر فيما بعد ، ص ٣٠٨ .

(٢٣٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٨ ، وقارن أصل الرواية في الرقيق ، (ص ١١٦) حيث ينص على أن الذي رفض فكرة اقامة الخندق ، وحرص على الخروج الى العدو ، هو : عمرو بن عثمان القرشي الذي كان شابا حدث السن .

(٢٤٠) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٣ .

(٢٤١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٣ (وربما كان موضوع تلك المراسلة هذا الخطاب الذي ترجمه ثالكي والذي قال ان حنظلة أرسله الى بربر طبنة (أنظر فيما سبق ص ٣٠٣) .

وفرقها في أهل القيروان الذين أقبلوا على الانخراط في قواته حتى أنه عبأ في ليلة المعركة ٥ (خمسة) آلاف دارع وخمسة آلاف نابل ، مما جعله ينقص العطاء بشكل مطرد من ٥٠ (خمسين) الى ٤٠ (أربعين) ثم الى ٣٠ (ثلاثين) دينارا ، كما أنه صار ينتخب المتطوعين فلم يعد يقدم الا الشباب القوى(٢٤٢).

وهكذا أخرج حنظلة قوات أهل القيروان لحرب عبد الواحد ، وعلى رأسهم محمد ابن عمرو بن عقبة(٢٤٣) . وتحت امرته ، على المقدمة (الطلائع) ، شعيب بن عثمان ، وعلى المؤخرة (الساقة) عمرو بن حاتم ، وعلى الميمنة عبد الرحمن ابن مالك الشيباني(٢٤٤) ، وهم مصممون على الحرب الكلية ، حرب المستقتل اليائس : فاما كسب المعركة من الصفرية واما خسارة كل شيء من ذرارى ونساء وأموال(٢٤٥) . وبدأ حنظلة بأقرب وأخطر عدوية وهو عبد الواحد ابن يزيد الهوارى ، فصبحه على حين غرة بالأصنام . وكانت معركة مجيدة بالنسبة لعرب القيروان . فلقد اصطف الجيشان قلبا وميمنة وميسرة حسب تكتيك المعارك في ذلك الوقت ، وقام العلماء في أهل القيروان يحثونهم على الجهاد ، وخرج اليهم نساؤهم يحرضنهم على حسن القتال ، وبعد المبارزة بين بعض الأبطال « التحم القتال ، وتداعى الأبطال ، ولزم الرجالة الأرض ، فلا نسمع الا وقع الحديد على الحديد ، وتقابض الأيدى بالأيدى »(٢٤٦) . وبدأت المعركة بهجوم ميمنة عبد الواحد على ميسرة حنظلة فكسرتها . ولكن القيروانيين نجحوا بدورهم في هزيمة ميسرة البربر وقلبهم ، ثم أتبعوا ذلك بالهجوم على ميمنتهم المنتصرة فحطموها ، فكانت هزيمة عبد الواحد الذى قتل في

---

(٢٤٢) أنظر الرقيق ، ص ١١٩ ، وقارن النويرى ، المخطوط ، ص ٦٨ ب ، والترجمة ج ١ ص ٣٦٤ .

(٢٤٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٩ .

(٢٤٤) أنظر الرقيق ، ص ١١٩ – ولو ان الرواية لم تذكر لمن كانت قيادة الميسرة .

(٢٤٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٩ ، وقارن الرقيق ، ص ١٢٠ (حيث الاشارة الى تحريض الفقهاء لجند القيروان على الجهاد ، وكيف انهم « ذكروا مذهب عدونا الخوارج وعظم ما يريدونه بنا من السبي وهتك الحريم وسفك الدم ، وانه ليس ملجأ بعد هذا المقام » . والى جانب ذلك يشير النص الى خروج نساء القيروان أيضا وقد عقدن الألوية وحملن السلاح ، وحلفنا (حلفن) لأزواجهن : لئن انهزم أحد منكم الينا موليا عن العدو لنقتله . وعلمن ما يردن (يريد) بهن الصفرية من السبي والعبودية ... » .

(٢٤٦) ابن عذارى ج ١ ص ٥٩ وقارن الرقيق ، ص ١٢١ – ١٢٢ ، وانظر ابن الأثير سنة ١١٧ .

المعركة(٢٤٧) . وتتبع العرب أصحابه الصفرية حتى جلولاء يقتلونهم قتـــلا « ما يدرى ما هو ، وهرب من هرب منهم »(٢٤٨) . ومن الجائز أن يكون المقصود بالأصنام ، فعلا ، هو جلولاء لوجود الآثار القديمة بها ، كما يرى جاتو(٢٤٩) .

القـــرن :

والذى يفهم من النصوص أنه ما أن انتهى حنظلة من القضاء على عبد الواحد حتى سار برجاله المظفرين نحو عكاشة فى موضع القرن ، قبل أن يبلغه نبأ مصرع حليفه بالأمس ، ومقاتل اخوانه صفرية هوارة . وانقض القيروانيون بكل ما بعثه فيهم النصر من الحماس والقوة على عكاشة الذى أخذ من هول المفاجأة ، ولكنه لم ينهزم الا بعد جولات من الكر والفر يصفها الرقيق وصفا رائعا عندما يقول : « وكانت النساء قد ركبن ظهور البيوت بالقيروان ، فاذا رأين الغبار (غبار المعركة) سائرا الى الجبل كبرن وسجدن ، واذ رأينه مقبلا (نحو القيروان) صرخن واستغثن(٢٥٠) . وأخيرا تمت الهزيمة على أصحاب عكاشة الذى فر من ميدان المعركة ، ولكنه أخذ وجىء به أسيرا الى حنظلة الذى قتله ، وخر لله ساجدا شاكرا(٢٥١) .

---

(٢٤٧) أنظر الرقيق ، ص ١٢٢ (حيث اشارة تفصيلية الى هزيمة مسيرة العرب الى ما وراء قصر الماء) ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٩ ، وقارن ابن الاثير (سنة ١١٧) ، وكذلك النويرى (المخطوط ، ص ٨٦ ـ والترجمة ج ١ ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤) حيث هزيمة عبد الواحد بعد هزيمة عكاشة . ولو أنه توجد فى الرقيق ، بعد ذكره الأصنام اشارة الى مقتل عكاشة بعد عبد الواحد الى جانب تفصيلات عن وقعة القرن ، مما يؤيد أن معركة الاصنام كانت سابقة عن وقعة القرن .

(٢٤٨) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٣ ، وقارن الرقيق ، ص ١٢٢ ، وابن الأثير سنة ١١٧ . ومن الجائز أن يكون المقصود بالأصنام هو جلولاء لوجود الآثار القديمة بها كما يرى جاتو (ترجمة ابن عبد الحكم هامش ١٥٩ مكرر) .

(٢٤٩) انظر ترجمة ابن عبد الحكم ، هامش ١٥٩ مكرر .

(٢٥٠) الرقيق ، ص ١١٧ ، وحيث نجد ذكرا لمشاركة حبيب بن أبى عبيدة فى هذه المعركة مع أنه من المعروف أنه كان قد قتل فى معركة بقدورة (انظر فيما سبق ص ٢٩٧ وهـ ١٩٤ ص ٢٩٨) ، وهذا ما نص عليه الرقيق نفسه بعد ذلك (ص ٢٢٣) .

(٢٥١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٣ ، وقارن الرقيق الذى يجعل هزيمة عكاشة قبل هزيمة عبد الواحد (ص ١١٦) ثم يعود لينهى الرواية بمقتل عكاشة مع تفصيلات عن وقعة القرن بعد مقتل عبد الواحد ، (ص ١٢٢) . وهذا ما يظهر فيما ينقله عنه النويرى والمخطوط ، ص ٨٦ أ والترجمة ج ١ ص ٣٦٣ ثم ص ٨٦ ب والترجمة ص ٣٦٤ ، وابن الأثير (سنة ١١٧) . أما ابن عذارى فمع أنه يجعل هزيمة عكاشة أولا (ص ٥٨) فانه يجمع القرن والأصنام بعد ذلك =

وهكذا تم النصر الذى أحرزه حنظلة فى وقعة « الاصنام » بالظفر فى وقعة « القرن » وذلك فى أواخر سنة ١٢٤ هـ/٧٤٢ م(٢٥٢) أو أوائل سنة ١٢٥ هـ/٧٤٣ م(٢٥٣) . وبذلك ثار العرب لهزائمهم من البربر فى طنجة ، وفى « الأشراف » (شلف) ، وفى « بقدورة » (سبو) ، وكان للنصر رنة فرح عميقة فى المشرق حتى بالغ الكتاب فى عدد القتلى من بربر الصفرية ، فقالوا انهم بلغوا ١٨٠ (مائة وثمانين) ألفا(٢٥٤) . ولقد علق فقيه مصر وراويتها المشهور ، الليث بن سعد ، على ذلك النصر فاعتبره من انتصارات الاسلام الفاصلة حتى قارن الوقعة بغزوة بدر اذ قال : « ما من غزوة كنت أحب أن أشهدها ، بعد غزوة بدر ، أحب الى من غزوة القرن والاصنام(٢٥٥).

تاديب خوارج طرابلس :

وأتبع حنظلة القضاء على خوارج افريقية بتأديب خوارج نفزاوة . فعندما هدده الصفرية فى القيروان ، كان قد أرسل الى واليه على طرابلس ، وهو معاوية بن صفوان ، يطلب منه المدد . وخرج ابن صفوان بجنـد طرابلس لنجدته ، ولكنه ما أن وصل الى قابس حتى أتته أنباء القضاء على الثوار فى الأصنام والقرن(٢٥٦) ، وأتته الأوامر من حنظلة بمطاردة خوارج البربر فى نفزاوة ، وكانوا قد هاجموا أهل الذمة هناك وسبوهم . وسار معاوية بن صفوان نحو الثوار ، ونجحت قواته فى هزيمتهم « واستنقاذ ما كانوا قد أصابوه من أهل الذمة ، ولكن معاوية دفع حياته ثمنا لهذا النصر ، وعين حنظلة أحد أبناء عصبيته ، وهو زيد بن عمرو الكلبى قائدا لجيش ابن صفوان ، فعاد به الى طرابلس(٢٥٧) .

=فى معركة واحدة (ص ٥٩) . اما ترتيب ابن عبد الحكم الذى اخذنا به فهو أوثق وأوضح (انظر هامش ١٩٥ من ترجمة جاتو) .

(٢٥٢) اخبار مجموعة ، ص ٣٧ .

(٢٥٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٣ .

(٢٥٤) أنظر الرقيق ، ص ١٢٢ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٥ ، ابن الأثير سنة ١١٧ ، النويرى ص ٨٦ ب والترجمة ، ج ١ ص ٣٦٤ . (ولم يمكن عدهم الا بعد أن طرح على كل قتيل قصبة ثم جمعت القصب فكانت ١٨٠ الفا — والرقيق يذكر أن عملية العد الغريبة هذه تمت بعد مقتل عكاشة) .

(٢٥٥) أنظر الرقيق ، ص ١٢٢ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٩ ، النويرى ، ص ٨٧ أ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ١١٧ (ما غزوة الى الآن أشهد بعد غزوة بدر من غزوة العرب بالأصنام) .

(٢٥٦) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٣ .

(٢٥٧) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٣ .

ووصلت أنباء النصر على أعداء الخلافة الى هشام بن عبد الملك ، وهـــو يجود بأنفاسه على فراش المرض فى سنة ١٢٥ هـ/٧٤٣ م . وبذلك بر هشام بقسمه ، وثارت الدولة الأموية من خصومها في المغرب ، ولكنها كانت يقظة أشبه بصحوة الموت . فهشام كان آخر عظماء خلفاء بني أمية ، وكان جده وكفاحه ، في سبيل المحافظة على وحدة الدولة العربية ، سببا فى أن قيل فيه على لسان المنصور العباسى انه «رجل القوم» . فلقد خلف هشاما عدد من الأمراء الضعاف الذين لم يرتفعوا الى مستوى الأحداث ، فشهدوا اضمحلال الدولة ثم مصرعها . حقيقة ان الثورة التى أضرمت المغرب نارا تشتعل أمكن ايقافها ان لم يكن التغلب عليها ، ولكنه فى الوقت الذى كانت الدولة تقضى على خصومها الخوارج فى المغرب ، كانت الدعوة الى آل البيت فى المشرق تقوى وتخرج من دور المعارضة الصامتة الى دور الثورة الرائعة . وكان لانشغال الأمويين فى الصراع ضد العباسيين فى المشرق آثاره على بلاد المغرب التى تركت لمصيرها ، فانقطعت العلاقة بينها وبين دمشق ، وتغلب على أقاليمهـــا المتغلبون من خوارج ومغامرين وغيرهم .

الباب الرابع

مابين الاستقلال والتبعية للخلافة

أحوال المغرب على أواخر الأمويين وقيام العباسيين

الفصل الأول : الفهريون بنو عقبة بن نافع افريقية .

الفصل الثانى : العصر الذهبى للخوارج :
المغرب ما بين الصفرية والاباضية .

الفصل الثالث : المهلبيون فى افريقية .

الفصل الأول

الفهريون بنو عقبة بن نافع في إفريقية

١ - عبد الرحمن بن حبيب الفهرى والعودة من الأندلس :

بعد أن هزم حنظلة بن صفوان الخوارج في افريقية سنحت له الفرصة لكى يمد سلطان الخلافة من جديد الى الأندلس ، وكانت قد اضطربت منذ ثورة البربر بها سنة ١٢٢ هـ/٧٤٠ م · ثم بنزول أهل الشام اليها بقيادة بلج ابن بشر · فقد طلب عقلاء أهل الأندلس من حنظلة أن يرسل اليهم واليا ينشر السلام ويقر الأمور ، فأرسل اليهم أحد أبناء عصبيته ، وهو أبو الخطار الحسام ابن ضرار الكلبى ، الذى كان عاملا لأخيه بشر بن صفوان من قبل فى المغرب ، والذى كان قد بويع أميرا لفترة ما في قابس بعد محنة كلثوم بن عياض(١) ·

ولما كان المغرب وقتئذ مضطربا أخذ أبو الخطار طريق البحر من تونس الى الأندلس ، فقدمها فى رجب سنة ١٢٥ هـ/مايو ٧٤٣ م(٢) ، ونجح بفضل سنه وعصبيته ، ولأنه من أعيان أهل الشام ، فى فرض سلطانه على الجميع · ولكن أبا الخطار ، في الوقت الذى ضبط الأندلس ، تسبب - من حيث لا يدرى - فى الاطـــاحة بزعيم عصبيته ورئيسه ، والى المغرب ، حنظلة بن صفوان · فقد كان ضمن الاجراءات التى اتخذها أبو الخطار اخراج زعماء الفتنة من الأندلس ، وكان من هؤلاء عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة ابن نافع الفهرى ، وثعلبة بن سلمة العاملى ، اللذان كانا مع بلج بن بشر فى سبتة ثم عبرا معه الى الجزيرة الخضراء · فقد كان هناك تحاسد وتنافس بين بلج بن بشر وعبد الرحمن بن حبيب منذ التقيا فى افريقية(٣) ، وحصـــل

---

(١) أنظر أخبار مجموعة ، ص ٤٥ ، وأنظر فيما سبق ، ص ٣٠١ وص ٢١٥ ·

(٢) أنظر أخبار مجموعة ، قائمة الولاة ، بالاسبانية ، ص ٢٤٢ ، وقارن ابن عذارى (ج ١ ص ٥٨) الذى يحدد ذلك برجب ١٢٤ هـ ·

(٣) أنظر فيما سبق ، ص ٢٩٥ ·

عبد الرحمن بن حبيب حقده على بلج الى الأندلس(٤) ، وحاول أن يتغلب على البلاد ، فاشترك في حرب بلج بن بشر عندما آلت اليه الرياسة ثم في مناهضة ثعلبة بن سلمة بعد بلج ، ولكنه فشل ·

وهكذا أخرج أبو الخطار من الأندلس عددا من زعماء جند الشام ، ممن انغمسوا في الفتنة ، منهم ثعلبة بن سلمة وعبد الرحمن بن حبيب(٥) · وسار ابن حبيب في البحر الى افريقية ، واستقر بتونس(٦) ، بينما لحق ثعلبة بحنظلة في القيروان(٧) ، وذلك في أواخر سنة ١٢٥ هـ/٧٤٣ م أو أوائل سنة ١٢٦ هـ ، أى قبل مقتل الخليفة الوليد ابن يزيد (جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ/مارس ٧٤٤ م) · فعندما وصلت أنبـــاء مقتل الوليد الى افريقية خرج ثعلبـــة وكبار قواد أهل الشام بافريقية الى المشرق(٨) · وكان اضطراب أمور الخلافة في الشام فرصة سانحة انتهزها عبد الرحمن بن حبيب ، لمحاولة تحقيق ما فشل فيه في الأندلس في بلاد المغرب ، حيث كان لوالده مقام مرموق ، كما رأينا ·

التغلب على القيروان :

قام عبد الرحمن في تونس ، « ودعا الناس الى نفسه فأجابوه »(٩) ،

---

(٤) أنظر ابن عبد الحكم (ص ٢٢) الذى يقول : ان عبد الرحمن بن حبيب تقدم أمام بلج الى الأندلس ··· « وأمر عبد الملك بن قطن الا يسمع لبلج ولا يطيعه » ·

(٥) أخبار مجموعة ، ص ٦٤ ، ابن عذارى ج ١ ص ٦٠ ، وقارن ابن الأثير سنة ١١٧ ، والنويرى ص ٨٧ أ : حيث ينقلان عن الرقيق (ص ١٢٢) ان عبد الرحمن خرج من الأندلس وهو مستتر أو خائف ·

(٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٠ ·

(٧) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٣ ·

(٨) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٣ ، وقارن ابن عذارى الذى يقول عن أحداث سنة ١٢٦ هـ/ ٧٤٣ - ٧٤٤ م « انه لم يكن في هذه السنة بافريقية أمر » (ج ١ ص ٥٩) ، والذى يقول بعد ذلك (نقلا عن الرقيق ، ص ١٢٣) ان نزول عبد الرحمن بن حبيب بتونس كان في جمادى الأولى سنة ١٢٧ هـ/فبراير ٧٤٥ م (ج ١ ص ٦٠ ، النويرى ، ص ٨٧ أ والترجمة ج ١ ص ٣٦٤) - والحقيقة ان ذلك كان وقت تغلبه على افريقية ، كما سنرى · ومما يرجح تاريخ ابن عبد الحكم هو أن ابن عذارى نفسه يضع تلك الأحداث تحت سنة ١٢٦ هـ/٧٤٣ - ٧٤٤ م ، قبل أن يذكر أحداث سنة ١٢٧ هـ/٧٤٤ - ٧٤٥ (ج ١ ص ٦٢)· هذا كما أن ابن خلدون يجعل استيلاء عبد الرحمن بن حبيب على افريقية في سنة ١٢٦ هـ/٧٤٤ م (أنظر العبر ج ٦ ص ١١١ والترجمة ج ١ ص ٢١٨) ·

(٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٠ ، وقارن الرقيق (ص ١٢٣) الذى ينقله النويرى ، =

ثم حشد قوة ، وأزمع طرد حنظلة من افريقية(١٠) . وفكر حنظلة في قتال عبد الرحمن ، ولكن ورعه غلب عليه ، ورأى أن يستخدم السياسة والمداراة في اقناع الفهري بالرجوع الى الطاعة ، واجتناب الفتنة(١١) . وأرسل حنظلة وفدا من ٥٠ (خمسين) رجلا من أعيان القيروان الى مدينة تونس لمفاوضة عبد الرحمن . وعندما أشرف الوفد على أبواب تونس ، وصلتهم أنباء ولاية مروان بن محمد الخلافة ، فأرادوا العودة من حيث أتوا ، ولكن عبد الرحمن ابن حبيب أسرع فأرسل جماعة من فرسانه ساقتهم اليه بتونس(١٢) . وتشير النصوص الى سوء معاملة عبد الرحمن لأفراد الوفد اذ أنه وضعهم في الحديد(١٣) .

وينفرد ابن عبد الحكم باشارة الى سبب سخط عبد الرحمن عليهم اذ يقول : « ووجد عبد الرحمن عليهم لخروجهم اليه ، وكانوا قد كاتبوه قبل ذلك سرا من حنظلة ، فلما بلغتهم ولاية مروان نزعوا عن ذلك »(١٤) . وهذا النص يبين أن زعماء القيروان وافقوا على مبايعة عبد الرحمن بن حبيب على افريقية في الوقت الذي اختلت فيه الخلافة بالمشرق ، فشغرت أو كادت بعد مقتل الوليد بن يزيد ، وعلى أيام قاتله يزيد بن الوليد ثم ابن هذا الأخير ابراهيم . فلما تم الأمر لمروان بن محمد اعترفوا بخلافته ، ورجعوا عما كانوا اتفقوا عليه مع عبد الرحمن . وهذا يعني أن أحداث الخلافة في المشرق كانت لها أصداؤها ــ وهذا أمر طبيعي ــ على الأحوال في المغرب .

والظاهر أن عبد الرحمن بن حبيب اعتبر ابتداء أن خروج وفد القيروان اليه ، ثم تقريرهم العودة الى حنظلة ، وهم على أبواب تونس ، اخلالا بما وعدوا به أو نكثا بالعهد يستحقون عليه العقاب ، فوضعهم في الحديد . ثم انه قرر

= ص ٨٧ أ (حيث النص على أن عبد الرحمن نزل أو عسكر في سمنجة بعد نزوله تونس) والترجمة ج ١ ص ٣٦٤ (حيث القراءة الصحيحة « سمنجة » بدل « سجوم ») ، وابن الأثير سنة ١٢٦ .

(١٠) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٣ .

(١١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٣ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٦٠ ، وقارن الرقيق ، ص ١٢٣ (النويري المخطوط ، ص ٨٧ أ والترجمة ، ج ١ ص ٣٦٥) .

(١٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٣ .

(١٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٣ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٦٠ ، وقارن الرقيق ، ١٢٤ (النويري ، المخطوط ، ص ٨٧ أ والترجمة ، ج ١ ص ٣٦٥) .

(١٤) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٣ .

العمل الايجابي نساق أفراد الوفد ، وهم في وثاقهم أمامه ، وسار نحــو القيروان وعسكر بالقرب منها(١٥) . وأرسل عبد الرحمن الى حنظلة انذارا يطلب فيه أن يخلي له العاصمة خلال ٣ (ثلاثة) أيام ، وأكثر من هذا حذر صاحب بيت المال من اعطاء حنظلة أكثر مما يستحقه من عطائه(١٦) . ولكي يقطع على حنظلة وأهل القيروان قيامهم بأي عمل من أعمال العنف ضده ، هددهم بقتل رهائنهم عنده ، فاعلن : « ان رمى أحد من أوليـائهم بحجــر قتلهم »(١٧) . وأسقط في يد الوالي الورع أمام دهاء خصمه المغامر الصعب المنال ، ورأى أن يحقن دماء المسلمين ، وأن يعود — كما فعل أهل الشام من قبله — الى المشرق . فدعا القاضي والشهود والعدول ، وفتح أمامهم بيت المال ، ولم يأخذ منه الا ألف دينار فقط ، وترك الباقي وقال : « لا أتلبس منه الا بقدر ما يكفيني ويبلغني »(١٨) . وفي شهر جمادى الأولى من سنة ١٢٧ هـ/ فبراير ٧٤٥ م ، خرج حنظلة في جماعة من أصحابه من القيروان غير آسف ، ودخلها عبد الرحمن بن حبيب(١٩) الذي منع الناس من السير مع حنظلة أو الخروج لتشييعه(٢٠) .

اعمال عبد الرحمن بن حبيب : ثورات الاقاليم :

وهكذا نجح عبد الرحمن بن حبيب في التغلب على افريقية ، وأخذ يعمل جاهدا على تثبيت أقدامه في البلاد حتى تكون مملكة له ، ولبنيه من بعده

---

(١٥) ابن عذاري ، ج ١ ص ٦٠ ، وقارن الرقيق ، ص ١٢٤ .

(١٦) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(١٧) ابن عذاري ، ج ١ ص ٦٠ (النويري ، ص ٧٨ ا والترجمة ، ج ١ ص ٣٦٥) ، وقارن ابن الأثير سنة ١٢٦ ، والرقيق ، ص ١٢٤ .

(١٨) ابن عذاري ، ج ١ ص ٦٠ ، وقارن الرقيق ، ص ٨٧ ، والترجمة ، ج ١ ص ٣٦٥) ،

(١٩) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٤ ، وانظر الرقيق (ص ١٢٤) الذي يجعل انصراف حنظلة في جمادى الآخرة سنة ١٢٧ هـ ، وقارن ابن عذاري ، (ج ١ ص ٦٠) الذي يجعل خروج حنظلة في جمادى الأولى من سنة ١٢٩ هـ . والظاهر أن ابن عذاري اختلطت عليه ولاية يوسف الفهري على الأندلس سنة ١٢٩ هـ (ص ٦٢) بولاية عبد الرحمن على افريقية سنة ١٢٧ هـ . ويقول ان حنظلة « دعا على عبد الرحمن وعلى أهل افريقية ، وقارن الرقيق (ص ١٢٥) الذي ينقله النويري ، ص ٨٧ ب والترجمة ج ١ ص ٣٦٥ ، الذي يورد رواية تبالغ في دعاء حنظلة على عبد الرحمن وعلى أهل افريقية التي وقع فيها الوباء والطاعون سبع سنين . وانظر ابن الأثير ، سنة ١٢٦ . أما رواية ابن خياط (ج ٢ ص ٣٨٥) فلم تحقق اذ النص فيها « على أن خروج حنظلة كان في سنة ١٠٩ هـ بدلا من ١٢٩ هـ .

(٢٠) أنظر الرقيق ، ص ١٢٤ — ١٢٥ ، وقارن ابن عذاري ، ج ١ ص ٦٠ ، النويري ، ص ٨٧ ب .

ولم يكن هذا الأمر من السهولة بمكان ، فالبلاد كانت مضطربة منذ سنة ١٢٢ هـ/٧٤٠م ، والحركة الخارجية كانت تزداد قوة وانتشارا مع مرور الوقت حتى طوقت القيروان أو كادت • ثم أتت أحداث الخلافة الأموية التي كانت تتهاوى تحت ضربات المسودة (العباسيين) وزادت الأمور اضطرابا ، وأخيرا كان تغلب عبد الرحمن نفسه على افريقية ـ على غير أساس شرعي ـ أنموذجا حاول غيره من المغامرين وأصحاب المصالح الشخصية السير على منواله • فبمجرد استيلائه على السلطة اضطربت البلاد ، وعرفت فترة أشبه بالفترات التي يسميها المؤرخون العرب بـ « ملوك الطوائف » ، والتي تعني فقدان السلطة المركزية لسيطرتها على البلاد ، واستقلال الأقاليم والمدن عن العاصمة• حدث ذلك في تونس ، وفي باجة ، وفي جبال البربر (أوراس) وفي قابس ، وفي طرابلس ، واشترك في الثورة العرب والبربر ، من أهل الجماعة ومن الخوارج • وكان على عبد الرحمن ـ الذي لم تبق له الا القيروان في وقت من الأوقات ـ أن يجاهد في سبيل اخضاع أولئك الذين راودتهم فكرة اقتطاع امارات لهم في البلاد •

اضطراب الأقاليم الساحلية :

ففي تونس ثار عروة بن الوليد الصدفي ، واستولى على المدينة ، ومن تونس انتشرت الثورة الى منطقة الساحل (ما بين سوسة وصفاقس) حيث ثار العرب هناك بقيادة ابن عطاف الأزدي[٢١] • وفي باجة ثارت قبيلة صنهاجة بقيادة ثابت بن وزيدون[٢٢] ، الذي تمكن من الاستيلاء على المدينة[٢٣] ، ولم يلبث أن انضم الى ثابت زعيم بربري آخر هو عبد الله بن سكرديد[٢٤] • واضطربت كذلك جبال البربر ، وأخيرا منطقة طرابلس • والظاهر أن أشد هذه الثورات كانت ثورة البربر ـ فالكتاب عندما يعرضون للعمليات العسكرية التي قام بها عبد الرحمن بن حبيب لا يتكلمون الا عن

---

(٢١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦١ (النويري ص ٨٧ ب ، والترجمة ج ١ ص ٣٣٦) • وقارن ابن الأثير ، سنة ١٣٦ ، والرقيق ، ص ١٢٥ (حيث اسم الصدفي : عروة بن الزبير) ، ص ١٣٦ (حيث لقب ابن عطاف : الأسدي) •

(٢٢) ربما كانت كلمة وزيدون ابن زيدون محرفة (انظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١١ « وزيدون » والترجمة ، ج ١ ص ٢١٨ وهامش ٢) أما بقية الكتاب فيسمونه الصنهاجي •

(٢٣) الرقيق ، ص ١٣٦ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٦١ ، النويري ، ص ٨٧ ب •

(٢٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١١ ، والترجمة ، ج ١ ص ٢١٩ •

البربر – وذلك أمر طبيعي ، نظرا للطابع الديني الفدائي الذي اتخـــذته حركاتهم العنيفة • ولقد تفاوتت أعمال عبد الرحمن بن حبيب ما بين استخدام العنف والخديعة والسياسة مع الخصوم • فعندما علم بثورة باجة جهز سرية من ٦٠٠ فارس بقيادة أخيه الياس بن حبيب واتفق معه على اعمال الحيلة حتى يمكن استرجاع باجة دون أن ينهك قواه • واتبع ذلك بأن بعث بعض جواسيسه يتربص بثوار الساحل . وعندما أتاه الجاسوس وأخبره « أن القوم آمنون غافلون » ، فاجأهم الياس بعسكره ، وقتل ابن عطاف وأصحابه وذلك في سنة ١٣٠ هـ/٧٤٨ م(٣٥) • واتبع الياس ذلك بمفاجأة تونس حيث قتل عروة بن الوليد وأقام في المدينة(٣٦) •

الاباضية في طرابلس : –

أما أهم الثورات البربرية الخارجية فكانت في اقليم طرابلس • وعن سبب الثورة فكان مقتل أحد زعماء الاباضية هناك ، وهو عبد الله بن مسعود التجيبي في سنة ١٢٩ هـ/٤٧ – ٧٤٨ م ، كما يفهم من رواية ابن خياط ، وذلك على يدي أخي عبد الرحمن بن حبيب . كما يقول ابن عبـــد الحكم(٣٧) – وتظنه الياس – بعد أن عهد اليه بولاية طرابلس • ونص ابن عبد الحكم يعتبر أول اشارة الى ظهور المذهب الاباضي بشكل ايجابي في المغرب وهو مذهب المعتدلين من الخوارج القريب من مذاهب أهل السنة ، والذي يعتبر في المغرب خامس المذاهب الأربعة • وصاحب المذهب الذي أعطاه اسمه هو عبد الله بن اباض التميمي ، أحد زعماء الخوارج(٣٨) • والمذهب الاباضي يمثل في الحقيقة آخر تطورات الفكر الخارجي • فبعد تعصب الازارقة – الذين كفروا

---

(٣٥) انظر ابن عذاري ، ج ١ ص ٦١ ، ورقة الرقيق (ص ١٢٦ – ١٢٧) حيث بعض التفصيلات عن [illegible] في [illegible] وكيف [illegible] من عسكر عطاف وكيف خرج [illegible] عسكر عطاف الذين [illegible] عن [illegible] فقتل عطاف وحمل البريد رأسه الى عبد الرحمن ، وقارن ابن الاثير ، سنة ١٢٦ •

(٣٦) انظر الرقيق ، ص ١٢٧ – ١٢٨ (حيث بعض التفصيلات المثيرة عن مفاجأة عروة وهو في الحمام [illegible]) • وقارن ابن الاثير ، سنة ١٢٦ •

(٣٧) ابن عبد الحكم ص ٢٢٤ ، انظر تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٤١١ (حيث روايته مبتورة ، والاسم [illegible] بن مسعود بدلا من عبد الله بن مسعود) •

(٣٨) عن ظهور المذهب الاباضي في المغرب انظر [illegible] ، ص ٢٨٤ وما بعدها •

غيرهم من المسلمين ، وأباحوا دماءهم ـ خفف الخوارج من قسوة مبادئهم التى لقيت نفورا من جمهرة المسلمين كما تعرضت لرد فعل عنيف من جانب الدولة ، فظهر الصفرية ، أتباع زياد بن الاصفر ، ولم يرم الصفرية غيرهم من المسلمين بالشرك ، بل وقفوا منهم موقفا وسطا بين التساهل والتشدد المقبول ، كما أنهم قبلوا مبدأ التقية (أى كتمان العقيدة) • ورغم أن الصفرية لم يروا دار المخالفين لهم دار حرب فانه لم تكن لهم شعبية أيضـــا ، ولذلك وصفوا بالقسوة وباستحلال سبى المسلمين • وترتب عـــلى ذلك أن ازداد اعتدال الخوارج مـع مرور الوقت ، وظهرت منهم جماعات لم تكفر بقيـــة المسلمين ، وقالت ان كفرهم كفر نعمة ، وحرموا دمـــاءهم وسبيهم(٢٩) • وأشهر من نادى بتلك الآراء هو عبد الله بن اباض الذى دعا لمبادئه فى أواخر القرن الأول الهجرى على أيام عبد الملك بن مروان ، فلقيت قبولا من أتبـــاع المذهب الخارجى وذاعت وانتشرت فى المشرق والمغرب على أواخر أيام مروان بن محمد(٣٠) •

وتنسب كتب الاباضية فضل ادخال المذهب الاباضى الى المغرب الى سلامة ابن سعيد فى أوائل القرن الثانى الهجرى ، وتذكر أنه اجتهد فى نشره وتفانى فى اذاعته كما روى أئمة الرستميين ، حتى أنه كان يقول : « وددت أن لو ظهر هذا الأمر (يعنى مذهب الاباضية) يوما واحدا ، من أول النهار الى آخره ، فلا آسف على الحياة بعده »(٣١) • ونجح سلامة فى اكتساب أتباع مخلصين ،

---

(٢٩) عن مذهب الخوارج انظر الشهرستانى ، طبعة ليبزج ١٩٢٣ ص ١٠٢ (عن الصفرية الذين خالفوا الازارقة والنجدات فى أمور منها « أنهم لم يكفروا القعدة عن القتال ••• ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم •• وقالوا : التقية جائزة فى القول دون العمل •• كما قالوا . الكفر كفران : كفر بالنعمة وكفر بانكار الربوبية •• ») وقارن البغدادى ، الفرق بين الفرق . طبعة القاهرة ١٣٢٨ هـ/١٩١٠ م ص ٧٠ ـ ٧٣ ، أبو زهرة ، المذاهب الاسلامية ، ص ١٣٧ وتابع •

(٣٠) انظر الشهرستانى . ص ١٠٠ حيث يعرض آراء ابن اباض ومنها « ان مخالفينا من أهل القبلة كفار غير مشركين ومناكحتهم جائزة ومواريثهم حلال ، وما سواه حرام وحرام قتلهم وسبيهم فى السر غيلة •• وأجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم •• وأجمعوا على أن من ارتكب كبيرة من الكبائر كفر كفر النعمة لا كفر الملة •• » وقارن الفرق بين الفـــرق للبغدادى ، ص ٨٢ ـ ٨٤ حيث يعرض أهم آرائهم ومنها « أن مخـــالفيهم براء من الشرك والايمان » كما يسمى فرقهم والعلاقة الفكرية بينهم وبين بعض الفرق مثل المعتزلة والقدرية ، ص ٨٤) •

(٣١) انظر أبو العباس الدرجينى ، طبقات الاباضية ، المخطوط ، ورقة ٦ ، وقارن =

مثل عبد الرحمن بن رستم وأبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح ، الذين اعتنقوا المذهب ، ورفعوا رايائه عالية في المغرب من الناحيتين السياسية والمذهبية جميعا كما سنرى ٠

والذي يفهم من سير الأحداث هو أن المذهب الاباضي كان قد مد جذوره بعيدا في أرض طرابلس ــ أولى محطات المغرب ــ عندما تغلب ابن حبيب على افريقية ٠ فبعد مقتل عبد الله بن مسعود التجيبي سنة ١٢٩ هـ ، كما قلنا ، « اجتمعت الاباضية بأطرابلس » ٠٠ « وكان على الاباضية حين اجتمعت في سنة ١٣١ هـ/٧٤٨ ــ ٧٤٩ م عبد الجبار بن قيس المرادي ، ومعه الحارث بن تليد الحضرمي »(٣٢) ٠

وللتوفيق بين رواية ابن عبد الحكم التي انفردت بالمعلومات المعتمدة عن تلك الثورة الاباضية في طرابلس ، وبين التفصيلات الاضافية التي يقدمها الرقيق ، يمكن القول أن عبد الرحمن بن حبيب حاول مصالحة الاباضية فأرسل اليهم أحد عماله في طرابلس ، وهو بشر بن حنش القيسي (بالولاء) ، يصحبه بعض مشايخ طرابلس ، ولكن البربر « قتلوهم عن آخرهم »(٣٣) ٠ وعندما حاول عبد الرحمن أن يرد على ذلك التحدي الغادر في التو واللحظة ، فخرج من القيروان وقت القيلولة ، بمجرد سماعه النبأ ، على أن يلحق به عساكره ، لم يتهيأ له ذلك : اذ لم يكن يصل الى قابس حتى بلغته أخبار مقلقة عن محاولة خلعه فقرر الرجوع الى القيروان(٣٤) ٠

= الشماخي ، السير ، ص ١٣٣ ، (حيث آخر الحديث : « فما أبالي أن تضرب عنقي ») ، وانظر فيما بعد قسم الدولة الرستمية ٠

(٣٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٤ ، وقارن ابن خياط ، ج ٢ ص ٤١١ (حيث تاريخ الثورة سنة ١٢٩ هـ/٧٤٦ م ، وربما كان تاريخ مقتل ابن مسعود ، والأسماء : سعد بن مسعود وعبد الجبار بن معن) ، الشماخي ، سير [illegible] ، ص ١٢٥ ، وانظر الرقيق (ص ١٢٨) الذي يذكر [illegible] فقط [illegible] والحروب ولا يشير الى سبب ثورتها مكتفيا بالقول [illegible] الخوارج » ٠ وقارن ابن الأثير ، سنة ١٢٦ ، والنويري ، ص ٨٧ ــ (حيث النقل عن الرقيق) ٠

(٣٣) الرقيق ، ص ١٢٨ ٠

(٣٤) الرقيق ، ص ١٣٨ ــ حيث [illegible] الرواية [illegible] الناس أرادوا عزله ونفيه ، وقوله [illegible] في المنطقة الحديثة من الرقيق [illegible] بعد ذلك [illegible] عبد الرحمن [illegible] مختفيا [illegible] طرابلس سنة ١٣١ هـ ، بعد أن استخلف على القيروان عمر بن نافع ، وأنه قاتل عبد الجبار والحارث فقتلهما (انظر ص ١٢٨ ــ ١٢٩) وهذا ما [illegible] رواية ابن عبد الحكم ٠

وهكذا يظهر أن عبد الرحمن بن حبيب حاول علاج الموقف باستخدام السياسة بدلا من العنف ، كما يقول ابن عبد الحكم ، فعزل اخاه ، وعهد بولاية طرابلس الى حميد بن عبد الله المكي ، ولكن الحرب ظلت دائرة مع الاباضية الذين حاصروا حميد بن عبد الله في بعض القرى • وساءت ظروف حميد عندما وقع الوباء في عسكره ، فاضطر الى مفاوضه الثوار . وتم الاتفاق على أن يخرج من طرابلس ورجاله بالامان • ورغم الاتفاق فان عبد الجبار بن قيس أخذ أحد كبار أصحاب حميد، وهو نصير بن راشد الأنصاري (بالولاء). الذي كان متهما بالتحريض على قتل ابن مسعود الاباضي فقتله به[٣٥] • وبفضل هذا النصر استشرت الثورة الاباضية ، فاستولى عبد الجبار على أرض زناتة • وعمل عبد الرحمن بن حبيب على الحد من انتشار الثورة • فبينما كتب الى يزيد بن صفوان المعافري (هو ابن صفوان بن أبي مالك ، وأخو معاوية بن صفوان ، الواليين السابقين) بولاية طرابلس . حاول استخدام السياسة مع قبائل هوارة حتى لا تنضم الى الثورة ، فأرسل اليهم واحدا منهم ، وهو مجاهد بن مسلم الهواري « يستألف الناس ، ويقطع عن عبد الجبار هوارة وغيرهم »[٣٦] • ولكن مجاهدا فشل في مهمته ، فبعد اقامة عدة أشهر عند الهواريين طردوه ، فسار الى يزيد بن صفوان بطرابلس[٣٧] •

وقرر ابن حبيب استخدام العنف فيما لم تنجح فيه السياسة ، فسير الى طرابلس فرقة من خيالته بقيادة محمد بن مفروق ، وكتب الى يزيد بن صفوان بالمسير معه ضد الثوار • وتم اللقاء بين قوات ابن حبيب وبين عبد الجبار بن قيس والحارث بن تليد بمكان من أرض هوارة ، وانتهى بهزيمة منكرة لقوات القيروان ، اذ قتل يزيد بن صفوان ، ومحمد بن مفروق ،وانهزم مجاهد بن مسلم بفلول الجيش عبر أرض هوارة[٣٨] • وحشد عبد الرحمن ابن حبيب جيشا جديدا عهد بقيادته الى عمرو بن عثمان . ولكنه انهزم أيضا أمام عبد الجبار والحارث في أرض زناتة ، وبذلك تم للاباضية الاستيلاء على

---

(٣٥) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٤ •

(٣٦) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٤ •

(٣٧) نفس المصدر •

(٣٨) لا يحدد ابن عبد الحكم (ص ٢٢٤) موضع المعركة ، أما عن أرض هوارة فهي واسعة تمتد على طول سواحل طرابلس شمالا الى ما وراء جبل نفوسة جنوبا ، قارن ابن خلدون الذي يسمي والي طرابلس المقتول بكر بن عيسى القيسي (العبر ج٦ ص ١١١ ، الترجمة ج ١ ص ٢١٩) •

طرابلس كلها(٣٩) . وجرب عمرو بن عثمان القيام بمحاولة جديدة فخرج ومعه مجاهد بن مسلم الى دغوغا(٤٠) ، ولكنه اضطر الى الهرب عبر الصحراء عندما تبعه الحارث بن تليد ، ثم انه سار الى سرت حيث ادركته خيل الحارث ، وقتلوا بعض أصحابه . ونجا عمرو بنفسه جريحا بعـــد أن ترك عسكره بين يدي الحارث . وهكذا عظم أمر عبد الجبار والحارث ، ولا نعرف ماذا كان يمكن أن يكون من أمرهما لولا اختلافهما ، ذلك الاختلاف الذي انتهى بينهما بالحرب ومقتل كل منهما(٤١) .

واختار اباضية طرابلس اماما جديدا هو اسماعيل بن زياد النفوسي ، الذي عظم شأنه وكثر أتباعه ، ونجح في الاستيلاء على مدينة قابس (من أرض افريقية)(٤٢) . وقرر عبد الرحمن بن حبيب الخروج بنفسه للقاء اسماعيل ، وعندما وصل الى قابس سير ابن عمه شعيب بن عثمان على رأس فرقة من الخيالة نحو الخوارج ، فالتقى بهم ، وكانت النتيجة في هذه المرة في صالح عسكر القيروان ، اذ قتل اسماعيل في هذه المعركة ، وانهزم اصحابه ، وأخذ منهم كثير من الأسرى(٤٣) . وعندما أتت أنباء ذلك النصر الى ابن حبيب ســـار بجيشه الى سوق طرابلس ، ومعه الأسرى ، دون أن يلقى مقاومة تذكر . ومن طرابلس كتب الى عمرو بن عثمان المرادي ، الذي كان لاجئا بأرض سرت ، بالحضور اليه .

---

(٣٩) أنظر ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٤ .

(٤٠) قارن ابن خرداذبة حيث القراءة زغوغا (الزاء) ، وهي على بعد ١٢٧ ميلا غربي سرت و ٨٤ ميلا غربي قصور حسان و ٣٠ ميلا غربي تاورغا (ابن خرداذبة وابن الفقيه .. صفة المغرب واوروبا ، المكتبة العربية الفرنسية ، نص عربي وترجمة فرنسية لمحمد حاج ـ صادق ، مسعة الجزائر ، ١٩٤٩ ، ص ٤ والترجمة ص ٥ والهامش ٤٧ ص ٩١) .

(٤١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٤ ، وانظر ابن خلدون ، العبر ج ٦ ص ١١١ ، الترجمة ج ١ ص ٢١٩ ـ نقلا عن الرقيق ، ص ١٢٩ ـ الذي يقول ان عبد الرحمن بن حبيب قتلهما . وانظر الشماخي ، سير علماء جبل نفوسة ، ص ١٢٥ الذي يقول انهما اختلفا على الولاية فقتل كل واحد منهما صاحبه ، وانهما وجدا ميتين في بيت واحد ، وسلاح كل واحد في صاحبه . واذا صحت هذه الرواية يكون الزعيمان الاباضيان قد لجأ الى فض نزاعهما بالتحكيم ـ تحكيم السيف . ولقد أصبحت المسألة موضوع جدل بين الاباضية فقال البعض يجب بقاء المتنازعين الى أن يفصل بينهما ، وقال البعض « نقف » ، وقال البعض « يقتتلان » . أما فقهاء الاباضيــة في المشرق فقد نصحوا بالكف عن ذكرهما .

(٤٢) ابن خلدون ، ج ١ ص ١١١ والترجمة ج ١ ص ٢١٩ .

وانتقم عبد الرحمن بن حبيب من ثوار البربر الاباضية انتقاما هائلا ، وفي ذلك يقول ابن عبد الحكم انه ضرب أعناقهم وصلبهم(٤٤) ، بينما يستفيض الرقيق في الأمر فينص على أنه « امتحن الناس بهم ، وابتلاهم بقتل الرجال صبرا : يؤتي بالاسير من البربر فيامر من يتهمه بتحريم دمه بقتله »(٤٥) : ويتضح من النص أن انتقام عبد الرحمن الدموي من خصومه كان سببا في صدام بينه وبين فقهاء افريقيه ـ الذين كانوا يمارسون نوعا من الرقابة على الأمراء ـ وأنه أمعن في الثأر حتى أكره المعترضين منهم على انفاذ أمر القتل بأيديهم . ولم يسلم من تلك المحنة ، وهذا البلاء ، الا قاضي افريقية واخباريها: عبد الرحمن بن أنعم(٤٦) ، الذي كان ابن حبيب قد افتداه من أسر الروم(٤٧) وعمل عبد الرحمن على اقرار الأمور ، واعتنى بتحصين المدينة فجدد بناء سورها، وبذلك أمنت ، « وانتقل الناس اليها من كل مكان »(٤٨) . وعندما اطمأن الى هدوء الأحوال اتخذ عبد الرحمن طريق القيروان بعد أن عهد بولاية طرابلس الى عمر بن سويدة ، وأمره بغزو العصاة ، واعطاء العسكر نصيبهم في المغانم(٤٩) . ومع أن ابن عبد الحكم لا يحدد لنا تواريخ الأحداث السابقة ، بينما يتأرجح المتأخرون من الكتاب ما بين سنتي ١٣١ هـ/٤٨ ـ ٧٤٩ م و ١٣٢ هـ/٤٩ ـ ٧٥٠ م(٥٠) فان الرقيق يحدد حملة عبد الرحمن بن حبيب على طرابلس بسنة ١٣١ هـ ، وبناء سور المدينة بسنة ١٣٢ هـ(٥١) . وهكذا يمكن تفسير ما حدث من اللبس في تحديد التاريخ ، ويصبح من الواضح أن تكون الثورة قد استغرقت سنة ١٣١ هـ وبعضا من سنة ١٣٢ هـ ، وهي

---

(٤٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٤ ، وقارن ابن خلدون (ج ٦ ص ١١١ ، الترجمة ، ج ١ ص ٢١٩) الذي لا يذكر مقتل اسماعيل بل يتكلم عن مقتل عبد الجبار والحارث على يدي ابن حبيب .

(٤٤) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٤ .

(٤٥) الرقيق ، ص ١٢٩ وانظر ابن عذاري ، ج ١ ص ٦١ .

(٤٦) أنظر الرقيق ، ص ١٢٩ . حسب تقول الرواية أنه أبى ذلك ، وعصمه الله من عبد الرحمن .

(٤٧) انظر فيما سبق ، ص ٢٨٠ وهـ ١٠٤ (صرف النظر عن علم صحة التاريخ) .

(٤٨) ابن عذاري ، ج ١ ص ٦٣ ، وقارن ابن عذاري ، ص ١٢٩ .

(٤٩) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٤ (النص يقول هنا « وأمر أن ينفل بهم ») . .

(٥٠) أنظر ابن عذاري ، ج ١ ص ٦٣ (حيث يحدد تاريخ بناء سور طرابلس بسنة ١٣١ هـ) الشماخي ، السير ص ١٢٥ (حيث يصحح ان ثورة عبد الجبار والحارث استغرقت سنة ١٣١ هـ او سنة ١٣٢ هـ) .

(٥١) انظر الرقيق ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

السنة التي جدد فيها سور طرابلس . وبعد أن اطمأن عبد الرحمن على هدوء الأحوال عاد الى القيروان بعد أن عين بكر بن حسين القيسي واليا على المدينة ، وذلك في الوقت الذي كان الخليفة الاموى مروان بن محمد قد طلب منه القدوم اليه ، كما يفهم من رواية الرقيق(٥٢) .

شرعية ولاية عبد الرحمن بن حبيب للمغرب :

علاقته بالأمويين ثم العباسيين :

بذلك يكون ابن حبيب قد تمكن ، بعد أربع سنوات ، من القضاء على خصومه ، وأكد مركزه كوالى البلاد الشرعي . فهناك روايات تقول انه كتب الى الخليفة مروان بن محمد ، وأهدى اليه الهدايا ، « وتقول على حنظلة ونسب اليه أهوالا كذب فيها » ، وأن مروان اعترف بالأمر الواقع ، فكتب اليه بولايته على افريقية والمغرب كله والأندلس(٥٣) . ومن الواضح أن ذلك حدث قبل سنة ١٢٩ هـ/٤٦ ــ ٧٤٧ م ، وذلك أنه في تلك السنة كتب أهل الأندلس الى عبد الرحمن يطلبون منه الموافقة على اختيارهم لقريبه يوسف ابن عبد الرحمن الفهرى واليا عليهم . وأجابهم عبد الرحمن بصفته الوالي الشرعي ، فأنفذ الى يوسف عهده بولاية الأندلس(٥٤) . أما عن رواية الرقيق التي تقول أن مروان بن محمد كتب الى عبد الرحمن أثناء وجوده في طرابلس سنة ١٣٢ هـ/٤٩ ــ ٧٥٠ م يستدعيه الى القدوم عليه(٥٥) ، فهي مقبولة على أساس أن آخر خلفاء دمشق ، كان يتوهم ــ وهو يتعثر في قتاله للعباسيين ــ

---

(٥٢) الرقيق ، ص ١٢٩ ــ ١٣٠ .

(٥٣) أنظر الرقيق . ص ١٢٩ . وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٦١ (حيث يظهر النقل من الرقيق ويضمنه الاشارة الى طلب مروان من عبد الرحمن القدوم اليه ، وهو الأمر الذي حدث فيما بعد سنة ١٣٢ هـ . عندما كان عبد الرحمن في طرابلس) ، وانظر البلاذرى ، (ص ٢٣٢) الذي يبين أن الفضل في اقرار عبد الرحمن بن حبيب على ثغر افريقية يرجع الى كاتبه خالد بن ربيعة الافريقي الذي كانت بينه وبين عبد الحميد بن يحيى (كاتب مروان) مودة ومكاتبة .

(٥٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٣ . ويهتم ابن عذارى بهذا الأمر (ص ٦٣) وذلك انه لو صحت ولاية يوسف الفهرى ــ المتغلب على الأندلس ــ بعهد من قبل عبد الرحمن بن حبيب الوالي من قبل بني أمية تكون للأمويين دولة متصلة في الأندلس غير منقطعة الى سنة ٤٢٤ هـ/ ١٠١٣ م . ولا بأس من الاشارة الى ما يورده ابن الأثير ، سنة ١٣٦ ، من أنه ربما كان يوسف الفهرى ابنا لعبد الرحمن .

(٥٥) الرقيق ، ص ١٢٩ ــ ١٣٠ .

أنه قد يمكنه الاستعانة بالفهري ، وان كان متغلبا على افريقية البعيدة ٠ والمهم أنه عندما تأكد عبد الرحمن من انتصار العباسيين والبيعة للخليفة أبي العباس المعروف بالسفاح ، بادر الاعتراف بخلافته ، ووافق أبو العباس من جهته على اقراره في ولايته(٥٦) ٠ وهذا يعني أن النفوذ العباسي امتد الى المغرب ، ولكن الى بلاد القيروان فقط ، ومن الناحية الشكلية فحسب ٠

فتوحه في المغرب الأوسط ، وفيما وراء البحر :

ومع مرور الوقت كانت أقدام ابن حبيب تزداد رسوخا في افريقية ، فما أن جاءت سنة ١٣٥ هـ حتى كان عبد الرحمن في موقف يسمح له بتوجيه أنظاره الى المغرب الأوسط ، ويمد نشـــاطه الى ما وراء البحر ٠ ففي سنة ١٣٥ هـ/٥٢ ـ ٧٥٣ م قرر ابن حبيب المسير نحو تلمسان ، فأناب ابنه حبيبا عنه في القيروان ، وخرج على رأس قواته ٠ ورغم ما يقوله الرقيق من أنه غزا تلمسان ، حتى انتهى اليها ، وظفر بما لم يظفر به أحد قبله ، وأتى اليه من سبي افريقية بما لم يؤت بمثله من بلد ، ودوخ المغرب كله(٥٧) ،فالظاهر أن عبد الرحمن اكتفى بما أحرزه من انتصارات على قبائل زناتة في المنطقة ، وعاد الى القيروان(٥٨) ٠ فهذا ما يفهم من رواية ابن خياط التي تنص على أن عبد الرحمن هزم الصقر بن أيوب الفزاري ومن معه من البربر في منطقـــة تلمسان ، كما لم يطق الزعيم الصفري سليمان بن ذواق المرعبي الوقوف أمامه(٥٩) ٠

أما فيما يتعلق بالغزو البحري ، فقد قام ابن حبيب بغزو صقلية ، ورجع بالمغانم والسبي ، كما أنه قام أيضا بغزوسردانية ، وتم الاتفاق بينه

---

(٥٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦١ (لما بلغته بيعة أبي العباس كتب اليه بالسمع والطاعة فاقره) ٠ وقارن الرقيق ، ص ١٣٣ (حيث يكتفي بالاشارة الى أن عبد الرحمن كتب الى السفاح بسمعه وطاعته ، ثم يهتم بأن خبر طاعته وصل الى الخليفة العباسي الأول مع ورود نبأ فتح السند ، وأن السفاح تشاءم من قدوم خبر فتوح المغرب والمشرق دفعة واحدة ، حسبما كان لديه من العلم ٠ وكأن الرواية التي تحدد وفاة السفاح بعد ذلك في ١٨ من ذي الحجة تريد الربط بين تلك الأحداث فعلا ٠

(٥٧) انظر الرقيق ، ص ١٣٠ ، وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١١١ ؛ والترجمة، ج ١ ص ٢١٩ ٠

(٥٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦١ ، ص ٦٥ ـ ٦٦ ٠

(٥٩) ابن خياط ، ج ٢ ص ٤١٧ (ولو أن هذه الأحداث مسجلة في سنة ١٣٩ هـ) ٠

وبين أهلها على الصلح نظير دفع الجزية (٦٠) ٠

محاولة الخلافة العباسية استرجاع ولاية المغرب :

وبطبيعة الحال كان عبد الرحمن بن حبيب يقوم بهذه الفتوح لحسابه الخاص ٠ فرغم اعترافه بالخليفة العباسي ، فان هذا الاعتراف لم يكن يتجاوز الشكل النظرى الى الحقيقة العملية التي تتمثل في تقديم الأموال السنوية الى الخليفة واشراكه فيما يحصل عليه من المغانم ، حسب ما يقرره القانون ، وهذا ما سيظهر دون مداراة أو مواربة منذ خلافة المنصور ٠ ففى ذلك الوقت ؛ وحينما كان ابن حبيب يوسع دائرة نشاطه ، بدأت الخلافة العباسية — بعد أن شعرت بشيء من الاستقرار — توجه أنظارها نحو المغرب ، في محـــاولة لادخاله في حظيرتها ٠ ففي سنة ١٣٦ هـ/٥٣ — ٧٥٤ م وجــــه الخليفة أبو العباس جيشا الى مصر ليخرج بقيادة أبي عون عبد الملك ، والى مصر (١٣٣ — ١٣٦ هـ/٧٥٠ — ٧٥٣ م) ، الى المغرب في شهر جمـــادى الآخرة/ديسمبر ٧٥٣ م ٠ وكانت الخطة أن يسبق القوات العباسية تنظيم حركة دعاية كبيرة يقوم بها أعوان العباسيين من بني معاوية بن حديج ، وبني موسى بن نصير ، لمعرفتهم بالمغرب ، ولما لهم فيه من أتباع وأنصار ٠ أما عن العملية العسكرية ، فتقرر أن تكون مشتركة من القوات البرية والبحرية ٠ وعهد بتنظيم الحملة البحرية الى المثنى بن زياد الخثعمى الذى وصل الى الاسكندرية في شوال/ابريل من تلك السنة لتجهيز المراكب ٠ ونظرا لوفاة الخليفة أبي العباس لم يقدر لتلك الحملة أن تتم ، اذ رجع الدعاة بعد أن كانوا قد وصلوا الى مدينة سرت ، كما عاد أبو عون بالجيش ، وكان قد وصل الى برقة ٠ أما عن الأسطول فالظاهر أنه لم يكن قد تجهز للخروج بعد(٦١) ٠ ولا شك في أن الأحوال المضطربة في مركز الخلافة ، والتي تمثلت في ثورة عم الخليفة عبد الله بن علي في الشام ، كانت لها آثارها على ايقاف حملة المغرب ٠

---

(٦٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٥ . ابن الأثير أحداث سنة ١٢٦ (وعن خروج عبد الرحمن في صقلية مع والده سنة ١٢٢ هـ) . أنظر فيما سبق . ص ٢٨٨ وص ١٣٣ . (وعن خروج عبد الرحمن في صقلية وسردانيه ، ص ٢٤١ وص ٣٧٤ . وانظر فيما بعد الفصل الخاص بصقلية الاغلبية .

(٦١) [illegible] الكندى ص ١٠٢ — ١٠٣ ، [illegible] تاريخ الاسكندرية الاسلامية الى العصر [illegible] في تاريخ الاسكندرية [illegible] محافظة الاسكندرية سنة ١٩٦٣ ، ص [illegible] — ٣٦٤ .

القطيعة مع الخلافة العباسية واستقلال عبد الرحمن :

علاقة ابن حبيب باللاجئين من الأمويين :

والذي يهمنا هنا هو أن حملة أبي عون تعني أن العلاقة فترت بين ابي العباس السفاح وبين عبد الرحمن بن حبيب ، وذلك قبيل سنة ١٣٥ هـ/٥٢ ـ ٧٥٣ م • وستسوء تلك العلاقة الى حد القطيعة بعد خلافة المنصور (سنة ١٣٧ هـ/٥٤ ـ ٧٥٥ م) • ومع أنه يفهم الروايات أن سبب القطيعة هو اكتفاء ابن حبيب باعلان الولاء الشكلي للخليفة العباسي ، وامتناعه عن ارسال الاموال السنوية اليه ، فقد كانت هناك أسباب أخرى تبعث على شك العباسيين في اخلاص عبد الرحمن منذ البداية ، ونظن أنها التي دفعت أبا العباس السفاح الى تسيير الجيوش من مصر الى المغرب •فبعد انهزام مروان في الشـــام ، ومطاردة العباسيين للأمراء الأمويين ، وتقتيلهم بالغدر والخديعة ، فر عدد كبير من الناجين منهم نحو المغرب • ومع أن مؤرخي المغرب يفسرون ذلك بأن الأمويين كانوا « يسمعون في الرواية أن مستراحهم بالمغرب ، فنزع أكثرهم الى افريقية »(٦٢) ، فالحقيقة انه لم يكن للأمويين ، بل وللعرب فيما بعد ، من ملجأ سوى بلاد المغرب ، بعد أن أوصدت أمامهم أبواب المشرق ، من حيث أقبل أعداؤهم يطلبون دماءهم •

وهكذا فر جزي واسماعيل ابنا زبان بن عبد العزيز بن مروان(٦٣) ، وعبد الملك بن عمر بن مروان الى افريقية ، كما لجأ اليها السفياني الثائر ، وأبناء الوليد بن يزيد العاصي ، وموسى وحبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد (٦٤) • واستقبل عبد الرحمن بن حبيب الأمراء الأمويين استقبالا طيباء وأنزلهم في كنفه(٦٥) • والظاهر أنه عندما فعل ذلك لم يكن مدفوعا بشعور المخلص لأبناء الخلائف الشرعيين أو بشعور العطف على ما أصابهم من نكبة ، بل كان مدفوعا بمشاعره الأنانية • فلقد رأى فيهم عبد الرحمن وسيلة لاعطاء موقفه نوعا من الثبات أو الشرعية عن طريق التحالف معهم بالمصاهرة ، اذ

---

(٦٢) أخبار مجموعة ، ص ٥٠ •
(٦٣) الكندي ، القضاة والولاة ، ٩٧ •
(٦٤) أخبار مجموعة ، ص ٥٠ • لا نعرف ان كان المقصود بالسفياني الثائر هو « أبو محمد ابن يزيد معاوية » الذي قتل بالحجاز أم غيره (أنظر ابن الأثير ، سنة ١٣٢ ج ٥ ص ٢٠٦) •
(٦٥) أخبار مجموعة ، ص ٥٠ •

تزوج عبد الرحمن واخوته من نسائهم(٦٦) . فعندما وصل اسماعيل بن زبان ابن عبد العزيز بن مروان الى أفريقية استولى عبد الرحمن على ما كان معه من مال ، ثم انه غلبه على أخته فتزوجها (٦٧) . كذلك تزوج الياس أخو عبد الرحمن من أميرة أموية ، فكان ذلك سببا في نزول ابني عمها ، ولدي الوليد ابن يزيد (العاصي) وهما القاضي والمؤمن في كنف عبد الرحمن (٦٨) .

أما أشهر الأمراء الأمويين الذين جاؤوا الى افريقية فهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالداخل(٦٩) ، الذي أحيا الدولة الاموية من جديد في الأندلس . فقد نجا عبد الرحمن من مذبحة أبي فطرس (١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م) ، وفر وبصحبته مولاه بدر وسالم مولى أخته أم الاصبغ ، وهو يريد المغرب . فسار عبر فلسطين الى مصر ، ومنها الى برقة ثم طرابلس ، وأخيرا وصل الى افريقية فنزل بعض الوقت مع غيره من الأمراء الأمويين لدى ابن حبيب .

والذي يفهم من النصوص أنه بينما كان ابن حبيب يطمع في أن يتقوى بأمراء بني أمية ، كان هؤلاء يدبرون له أمرا . فابنا الوليد بن يزيد عندما كانا يختليان ، كان الواحد منهما يقول للآخر : « أيظن عبد الرحمن أنه يبقى أميرا معنا ، ونحن أولاد الخليفة(٧٠) . وعرف عبد الرحمن ما يضمره له

---

(٦٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦١ . ابن الأثير ، سنة ١٢٦ . وقارن الرقيق ، ص ١٣٠ .

(٦٧) أخبار مجموعة ،ص ٥٥ .

(٦٨) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٦١ . الذي يلخص من الرقيق وغيره بفهم ومقدرة . ونشير هنا الى أن ما أخذ به الكعبي . وهو يحقق الرقيق ، من أن ابنة عم القاضي والمؤمن : كانت « تحت اليـاس بن حبيب » (الرقيق ، ص ١٣١ والهامش ٢) ، بدلا من : كانت « عند الياس بن حبيب : كما في ابن عذارى ، غير صحيح . ونص الرقيق الذي حققه يؤيد ذلك في الصفحة التالية (ص ١٣٢) . حيث : « وكانت ابنة عمهما عند الياس » . والحقيقة ان رواية الرقيق التي ينقلها النويري (ص ٨٨ ب والترجمة ج ١ ص ٣٦٨) تحوي معلومات اضافية طريفة تقول ان عبد الرحمن بن حبيب أنزل القاضي والمؤمن مع مولى لهما بدار شبيبة بن حسان وانه كان يسلط عليهما ليسمع كلامهما . وقارن ابن الأثير ، سنة ١٢٦ (حيث القراءة : العاصي وعبد المؤمن ، بدلا من : العاصي والمؤمن) . وتاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٤٣٦ (حيث القراءة : « مومن والعاصي » ، وحيث تحديد قدومهم الى افريقية بسنة ١٣٤ هـ) .

(٦٩) انظر خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٤٤١ . أخبار مجموعة ، ص ٥٥ .

(٧٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦١ . وقارن الرقيق ، ص ١٣١ (حيث النص : ما أظن عبد الرحمن « أيظن » يمضي معه ولاية ونحن أولاد الخليفة) .

الأميران الأمويان ، وحاول هذان الفرار ، ولكنه أدركهما وقتلهما(٧١) . وكاد عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) يروح ضحية انتقام الفهري ، لولا أن انقذه بعض أصحابه في الوقت المناسب ، فخرج من افريقية مع غيره من بني عمومته ، وسار بعيدا عن سلطان ابن حبيب ، الى المغرب الأوسط ، حيث بقي بعض الوقت في المنطقة التي ستبنى فيها مدينة تاهرت ، بعد ذلك بقليل(٧٢) . واستمر الأمير المرواني يتجول في بلاد المغرب لبضع سنوات قبل أن يدخل الأندلس في سنة ١٣٨ هـ/٧٥٥ م . فمن اقليم تاهرت سار الى بلاد قبيلة مكناسة ، في موضع يقال له باري(٧٣) ، وذلك قبل أن ينتهي به المطاف الى سواحل مدينة سبتة ، حيث نزل في موضع يعرف بسيرة غير بعيد من مدينة نكور ، لدى أخواله من قبيلة نفزة(٧٤) .

الوحشة بين المنصور وابن حبيب :

في تلك الظروف فصم عبد الرحمن بن حبيب ما كان بينه وبين الأمويين بعد أن استشعر خطرهم عليه ، واعترف بالعباسيين ، ولكن هؤلاء الآخرين ما كانوا ليجهلوا طموح ابن حبيب ووصوليته ، وما كانوا لينسوا له تحالفه

---

(٧١) ابن عذارى ، ج١ ص ٦٢ ، وقارن الرقيق ، ص ١٣٢ (حيث يعطي تفصيلات عن هرب الأميرين مع مولاهما في طريق مجانة وكيف أعيدا الى القيروان في الوقت الذي خرج عبد الرحمن الى تونس ، وأمر خليفته على القيروان ، وهو عمر بن نافع بضرب عنقهما . هذا ويضيف الرقيق ، ص ١٣٢ - ١٣٣ ، رواية يصعب قبولها من الناحية الزمنية ، فضلا عن طابعها الأسطوري ، تتلخص في ان مقاتل الأمويين على يدي عبد الرحمن كانت على أيام مروان بن محمد - أي قبل سنة ١٣٢ هـ . أما عن الدافع اليها فهو خوفه مما كان يعرفه من أنه قتل على يدي آخرين - مثل القاضي والمؤمن - أو مثل أخويه الياس وعبد الوارث ، كما كتب اليه مروان . هذا كما تضيف الرواية أن امرأة عبد الرحمن اللخمية ، وهي أخت موسى بن علي بن رباح قالت له : « لا تقتل أحدا فانك لن تقدر أن تقتل من يقتلك ») . ومثل هذه الرواية قيلت أيضا بصدد « الأسباب التي دعت الفهري الى محاولة التخلص من « الداخل » .

(٧٢) انظر دوزي ، ج ١ ، ص ١٩٥ الذي يقول انه نزل لدى الرستميين في تاهرت . والمعروف أن تاهرت بنيت قبيل بعد سنة ١٦١ ، ورغم ذلك فالظاهر أن عبد الرحمن استقر بعض الوقت في المنطقة التي ستبنى فيها تاهرت . انظر بروفنسال ، تاريخ اسبانيا الاسلامية ، ص ٦٩ .

(٧٣) أخبار مجموعة ، ص ٥٥ .

(٧٤) نفس المصدر . وانظر ابن الأثير سنة ١٣٩ - وقارن ابن خياط (ج ٢ ص ٤٤١) الذي يجعل وصول عبد الرحمن بن معاوية الى المغرب في سنة ١٣٦ هـ .

المقصوم مع أعدائهم الأمويين • فبمجرد خلافة المنصور سنة ١٣٧ هـ — ورغم توقف العمليات العسكرية التي كان مزمعا القيـــام بهـــا في المغرب سنة ١٣٦ هـ — نراه يعمل على أن يثبت ابن حبيب نواياه الحقيقية تجاه الخلافة العباسية •

وكان يكفي أن يرسل ابن حبيب الأموال السنوية الى المنصور لكي يثبت صحة ولائه وطاعته ، وهذا ما لم يفعل • فالنصوص تقول انه : « لما صار الأمر الى أبي جعفر المنصور كتب الى عبد الرحمن يدعوه الى الطاعة فأجابه ، ودعا له ، ووجه اليه بهدية كان فيها بزاة وكلاب ، وكتب اليه : ان افريقية اليوم اسلامية كلها ، وقد انقطع السبي منها • فغضب أبو جعفر ، وكتب اليه يتوعده »(٧٥) • وهذا النص يبين أن عبد الرحمن بن حبيب كان يود أن يكتفي من الطاعة بمظهرها الشكلي • أما عن الأموال فهو يعتذر بأن البـــلاد أصبحت اسلامية وليس فيها مغانم ولا سبي ، مما يكون للخلافة فيه حظ ، وكأنه ليس للخلافة حقوق مالية الا في دار الحرب •

القطيعة والاستقلال :

وبطبيعة الحال لم يكن المنصور ليرضى بذلك الخضوع النظري ، فدفـــع الأموال السنوية الى بيت مال الخلافة هو الرابطة المادية الوحيدة — في أغلب الأحيان — التي تربط بين أمراء الأقاليم والحكومة المركزية ، وعلى ذلك حق للمنصور أن يتهدد ابن حبيب ويتوعده • وهنا وجد عبد الرحمن الا جدوى في استخدام المدارة والحيلة ، وأعلن عن موقفه بصراحة ، فقطع ما كان بينه وبين المنصور • وأراد أن يعطي موقفه الجريء — موقف الانفصال عن الخلافة التي تمثل حكومة الاسلام الواحدة ، التي ما كان يمكن أن تتجزأ في ذلك الوقت — نوعا من الشرعية ، فجمع الناس للصلاة ، وبين لهم أسباب القطيعة ، فقال : « اني ظننت أن هذا الخائن (المنصور) يدعو الى الحق ويقوم به ، حتى تبين لي خلاف ما بايعته عليه من اقامة العدل ، واني الآن قد خلعته كما خلعت نعلي هذا ، وقذفه من رجله »(٧٦) • وبذلك قطعت الخطبة للخليفة العباسي —

---

(٧٥) ابن عذاري ، ج ١ ص ٦٧ ، وقارن أصل الرواية في الرقيق ، ص ١٣٣ ، وفي النويري المخطوط ، ص ٨٨ أ • وانظر ابن الأثير سنة ١٣٦ هـ •

(٧٦) أنظر ابن عذاري ، ج ١ ص ٦٧ ، وقارن أصل الرواية في الرقيق ، ص ١٣٣ — ١٣٤ (حيث يوجد بعض الخلاف الخفيف مثل الجائر بدلا من الخائن ، ونعلي هذين بدلا من =

وهذا ما لم يجرؤ عبد الرحمن الداخل عليه في الاندلس الا بعد عام ، كانت الخطبة خلاله لعدوه المنصور . وتحت الحاح شديد من أقاربه الأمويين(٧٧) . وأتبع عبد الرحمن بن حبيب ذلك بنزع شعار الدولة العباسية ، وهو اللون الاسود ، لون الثياب الرسمية والرايات . فأمر بتمزيقها واحراقها وهو يقول : « هذا لباس أهل النار في النار »(٧٨) ، وأمر كاتبه خالد بن ربيعة أن يكتب كتابا بخلع المنصور ، ويقرأ على المنابر في سائر بلاد المغرب(٧٩) . حدث ذلك في أول حكم المنصور أي في سنة ١٣٧ هـ/٧٥٤ م(٨٠) ، أي في نفس الوقت الذي كان يدخل فيه عبد الرحمن بن معاوية الأندلس .

وهكذا بدأت التصدعات الأولى في الدولة العربية ، بانقطاع المغرب الأقصى عن الخلافة اثر ثورات الصفرية ، ثم انفصال الأندلس على يدي عبد الرحمن الداخل ، واستقلال ابن حبيب بافريقية . ولم تقف الخلافة مكتوفة الأيدي بل انها ستحاول استعادة المغرب ، ولكن سلطانها لن يذهب الى أبعد من افريقية . والى أن تستعيد الخلافة هذه البلاد ، نجح عبد الرحمن بن حبيب في تكوين ما يمكن أن يشبه بأسرة ملكية في افريقية ، ولكن هذه الأسرة لن تلبث أن تضيع بعد سنوات قليلة ، ما بين أطماع أفرادها في الامارة ، وثورات البربر من صفرية واباضية ، وتدابير الخلافة في سبيل اعادة الوحدة الى الامبراطورية التي زعزعتها الفتنة .

= نعلي هذا ، وقذفهما وهو على المنبر بدلا من وقذفه من رجله) وفي النويري ، ص ٨٨ أ ، وابن الأثير، سنة ١٣٦ هـ .

(٧٧) أنظر بروفنسال ، تاريخ أسبانيا الاسلامية ، بالفرنسية ، ص ٩٤ .

(٧٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٧ ولكنه مع أن القطعة الأخيرة ترد منسوبة الى الرقيق ، فاننا لا نجدها في القطعة التي نشرها الكعبي . أما عن الخلعة التي أحرقت فيسجلها المحقق مع كلمة « سواد » (أنظر الرقيق ، ص ١٣٤) . والظاهر أن صحة الكلمة ، هي : « سواد » ، كما سجلها ابن الأثير (سنة ١٢٦) . أما رواية ابن القطان التي يذكرها ابن عذارى أيضا ، فتقول ان عبد الرحمن بن حبيب كان يظهر الطاعة للمنصور ، ويدعو له ، الا أنه لم يلبس السواد . أما ابن الأثير ، سنة ١٢٦ ، فيقول ان المنصور أرسل الى عبد الرحمن « خلعة سوداء أول خلافته فلبسها ، وهي أول سواد دخل افريقية » .

(٧٩) النويري ، المخطوط ، ص ٨٨ ب ، وقارن الرقيق ، ص ١٣٤ .

(٨٠) ابن عذارى (عن عريب بن سعد) ، ج ١ ص ٦٧ .

٢ ـ الصراع بين بني حبيب : مقتل عبد الرحمن ، وامارة أخيه الياس :

لم يمكث ابن حبيب في الامارة بعد اعـــلان استقلاله عن المنصور الا أشهرا اذ المفهوم أنه قتل في أواخر نفس سنة ١٣٧ هـ/٧٥٥ م بيدى أخيه ومساعده الأيمن الياس بن حبيب • ورغم ما يفهم من أن السبب الرئيسى لمقتل عبد الرحمن كان التنافس بين أخيه الياس وابنه حبيب على شغل منصب الرجل الثاني في المملكة الناشئة ، فان النصوص تورد في ثنـايا الأحداث أسبابا أخرى ، منها ضعف مركز ابن حبيب بعد أن فقد سنده الشرعى بقطع علاقته بالخلافة ، ومنها قصة مؤامرة حريم • ونعتقد فعلا أن هذه الأسباب هي التي أودت سريعا ـ بتضافرها جميعا ـ بابن حبيب •

كان عبد الرحمن بن حبيب يستخدم اخوته وأبناءه كعمال وقواد يعاونونه في ادارة أمور البلاد واقرار الأمن فيها • وكان لأخيه الياس مركز خاص ، اذ كان قائد قواته ومساعده الأيمن في مناهضة الخصوم • والظاهر أن اليـــاس كان يرى ، بحكم مركزه هذا ، وبحكم السن ـ بصفته أكبر أفراد الأسرة بعد الأمير ـ قبل ذلك ، انه أول المرشحين لولاية العهد • وهذا لم يكن رأى عبد الرحمن الذى كان يرغب في اقامة حكم ملكى تماما ، يتبنى على مبدأ الوراثة من الأب الى الابن ، فولى ابنه حبيبا عهده ، وعمل على أن يقوى مركزه في نظر الناس فكان ينسب اليه الانتصارات العسكرية ، وذلك على حساب أخيـــه الياس[٨١] •

وكان من الطبيعى أن يثير انكار الجميل أشياء في نفس الياس ضـــد عبد الرحمن ، وعرف خصوم عبد الرحمن ـ من الشخصيين والسياسيين ـ ذلك فعملوا على اثارة الياس ، وزيادة حقده على أخيه • والغريب في الأمر هو أن شيعة الأمويين وشيعة العباسيين عملوا سويا ـ دون قصد من غير شك ـ على القضاء على ابن حبيب • فزوجة الياس ، الأميرة الأموية ، التى كانت تكن حقدا دفينا لعبد الرحمن لافتآته على ابنى عمها ولدى الوليد بن يزيد وقتلهما. انتهزت الفرصة • وحرضت زوجها الياس على عبد الرحمن ، وقالت : قتل أختانك وأنت صاحب حربه وصاحب سيفه ، وجعل العهد من بعده لحبيب

---

(٨١) أنظر الرقيق ، ص ١٣٤ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٧ ، النويرى ، المخطوط ، ص ٨٩ والترجمة ملحق من خلدون ج ١ ص ٣٦٨) •

ولده ، فهذا تهاون بك »(٨٢) . ونجحت امرأة الياس في اثارته حتى قـــرر الخلاص من عبد الرحمن ، وشاور في ذلك أخاه الآخر عبد الوارث فوافقه . واتسع نطاق المؤامرة بانضمام جماعة من عرب القيروان اليهـــا(٨٣) . وتم الاتفاق بين المتآمرين على أن يخلف الياس أخاه عبد الرحمن في امارة افريقية على أن تعود الدعوة عباسية ، فيعلن طاعته للخليفة المنصور(٨٤) . والظاهر أن عبد الرحمن استشعر بما كان يحيكه أخوه الياس فقرر أن يبعده عن العاصمة ، كما ينص على ذلك ابن الأثير ، فعهد اليه بولاية مدينة تونس(٨٥) .

وكانت فرصة مواتية سهلت تنفيذ المؤامرة . فعندما عهد عبد الرحمن الى الياس بولاية تونس ألمت به وعكة أو مرض خفيف ألزمه الفراش . ولما كان على الياس قبل الخروج الى ولايته أن يودع أخاه الأمير ، فانه قرر انتهاز تلك الفرصة لقتله . ودخل الياس وبصحبته أخوه عبد الوارث على عبد الرحمن الذى كان في غلالة ورداء ، وابن صغير له في حجره . وكان الموقف رهيبا بالنسبة لالياس ، فرغم أنه القائد الذى طالما خاض غمار المعارك وغشى المذابح، فانه تردد طويلا قبل أن يستجيب لتحريض أخيه عبد الوارث الـــذى كان يغمز له ، ويقدم على اغتيال أخيه الأكبر ، وعميد الأسرة ، صاحب التجارب العديدة والأعمال المجيدة . وأخيرا قام الياس ليودع عبد الرحمن « فأكب عليه ووضع السكين بين كتفيه حتى وصل الى صدره ، ثم رد يده على السيف فضربه »(٨٦) . وذهل الياس من هول ما فعل ، وكاد أن يفسد الخطة وإلا

---

(٨٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٦٢ (النويرى ، المخطوط ، ص ٨٨ ب والترجمة في ملحق ابن خلدون ج ١ ص٣٦٨) .

(٨٣) أنظر الرقيق ، ص ١٣٥ (حيث يفهم من الرواية أن صهرا لقاضي افريقية واخباريها عبد الرحمن بن زياد بن أنعم كان له ضلع ما في المؤامرة) ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٢ ، ٦٧ ، وقارن أصل الرواية في الرقيق ، ص ١٣٤ ، النويرى ، المخطوط ، ص ٨٩ أ (جماعة من أهل القيروان والعرب وغيرهم) ، وابن الأثير ، سنة ١٢٦ الذى يجعل قطع الخطبة العباسية اساس ثورة الياس .

(٨٤) أنظر الرقيق ، ص ١٣٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٢ (النويرى ، ص ٨٩ أ والترجمة في ملحق ابن خلدون ، ج ١ ص ٣٦٩) .

(٨٥) أنظر ابن الأثير ، احداث سنة ١٢٦ .

(٨٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٨ ، وقارن أصل الرواية في الرقيق ، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ، النويرى ص ٨٩ أ والترجمة ج ١ ص ٣٦٩) . ونلاحظ هنا أن كلمتي « غلالة ورداء » مكتوبتان في شكل « غلالة وردية» ، ولقد ترجمها دسلان بنفس هذا المعنى أي وردية اللون . وقارن ابن الأثير ، سنة ١٢٦ .

يستفيد من الجريمة ، اذ « خرج هاربا دهشا » . ولا أن رده أصحابه ليحز رأس عبد الرحمن ، ويعلن النبأ على الملأ ، ثم يستولى على دار الامارة(٨٧) .

وعندما علم حبيب بن عبد الرحمن - الذى كان يقيم فى دار الامارة - بما فعله عمه بوالده ، هرب من القيروان من باب تونس ، وسار الى عمه عمران ابن حبيب الذى كان يلى تونس (٨٨) . وهكذا بدأت مملكة الفهريين تتصدع فى آخر سنة ١٣٧ هـ/٧٥٥ م بعد عشر سنوات فقط من اقامتها ، بسبب النزاع بين أفراد الأسرة والطمع فى الامارة(٨٩) .

الياس بن حبيب والصراع مع حبيب بن عبد الرحمن :

أعلنت اذن امارة الياس الذى أعلن طاعته للمنصور ، وبعث بهـــا الى العراق فى معية القاضي عبد الرحمن بن زياد بن أنعم(٩٠) . ولكن الامارة ما كانت تخلص له دون موافقة ولى العهد الأصيل ، حبيب بن عبد الرحمن الذى كان يحشد موالى والده ومواليه وعبيدهما من كل ناحيـــة تونس(٩١) : وأسرع الياس يحاول القضاء على حبيب قبل أن يتفاقم أمره ، وخرج اليـــه حبيب ومعه عمران ، ولكنه بدلا من القتال دارت مفاوضات انتهت الى اتفاقية صلح قصد بها ارضاء جميع الأطراف المتخاصمة من أفراد الأسرة . فلقد تم الاتفاق على تقسيم الولاية الافريقية فتكون تونس وما فى أعمالها من صطفورة والجزيرة (جزيرة شريك أو باشو) لعمران ، وتكون قفصة وما فى أعمالها من بلاد قسطيلية (الجريد) ونفزاوة لحبيب بن عبد الرحمن ، ويكون للالياس الى جانب الامارة سائر افريقية والمغرب(٩٢) . والظاهر أن الياس عندما قبل أن يشاركه أخوه وابن أخيه فى المملكة ، كان يضمر الغدر وعدم تنفيذ الاتفاق . فلقد سار مع أخيه عمران الى مدينة تونس ، وهناك قبض عليه وسيره الى الأندلس مع بعض أفراد الأسرة مثل عمر بن أبى عبيدة ، والأسود بن موسى

---

(٨٧) أنظر الرقيق ، ص ١٣٦ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٨ (النويرى ، ص ٨٩ أ) .

(٨٨) أنظر الرقيق ، ص ١٣٦ (حيث الاشارة الى معاونة عمرو بن عثمان القرشى لحبيب على الهرب من القيروان) . ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٨ (النويرى ، ص ٨٩ أ) ، الترجمة ج ١ ص ٣٦٩) .

(٨٩) هذا ولو أن ابن خياط (ج ٢ ص ٤٤٤) يجعل مقتل عبد الرحمن فى سنة ١٣٨ هـ .

(٩٠) أنظر ابن الأثير ، سنة ١٢٦ ، وعن ابن أنعم أنظر فيما سبق ، ص ٢٨٠ وص ١٠٤ .

(٩١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٨ (النويرى ، ص ٨٩ أ) .

(٩٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٨ ، وقارن الرقيق ، ص ١٣٧ ، (النويرى ، ص ٨٩ ب والترجمة ، ج ١ ص ٣٦٩ - ٣٧٠) ، ابن الأثير ، سنة ١٢٦ .

ابن عبد الرحمن بن عقبة ، وعلى بن قطن(٩٣) ، حيث قريبهم يوسف الفهرى ، وعهد بولاية تونس الى محمد بن المغيرة قبل أن ينصرف الى القيروان(٩٤) ٠

وكان طبيعيا أيضا أن يشوب علاقة الياس بولى العهد السابق نوع من العداء المزوج بالاشفاق والحذر ، الذى انتهى بأن تم نوع من الاتفاق على خروج حبيب هو الآخر الى الاندلس ورغم اختلاف النصوص فيما اذا كان هذا الأمر تم بتدبير من جانب حبيب نفسه أم من جانب عمه الياس فلا بأس من توافق ما كان يدبره كل منهما ٠ والمهم أنه ما أن ركب حبيب البحر مع عمه عبــد الوارث وعدد من مواليه ، وما أن سارت المركب بعض الوقت حتى أرسى حبيب في طبرقة غير بعيد من بنزرت(٩٥) ٠ وكتب الى عمه الياس بأنه فعل ذلك مضطرا عندما ثارت بمركبه الريح ٠ وتوجس الياس خيفة مما يضمره حبيب فكتب الى واليه على طبرقة ، وهو سليمان بن زياد الرعينى ، يحذره من حبيب ، فمنع الوالى نزول « المنفيين » الى البر ٠ وحدث ما كان يتوقعه الياس اذ توافد على طبرقة ، أنصار عبد الرحمن بن حبيب من الموالى وغيرهم ، وطرقوا سليمان ليلا ، « وهو فى معسكره يحارس حبيبا ، فأسروه وشدوا وثاقه ، وركبوا الى حبيب فأخرجوه الى البر »(٩٦) ٠

وسار حبيب وأنصاره من طبرقة جنوبا نحو الأربس ، على يوم من القيروان وتمكن من الاستيلاء عليها ٠ وعندما علم الياس بذلك استخلف على القيروان محمد بن خالد القرشى ، وخرج لملاقاته ، ووقعت بين الطرفين مناوشات خفيفة توقفت عندما أقبل المساء ٠ وقام حبيب باستخدام حيلة ، كانت معروفة فى حروب ذلك الوقت ، للاستيلاء على العاصمة دون قتال : فأوقد النيران فى

---

(٩٣) النويرى ، ص ٨٩ ب والترجمة ج ١ ص ٣٧٠ ٠ وقارن الرقيق ، ص ١٣٧ (حيث اسم عمر بن أبي عبيدة : « عمرو بن نافع بن أبى عبيدة » بينما لا نجد ذكرا لابن قطن) ، وقارن ابن الأثير سنة ١٢٦ ، الذي يقول عن الياس انه قتل أخاه عمران ثم بعث بطاعته الى المنصور ٠

(٩٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٨ (النويرى ، المخطوط ، ص ٨٩ ب) ، وقارن الرقيق ص ١٣٧ (حيث اسم يوسف الفهرى : « يوسف بن عبد الرحمن بن عقبة » ، ومحمد ابن المغيرة القرشى ») ٠

(٩٥) عن طبرقة انظر البكرى (ص ٥٨) الذى يجعلها على مسيرة يوم فريى بنزرت ٠

(٩٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٨ ــ ٦٩ (حيث يقول ان حبيب بن عبد الرحمن هو الذى دبر أمر خروجه من الاندلس) ، وقارن الرقيق ، ص ١٣٧ ــ ١٣٨ ، والنويرى ، ص ٨٩ والترجمة ، ج ١ ص ٣٧٠ ــ حيث الرأى المخالف الذى يقول ان الياس هو الذى زين لحبيب الخروج الى الاندلس) ، وقارن ابن الأثير ، سنة ١٢٦ ــ الذى لا يذكر تلك التفصيلات ٠

معسكره « ليظن الياس أنه مقيم ، ثم سرى فأصبح بجلولاء ثم نفذ الى القيروان فاستولى عليها »(٩٧) ، بعد أن هزم ابن خالد ، وكسر باب السجن وأخرج أخاه سلام بن عبد الرحمن ، ومن كان معه من « صنائع » أبيه ومواليه(٩٨) • وأسرع الياس في اثر حبيب ، ولكن الوقت كان يسير في غير صالحه ، فبينما كان أصحابه ينفضون من حوله ، كان حبيب يزداد قوة(٩٩) • وأمام القيروان خرج حبيب في جمع عظيم للقاء الياس ، ثم انه أراد أن يفسد الأمر على عمه ويستفيد من شبابه فدعاه الى حقن دماء أصحابهما ، فهم مادتهم وأصل قوتهم، وأن يحكما السيف بين شخصيهما فقط ، وذلك بالبراز • ووافق عمه على ذلك ، وبدأ النزال بين الياس وحبيب ، وبذل كل منهما جهده حتى تكسرت قناتاهما ، ثم تضاربا بالسيوف ، « وعجب الناس من صبرهما » • وانتهى الصراع الرهيب بفوز حبيب الذى تمكن من اسقاط عمه وحز رأسه(١٠٠) •

ودخل حبيب القيروان فى موكب نصر غريب ، راياته رأس عمه الياس ورؤس أتباعه مرفوعة على الرماح ، وفيهم عم أبيه محمد بن أبى عبيدة بن عقبة ، ورأس محمد بن المغيرة بن عبد الرحمن القرشى ، وغيرهما من وجوه العرب • وعندما جاء محمد بن عمرو بن مصعب القرشى ، زوج عمة أبيه ، مهنئا أمر به فقتل هو الآخر(١٠١) ، وهكذا خلص الأمر لحبيب بسرعة اذ لم تدم امارة الياس بن حبيب الا الى ما يقرب من عام • فقد كان مقتله فى رجب

---

(٩٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٩ • ولا بأس من الاشارة هنا الى أنه قريب هذا الوقت أراد عبد الرحمن بن معاوية الداخل أن يستخدم مثل هذه الحيلة مع والى الأندلس يوسف الفهرى قريب الياس وحبيب ، ولو أن الفهرى تنبه فى آخر لحظة لذلك التدبير (انظر أخبار مجموعة ، ص ٨٦ ، ليفى بروفنسال ، تاريخ اسبانيا الاسلامية ، بالفرنسية ، ص ٧٣) •

(٩٨) أنظر الرقيق ، ص ١٣٨ •

(٩٩) أنظر الرقيق ، ص ١٣٨ (حيث يقول أن قائدى الياس اللذين كانا على ميمنته وعلى ميسرته وهما : عمرو بن عثمان الفهرى وأبو شريك الجزرى ، خذلاه واعتزلا القتال وطنيا عنه) •

(١٠٠) أنظر الرقيق ، ص ١٣٨ – ١٣٩ (حيث تفصيلات طريفة عن المبارزة وما دار فيها من الكلام والضرب بين العم وابن أخيه) ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٩ ، والنويرى ، ص ٨٩ ب ، ٩٠ أ ، الترجمة ، ج ١ ص ٣٧١ ، ابن الأثير ، سنة ١٢٦ •

(١٠١) أنظر الرقيق ، ص ١٣٩ (النويرى ، ص ٩٠ أ : حيث لقب محمد بن عمرو بن مصعب هو « الفزارى » بدلا من « القرشى ») ، وانظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٩ (الذى أغفل ذكر ضرب عنق محمد بن عمرو بن مصعب) •

من سنة ١٣٨ هـ/ ديسمبر ٧٥٥ - يناير ٧٥٦ م (١٠٢) .

حبيب بن عبد الرحمن ونهاية أسرة الفهريين بافريقية على أيدى الخوارج :

ثار حبيب بن عبد الرحمن لمقتل والده ، وخلص له الأمر ، ولكن استمرار النزاع بين أفراد الأسرة انتهى بها الى الضياع . فبعد مقتل الياس تمكن أخوه وحليفه عبد الوارث من الافلات بمن بقى معه من المنهزمين من أصحاب الياس ، ولجأ الى قبيلة من بربر الخوارج الصفرية هى ورفجومة ، بطن من بطون قبيلة نفزة ، حيث رحب بهم زعيمها عاصم بن جميل (١٠٣) . وكتب حبيب الى عاصم يطلب منه تسليم عمه عبد الوارث وأصحابه . وهدده(١٠٤) وكان رد عاصم بن جميل هو التحالف مع يزيد بن سجوم (سكوم) أمير قبيلة ولهاصة. وبفضل اعلان الولاء والطاعة الى الخليفة الشرعى أبى جعفر المنصور انضمت كل قبائل نفزاوة الى الحلف ، وقررت الخروج لاستخلاص القيروان(١٠٥) . وسار حبيب نحو نفزاوة للقاء عاصم بعد أن استخلف على القيروان القاضى أبا كريب جميل بن كريب المعافرى ، ولكن القتال انتهى بانهزام حبيب نحو قابس ، والاعتصام بها(١٠٦) . وزحف عاصم وبصحبته أخوه مكرم نحو قابس ولكنه

---

(١٠٢) أنظر الرقيق ، ص ١٣٩ ثم ص ١٤١ (حيث ينص على أن ولاية الياس كانت ٦ ، سنة) أشهر ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٩ ، الذى يقول ان ولاية اليأس كانت عاما ونصف عام (وقارن النويرى ص ٩٠أ ، الترجمة ، ج ١ ص ٣٨١ والصفحة التالية ، حيث يقول ان ولاية اليأس دامت عشرة أشهر فقط) .

(١٠٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٩ - ٧٠ (النويرى ، ص ٩٠ أ والترجمة ج ١ ص ٣٧١) ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١١ ، الترجمة ج ١ ص ٢١٦ ، وابن الأثير ، سنة ١٢٦ ، الذى يقول عن عاصم انه « كان ادعى النبوة والكهانة فبدل الدين وزاد فى الصلاة واسقط ذكر النبى صلى الله عليه وسلم من الأذان » . وأنظر الرقيق ، ص ١٣٩ - ١٤٠ (حيث النص مبتور فيما بين مقتل الياس ، والتجاء عبد الوارث الى ورفجومة) .

(١٠٤) ابن عذارى ، ج١ص ٧٠ (النويرى ، ص ٩٠ أ) ، وقارن الرقيق ، ص ١٤٠ .

(١٠٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١١ (القراءة هنا « ولهامة » بدلا من « ولهاصة ») ، الترجمة ، ج١ ص ٢١٩ ، وقارن الرقيق ، ص ١٤٠ (حيث تتضح عدم استقامة النص بسبب ما سقط منه) .

(١٠٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٠ (قارن النويرى ، ص ٩٠ آ ، ٩٠ ب ، الترجمة ، ج ١ ص ٣٧١) ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١١ ، الترجمة ، ج ١ ص ٢١٩ ، وعن القاضى أبو كريب أنظر المالكى ، رقم الترجمة ٧١ ، ج ١ ص ١٠٧ ، وقارن الرقيق ، ص ١٤٠ ، ابن خياط ، ج ٢ ص ٤٦٤ ، حيث اسم القاضى « حميد بن حريث المعافرى » .

تركها وراء ظهره وسافر الى القيروان مباشرة(١٠٧) .

وكان لتظاهر البربر بالدعوة الى الخليفة المنصور أثره في انقسام اهل القيروان ، فعندما اقترب عاصم من عاصمة افريقية كتب اليه والى أشياخ ورفجومة بعض أعيان القيروانيين برغبتهم في الدعاء للخليفة أبي جعفر ، وهم يظنون أن ذلك مناجاة لهم من انتقام البربر(١٠٨) . وهذا ما يفسر كيف انهزم القيروانيون بمجرد خروج بعض عساكر عاصم اليهم ، فتفرقوا ورجعوا الى القيروان ، وتركوا قاضيهم « أبا كريب في نحو ألف رجل من أهل الدين مستسلمين للموت ، فقاتلوا حتى قتل أبو كريب وأكثر أصحابه »(١٠٩) ، وذلك في موضع عرف فيما بعد « بوادي أبي كريب » في ناحية الجبل من القيروان . في سنة ١٣٩ هـ/٧٥٦ م(١١٠) .

وبذلك دخلت قبيلة ورفجومة وحلفاؤها من نفزاوة القيروان . وينص الكتاب على أن الصفرية أساءوا السيرة « فاستحلوا المحارم ، وارتكبوا الكبائر ونزل عاصم بمصلى روح »(١١١) . ثم ترك عاصم بن جميل القيروان ، بعد أن

---

(١٠٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٠ (النويرى ، ص ٩٠ ب ، الترجمة ، ج ١ ص ٣٧٢) ، وقارن ابن خلدون (ج ٦ ص ١١١ ، الترجمة ج ١ ص ٢١٩) الذى يجعل استيلاء عاصم على القيروان عقب هزيمة حبيب مباشرة بمعنى أن الالتقاء كان قرب القيروان ، والحقيقة ان حبيبا هو الذى خرج الى نفزاوة – كما فهمنا من رواية ابن عذارى والنويرى – وهذا هو السبب في التجائه الى قابس التربية .

(١٠٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٠ ، وقارن رواية الرقيق (ص ١٤٠) التى ينقلها النويرى (ص ٩٠ب ،الترجمة ج ١ ص ٣٧١ – ٣٧٢) والتى تقول ان بعض أهل القيروان خرجوا من صفوف البربر وخذلوا الناس ودعوا أهل المدينة الى الانضمام الى جانب عاصم .

(١٠٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٠ (النويرى ، ص ٩٠ ب) . وقارن أصل الرواية في الرياض (حيث كلمة « مستبسلين » أى للموت ، بدلا من « مستسلمين » للموت) .

(١١٠) انظر المالكى ، ج ١ ص ١٧٠ ، ١١٠ . وفي المالكى رواية أخرى (ص ١٠٢) تحدد مقتل أبي كريب في سنة ١٤٠ هـ/ ٧٥٧ م ، وهو ما يسجله أيضا ابن خياط (ج ١ ص ٤٦٤) ولكن هذا التاريخ الأخير هو التاريخ الذى قتل فيه حبيب بن عبد الرحمن .

(١١١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٠ ، وقارن الرقيق ، ص ١٤١ (الذى ينقله النويرى ، ص ٩٠ ب) حيث النص على نزول عاصم بعسكره « في الموضع الذى يسمى مصلى روح » ، مما قد يعني أنه لم ينزل في موضع مخصص للصلاة وهو الأمر المقبول اذ كان المصلى هو مكان صلاة العيد – خارج المدينة . وعن مصلى العيد انظر فيما بعد ، ص ٩٨ ص ٣٧٣ . وعن مصلى روح بن حاتم فانه لم يعرف بهذا الاسم الا بعد ولاية روح في سنة ١٧١ هـ/٧٨٧ م ، وكان بازاء باب أبي الربيع من أبواب القيروان – انظر فيما بعد ، ص ٣٩٣ . وانظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦٢ والترجمة ج ١ ص ٢١٩ – ٢٢٠ ، وابن الاثير ، سنة ١٣٦ .

استخلف عليها عبد الملك بن أبي الجعد اليفرني ، وسار نحو حبيب ابن عبد الرحمن بقابس • ولم يستطع حبيب الوقوف أمام الصفرية فانهزم الى جبل أوراس عسى أن يعصمه الجبل العتيد من مطاردة عاصم التى لا تعرف الهوادة • وفى أوراس حقق حبيب أول انتصاراته على الصفرية ، وتمكن من قتل عاصم وعدد كبير من أصحابه(١١٢) • ورأى حبيب أن يتبع انتصاره هذا بانتزاع القيروان من بين يدى عبد الملك بن أبي الجعد ، ولكنه انهزم ، وقتل فى المحرم سنة ١٤٠ هـ/مايو – يونية ٧٥٧ م ، بعد ولاية دامت حوالى سنة ونصف سنة(١١٣) • وبذلك انتهت أسرة الفهريين أبناء حبيب بن أبي عبيدة ابن عقبة بن نافع • وخلصت القيروان للصفرية الذين استمروا فى الفساد بعد مقتل زعيمهم عاصم بن جميل كما يقول الكتاب ، « فربطوا دوابهم فى المسجد الجامع ، وقتلوا كل من كان من قريش ، وعذبوا أهلها • وسامت ورفجومة أهل القيروان سوء العذاب ، وندم الذين استدعوهم أشد ندامة »(١١٤) •

---

(١١٢) ابن عذارى ، ، ج ١ ص ٧٠ وقارن الرقيق ، ص ١٤١ • ؛ النويرى • ص ٩٠ ب – يسمى عبد الملك « ابن أبي جعدة ») • ابن الأثير • سنة ١٣٦ •

(١١٣) أنظر الرقيق ، ص ١٤١ ، ابن عذارى • ج ١ ص ٧٠ • وقارن ابن خلدون (ج ٦ ص ١١٣ • الترجمة ج ١ ص ٢١٩) الذى يقول ان ابن أبي الجعد قتل حبيبا أثناء انهزامه فى جبل أوراس • وقارن ابن خياط (ج ٢ ص ٤٦٤ – ٤٦٥) بحيث النص على أنه بعد قتل عاصم بن جميل دخل افريقية الى القيروان عبد الرحمن بن خالد بن عمران بن أيوب السهمى ، فقتله ابن أبي الجعد الذى تسميه الرواية « مكرز بن جميل بن عبد الملك بن أبي الجعد » • وذلك فى سنة ١٤١ هـ •

(١١٤) ابن عذارى • ج ١ ص ٧٠ (حيث القراءة : وأساءت ورفجومة لأهل القيروان سوء العذاب ») ، وقارن أصل الرواية فى الرقيق • ص ١٤١ • ابن خلدون ج ٦ ص ١١٣ والترجمة ج ١ ص ٢١٩ – ٢٢٠ •

الفصل الثانى

العصر الذهبى للخوارج

المغرب مابين الصفرية والاباضية

بانتزاع القيروان حقق صفرية نفزاوة سنة ١٤٠ هـ/٧٥٧ م ما كان يهدف اليه اخوانهم صفرية طنجة والمغرب الأقصى فى سنة ١٢٢ هـ/٧٤٠ م ، كما أن هؤلاء الأخيرين أضافوا الى ذلك نجاحا آخر فى نفس الوقت اذ قاموا بتأسيس مركز صفرى جديد لهم ، هو مدينة سجلماسة التى بنوها فى سنة ١٤١ - ١٤٢ هـ(١) ، وبذلك انقطع المغرب - لفترة ما - عن الخلافة تماما ، وخلص للخوارج . وكان من الممكن أن تنجح الحركة الخارجية فى المغرب ، وتحقق حلمها فى اقامة الحكومة الجمهورية المثالية التى تستمد سلطاتها حقيقة من الشعب الذى يتساوى جميع أفراده من المؤمنين فى كل الحقوق والواجبات، والذى يمكن لأى فرد فيه أن يصل الى مركز الامامة (أى رئاسة الجماعة) دون أية تفرقة عنصرية طالما يتمتع بالأهلية .

كان يمكن أن يتم لهم ذلك لولا انقسامهم على أنفسهم الى فرق متنازعة متناحرة فيما بينها ، وتلك كانت آفة الخوارج الذين أضعف من حركاتهم القوية العنيفة حاجتها الى قيادة رشيدة توحدها ، وتلم شملها وتجبر شروخها . فكما انقسم الخوارج فى المشرق الى شيعهم العديدة المعروفة ، انقسموا أيضا فى المغرب - ولو أن انقسامهم هنا كان الى فرقتين فقط : الصفرية . وأول ظهورهم كان فى المغرب الأقصى ، ثم الاباضية ، وكان ظهورهم بعد ذلك بقليل فى طرابلس . وظهور الاباضية فى طرابلس هو فى حقيقة الأمر انشقاق فى جماعة الخوارج بالمغرب ، وذلك أن الاباضية عدلوا

(١) أنظر فيما بعد الفصل الخاص ببناء سجلماسة .

فى مبادىء المذهب ، فمالوا الى الاعتدال والتسامح مما قربهم الى اهل السنة ـ كما أشرنا(٢) ٠

وعلى ذلك لم يكن من الغريب أن يسخط اباضية طرابلس لما سمعوه من سوء سيرة الصفرية ، وما قاموا به من أعمال العنف والتعصب بالقيروان ، وأن يأخذوا على عاتقهم استخلاص العاصمة من بنى ورفجومة وحلفائها ٠ وهكذا تجمع أباضية طرابلس من قبائل هوارة وزناتة فى موضع يقال له صياد غربى طرابلس(٣) ، وولوا على أنفسهم أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى(٤) وهو واحد من خمسة من أئمة الاباضية ، حملة العلم ، الذى ينسب اليهم نشر المذهب فى المغرب(٥) ٠

خرج أبو الخطاب بأصحابه الى مدينة طرابلس وطرد منها اوالى عمرو ابن عثمان القرشى واستولى عليها (٦) ٠ وقوى أبو الخطاب بعد أن استولى على

---

(٢) أنظر فيما سبق ، ص ٣١٨ وهـ ٢٨ ، وما بعدها ٠

(٣) أنظر الشماخى ، سير مشايخ جبل نفوسة ، ص ١٢٥ ٠

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧١ . وقارن الكندى (ص ١٠٩) . ابن خلدون (ج ٦ ص ١١٢ ، الترجمة ج ١ ص ٢٢٠ حيث القراءة ابن الشيخ خطأ بدلا من ابن السمح) ٠ أنظر الشماخى . السير ، ص ١٢٧ (حيث يقول ان امرأة استغاثت فى القيروان فمد الله فى صوتها حتى سمعها أبو الخطاب ٠ أما اصل هذه الرواية فى الرقيق (ص ١٤١ ـ ١٤٢) ، وكما ينقلها النويرى (المخطوط . ص ٩١ أ والترجمة ج ١ ص ٣٧٣) فيقول ان رجلا من الاباضية دخل القيروان فلما رأى : تاسامن الورفجوميين قد أخذوا امرأة وكابروها على نفسها ، وهو ينظر والناس ينظرون . ترك حاجته التى أتى فيها ، وخرج حتى أتى أبا الخطاب عبد الأعلى (العالى) بن السمح المعافرى . فأعلمه الذى رأى ٠ وكذلك ابن الأثير ، سنة ١٢٦) ٠

(٥) أنظر الشماخى . السير . ص ١٢٣ ـ الذى يذكر رواية عن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم : ان سلمة بن سعيد أول من دعا للمذهب الاباضى فى المغرب ، حرض تلاميذه الأربعة الأوائل . وهم : عبد الرحمن بن رستم ، وعاصم السدراتى ، واسماعيل بن دراد الغدامسى ، وداود القبلى النفزاوى . على الذهاب الى البصرة لأخذ تعاليم المذهب من فقيهه فى ذلك الوقت ، وهو أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة التميمى (مولى بنى تميم) ٠ وفى البصرة انضم الى الأربعة أبو الخطاب بن عبد الأعلى بن السمح المعافرى ، ومكث الخمسة عدة سنين بالبصرة يدرسون المذهب خفية من أمراء البصرة فى سرب على فمه سلسلة تنفرض برتينها اذا دخل عليهم أحد ٠ ثم انهم عادوا الى افريقية بعد أن اشار عليهم أبو عبيدة أن يؤمروا عليهم أبا الخطاب فان أبى فقتلوه ٠ وأنظر الزاوى . تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ٠ ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ٠

(٦) أنظر الرقيق ، ص ١٤٢ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٧١ (النويرى ، ص ٩١ أ ، الترجمة ، ج ١ ص ٣٧٣) وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١٢ ٠ الترجمة ج ٢ ص ٢٢ ، =

اقليم طرابلس كله ، فجمع كل قبائل زناتة وهوارة هناك . وسار نحـو القيروان . ولا نعرف ان كان الجدب ذلك العام من الأسباب التي أدت الى خروج تلك الجماعات البدوية الفقيرة الى بلاد القيروان ، وذلك أن الشماخي ينسبه بفعل أبي الخطاب ، ويقول انه خرج رغم أن العام كان عام جدب[7] . وفي الطريق استولى أبو الخطاب على قابس[8]، قبل أن يتم اللقاء قرب القيروان بينه وبين ابن أبي الجعد . وانتهى القتال بانتصار الاباضية انتصارا هائلا على الصفرية ، ومقتل ابن أبي الجعد وكثير من أصحابه ، وذلك في شهر صفر سنة ١٤١ هـ/يونية ـ يولية ٧٥٨ م أي بعد تغلب ورفجومة على القيروان بسنة وشهرين[9] . ودخل أبو الخطاب القيروان بعد أن ثأر من ورفجومة ، وبعد أن أقر الأمور في المدينة ولى عليها صـــاحبه عبد الرحمن بن رستم ـ الذي سيؤسس فيما بعد امارة الاباضية المشهورة في تاهرت ـ وعاد هو الى بلاده طرابلس[10] .

موقف الخليفة المنصور من خوارج افريقية :

تخلصت القيروان اذن من الصفرية ، ووقعت بين أيدي الاباضية ، ورغم أن هؤلاء استغلوا فكرة الدعوة لأبي جعفر المنصور لصالحهم ضـــد ورفجومة وحلفائها ، الا أنهم لم يكونوا مستعدين حقيقة للخضوع للخلافة العباسية ، والظاهر أن مشاغل المشرق (من ثورة عبد الله بن علي والتخلص من أبي مسلم) استغرقت كل هم الخليفة المنصور فلم يرد بسرعة على عصيان عبد الرحمن

= وقارن أيضا الشماخي (السير ، ص ١٢٦) الذي يقول ان أبا الخطاب أخذ طرابلس عن غفلة من أهلها اذ أدخل اليها رجاله في الجواليق على هيئة الرفقة .

(٧) الشماخي ، السير ، ص ١٢٧ .

(٨) نفس المصدر ص ١٢٨ .

(٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧١ (انظر النويرى ، ص ٩١ أ ، الترجمة ج ١ ص ٣٧٣). وعن ابن خلدون (ج ٢ ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥) : حيث اسم ابن أبي الجعد « مكرز بن أبي معيل » ابن عبد الملك (انظر فيما سبق ، هـ ١١٣ ص ٣٣٩) .

(١٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧١ ، النويرى ، ص ٩١ أ (يصف ابن رستم بالقاضي) والترجمة ج ١ ص ٣٧٣ . ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١٢ (عبد الرحمن بن رستم) والترجمة ج ١ ص ٢٢٠ ، ابن الأثير ، ١٣٦ ، والشماخي ، السير ، ص ١٣٠ . وعن استقرار عبد الرحمن بن رستم في القيروان كنائب لأبي الخطاب وظهوره بمظهر الأمير حيث ضرب النقود باسمه في عاصمة « افريقيا » فيما بين سنة ١٤٢ هـ وسنة ١٤٤ ، انظر حسن حسني عبد الوهاب ، الورقات ، قسم ١ ص ٤٢٥ .

ابن حبيب ، كما أنه لم يمد أعوان العباسيين فى أفريقية ، ولـــم يستجب لاستغاثة فقهاء القيروان وعلمائها ـ الذين ساروا اليه وعلى رأسهم عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم قاضى افريقية، ونافع بن عبد الرحمن السلمى ، وأبو البهلول ابن عبيدة ، وأبو العرباض ـ من ورفجومة ، وما قامت به من الافساد (١١) ٠ وعندما استعدت الخلافة للتدخل فى المغرب فى سنة ١٤٢ هـ/٧٥٩ ـ ٧٦٠ م كان مركز الخطورة قد انتقل أكثر فأكثر نحو المشرق فكان عليها أن تواجه أبا الخطاب ومن معه من الاباضية فى طرابلس ٠

وبدأ التدخل عندما ولى مصر القائد العباسي المشهور محمد بن الأشعث الذى سير قواته الموجودة فى برقة بقيادة العوام بن عبد العزيز البجلى ، ولكن العوام لم يستطع الوقوف أمام مالك بن سحران الهوارى الذى بعثه أبو الخطاب فانهزم فى أرض سرت(١٢) ٠ وسير ابن الأشعث فى سنة ١٤٢ هـ/٧٥٩ ـ ٧٦٠ م أحد قواده ، وهو ابو الاحوص بن الأحوص العجلى ، على رأس القوات العباسية نحو المغرب من جديد ، فخرج أبو الخطاب للقائه ٠ وتجمع فى قطـــع طريقه عند موضع على شاطىء البحر يعرف بمغمداس فى منتصف المسافة بين قصور حسان وسرت(١٣) ٠ ودارت معركة حامية انتهت بانهزام « المسودة » ومقتل كثير منهم ، واضطر أبو الأحوص الى العودة الى قواعده فى مصر ، بينما انصرف أبو الخطاب مظفرا غانما الى طرابلس(١٤) ٠

(١١) المالكى ، رياض النفوس ، الترجمة ٦٧ ، ج ١ ص ١٠٢ ، النويرى ، ص ٩١ ب ، والترجمة ج ١ ص ٣٧٤ ٠ أما عن القاضى عبد الرحمن بن زياد بن أنعم فلقد قام بمهمة مماثلة عندما سار الى المنصور يحمل طاعة الياس بن حبيب (ابن الأثير ، سنة ١٢٦) ، وانظر فيما سبق ، ص ٣٣٤ وهـ ٩٠ ٠

(١٢) الشماخى ، السير ، ص ١٣٠ ٠

(١٣) البكرى ، ص ٧ ، الشماخى ، ص ١٣٠ ٠ وأنظر ابن عذارى (ج ١ ص ٧١) الذى يسمى الموضع مقداس ٠ وقارن الكندى حيث فضل المحقق قراءة ابن عذارى « بمقداس » على « بمغمداس » رغم أن الموجود فى الأصل هو بمعيداس وهى أقرب الى بمغمداس (الكندى ، ص ١٠٩ وهامش ٤) ٠ ومع أن الجغرافيين لا يذكرون مقداس فان الزاوى يظن أن المقصود هو مقداس بغربى تاورغة وهو قصر قديم بين سونجين ودمزم على طريق سرت ، الفتح العربى فى ليبيا ، ص ١٢٣ ـ ١٢٤ ، وانظر فيما سبق ص ٩٣ وهامش ١٣٤ (حيث خلط البعض بين مغمداس وغدامس) ٠

(١٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٢ ، الكندى ص ١٠٩ ، ابن الأثير ، سنة ١٢٦ ٠

ولاية محمد بن الأشعث :

ووصلت أنباء الهزيمة الى المنصور فكان رد فعله سريعا اذ عهد بافريقية الى ابن الاشعث وأرسل اليه الجيوش ، وأمره بالمسير بسرعة ٠ وجمع محمد ابن الأشعث قواته وعسكر بهـــا في الجيزة في أوائل شهري ذي الحجـة سنة ١٤٢ هـ/أواخر مارس ٧٦٠ م ، وبعد أداء صلاة عيد الأضحى سار على رأس الجيش عابرا النيل في الطريق الى الاسكندرية ، بعد أن استخلف على الفسطاط محمد بن معاوية بن بجير بن ريســــان(١٥) ٠ وخـــرج ابن الأشعث في ٤٠ (أربعين) ألف رجل منهم ٣٠ (ثلاثون) ألفا من جند خراسان ، و ١٠ (عشرة) آلاف من جند الشام عليهم ٢٨ (ثمانية وعشرون) قائدا منهم الأغلب بن سالم التميمي والمحارب بن هلال الفارسي ، والمخارق بن غفار الطائي يلونه في القيادة(١٦) ٠ وانظاهر أنه تريث في الطريق ، وأخذ يستقصي أخبـــار أبي الخطاب الذي استعد بدوره فطلب المعونة من ابن رستم بالقيروان وحشد حشودا عظيمة يقول ابن عذاري انها بلغت ٢٠٠ (مائتي) ألف رجل ، وذلك أن اللقاء بينه وبين الاباضـــية لم يتم الا في أوائل سنة ١٤٤ هـ/ابريل — مايو ٧٦١ م(١٧) ٠

ومن حسن حظ ابن الأشعث أن الوئام لم يستمر طويلا بين الاباضية ، اذ لم تلبث الحزازات العصبية أن قسمتهم ٠ فلقد قام النزاع بين زناتة وهوارة، واتهم الزناتية أبا الخطاب بأنه يحابي أبناء عصبيته الهواريين ، وفارقه عدد كبير منهم(١٨) ٠ وعندما وصلت هذه الأنباء المشجعة الى محمد بن الأشعث

---

(١٥) الكندي ، ص ١٠٩ ٠

(١٦) النويري ، المخطوط ، ص ٩١ ب والترجمة ، ج ١ ص ٣٧٤ (توفي المحارب قبل وصول ابن الأشعث الى افريقية) ، وقارن ابن الاثير ، سنة ١٢٦ (سار في ٥٠ ألفا) ، أما عن الرقيق الذي ينقل منه النويري ، فروايته مخرومة في هذا الموضع (أنظر ص ١٤٢) ، وقارن ابن الآبار ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٩ (حيث عدد القواد ١٢٨ قائدا ، أما عن عدد أهل الشام فهو ١٠ آلاف أو ألفان فقط) ٠

(١٧) ابن عذاري ، ج ١ ص ٧١ ، ٧٢ (النويري ، ص ٩١ ب ، الترجمة ج ١ ص ٣٧٤) ، وقارن ابن خياط (ج ٢ ص ٤٦٤ — ٤٦٥) : حيث يجعل مقتل أبي الخطاب في سنة ١٤٣ هـ ٠ ويصف الشماخي (السير ، ص ١٣٦) أصحاب أبي الخطاب فيقول ان جواسيس ابن الأشعث قالوا له عن أبي الخطاب ورجاله « رأينا رهبانا بالليل ، أسودا بالنهار ، يتمنون الجهاد بقتالكم كما يتمنى المريض لقاء الطبيب ٠٠ » ٠ وانظر ابن الاثير ، سنة ١٢٦ ٠

(١٨) ابن عذاري ، ج ١ ص ٧١ ، ٧٢ (النويري ، ص ٩٢ أ ، الترجمة ج ١ ص ٣٧٥) ، =

أسرع يطوى المراحل سرا نحو أبي الخطاب الذى فوجىء به فى حيز طرابلس (عند سرت) • وتم اللقاء بينهما فى أرض سرت فى موضع بتاورغة يعرف عند النويرى ، الذي ينقل عن الرقيق ، بورداسة حيث سبق ابن الأشعث ، حسب الرواية الاباضية ، الى الماء[19] • وبعد معركة دامية ثبت فيها عسكر الخلافة انهزم البربر ، وقتل أبو الخطاب وعدد غفير من أصحابه ، وتناثر عقد المنهزمين الذين تتبعتهم قوات الخلافة الى قابس[20] •

وظن ابن الأشعث أن ثورة الاباضية قد انتهت بمقتل أبي الخطاب ، ولكن الأمر تطلب موقعة ثانية ـ تماما كما حـــدث لحنظلة بن صفوان فى وقعتى الأصنام والقرن ـ اذ لم تلبث زناتة أن قامت عليه فى ١٦ (ستة عشر) ألف رجل عليهم أبو هريرة الزناتي ، فهزمهم ابن الأشعث فى ربيع الأول من نفس السنة (١٤٤ هـ/يونية ـ يولية ٧٦١ م[21] •

وبعث ابن الأشعث بأنباء النصر مع رأس ابن الخطاب الى الخليفة[22] ثم

= ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١٢ (يلاحظ اضطراب النص هنا) والترجمة ج ١ ص ٢٢٠ • وانظر الشماخي (السير ، ص ١٣٠) الذى يرجع مسير قوات المصور الى افريقية بسبب الخلاف بين الاباضية • فهو يقول ان أحدهم ، وهو جميل السدراتى ـ الذى أدبه أبو الخطاب فى القيروان عند حرب ورفجومة بسبب خروجه على نظام الجماعة الذى لا يسمح بالنهب والسلب (ص ١٢٩) ـ خرج الى المنصور ، وحرضه على ارسال الجيوش معه الى القيروان • هذا ولو أنه يفسر انصراف أصحاب أبي الخطاب تفسيرا آخر فيقول « تفرق أصحاب أبي الخطاب لأن الوقت كان وقت زرع » •

(١٩) أنظر النويرى ، المخطوط ، ص ٩٢ أ الذى يقول ان ابن الأشعث ضبط أفواه السكك حتى انقطع خبره عن أبي الخطاب الذى رجع عندئذ الى طرابلس ، الشماخي ، سير مشايخ جبل نفوسة ، ص ١٣٢ •

(٢٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧١ ، ٧٢ ، وقارن النويرى ص ٩٢ أ والترجمة ج ١ ص ٣٧٥ الذى يرجع هزيمة البربر الى خدعة قام بها ابن الأشعث اذ أذاع أنه سيعود الى مصر حسب طلب الخليفة ، ورجع فعلا بضعة أميال ثم فجأ أبا الخطاب في ورداسة • قارن الرقيق ص ١٤٣ ، حيث القراءة « ودراسة » • هذا . كما تبالغ رواية النويرى (الرقيق) فتقول ان عدد القتلى من رجال أبي الخطاب بلغ ٤٠ (أربعين) ألف رجل • بينما يحددهم الشماخى (السير ص ١٣٢) بما يتراوح ما بين ١٢ ألف (اثنى عشر) ألفا و ١٤ (أربعة عشر) ألفا •

(٢١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٢ (قارن النويرى ، ص ٩٢ أ الترجمة ج ١ ص ٣٧٥ الذى يجعل ذلك تاريخا لمقتل أبي الخطاب كما فعل البكرى ، ص ٦٨) ، ابن الأثير ، سنة ١٢٦ •

(٢٢) ابن عذارى ج ١ ص ٧٣ ـ حيث يقول انه وجه برأس أبي الخطاب الى بغداد ـ والمقصود الى المنصور . فبغداد لم يبدأ بناؤها الا فى السنة التالية (١٤٥ هـ) •

دخل مدينة طرابلس ، وعهد بولايتها الى المخارق بن غفار الطائى(٢٣) • وعندما وصلت أنباء الكارثة التي حلت بالاباضية الى القيروان تركها نائب أبى الخطاب، وهو عبد الرحمن بن رستم ، وسار نحو المغرب الى حيث سيبنى مدينة تاهرت الجديدة التي أصبحت عاصمة الاباضية في المغرب الأوسط الى قيام الدولة الفاطمية بالمغرب في نهاية القرن الثالث الهجرى (٩ م)(٢٤) • وبعد فرار ابن رستم أخذ أهل القيروان عاملة لديهم ، وأوثقوه فى الحديد ، واختاروا عمرو بن عثمان القرشي واليا عليهم الى أن وصل ابن الأشعث ودخل القيروان في جمادى الأول سنة ١٤٤/أغسطس ٧٦١ م(٢٥) وبذلك استعادة الخلافة بلاد افريقية ، ولكن الى القيروان فقط ، ومع بقاء المذهب الخارجي متغلغلا بين قبائل البربر من طرابلس الى تامسنا (بلاد برغواطة) فى المغرب الأقصى شمالا ، ومن صحراوات فزان الى صحراوات سجلماسة جنوبا ، بمعنى أن بلاد القيروان أصبحت أشبه ما تكون بجزيرة وسط بحر من الأعداء السياسيين والمذهبيين • ولقد عرف ابن الأشعث ذلك ، ورأى أن أول ما ينبغيعمله هو تحصين العاصمة حتى تتمكن من مواجهة خصومها المحيطين بها • فبدأ ببناء سور القيروان فى شهر ذى القعدة من سنة ١٤٤ هـ/فبراير ٧٦٢ م ، واستغرق البناء كل سنة ١٤٥ هـ/٦٢ — ٧٦٣ م ، وتم فى رجب من سنة ١٤٦ هـ/ سبتمبر — أكتوبر ٧٦٣ م(٢٦) ، أى فى نفس الوقت الذى كان الخليفة المنصور مشغولا ببناء بغداد • .

ولقد ساعد ابن الأشعث على انجاز عمله العمرانى هذا أن سنة ١٤٥ هـ كانت سنة خصب ، كما مكنه ذلك من القضاء على بقايا المخالفين من الخوارج •

---

(٢٣) النويرى ، ص ٩٢ ب والترجمة ج ١ ص ٣٧٦ •

(٢٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٣ (النويرى ، ص ٩٢ أ — القراءة « سهرت » بدلا من « تيهرت » ، وقارن ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٤ . والترجمة ج ١ ص ٢٢٠ ، البكرى ، ص ٦٨ ، وقارن الشماخي (السير ، ص ١٣٢ — ١٣٣) حيث تقول الرواية الاباضية — على عكس ذلك — دون ذكر السند — أن عبد الرحمن بن رستم كان فى المعركة مع أبى الخطاب ، وانه دخل القيروان مستخفيا حيث قبض عليه عبد الرحمن بن حبيب ولكن أحد القيروانيين شفع له فأطلقه • والظاهر أن الرواية المنقبية تريد أن تعطى لترجمة ابن رستم ، بصفته أحد حملة العلم ، لونا قصصيا فيه مسحة من كرامات الأولياء •

(٢٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٢ (النويرى ، المخطوط ، ص ٩٢ أ — عمر بن عثمان القرشي) •

(٢٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٢ — ٧٣ ، النويرى ، ص ٩١ ب ، الترجمة ، ج ١ ص ٣٧٦ التى يحدد الأمر ببناء السور فى أول شهر جمادى الأول/اغسطس ٧٦٢ م •

ففي نفس السنة أرسل حملة بقيادة اسماعيل بن عكرمة الخزاعي الى زويلة وودان ، ونجحت الحملة في الاستيلاء على المدينتين ، وقضت على الاباضية بهما ، وقتلت زعيمهم بزويلة ، وهو عبد الله بن حيان الاباضي(٢٧) . ونجح ابن الأشعث في اخضاع كل خصومه من البربر في حدود ولايته حتى قال ابن عذاري في أخبار سنة ١٤٥ هـ : « وسكن ابن الأشعث أحوال أهل افريقية في هذه السنة ، فلم تكن بها حركة له » ، وذلك رغم اشارته الى « حركة » زويلة وودان(٢٨) . وهكذا لا نجد أحداثا هامة ــ من تلك التي اعتدناها منذ مدة ــ في السنتين التاليتين ، الى أن ينهار محمد ابن الأشعث فجأة في سنة ١٤٨ هـ .

اضطراب العسكر الخلافي :

انهيار ابن الأشعث ، وولاية الأغلب بن سالم التميمي :

وكان انهيار ابن الأشعث نتيجة لآفة جديدة بدأت تدب في افريقية ، فهو لم يسقط نتيجة لثورات البربر والخوارج بل بسبب عدم انتظام الجند الخراساني . ففي سنة ١٤٨ هـ/٧٦٥ م ثار عليه أحد قواد الجند المضري ، واسمه عيسى بن موسى بن عجلان مع عدد من رؤساء الجند ، وحاصروه مدة في القيروان ، وأرغموه على الخروج واعتزال الولاية وتركها لعيسى بن موسى الخراساني في ربيع الأول/مايو(٢٩) . واستمر تغلب عيسى على القيروان لمدة ٣ (ثلاثة) أشهر « من غير عهد من المنصور ، ولا رضى منه ، ولا تراضي من العامة » ، فكانت فرصة لغيره من العرب والجند للتغلب على بعض أطراف من البلاد(٣٠) . والظاهر أن أنباء عصيان العسكر خرجت من القيروان قبل

---

(٢٧) ابن عذاري ، ج ١ ص ٧٣ ، وقارن النويري ، ص ٩٢ ب ، الترجمة ج ١ ص ٣٧٦ . وابن الأثير (سنة ١٢٦) الذي يسميه عبد الله بن سنان .

(٢٨) ابن عذاري ، ج ١ ص ٧٣ .

(٢٩) ابن عذاري ، ج ١ ص ٧٣ ، ٧٤ ، وانظر ابن خياط ، ج ٢ ص ٤٦٤ ــ ٤٦٥ ، والسلاوي الذي يورد رواية الرقيق (ص ١٣٥) ، ولو انه خلط قبل ذلك ما بين ابن الأشعث وعمر بن حفص .

(٣٠) ابن عذاري ، ج ١ ص ٧٣ ، وقارن النويري (ص ٩٢ ب ، الترجمة ، ج ١ ص ٣٣٧) الذي يقول انه لم يبايع عيسى سوى رؤساء المضرية بمعنى أن العسكر الخراساني كان مضربا شربيا من مضر . وهنا يشير الى أن ابن الأثير سنة ١٢٦) يسبق ثورة عيسى هذه بثورة قام بها سنة ١٤٧ هـ أحد الجند واسمه هاشم بن الشاحج بقمونية وسار كه فيها =

خروج ابن الاشعث وان الخليفة المنصور قرر حسم الأمر بتوليه أحمد قواد جيش افريقية(٣١) ، وتوسم في الأغلب بن سالم التميمي والى طبنة (الزاب) - الذى سينجح بنوه في اقامة أسرة مالكة في البلاد فيما بعد - الكفاءة والمقدرة على ضبط الأمور ، فبعث اليه بعهده في آخر شهر جمادى الآخرة من نفس السنة/أغسطس ٧٦٥ م • وبعد ذلك وصلت الأغلب تعليمات الخليفة « يأمره بالعدل في الرعية ، وحسن السيرة في الجند ، وتحصين مدينة القيروان وخندقها ، وترتيب حراسها ومن يترك فيها اذا رحل الى عدوه ، وغير ذلك من أمور » (٣٢) • ونجح الأغلب في السيطرة على العسكر ، وملك ناصية الأمور فاستقامت له ، حتى أنه لم يكن في السنة التالية (١٤٩/٧٦٦) « حركة »(٣٣)

بداية ابو قرة المغيلى الصفرى :

ولم يقدر للأغلب أن يمكث في ولاية القيروان الا سنة وثمانية أشهر فقط انتهت بمقتله أثناء صراعه ضد الجند الخلافى الخارج على النظام والطاعة ، ونتيجة لاضطراب الخوارج • ففى سنة ١٥٠ هـ/٧٦٧ م ثارت الخوارج الصفرية من قبيلة بنى يفرن ، احدى قبائل زناتة ، ومعها بربر قبيلة مغيلة وذلك في المغرب الأوسط بقيادة أبي قرة اليفرني الذى جعلوه اماما واتجهوا نحو القيروان(٣٤) • واستعد الأغلب لحرب الصفرية ، وخرج من القيروان في معظم قواته وقواده ، بعد أن ترك أحدهم وهو سالم بن سوادة التميمي نائبا عنه ، واتخذ طريق الزاب(٣٥) • وعندما اقترب الأغلب من موضع أبى قرة هرب هذا الأخير وتفرق أصحابه ، مما جعل الاغلب يقرر الذهاب الى عقر دار قبائل

= قواد المضرية • ولقد انهزم هاشم الى تاهرت ثم عاد بالبربر الى تهودة ومنها سار الى طرابلس حيث قتله نائب المنصور •

(٣١) أنظر النويرى ، (ص ٩٢ ب ، الترجمة ج ١ ص ٣٧٦) الذى يقول ان سبب الثورة هو سماع الجند بأن ابن الأشعث استدعاه المنصور فرفض المسير اليه •

(٣٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٤ ، وقارن النويرى ، ص ٩٢ ب ، الترجمة ج ١ ص ٣٧٧ ، وابن خلدون ، ج ٦ ص ١١٢ ، الترجمة ج ١ ص ٢٢١ • وابن الأثير ، سنة ١٤٨ •

(٣٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٤ •

(٣٤) نفس المصدر ، وقارن ابن خلدون (ج ٦ ص ١١٢ ، الترجمة ج ١ ص ٢٢٢) الذى يجعل ذلك في سنة ١٤٨ هـ/٧٦٥ م ، وفي ذلك خلط بين ثورة الجند على ابن الأشعث وثورتهم على الأغلب ، ابن الأثير ، سنة ١٤٨ ، أنظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ٦٩ (حيث يصف أبا قرة بالبربرى) •

(٣٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٤ (النويرى ، ص ٩٣ أ ، الترجمة ج ١ ص ٣٣٧) •

زناتة ومهاجمتها في قاعدتها تلمسان ، وكذلك في طنجة · وهنا ظهر عدم انتظام الجيش من جديد اذ كره الجند المسير معه ، وأخذوا يتسللون عنــــه الى القيروان ، حتى لم يبق معه منهم الا عدد قليل(٣٦) ·

ثورة الحسن بن حرب الكندي ومقتل الأغلب (١٥٠ هـ/٧٦٧ م) :

والظاهر أن الأمر كان مدبرا من قبل بمعرفة والى تونس ، الحسن بن حرب الكندى ، وأنه تمت اتصالات بين هذا الأخير وبين القواد اذ لحق به عدد كبير منهم ، مثل : بسطام بن الهذيل ، والفضل بن محمد ، وانتهز المتآمرون خلو القيروان من العسكر فساروا اليها وغلبوا سالم بن ســـوادة على أمره ، وأخذه الحسن بن حرب ووضعه فى الحبس(٣٧) · وعندما بلـــغ الأغلب الخبر رجع سريعا بمن بقى معه من الجند ، وكتب الى الحسن يرغبه فى الطاعة ويرهبه من العصيان ، فكان رد الحسن عليه هو الاختيار بين قبول الأمر أو تحكيم السيف(٣٨) ·

ويفهم من روايتي صاحب كتاب العيون والحدائق وابن عذارى أن الأغلب انهزم أمام الحسن فى ربيع الأول/ابريل واضطر الى الالتجــــاء الى قابس ثم طرابلس ، وأنه كتب الى الخليفة يستشيره فى الأمر(٣٩) · ولما ورد اليه كتاب

---

(٣٦) نفس المصدر السابق ، وقارن ابن خلدون (ج ١ ص ١١٢ ، الترجمة ج ١ ص ٢٢١) الذى يسمى الأغلب بابن سود (سواده) والحقيقة ان ابن سوادة هو نائب الأغلب فى القيروان ·

(٣٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٧ (النويرى ، ص ٩٣ أ ، الترجمة ج ١ ص ٣٧٧) ·

(٣٨) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٤ (النويرى ، ص ٩٣ أ ، الترجمة ج ١ ص ٣٧٧) حيث يذكر أن الحسن ذيل رده بأبيات يقول فيها :

الا قـــولـــوا لأغلب غـــير ســـر	مغلغلة عـــن الحسن بن حــــرب
بـــأن البغى مرتعـــة وخيـــم	عليك وقـــرية لك شـــر قـــرب
فان لـــم تنثنى لتنـــال ســـلمى	وعفـــوى فادن من طعنى وضــــربى

وهناك اختلاف فى نص البيتين الأول والثالث كما ورد فى ابن عذارى وفى النويرى · ففى النويرى يبدأ البيت الأول بـ « الا قولا » بدلا من « الا قولوا » · وفى ابن عذارى « غير سر » بدلا من « غيرسر » · أما عن البيت الثالث فهو فى النويرى « وان لم تثنني لينال سلمى والا فادن من طعنى وضربى » · وقارن الحلة السيراء ج ١ ص ٧٠ (حيث اختلاف كبير فى البيتين الأولين) ·

(٣٩) العيون والحدائق ، ج ٣ ط · ليدن ١٨٧١ ، ٢٦١ ــ ٢٦٢ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٤ ــ ٧٥ ·

المنصور وليس فيه أمر بعزله أو باستعمال غيره بل فيه دعوة الى الحسن بن حرب بالطاعة ، ولما رفض الحسن ان يستجيب لنداء الخليفة سار اليه الأغلب في شهر رجب أى بعد أربعة أشهر من سيطرته على افريقية ، وأرغمه على الانسحاب الى تونس ، عمنه الأول ، ودخل الاغلب القيروان ، واستمر الحسن في عصيانه وحشد جموعا كبيرة سار بها الى القيروان من جديد ، وخرج الأغلب اليه وقد حشد كل ما أمكنه حشده حتى أهل بيته وخاصته ، وانتهى القتال المرير دون نتيجة حاسمة ، اذ فر الحسن بينما أصيب الاغلب بسهم طائش ومات متأثرا بجراحه في شعبان من تلك السنة (١٥٠ هـ) سبتمبر ٧٦٧م (٤٠) ، بعد أن استخلف على افريقية المخارق بن غفار الطائى التى تمت له بيعة أهل القيروان في الشهر التالى (رمضان/أكتوبر) ، وفرز المخارق الذى اعترف المنصور بولايته(٤١) الثار لموت الأغلب فارسل قوة من فرسان القيروان الى تونس ، فهرب الحسن بن حرب الى بلاد كتامة (شرق الجـــزائر الحالية) حيث أقام شهرين ثم انه عاد الى تونس ليلقى حتفه على أيدى رجال حاميتها(٤٢) ، بموضع يعرف بسوق الأحد ، كما يقول البلاذرى(٤٣) .

---

(٤٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٤ ـ ٧٥ ، وقارن النويرى (٩٣ ب ، الترجمة ج ١ ص ٣٧٨) الذى يعطى تفصيلات عن سير المعركة وكيف انكسرت ميمنة الحسن ، وكيف توغل الأغلب في القلب وهو يضرب أعداءه الى أن أصيب بسهم ، ابن الأثير ، سنة ١٤٨ هـ ، وقارن الحلة السيراء ، ج ١ ص ٧٠ ; حيث الاشارة الى خروج الاغلب من « باب أصرم » من أبواب القيروان ، وحيث الاشارة الى تفصيلات القتال التى يذكرها النويرى ، والتى ينقلها من الرقيق ، كما نظن ، من : حمل الاغلب على ميمنة الحسن ثم على الميسرة والقلب ، وهو ينشد أشعار الحماسة ، كما هو الحال في قصص الاخباريين القديم ، وفي موت الأغلب الذى عرف بالشهيد وكذلك حظه الشعراء في مراثيهم ، تقول الرواية انه عندما بلغ المنصور موته ، قال : « ان مثلى مثلكم ... فانى ربح الله دولتنا والا فلا مقرب » ، ومن الواضح ... وتلك المراثى تأتى من عمل الكتاب والشعراء الذين خدموا الامرة الأغلبية فيما بعد ، وقارن العيون والحدائق (ج ٣ ص ٢٦٢) حيث وفاة الأغلب فى شهر رمضان .

(٤١) انظر تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٤٦٥ ، العيون والحدائق ، ج ٣ ص ٢٦٢ .

(٤٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٧ ، وقارن النويرى (الذى يذكر موت الحسن بعد اصابة الأغلب ... في المعركة السابقة) ، وابن خلدون ، ج ٦ ص ١١٢ والترجمة ، ج ١ ص ٢٢١ (... ١ من الترجمة ص ٣٧٩) الذى يذكر الروايتين ، وانظر ابن الأثير ، سنة ١٤٨ ; الذى يقول ان الاغلب سمى الشهيد وهو ما نص عليه البلاذرى ، ص ٢٣٣) والحلة السيراء (ترجمة الحسن الكندى) ج ١ ص ٧٣ ، حيث الاشارة الى هزيمة الحسن الى تونس حيث ... آخر ... .

(٤٣) فتوح البلدان ، ص ٢٣٣

الفصل الثالث

المهلبيون فى إفريقية

عمر بن حفص بن قبيصة واستمرار الصراع ضد الخوارج :

عندما علم المنصور بمقتل الأغلب بن سالم فى افريقية اختار رجلا فى مستوى الأحداث الخطيرة فى المغرب ، هو أبو جعفر عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة (أخي المهلب) ، من أسرة المهلب بن أبى صفرة التىاشتهرت بحروبها ضد خوارج المشرق من الأزارقة. عرف عمر بن حفص بأنه بطل شجاع حتى لقب بهزارمرد (أى ألف رجل بالفارسية)(١) ، وعلى ذلك سيره المنصور الى المغرب على رأس ٥٠٠ فارس . والظاهر أن ما عرف به عمر بن حفص من الشجاعة والحكمة الى جانب اسم أسرته اللامع كان كافيا لأن يفرض نفسه على الجميع ، اذ دخل القيروان فى صفر سنة ١٥١ هـ/مارس ٧٦٨ وتسلم الامارة من المخارق دون حدث ، واستقامت له الأمور أكثر من ثلاث سنوات الى أن اضطرب الخوارج من جديد(٢) .

الثورة الخارجية تعم افريقية والمغرب :

وبدأت أولى شرارات الاضطراب فى بلاد الزاب ، وخرج عمر الى هناك لاقرار الأمور بعد أن استخلف على القيروان قريبه حبيب بن حبيب بن يزيد ابن المهلب ، فكان خروجه نذيرا باشتعال الثورة الخارجية فى جميع المغرب ، وكأن افريقية أصبحت منطقة ضغط منخفض — كما يقـــول الجغرافيون — فانجذبت اليها رياح الفتنة من كل مكان . ففى المغرب الأوسط قامت زناتة فى منطقة تلمسان وعلى رأسها أبو قرة الصفرى (المغيلى اليفرنى) فى ٤٠

---

(١) ابن الأثير أحداث سنة ١٥١ (انما نسب لبيت المهلب لشهرته) ، النويرى ، ص ٩٤ أ والترجمة ، ج ١ ص ٣٧٩ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١٢ والترجمة ج ١ ص ٢٢١ .

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٥ ، ٧٧ ، ابن الأثير ، أحداث سنة ١٥١ ، ج ٥ ص ٢٨٣ .

(أربعين) الف رجل[٣] . وفي منطقة تاهرت قامت لماية ولواتة وبطون من نفزاوة وعلى رأسهم عبد الرحمن بن رستم الاباضي في ١٥ (خمسة عشر) ألف رجل[٤] . واذا كان هؤلاء بعيدين عن سلطان والى افريقية وليس من الغريب أن يثوروا ، فان غيرهم من بربر الاقاليم الخاضعة للقيروان شاركوا في الثورة العارمة ، كما حدث في طرابلس حيث قام الاباضية بأكبر الثورات بزعامة ابى حاتم (أو أبى قادم) يعقوب بن حبيب بن مدين بن يطوفت[٥] ، الذي آلت اليه الامامة في تلك السنة بعد أبى الخطاب[٦] . والى جانب هؤلاء قام أيضا عاصم السدراتي الاباضي ، « أحد النفر الخمسة من حملة العلم »[٧] ، في بلاد القيروان في حوالى ٦ (ستة) آلاف رجل ، كما قام المسور بن هاني الزناتي في ١٠ (عشرة) آلاف من الاباضية ، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي الصفري في الفين ، وجرير بن مسعود في أصحابه من قبيلة مديونة ، سوى جماعات أخرى أهمل الرقيق ذكرها[٨] .

والمراجع التى بين أيدينا لا تبين ترتيب الأحداث بل تجملها اجمالا ، وللكتاب العذر في ذلك ، فأحداث مثل تلك الفترة لابد وأن تكون متشابكة متداخلة بشكل يجعل من الصعب تنظيم مفرداتها . والمفهوم أنه بعد خروج عمر بن حفص الى الزاب بدأت ثورة الخوارج في افريقية . ونظن أن عاصما السدراتي - الذي سمه أهل القيروان في قتاه فيما بعد ، كما يقول

---

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٥ .

(٤) نفس المصدر ، ابن الاثير ، أحداث سنة ١٥١ ، ج ٥ ص ٣٨٣ ، وانظر ابن خلدون (ج ٦ ص ١١٢ ، الترجمة ، ج ١ ص ٢٢٠) الذي يقول ان ابن رستم كان في ٦ (ستة) آلاف فقط .

(٥) انظر ابن خلدون (ج ٦ ص ١١٢ ، الترجمة ج ١ ص ٢٢٠) الذي يجعله من قبيلة مغيلة [illegible] يجعله [illegible] الأثير (سنة ١٥١) ، والدرجيني (ص ٩٤) والترجمة ج ١ ص ٣٧٩ ، [illegible] (١٣٣) أيضا بأبى حاتم الملزوزي النجيبي .

(٦) هناك تفصيلات طريفة في كتب الاباضية عن طريقة الدعوة وكيفية اجتماع الاباضية [illegible] يعتقد الاباضية دون غيرهم من [illegible] جتمعوا [illegible] في [illegible] امرأة صالحة اسمها [illegible] عقدوا الولاية لأبى حاتم [illegible] (ج ١ ص [illegible]) .

(٧) انظر الشماخي ، ص ١٢٨ ، وانظر فيما سبق ، ص ٣٤١ وهامش ٥ .

(٨) [illegible] ج ١ ص ٧٥ ، الدرجيني ، ص ٩٤ ، [illegible] ابن خلدون ، ج ٦ ص [illegible] ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٣ ، [illegible] في هذا الموضع [illegible] .

الإباضية(٩) — كان من أوائل رافعي راية العصيان . وكذلك عبد الملك بن سكرديد الصنهاجي ، اذ كانت صنهاجة تنور في ذلك الوقت في منطقة باجة(١٠) . وخرج نائب عمر ، وهو حبيب بن حبيب بن يزيد المهلبي ، والتقى بالثوار ولكنه انهزم وقتل(١١) . أما عن خوارج طرابلس بقيادة أبي حاتم فانهم حققوا انتصارين كبيرين على فوات والي طرابلس ، الجنيد بن سيار الأزدي(١٢) . فقد سير اليهم الوالي فرقة من الخيالة بقيادة خازم بن سليمان انهزمت وعادت الى طرابلس ، ثم انهم هزموا الجنيد نفسه عندما سار اليهم ومعه نجدة من ٤٠٠ (أربعمائة) فارس أتته من عمر بن حفص بقيادة خالد ابن يزيد المهلبي ، فانهزم الاثنان ولجآ الى مدينة قابس . وعندما علم عمر بن حفص بذلك سير جيشا على رأسه سليمان بن عباد المهلبي لنجدة الجنيد وخالد، ولكن سليمان لم يكن بأسعد حظا منهما اذ انهزم قرب قابس أمام أبي حاتم واضطر الى العودة سريعا نحو القيروان يتبعه أبو حاتم(١٣) .

جهود مستميتة من جانب عمر بن حفص في مواجهة الثوار :

واثر تلك الانتصارات الميدانية اندفع الخوارج من كل فج وحدب يغزون القيروان ، حتى اجتمع منهم اثنا عشر عسكرا(١٤) . ورغم أن ذلك كان فرصة نادرة لكي يوحد الخوارج جهودهم وليضموا صفوفهم ، فالظاهر أنهم لم يفكروا في ذلك ، بل وربما كان عدم اتفاقهم هو السبب في أنهم — بدلا من أن يأخذوا

---

(٩) أنظر الشماخي ، ص ١٢٨ .

(١٠) أنظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١١ ، الترجمة ج ١ ص ٢١٩ (يقول ابن خلدون هنا ان الفتى اشترك في ثورة باجة اسمه عبد الله بن سكرديد ، وربما كان أخا لعبد الملك ابن سكرديد ان لم يكن هو نفسه بسبب امكان الخلط بين اسم عبد الله واسم عبد الملك لتشابههما كتابة) .

(١١) أنظر ابن الأثير ، احداث سنة ١٥١ ، وقارن النويري ، ص ٩٤ أ ، والترجمة ج ١ ص ٣٧٩ .

(١٢) النويري ، ص ٩٤ أ والترجمة ج ١ ص ٣٧٩ (حيث الاسم الجنيدي بن يسار الأزدي) . وقارن الأثير ، أحداث سنة ١٥١ (حيث الاسم : الجنيد بن بشار الإسادي « الأسدي ؟ ») .

(١٣) أنظر النويري ، ص ٩٤ أ — ٩٤ ب ، الترجمة ، ج ١ ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .

(١٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٥ ، ابن الأثير ، سنة ١٥١ ، النويري ، ص ٩٤ ب . الترجمة ج ١ ص ٣٧٩ . وقارن ابن خلدون ج ٦ ص ١١٣ ، الترجمة ج ١ ص ٢٢٢ (يقول الكتاب أن هذه الجيوش اجتمعت عند طبنة لحصار ابن حفص) .

القيروان – قرروا السير الى الزاب ليتخلصوا اولا من عدوهم المشترك عمر بن حفص . هذا ولو أنه من المقبول أيضا أن يكون مسيرهم الى الزاب لاستنقاذ اخوانهم هناك من انتقام عمر بن حفص . وهكذا اجتمع الصفرية والاباضية في أكثر من خمسين ألفا حول طبنة – عاصمة الزاب – حيث اعتصم عمر بن حفص ، ومعه حوالى خمسة عشر ألف رجل(١٥) .

واستشار عمر بن حفص قواده في كيفية مواجهة أعدائهم ، فأشاروا عليه بالبقاء في طبنة حفاظا على حياته في تلك الفترة الحرجة ، واخراج بعضهم لمناواة العدو اذا أراد . ولا شك في أنه كان مضطرا لتحصين طبنة في ذلك الوقت الدقيق ، رغم ما يقوله بعض الكتاب من أنه خرج من القيروان « الى الزاب لبناء مدينة طبنة بأمر المنصور »(١٦) . وهناك قرر عمر استخدام الحيلة في تفرقة أعدائه ، ورأى أن يشترى انسحاب بعضهم بالمال ، ووقع اختياره على أبي قرة لأن أصحابه كانوا أكثرهم عددا وأشدهم خطرا ، فبعث اليه بأربعين ألف درهم وكسى كثيرة مع رجل من قبيلة مكناسة اسمه اسماعيل بن يعقوب(١٧) . وكان من الطبيعي أن يرفض أمام الصفرية تلك الرشوة السافرة، ولكن المكناسي سار الى أخي أبي قرة أو الى ابنه الذى استهواه بريق الذهب وجمال الخلع ، فدبر الأمر دون علم أبي قرة الذى أصبح ليجد معظم أهل العسكر قد انصرفوا عنه ، « فلم يجد بدا من اتباعهم » ، وانصرف هو الآخر(١٨) .

---

(١٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٥ .

(١٦) انظر ابن الأثير ، أحداث ١٥١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١١٥ – حيث يفهم انه خطط عمر بن حفص مدينة طبنة سنة ١٥١ هـ أول ورفجومة ... بما كانوا سببا له في ذلك الوقت وعظم شناؤهم فيها وقت الحصار .

(١٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٦ ، وقارن النويرى ، ص ٩٤ ب والترجمة ج ١ ص ٣٨٠ ، وقارن ابن الأثير ، أحداث سنة ١٥١ (٦٠ الف درهم) .

(١٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٦ ، ٧٧ ، وقارن النويرى ، ص ٩٤ ب ، الترجمة ج ١ ص ٣٨٠ ، وقارن ابن الأثير ، أحداث سنة ١٥١ هـ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٠٣ ، الترجمة ج ١ ص ٢٢٢ – حيث يقول النص أن ابن أبي قرة أو أخاه نال مكافأة قدرها ٤ آلاف درهم وبعض الخلع ، ولا بأس أن تكون هذه الرواية منقولة من الرقيق (ص ١٤٣) حيث نجد النص معلا على أن المبلغ المقدم هو ٤ (أربعة) آلاف درهم فقط ، ان لم يكن ذلك من تحريف النساخ .

أبو حاتم الاباضي يستولي على افريقية ويحاصر القيروان :

وبعد انصراف الصفرية من بني يفرن تشجع ابن حفص ووجه ١٥٠٠ (ألفا وخمسمائة) من رجاله بقيادة معمر بن عيسى السعدي نحو تهودة حيث التقت باباضية عبد الرحمن بن رستم الذي انهزم الى تاهرت (تيهرت) بعد أن ترك في ارض المعركة حوالي ٣٠٠ (ثلاثمائة) من رجاله(١٩) . وهنا رأى أبو حاتم أن يسير الى القيروان ليحصرها ويضيق الخناق عليها(٢٠) . ولما لم يبق من الخصوم سوى أبي حاتم بن حبيب مع اباضية طرابلس قرر عمر بن حفص المسير اليهم بعد أن ترك في طبنة المهنا بن المخارق بن غفار الطائي الذي تعرض لحصار أبي قرة الصفري من جديد ، ولكنه نجح في هزيمته واستباح عسكره(٢١) . وعندما ترك أبو حاتم مواقعه في الأربس وخرج نحو عمر ، سار ابن حفص الى قرب تونس يتبعه أبو حاتم الى سمنجة . ومن هناك سار عمر الى موضع عرف باسم بير السلامة حيث التقى بأخيه لأمه جميل بن صخر ثم دخل القيروان واعتصم بها ، واستعد لحصار طويل الأمد ، فجمع بها الكثير من الطعام والحطب وآلات الحرب(٢٢) . وجرب ابن حفص حرب أبي حاتم

---

(١٩) أنظر الرقيق ، ص ١٤٣ (حيث لقب معمر هو العبدي وليس السعدي) ، النويري ، ص ٩٥ أ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٧٦ (حيث تحدد الرواية عدد قتلى تهودة بشيء من المبالغة بثلاثة آلاف رجل) .

(٢٠) ابن الأثير ، أحداث سنة ١٥١ ج ٥ ص ٢٨٤ ، و نظر الرقيق (ص ١٤٣ – ١٤٤) حيث الاشارة الى شدة حصر القيروان لمدة ثمانية أشهر حتى لم يبق في بيت مالها درهم ولا في اهرائها شيء من طعام ، حتى أكل الناس الدواب ، والكلاب . ولو اننا نظن أن هذا الوصف ينطبق على حالتها بعد عودة عمر اليها . وقارن ابن خلدون (ج ٦ ص ١١٢) الذي يفهم من روايته أن أبا حاتم كان يحاصر طبنة وأن عمر حالته الى القيروان .

(٢١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٧٨ ، ابن الأثير ، أحداث سنة ١٥١ ، النويري ، ص ٩٥ أ والترجمة ج ١ ص ٣٨١ . وقارن الرقيق ص ١٤٣ (حيث اسم جد المهنا « عفير » بدلا من « غفار » وحيث الاشارة الى مفاوضات بين المهنا وبين أبي قرة من أجل انسحاب هذا الأخير . ولكنها فشلت لتمسك الصفرية في أخذ ما كان في حوزة المحصورين غنيمة) .

(٢٢) انظر النويري ، ص ٩٥ أ – ٩٥ ب . الترجمة ج ١ ص ٣٨١ . وقارن ابن الأثير أحداث سنة ١٥١ (حميد بن صخر بدلا من جميل بن صخر) . وقارن الرقيق (ص ١٤٤) الذي يظن أنه أصل رواية النويري حيث توجد تفصيلات اضافية عن مسيرة عمر في ٧٠٠ (سبعمائة) فارس بعد ما علمه من سوء حال القيروان في الحصر . ونزوله في الأربس مما دعا البربر الى ترك حصار القيروان ومتابعته الى تونس وسمنجة . واذا كانت مراحل المطاردة الراتبة مسرله فان الرواية عن شدة حصر القيروان ترد هنا متقدمة عن موضعها الطبيعي بعد المجيء عمر اليها .

عندما أقبل نحو القيروان ، ولكنه انهزم واكتفى باعتصام بالمدينة والتحصن قبالة باب أبي الربيع حيث كان قد اتخذ خندقا(٢٣) .

ومع مرور الوقت كانت جمـــوع الثوار تزداد كثرة بمن ينضم اليهم من الطامعين في نهب القيروان حتى قيل : « ان عدة من حاصروا القيروان مائة ألف وثلاثون ألفا(٢٤) . وطال الحصار الى ما يقرب من العام(٢٥) حتى نفدت المؤن من المدينة ، واشتد الغلاء والضيق بالمحاصرين « فأكلوا دوابهم وكلابهم وسنانيرهم وماتوا جوعا ، وانتهى الملح عندهم أوقية بدرهم »(٢٦) . وإزاء اضطراب الأحوال ساءت أخلاق عمر بن حفص ، كما ساءت أخلاق العسكر الذي أخذ يشبك في نواياه(٢٧) . ثم أتته من زوجته خليدة بنت المعارك أنباء مسير

---

(٢٣) النويري ، ص ٩٥ ب ، وقارن أصل الرواية في الرقيق ، ص ١٤٤ (حيث توجد معلومات تفصيلية عن الحرب ، مثل : وصول أبي حاتم الى بحيرة المسروقين ، وانكشاف عمر الى القنطاط قبيل انحيازه الى خندقه بباب أبي الربيع) .

(٢٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٦ ، ٧٧ ، وقارن النويري ، ص ٩٥ ب ، والترجمة ج ١ ص ٣٨٢ ، والرقيق (ص ١٤٤) حيث توجد معلومات تفصيلية عن انزال أبي حاتم عساكره قرب باب أبي الربيع ، وبين باب سالم وباب أصرم ، وبين باب نافع وباب عبد الله - مع الاشارة الى مشاركة رئيس الجند العربي عمرو بن عثمان الفهري في ذلك العسكر الأخير ، مما أخذ عليه فيما بعد . ومما يلاحظ أن رواية الرقيق بعد أن تحدد عسكر الثوار بـ ١٣٠ ألفا (ص ١٤٤) تعود فتبالغ في عدتهم حيث قومتهم بـ ٣٥٠ (ثلاثمائة وخمسين) ألفـــا ، منهم ٨٥ (خمسة وثمانون) ألف فارس . وقارن ابن خلدون (ج ٦ ص ١١٣ ، والترجمة ج ١ ص ٢٢٢) الذي ينسى عندما يسجل تلك الرواية الأخيرة نقلا عن الطبري (أحداث سنة ١٥٣) ، وابن عذارى (ج ١ ص ٧٧) قواعد النقد التي أصر عليها في المقدمة ، وخاصة ما يتعلق منها بالمبالغات في أعداد الجيوش وتقويم الثروات . فيقول ان جيش الاباضية الذي حاصر القيروان بلغ ٣٥٠ ألف رجل منهم ٣٥ ألف فارس ، كما في الرقيق تقريبا .

(٢٥) أنظر ابن الأثير (أحداث سنة ١٥١) ، والنويري (ص ٩٦ أ ، الترجمة ج ١ ص ٢٨١) اللذين ينقلان من الرقيق (ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥) ، حيث تحدد الرواية فترة الحصار بثمانية أشهر وتجعلها قبل عودة عمر بن حفص من الزاب الى القيروان . أما عن مدة حصر عمر في القيروان فلا تجعل لها تحديدا مما دعانا الى ترجيح أن تكون أخبار مجاعة القيروان في الحصار أثناء وجود ابن حفص وليس قبلها (أنظر فيما سبق ، ص ٣٣٥ هامش ٢٠ ، ٢٢ ، رغم ما يشير اليه الرقيق ، (ص ١٤٥) منسوبا الى عمر بن حفص من أن حـــالة القيروان تحسنت بعد مجيئه اليها من الزاب عما كانت عليه أثنـــاء وجـــوده في طبنة . وقارن الشماخي ، ص ١٣٥ (حيث النص على أن مدة الحصار سنة) .

(٢٦) أنظر الرقيق ، ص ١٤٥ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٦ ، وقارن النويري ص ٩٥ ب .

(٢٧) أنظر تفصيلات ذلك في الرقيق ، ص ١٤٥ - حيث ترجد رجال عمر أكثر من مرة في =

الجيش الذي بعثته الخلافة بقيادة يزيد بن حاتم المهلبي فعز على « الألف رجل » (هزارمرد) أن يقال : « يزيد أخرجه من الحصار » ، حتى ولو كان يزيد هذا ابن عصبيته بل قريبه وابن عمه ، وقرر عمر الخروج للقاء أعدائه وهو يقول لكاتبه خراش بن عجلان : « انما هي رقدة ، وأبعث الى الحساب » . « وخرج فعجل يطعن ويضرب حتى قتل »[٢٨] ، وذلك في منتصف شهر ذي الحجة سنة ١٥٤ هـ/نوفمبر سنة ٧٧١ م[٢٩] .

استسلام القيروان :

ولم تسقط القيروان بعد مقتل عمر بن حفص اذ بايع العسكر أخاه لأمه جميل بن صخر[٣٠] ، ولكنه أمام الضيق وشدة الحصر اضطر الى عقد صلح مقبول مع أبي حاتم . وكان من شروط الصلح أن يخرج العسكر من القيروان دون أن يخلعوا المنصور ، وأن يحتفظوا بسلاحهم ، وكذلك بشعار الدولة الممثل في الرايات والملابس السوداء[٣١] . وهكذا خرج معظم العسكر الى

=قبول ما عرضه عليهم ابن حفص من خروجه هو أو خروج أحد نائبيه : جميل بن صخر أو المخارق ابن تمغار للاغارة على قرى نوار البربر وذراريهم من أجل الحصول على الميرة . اذ « قالوا : تخرج أنت وتقيم نحن ، لا تفعل » مما أثار غضب عمر الذي قال لهم : « والله لأوردنكم وتفسي حياض الموت » .

(٢٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٦ ، النويرى ، ص ٩٦ أ ، ابن الأثير ، أحداث سنة ١٥١ ، وقارن أصل الرواية في الرقيق (ص ١٤٥ — ١٤٦) : حيث ترد تفصيلات عن النقاش بين عمر وكاتبه (خداش) بن عجلان في هذا الشأن ، ومنها اشارة الى أنه قد يحقق أمنيته في الوصول الى ولاية خراسان بدل افريقية بعد الخروج من الحصر ، وكان رد عمر على ذلك : تحدثت نسوة العتيك أن يزيدا أخرجني من الحصار ! انما هي رقدة حتى أبعث الى الحساب . ارجع الى أهلك واحفظ وصيتي » . ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١٣ ، الترجمة ج ١ ص ٢٢٣ .

(٢٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٦ ، ابن الأثير ، أحداث سنة ١٥١ ، النويرى ، ص ٩٦ أ ، وقارن الرقيق ص ١٤٦ (حيث التاريخ منتصف ذي القعدة/أكتوبر) .

(٣٠) النويرى ، ص ٩٦ أ — ٩٦ ب ، الترجمة ج ١ ص ٣٨٣ ، ابن خياط ، ج ٢ ص ٤٦٤ — ٤٦٥ ، الرقيق ص ١٤٦ (جميل بن حجر) ، ابن الأثير ، أحداث سنة ١٥١ ج ٥ ص ٢٨٤ (حميد بن صخر) ، وقارن ابن عذارى ج ١ ص ٧٦ (جميل بن حفص) .

(٣١) أنظر الرقيق ص ١٤٦ — ١٤٧ (حيث الاشارة الى دخول عمرو بن عثمان الفهري — الى جانب الثوار — في الصلح وتعهده بالوفاء وبالشرط) ، وقارن ابن الأثير أحداث سنة ١٥١ ، ج ٥ ص ٢٨٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٦ ، النويرى ، ص ٩٦ ب ، الترجمة ج ١ ص ٣٨٣ :

طبنة(٣٢) . ودخل أبو حاتم القيروان وانتقم من المدينة التي أتعبته في الحصار فاحرق أبوابها وثلم سورها — حتى لا تعود حسب تفكيره الى مثل ذلك — كما انتقم من اهلها فاخرج أكثرهم ، اثر عسكرهم ، الى الزاب(٣٣) • وبذلك ثأر الاباضية لمقتل أبي الخطاب . وحققوا حلم امامهم الاول سلمة بن سعيد — الذي كان يود أن يظهر هذا الأمر يوما واحدا فما يبالي أن تضرب عنقه(٣٤) — فسادوا القيروان من جديد . وأصبحت لهم اليد العليا في كل افريقية(٣٥) •

يزيد بن حاتم ونهاية أبي حاتم الاباضي :

لم تكن شدة الثورة وعنفها لتجعل الخليفة المنصور يتخلى عن ولايتـه المتطرفة غربا اذ أنه — على العكس من ذلك — تشبث بها ، وعرف كيف يخمد الثورة بالحديد والنار ، ويغرقها في الدم • فقد اختار لافريقية رجلا آخر من المقربين اليه من نفس الأسرة المهلبية التي عرفت بعدائها للخوارج ، هو يزيد ابن حاتم (بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة) الذي كان له من الشجاعة والجود وبعد الصيت ما يفوق عمر بن حفص • كان يزيد واليـا على مصر فسيره المنصور الى المغرب في جيش كثيف بلغت عدته ٦٠ (ستين) ألف رجل ، نصفهم ٣٠ (ثلاثين ألفا) من جند خراسان ، والبقية من جند العراق والبصرة والكوفة والشام • وشيع المنصور الجيوش التي سيرها الى مصر في أواخر سنة ١٥٤ هـ/٧٧١ م ، كما يظن ، حتى بيت المقدس حيث صلى تضرعا • ولكنها لم تصل الى المغرب الا في مطلع سنة ١٥٥ هـ/٧٧٢ م بعد مقتل عمر بن حفص(٣٦) •

---

(٣٢) الرقيق ، ص ١٤٧ ، ابن الأثير أحداث سنة ١٥١ ، النويري ، ص ٩٦ ب ، الترجمة ، ج ١ ص ٣٨٣ •

(٣٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٧٦ — ٧٧ •

(٣٤) أنظر فيما سبق ص ٢١٦ وهامش ٣١ •

(٣٥) أنظر تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٤٦٥ (حيث يقول : « وصارت افريقية في يد أبي حاتم ») •

(٣٦) أنظر الرقيق (ص ١٥٩) ، حيث النص على ٣٠ الف من خراسان و ٦٠ ألفا من اهل البصرة والكوفة والشام (وترد الرواية في النويري ، ص ٩٧ أ ، والترجمة ج ١ ص ٣٨٤) مما يعني أن عدة الجيش حينما كانت ٩٠ (تسعين) الف • والحقيقة أن الرقيق نص قبل ذلك (ص ١٤٥) على قدوم يزيد بن حاتم الى افريقية في ٦٠ (ستين) ألفا ، وهذا ما نص عليه صاحب العيون والحدائق ، ج ٣ ص ٢٦٣ ، وهو ما أخذ به ابن عذاري (ج ١ ص ٧٨ ، ٧٩) • ولذلك رجحنا أن يكون العدد الكلي ٦٠ الف منهم ٣٠ الفا من الخراسانية ، وهو الامر —

وعندما وصلت أنباء مسير يزيد بن حاتم الى أبي حاتم الاباضي استعد لنقائه رغم ما كان قد أصابه من الضعف والوهن بانقسام اتباعه . فعندما خرج أبو حاتم نحو طرابلس لقطع الطريق على جيش الخلافة ، عهد بالقيروان الى أحد كبار أصحابه وهو عبد العزيز بن السمح المعافري (أخو أبي الخطاب) . فثار بهذا الاخير حليف أبي حاتم السابق وهو عمرو بن عثمان الفهري ، الذي أخذته العزة لعروبته ، بعد ما نزل بعمر بن حفص وجنوده ما نزل على أيدي الثوار من البربر ، ونجح في لم شمل عسكر القيروان السابق وطرد المعافري من المدينة وقتل أصحابه(٣٧) . واضطر أبو حاتم الى الرجوع الى القيروان ، وقاتل أهلها ودخلها بعد أن غادرها عمرو بن عثمان الى تونس(٣٨) ، بينما سار جميل بن صخر والجنيد بن سيار نحو المشرق(٣٩) . وتبع أبو حاتم خصمه عمرو بن عثمان ، وسير مقدمته وعلى رأسها حريز بن مسعود المديوني في أثره . ولحق المديوني بالفهري في موضع يعرف بـ « جيجل » ، من ناحية كتامة ودارت بينهما معركة حامية الوطيس انتهت بمقتل حريز وكثير من أصحابه ، ثم دخول عمرو مدينة تونس وبصحبته المخارق بن غفار الطائي(٤٠) .

وفي هذه الظروف الصعبة سار أبو حاتم ، وهو منهوك القوى ، للقاء يزيد بن حاتم الذي كان قد وصل الى سرت حيث انضم اليه جميل بن صخر

= الذي يسترعي الانتباه فعلا . وقارن ابن الأثير (سنه ١٥١) الذي يجعل وصول يزيد سنة ١٥٤ رغم أنه يحدد وفاة عمر بن حفص بمنتصف ذي الحجة سنة ١٥٤ هـ . وعن يزيد انظر ابن خلكان ، طبعة محيي الدين ، ج ٥ ص ٣٦٥ . وانظر الشماخي . السير ص ١٣٦ .

(٣٧) ابن عذاري . ج ١ ص ٧٧ . ابن خلدون . ج ٦ ص ١١٣ ، الترجمة ج ١ ص ٢٢٣ . وقارن الرقيق . ص ١٤٧ ـ ١٤٨ ، النويري . ص ٩٦ ب . الترجمة ج ١ ص ٣٨٣ ـ حيث تقول الرواية ان سبب قيام عمرو بن عثمان الفهري على الاباضية ان أبا حاتم أراد أن يخل بشروط الاتفاقية الخاصة بالجند القيرواني فحاول نزع سلاحهم وارسالهم اليه بطرابلس ويضيف النويري ان الفهري قتل المعافري . هذا بينما بقي الآخرون من الفهريين الى جانب الاباضية ، مثل : عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن الفهري الذي بقي الى جانب أبي حاتم حتى لقي هزيمته كما سنرى .

(٣٨) ابن عذاري ، ج ١ ص ٧٧ ، ابن الأثير أحداث سنة ١٥١ ، وقارن الرقيق (ص ١٤٨) حيث الاشارة الى أن عمرو بن عثمان قاتل أبا حاتم قتالا شـديدا قبل انسحابه الى تونس ، « فقتل من البربر خلق كثير » .

(٣٩) النويري . ص ٩٦ ب ، الترجمة ج ١ ص ٣٨٣ ، وقارن الرقيق . ص ١٤٨ (حيث اسم والد الجنيد : سياق بدلا من سيار) .

(٤٠) انظر الرقيق . ص ١٤٨ . وقارن النويري . ص ٩٦ ب ـ ٩٧ أ والترجمة . ج ١ ص ٣٨٤ ; حيث اسم الفهري عمر ، واسم المديوني : جرير) .

وأصحابه(٤١) . وهكذا كان يزيد يزداد قوة بمن انضم اليه من جند القيروان، وكذلك بمن انضم اليه من البربر المنشقين على أبي حاتم(٤٢) . وتم اللقاء قرب طرابلس(٤٣) ، على الطريق المؤدي الى جبل نفوسة ، بين أبي حاتم وبين مقدمة يزيد بن حاتم بقيادة سالم بن سوادة التميمي(٤٤) . ورغم ما تقوله رواية الرقيق التي ينقلها النويري ، والتي يظن أنها اباضية الاصل ، من أن أبا حاتم نجح في دفع مقدمة الجيش الخلافي حتى ردها الى بقية العسكر ، فالظاهر أن الأمر ليس كذلك اذ يذكر أن أبا حاتم ارتد بعد ذلك الى جبل نفوسة حيث اعتصم بموقع منيع ، وهناك هاجمته قوات يزيد(٤٥) . والأقرب الى العقل أن يكون أبو حاتم انهزم في الموقعة الأولى فحاول الاعتصام بالجبل ، ولكن قوات يزيد تبعته الى هناك حيث أنزلت به هزيمة منكرة انتهت بمقتل أبي حاتم نفسه وكثير من أصحابه . وهذا ما تؤيده بقية الرواية التي تقول ان يزيدا ورجاله تتبعوا فلول المنهزمين في كل سهل وجبل وقتلوهم قتلا ذريعا وهم « يقولون يالثارات عمر بن حفص »(٤٦) . ويبالغ الكتاب — من أصحاب

---

(٤١) النويري ، ص ٩٧ أ والترجمة ج ١ ص ٣٨٤ ، الرقيق ، ص ١٤٨ ، ١٥٩ .

(٤٢) أنظر الشماخي (ص ١٣٦) الذي يقول ان أهل مليلة أمدوا يزيدا فدعا عليهم أبو حاتم بالذلة دون البربر .

(٤٣) أنظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١٣ ، الترجمة ج ١ ص ٢٢٣ ، وقارن ابن الأثير (سنة ١٥١) الذي يقول ان اللقاء الأول كان قرب قابس .

(٤٤) النويري ، ص ٩٧ أ ، الترجمة ، ج ١ ص ٣٨٤ ، وقارن ابن الأثير ، أحداث سنة ١٥١ ، الرقيق ، ص ١٥٩ .

(٤٥) أنظر الرقيق ، ص ١٦٠ — حيث تقول الرواية : « وجال أبو حاتم أمر يزيد ، فطلب له عز المنازل وأوسعها ، فعسكر فيها وخندق على عسكره » . وقارن النويري ص ٩٧ أ ، الترجمة ج ١ ص ٣٨٤ — حيث القراءة : « أوعر المنازل وأمنعها » بدلا من « عز المنازل وأوسعها » ، وقارن ابن الأثير ، أحداث سنة ١٥١ . هذا ، وتوجد في الرقيق تفصيلات اضافية طريفة عن نزول الاباضية عن خيلهم للقتال رجالة ، وكيف ان يزيد بن حاتم حاول التعجيل بمهاجمة خصومه لولا ان منعه صاحبه المهلب بن المغيرة الذي أخذ بلجام فرسه ، وقال له « أنا أعلم بقتال القوم منك » . ثم ان المهلب جعل يزيد بن حاتم يوجه ابنه عبد الله لمهاجمة البربر أولا على ان يتبعه يزيد بعد ذلك اذا شاء (ص ١٦٠) .

(٤٦) أنظر الرقيق ، ص ١٦٠ ، ابن الأثير ، أحداث سنة ١٥١ ، ج ٥ ص ٢٨٥ ، ابن عذاري (ج ١ ص ٧٩) الذي يقول ان جند يزيد قتلوا من أدركوا منهم . وقارن الشماخي (ص ١٣٦) الذي يقول نقلا عن أبي زكريا انه وقعت بينهما وقعتان أولاهما بمغمداس (على مسير يوم من سرت) حيث أحرز أبو حاتم انتصارا مبدئيا ، الا انه يشك في أن يكون أبو زكريا قد خلط بين انتصار أبي الخطاب في مغمداس وموقعة أبي حاتم مع يزيد . وأنظر الزاوي ، الفتح العربي في ليبيا ، الذي يقول ان مقتل أبي حاتم كان في جبل نفوسة في موضع يعرف بجندوبة (١٢٩) .

الميول المعادية للخوارج من غير شك ـ عندما يقولون انه قتل من أصحاب أبى حاتم ٣٠ (ثلاثون) ألف رجل بينما لم يفقد الجند الخلافى سوى ثلاثة رجال (٤٧) ٠ أما عن تاريخ الوقعة فيحدد بيوم ٢٧ من ربيع الأول سنة ١٥٥هـ/ ٨ مارس ٧٧٢ م(٤٨) ٠ ولقد أصبح مكان المعركة حيث قتل أبو حاتم موضع تبجيل الاباضية واحترامهم ، حتى قالوا : « انه يستضىء كل ليلة نورا ، ويبصر ضياؤه من مكان بعيد ساطعا فى الهواء »(٤٩) ٠

القضاء على بقايا الثوار :

واستقر يزيد بن حاتم ، بعد أن استخلف على القيروان المخارق بن غفار ـ فى مكان الوقعة مدة شهر ، وهو يبعث رجاله يجوبون المنطقة ويخضعون أهلها ، قبل أن يدخل طرابلس التى عهد بولايتها الى سعيد بن شداد ثم مسيره الى قابس التى وصلها فى ٢٠ جمادى الأول (أبريل)(٥٠) ٠ وبعد شهر وصل يزيد الى القيروان ، ودخلها فى ١٩ من جمادى الآخرة من تلك السنة (١٥٥/ ٢٧ مايو ٧٧٢ م)(٥١) ٠ وبدأ يزيد بن حاتم يعمل على تهدئة الأمور ، واستمر فى القضاء على البقايا الباقية من الثوار ، دون لين أو هوادة : فى بلاد الزاب ، وفى جبال كتامة (شرق الجزائر) ، وفى طرابلس ٠ ففى السنة التالية (١٥٦/٧٧٣) أرسل أحد قرابته ، وهو العلاء بن سعيد المهلبى الى بلاد الزاب مددا لعامل طبنة المخارق بن غفار الطائى (٥٢) وسار العلاء مع المخارق من طبنة الى جبال كتامة حيث كان عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن (الفهرى) ، حليف أبى حاتم الاباضى ، قد لجأ الى قلعة هناك تعرف بقلعة جيجل ، بعد هزيمة طرابلس وجبل نفوسة ٠ وضرب المخارق الحصار على القلعة لمدة ٨

---

(٤٧) أنظر الرقيق ، ص ١٦٠ ، النويرى ، ص ٩٧ ب الترجمة ج ١ ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥ ٠

(٤٨) أنظر الرقيق ، ص ١٦٠ ، النويرى ، ص ٩٧ ب ، الترجمة ، ج ١ ص ٣٨٥ ، وقارن ابن الأثير ، أحداث سنة ١٥١ ٠

(٤٩) أنظر الشماخى (ص ١٣٧ ـ ١٣٨) الذى ينقل عن أبى زكريا ثم يتبعه بقوله : « وقد اشتهر عندنا من غير أن أراه أن النور ينزل على قبره ، وقيل لم يزل حتى دفن الى جنبه اعرابى فكف ـ والله أعلم » ٠

(٥٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٩ ، النويرى ، ص ٩٧ ب الترجمة ج ١ ص ٣٨٥ ، وأنظر الرقيق ، ص ١٦٠ ـ ١٦١ ٠

(٥١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٩ ٠

(٥٢) نفس المصدر ٠

(ثمانية) أشهر ، وأخيرا سقطت بعد دفاع مجيد ، وقتل معظم من بقى مع عبد الرحمن بن حبيب الذى لا يعرف الكتـــاب على وجـه الـدقة ماذا كان من أمره(٥٣) ·

ونحن نرى أن عبد الرحمن بن حبيب الفهرى هذا هو نفس عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى المعروف عند الكتاب الصقلبى «لطوله وزرقته وشقرته»(٥٤) · والظاهر أنه بعد أن فشل فى استعادة افريقية ، التى كانت لآله باشتراكه مع الخوارج ، خرج فى محاولة جديدة كتلك التى قام بها جده وسميه للاستيلاء على الأندلس بعد أن نزلها مع بلج بن بشر(٥٥) · والظاهر أن الفهرى لم يتورع فى سبيل تحقيق هدفه ، بعد أن أرسى فى شرق الاندلس فى سنة ١٦٠ هـ/٧٧٧ م أو ١٦١ هـ/٧٧٨ م كما يقول ابن الأثير ، عن الادعاء أنه جاء داعيا للخليفة العباسى المهدى ، كما فعل العلاء بن مغيث من قبل فى الأندلس على أيام المنصور · ولقد حاول الفهرى أن ينضم الى والى سرقسطة الثائر ، سليمان ابن يقظان بن العربى ، الذى تآمر مع شرلمان على غزو الأندلس ، ولكنه أنتهى نهاية تعسة فى سنة ١٦٢ هـ اذ قتل بيدى أحد البربر الذى اشتراه عبـــد الرحمن الأموى(٥٦) ·

وبعد كسرة عبد الرحمن الفهرى فى جيجل عاد المخارق الى ولايته فى طبنة بينما رجع العلاء الى القيروان(٥٧) ·

وفى السنة التالية لحملة كتامة أى فى سنة ١٥٧ هـ/٧٧٤ م اضطربت

---

(٥٣) أنظر ابن عذارى (ج ١ ص ٧٩) الذى يقول ان عبد الرحمن بن حبيب هرب عندما سقطت القلعه (ابن الاثير ، أحداث سنة ١٥١ ، ١٥٦) ، وقارن ابن خلدون (ج ٦ ص ١١٣ ، الترجمه ج ١ ص ٢٢٣) الذى يقول ان عبد الرحمن مات وجميع أصحابه من البربر · وقارن الرقيق ، ص ١٦١ — حيث تشير الرواية الى أن المخارق كان يحاصر عبد الرحمن بن حبيب ابن عبد الرحمن الفهرى فى قلعة جيجل من أرض كتامة عندما أتاه العلاء بن يزيد المهلبى مددا ، وان كلا من المخارق والعلاء دخل القلعة على عبد الرحمن من موضع غير الذى دخـــل منه الآخر ·

(٥٤) ابن الاثير ، أحداث سنة ١٦١ ·

(٥٥) أنظر فيما سبق ، ص ٢٩٧ وهـ ١٩٤ ، ص ٣١٢ وهـ ٣ ، ٤ ، ص ٣١٤ وهـ ٥ ·

(٥٦) ابن الاثير ، أحداث سنة ١٦١ · وعن أعمال الصقلبى وحملة شرلمان على الاندلس أنظر بروفنسال ، تاريخ اسبانيا الاسلامية ، بالفرنسية ، ص ٨٦ — ٨٧ ·

(٥٧) الرقيق ، ص ١٦١ ·

بلاد الزاب حيث ثارت قبائل ورفجومه بقيادة أبي زرمون (أيوب الهواري) . وسير يزيد بن حاتم جيشا من القيروان الى الزاب بقيادة قريبه يزيد بن مجز المهلبي ، ولكن القتال انتهى بانتصار ورفجومة ومقتل والي الزاب المخارق بن غفار الطائي . وجعل يزيد لابنه المهلب بن يزيد ولاية الزاب وطبنة وجبل كتامة ، وسيره على رأس حملة لتأديب ورفجومة . وبعث اليه العلاء بن سعيد المهلبي معونة ، وبعد قتال شديد هزم المهلبيون الثوار وقتلوهم « أبرح قتل » وطلبوهم بكل سهل وجبل ، حتى اتوا على آخرهم . ولم يصب من الجند أحد ، كما تبالغ الرواية(٥٨) . ويذكر الرقيق أن يزيد بن حاتم عزل ابنه المهلب عن طبنة وكتامة وعهد بولايتهما الى ابن آخر ، هو محمد بن يزيد(٥٩) .

أما في طرابلس فان بقايا فلول أبي حاتم تجمعوا بقيادة أبي يحيى ابن فوناس الهواري في بعض النواحي ، ولكنهم لم يستطيعوا الصمود أمام قائد يزيد هناك ، وهو عبد الله بن السمط الكندي ، الذي التقى بهم في موضع على شاطيء البحر ، وهزمهم هزيمة منكرة بعد معركة حامية الوطيس ، وقتل منهم مقتلة عظيمة(٦٠) . ولا بأس في أن يكون اضطراب طرابلس هنا ، السبب في أن عهد يزيد بن حاتم بولايتها ، بعد تهدئة الزاب ، الى المخارق ابن غفار الطائي ، كما ينص على ذلك الرقيق(٦١) . وهكذا تتبع المهلبيون

---

(٥٨) انظر الرقيق (ص ١٦١) الذي ينقله كل من ابن خلدون (ج ٦ ص ١١٣ ، الترجمة ج ١ ص ٢٢٣ - حيث القراءة في النص « أبو زرجونه » والتصحيح من الترجمة) ، وابن الأثير (أحداث سنة ١٥١ - مع بعض الاختلاف الطفيف مثل عزل المخارق عن طبنة كما في الرقيق بدلا من مقتله) . والحقيقة اننا نجد ذكرا لاضطراب بلاد الزاب أيام يزيد بن حاتم مرتين : احداهما في ابن خلدون في سنة ١٥٧ هـ (ج ٦ ص ١١٣) والثانية في ابن الأثير في سنة ١٦٤ هـ (أحداث سنة ١٥١) . وكان من الجائز أن يكون الأمر متعلقا باضطرابين حدثا فعلا في هذين التاريخين لولا أن الأحداث واحدة وأبطالها هم نفس الأشخاص ، مما يرجح أن الحادثة واحدة كما في الرقيق . وأن الخطأ وقع في تحديد تاريخها . ولما كان تاريخ ابن خلدون مقبولا لأنه يعني أن هذا الاضطراب كان من بقايا ثورة أبي حاتم ولأن الكتاب يؤكدون صفاء البلاد واستقرار الأمور ليزيد بن حاتم ، ولما كانت التفصيلات في ابن الأثير أكثر وضوحا وترتيبا منها في ابن خلدون ، رأينا التوفيق بين المؤرخين فرجحنا تاريخ ابن خلدون وفضلنا معلومات ابن الأثير .

(٥٩) الرقيق ، ص ١٦٢ .

(٦٠) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٢١ والترجمة ج ١ ص ٢٢٦ (يحيى بن فوناس) ، وعاشت ابن الأثير ، سنة ١٥٦ (الذي سمى الهواري « أبو يحيى بن قانوس ») ، وابن عذارى ، ج ١ ص ٧٩ ، (أبي يحيى فرياس) .

(٦١) الرقيق ، ص ١٦٢ .

العصاة وقضوا عليهم في كل مكان حتى « تهدنت افريقية ليزيد بن حاتم وضبطها »(٦٢) . وبذلك استقامت افريقية ليزيد بن حاتم — الذى ظل موضع ثقة الخلفاء — وسادها السلام الى نهاية ولايته في سنة ١٧١ هـ/٧٨٧ م على أيام الرشيد ، فلا يذكر الكتاب في السنوات التالية ما اعتادوا ذكره من أخبار المعارك والحروب والفتن .

أعمال يزيد بن حاتم العمرانية — الحياة الأدبية والدينية في افريقية :

ترتب على استتباب الأمن والسلام في البلاد أن تهيأت الظروف ليزيد ابن حاتم للقيام بالأعمال الانشائية في البلاد ، ونشر العمران والرخاء فيها . ولقد ساعد على ذلك طبيعة الرجل الذى اتصف بالجود والكرم حتى أصبح مضرب الأمثال(٦٣) . وكان من الطبيعى أن تحظى مدينة القيروان بعناية يزيد ،

---

(٦٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٩ ، ابن الأثير ، أحداث سنة ١٥١ ج ٥ ص ٢٨٥ . ويبالغ الكتاب في ذكر عدد الوقائع التي دارت بين العرب والبربر منذ قاتلهم عمر بن حفص الى انقضاء أمرهم فيقولون انها ٣٧٥ وقيعة (أنظر الرقيق ص ١٤٨ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٧ ، النويرى ، ص ٩٧ أ ، الترجمة ج ١ ص ٣٨٤) .

(٦٣) يذكر الكتاب في ذلك قول ربيعة بن ثابت الأسدى (أو الرقى) في يزيد الذى بالغ في احسانه اليه :

حلفت يمينا غير ذى مثنوية يمين امرئ آلى وليس بآثم
لشتان ما بين اليزيدين في الندى يزيد سليم والأغر بن حاتم

ولقد لقيت الشطرة الأولى من البيت الثاني « لشتان ما بين اليزيدين في الندى » صدى في نفوس الناس حتى صارت مثلا (في الجود) ، وحتى قيل هذا البيت في أشكال أخرى منهـا :

لشتان ما بين اليزيدين في الندى اذا عد في الناس المكارم والمجد

أنظر الرقيق ص ١٤٩ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٨١ ، وقارن ابن خلكان ، ج ٥ ص ٣٣٦ ، ابن الأبار الحلة السيراء ، ج ١ ص ٧٤ . ويذكر الكتاب ليزيد ابن حاتم نفسه أشعارا في الكرم منها :

ما يألف الدرهم المضروب خرقتنا الا لماما يسيرا ثم ينطلق
يمر مرا عليها وهي تلفظه انى امرؤ لم يحالف خرقتى الورق

(ابن عذارى ، ج ١ ص ٨١ ، وقارن الرقيق ، ص ١٤٩ (حيث القراءة في الشطرة الأولى من البيت الثاني : « ثم يلفظها » بدلا من « وهي تلفظه » ، وفي الشطرة الثانية : « تحالف » بدلا من « يحالف ») ، النويرى ، ص ٩٧ ب ، الترجمة ج ١ ص ٣٨٥ ، ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ٧٦ (حيث القراءة كما في ابن عذارى) . هذا ولا بأس من الاشارة الى أنه بمناسبة حسن سيرة يزيد بن حاتم في افريقية ، ووفود الشعراء عليه وغيرهم لطلب صلته =

فاهتم بتنظيم نشاطها الاقتصادى بصفة خاصة ، فرتب الأسواق فيها ، كما ينسب اليه تجميع أصحاب كل صنعة في مكان خاص بهم(٦٤) • وأغلب الظن أنه لو صح ذلك لكان الفضل ليزيد بن حاتم فى ذلك التنظيم البديع الذى كانت تزهو به الأسواق في المدن العربية الى عهد قريب ، والذى جعل لكل موضع من السوق تخصصا في نوع معين من السلع أو الحرف ، وهو التنظيم الذى ظهر حديثا فى شكل المخازن الكبرى (Grands Magasins) ذات الأقسام المتنوعة • وهكذا حق للرقيق الذى ينقله النويرى عندما يشير الى الأعمال العمرانية التى قام بها يزيد في تحسين القيروان وزيادة قدرها أن ينص على أنه لو قيل ان يزيد بن حاتم هو الذى حضر القيروان (مصرها) لم يكن ذلك بعيدا من الحق(٦٥) •

وللأسف ان الكتاب لا يهتمون كثيرا بتسجيل الأعمال العمرانية اهتمامهم بتسجيل أنباء الحروب والمعارك • فمن الأعمال الجليلة التى يذكرها الكتاب بالفخر ليزيد بن حاتم تجديده لبناء المسجد الجامع بالقيروان فى سنة ١٥٧ هـ/ ٧٧٤ م ، وهى السنة التى توفي فى نهايتها المنصور ، ورغم ذلك يكتفى ابن عذارى ، كما فعل الرقيق ، بالقول « وكان فى غاية الجود والحسن » دون أية تفصيلات(٦٦) •

وأما عن أعماله في ميادين الزراعة والرعى — وهى أهم موارد الثروة فى البلاد في تلك الايام — فلا يذكر الكتاب عنها الا ما يختص بالأمير وكرمه ، أو عنايته بأراضيه وزراعتها بأنواع المحاصيل الكبرى التى تعرفة فى أيامنا هذه

= واحسانه ، يمكن ان يكون قد حدث ليس بين ولاية يزيد على مصر وولايته على افريقية مفهذا ما يظهر من روايات الرقيق الذى سلمله اصطلاح ولاية « المغرب » . كما كان يستخدم فى ديوان بغداد ، وكان يدخل في نطاقه ولاية مصر • فهذا ما يظهر فى كلام الرقيق ، عندما يقول : « وكان أبو جعفر (المنصور) عالما بالمغرب خائفا عليه ، وكان لا يبعث اليه الا أهل ثقته •• » ، وما يضيفه الى ذلك من أن المنصور شيع يزيد بن حاتم ، عندما ولاه المغرب ، الى فلسطين • وذلك خلال النص على ولاية مصر (أنظر الرقيق ، ص ١٥١ — ١٥٢ ، وقارن الحلة السيراء ، جـ ١ ص ٧٣ و هـ ٢ حيث أشار حسين مؤنس الى خشية المنصور من ثورة يقوم بها العلويون فى مصر) •

(٦٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٨ ، وقارن الرقيق ، ص ١٤٩ •

(٦٥) أنظر الرقيق ، ص ١٤٩ ، النويرى ، المخطوط ص ٩٧ ب ، وقارن الحلة السيراء جـ ١ ص ٧٢ (حيث يكتفى ابن الأبار بذكر انه « رتب القيروان » •

(٦٦) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٧٩ ، وقارن الرقيق ، ص ١٤٩ ، النويرى ، ص ٩٧ ب •

« بامحصيل المغدية » . هذا ما يمكن أن نفهم من قول يزيد بن حاتم لبعض وكلائه عندما زرع فولا كثيرا في بعض رياضاته : « يابن اللخناء ! أتريد أن تعير بالبصرة فيقال يزيد بن حاتم بافلاني ! اعلي يبيع الفول » . ويمكن أن يفهم أيضا من بقية النص أن يزيدا كان بعيدا عن استغلال الناس ببيع مثل تلك المحاصيل الموسمية الطريفة ، وذلك أنه أمر أن يباح للناس(٦٧) . ومن ذلك أيضا أنه خرج من القيروان متنزها بموضع يعرف « بمنية الخيل » ــ حيث حفر بئرا عذبة هناك ــ فرأى قطعانا كبيرة من الغنم . فلما سأل عنها وعرف أنها لابنة اسحق ، زجره عنيفا وأمر بذبحها . وأن تباح للناس فانتهبوها ، وأكلوها » . وقد دبغ ابن حاتم بعمله هذا بعض المواضع من القيروان . وذلك أن جلود الغنم وضعت في كدية عرفت من ذلك الوقت « بكدية الجلود »(٦٨) .

ويذكر الكتاب قطعا متناثرة تبين اهتمام يزيد بن حاتم بنظم امارته الحكومية وتراتيبها ، من ذلك أنه عزل القاضي المشهور يزيد بن الطفيل لأنه « كان اذا انصرف من مجلس قضائه يستودع ديوانه رجلا صباغا مقابل المسجد الجامع » ، ولما كلمه يزيد في ذلك قال : « اني أحفظ ما في ديواني وهذا لا يضرني » ، ولم يستجب الى قول يزيد(٦٩) . وعلى عهد يزيد كانت دار ضرب النقود نشطة في سك الدراهم الفضية والفلوس النحاسية التي كانت تحمل اسمه . واستمر الحال على هذا المنوال على عهد خلفائه من المهالبة ، مثل : نصر بن حبيب والفضل بن روح(٦٩ م) .

---

(٦٧) أنظر الرقيق ، ص ١٥٩ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٨١ ــ ٨٢ ، ودزن النويري (المخطوط ، ص ٨٩) . والترجمة ، ملحق ابن خلدون ، ج ١ ص ٣٨٥ ــ ٣٨٦) الذي ينقل نفس الرواية مع تعبير مختلف اذ يقول : « ان يزيد بن حاتم ... الزراعة وأنه كان يذهب الى المكان للرياضة والطعام والشراب » .

(٦٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٢ ، وقارن الرقيق (ص ١٥٨) الذي ينقله النويري (المخطوط ، ص ٩٨) ، الترجمة ، ج ١ ص ٣٨٦) الذي يحوي تفصيلات عن الحوار بين يزيد وابنة اسحق .

(٦٩) المالكي ، رياض النفوس ، الترجمة ٧٢ ج ١ ص ١١١ ، وقارن الرقيق ، ص ١٦٨ [illegible]

(٦٩ م) أنظر حسن حسني عبد الوهاب ، الورقات ، ج ١ ص ٤٣٦ = حسب الاشارة الى العثور على كمية من نقود المهالبة هؤلاء في ... (Steekbcn) [illegible]

وبفضل كرم يزيد بن حاتم أصبحت دار الامارة مجمع الشعراء الذين ساروا الى بابه من كل مكان ، مثل : ربيعة بن ثابت الرقى ، صاحب « لشتان ما بين اليزيدين فى الندى »(٧٠) . وبفضل استنارته وتقواه أصبحت منتدى الادباء والعلماء والقضاة ، والزهاد والصالحين . فممن وفد على يزيد من المشرق واستقر فى كنفه : اسحق بن مكرم الأشعرى ، المشهور بابن أبى المنهال الذى كان عالما أديبا رواية لأشعار العرب وأخبارها ، والذى خدم يزيد بن حاتم « لثقته به وعلمه بديانته »(٧١) . وفى تدين يزيد وتقواه تكفى شهادة فقيه إفريقية سحنون بن سعيد اذ كان يقول : « كان يزيد بن حاتم يقول : والله الذى لا اله الا هو ما هبت شيئا قط هيبتى رجلا واحدا يزعم أنى ظلمته ، وأنا أعلم أن لا ناصر الا الله »(٧٢) . وممن كان يتردد على دار يزيد بالقيروان ويأكل على مائدته يحيى الطبيب ، وقاضى افريقية أبو خالد عبد الرحمن بن زياد بن أنعم(٧٣) . وكذلك العلماء والفقهاء والقضاة ، والزهاد والصالحون :

---

(٧٠) أنظر فيما سبق ، ص ٣٦٤ هـ ٦٣ - وكذلك ما امتدح به المسهر التميمى الشاعر حينما وفد على يزيد بن حاتم بافريقية

إليك قصرنا النصف من صلواتنا … مسيرة شهر ثم شهر نواصله

فلا نحن نخشى أن يخيب رجاؤنا … لديك ولكن أهنأ البر عاجله

ويقول السمعانى ، فى كتاب الأنساب ان يزيدا امر جنده ، وكان معه خمسون ألف مرتزق ، فوضع كل منهم للشاعر درهمين من عطائه وزاد يزيد ذلك ١٠٠ (مائة) ألف أخرى - هذا ولو أن ابن خلكان يختم ذلك بقوله ثم وجدت البيتين المذكورين لمروان بن أبى حفصة والله اعلم (وفيات الأعيان ج ٥ ص ٣٦٨) .

وممن مدح يزيد ، وهو بالمشرق ، محمد بن عبد الله بن مسلم ، المعروف بابن المولى ، الذى قال فيه :

يا واحد العرب الذى دانت له … قحطان قاطبة وساد نزارا

انى لأرجو أن يلقتك سالما … لا أكابد بعدك الأسفارا

أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٢ ، وقارن الرقيق ، ص ١٥٥ (حيث تعديل طفيف فى البيت الثانى ، ففيه : « لقيتك » بدلا من « يلقتك » ، و « أعالج » بدلا من : « أكابد ») .
هذا ، كما يروى عن نفس الشاعر أنه قال فى يزيد على نفس النسق :

يا واحد العرب الذى … أضحى وليس له نظير

لو كان مثلك ثانيا … ما كان فى الدنيا فقير

أنظر الرقيق ، ص ١٥٦ .

(٧١) الرقيق ، ص ١٥٧ .

(٧٢) الرقيق ، ص ١٥٧ .

(٧٣) أنظر ابن عذارى ، (ج ١ ص ٨٠) الذى يذكر فى أحداث سنة ١٦٢ هـ/ ٧٧٨ م وفاة قاضى القيروان أبى خالد عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (وعنه أنظر فيما سبق ، ص ٣٤٣ =

وبذلك أخذت القيروان تحتل مركز الصدارة بين مدن المغرب ، ليس بصفتها العاصمة السياسية للبلاد فقط بل وبصفتها العاصمة الفكرية ومركز الاشعاع الديني والثقافي في البلاد ٠

ومنذ ذلك الوقت المبكر أخذت أفكار المدارس الاسلامية الناشئة في المشرق تعرف طريقها الى المغرب ٠ وهم مثل لذلك هو دخول آراء مالك بن أنس الفقيه الى البلاد ٠ فقد كان مالك في ذلك الوقت يلقي « محاضراته » في مسجد المدينة ، وكان من بين مستمعيه كثير من طلاب العلم والحجاج المغاربة والأندلسيين الذين نقلوا ما سمعوه الى بلادهم ، الى جانب من هاجر من المشارقة الى المغرب ، فكان ذلك بداية لدخول المذهب المالكي الى المغرب ٠ وتحوي كتب تراجم العلماء والصالحين أسماء كثير ممن استمع الى دروس مالك وأخذ عنه في ذلك الوقت ، والذين استمروا على صلاتهم بامام دار الهجرة يكتبون اليه بالمسائل ويبعث اليهم بآرائه ٠ ومن أشهر هؤلاء أبو محمد بن عبد الله بن فروخ الفارسي(٧٤) ، الذي قال عنه مالك : « هذا فقيه أهل المغرب »(٧٥) ، والذي لقي أيضا أبا حنيفة النعمان ، « وذاكره وكتب عنه مسائل كثيرة غير مدونة ٠٠٠ »(٧٦) ٠ ومع أن ابن فروخ أخذ -كما نرى عن امام العراق ، وأنه « كان ربما مال الى قول أهل العراق اذا تبين له أن الصواب في قولهم » ، الا أن صلته بمالك كانت أوثق ، فقد « سمع منه وتفقه ، وعليه اعتمد في الحديث والفقه ، وبصحبته اشتهر »(٧٧) ٠ وكذلك الأمر بالنسبة لقاضي افريقية عبد الله بن غانم الذي قال عنه مالك « هذا قاضي بلده »(٧٨) ، والبهلول بن راشد

= وص ١١ ، وفيما بعد ، ص ٣٦٩ - ٣٧٠) بعد ، أن أكل حوتا وشرب لبنا على مائدة يزيد ، وكان قد جاوز تسعين سنة ، فهلك من ليلته » ٠ وقارن الرقيق ، ص ١٦٨ ، حيث الاشارة الى ان أكلة السمك وشرب اللبن حدثت في حضور يحيي الطبيب (يوحنا المتطبب) الذي تنبأ بنهاية تعسة للقاضي عبد الرحمن الذي توفي في نفس الليلة اثر فالج الم به ، وله من العمر أكثر من سبعين سنة ، وأنظر المالكي ، ج ١ ص ١٠٢ ، والدباغ ، ج ١ ص ١١٧ ٠ ولا نعرف ان كانت هذه الرواية هي أصل أسطورة الخوف من أكل السمك وشرب اللبن معا ٠

(٧٤) ولد بالأندلس سنة ١١٥ هـ/٧٣٣ م وتوفي بمصر سنة ١٧٦ هـ/٧٩٢ م ٠ انظر ترجمته في المالكي ج ١ ص ١١٣ وما بعدها ، والدباغ ، ج ١ ص ١٧٨ ٠

(٧٥) المالكي ، ج ١ ص ١١٥ ، الدباغ ، ج ١ ص ١٧٩ ٠

(٧٦) المالكي ، ج ١ ص ١١٦ ، الدباغ ، ج ١ ص ١٧٩ ٠

(٧٧) نفس المصدر ٠

(٧٨) المالكي ، رياض النفوس ، ترجمة البهلول بن راشد ، ج ١ ص ١٣٣ ، وانظر ترجمة ابن فروخ ، ص ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨ ، وانظر الدباغ ، ج ١ ص ٢١٥ ٠

(١٢٨ - ١٨٣ هـ) الذي قال عنه مالك « هذا عابد بلده »(٧٩) ، والذي كان يعظم قدر ابن فروخ و « يقلده في بعض ما ينزل به من أمور الديانة »(٨٠) ٠

ومع أن آراء مالك الفقهية هي التي استهوت أفئدة المغاربة ، فان القيروان عرفت أيضا آراء المعتزلة في تلك الفترة ، رغم ما كانت تلقاه تلك الآراء من معارضة جمهرة العلماء ٠ والظاهر أن الاعتزال دخل المغرب مع آراء أهل العراق من أصحاب أبي حنيفة حتى أن ابن فروخ - الذي لقي أبا حنيفة كما قلنا - رمي بالاعتزال ، وتطلب الامر منه أن يجاهر بلعنة المعتزلة « قبل يوم الدين ، *وفي يوم الدين ، وبعد يوم الدين »(٨١) ٠ ومع أن الاعتزال لقي معارضة عنيفة* من أصحاب مالك - وهم متأثرون في ذلك بارشادات امام دار الهجرة الذي كان يخشى ظهور « طريقة الجدل بافريقية »(٨٢) - حتى ان ابن غانم وابن فروخ والبهلول كانوا يرفضون الصلاة في جنازة المعتزلي(٨٣) ، فان الاعتزال والجدل كان لهما أتباعهما ٠ ولقد استهوت معرفة الاعتزال - في بعض الأحيان - بعض عمد السنة والمالكية ، فيروى عن البهلول بن راشد أنه سأل يوما بعض جلسائه « أحب أن تذكر لي ما تحتج به القدرية » ، ولكن الرجل رد عليه : « يا أبا عمران سألتني عما تحتج به القدرية ، وهو كلام الشياطين ، لانه سلاح من سلاحهم فتزينه في قلوب العامة ، وفي مجلسك من لا يفهم ما أتكلم به من ذلك ، فلا آمن أن يحلو بقلبه منه شيء ، فيقول سمعت هذا الكلام في مجلس البهلول » ٠ وقبل البهلول رأس الرجل وقال : « أحييتني أحياك الله »(٨٤) ٠

وأهمية هؤلاء العلماء والفقهاء والصالحين لا تقتصر على العمل على نشر السنة ، ومحاربة البدع ، وتعريف الناس بالحلال والحرام ، بل كان في وجودهم نوع من الرقابة على أعمال الناس وكذلك أعمال الحكام، وذلك حسب مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٠ فعبد الرحمن بن زياد بن أنعم كان ، وهو في القضاء ، لا يسمح ليزيد بن حاتم بفض الختام ما يصدره من كتب الأحكام

---

(٧٩) المالكي ، رياض النفوس ، ترجمة البهلول ، ص ١٣٢ ، الدباغ ، ج ١ ص ١٩٨ ٠
(٨٠) المالكي ، ج ١ ص ١١٦ - ١١٧ (ترجمة ابن فروخ) ٠
(٨١) المالكي ، ج ١ ص ١٢٠ ٠
(٨٢) المالكي ، ج ١ ص ١١٤ ٠
(٨٣) المالكي ، ج ١ ص ١٢١ ، الدباغ ، ج ١ ص ١٩٨ ٠
(٨٤) المالكي ، ج ١ ص ١٣٤ ٠

حتى أنه فضل العزل عندما ألح عليه يزيد في اعادة ختم كتاب حكم كان أصدره لامرأة كانت تتردد على داره(٨٥) • والظاهر أن ذلك كان درسا فيمه يزيد ابن حاتم أنه عزل خليفة ابن انعم في القضاء ، وهو ابن الطفيل ، عندما سمح لنفسه بحفظ كتبه في دكان بعض البزازين رغم أنها كانت مختومة(٨٦) ، كما أصبح تقليدا يسير عليه كبار القضاة فلا يسمحون للامراء بفض أختام كتب أحكامهم(٨٧) • وابن فروخ رفض تولي القضاء رغم الحاح روح بن حاتم أخي يزيد ، وذلك اقتداء بنصيحة أبي حنيفة الذي شبه من يولي القضاء برجل يلقى به في البحر الواسع ، فنهايته — طالت أم قصرت — الى الغرق سواء أجاد السباحة أم لم يجدها (٨٨) • ويروى عن ابن فروخ أيضا أنه كان « اذا أخذ الجند أعطياتهم أغلق حانوته تلك الأيام حتى يذهب ما في أيديهم • فاذا ذهب ما في أيديهم فتح حانوته » مما يفهم منه أنه كان لا يعتقد في صحة كسب العسكر(٨٩) • ورغم أن ابن فروخ كان لا يلي القضاء فانه كان يقوم بدور المحتسب بالنسبة لأبناء يزيد بن حاتم • فلقد رأى ذات يوم ، وهو بحي باب نافع من أحياء القيروان ابنا ليزيد اسمه اسحق ، وهو يدرب بعض كلاب الصيد فاغراها بظبي فنهشته ومزقته • فما كان منه الا ان خاطب ابن الأمير دون أن يكنيه ، قائلا : « يا فتى ! اني رأيتك تغري كلابك آنفا ببهيمة ، وما أحب ذلك » — فما كان من اسحق بن يزيد الا أن قال له : « صدقت أبا محمد ، جزاك الله خيرا » ، واتبع ذلك بقوله : « والله لا فعلت ذلك بعد يومي هذا أبدا » — ويضيف الراوي أن ابن فروخ لم يزل مكينا لدى اسحق بن يزيد معظمـــا عنده(٩٠) وفي نصح الأمير والرقابة على أعماله. تقول الرواية أن يزيد بن حاتم أوسل الى ابن فروخ يسأله عن دم البراغيث في الثوب هل تجوز به الصلاة ؟ فحدث ابن فروخ بالجواز ، ولكنه أضاف بحضرة الرسول اضافة لاذعة اذ قال : « يسألوننـــا عن دم البراغيث ولا يسألوننـــا عن دماء المسلمين التي تسفك »(٩١) •

---

(٨٥) الرقيق ، ص ١٦٦ — ١٦٧ •

(٨٦) أنظر فيما سبق ، ص ٣٦٦ وهـ ٦٩ •

(٨٧) انظر فيما بعد ، ص ٣٧٤ وهـ ١٠٥ •

(٨٨) المالكي ، ج ١ ص ١١٨ — ١١٩ ، ١٢١ •

(٨٩) المالكي ، ج ١ ص ١٢٣ ، وانظر المدارك ، ج ١ ص ٢٠٦ (ترجمة البهلول • ومن اجتناب الفقهاء والعباد في أرزاق الاجناد حلال هي أم حرام ، « كان البهلول يقول أخذ الاجناد الارزاق التي تجرى لهم حرام عليهم ») •

(٩٠) انظر الرقيق ، ص ١٥٩ •

(٩١) المالكي ، ج ١ ص ١١٩ ، المدارك ، معالم الايمان ، ج ١ ص ١٨٣ •

المهلبيون بعد يزيد بن حاتم :

عرفت افريقية فترة الهدوء والرخاء طوال ولاية يزيد بن حاتم التي استمرت أكثر من خمسة عشر عاما منذ خلافة المنصور ، وطوال عهدي المهدي والهادي وبعض خلافة الرشيد الى رمضان سنة ١٧٠ هـ/فبراير ٧٨٨ م عندما توفي يزيد بن حاتم(٩٢) . وهذا يعني أن المهلبيين ثبتوا أقدامهم منذ ولاية عمر بن حفص سنة ١٥١ هـ/٧٦٨ م ، واكتسبوا رضاء الخلفاء عنهم بفضل سياستهم الرشيدة التي جمعت بين الحزم والاتزان ، وكونوا في افريقية ما يشبه امارة أو ملكية تابعة للخلافة استمرت الى مقتل آخرهم الفضل بن روح في سنة ١٧٨ هـ/٧٩٤ م .

داود بن يزيد بن حاتم : عودة الاضطراب الى البلاد :

فعندما مرض يزيد بن حاتم مرضه الذي مات فيه استخلف ابنه داود ابن يزيد ، الذي ظل واليا لمدة تسعة أشهر ونصف شهر(٩٣) ، الى أن قدم عليه عمه روح بن حاتم أميرا على المغرب بعهد من الرشيد . واشتغل داود خلال تلك الفترة بحرب الخوارج الذين وجدوا في وفاة يزيد فرصة لكي يزاولوا نشاطهم من جديد .

الاباضية في باجة :

ويبدأ الاضطراب بين قبائل نفزاوة الذين أقاموا أحدهم اماما . وهـــو صالح بن نصير الاباضي ، وأعلنوا العصيان في جبال باجة ، وحاولوا بسط سلطانهم على المنطقة . وشهدت جبال باجة معارك حامية بين قوات القيروان وبين قوات البربر من الاباضية ، وتراوح النصر والهزيمة بين الطرفين . فلقد انتصر نصير بن صالح على قوات داود التي أرسلها بقيادة أخيه المهلب بن يزيد في باجة . ولكنه انهزم في معركة ثانية أمام القوات التي سارت اليه

---

(٩٢) الرقيق : حدث النص على أنه توفي بدار الامارة في الموضع الذي كان يعرف برحبة الخير أو يسميه العدل (ص١٦٢) ، ودفن في مقبرة باب سالم (ص ١٧٦) . ابن الأثير ، سنة ١٥١ ، ج ٥ ص ٣٨٥ . ابن عذارى (ج ١ ص ٨٢) يجعل وفاة يزيد في رمضان سنة ١٧١ هـ ، ورأي الأثير أصح .

(٩٣) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١ ص ٨٢ ، وعند الرقيق ص ١٧٠ (حدث النص على سبعة أشهر بدلا من تسعة) .

بقيادة سليمان بن الصمة بن يزيد المهلبي الذي تتبع الثوار وقتل منهم أكثر من عشرة آلاف ، ولم يخسر أحدا من رجاله كما يقول الرواة(٩٤) • ونجح صالح من جديد في حشد جمع من الاباضية بينهم عدد من زعماء البربر ممن لم يشتركوا معه في ثورته الأولى ، واجتمع بهم في شقبنارية من كورة الأربس، ولكن سليمان بن الصمة استطاع أن يهزمهم من جديد ثم انه رجع الى القيروان(٩٥) •

وبذلك تنتهي الثورة الاباضية دون نتيجة ملموسة ، وتنتهي نيابة داود بن يزيد بن حاتم في افريقية التي دامت أكثر قليلا من نصف عام ، فلا يذكر الكتاب له بعد ذلك سوى أنه جعل شرطته خالد بن بشير ، كما أعاد ولاية الزاب الى المهلب بن يزيد(٩٦) • ويأتي روح بن حاتم الى القيروان ليعيد بعضا من سيرة أخيه يزيد فيقر الأمور في البلاد بينما يرجع داود الى المشرق حيث يعطيه الرشيد ولاية مصر أول سنة ١٧٤ هـ/ ٧٩٠ م(٩٧) ، قبل أن يوليه السند حيث مات وهو أمير عليها(٩٨) • ولكنه مع قدوم روح عرفت

---

(٩٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٢ ، حيث اسم الثائر الاباضي نصير بن صالح ، فعدلناه حسبما وجد في ابن خلدون والنويري اللذين ينقلان عن الرقيق ، وكذلك الأمر بالنسبة لسليمان ابن الصمة وهو فيه سليمان بن يزيد) • وقارن بن خلدون (ج ٦ ص ١١٣ ، الترجمة . ج ١ ص ٢٢٤)الذي يخطيء في تحديد تاريخ تلك الوقائع بسنة ١٦١ هـ/٧٧٨ م رغم أنه يذكر حدوثها عقب وفاة يزيد بن حاتم وهو يجعل قوات داود الأخيرة تحت قيادة ابن عمه سليمان ابن الصمة (الصحة) المهلبي • وقارن النويري (ص ٩٨ ب ، الترجمة ج ١ ص ٣٨٧) الذي يجعل ثورة جبال باجة غير ثورة صالح بن نصير الذي يلقبه بالنفزي التي ربما كانت تحريفا للسدري (الصفري) ، كما في ابن خلدون • أما عن ابن الصمة (كما في الرقيق) ، فيقول انه سليمان بن الصمة بن يزيد بن حبيب بن المهلب ، وأنظر الرقيق ، ص ١٦٩ (حيث أصل روايتي كل من ابن خلدون والنويري ، وان كانت للاسف مخرومة في أولها) •

(٩٥) أنظر الرقيق ، ص ١٦٩ . وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١٣ ، الترجمة ، ج ١ ص ٢٢٤ • وعن شقبنارية أنظر فيما سبق ص ٢١٠ وهامش ١٧٥ •

(٩٦) الرقيق ، ص ١٦٩ •

(٩٧) الكندي ، الولاة والقضاة ، ص ١٣٣ •

(٩٨) الرقيق ، ص ١٧٠ ، ثم ص ١٧٥ — ١٧٦ : حيث تقول الرواية انه عندما بعث الرشيد يزيد بن حاتم الى افريقية وروحا الى السند ، قيل له : يا أمير المؤمنين ، لقد باعدت بين قبريهما . ومن عجب أن الأخوين توفيا بالقيروان ، ودفنا في موضع واحد في مقبرة باب سالم • وتذكر الرواية أنه كان على قبريهما ساريه مكتوبة فيها أسماؤهما ، وقد ذهب ما كان على قبريهما من بناء ، لأن بني الأغلب هدموه . ومنه الأعمدة التي كانت تحت مصلى العيد • وتضيف الرواية أن أكثر الناس كانوا يعرفون قبري يزيد وروح ويقفون عليهم ، لمعرفة ... في السلطان والقدرة » •

بلاد المغرب دعوة انفصالية جديدة ، هي التي قام بها ادريس بن عبد الله الحسني في المغرب الأقصى ، اثر فشل ثورة العلويين في الحجاز سنة ١٦٩ هـ/٧٦٨ م ، التي انتهت باقامة دولة علوية كما سنرى ، هي دولة الأدارسة التي حكمت المغرب الأقصى ومدت فروعها الى المغرب الأوسط والأندلس ٠

روح بن حاتم : عودة الى الاستقرار :

بعد فترة الاضطراب القصيرة أيام نيابة داود بن يزيد ، عادت الأحوال الى الاستقرار بوصول روح بن حاتم الى القيروان في رجب سنة ١٧١ هـ/ ديسمبر — يناير سنة ٧٨٧ — ٧٨٨ م على رأس ٥٠٠ (خمسمائة) فارس ، ويتبعه ابنه قبيصة على رأس ١٥٠٠ (ألف وخمسمائة) فارس(٩٩) ٠ هذا ما يشير اليه الكتاب — كما فعلوا بالنسبة ليزيد بن حاتم — اذ يكتفون بذكر مناقب روح وصفاته ، وتسجيل نكت وقعت أيامه(١٠٠) ، فلا نجد ذلك الخليط المتشابك من الثورات والقلاقل المعهودة ٠ فالطرق كانت آمنة ، والسلام سائد بين البربر طالما كان روح حيا(١٠١) ٠

ويفهم من رواية الرقيق انه لما كان مركز الخطورة يكمن في بلاد الزاب ، فان بعض مستشاري روح نصحه أن يملأها خيلا ورجلا(١٠٢) ٠ واذا كان من الراجح أن يكون روح قد عمل بتلك النصيحة ، فمن الواضح أن حسن اختياره لمعاونيه من رجال الدولة كان من عوامل استقرار دولته ٠ وفي ذلك تقول نفس الرواية انه ما أن وصل روح الى افريقية حتى أقرّ عـــلى ولاية طرابلس : العلاء بن سعيد ، واستعمل على تونس : الجنيد بن سيار ، ثم عزله واستعمل عليها اسحق بن يزيد بن حاتم ٠ أما طبنة عاصمة بلاد الزاب حيث مكمن الخطر فقد عزل عنها المهلب بن يزيد الذي كان قد عينه داود بن يزيد ،

---

(٩٩) أنظر الرقيق ، ص ١٧٣ (حيث يقول في روح : « وكان شـــيخا حازما قد حلب الدهر أشطره ، وذهب أكثر عمره في امارة يديرها أو حرب يسعرها ») ٠

(١٠٠) أنظر الرقيق ، ص ١٧١ — ١٨١ — حيث تمتلئ الرواية بقصص منتقبية عن روح ومن كان على اتصال به في المشرق وفي المغرب ، ابتداء بالخليفة هارون الرشيد وانتهاء بجواريه وحظاياه . وذلك في موضوعات الحزم والكرم والشجاعة والشرف والعصبية وغيرها ٠

(١٠١) أنظر الرقيق ، ص ١٧٣ ، النويري ، ص ٩٩ أ ، الترجمة ، ج ١ ص ٣٨٧ ٠ وقارن ابن الخطيب ، أعمال الاعلام (قسم ٣ تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني) ، ط ٠ الدار البيضاء ، ١٩٦٤ ، ص ١٠ ٠

(١٠٢) الرقيق ، ص ١٢٧ ٠

وعهد بولايتها الى ابنه الفضل بن روح • أما عن ولاية برقة المتطرفة شرقا ، فقد عهد بها الى ابنه قبيصة عندما لحق به ، ويضيف النص الى ذلك انه عندما مات روح (أواخر سنة ١٧٤ هـ/أوائل ٧٩١ م) عزلت برقة التى كان على ولايتها قبيصة بن روح عن عمل افريقيه(١٠٣) ، بمعنى أنها ضمت الى ولاية مصر •

فكان أعمال روح الادارية هذه والتنظيمية هي التى أكدت ، على المستوى الداخلي ، هدوء البلاد وأمن الطرق • أما على المستوى الخارجي فقد عمل روح على توطيد الآمن عن طريق الرغبة في مهادنة (موادعة) عبد الوهاب بن رستم الاباضي صاحب تاهرت (تيهرت)(١٠٤) •

وفيما يتعلق بالقضاء فقد عهد به روح الى فقيه من أهل تونس ، وهو : العلاء بن عقبة ، الذى كان على قدر كبير من الصلاح والورع واحترام الذات ، حتى انه ترك منصبه دون علم روح عندما علم أن هذا الأخير سمح لنفسه بفض كتاب حكم كان قد حكم به العلاء لرجل من أهل باجه ، واطلع عليه(١٠٥) • وعندما عرض روح القضاء على عبد الله بن فروخ باصرار رغم ضغط روح(١٠٦) • وأمام الالحاح والتهديد أشار ابن فروخ بتعيين عبد الله بن عمر بن غانم ، الذى كانت له معه صحبة ، فولاه روح القضاء • وبقى ابن غانم قاضيا لافريقية حوالى عشرين سنة (١٧١ هـ – ١٩١ هـ/٧٨٨ م – ٨٠٨ م) حتى امارة ابراهيم بن الأغلب على افريقية(١٠٧) •

---

(١٠٣) أنظر الرقيق ، ص ١٧٣ (و ص ١٨٣ ، وانظر فيما بعد ، ص ٣٧٦ وهـ ١١٥ عن امارة قبيصة) •

(١٠٤) أنظر الرقيق ، ص ١٧٣ ، وقارن ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ١٠ (حيث النص على رغبة الاباضيين في موادعته الى أن توفي في ١١ رمضان ١٧٤ هـ) •

(١٠٥) الرقيق ، ص ١٧٤ •

(١٠٦) الرقيق ، ص ١٧٤ – وفي ذلك يروى أن ابن فروخ اقتدى في الامتناع من تولي القضاء بأبي حنيفة الذى قال : ان القضاء كالبحر في سعته وان الذى يقبل وظيفة القاضي كمن يلقي بنفسه في وسط البحر ، مصيره الغرق طال الزمان أم قصر ، سواء كان يحسن العوم ، أو لا بأس بعومه ، أو لا يحسن العوم • (الرقيق ، ص ١٧٩) • وانظر فيما سبق ، ص ٣٧٠ و هـ ٨٨ حيث الاشارة للمالكي •

(١٠٧) انظر الرقيق ، ص ١٧٤ – ١٧٥ ، ١٧٨ ؛ حيث تذكر الرواية أن ولاية ابن غانم للقضاء كانت في رجب سنة ١٧١ هـ أي في نفس الشهر الذى وصل فيه روح الى القيروان ، مما يعني أن العلاء بن عقبة التونسي لم يمكث في القضاء الا أياما قليلة – اذا صح ذلك التاريخ • وفيما يتعلق بوفاة ابن غانم تقول الرواية أنها كانت في سنة ١٩٠ هـ/٨٠٧ م أو في سنة ١٩٦ هـ/٨١٢ م – أنظر المالكي •

ورغم أن عبد الله بن فروخ رفض تقلد القضاء ، كما كان يرفض تقديم الاستشارة في الخصومات(١٠٨) ٠ فان هذا لا يعنى اعتزاله المجتمع أو ابتعاده عن متابعة الرقابة على الأمراء ، مما كان يدخل في مبدأ « الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » ٠ فالفقيه الورع الذى كان يأخذ برأى فقهاء العراق في تحليل النبيذ ، كان يجاهر بحق « الخروج على أهل الجور والظلم » ، حتى قيل أنه لم يتردد في التصريح بذلك في مواجهة روح بن حاتم عندما سأله عن ذلك ٠ وكان من الطبيعي أن يتغافل عنه الأمير المهلبي — الذى حلب الدهر اشطره — عندما عرف أن الفقيه المثالي كان يسعى الى « الخروج » في عدد من الافاضل عدتهم عدة أهل بدر ، وكلهم أفضل منه(١٠٩) ٠

أما عن مناقب روح الأخرى — الى جانب تعظيمه للعلماء — فلقد اتصف بالصلابة وعدم الجزع ، كما عرف بالبلاغة والكرم(١١٠) ٠ ولكنه كان يؤخذ عليه في ذلك الوقت كبر السن ٠ فقد كان روح أسن من أخيه يزيد ، وكان كبر سنه يسبب ازعاجا للقواد وكبار الموظفين في افريقية ، فقد كان روح « عندما يطول جلوسه بالقيروان ربما خطر عليه النعاس من الضعف والشباخه »(١١١) ؛ ولما كان صاحب البريد مسئولا عن اطلاع الخلافة على أحوال البلاد فانه وقائد إسمه « أبو العنبر » كتبا الى الرشيد يعبران عن مخاوفهمـــا من ضعف روح ، وخشيتهما من اضطراب ثغر افريقية اذا ما شغرت الامارة بوفاة روح بغتة ٠ ولقد أشار الاثنان على الرشيد بتعيين نصر بن حبيب كوال ثان لافريقية تؤول اليه الامارة اذا مات روح ، لما عرف عنه من رجاحه العقل ، وخبرته بأمور الادارة ، ومحبته في قلوب الناس(١١٢) ٠ ووافق الرشيد على اختيار نصر بن

---

(١٠٨) الرقيق ، ص ١٧٥ ٠

(١٠٩) الرقيق ، ص ١٨٠ — ١٨١ ٠ وفي ذلك تقول الرواية أن روح بن حاتم علق على ذلك ، فقال : « قد امنا ان يخرج عيينا أبدا لا يجد أحدا مثله ، فكيف هذه العدة » ٠

(١١٠) يقال انه مات له ابن صغير فذهب بعضهم لعزائه فوجده ضاحكا فتوقف عن العزاء ، فقال روح :

انا لقوم ما تفيض دموعنـــا على هالك منــا وان قصم الظهـــر

الرقيق ، ص ١٧٧ (حيث « انا الناس » بدلا من « انا لقوم » ، ثم « ولو قصم الظهرا » بدلا من « وان قصم الظهر ») ٠ وقارن ابن الخطيب ، اعمال الاعلام (قسم ٣) ، ص ١٠ (حيث يقال في كرمه وبلاغته انه بعث الى كاتب له ٣٠ (ثلاثين) الفا ، وكتب اليه : « لا أستقلها تكبرا ، ولا استكثرها تمننا ، ولا أستثيب عليها ثناء ، ولا أقطع عنك بها رجاء » ٠

(١١١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٥ ٠

(١١٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٥ ، وقارن الرقيق ، ص ١٨٢ ، النويرى ، ص ٩٩ ٠

حبيب المهلبي – الذى كان يشغل منصب صاحب الشرطة ليزيد بن حـــاتم بافريقية ، كما كان يشغل هذا المنصب بالفسطاط من قبل ، عندما كان يزيد واليا لمصر – فكتب اليه بعهد افريقية سرا(١١٣) ٠

نصر بن حبيب المهلبي :

ووقع ما كان يخشاه صاحب البريد والقائد أبو العنبر ٠ فمات روح بن حاتم في ٢٢ من رمضان سنة ١٧٤ هـ/١ فبراير ٧٩١ م(١١٤) ، وبايع الناس ابنه قبيصة – الذى كانت له ولاية برقة – بالامارة في المسجد الجامع(١١٥) ٠ ومبايعة قبيصـة بن روح يمكن أن يكون لها أكثر من معنى : فهى من جهـة تبين أن افريقية أصبحت اقطاعا للمهلبيين أو كادت ، وهى من جهة أخرى قد تفسر عهد الرشيد لنصر بن حبيب بأنه محاولة من الخلافة وكبـــار موظفيها للحيلولة دون أن تصبح افريقية مملكة للمهلبيين يتوارثها الأبناء عن الآباء ٠ فما أن علم صاحب البريد وأبو العنبر بمبايعة قبيصة حتى سارعا بالمسير الى نصر بن حبيب ، « فأوصلا اليه عهد الرشيد وسلما عليه بالامارة ، وركبا معه الى المسجد فيمن معهما حتى أتيا قبيصة ، وهو جالس عـــلى الفراش ، فأقاماه وأقعدا نصر بن حبيب ، وأعلما الناس بأمره ، وقرىء الكتاب الواصل من أمير المؤمنين هارون الى نصر بن حبيب على الناس ، فسمعوا وأطاعوا »(١١٦)

وبدأ نصر حكمه بالاجراءات الادارية المعتادة ، من تثبيت الولاة القدامى ، وتعيين غيرهم من الجدد ٠ ولما كانت ولاية الزاب قد شغرت عندما تركها الفضل ابن روح بمجرد علمه بولاية نصر ، وسار الى الرشيد في بغداد ، فقد رأى نصر

---

(١١٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٥ ، وقارن الرقيق ، ص ١٨٢ ٠ ونلاحظ أن ابن الأثير (سنة ١٧٧) يسميه خطأ حبيب بن نصر المهلبي ثم يعود الى الصواب أى نصر بن حبيب ٠

(١١٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٥ ، وقارن الرقيق ، ص ١٨٣ (حيث يجعل ولاية نصر ابن حبيب في ٢٠ رمضان) النويرى ، ص ٩٩ أ والترجمة ج ١ ص ٣٨٨ التى يجعل وفاة روح في ١٩ من رمضان ، وابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ١٠ – ١١ (حيث وفاته في ١١ رمضان ١٧٤ هـ ٠

(١١٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٥ ٠ وأنظر الرقيق ص ١٨٣ ، النويرى ص ٩٩ أ والترجمة ج ١ ص ٣٨٨ ٠ وأنظر فيما سبق ، ص ٣٧٤ و هـ ١٠٣ (عن عزل ولاية برقة عن افريقية) اعتبارا من سنة ١٧٤ هـ/٧٩١ م ٠

(١١٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٥ ٠ وأنظر أصـــل الرواية في الرقيق ، ص ١٨٣ ، النويرى ، ص ٩٩ ب ، والترجمة ج ١ ص ٣٨٩ ٠

أن ينقل العلاء بن سعيد من طرابلس — بعد ولاية طالت الى ما يقرب من أحد عشر عاما — وأن يستعمله على الزاب • أما طرابلس فقد عهد بها الى النصر ابن سدوس المرادى(١١٧) •

واستمر نصر فى ولاية افريقية الى المحرم من سنة ١٧٧ هـ/ابريل ٧٩٣ م ، عندما عهد الرشيد بالولاية الى الفضل بن روح • ويمكن أن تعتبر ولاية نصر بن حبيب التى دامت سنتين وثلاثة أشهر استمرارا لولاية روح ابن حاتم : اذ حسنت سيرة نصر وعدل فى أحكامه ، وعرفت البلاد فترة من الهدوء والسلام على أيامه(١١٨) ، ولكنه كان أشبه بالهدوء الــذى يسبق العاصفة المدمرة •

آخر المهلبيين فى افريقية : الفضل بن روح :

سعى للولاية فى بغداد ، واستقبال ملوكى فى القيروان :

فى الوقت الذى أعلن فيه عهد الرشيد بافريقية الى نصر بن حبيب ، وبينما كان قبيصة بن روح يتأهب لأخذ البيعة من الناس فى مسجد القيروان ، كان أخو هذا الأخير وهو الفضل بن روح واليا على الزاب من قبل أبيه روح ابن حاتم • ولم يرتح الفضل لاقصاء أخيه عن الامارة فخرج الى بغداد ، وظل يلاحق الرشيد الى أن كللت مساعيه بنواله ولاية افريقية(١١٩) • وستثبت الأحداث أن سعى الفضل بن روح للحصول على الولاية كان فى الحقيقة سعيا الى القضاء نهائيا على سلطان المهالبة فى المغرب • فعندما عهد الرشيد بافريقية الى الفضل ، « كتب بعزل نصر بن حبيب ، وأن يقوم بأمر الناس المهلب بن يزيد الى أن يقدم الفضل » ، الذى وصل الى القيروان فى المحـــرم من سنة ١٧٧ هـ/ابريل — مايو ٧٩٣ م(١٢٠) •

ويرجع الفضل الى الرقيق فى وصف الحفاوة الملوكية التى استقبل بها

---

(١١٧) الرقيق ، ص ١٨٣ •

(١١٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٥ ، وأنظر الرقيق ، ص ١٨٣ •

(١١٩) الرقيق ، ص ١٨٣ — ١٨٤ ، وأنظر النويرى ، ص ٩٩ ب ، الترجمة ، ج ١ ص ٣٨٩ •

(١٢٠) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٦ ، النويرى ، ص ٩٩ ب ، الترجمة ج ١ ص ٣٨٩ ، ابن الأثير ، سنة ١٧٧ ، ج ٦ ص ٥٤ ، وقارن الرقيق ، ص ١٨٤ •

أهل القيروان الفضل بن روح . فلقد استبشروا به ، وسروا بقدومه ، ونصبوا له السرادقات (القباب) على طول الطريق ، من « مسجد أم الأمير » وحتى دار الامارة في الحي المعروف برحبة التمر . وبرز من بين المحتفلين بالفضل أحد أثرياء التجار من أهل الذمة ، وهو قسطاط النصراني الذي تفنن في اقامة الزينات ، فكان من بين ما عمله باقة عظيمة من الريحان نشر عليها ورقة عريضة من البردى (طومار) كتب فيها مطلع سورة الفتح : « انا فتحنا لك فتحا مبينا، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » ، وزير من زجاج عمقه قرب مسجد أبي فهر ، « وفيه ماء ، وفي الماء حيتان تعوم » مما أثار اعجاب الفضل واستحسانه(١٢١) .

وبدأ الفضل بن روح ولايته بأن عزل عمال نصر بن حبيب ، كما يقول الرقيق ، باستثناء العلاء بن سعيد الذى أقره على ولاية الزاب ، التى كانت موضع اهتمام الأمراء . ولكن مؤرخ القيروان لا يذكر عقب ذلك الا أنه عين قريبه أبا عيينه الشاعر بن محمد بن أبي عيينه بن المهلب على طرابلس . وكان أبو عيينه قد تقلد ولاية قفصة وقسطيلية ، عندما وفد من المشرق زائرا لابن عمه يزيد بن حاتم(١٢٢) .

ورغم هذه البداية الطيبة التى افتتح بها الفضل حكمه فان ولايته لم تدم الا ما يقرب من سنة ونصف سنة ، اذ انتهي الأمر بمقتله في شعبان سنة ١٧٨ هـ/نوفمبر ٧٩٤ م(١٢٣) .

---

(١٢١) أنظر الرقيق ، ص ١٨٤ ـ وتضيف الرواية الى ذلك (ص ١٨٥) أن الفضل استجاب بعد ذلك لرجاء قسطاس في أن يسمح له ببناء كنيسة ، وان كان الرقيق يعلق على ذلك بقوله : « فان يكن ذلك كما قيل . فقد أتى (الفضل) عظيما » . وقارن ابن الخطيب أعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ١١ .

(١٢٢) أنظر الرقيق ، ص ١٨٥ (حيث توجد معلومات طريفة عن حضور جيران أبي عيينة الى داره بعد العزاء لتهنئته ، وكيف أن الرجل الذى سعى من قبل منصب الوالي لم يكن لديه دينار ولا درهم بصحبة هدية لوفد المهنئين . فما كان منه الا أن سمح لهم كل ما كان يحتويه داره ، من طعام وشراب وأثاث ومتاع فاقتسموه فيما بينهم . هذا ، كما أنه حلف أحد أعوانه على استكفائي أثاره بحقين هدية . الى جانب قصة أخرى عن ولعه بالشعر وكرمه حتى قيل : « ان المال لم ير أبدى ولا أقل مما هو بأيدى المهلبيين » ـ ص ١٨٦) .

(١٢٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٨ .

اضطراب العسكر الخلافي في تونس : ثورة ابن الجارود على رأس الخراسانية :

أما عن الظروف التي راح ضحيتها الفضل بن روح فهي اضطراب العسكر وعدم انتظام الجند في مدينة تونس وأعمالها . وكانت قد أخذت تنافس القيروان ، حتى قيل انها كانت قرينة للقيروان لكثرة العرب والجند المقيمين فيها ، وحتى سماها الخليفة المنصور - هي الاخرى - بالقيروان(١٢٤) . فلقد عهد الفضل بولاية تونس الى ابن أخيه المغيرة بن بشر بن روح الذي يوصف بأنه « كان غير ذي تجربة ولا سياسة للجمهور »(١٢٥) . وهكذا ينص الكتاب على أنه استخف بالجند وسار بهم سيرة قبيحة ، وهو يثق أن عمه لا يعزله ، وأن هؤلاء لم يرضوا بتلك المعاملة ، وخاصة أنهم كانوا ينكرون على الفضل استبداده برأيه ، وعدم اهتمامه باستشارتهم فيما يهمهم من أمور(١٢٦) . ولا بأس في أن يكون من أسباب الوحشة بين الفضل وبين الجند هو ميل هؤلاء الى الوالي السابق نصر بن حبيب ، كما يقول ابن الأثير(١٢٧) ، مما دعا الفضل الى قطع ما كان يشتري به رضاء زعماء الجند من الهدايا والأموال التي عرفت بـ « الاسلاف » ، كما ورد في خطاب ابن الجارود الى الفضل الذي سجله ابن الأبار في الحلة السيراء . واذا كان من المقبول أن تكون كلمة « الاسلاف » هذه يقصد بها ما كان يجري على أيام السلف من ولاة القيروان قبل الفضل ، كما يقترح حسين مؤنس(١٢٨) فمن الممكن أن يكون المقصود بكلمة الأسلاف هنا : الرواتب : التي تعطى للجند سلفا أي مقدما . والمهم أن الجند لم يرضوا بمعاملة المغيرة بن بشر ، وقرروا في بعض اجتماعاتهم أن يكتبوا الى عمه الفضل في القيروان « بما صنع فيهم ، وبقبح سيرته »(١٢٩) . وكان تباطؤ الفضل في الرد عليهم سببا في أن نظموا صفوفهم ، واختاروا - بتوجيه من أحد زعمائهم ،

---

(١٢٤) أنظر الرقيق ، ص ١٨٦ .

(١٢٥) ابن عذاري ، ج ١ ص ٨٦ . وقارن الرقيق ، ص ١٨٦ (حيث النص : « وكان غرا لا تجربة له بالأمور ») ، النويري ، ص ٩٩ ب ، الترجمة ج ١ ص ٣٨٩ ، ابن الأثير ، سنة ١٧٧ ، ج ٦ ص ٥٤ .

(١٢٦) أنظر الرقيق ، ص ١٨٦ ، وقارن ابن عذاري ، ج ١ ص ٨٦ ، النويري ، ص ٩٩ ب ، الترجمة ج ١ ص ٣٨٩ ، ابن الأثير ، سنة ١٧٧ ، ج ٦ ص ٥٤ .

(١٢٧) ابن الأثير ، سنة ١٧٧ .

(١٢٨) أنظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ٧٧ ، وهامش ٢ : حيث أشار حسين مؤنس الى هذا المعنى الذي يمكن أن تقصده كلمة « الإسلاف » .

(١٢٩) ابن عذاري ، ج ١ ص ٨٦ ، وقارن الرقيق ، ص ١٨٦ ، النويري ، ص ٩٩ ب ، الترجمة ج ١ ص ٣٨٩ ، ابن الأثير ، سنة ١٧٧ .

وهو محمد بن الفارسي — رجلا من أهل هراة هو القائد عبد الله بن عبد ربه المعروف بـ « عبدوية » أو بابن الجارود رئيسا لهم ، وعهدوا اليه بالعمل على تحقيق مطالبهم ، فقبل بعد تردد وبعد أن أكدوا له البيعة بالعهود والمواثيق(١٣٠) • وانتهى الأمر باعلان الجند الثورة بقيادة ابن الجارود بمدينة تونس سنة ١٧٨ هـ/٧٩٤ م ، فساروا الى المغيرة بدار الامارة وطردوه منها(١٣١) •

ورأى ابن الجارود ألا يكشف النقاب عن وجهه دفعة واحدة • فتظاهر بأن ما فعله لا يعني الخروج على الطاعة ، وكتب الى الفضل بن روح يبرر عمله بفساد المغيرة ، ولكنه بين عما يضمره في قرارة نفسه عندما انهى كتابه قائلا: « فعجل لنا من نرضاه يقوم بأمرنا ، وا لانظرنا لأنفسنا »(١٣٢) • ورد الفضل على ابن الجارود بأن « الله يجرى قضاءه على ما أحب الناس أو كرهوا » ، وحذره من مخالفة الوالى الجديد الذى سيره الى تونس ، وهو عبد الله بن يزيد المهلبى(١٣٣) الذى كان يصحبه : النضر بن حفص ، والقائد أبو العنبر ، والجنيد بن سيار(١٣٤) • وهنا كشف ابن الجارود عن نواياه فحرض عسكر تونس على الوالى الجديد ، فخرجوا واعترضوا طريقه بموضع يعرف بالزيتون بالقرب من سبخة تونس • وجرى جدل عنيف بين جند تونس الخراسانى ، وعلى رأسهم القائد منصور بن هميان وصاحبه وصاف ، وبين جند القيروان العربى انتهى بالحرب وانهزام عسكر الفضل ، ومقتل الوالى الجديد عبد اللهابن

---

(١٣٠) أنظر الرقيق ، ص ١٨٧ (حيث تفصيلات ما دار من الحديث بين الجند ومحمد ابن الفارسي وبينهم وبينه ابن الجارود) ، ابن خياط ج ٢ ص ٥١٠ • وما سبق من المصادر •

(١٣١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٦ (قالوا له : الحق بصاحبك أنت ومن معك) ، وقارن النويرى ، ص ٩٩ ب ، الترجمة ، ج ١ ص ٣٩٠ ، وأنظر أصل الرواية في الرقيق ، ص ١٨٧ ; قالوا . ترحل عنا وتلحق بصاحبك أنت ومن معك) •

(١٣٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٦ : حيث القراءة « عجل لنا من ترضاه •• » • والأصح ما فى ابن الأثير ، سنة ١٧٧ : « •• من ترضاه » ، وكذلك النويرى ، ص ١٠٠ أ ، والترجمة ج ١ ص ٣٩٠ ، وأنظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ٧٧ . وقارن الرقيق ص ١٨٨ : حيث الكتاب مخروم ولكن تظهر فيه جملة : « فول علينا من ترضاه » •

(١٣٣) أنظر النويرى ، ص ١٠٠ أ ، الترجمة ج ١ ص ٣٩٠ • ورواية النويرى التى ينقلها من الرقيق (ص ١٨٨) تحتوى على تفصيلات أكثر من رواية ابن عذارى (ج ١ ص ٨٦ — ٨٧ • واسم والى تونس الجديد هنا عبد الله بن محمد) ، ابن الأثير ، سنة ١٧٧ •

(١٣٤) النويرى ، ص ١٠٠ أ ، الترجمة ج ١ ص ٣٩٠ ، وقارن الرقيق ، ص ١٨٨ •

يزيد المهلبي ، وأسر كبار أصحابه (١٥٣) ٠

وهنا تقرر اعـــلان الخروج صراحة على الفضل بن روح ، وآل تدبير أمور ابن الجارود الى محمد بن يزيد الفارسي الذى كان بمثابة الرأس المدبرة لفتنة تونس ، فأخذ يكاتب القواد ويدعوهم الى الانضمام الى جانب ابن الجارود، ويعدهم بالترقي في القيادات العليا والمناصب الكبيرة(١٣٦) ٠ وكاتب ابن جارود بنفسه قواد مدينة باجة حيث كان بها جند من أهل خراسان فاجابه كثير منهم ، ومن غير أهل باجة من الخراسانية(١٣٧) ٠ وعندما أخذ الفضل علما بحشود ابن الجارود كتب الى عماله يأمرهم بالقدوم عليه بمن معهم من العساكر ، واستثنى من ذلك كلا من واليي الزاب وطرابلس ، وهما : العلاء ابن سعيد ، وأبو عينيه المهلبي(١٣٨) — خشية على الثغرين المتطرفين بعيدا عن القيروان ٠

ما بين الجند الخراساني والجند العربي :

ويفهم من رواية الرقيق أن أحوال معسكر الفضل بن روح كانت تسير من سيىء الى أسوأ ، حتى أنه عندما أراد شراء اخلاص الجند بالمال أتى هذا العمل بنتائج سلبية : فكان كثير منهم يأتون اليه فيأخذون أعطياتهم وينشرون سلاحهم ثم ينضمون الى رجال ابن الجارود ٠ وعندما أتى اليه عدد من زعماء الجند من العرب ، ومنهم : سعدون وأبو المغيرة ، وأبو عميلة ، « قام باعطاء كل منهم ٥٠٠ (خمسمائة) ،، درهم ، كان لذلك العمل رد فعل سيىء في نفوس جند القيروان من أبناء خراسان ٠ فقد قال بعضهم لبعض : « ويحكم ، كيف ترضون بهذا أن يقوى الفضل أهل الشام على أبنائنا ٠ وعلى هذا النسق

---

(١٣٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٧ ، وقارن الرقيق (ص ١٨٩ — ١٩٠) الذى ينقله النويرى (ص ١٠٠ أ ، الترجمة ج ١ ص ٣٩٠) : حيث تقول الرواية ان أتباع ابن الجارود هم الذين أشاروا عليه بالقبض على الوالى الجديد وأصحابه وحبسهم ، وانهم خرجوا — دون أمره — وأسروهم وقتلوا ابن يزيد ٠ أما ابن عذارى فلا يشير الى مقتل هذا الأخير ٠

(١٣٦) أنظر الرقيق ، ص ١٩٠ — ١٩١ ، وقارن أصل روايته في النويرى ، ص ١٠٠ أ ، الترجمة ج ١ ص ٣٩٠ — ٣٩١ ، وابن الأثير ، سنة ١٧٧ ج ٦ ص ٥٤ (حيث يورد تفصيلات عن كيفية افساد ابن الفارسي للقواد عن طريق تمنيتهم بالولاية لو نجحت الثورة وماتخفله سلتهم بالثوار لو فشلت الفتنة) ٠

(١٣٧) أنظر الرقيق ، ص ١٩١ ٠

(١٣٨) الرقيق ، ص ١٩١ — ١٩٢ ٠

أظهر عمال الفضل من الخراسانية عدم رغبتهم في القتال الى جانبه(١٣٩) .

وهكذا أصبح الصراع في افريقية على عهد الفضل بن روح وكأنه صراع طائفي او عصبي بين الخراسانية وعرب الشام . وكأننا عدنا الى سيرة الصراع في المشرق البعيد على أواخر أيام الدولة الاموية عندما قام الخراسانية برفع لواء الثورة العباسية . فابن الجارود صار ممثلا لجند خراسان . والفضل قائدا لجند عرب الشام .

عسكر تونس يهددون القيروان :

وعندما وجد ابن الجارود أن الظروف موانية سار نحو القيروان ، على طلائعه قواده من الخراسانية : فتح ووصاف وابن الدويدي . وعندئذ خرج الى لقائه عبد الله بن يزيد بن حاتم الذى ولاه الفضل قيادة حرب الثوار ، وبصحبته قواد الجند العربي : شبيبة بن حسان على المقدمة ، وفلاح بن عبد الرحمن الكلاعي على الطلائع . وعلي بن هارون الأنصاري على الميمنة ومعه سهيل بن حاجب وعامر بن نافع ، وكان على الميسرة قائد لم تعرف الا اسمه « عمر » ومعه آخر ، هو شراحبيل الازدي . ووقف الخصوم وجها لوجه في موضع يعرف بطمساس غير بعيد من العاصمة(١٤٠) .

وانتهى هذا اللقاء الأول بانهزام جند افريقية الخراساني أمام جند العرب من أهل الشام . مما شكك ابن الجارود في صدق نوايا حلفائه ، ولكن محمد بن الفارسي هدأ خاطره عندما أفهمه أن ما حدث لم يكن كسرة لقواته بل ارتدادا مقبولا من جانب طلائعه أمام جمهرة قوات خصومه عرب الشام(١٤١) . ونجح ابن الجارود فعلا في تقويم الموقف خلال يومين فقط فيما بين يوم الجمعة الذى انهزم فيه اصحابه ويوم الاحد التالي عندما عبأ جنده من جديد وزحف بهم نحو « طمساس » حيث كان عبد الله بن يزيد معسكرا .

وفي معركة يوم الأحد هذه حمل الجند الثائر حملة صادقة على عسكر القيروان فانهزم أغلبه ولم يصبر مع عبد الله بن يزيد الا القليل منهم . وباءت جهود ابن يزيد في تقويم الموقف بالفشل . فرغم أنه التجأ الى الخندق المحفور

---

(١٣٩) انظر الرقيق . ص ١٩٢ .

(١٤٠) الرقيق . ص ١٩٣ .

(١٤١) الرقيق . ص ١٩٣ .

أمام أسوار المدينة ، وأخذ العهد بالطاعة من عسكر القيروان من الخراسانية واهل الشام . فان هؤلاء لم يبادروا بالعودة الى مواقعهم الجديدة على الخندق . وأمام هذا المأزق قدم بعض قواد ابن يزيد اليه النصح بالعودة الى القيروان من حيث يمكنه معاودة القتال . وهكذا رجع ابن يزيد الى الفضل مهزوما بعد أن فقد عددا من كبار قواده مثل : هارون الانصارى الذى بقى فى أرض المعركة ، وأبى الاسود الحمصى الذى اخذ فى بعض الطريق وقتل . وتبع جند عبدوية من خراسانية وتونس المنهزمين من أهل القيروان التى أحاطوا بها الى وقت الغروب ، ثم انهم انصرفوا الى منية الخيل حيث أقاموا ليلتهم(١٤٢) .

وطلب الفضل النصيحة من بنى عمه المهلبيين ومن كبار مستشاريه ، ولكنهم لم يتفقوا على رأى . فبينما نصح لبعض بمغادرة القيروان والرحيل الى طرابلس ، رأى البعض أن الموقف ليس ميئوسا منه ونصح بالبقاء ومطاولة الخصوم . وأمام انقسام الرأى كان من الطبيعى أن يزداد الحال اضطرابا على الفضل الذى التبست عليه الأمور ، فلم يصح له رأى . ففى صبيحة اليوم التالى حاول الفضل أن يحكم الدفاع عن العاصمة ، فبعث المهلب بن يزيد الى باب سالم ، وفرق عساكره على بقية أبواب المدينة ، وبقى هو فى دار الامارة ينتظر الفرج ، وحوله جماعة من أهل بيته ، مثل خالد بن يزيد وأخيه عبد الله ، ومن المقربين من أصحابه ، مثل : جنيد بن خداش(١٤٣) .

سقوط القيروان بمعاونة الخراسانية ومقتل الفضل :

ولكنه ما أن أقبل ابن الجارود فى عسكره نحو القيروان حتى اتضح عقم هذه الاجراءات فعندما اقترب رجاله من الأسوار قام من كان بداخل المدينة من الجند الخراسانى الذين عرفوا باسم « الابناء » بسد باب سالم من الداخل وطردوا المدافعين عنه ألى الخارج . ثم انهم فتحوا الباب بعد ذلك لرجال عبدوية، كما فتحوا باب أبى الربيع ، وبذلك سقطت القيروان بين أيدى جند تونس دون عناء(١٤٤) ، وكأنها ثمرة ناضجة حان قطافها وهم أصحابها .

وتوقف ابن الجارود بعض الوقت خارج المدينة ثم انه دخلها ، واستولى

---

(١٤٢) الرقيق ، ص ١٩٤ .
(١٤٣) الرقيق ، ص ١٩٤ .
(١٤٤) الرقيق ، ص ١٩٤ — ١٩٥ .

على دار الامارة ، وأخرج منها الفضل وأصحابه بالأمان ، وسيرهم نحو قابس في حراسة قائده أبي الهيثم مع جماعة من رجاله(١٤٥) ، وذلك في جمادى الآخرة سنة ١٧٨/أكتوبر ٧٩٤ م(١٤٦) ·

وكانت مسألة اخلاء سبيل الفضل وتركه يسير نحو المشرق موضوع جدل بين قواد ابن الجارود · فلقد أشار البعض على هذا الأخير « ألا يسمح للفضل بدخول طرابلس لئلا يقوم الناس معه ويرجع الى القيروان ·· »(١٤٧) · والظاهر أن كفة هؤلاء رجحت آخر الأمر ، فقد خرج عدد من قواد ابن الجارود في اثر الفضل · وظن بعض أصحاب الفضل أن الثوار جاءوا ليردوه الى امارته بعد أن تابوا الى رشدهم · وعاد قواد ابن الجارود فعلا بالفضل الى القيروان بعد أن خلوا عن المهلبيين وعلى رأسهم المهلب (بن يزيد) الا اثنين منهم فقط ، هما محمد بن هشام والفضل بن يزيد ، ولكن ليلقوا بهم في الاعتقال في دار الفضل · وتناظر أصحاب ابن الجارود في أمر الفضل من جديد ، ورأى البعض أنه لا أمن ولا سلام طالما عاش الفضل · وحاول محمد بن يزيد الفارسي انقاذ رأس الفضل دون جدوى ، فقد قتل في شعبان من سنة ١٧٨ هـ/ نوفمبر ٧٩٤ م بعد سنة وخمسة أشهر من الولاية(١٤٨) ·

هكذا عندما كان الفضل يسعى لدى الرشيد للحصول على امارة افريقية وعزل ابن عمه نصر ، كان في الحقيقة يسعى الى حتفه بظلفه بل والى حتف أسرته جميعا · والظاهر أن انقسام أفراد الأسرة على أنفسهم كان من أسباب ضياعها اذ يذكر النويري أن ابن الجارود طرد من افريقية — بعد مقتل الفضل —

---

(١٤٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٧ — ويورد ابن عذارى تفصيلات يفهم منها أن أمر المهلبيين كان قد انتهى بالفعل الى القتل التام · فعندما خرج الفضل مع بني عمه من أحد أبواب القيروان الجنبية قال له البواب : « اخرجوا يا كلاب النار لا رحمكم الله ، فقال الفضل عنه دنت لا اله الا الله ، لم يبق أحد الا صار علينا ، حتى من اعتقاده » ، وقارن النويري ، ص ٩٠٠ ب ، والترجمة ج ١ ص ٣٩١ — الذي يذكر أن الفضل فر من دار الامارة ، أما الرقيق فللأسف يوجد بروايته خرم كبير في هذا الموضع (انظر ص ١٩٥) ·

(١٤٦) ابن الأثير ، أحداث سنة ١٧٧ ، ج ٦ ص ٥٥ ، وانظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ٧٨ — ٧٩ ·

(١٤٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٨ · وانظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ٩٤ — ٩٥ (حيث تقول الرواية ان نصر بن حبيب المهلبي ، الوالي السابق ، هو الذي أشار برد الفضل الى القيروان لأنه خاف أن يحاول العمل على استرداد ولايته فينتقم ابن الجارود منه هو) ·

(١٤٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٨ ، وقارن الحلة السيراء ، ج ١ ص ٧٩ ·

نصر بن حبيب (الوالي السابق) . وكذلك أبناء يزيد بن حاتم وهم المهلب وخالد وعبد الله(١٤٩) ، مما يفهم منه انهم وقفوا موقف المتفرج اثناء أزمة الفضل • وبذلك انتهت ، دولة المهالبة ، بافريقية بعد أن عاشت مدة ثلاث وعشرين سنة(١٥٠) •

وكان زوال الاسرة التى قررت الأمور حوالى ربع قسرن نذيرا بعودة الاضطراب الى افريقية طوال سبعة أشهر ، الى حين وصول هرثمة بن أعين واليا من قبل الرشيد • والنويرى الذى ينقل عن الرقيق يمدنا بتفصيلات الأحداث المتشابكة عن تلك الفترة بينما يوجزها ابن عذارى ايجازا • فقد أثار مقتل الفضل أشياء فى نفوس بعض قواد الاقاليم ، فقرروا مقاومة ابن الجارود • بدأ بذلك والى الاربس (Laribus) شمدون القائد . وانضم اليه القائد فلاح بن عبد الرحمن الكلاعى ، وكذلك المغيرة (ابن بشر والى تونس السابق ؟) . وغيرهما • وبعد فترة وجيزة خرج والى ميلة ، أبو عبد الله مالك ابن المنذر الكلبى ، على رأس قواته الكثيرة من جند حمص العربى ، لمعونتهم • وتم الاتفاق على أن تكون لابن المنذر القيادة ، ثم انهم ساروا لملاقاة ابن الجارود بعد أن دعوا كثيرا من الناس الى الانضمام الى جانبهم ، ونجح مالك فى لقاء أول مع عبدوية من هزيمته واجلائه عن القيروان الى مدينة تونس ، ودخل مالك القيروان واحتلها لمدة ٢٠ (عشرين) يوما • ولكن رجاله الذين كانوا يسعون الى سلب أهل القرى لم يلبثوا أن انفضوا من حوله ، مما سمح لابن الجارود بالعودة من تونس نحو القيروان حيث التقى بمالك مرة ثانية ، وانتهى الأمر بمقتل مالك وانهزام أصحابه الى الأربس • وحاول ابن الجارود أن يستولى على الأربس فوجه اليها واليا من قبله ، هو حماد بن حماد ، ولكن صاحبها شمدون نجح فى مفاجأته وهزيمته(١٥١) • وهنا رأى شمدون أن يستعين على عبدوية بوالى الزاب العلاء بن سعيد فكتب اليه يطلب منه الحضور • وجاء العلاء الى الأربس ، وسار منها نحو القيروان بصحبته المغيرة وأبى عملية وشمدون وفلاح ومن معهم من قواد أهل الشام(١٥٢) ، وكان ابن الجارود قد

---

(١٤٩) النويرى ، ص ١٠٠ ب ، الترجمة ، ج ١ ص ٣٩١ •

(١٥٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٨ •

(١٥١) أنظر الرقيق ، ص ١٩٥ (حيث النص مخروم من أوله) ، ابن الأثير سنة ١٧٧ ، وقارن النويرى ، ص ١٠٠ ب ، الترجمة ج ١ ص ٣٩١ • وأنظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ٨٤ (عن مقتل مالك) •

(١٥٢) أنظر الرقيق ، ص ١٩٦ ، النويرى ، ص ١٠٠ ب ، الترجمة ج ١ ص ٣٩١ ، وابن الأثير (سنة ١٧٧) •

خرج في ذلك الوقت من القيروان بعد أن استخلف عليها المفرج بن عبد الملك ، وذلك لنقاء يحيى بن موسى الذى قدم من طرابلس من قبل هرثمة بن أعين فى المحرم من سنة ١٧٩ هـ/ابريل ٧٩٥ م(١٥٣) .

محاولات من قبل الخلافة لاقرار الامور فى افريقية :

ولاية هرثمة بن أعين :

عندما علم الرشيد بثورة ابن الجارود واضطراب افريقية أرسل واحدا من كبار القواد ، ممن عرفوا بحسن بلائهم فى خدمة الدولة ، وكبر السن وعظم المقام بين جند خراسان ، وهو يقطين بن موسى ليقر الأمور هناك ، وأوصاه بالرزانة فى اقناع ابن الجارود بالخروج من افريقية . وعندما سيره الرشيد بعث معه المهلب بن رافع ثم اتبعه بالمنصور بن زياد بصحبة هرثمة ابن أعين الذى جعل اليه ولاية المغرب(١٥٤) ، ومعه يحيى بن موسى ، كما يقول ابن الأثير(١٥٥) . وتوقف هرثمة ببرقة انتظارا لما تسفر عنه مساعيه السلمية ، اذ سار يقطين بن موسى الى القيروان لمفاوضة ابن الجارود فى الخروج من البلاد . واعترف ابن الجارود بعهد أمير المؤمنين لهرثمة بولايته افريقية التى يعتبرها ثغرا ، وأعلن خضوعه وطاعته للخليفة ، ولكنه أشار الى أن هرثمة بعيد فى برقة وأن العلاء بن سعيد والى الزاب على رأس البربر يهدد القيروان ـ فلو أنه ترك البلاد (الثغر) لاستولى عليها البربر ولانتهى الأمر بتخلصهم من العلاء نفسه ، ولو حدث ذلك فلن يستطيع عامل لأمير المؤمنين دخولها أبدا . واقتراح ابن الجارود أن يسير للقاء العلاء فان هلك صارت بلاد القيروان الى يقطين ، وان كسب المعركة انتظر وصول هرثمة ليسلمه البلاد ، ثم يسير بعد ذلك الى أمير المؤمنين(١٥٦) .

---

(١٥٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٨ . وقارن النويرى ، ص ١٠١ ب (الذى يسمى خليفة ابن الجارود بالقيروان عبد الملك بن عباس) ، الرقيق ، ص ١٩٧ .

(١٥٤) النويرى ، ص ١٠١ أ ، الترجمة ، ج ١ ص ٣٩٢ ، وقارن الرقيق ، ص ١٩٧ .

(١٥٥) نلاحظ هنا أن ابن الأثير (سنة ١٧٧ ، ج ٦ ص ٥٥ ـ ٥٦) لا يفرق بين شخصيتى يحيى بن موسى ويقطين بن موسى فيجعلهما شخصية واحدة هى شخصية يحيى بن موسى . بينما التفرقة واضحة فى ابن عذارى وخاصة فى النويرى الذى يجعل مسير يقطين الى افريقية سابقة لمسير يحيى الذى صحب هرثمة ثم سبقه الى طرابلس والقيروان كما سنرى ، وهذا ما تؤكده رواية الرقيق (١٩٧) التى تعتبر أصلا لرواية النويرى ، رغم ما فيها من غموض .

(١٥٦) أنظر الرقيق ، ١٩٧ ـ ١٩٨ . وقارن النويرى ، ص ١٠١ أ ، الترجمة ، ج ١ ص

ويأس يقطين من ابن الجارود ، ورأى الاتصال بمحمد بن يزيد الفارسي ـ ساعده الأيمن ـ واغراه بابن الجارود ووعده بمنصب قيادي كبير (قائد ألف) وهدية سنية واقطاعا في أي مكان يختاره • وبدأ محمد بن الفارسي في اغراء أعوان ابن الجارود من الخراسانية . فدعاهم الى طاعة الخليفة ، كما نجح في لم شتات خصومه ممن كانوا محبوسين في السجن أو مستترين في الخفاء • وكان ممن انضم الى جانب ابن الفارسي . من زعماء الجند : شيبة بن حسان . والجنيد بن سيار ، والنضر بن حفص ، وغيرهم • وتم الاتفاق على أن يجتمع خصوم ابن الجارود هؤلاء مع ابن الفارسي بباب أبي الربيع بالقيروان . وهنالك خطب فيهم ابن الفارسي ، فحضهم على طاعة الخلافة ، وحذرهم من مغبة المعصية والانسياق وراء أهواء عبدويه • وطلب ابن الجارود المشورة من كبار قواده ، فأفهمه كل من : أبي العنبر والعباس النطيفي أن ابن الفارسي ما كان يمكنه التفكير في الثورة عليه بغير تدبير من رسول الخليفة يقطين بن موسى ، ونصحاه بالمبادرة الى تصفية حسابه معه قبل أن يعظم خطره اذا ما انضم برجاله الى العلاء بن سعيد • ووعى ابن الجارود هذا الدرس فسار الى باب أبي الربيع لقتال الخارجين عليه • وعندما تواجه الجمعان وطلب ابن الجارود من ابن الفارسي أن يتكلم معه على انفراد كأنه يريد أن يعاتبه ، وكان في الحقيقة يدبر له أمرا • فبينما شغل ابن الجارود صديق الأمس بالكلام فيما كان بينهما من الود والاخلاص ، كان قد رصد أحد فرسانه الذي يعرف بـ « طالب » لكي يفاجيء ابن الفارسي من الخلف بطعنة خنجر أصابت منه مقتلا • وحدث ما كان يتوقعه عبدوية ، اذ أصاب الفزع أتباع محمد بن الفارسي ، ففروا لا يلوون على شيء ، بعد أن تركوا قائدهم شيبة بن حسان صريعا في أرض المعركة(١٥٧) • ولكن المهم بعد ذلك هو أن ابن الجارود لم يستفد من انتصاره شيئا اذ انتهى الأمر بتأكيد انفصال المنشقين عنه من أصحابه •

بينما كانت تدور تلك الأحداث في افريقية وهرثمة في برقة ، كان

= ص ٣٩٢ (حيث يعدل النويري كلمة « ثغر » التي اراد بها ابن الجارود مدينة القيروان ـ كما فهم من الرقيق أكثر من مرة ـ الى كلمة « قلعة » ـ القيروان . وقارن ابن الأثير سنة ١٧٧ ج ٦ ص ٥٥ ـ ٥٦ •

(١٥٧) أنظر الرقيق ، ص ١٩٨ ـ ٢٠٠ ، وقارن النويري ، ص ١٠١ أ ـ ١٠١ ب الترجمة ، ج ١ ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣ (حيث اسم قاتل ابن الفارسي « أبو طالب ») ، ابن الأثير ، سنة ١٧٧ •

يحيى بن موسى نائب هرثمة في طرابلس قد أكد سلطانه هناك اذ يقول الرقيق الذي ينقل عنه النويري انه وصل الى طرابلس • وانه أم صلاة الاضحى وخطب خطبة العيد • وهناك قدم عليه كثير من رؤساء الجند من أعوان ابن الجارود ومن خصومه ، فقويت شوكته ، وكتب بذلك الى هرثمة(١٥٨) • وفي هذه الظروف غير المواتية رأى ابن الجارود أن يوجه أنظاره نحو يحيى بن موسى ، وأن يدعوه الى القدوم لتسلم القيروان خشية العلاء بن سعيد الذي كان يسير بحلفائه نحوها(١٥٩) • وخرج يحيى بن موسى من طرابلس في المحرم سنة ١٧٩ هـ/ابريل ٧٩٥ م نحو القيروان ، وما أن بلغ قابس حتى انضم اليه جند القيروان وعلى رأسهم النضر بن حفص وعمرو بن معاوية ، كما خرج ابن الجارود للقائه في صفر/ابريل ـ مايو ، بعد أن استخلف على القيروان المفرج بن عبد الملك ، كما ذكرنا(١٦٠) •

وكان خروج ابن الجارود من القيروان يعني أن المدينة أصبحت ثمرة ناضجة يمكن أن تقتطفها أول يد تمتد اليها • وفعلا دخل يحيى بن موسى والعلاء بن سعيد في سباق نحو القيروان انتهى بوصول العلاء أولا ، فقتل بها عددا من أصحاب ابن الجارود • وبعث يحيى الى العلاء يطلب منه أن يثبت طاعته للخلافة بأن يصرف أصحابه • وصرف العلاء عسكره الى بلادهم ، وسار هو مع ٣٠٠ (ثلاثمائة) من أصحابه المخلصين نحو طرابلس • وكان ابن الجارود قد وصل لتوه الى طرابلس فخرج عنها نحو المشرق وبصحبته يقطين بن موسى ، فالتقوا بهرثمة بن أعين الذي كان مقبلا نحو افريقية ، في مدينة اجدابية ، فسيره الى برقة حيث صحبه منصور بن زياد ويقطين بن موسى الى الخليفة هارون الرشيد (١٦١) • أما عن العلاء فانه كان قد كتب الى المنصور بن زياد وهرثمة بن أعين يبلغهما أنه هو الذي أخرج عبد الله بن

---

(١٥٨) انظر الرقيق ، ص ٢٠١ (حيث يذكر من القواد : أبو العنبر التميمي ، والجنيد ابن سيار الأزدي ، وجعفر بن محمد الربعي ، وشهاب بن حاجب التميمي ، وعبد الصمد العبدي ، ثم خالد بن بشير الأزدي الذي أقبل بعدهم يستعجل مسيرة يحيى الى القيروان) •

(١٥٩) انظر الرقيق ، ص ٢٠١ ، النويري ، ص ١٠١ ب والترجمة ، ج ١ ص ٣٩٣ ، وقارن ابن عذاري ، ج ١ ص ٨٨ الذي يكتفي هنا بالايجاز الشديد ، وابن الأثير ، سنة ١٧٧ •

(١٦٠) انظر فيما سبق ص ٢٨٦ وحاشية ١٥٣ • ويلاحظ أن نص الرقيق (ص ٢٠١)يجعل النضر وعمرو شخصا واحدا عندما يضع كلمة « بن » مكان حرف « و » •

(١٦١) انظر الرقيق ، ص ٢٠٢ ، النويري ، ص ١٠٢ أ ، الترجمة ج ١ ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤ ، وقارن ابن عذاري ، ج ١ ص ٨٨ ، ابن الأثير ، سنة ١٧٧ •

الجارود من افريقية ، فكافأه هرثمة بهدية سنية(١٦٢) ، كما أن الخليفة الرشيد عندما سمع بحسن بلائه بعث اليه بمائة ألف درهم وخلع عليه • ومات العلاء فى مصر بعد ذلك بقليل(١٦٣) •

أعمال هرثمة :

وبخروج ابن الجارود والعلاء بن سعيد من افريقية عاد الهدوء الى البلاد بعد أن اضطربت طوال سبعة أشهر منذ مقتل الفضل في شعبان ١٧٨ هـ ، وذلك أن هرثمة قدم للقيروان فى غرة ربيــــع الآخر سنة ١٧٩ هـ/يونية ٧٩٥ م(١٦٤) • ويفهم من الكتاب أن ولاية هرثمة التى استمرت حوالى عامين ونصف عام كانت أيام أمن وسلام في افريقية ، اذ يذكر أنه عندما وصل الى القيروان « أنس الناس وسكنهم وأحسن اليهم(١٦٥) •

والحقيقة انه لا توجد الا اشارات عابرة لبعض الاضطرابات التى وقعت فى المغرب على أيام هرثمة • ومن ذلك ما يقوله ابن عذارى(١٦٦) من أن هرثمة نزل تيهرت حيث هزم (ابن الجارود) وأطاعته البربر • وربما كان ذلك اشارة الى عمليات عسكرية قام بها هرثمة ضد اباضية تاهرت الذين هادنهم روح بن حاتم(١٦٧) ، اذ المعروف أن ابن الجارود لم يبد مقاومة لقوات الخلافة كما أن ثورته كانت تمثل اضطراب العسكر الخلافي ولا تمثل ثورة البربر • أما عن هؤلاء الأخيرين فهنـــاك ذكر فى ابن الأثير(١٦٨) — بمناسبة تولية

---

(١٦٢) النويرى ، ص١٠٣ أ ، الترجمه ج ١ ص ٣٩٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٨ •

(١٦٣) أنظر الرقيق ، ص ٢٠٢ ، النويرى ص ١٠٢ أ ، الترجمة ج ١ ص ٣٩٤ ، ابن الاثير ، سنة ١٧٧ ، ج ٦ ص ٥٦ •

(١٦٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٩ ، النويرى ، ص ١٠٢ أ الترجمة ج ١ ص ٣٩٤ ، ابن الاثير سنة ١٧٧ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، قسم ٣ ص ١١ • وانظر الرقيق ، ص ٢٠١ — حيث النص على أن أيام عبد الله بن الجارود كانت سبعة أشهر (والحلة السيراء ، ج ١، ص ٨٤) • اما عن أعمال هرثمة فهى تأتى فى نص الرقيق المنشور فى غير موضعها بعد الكلام عن ولاية محمد بن مقاتل وكان يمكن للمحقق أن يضعها فى موضعها فى ص ٢٠٢ • وانظر ص ٢٠٤ حيث وصول هرثمة فى سنة ١٧٧ هـ بدلا من ١٧٩ هـ •

(١٦٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٩ ، النويرى ، ص ١٠٢ أ ، الترجمة ج ١ ص ٣٩٤ ، وقارن الرقيق ، ص ٢٠٤ (حيث النص « وآمن الناس » بدلا من أنس الناس) •

(١٦٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٩ •

(١٦٧) النويرى ، المخطوط ، ص ٩٩ أ •

(١٦٨) ابن الأثير ، سنة ١٧٧ ، ج ٦ ص ٥٦ •

هرثمة لابراهيم بن الاغلب بعض نواحي الزاب ـ لثورة قام بها عياض بن وهب الهوارى ومعه كليب بن جميع الكلبى ، ولكن هرثمة سير الى الثوار يحيى ابن موسى في جيش كبير فهزمهم وقتل كثيرا منهم ٠

والى جانب ذلك ينسب الكتاب الى هرثمة أعمالا عمرانية قام بها ، مثل بنائه في سنة ١٨٠ هـ/٧٩٦ م للقصر الكبير المعروف بالمنستير ، بمعرفة زكريا بن قادم(١٦٩) . وهو الرباط المشهور بالقرب من سوسة الذى سيصبح أشهر ربط سواحل المغرب على الإطلاق(١٧٠) ، كما ينسب اليه بناء سور مدينة طرابلس من جهة البحر(١٧١) ٠ وهذا يعني أن هرثمة اهتم بتحصين سواحل افريقية ضد العدو البحرى ، وذلك أن بيزنطة كانت تهدد تلك السواحل من جزائر البحر وخاصة من جهة صقلية ٠

ورغم ذلك الهدوء الداخلي فان ولاية هرثمة لم تطل الا الى رمضان من سنة ١٨١ هـ/أكتوبر سنة ٧٩٧ م عندما ترك البلاد ، بعد أن طلب من الرشيد أن يعفيه من الولاية ، لما رآه من اختلاف أهل افريقية وسوء طاعتهم ، كما يقول الكتاب(١٧٢) ٠

ولاية محمد بن مقاتل العكي ، واستمرار اضطراب العسكر الخلافي :

وحسب السياسة التى أصبحت تقليدية عهد الرشيد الى أحد كبار رجال الدولة بولاية افريقية ، وهو محمد بن مقاتل بن حكيم العكى أخوه في الرضاعة ٠ ووصل محمد بن مقاتل الى افريقية في أول رمضـــان من سنة ١٨١ هـ/١٣ أكتوبر ٧٩٧ م(١٧٣) ، بمعنى أن هرثمة بقى في افريقية الى

---

(١٦٩) أنظر الرقيق ، ص ٢٠٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٩ ، النويرى ، ص ١٠٢ أ ، الترجمة ج ١ ص ٣٩٤ ، البكرى ، ص ٣٦ ، ابن الأثير سنة ١٧٧ ، ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص ٤٧ (على يد زكريا بن قادم) ٠

(١٧٠) عن صلة رباط المستير أنظر البكرى ، ص ٣٥ ـ ٣٦ ، وقارن الاستبصار ، ص ١٢٠ وهامش ١ ، رحلة التجانى ، ص ٣٠ ـ ٣٣ ٠

(١٧١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٩ ، النويرى ، ص ١٠٢ أ ، الترجمة ، ج ١ ص ٣٩٤ ، ابن الأثير ، سنة ١٧٧ ، وقارن الرقيق ، ص ٢٠٤ ، ابن الخطيب ، الاعلام ، قسم ٣ ، ص ١٦ ٠

(١٧٢) أنظر الرقيق ، ص ٢٠٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٩ ، النويرى ، ص ١٠٢ أ الترجمة ، ج ١ ص ٣٩٤ ٠

(١٧٣) أنظر ابن الأثير ، سنة ١٨١ هـ (حيث التاريخ أول رمضان/١٣ أكتوبر) ٠ =

حين وصوله . ولم تطل ولاية ابن مقاتل الا الى أقل من ثلاث سنوات . اذ انتهى الأمر باضطراب الجند الخلافي وكادت تتكرر مأساة الفضل بن روح من جديد ، لولا تدخل القائد ابراهيم بن الأغلب الذى آلت اليه الامارة في جمادى الآخرة من سنة ١٨٤ هـ .

ويعزى الكتاب أسباب الاضطراب الى سوء سيرة محمد بن مقاتل في الجند ، وتعني عادة اقتطاع مخصصاتهم أو التباطؤ في صرف أرزاقهم ، وكذلك في الرعية . وبلغ من سوء تقديره أنه تطاول على « عابد زمانه وورع عصره البهلول بن راشد فضربه ظلما وحبسه ، فكان ذلك سبب موته »(١٧٤) . وهكذا بدأ اختلال أمر الجند باعتزال القائد فلاح مع جند خراسان وجند الشام الذين اتفقوا على تقديم مخلد بن مرة الأزدى ، ولكن ابن مقاتل استطاع أن يقضى على ذلك العصيان ، فهرب مخلد ولجأ الى أحد المساجد حيث أخذ وقتل(١٧٥) . أما أخطر الثورات فهى التى قام بها واحد من الجند المعروفين بـ « الأبناء » أى أبناء أهل البلاد تمييزا لهم عن الوافدين ، وهو تمام بن تميم التميمى(١٧٦) ، في مدينة تونس ، والتى تذكر بثورة ابن الجارود في نفس المدينة ، وهى التى انهت ولاية ابن مقاتل ، ومهدت لقيام حكم الأغالبة في افريقية .

ثورة تمام بن تميم وطرد ابن مقاتل من القيروان :

بدأت الثورة في منتصف رمضان سنة ١٨٣ هـ/٢٠ أكتوبر ٧٩٩ م

= وقارن الرقيق ، ص ٢٠٣ (الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٨٩) حيث التاريخ هو شهر رمضان (أكتوبر — نوفمبر) دون تحديد اليوم .

(١٧٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٩ ، وقارن الرقيق ، ص ٢٠٣ ، ص ٢٠٤ . ابن الخطيب ، الاعلام ، قسم ٣ ، ص ١٢ . وعن البهلول بن راشد (ولد سنة ١٢٨ هـ وتوفى ١٨٣ هـ) أنظر المالكى ج ١ص ١٤١—١٤٢ ، والدباغ ، معالم الايمان ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(١٧٥) أنظر النويرى ، (٢ —١٠ ب) الذى يذكر القائد فلاح فى شكل « العابد فلاح » مما يلفت النظر الى محنة البهلول بن راشد ، وقارن الترجمة (ابن خلدون ج ١ ص ٣٩٥) . أما عن مقتل مخلد فانظر ابن الأثير ، سنة ١٨١ ، وقارن الرقيق ، ص ٢٠٥ (حيث لا يذكر نهاية الأزدى ويسميه مرة بن مخلد) .

(١٧٦) أنظر تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٥١٠ . وتمام هذا هو جد أبى العرب ابن تميم صاحب التواليف ومن أشهرها طبقات افريقية ، أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٠ ، ابن الأثير ، سنة ١٨١ ، الرقيق ، ص ٢٠٥ . وأنظر فيما بعد عن مفهوم « الأبناء » (ج٢ — ثورة خريش الكندى على ابراهيم بن الأغلب فى تونس ثم عن ثورة الجند في طرابلس بعدها).

عندما سار تمام مع جند تونس من الخراسانية والشاميين الى القيروان • وخرج محمد بن مقاتل لحرب القائد الثائر ، وتم اللقاء في الموضع المعروف بمنية الخيل بالقرب من القيروان . وانتهى القتال الشديد بانهزام ابن مقاتل الذى عاد في ٢٥ من رمضان سنة ١٨٣ هـ/٣٠ أكتوبر ٧٩٩ م الى القيروان حيث تحصن في داره وترك دار الامارة(١٧٧) • وأتى تمام وعسكر أمام القيروان . خلف الوادى ، بازاء باب أبى الربيع حيث مصلى روح بن حاتم • وفي صبيحة اليوم التالى فتحت له الأبواب دون قتال ، ودخل القيروان حيث أعطى العكى الأمان في دمه وأهله وماله على أن يغادر البلاد(١٧٨) • وبذلك أخرج تمام والى الخلافة محمد بن مقاتل من القيروان بعد سنتين من ولايته(١٧٩) ، وتغلب على البلاد دون عهد من الرشيد • وسار ابن مقاتل مشرقا نحـــو طرابلس والظاهر أن خروجه من القيروان كان موضع جـــدل بين فريق من الجنـــد الخراساني ، من معاونيه ، اذ لم يلبث أن حاول اللحاق به في طرابلس . كل من : عباس بن طرخون صاحب شرطته ، وأبو العنبر كاتبه من أجل تدارس الأمر معه • ولما كان ابن مقاتل قد رحل الى سرت ، خـــارج حيز افريقية ، حيث أقام ، فانهما قررا مكاتبته يطلبان منه العودة الى طرابلس ، فرجع اليها(١٨٠) • وبعد أن أقام بطرابلس بعض الوقت سار الى مدينـــة سرت(١٨١) •

تدخل ابراهيم بن الأغلب لمصلحة الوالى الشرعي :

ولم يقدر لتمام أن يتمتع طويلا بتغلبه على القيروان ، اذ لم يلبث ابن

---

(١٧٧) ابن عذارى . ج ١ ص ٩٠ . النويرى . ص ١٠٢ ب . الترجمه ج ١ ص ٢٩٥ . الرقيق . ص ٢٠٥ •

(١٧٨) ابن عذارى . ج ١ ص ٩٠ . النويرى . ص ١٠٢ ب . والترجمه ج ١ ص ٢٩٥ . ابن الأثير . سنة ١٨١ ، وقارن الرقيق . ص ٢٠٥ — ٢٠٦ (الحله السيراء ج ١ ص ٨٩) •

(١٧٩) انظر ابن عذارى (ج ١ ص ٩٠) الذى يقول هنا : « فكانت ولايته الى أن اخرجه تمام من القيروان سنتين وعشرة اشهر » . والحقيقة ان خروج ابن مقاتل هذا كان بعد سنتين فقط (من رمضان سنة ١٨١ هـ الى رمضان سنة ١٨٣ هـ) • أما ما يقصده ابن عذارى هنا فهو مغادرة ابن مقاتل لافريقية نهائيا بعد ذلك بعشرة أشهر كما سنرى •

(١٨٠) انظر الرقيق . ص ٢٠٦ . ابن عذارى ج ١ ص ٩٠ (حيث اسم صاحب الشرطة ابن طرحون التى عدلناها الى طرخون . على أساس انه اللقب الشرقى المعروف بمعنى الامير أو الملك مثل « طرخان ») . وقارن النويرى ص ١٠٢ ب . والترجمة ج ١ ص ٣٩٥ (حيث يفهم من النص أن مقاتلا سار الى سرت بعد أن لحق به كاتبه وصاحب شرطته) •

(١٨١) النويرى . ص ١٠٢ ب . الترجمة ج ١ ص ٣٩٥ •

مقاتل أن يعود الى القيروان بفضل تدخل والى الزاب ابراهيم بن الأغلب ، كان ابراهيم بن الأغلب في مرتبة بين القواد أعلى من مرتبة قريبه وابن عمه تمام بن تميم فساءه أن يتغلب هذا الأخير على البلاد ، وهو يقف منه موقف المتفرج رغم ما كان بينه وبين العكي من سوء تفاهم(١٨٢) . وخرج ابن الأغلب بعرسان هل بيته وقرابته ، كما سار معه كبار القواد من خاصته ، مثل : عمرو بن معاوية ، وعمران بن مجالد ، وحماد بن أبي حماد ، وعلى طـــول الطريق من الزاب الى القيروان كانت قوات ابراهيم تزداد عدداً بمن ينضم اليها من جنود أهل خراسان ومن عامة الناس . وما أن شعر تمام باقتراب مقدمة ابن الأغلب التي كان يقودها عمران بن مجالد ، حتى أخلى القيروان وعاد الى بلدته تونس . ودخل ابن الأغلب العاصمة وعلى مقدمته عمران بن مجالد ، وسار الى المسجد الجامع مباشرة ، وأعلن من أعلى المنبر أنه أتى لنصرة محمد ابن مقاتل والى أمير المؤمنين الشرعي ، ثم انه كتب الى ابن مقاتل يخبره بما فعله ويطلب منه العودة الى مركز ولايته(١٨٣) .

عودة ابن مقاتل في جو من السخط العام ، وهزيمة تمام على يدي ابن الأغلب:

وعاد ابن مقاتل فعلا الى القيروان ، ولكنه يفهم من الروايات أن عودته لم تقابل بارتياح ، لا في القـــيروان ولا في تونس . ففي القيروان ، نادته امرأة من طاقتها وقالت له : اشكر ابراهيم بن الأغلب فهو الذي رد عليك ملك افريقية »(١٨٤) . وفي تونس قال الناس : « استرحنا من العكي ، فرده ابراهيم علينا ! فالموت خير لنا من الحياة في سلطان العكي »(١٨٥) . وهكذا

---

(١٨٢) هذا ما تعبر عنه رواية الرقيق ، عندما تسجل على لسان ابراهيم بن الأغلب أنه قال لأهله عندما طلب العكي معونته : « لقد كنا بهذا الرجل في واد وهو لنا في آخر ، أنا بالأمس أطلب العرض لأستعين به في قتاله، وقد جاءني اليوم كتابه ، يسألني أن أقدم عليه حتى آمن له الأمان وأصلح أمر الناس ، فقد استمروا على الرضا بما حكمت بينهم وبين ابن العكي » (انظر الرقيق ص ٢١٦ - ٢١٧) .

(١٨٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٠ ، النويري ، ص ٣٠٣ ، المرجعة ، ج ١ ص ٣٩٥ ، ابن الأثير ، سنة ١٨١ ج ٦ ص ٦٣ ، الرقيق ، ص ٢٠٦ - وانظر بعدها ص ٢١٦ - ٢١٩ ، حيث توجد معلومات تفصيلية عن محاولة ابراهيم التزود بقرض من تجار الزاب ، ولكنهم خافوا أن يهزم من قلة رجاله ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لأهل بيته ، وكيف زوده هؤلاء بالمال ويسمين فارسا كانوا اصل قوته وعدته ، والرواية متقبية على وجه العموم) .

(١٨٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٠ ، وقارن الرقيق ، ص ٢٠٧ .

(١٨٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٠ ، وانظر الرقيق ، ص ٢٠٧ (حيث مزيد من التفصيلات عما دار بين تمام والمقربين من قواده ، مثل : عيسى بن الجلودي وعباس الصليفي ، من الكلام ، وما فعلوه من مكاتبة الناس ونجاحهم في ملء قلوب الناس حقداً على العكي ، وكراهة لحكمه) .

انضم كثير من الناس الى تمام ، ودفعه ذلك الى التفكير في قتال ابن مقاتل وطرده من جديد . ورأى تمام أن يجرب أولا الوقيعة بين ابن مقاتل وبين ابن الأغلب ، ودفعه الى ذلك أنه كان يعتقد أن العكي حسود ، وأنه « لابد أن يخالف ابراهيم بن الأغلب »(١٨٦) فكتب تمام الى ابن مقاتل يقول ان ابراهيم لم يعمد الى ولايته ردا للجميل ، ولا طاعة للخلافة ، بل ليسلمه للقتل على يديه . وختم كتابه بانذاره بشن الحرب عليه كما فعل بالأمس ، وببيتين من الشعر يعبران عن مضمون خطابه(١٨٧) .

وعرض محمد بن مقاتل خطاب التميمي على ابن الأغلب الذى أظهر تعجبه من محتواه ثم ان ابن مقاتل كتب الى تمـــام يسفه رأيه ، ويبين له خيانته وخديعته ويهدده بسوء المصير عندما يلقى ابراهيم بن الأغلب . وختم ابن مقاتل — بدوره — رسالته ببيتين من الشعر كانا بمثابة اعلان الحرب على تمام(١٨٨) . وبمجرد وصول هذا التحدى الى تونس سار تمام من المدينة على رأس جيش كثيف نحو القيروان ، وخرج ابراهيم بن الأغلب للقائه وبصحبته عمران بن مجالد ، وعمرو بن معاوية ، يتبعهم ابن مقاتل فيمن كان لديه من الرجال . وتم اللقاء فيما بين منية الخيل وطسماس في حيز القيروان ، وانتهت المعركة الحامية بمقتل عـــدد كبير من أصـــحاب التميمي الذى انهزم الى تونس(١٨٩) . وأمر العكي أن يسير ابن الأغلب الى تونس للقضاء على الثائر نهائيا بينما عاد هو الى القيروان .

---

(١٨٦) نفس المصدر .

(١٨٧) نص البيتين هو :

جعل كان ابراهيم من فضــل ضـــعة	يرد عليك الملك لا كـــن لتقتـــلا
فلو كنت ذا عقـــل وعلم بكيـــده	لما كنت منه يا ابن عمـــك لتقبـــلا

انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٠ ، وقارن الرقيق ، ص ١٠٨ ، النويرى ، ص ١٠٣ آ ، الترجمة ، ج ١ ص ٣٦٦ (حيث الشطرة الثانية من البيت الأول « يرد عليك الثغر الا لتقتلا » ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ٨٩ .

(١٨٨) وانى لأرجو أن لقيتابن أغلب	غـــدا فى المنـــايا أن تفـــل وتقتلا
فلاقى فتى يستصحب الموت فى الوغى	ويحمى بصـــدر الرمح عـــزا مؤثلا

انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٩١ ، وقارن الرقيق ، ص ٢٠٨ — ٢٠٩ (الحلة السيراء ، ج ١ ص ٩٠) . النويرى ، ص ١٠٣ ب ، الترجمة ، ج ١ ص ٣٦٦ (حيث الشطرة الثانية من البيت الأول : « غداة المنايا ان تفل وتقتلا ») .

(١٨٩) الرقيق ، ص ٢٠٩ ، ص ٢١٩ — ٢٢٠ : حيث توجد معلومات تفصيلية عن خطة المعركة التى رسمها ابراهيم بن الأغلب ، اذ جعل أحد رجاله ، وهو حمزة الحرون ، يقف مكانه فى القبة لا يتحرك ، بينما أخذ هو يعطى تعليماته لقواد الميمنة والميسرة والقلب . =

وقعت تلك الأحداث قبيل نهاية العام (١٨٣ هـ/نهاية ٧٩٩ م وأوائل ٨٠٠ م) وذلك أنه عندما أقبـــل شهر المحـــرم من سنة ١٨٤ هـ/فبراير ٨٠٠ م ، كان ابراهيم بن الاغلب يسير نحو تونس • وما أن عرف تمـــام باقباله عليه حتى كتب اليه يطلب الأمان(١٩٠) • وبذلك انتهت ثورة الجند في تونس ، وعاد ابن الأغلب الى القيروان في يوم الجمعة ٨ من المحرم/٨ فبراير ، وبصحبته التميمي الذي سير به وبعدد من قواد الجند الذين اتخذوا من الثورة صناعة لهم الى بغداد حيث ألقي بهم في السجن الأرضي المعروف بالمطبق(١٩١) •

ابراهيم بن الاغلب رجل الخلافة في المغرب :

وكان من الطبيعي أن يقدر الرشيد لابراهيم بن الاغلب حسن بلائه في اقرار الأمور ، والعمل باخلاص على حفظ هيبة الخلافة في افريقية • ولم يكن

= وكانت الخطة تقضي بخداع قوات تمام اذ أمر بالبدء بهجوم محل على الميمنة ثم على الميسرة على أن توجه الضربة القاضية بعد ذلك الى القلب ، يتبعها هجوم شامل على الجناحين (الحلة السيراء ، ج ١ ص ٩٧ . وأنظر النويري ، ص ١٠٣ ب ، الترجمة ، ج ١ ص ٣٩٧ ، ابن عذارى ج ١ ص ٩١) •

(١٩٠) الرقيق ، ص ٢١٠ ، ونفس المصدر •

(١٩١) النويري ، ص ١٠٣ ب ، الترجمة ، ج ١ ص ٢٩٧ (•• بعث تمام بن علقمة وغيره من وجوه الجند الذين شأنهم الوثوب على الأمراء الى بغداد فحبسوا في المطبق) ، وقارن الرقيق ، ص ٢١٠ – ٢١١ : حيث « الطبق » بدلا من المطبق • وحيث مزيد من التفصيلات عن مسير اخي تمام الى بغداد حيث احتال لرؤية أخيه في المطبق ، ثم نجح في مقابلة الرشيد وعرفه بأنهم من نسل قائد للمنصور • وتقول الرواية ان الرشيد أكرمه ووعده باطلاق سراح أخيـــه تمام . ولكن ابراهيم بن الأغلب دبر مقتل هذا الأخير بالسم ، وهو في سجنه ببغداد • فكان عطف الخليفة من نصيب قائدي تمام ، وهما : عيسى بن الجلودي وعباس الصليقي • فقـــد ولى الأول الحرمين ، والآخر ولاية أخرى • أما أخو تمام وهو مسلمة بن تميم فقد سار بسجل من الرشيد الى ابراهيم بن الأغلب الذي أحسن الى التميميين ورفع عنهم خراج ما كان لهم من الضياع ، واستعان بهم في الأعمال (الحلة السيراء ، ج ١ ص ٩٣) • هذا ، ولو أن الامر يختلط في رواية الرقيق فيما بعد ، بصدد ولاية ابراهيم بن الأغلب (أنظر ص ٢٢١ – ٢٢٢) اذ تشير الى أن ابن الأغلب عهد بولاية طرابلس الى تمام ، سياسة ، قبل أن يظفر به على بني جعفر بن سعيد ، وجوين بن السماك ، ويبعث به مشدود الوثاق بصحبة من كان يتوثب على الولاة من الجند ، مثل : عباس الصليقي ، وأبي الميل ، وعيسى الحليق وغيرهم • « وانظر الحلة السيراء » ، ج ١ ص ١٠٨ : حيث يشير الى مشاركة حمزة السبال المعروف بالمحرون في حرب تمام وما قيل في ذلك من الشعر •

من القريب اذن أن يعهد اليه بالولاية بدلا من ابن مقاتل ، وذلك حوالى منتصف شهر جمادى الآخرة من سنة ١٨٤ هـ/يولية ٨٠٠ م .

وكانت ولاية ابراهيم بن الأغلب بداية عهد جديد بالنسبة لافريقية اذ توارث أبناء ابراهيم حكم البلاد وأسسوا أسرة ملكية جديدة في المغرب تدين بالولاء للخلافة شكلا ، وتتمتع بالاستقلال عن بغداد فعلا . فذلك ما يقدم به النويرى لكلامه عن الأغالبة فيقول : « فلما قامت هذه الدولة كانت كالمستقلة بالأمر ، وانما كانت ملوكها تراعي أوامر الدومة العباسية ، وتعرف لها حق الفضل والأمر ، وتظهر طاعة مشوبة بمعصية ، ولو أرادوا عزل واحد منهم والاستبدال به من غير البيت لخالفوهم » .

وعلى ذلك كان الأمير الأغلبي يعهد بالامارة من بعده لابنه أو لأخيه تبعا لرغبته ، ودون اعتبار لما للشخص الموصى اليه من « الأهلية » ، كل ذلك وقواد الجيش لا يعارضون(١٩٢) .

---

(١٩٢) أنظر النويرى - ص ١٠٤ ؛ المرجمة (ابن خلدون) ج ١ ص ٣٩٧ .

الفهرس

أسماء الأشخاص والقبائل والجماعات

(خ)

(د)

(ر)

أسـماء البلدان والمواضـع وغيرها

(ب)

(ت)

(ج)

(ك)

(ل)

(ى)

رقم الايداع ٥٢٥٨/١٩٧٨
الترقيم الدولى ٩ ـ ٢٠ ـ ٧٣٠٧ ـ ٩٧٧

